جواهر لال نهرو



لمحات من تاريخ العالم



منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

لمحات من تاريخ العالم

جواهر لال نهرو

لمحات من تاريخ العالم

نقله إلى العربية

لجنة من الأساتذة الجامعيين

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

طبعة جديدة
مراجعـة ومنقحـــة
١٩٧٩



جواهر لال نهرو

- ولد في ١٤ نوفمبر ١٨٨٩ في مدينة الله اباد في الهند
- التقى لاول مرة بغاندي في ديسمبر ١٩١٩
- اعتقل وزوجته وافرج عنهما عشرات المرات لنشاطهما القومي التحرري
- انتخب رئيسا (لحزب المؤتمر الهندي الوطني) عدة مرات
- دخل الوزارة وتولى الشؤون الخارجية والصحة العامة واصبح نائبا لرئيس المجلس التنفيذي
- تولى رئاسة الوزارة الهندية عدة مرات
- يعتبر احد كبار قادة العالم في هذا العصر
- له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة والوطنية

مقدمة الترجمة

ايها القارىء الكريم :

نضع بين يديك ترجمة كتاب « لمحات من تاريخ العالم » للبانديت جواهر لال نهرو ، آملين ان تجد فيه فائدة ومتعة .

لم يقصد نهرو من كتابه شرح تاريخ مفصل للعالم ، وانما قصد اعطاء القارىء لمحات من هذا التاريخ . والكتاب مجموعة لرسائل كان يبعثها نهرو لابنته انديرا بينما كان يتنقل من سجن الى سجن في الفترة الواقعة بين اكتوبر ١٩٣٠ واغسطس ١٩٣٣ . ولم يكتف نهرو باختيار الحوادث التاريخية الهامة (التي يدرسها الطلاب في المدارس عامة) بل تطرق الى ذكر الاسباب التي تكمن وراء هذه الاحداث باسلوب قصصي ممتع . وهذا هو السر في عظمة هذا الكتاب القيم .

وقد اخترنا من الكتاب ٦٢ فصلًا تقع في حوالي ٤٠٠ صفحة من النسخة الانجليزية ، لأن هذه الفصول تعالج الامور التي يهم القارىء العربي ان يعرف شيئاً عنها . وهذه الفصول تدور حول تاريخ العرب والمسلمين والاحداث التي تلت الحرب العالمية الاولى .

لقد ترجم الاستاذ احمد بهاء الدين بعض فصول هذا الكتاب ونشرها في كتاب اسماه « الثورات الكبرى » ، ولكننا اردنا ألا نقتصر على موضوع الثورات .

ونود ان نلفت نظر القارىء الكريم الى ان هذه الرسائل كتبت قبل نيف وعشرين عاماً ، واننا تركنا آراء نهرو كما هي دون ان نضيف اليها او نحذف منها شيئاً سعياً وراء وضع ترجمة امينة ، دون تحبيذ فكرة ونبذ فكرة اخرى او تفضيل رأي على رأي .

وختاماً نرجو الله العلي القدير ان يكون هذا الكتاب وسيلة لخدمة قراء العربية ، والله ولي التوفيق ..

مقدمة

بقلم جواهر لال نهرو

١ يناير ١٩٣٤

لا اعلم متى واين ستنشر هذه الرسائل او اذا كانت ستنشر في يوم من الايام فالهند اليوم بلد عجيب والتنبؤ بما سيجري امر صعب . ولكني اغتنم الفرصة فاكتب هذه السطور قبل ان تحول الحوادث دون ذلك .

تحتاج هذه السلسلة من الرسائل التاريخية الى اعتذار وايضاح ، وربما وجد القراء الذين يتجشمون مشقة قراءتها هذا الاعتذار والايضاح ضمن الرسائل نفسها. وألفت نظر القارىء الكريم بوجه خاص الى الرسالة الاخيرة ، ولعل من الخير في هذا الزمان الذي انقلبت فيه الاوضاع ان نبدأ من النهاية .

لقد نما عدد الرسائل مع انها لم توجد نتيجة تصميم سابق – ولم افكر قط في انها ستكثر الى هذا القدر . فقبل ست من السنين وعندما كانت ابنتي في العاشرة من عمرها كتبت لها عدداً من الرسائل ضمنتها شرحاً موجزاً بسيطاً لتاريخ العالم في ايامه الاولى . وطبعت تلك الرسائل في كتاب استقبله القراء استقبالاً حاراً . وظلت فكرة متابعة هذه الرسائل تدور بخلدي ، ولكن الحياة المليئة بالنشاط السياسي منعت هذه الفكرة من الظهور الى حيز الوجود ، الى ان اتاح لي السجن الفرصة التي اعوزتني ، فاغتنمتها

ان لحياة السجن فوائدها لأنها تهيىء جواً من الراحة والعزلة اما مساوئها فبينة واضحة ، ان السجن يخلو من المكتبات او المراجع التي يستعين بها السجين وهذا يجعل الكتابة في اي موضوع وخصوصاً موضوع التاريخ،عملا شاقاً اقرب الى الجنون . لقد وصلتني بعض الكتب ولكني لم استطع ان احتفظ بها

فمنذ اثني عشر عاماً حينما بدأت مع عـــدد كبير من المواطنين والمواطنات الحج الى السجون ، نمت عندي عادة كتابة الملاحظات حول الكتب التي اقرأها. وتكاثرت هذه الملاحظات ، وكانت اكبر عون لي يوم شرعت اكتب وهناك من الكتب الاخرى ما استفدت منه فائدة جمة ، واهمها مختصر التاريخ لمؤلفه د. ج. ويلز . ولكني كنت في مسيس الحاجة الى المراجع ، ولهذا كان السياق يضطرب معي مراراً فاضطر الى تجاوز فترات معينة من التاريخ

وهذه رسائل شخصية ، وفيها من كلام القلوب ما كان موجهاً لابنتي فقط . ولا ادري ما الذي افعله بهذه الاقسام ، فان حذفها امر صعب ، ولا يسعني الا الابقاء عليها .

والسكون يقود الى التأمل ويثير شتى الانفعالات النفسية . واخشى ان تظهر هذه الانفعالات المتذبذبة في هذه الرسائل . واعترف ان الاسلوب الذي عالجت به المواضيـــع لم يكن بالاسلوب المثالي الذي يتوخاه المؤرخون . ولا ادعي انني مؤرخ ، ومن الصعب ان يوفق المرء بين كتابة التاريخ والكتابة الى الصغار عن امور تتعلق بحياة الكبار وآرائهم . وكثيراً ما كررت بعض الامور ولا شك ان في الرسائل اخطاء لا يحصيها عد ، فهي صور سطحية وصل بينها خيط واه دقيق . بيد اني اقتبست الآراء والوقائع من كتب ورسائل متفرقة ،ولربما انسلت اليها اخطاء عديدة وكان بودي لو راجع هذه الرسائل مؤرخ ضليع ، غير ان المدة القصيرة التي قضيتها خارج السجن لم تسمح لي باتخاذ الترتيبات اللازمة .

وكثيراً ما عبرت عن آرائي في هذه الرسائل بصورة تهجمية ، ومع انني لا ازال متمسكا بهذه الآراء ، الا ان نظرتي الى التاريخ قد تطورت شيئاً فشيئاً اثناء انهماكي في الكتابة . ولو شئت اليوم أن اعيد الكرة لكتبتها بصورة مختلفة ولقطعت في الامور على نحو آخر . على انني لا استطيع ان امزق ما كتبت لأبدأ مرة ثانية من جديد .

جواهر لال نهرو

هدية العام الجديد

اول عام ۱۹۳۱

●

هل تذكرين الرسائل التي كتبتها لك قبل اكثر من عامين عندما كنت أنت في موسوري وكنت انا في الله اباد ؛ لقد اخبرتني آنذاك انك احببتها ، وصرت أفكر منذ ذلك الحين ان اواصل كتابة هذه السلسلة من الرسائـــل حتى اقص المزيد عن عالمنا هذا .

ان من الطرافة ان يراجع المرء قصة العـالم بما يبرز فيها من الرجال والنساء العظام والاعمال المجيدة . ان قراءة التاريخ امر حسن ولكن الافضل منه ان يساهم المرء في صنع التاريخ . وانك لتعلمين ان التاريخ يصنع في بلادنا اليوم .

ان ماضي الهند عريق في القدم حتى لكأنه يضيع في زوايا ذلك القدم . ففيه من الفترات الحزينة التعيسة التي تجعلنا نشعر بالعار والبؤس ، ولكنه على العموم ماض مجيد يدعونا الى الفخر والغبطة . واليوم لا مجال لدينا لنفكر بالماضي لأن المستقبل يملأ رؤوسنا . ان المستقبل الذي نصوغه والحاضر يستوعبان كل وقتنا ونشاطنا .

ولقد هيأ لي سجن (نيني) الوقت الكافي لكي اكتب ما اردت ان اكتبه . ولكن فكري يشت حين افكر فيم عساه ان يجري خارج السجن . ما الذي يفعله غيري وما الذي كان يمكن ان افعله لو كنت طليقاً مثله ؟ انني مشغول بالحاضر والمستقبل لدرجة لا تدع لي مجالاً للتفكير بالماضي . واشعر احياناً ان

هذا الاتجاه خاطىء ، اذ كيف أزعج نفسي وانا لا استطيع ان اساهم فيا يجري في الخارج ؟.

ولكن دعيني اهمس في اذنك السبب الحقيقي الذي جعلني اتباطأ في الكتابة . لقد اصبحت اشك ما اذا كنت اعلم الكفاية التي تمكنني من تعليمك .

انك تكبرين بسرعة وتزدادين حكمة لدرجة ان كل ما تعلمتـــه في المدرسة والكلية وما بعدهما قد لا يكون كافياً ، وربما كان تافهاً . وربما اصبحت انت بعد مدة استاذة تعلمينني اشياء كثيرة . انني – كما اخبرتك في الرسالة التي كتبتها لك في عيد ميلادك الأخير – لست مثل ذلك الرجل الحكيم الذي كان يسير وعليه صفائح من النحاس تحفظ معلوماته وتقيها من الافلات .

عندما كنت في موسوري كان يسهل عليّ ان اكتب عن ايام العالم الأولى لأن معرفتنا بهذه الايام غامضة وغير محدودة. ولكن عندما نخرج من تاريخ تلك الايام القديمة يبدأ التاريخ تدريجياً بالتبلور ويأخذ الناس يلعبون ادوارهم الغريبة في شتى انحاء العالم .

ومن الامور الصعبة ان نتابع الانسان في هـذا المضمار الذي كان فيه احياناً حكيماً وفي كثير من الاحيان مجنوناً ولكن المرء يحاول ذلك عن طريق الكتب . ولكن سجن نيني تعوزه المكتبة . ولذا فإنني اخشى الا استطيع ان اقدم لك سلسلة متصلة الحلقات من تاريخ العالم مع انني كنت اتمنى كثيراً لو استطعت ذلك . انني ابغض جداً ان يتعلم الاولاد والبنات تاريخ بلد واحـــد فقط ، والأدهى ان يكون ذلك عن طريق استذكار بعض التواريخ والوقائع فقط . ان التاريخ وحدة منسجمة الاجزاء ، ولن يستطيع المرء ان يفهم تاريخ البلد الواحد اذا لم يعرف ما يحدث في الاجزاء الاخرى من العالم. وآمل ان لا تتعلمي التاريخ بهذه الطريقة المحدودة والا تحصري دراستك في بلد او بلدين بل تراجعي تاريخ العالم بأمره . وتذكري ان ليس هنالك فرق كبير بين الشعوب المختلفة ، كما يخيل الينا احياناً. ان الخرائط والاطالس ترينا البلدان بألوان مختلفة . ولا شك ان البلدان تختلف بعضها عن بعض ، ولكنها ايضاً متشابهة بصورة كبيرة. وعلينا ان نتذكر

هذا الأمر والا تضللنا الالوان الموضوعة على الخرائط والحدود التي تفصل بين هذه البلدان

لا أستطيع ان اكتب اليك التاريخ الذي أختاره ، فعليك ان تراجعي الكتب الاخرى من اجل ذلك . ولكنني سأكتب اليك بين آن وآخر شيئاً عن الماضي وعن الناس الذين عاشوا فيه والذين لعبوا الادوار الكبيرة على مسرح العالم .

لا اعلم اذا كانت رسائلي ستثير اهتمامك . والحقيقة اني لا اعلم متى سترينها او اذا كنت سترينها البتة ان من العجيب ان نشعر اننا قريبان جداً من بعضنا البعض مع اننا مفترقان مكاناً لقد كنت في موسوري بعيدة عني عدة مئات من الاميال وكنت عندها استطيع ان اكتب اليك كلما اردت ذلك وان اخف اليك كلما زاد بي الحنين اليك ولرؤيتك ونحن اليوم الواحد منا يقيم على الضفة المقابلة للآخر من نهر جمنا . نحن مقتربان اذن ولكن جدران سجن نيني الشاهقة تبقينا بعيدين . وربما جاز لي ان اكتب رسالة كل اسبوعين وان استلم رسالة كل اسبوعين ، وربما سمح لي باستقبال الزائرين مدة عشرين دقيقة مرة كل اسبوعين . ولكن هذه القيود طيبة ، فالانسان قليلاً ما يقدر الأشياء التي يحصل عليها بثمن ضئيل . واني بدأت اعتقد ان قضاء فترة في السجن فرصة لا تعوض في دراسة الانسانية . والحمد لله فان هناك عشرات الالوف من ابناء بلدنا الحبيب يتلقون هذه الدورة التعليمية اليوم !

لا اقدر ان احكم اذا كنت ستحبين هذه الرسائل عندما ترينها ولكني قررت ان اكتبها لجلب المسرة الى نفسي ، لانها تدنيك من نفسي ، وكأنني اخاطبك. كثيراً ما كنت افكر بك ، ولكني اليوم اراك ماثلة امامي ونادراً جداً ما تغيبين عني .

اليوم رأس السنة . وعندما اضطجعت في فراشي في الصباح الباكر جداً أرقب النجوم ، فكرت في العام المجيد المنصرم بكل ما فيه من امل وألم وفرح والاعمال الكبرى المجيدة التي تمت فيه . فكرت بغاندي الذي اعاد للبلاد شبابها وقوتها

بلمسته السحرية – وهو جالس في سجن يرفادا . وفكرت بجدك موتيلال نهرو. وفكرت بالكثيرين غيرهما وتذكرتك انت وامك بصورة خاصة . وقد نمي الي مؤخراً انه قد ألقي القبض على امك وانها سيقت الى السجن . وتلك هي الهدية السارة في رأس السنة الجديدة أ. لقد كنت انتظر ذلك منذ مدة طويلة ، ولا شك لدي ان امك راضية وقريرة العين .

انك لا ريب تشعرين بالوحدة . وانك ترينني مرة كل اسبوعين وترين أمك مرة كل اسبوعين وتحملين رسائلنا الى بعضنا البعض . ولكني سأجلس افكر بك والقلم والقرطاس بين يدي. وسوف تأتين اليّ وانت واجمة فنتكلم في مواضيع عديدة ونحلم بالماضي ونمهد السبيـل لجعل المستقبل امجد من الماضي . فلنصمم في رأس السنة إذن ان نقرب هذا الحلم من الواقع حتى نسطر للهند صفحة جديدة في تاريخها المجيد .

العبرة من التاريخ

٥ يناير ١٩٣١

●

ماذا اكتب اليك يا عزيزتي ، واين ابدأ ؟

كلما فكرت بالماضي تزاحمت في مخيلتي صور عديدة من الماضي ، بعضها يبقى اكثر من الآخر . هذه هي الامور المحببة لدي والتي تدخل السرور الى نفسي وتجعلني — بصورة لا شعورية — أقارن بين حوادث الماضي وحوادث هذه الايام محاولاً ان استخلص منها عبرة لهدايتي . ولكن ، ما أعقد عقل الانسان ! انه مليء بالافكار المتناثرة والصور المتباينة كأنه متحف للصور لم ترتب فيه الصور بطريقة منظمة . ولا اشك ان اغلبنا يستطيع ان يرتب هذه الحوادث في مخيلته بصورة افضل ، وان كانت الحوادث التاريخية نفسها في بعض الاحيان غريبة ويصعب وضعها في نظام معين .

اظن انني كنت قد كتبت اليك ان دراسة التاريخ لابد وان تعلمنا ان العالم قد تقدم ببطء ، وان الحيوانات البسيطة البدائية استبدلت بغيرها من الحيوانات الأكثر تعقيداً وتطوراً ، الى ان جاء اخيراً سيد الحيوانات ، الانسان ، الذي استطاع بقوة ذهنه ان يسيطر على جميع الحيوانات الاخرى .

المفروض ان تطور الانسان من الحالة البربرية الى المدنية هي قصة التاريخ . وقد حاولت في بعض رسائلي ان ابين لك كيف ان فكرة التعاون والعمل معاً قد تطورت وكيف ان المثل الاعلى يجب ان يكون العمل معاً من اجل الصالح

العام . ولكن عندما ننظر احياناً الى نتف من التاريخ يصعب علينا ان نعتقد ان هذا المثل الأعلى قد تطور كثيراً أو اننا متمدنون او متقدمون كثيراً . ان الحاجة كبيرة اليوم الى التعاون بدلاً من ان تستبد الانانية ببلد وشعب وتحمله على الاعتــــداء على الغير او ان تجعل انساناً يستغل انساناً آخر . فاذا كنا بعد ملايين السنين من التطور لا نزال متأخرين وناقصين ، فـكم نحتاج من الزمن حتى نتعلم كيف نعيش اناساً عاقلين معقولين ؟

اننا نقرأ احياناً عن فترات غابرة من التاريخ كانت افضل من زماننا واكثر منه مدنية وثقافة ، مما يجعلنا في حيرة ما اذا كان عالمنا هذا يسير الى الامام ام الى الوراء . ولا شك ان بلدنا قد عاش فترة مجيدة في ماضيه قد تفضل مانحن عليه الآن بمراحل عديدة .

انها لحقيقة واقعة انه قد مرت فترات مجيدة من الماضي في بلدان عديدة كالهند ومصر والصين واليونان وغيرها ، وان هذه البلدان قد جمدت وتوقفت عن التقدم او تقهقرت ولكن هذا لا يثبط عزمنا لأن العالم جزء واسع وقيام البلد الواحد او سقوطه فترة من الزمن لا يؤثر على العالم كمجموعة .

ان الكثيرين من الناس يلذ لهم اليوم ان يفخروا بمدنيتنا الكبيرة وعجائب العلم الحديث . ولا ينكر ان العلم قـــد حقق العجائب وان الراسخين في العلم يستحقون كل احترام . ولكننا نلاحظ ان العظماء انفسهم لا يلجأون الى الافتخار والمباهاة . ومن الجدير ان نتذكر ان الانسان لم يتطور بعد كثيراً عن الحيوان في مجالات عديدة . وربما كان الحيوان افضل من الانسان في نواحٍ كثيرة . وربما كان كلامي هذا سخيفاً عند البعض ولربما اضحك اصحاب العقول الصغيرة . ولكنك قد قرأت مؤخراً كتاب مترلينك عن النحلة والنمل الابيض والنملة ، ولا بد انك قد اعجبت بالنظام الاجتماعي الذي يسود بين هذه الحشرات . اننا نحتقر الحشرات لأنها ادنى الاحياء ولكننا ننسى ان هذه الاحياء الدنيا قد تعلمت فن التعاون والتضحية في سبيل الصالح العام اكثر بكثير مما تعلمه الانسان . ومنذ ان قرأت عن النملة البيضاء وتضحياتها في سبيل صاحباتها كرست لها مكاناً خاصاً

في قلبي . واذا كان التعاون المتبادل والتضحية هما محك المدنية فيمكننا القول ان النملة البيضاء والنمل عموماً اكثر تقدماً في هذا المضمار من الانسان .

ان في احد كتبنا السنسكريتية حكمة يمكن ترجمتها بما يلي :

« ضحّ بالفرد في سبيل العائلة ، والعائلة في سبيل المجتمع ، والمجتمع في سبيل الوطن ، والروح في سبيل العالم بأسره » . اما ما هي الروح فان القليل منا من يستطيع ان يعلم عنها الكثير . ولكن كل واحد يمكنه ان يعبر عنها بطريقة تختلف عن طريقة غيره . والدرس الذي نتعلمه من هذه الحكمة السنسكريتية هو نفس درس التعاون والتضحية في سبيل المجموعة الكبرى . وقد نسينا نحن ، اهل الهند ، هذا النهج المستقيم المؤدي الى العظمة الحقيقية، فهوينا وضللنا سواء السبيل. ولكن ما زال بنا قبس منه لتهتدي به هذه الامة. فهاهم الرجال والنساء والاولاد والبنات يسيرون الى الامام في خدمة الهند مبتسمين وغير عابئين بالألم والشقاء . هنيئاً لهم ابتسامهم وحبورهم ونشوتهم في خدمة قضيتهم الجليلة وتقدمهم للتضحية في سبيلها .

اننا نحاول اليوم تحرير الهند . وهو عمل مجيد ، ولكن الأمجد منه خدمة الانسانية ذاتها ، لأننا نشعر ان جهادنا جزء من جهاد الانسان الاكبر لوضع حد للظلم والشقاء . ويسرنا ان نعلم اننا نؤدي قسطنا الضئيل لمساعدة العالم بأسره على التقدم .

انك الآن في انان باوند ، وأمك في سجن ملكا ، وانا في سجن نيني انا نشعر بالوحدة ، ولكن علينا ان نفكر بيوم لقائنا الذي أتطلع اليه بشوق . ان مجرد التفكير بذلك اليوم ينير فؤادي ويملأه بالأمل والنشوة .

اوروبا وشرقي آسيا

١٩ يوليو ١٩٣٢

●

لعلك تذكرين ان البرتغاليين قد وصلوا الى الملايو وأنهم كانوا مع الاسبانيين كفرسيْ رهان في محاولة الوصول بالطرق البحرية الى الشرق. وبينما يمم البرتغاليون شطر الشرق ، يمم الاسبانيون شطر الغرب وقد تمكن البرتغاليون من الدوران حول جنوب افريقيا ووصول الهند اما الاسبانيون فإنهم عثروا في طريقهم على امريكا وساروا الى امريكا الجنوبية ومنها الى الملايو. ونتحدث هنا عن هذه البلاد .

تعلمين ان التوابل هي من محاصيل البلدان الحارة القريبة من خط الاستواء . ولهذا فان اوروبا خلو منها ، والقليل منها متوفر في الهند وسيلان . اما الملايو فانها كانت غنية بها حتى انها دعيت جزر التوابل وكانت اوروبا في حاجة ماسة للتوابل التي كانت تصلها غالية الثمن جداً حتى ان الفلفل الاسود كان يعادل وزنه ذهباً في روما وكانت التوابل تجلب الى اوروبا بواسطة التجار الهنود ثم بواسطة التجار العرب .

وقد جذبت هذه التوابل كلًا من الاسبانيين والبرتغاليين الذين التقوا في الملايو . وكان البرتغاليون أول الواصلين لأن الاسبانيين انشغلوا زمناً في امريكا

وصل البرتغاليون في سفن عديدة بعد ان اكتشف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح . وكانت تجارة التوابل آنذاك في يد مملكة ملقة ، مما حمل البرتغاليين على ان يشتبكوا في عراك معها ومع تجار العرب اجمالاً وقد تمكن

نائب الملك المدعو البوكرك من الاستيلاء على ملقة عام ١٥١١ وان يقضي بذلك على التجارة الاسلامية . واصبح البرتغاليون سادة تجار التوابل وغيرها من السلع الشرقية ، واصبحت عاصمتهم لشبونة مركز هذه التجارة .

ويجدر بنا أن نذكر ان عداوة البوكرك الشديدة وقسوته مع العرب لم تمنعاه من مصادقة تجار الشرق وشعوبه وقد تودد لأهل الصين واقام معهم علاقات حسنة . ولعل سبب نقمة البوكرك على العرب تفوّق العرب في مضمار التجارة الشرقية

واستمر البحث عن جزر التوابل حتى قامت بعثة كان من رجالها ماجلان الذي سبق له ان قطع المحيط الهادي ودار حول الارض . وعثرت هذه البعثة على الملايو . وظل البرتغاليون ستين عاماً سادة لا ينازعهم احد الزعامة على تجارة التوابل مع اوروبا. ولكن اسبانيا تمكنت من احتلال جزر الفلبين عام١٥٦٥، واصبحت الدولة البحرية الثانية في المياه الشرقية . ولكن الاسبانيين لم ينصرفوا الى التجارة بل اهتموا بالناحية العسكرية والتبشيرية تاركين المجال للبرتغاليين لاحتكار تجارة التوابل، حتى ان فارس ومصر لم تستطع الحصول على التوابل الا بواسطتهم . ولكنهم بالرغم من ذلك لم يؤسسوا مستعمرات لهم . والحقيقة ان ما فعلته البرتغال ـ بالرغم من صغر حجمها ـ في القرن السادس عشر أمر يثير الدهشة .

أوغل الاسبانيون في الفلبين وحاولوا ابتزاز أقصى ما يمكنهم من ثروة. وقد تعاهدوا مع البرتغاليين ألا يشتبكوا في اعمال عدائية في المياه الشرقية . وحرم الاسبانيون على اهل الفلبين المتاجرة مع امريكا الاسبانية خوفاً من تسرب الذهب والفضة من المكسيك وبيرو الى الشرق . ولم يسمحوا إلا لسفينة واحدة اسمها (مانيلا جاليون) أن تقطع المحيط الهادي بين جزر الفلبين ذهاباً واياباً . وظل ذلك حوالى ٢٤٠ عاماً

اثار النجاح الذي اصابته اسبانيا والبرتغال حسد شعوب اوروبا الاخرى . ومعلوم ان اسبانيا كانت سيدة اوروبا في ذلك الحين ، بينما لم تكن انجلترا تعد

دولة من الدرجة الاولى بعد . وقامت ضد اسبانيا ثورة في الاراضي المنخفضة المؤلفة من هولندة وجزء من بلجيكا، فقدمت انجلترا الناقمة على اسبانيا يد المعونة الى هولندة بطريقة غير مباشرة . وقام البحارة الانجليز بما يشبه اعمال القرصنة في عرض البحار وراحوا يهاجمون السفن الاسبانية المحملة بكنوز امريكا. وكان زعيم هؤلاء القراصنة السير فرنسيس دريك الذي سمي عمله (حرق ذقن اسبانيا) .

وفي عام ١٥٧٧ قام فرنسيس دريك بغزو المستعمرات الاسبانية فنجح في غزوه ، ولكنه خسر اربعاً من سفنه ولم تصل منها سالمة الا السفينة المسماة (جولدن هانيد) التي عاد بها عن طريق رأس الرجاء الصالح . وكان ذلك ثاني رجل يدور حول العالم، لأن ماجلان فعل ذلك قبله في سفينته المسماة (فيكتوريا) اي (المنصورة) ، واستغرق عمله ذلك ثلاث سنوات

غير ان هذه المناوشات البحرية قادت الى الحرب التي اشتعلت بين اسبانيا وانجلترا . وكان الهولنديون يقومون ايضاً بمحاربة الاسبانيين . اما البرتغال فانها اشتركت في الحرب لأنها كانت مدة من الزمن تابعة مع اسبانيا لعرش واحد. وقد ادهشت انجلترا العالم بخروجها سالمة من الحرب بعد ان حطمت اسطول الارمادا (الذي لا يغلب)

وقد هاجم الانجليز والهولنديون الشرق الاوسط والاسبانيين والبرتغاليين . ولما كان الاسبانيون متمركزين في الفليبين فانهم كانوا يستطيعون الدفاع عن انفسهم . اما البرتغاليون فانهم منوا بالهزيمة . وكانت امبراطوريتهم الشرقية تمتد مسافة ستة آلاف ميل من البحر الاحمر الى الملايو ؛ وقد اقاموا حصوناً في عدن وعلى شواطىء الخليج العربي وسيلان وفي اماكن متعددة على الساحل الهندي وعلى طول الساحل الشرقي للملايو . ولكنهم اخذوا يخسرون امبراطوريتهم الشرقية بالتدريج، مدينة بعد مدينة ومقراً بعد مقر، وأخذ الانجليز والهولنديون يستولون عليها . ولم تنج ملقة نفسها بل سقطت عام ١٦٤١ . ولم يبق للبرتغاليين الا بعض المراكز في الهند وغيرها . ومن الممتلكات التي ظلت في ايديهم (جوا) في الهند التي اصبحت جزءاً من الجمهورية البرتغالية التي اعلنت قبل سنوات . وقد

حاول (أكبر) العظيم ان يسترجعها منهم ولكنه فشل .

وهكذا خرجت البرتغال الصغيرة من تاريخ الشرق وهي مثخنة بالجراح. ولم تجدِ المحاولات التي بذلتها لاسترجاع ما فقدت . وظلت اسبانيا في الفلبين مع أن دورها في شؤون الشرق أصبح ثانوياً . وانتقلت السيادة التجارية في الشرق الى يد الهولنديين والانجليز الذين سهّلوا لقيام الشركات التجارية . وقد وافقت الملكة اليزابيث في انجلترا عام ١٦٠٠ على تأسيس شركة الهند الشرقية . وبعد عامين تألفت شركة الهند الشرقية الهولندية . ومع ان هاتين الشركتين تجاريتان وملك للافراد ، الا ان الدولة كانت كثيرة التدخل في شؤونها . وكان هم الشركتين الاستئثار بتجارة التوابل في الملايو . اما الهند فقد كانت آنذاك تحت حكم اباطرة المغول الذين لم يكن إغضابهم امراً سهلاً .

وكثيراً ما دب الخلاف بين الهولنديين والانجليز . وقد انسحبت انجلترا من الجزر الشرقية وكرست جهودها لاستغلال الهند . وكانت الامبراطورية المغولية آخذة بالضعف مما فتح الباب امام المغامرين الأجانب . وسنرى فيما بعد كيف حاول المغامرون القادمون من انجلترا وفرنسا - بشتى انواع الخداع والقوة - الاستيلاء على اجزاء الامبراطورية الهندية المتداعية .

مجيء الاسلام

٢١ مايو ١٩٣٢

●

لقد عالجنا تاريخ بلدان عديدة ونشوء وسقوط امبراطوريات وممالك كثيرة. ولم نتطرق الى تاريخ الجزيرة العربية ولم نذكر عنها الا انها كانت تخرج البحارة والتجار الى الاصقاع النائية من العالم.

اذا نظرتِ الى خارطة العالم فانك ترين غرب الجزيرة مصر والى شمالها سوريا والعراق والى شرقها بلاد العجم او ايران والى شمالها الغربي آسيا الصغرى. وليست اليونان بعيدة عنها. كما ان الهند واقعة على طرف البحر الآخر منها. واذا استثنينا الصين والشرق الاقصى وجدنا ان الجزيرة العربية كانت واقعة في مركز الحضارات القديمة. لقد قامت المدن العظيمة على دجلة والفرات في العراق، وقامت الاسكندرية في مصر، ودمشق في سوريا، وانطاكيا في آسيا الصغرى. وكان العربي رحالة وتاجراً، ولا بد أنه طرق هذه الاماكن مرات عديدة. ولكن الجزيرة ظلت بعيدة ولم تلعب دوراً كبيراً في التاريخ لأن الحضارات القائمة في الجزيرة آنذاك ظلت مقصرة عن تلك التي جاورتها فلم تحاول ان تقهر غيرها من البلدان، كما انه لم يكن من السهل التغلب على الجزيرة ذاتها.

الجزيرة العربية بلاد صحراوية. وللصحراء والجبال اثر في جعل الناس اشداء يحبون حريتهم ويأبون الضيم. وكانت الجزيرة فقيرة فلم تغرِ الأجانب الغزاة او المستعمرين. وكان فيها مدينتان قريبتان من البحر وهما مكة ويثرب. اما

بقية السكان فقد كانوا يعيشون في الصحراء . وكان اغلبهم بدواً رحلا . وكان يلازمهم الجمل السريع والحصان الجميل والحمار – الذي كان يعتبر صديقاً وفياً لما عرف عنه من صبر وجلد . وكان الانسان يسر اذا شبه بالحمار ، مع ان اهل البلدان الاخرى يثورون غضباً اذا شبهوا بالحمار .

وحياة الصحراء قاسية ، والقوة والجلد صفتان ثمينتان فيها.

كان عرب الصحراء ذوي عزة وانفة وشعور مرهف ومولعين بغزو بعضهم البعض . كان الفرد ينتسب الى قبيلة وعشيرة وهذه القبيلة تتقاتل مع غيرها من القبائل . وكانت لهم هدنة واحدة في كل عام يحرم فيها القتال ويُحج الى مكة لزيارة الآلهة التي صوروها على شكل أوثان وعبدوها بالاضافة الى الحجر الأسود.

كانت حياة عرب الجزيرة حياة بدو رحل يخضعون لحكم رئيس القبيلة .وهي حياة شبيهة بحياة اهل آسيا الصغرى وغيرها قبل ان يستقروا ويعيشوا حياة المدن والتحضر .

وكثيراً ما كانت الامبراطوريات التي تكتنف الجزيرة تعتبرها ضمن ممتلكاتها، ولو كان ذلك اسمياً اكثر منه فعلياً ، لأن اخضاع القبائل الراحل وحكمها من أصعب الصعاب .

لعلك تذكرين انه قد قامت في القرن الثالث الميلادي دولة عربية صغيرة في تدمر في سوريا حققت لها مجداً لم يكتب له البقاء طويلا . ولكن هذه الدولة كانت خارج جزيرة العرب التي نتكلم عنها هنا . فقد ظل العرب في الجزيرة يعيشون على وتيرة واحدة في صحرائهم جيلا بعد جيل ويرسلون سفنهم للتجارة . قد تنصر بعض العرب واعتنق بعضهم اليهودية ، ولكن الغالبية ظلت تعبد الاصنام التي بلغ عددها ٣٦٠ صنماً ، ويضاف اليها الحجر الاسود .

والمدهش حقاً ان نلاحظ هذا الشعب العربي الذي ظل منسياً اجيالاً عديدة بعيداً عما يجري حوله قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق ادهش العالم وقلبه رأساً على عقب . وان قصة انتشار العرب في آسيا واوروبا وافريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي اعجوبة من اعجوبات التاريخ !

ان الاسلام هو الباعث والفكرة لهذه اليقظة العربية بما بثه في اتباعه من ثقة ونشاط . حمل رسالة الاسلام الى العرب نبي جديد اسمه محمد ، ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية . ولم يكن محمد عجولاً في نشر رسالته ، بل ظل زمناً يعيش حياة هادئة يعجب به مواطنوه ويثقون به حتى لقبوه بالأمين . فلما قام يبشر برسالته ويهاجم الاوثان قام الناس عليه وآذوه فاضطر ان ينجو بحياته وأن يهاجر من مكة . وكانت رسالة محمد : لا اله الا الله ، ومحمد رسول الله.

ولقي محمد في يثرب من ينصره وينصر اخوانه المهاجرين من مكة . وقد عرف هذا الحادث الذي تم عام ٦٢٢ ميلادية بالهجرة ، واتخذ بداية للتاريخ الاسلامي . والسنة الهجرية تعتمد في حسابها على القمر دون الشمس وتنقص بذلك عن السنة الشمسية حوالي عشرة ايام . ولا تحل شهور السنة الهجرية دائماً في نفس الفصول ، اذ ربما كان احد شهورها في الشتاء تارة وفي منتصف الصيف تارة اخرى .

يجوز لنا اذن ان نعتبر الهجرة ، اي عام ٦٢٢ الميلادي ، فجر الاسلام مع ان الدعوة اليه قد سبقت الهجرة قليلاً . وقد رحبت مدينة يثرب بمحمد واخوانه وسميت بمدينة الرسول او المدينة ، وسمي اهلها الذين آووا محمداً ونصروه بالأنصار وما زال احفاد الانصار يفتخرون حتى اليوم بهذه التسمية .

وقبل ان نعالج موضوع الفتوحات العربية والاسلامية ، دعيني القي نظرة على ما حولنا في تلك الفترة. لقد سقطت روما ، وزالت المدنية الاغريقية الرومانية وانقلب النظام الاجتماعي الذي بنيت عليه تلك المدنية ، وبدأت القبائل الاوروبية تزحف من الشمال وتستقي من حضارة روما لبناء حضارة قدر لها ان تختلف عن الحضارة الرومانية ولما كانت هذه الحضارة الاوروبية بدائية ، كما يظهر من الشواهد الحسية عن حضارتهم آنذاك ، فإن المدنية القديمة الزاهرة قد اختفت مخلفة وراءها ظلاماً وفراغاً لم يسد حتى ظهور الدعوة الاسلامية . غير اننا نلاحظ انه كان الى الشرق من الجزيرة الامبراطورية الرومانية الشرقية التي ظلت حضارتها مزدهرة وكانت اعظم بلد في اوروبا . كانت مدرّجاتها حافلة بالألعاب والملاهي ومظاهر

الأبهة والعظمة . غير ان استمرار الحروب مع الساسانيين الفارسيين افقدها الكثير من قوتها وجعلها تتداعى . وقد استطاع خسرو الثاني ، فعلاً ، اقتطاع جزء من القسطنطينية ، كما نصب نفسه سيداً اسمياً للجزيرة العربية . وفتح بعد ذلك مصر وسار الى القسطنطينية لولا ان هزمه هرقل الامبراطور اليوناني وتوفي على يد ولده.

وهكذا نلاحظ ان كلاً من اوروبا الى الغرب من الجزيرة وفارس الى الشرق منها كانت في حالة انحلال وتفكك ، كما كانت الخلافات والحزازات بين الطوائف النصرانية لا حصر لها . وكانت النصرانية في الغرب وفي افريقيا منحلة ايضاً . وكانت الزردشتية في فارس دين الدولة ، وكانت مفروضة على الشعب فرضاً . وهذا يعني ان الرجل العادي في اوروبا وافريقيا وفارس كان يقاسي من دينه . ويضاف الى ذلك ان اوروبا قد تعرضت لموجة عاتية من الأوبئة قضت على الملايين من الناس .

وكان يحكم الهند في ذلك الحين هارشا فارضانا . وكانت الهند قوة كبيرة ولكن شمالها تفكك وتقسم بعد ذلك . وبدأ في الصين حكم امرة تانج ، واعتلى عرش البلاد امبراطور عظيم اسمه تاي تسونج (عام ٦٢٧م) ، وامتدت الصين في زمنه حتى وصلت بحر قزوين غرباً . وقد دانت له معظم بلدان آسيا الصغرى ، ودفعت له الجزية . ولكن هذه البلاد الواسعة لم تتمتع بحكومة مركزية متماسكة .

هذه هي حالة العالم الآسيوي الأوروبي عند بزوغ فجر الاسلام . كانت الصين قوية منيعة ، ولكنها كانت بعيدة . وكانت الهند قوية – ولو الى حين – ولكنها – كما سنرى – لم تشتبك في حرب لمدة طويلة من الزمن . اما اوروبا وافريقيا فقد كانتا ضعيفتين وهزيلتين .

عاد محمد الى مكة سيداً مظفراً بعد هجرته منها قبل سبع سنوات وكان وهو في المدينة قد بعث الى الملوك والحكام كتباً يدعوهم فيها الى الايمان بالله ورسوله . وقد وصل الكتاب الى هرقل امبراطور القسطنطينية وهو منهمك في حربه مع الفرس في سوريا . وتسلم كسرى كتابه ، ويقال ان تاي تسونج تسلم كتابه ايضاً . ولربما خامرت هؤلاء الملوك والحكام الدهشة من هذا الرجل

البسيط الذي يدعوهم الى الطاعة . ولكن ارسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد بنفسه ورسالته . وقد هيأ محمد بهذه الثقة وهذا الايمان لأمته اسباب القوة والعزة والمنعة وحوّلها من سكان صحراء الى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم .

كانت ثقة العرب وايمانهم عظيمين وقد اضاف الاسلام اليها رسالة الاخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين . وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد ! وانكِ اذ تقارنين رسالة الاخوة الاسلامية هذه بحالة النصرانية المنحلة تعرفين مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل اليها العرب !

توفي محمد عام ٦٣٢ م ، اي بعد الهجرة بعشر سنوات ، بعد ان جعل من القبائل العربية المتنافرة امة واحدة تتقد غيرة وحماساً . وخلفه ابو بكر المنتمي الى عشيرته . وكانت الخلافة مبايعة علنية يبايع المسلمون فيها الخليفة الجديد . وقد توفي ابو بكر بعد عامين ، فبويع عمر الذي قتل بعد عشر سنوات .

كان ابو بكر وعمر رجلين عظيمين ، وقد وضعا الاساس الذي بنيت عليه عظمة العرب والمسلمين . وكانا خليفتين يجمعان في يدهما السلطة الزمنية والسلطة الدينية معاً . ولكنهما ، وبالرغم من عظم المنصب وقوة الدولة ، زهداً في متاع الحياة الدنيا بما فيها من ابهة وعظمة . وهذه هي الحياة الديمقراطية الاسلامية الحقيقية التي وضعها الخليفتان موضع العمل ، وان كان بعض الولاة والامراء قد فتنوا بحياة النعيم والترف والحرير . وقد رويت قصص عن قيام ابي بكر وعمر بتأنيب الولاة على تبذيرهم وترفهم . لقد ادرك الخليفتان ان قوتها تكمن في الحياة الخشنة الساذجة وان الانغماس في اللهو والترف السائدين في ايوان كسرى وبلاط القسطنطينية سيفسد العرب ويزيل ملكهم .

في هذه السنوات الاثنتي عشرة التي حكم بها ابو بكر وعمر استطاع العرب ان يهزموا كلًّا من الامبراطورية الرومانية الشرقية وكسرى فارس ، وان يدخلوا القدس (المقدسة لدى اليهود والنصارى) . واصبحت سوريا والعراق وفارس مجرد اجزاء في جسم الامبراطورية العربية الجديدة .

الفتوحات العربية من اسبانيا الى منغوليا

٢٣ مايو ١٩٣٢

٥

كان محمد ، كمؤسسي الأديان الأخرى ، ناقماً على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره. وكان للدين الذي بشر به ، بما فيه من سهولة وصراحة واخاء ومساواة ، تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة . لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الاوتوقراطيين والقياصرة المستبدين . لقد تعب الناس من النظام القديم وتاقوا الى نظام جديد فكان الاسلام فرصتهم الذهبية لأنه اصلح الكثير من احوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم .

ولم يكن الاسلام ثورة اجتماعية متطرفة تجتث جميع انواع الاستبداد الذي يقاسي منه الشعب. ولكنه لا ينكر أنه قد خفف من وطأة الاستغلال على المسلمين وجعل الناس يشعرون انهم جزء من اخوة كبيرة .

وسار العرب من فتح الى فتح ، وكثيراً ما ربحوا الحروب بدون قتال . وفي غضون خمسة وعشرين عاماً من وفاة الرسول، فتح العرب جميع بلاد فارس وسوريا وأرمينيا وجزءاً من اواسط آسيا الشرقية ومصر وجزءاً من شمال افريقيا . وقد سلمت لهم مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست كثيراً من استبداد الامبراطورية الرومانية ومن الحروب الطائفية . وقد اشيع ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية ، ولكن المعتقد الآن ان هذا محض اختلاق اذ ان للكتب عند العرب احتراماً كبيراً يمنعهم ان يسلكوا هذا المسلك البربري . ويحتمل ان

يكون الامبراطور ثيودوسيوس ، امبراطور القسطنطينية - الذي حدثتك عنه شيئاً في السابق - هو المسؤول عن هذا الخراب او جزء منه، لأنه لم يكن راضياً عن الكتب الوثنية الاغريقية القديمة التي كانت تتضمن الاساطير والفلسفة اليونانية القديمة . وقد أُحرق جزء من المكتبة قبل ذلك بزمن طويل إبان حصار يوليوس قيصر للاسكندرية .

وواصل العرب تقدمهم شرقاً وغرباً . ووقعت في ايديهم في الشرق الحيرة وكابل وبلخ ، ووصلوا نهر الاندوس والسند في الهند ولكنهم لم يتعدوهما . وكانت علاقة العرب ودية مدة مئات السنين مع حكام الهند. وظل العرب يوغلون غرباً حتى ليقال ان قائدهم عقبة بن نافع قطع شمال افريقيا حتى اشرف على المحيط الاطلسي عند الساحل الغربي لما يعرف اليوم بمراكش . ووقف هناك ثم ركب البحر ومخر فيه بالقدر الذي استطاع فلم يصل الى اليابسة فناجى ربه معتذراً ان ليس أمامه أرض يفتحها باسم الله .

واجتاز العرب البحر من مراكش وافريقيا الى اسبانيا واوروبا مارين بأعمدة هرقل وهي المضائق المعروفة بذلك الاسم عند الاغريق القدماء . وقد نزل القائد العربي الزاحف الى اوروبا في جبل طارق ، ولا يزال اسم المكان يذكرنا بذلك القائد طارق بن زياد .

تم للعرب فتح اسبانيا بسهولة ، وتدفقوا منها الى جنوب فرنسا وهكذا امتدت الامبراطورية العربية بعد مئة سنة من وفاة الرسول من جنوب فرنسا واسبانيا وشمال افريقيا الى الجزيرة العربية وفارس وآسيا الوسطى وحدود منغوليا . ولم تقع الهند داخلها (باستثناء السند) . ووقعت اوروبا تحت ضغط هجوم عربي مزدوج احدهما في القسطنطينية ذاتها والآخر في جنوب فرنسا عن طريق افريقيا. وكان العرب في جنوب فرنسا قليلين وبعيدين عن موطنهم الأصلي فلم يصلهم المدد من الجزيرة العربية التي كانت مشغولة في الهجوم على آسيا الوسطى. ولكن هؤلاء العرب القوا الفزع في قلوب اهالي اوروبا الغربية مما جعلهم يؤلفون تحالفاً لمحاربتهم . وقد قاد هذا التحالف شارل مارتيل الذي هزمهم في معركة

تور (في جنوب فرنسا) عام ٧٣٢ م، وانقذ اوروبا من العرب . وقد كتب احد المؤرخين يقول : « في سهول تور خسر العرب امبراطورية العالم التي كادت تقع في قبضتهم » . ولا جدال انه لو انتصر العرب في تور لتغير وجه التاريخ الاوروبي الى حد كبير ، اذ لم يكن هناك من يوقف زحفهم في اوروبا ، ولاستطاعوا التقدم الى القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية الرومانية الشرقية وغيرها من الدول التي تقف في طريقهم ، وحل الاسلام محل النصرانية في اوروبا ، وحصلت تغييرات اساسية كثيرة . اننا نسبح الآن في الخيال لأن الواقع ان العرب توقفوا عند فرنسا ، ولكنهم بقوا في اسبانيا وحكموها مئات السنين .

لقد انتصر العرب في الرقعة الواقعة بين اسبانيا ومنغوليا ، واصبحوا حكام امبراطورية عزيزة الجانب بعد ان كانوا سكان صحراء ساذجين . وقد لقبهم الغربيون (بالشرقيين) او (سرسنس) المؤلفة من كلمتين احداهما تعني (نازح) والاخرى تعني (صحراء) . ولكن هؤلاء النازحين عن الصحراء تطبعوا بحياة الترف والمدن فبنوا القصور المنيعة والمدن الكبيرة . ولكنهم ، وبالرغم من انتصاراتهم الخارجية ، لم يستطيعوا التخلص من منازعاتهم الداخلية . واصبح النزاع الداخلي يعني الشيء الكثير إذ ان الذي ينتصر فيه يستولي على امبراطورية واسعة . ولذا فقد نشب خلاف كبير حول مركز الخلافة ، وقامت خلافات عائلية أدت الى نشوب حرب اهلية نتج عنها انشقاق كبير بين المسلمين، فانقسموا الى طائفتين كبيرتين هما السنة والشيعة ، وبقي هذا الانقسام حتى هذا اليوم .

بدأ الخلاف بين المسلمين فور انتهاء خلافتي ابي بكر وعمر ، وكان علي بن ابي طالب زوج فاطمة ابنة الرسول خليفة لمدة قصيرة. ولكن الخلاف ظل مستحكماً فقتل علي وقتل ابنه الحسين مع اهله في ساحة كربلاء . وهذه هي مأساة كربلاء التي يندبها المسلمون ، وخصوصاً الشيعة ، في شهر محرم من كل عام .

لقد اصبح الخليفة ملكاً مطلق الحرية ولم يعد مقيداً بالديمقراطية والانتخابات بل استوى مع مثيله من ملوك عصره . ولكن الخليفة ظل من الناحية النظرية الزعيم الديني أو امير المؤمنين . ولكن بعض هؤلاء الخلفاء أساء الى الاسلام ،

وكان المفروض انهم حماة له .

ظلت الخلافة مدة مئة عام تقريباً في عائلة من قبيلة محمد تعرف بالامويين ، اتخذوا دمشق عاصمة لهم فازدهرت بالقصور والمساجد وعيون المياه والاسواق . وكان الماء فيها موفوراً . وقد اظهر العرب في هذه الفترة فناً معمارياً خاصاً عرف بالفن المعماري الشرقي الذي يخلو من التعقيد والبهرجة ويمتاز بالرونق والبساطة والجمال . وكان قوام هذا الفن تصوير الاشجار كالنخيل الوفير في الجزيرة العربية وسوريا وهذه الاقواس والاعمدة والمآذن والقباب تذكر الواحد منا بأشجار النخيل .

وقد ادخل هذا الفن الى الهند ، ولكنه تأثر بالفن الهندي ، وظهر مزيج من الفنين . وما يزال في اسبانيا امثلة رائعة من الفن المعماري الشرقي .

لقد هيأت الاموال والامبراطوريات للعرب اسباب الترف والنعيم . وكان سباق الخيل من التسليات المحببة لدى العرب ، وكذلك لعبة البولو والصيد والشطرنج . واولع العرب بالموسيقى ، وخصوصاً الغناء ، وغصت العاصمة بالمغنين ومن لف لفهم

ومما يؤسف له ان العرب اقتبسوا عادة غريبة تؤثر كثيراً على مركز المرأة في المجتمع . اذ لم تكن المرأة العربية في السابق تضع الحجاب على وجهها ولم يكن محرماً عليها مخالطة الرجال ، بل كانت تتجول في الاماكن العامة وتؤم المساجد وتلقي المحاضرات . ولكن نجاح العرب جعلهم يسترسلون في محاكاة اهالي الامبراطوريتين المهزومتين في تقاليدهم . وهاتان الامبراطوريتان هما الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية . ويقال ان السبب في انزواء النساء العربيات ناتج بنوع خاص عن تأثير القسطنطينية وفارس . واخذ نظام الحريم يظهر تدريجياً وصار النساء يبتعدن عن مخالطة الرجال . ومن المؤسف ان هذا الانزواء اصبح مظهراً من مظاهر المجتمع الاسلامي ، وان الهند اخذته عنهم عندما جاؤوا اليها . وانه ليدهشني ان ارى بعض الناس محافظين على هذه العادة حتى هذا اليوم . وكلما افكر في المرأة وهي قابعة وراء الحجاب بعيدة عن العالم ، لا يخطر

ببالي الا السجن او حديقة الحيوانات . فكيف يتقدم شعب يبقى نصفه مخفياً في ما يشبه السجن ؟

ومن الملاحظ ان الهند ماضية الى إلغاء الحجاب ، وان العالم الاسلامي قد تخلص الى حد كبير من هذا العبء الثقيل . وقد قضت تركيا بزعامة مصطفى كمال على الحجاب كلياً ، كما ان مصر تسير الى هذا الهدف حثيثاً .

اختم هذه الرسالة بالقول إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدين حماساً لعقيدتهم وانهم كانوا مع ذلك قوماً متسامحين لأن دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس . اما مسلمو اسبانيا فانهم تركوا للجالية المسيحية الكبيرة هناك حرية العبادة التامة . وكانت صلات المسلمين مع الهند التي لم يحكموا منها الا السند صلات ودية . والواقع ان ابرز ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الفرق الشاسع بين تسامح العرب المسلمين وتعصب النصارى الاوروبيين !

بغداد وهارون الرشيد

٢٧ مايو ١٩٣٢

●

دعني أواصل قصة العرب قبل ان اتناول قصص بلدان أخرى

لقد اخبرتك في رسالتي الاخيرة ان الخلافة الاسلامية استمرت حوالى مئة عام في بني أمية ، وهم من قبيلة الرسول . وقد أدار الامويون ملكهم من دمشق ، وتمكن العرب في ظلهم من نشر راية الاسلام في الآفاق البعيدة . ولكن ، بينما كان العرب يواصلون انتصاراتهم وتغلبهم في الخارج كانت الحروب قائمة فيما بينهم في الداخل .

وقام العباسيون ، وهم ايضاً من قبيلة الرسول ، وانهوا حكم الامويين . وهم ينتسبون الى عم الرسول « العباس » الذي اخـــذوا منه اسمهم . وقـد قاموا بثورتهم انتقاماً لفظائع الامويين ، ولكنهم ما كادوا ينتصرون على الامويين حتى فاقوهم في الظلم والقسوة ، وراحوا يطاردون الامويين ويقتلونهم دون شفقة او رحمة .

هكذا بدأ العباسيون عام ٧٥٠ م حكمهم الطويل . ومع أنها بداية لا تعد مفخرة للعباسيين ، إلا ان الفترة العباسية تعد من فترات التاريخ اللامعة الزاهرة. وقد تبدل كثير من الامور عما كان عليه في زمن الامويين. وقد أثرت الحروب الاهلية على جميع اجزاء الامبراطورية العربية . لقد انتصر العباسيون في الداخل ولكن الحاكم الاموي في اسبانيا رفض الاعتراف بالخليفة العباسي . وظل شمال

افريقيا او ولاية افريقيا ، مستقلاً نوعاً ما ؛ وأعانت مصر لها خليفة مستقلاً . ولما كانت مصر قريبة من مركز الخلافة فقد كان من المستطاع اخضاعها وفرض السيطرة عليها ، كما حصل بالفعل مراراً . اما افريقيا ، فلم يستولوا عليها لأنها كانت نائية عنهم ، وكذلك اسبانيا .

يظهر مما تقدم ان الامبراطورية العربية قد تفسخت بمجيء العباسيين وان الخليفة لم يعد رئيساً للعالم الاسلامي بامره واميراً للمسلمين جميعاً وفقد الاسلام الوحدة التي كان يتمتع بها . وقامت البغضاء بين عرب اسبانيا والعباسيين حتى احب كل منهما السوء لأخيه .

وبالرغم من كل ما تقدم فان خلفاء العباسيين كانوا حكاماً عظاماً ؛ وكانت الامبراطورية العباسية امبراطورية عظيمة في التاريخ . لقد اختفت العقيدة المتوقدة التي قهرت الجبال ونشرت الاسلام في الآفاق كما تنتشر النار في الهشيم . وفقدت الحياة بساطتها وسذاجتها ، واختفت المظاهر الديموقراطية وقل الفرق بين امير المؤمنين وملك الفرس او امبراطور القسطنطينية اللذين ازال العرب الاولون ملكهما . لقد كانت حياة العرب في زمن محمد غريبة ، وكانت عزيمتهم تختلف عن عزيمة الجنود والجيوش التي كان يعتمد عليها الملوك . لقد برز هؤلاء العرب السذج شامخين في عالمهم فدانت امام زحفهم المظفر الجيوش الجرارة والامراء . كانت الشعوب الاخرى متململة من امرائها ، فلاح العرب كبارقة الامل لهذه الشعوب التي كانت ترقب الفرج والثورة الاجتماعية .

لقد تبدل الحال في زمن العباسيين، وانتقل عرب الصحراء الى القصور الشامخة واستبدلوا التمر بالوان الطعام الفاخر وارتاح العرب بذلك كل الارتياح ولم يعودوا يفكرون بضرورة التطور الاجتماعي . لقد حاولوا ان يفوقوا سالفيهم في الأبهة والعظمة فاقتبسوا الكثير من تقاليدهم السيئة ومنها عادة الحجاب التي ذكرتها لك في الرسالة السابقة .

انتقلت العاصمة العربية من دمشق في سوريا الى بغداد في العراق . وكان لهذا العمل أهمية بالغة لأن بغداد كانت مصيفاً لملوك فارس . وكانت بغداد ابعد من

دمشق عن اوروبا،مما جعل العباسيين يحوّلون انظارهم الى آسيا اكثر من اوروبا. ومع انه لا بد من قيام محاولات للاستيلاء على القسطنطينية والاشتباك مع الشعوب الاوروبية في حروب عديدة، الا ان معظم هذه الحروب كانت حروباً دفاعية . لقد انتهى عهد الفتوحات وكان على العباسيين ان يحافظوا على ذلك الجزء الذي وقع تحت أيديهم لانه كان يشمل رقعة واسعة بغض النظر عن انفصال كل من افريقيا واسبانيا عنه .

ألا تذكرين بغداد وهارون الرشيد وشهرزاد وقصص الف ليلة وليلة الممتعة؟ ان المدينة التي ازدهرت في ايام الخلفاء العباسيين هي مدينة الف ليلة وليلة. كانت مدينة فسيحة تزخر بالقصور والمحلات العامة والمدارس والكليات والاسواق والمتنزهات والحدائق الغناء . وكان تجارها يتعاملون مع بلدان الشرق والغرب. وكان لها جيش عرمرم من الموظفين الذين يراقبون جميع اطراف الامبراطورية. وكلما تعقدت شؤون الادارة قسمت الى ادارات عديدة . وربطت جميع انحاء الامبراطورية بالعاصمة بنظام البريد . وانتشرت المستشفيات وامّها الزوار من مختلف اقطار العالم وخصوصاً العلماء وطلاب العلم والفنانون؛وكان الخلفاء يرحبون بأهل العلم والفن .

كان الخليفة يعيش حياة بذخ وترف ويحيط به العبيد ، وكانت نساؤه يعشن حياة الحريم . وقد وصلت الخلافة العباسية الأوج في ايام هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩ م) وقدم السفراء الى هارون الرشيد من امبراطورية الصين والملك شارلمان في الغرب . وكانت بغداد آنذاك تفوق اوروبا (باستثناء اسبانيا العربية) في مضمار الادارة والتجارة والعلوم .

وتهمنا الفترة العباسية بوجه خاص بسبب إحياء العباسيين الرغبة في نشر العلوم. وللعلوم كما تعلمين مكان عظيم وفضل كبير في هذا العصر ، ونحن مدينون لبغداد بقسم كبير منه . ان العلم لا يقف مكتوف الايدي ينتظر الحوادث ان تأخذ مجراها ، ولكنه دائماً يحاول تعليل حدوث الاشياء . ان العلم يقوم بالتجربة تلو التجربة فينجح تارة ويخفق تارة ، ولكنه يضيف بهذه النتف التي يصل اليها الكثير

الى معرفة الانسان ان عالمنا الحديث يختلف اختلافاً كبيراً عن العالم القديم وعن عالم العصور الوسطى ، والفضل الاكبر في ذلك يرجع للعلوم لأن العصر الحديث يقوم على أساس العلم

وانا لنجد ان الاسلوب العلمي لم يكن مطبقاً في بلدان العالم القديم مثل مصر والصين والهند ، ونجد القليل منه في اليونان ، ولا نجده في روما . ولكن العرب امتازوا بهذه الروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث لقد تعلموا شيئاً من الطب والحساب من الهند التي كان علماؤها ورياضيوها يفدون بأعداد كبيرة الى بغداد . وكثير من الطلاب العرب ذهبوا الى طشقند في شمال الهند التي كان فيها جامعة عظيمة للطب . وقد ترجمت الكتب السنسكريتية الطبية والمواضيع الأخرى بصورة خاصة الى اللغة العربية . وتعلم العرب من الصين صناعة الورق وأشياء أخرى وبنى العرب على هذا الأساس العلمي الذي استقوه من غيرهم ابحاثاً عظيمة وتوصلوا الى اكتشافات عظيمة . لقد صنعوا اول مكبر ، وصنعوا اول بوصلة ، وكان اول اطباؤهم وجراحوهم ذوي شهرة عالمية طبقت آفاق اوروبا .

وكانت بغداد مركزاً لهذا الاشعاع الفكري . وكانت قرطبة عاصمة اسبانيا العربية مثيلة بغداد في دنيا الغرب . وكانت في العالم العربي مراكز علمية أخرى ازدهرت فيها العلوم ، ومنها القاهرة والبصرة والكوفة . ولكن بغداد التي وصفها احد المؤرخين بأنها « عاصمة الاسلام وعين العراق وقلب الامبراطورية ومركز الجمال والثقافة والفن » فاقت هذه المراكز جميعاً وكان عدد سكان بغداد يربو على مليون نسمة ، أي اكثر بكثير من سكان كلكتا او بومبي في يومنا هذا .

لعلك تودين ان تمر في انه يقال ان عادة لبس جوارب الرجال والنساء بدأت في بغداد عند الاثرياء . وكانت هذه الجوارب تسمى (موزا) ، مما يدل ان الكلمة الهندستانية قد اشتقت من تلك التسمية وكلمة (قميص) العربية دخلت أيضاً الى اللغة الفرنسية . وانتقل القميص والموزا من العرب الى البيزنطيين

ومنهم الى اوروبا .

كان العرب رحالين بطبعهم ، وقد واصلوا رحلاتهم وأسفارهم حتى عبروا البحر وأسسوا المستعمرات في أفريقيا وعلى سواحل الهند وفي الملايو والصين . ومن أشهر الرحالين العرب البيروني الذي زار الهند وكتب سفراً عن رحلاته .

وكان العرب أيضاً مؤرخين ، وترجع معرفتنا للعرب الى ما كتبه هؤلاء المؤرخون . ونحن نعرف مقدرة العرب في كتابة القصص اللطيفة والمغامرات . وإن آلاف الناس الذين لم يسمعوا شيئاً عن اسماء الخلفاء العباسيين وامبراطوريتهم العظيمة يعرفون بغداد التي جاء ذكرها في الف ليلة وليلة انهم يعرفون بغداد مدينة الحب والجمال والمغامرة . وكثيراً ما كانت دول الخيال اصدق وابقى من دول الحقيقة والواقع

تلا وفاة هارون الرشيد نزاع في الامبراطورية العربية . ثم حلت الفوضى في جسد الامبراطورية وانتزعت اجزاء منها ، واصبح بعض الولاة حكاماً وراثيين وضعف الخلفاء شيئاً فشيئاً حتى اصبح بعضهم لا يحكم الا بغداد نفسها وبعض القرى المحيطة بها . وقد جر الجنود احد الخلفاء من قصره وقتلوه وظهر بعض الرجال الاقوياء الذين امسكوا على السلطة الحقيقية في ايديهم .

وهكذا تلاشت الوحدة الاسلامية واصبحت في خبر كان . وظهرت الدول المستقلة في كل مكان بين مصر وخراسان في آسيا الوسطى . وظلت القبائل الرحل في الشرق كما كانت في السابق ، تزحف نحو الغرب واعتنق الاتراك القدماء في آسيا الوسطى الاسلام وزحفوا الى بغداد واحتلوها . ويعرف هؤلاء بالاتراك السلاجقة . وقد اخضع هؤلاء جيش القسطنطينية البيزنطي وأذهلوا بذلك اوروبا بعد ان ظنوا ان العرب والمسلمين قد ضعفت شوكتهم وزال خطرهم . ولكن الحقيقة ان العرب قد ضعفوا فعلاً غير ان الاتراك السلاجقة برزوا على المسرح الاسلامي ورفعوا راية الاسلام وقارعوا اوروبا .

شعرت اوروبا بالخطر وخفت لمبارزة المسلمين ، وسنرى انها نظمت شعوب اوروبا النصرانية في حملات صليبية لمنازلة المسلمين واستخلاص المدينة المقدسة من

ايديهم . وبقيت النصرانية والاسلام اكثر من مئة عام يتطاحنون للسيادة في سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى الى ان انهك احدهما الآخر وارتوى كل شبر من تلك البلاد بالدماء البشرية. وقد نجم عن ذلك القتال كساد تجارة المدن الزاهرة آنذاك واستحالت ربوعها النضرة الى ارض مقفرة .

هكذا دارت رحى الحرب بين الطرفين وقبل ان تضع هذه الحرب اوزارها بزغ في آسيا في ارض منغوليا نجم المغولي المعروف بجنكيز خان الملقب بالزلزال. وقد تمكن جنكيز خان واتباعه من القضاء على بغداد وامبراطوريتها العتيدة وتحولت بغداد الى كومة من الرماد قبر فيه اغلب سكانها البالغ عددهم مليوني نسمة . وكان ذلك عام ١٢٥٨ م .

وقد عادت بغداد مؤخراً مدينة زاهرة وعاصمة لدولة العراق الحديثة. ولكنها في الواقع مجرد ظل لسالفتها لأنها لم تنهض بعد من الدمار الذي جره عليها المغول.

النظام الاقطاعي

٤ يونيو ١٩٣٢

•

استعرضنا في رسالتنا الاخيرة لمحة عن بداية تطور كل من فرنسا والمانيا وروسيا وانجلترا كما نعرفها اليوم ، ولا تظني ان الناس كانوا في تلك الايام ينظرون الى تلك البلدان كما ننظر نحن اليها اليوم فنحن اليوم نفرق بين هذه البلدان كشعوب مختلفة مثل الشعب الانجليزي والفرنسي والالماني ، وكل واحد من هؤلاء ينظر الى بلده كوطنه الخاص . وهذه هي النزعة القومية التي تجلت بوضوح في هذه الايام . وكفاحنا في الهند اليوم هو كفاح قومي .

غير ان هذه الفكرة القومية لم تكن موجودة في ذلك الزمان . كانت هناك فكرة المسيحية ؛ وكان الناس يؤلفون جماعات او مجتمعات مسيحية تقف في وجه المسلمين او وجه الملحدين . وكانت لدى المسلمين كذلك فكرة الانتماء الى دار الاسلام التي تميزهم عن غيرهم من الكفار .

غير ان هذه الفكرة المسيحية او تلك الفكرة الاسلامية لم تكن مسيطرة على جميع نواحي الحياة اليومية إلا في الحالات الخاصة التي كانت الحاجة فيها تتطلب ايقاظ الحماس الديني لدى الناس ودعوتهم لخوض الحرب دفاعاً عن المسيحية او الاسلام .

وكان يقوم بين الناس مقام القومية علاقة عجيبة تربط الناس بعضهم ببعض . وقد عرفت هذه العلاقة بالاقطاع . ولنذكر انه قد تبع سقوط روما اضمحلال

النظام الاجتماعي الغربي وقيام الفوضى والعنف والاضطراب في كل مكان واستولى الاقوياء على ما قدروا عليه وشيدت الحصون المنيعـــة التي كان اصحابها من اللوردات يخرجون للغزو ويشتبكون مع غيرهم من اللوردات . وكان على الفلاحين طبعاً ان يتحملوا القسم الأوفر من الشقاء . وهـذه الفوضى هي التي تمخضت عن نظام الاقطاع .

لم يكن الفلاحون منظمين ، فلم يقووا على الصمود امـام هؤلاء اللوردات القراصنة ولم تكن هناك حكومة مركزية تحمي الفلاحين، فوجدوا ان الأصلح لهم ان يصالحوا هؤلاء اللوردات اصحاب الحصون المنيعة الذين سلبوهم اموالهم . واضطر الفلاحون ان يقدموا ثمناً للمصالحة جزءاً مما تدره الارض الى اللورد وان يقوموا بخدمته بشتى الطرق حتى لا يسترسل بنهبهم ومضايقتهم وحتى يقوم هو بحمايتهم من أمثاله من اللوردات . وقد تعاهد هذا اللورد بدوره مع لورد آخر يملك حصناً اكبر من حصنه . ولما لم يكن اللورد الصغير يستطيع ان يقدم للورد الكبير محصولاً زراعياً لأنه لم يكن مزارعاً ، فانه تعهد بتقديم الخدمة العسكرية أي القيام بالحرب في سبيل اللورد الكبير كلما دعت الحاجة الى ذلك . وكان اللورد الكبير يقدم للورد الصغير الحماية . وعرف اللورد الاكبر بالمتبوع واللوردالأصغر بالتابع . وهكذا كان النظام يتدرج حتى يصل الى قمة الهرم الاقطاعي حيث يقوم الملك . والواقع ان هذا النظام لم يتوقف عند الملك بل أدخل فيه الثالوث المقدس الذي يرئسه الله .

هذا هو النظام الاقطاعي الذي نما من الفوضى الضاربة اطنابهـــا في اوروبا آنذاك . ولنذكر انه لم تكن هناك حكومة مركزية بما لهذه الكلمة من معنى ، ولم يكن هناك شرطة او ما يشابهها، بل كان صاحب الارض هو سيدها ومالكها وسيد كل ما دب عليها ، وكأنه ملك صغير يقدم الحماية لأتباعه مقابـل تقديمهم الخدمـة وجزءاً من محصول حقولهم . وكان هو المقطـع وكانوا هم المقطَعين او الاتباع . وكان هو بدوره راعياً للارض التي اقطعه اياها سيده الأعلى منه، مقابل تقديمه الخدمة العسكرية له .

ولم يكن رجال الكنيسة بعيدين عن النظام الاقطاعي بل كانوا - بالاضافة الى رئاستهم الدينية - اسيادا اقطاعيين . وقد نتج عن ذلك أن اصبح نصف اراضي المانيا وثروتها تقريباً في ايدي الاساقفة والقسس. وكان البابا نفسه سيداً اقطاعياً.

وتلاحظين اذن ان هذا النظام الاقطاعي كان مبنياً على التفاضل بين الناس والطبقات ضارباً صفحاً عن مبدأ المساواة . وكانت قاعدة الهرم مؤلفة من العبيد الذين تقع عليهم اعباء النظام الاجتماعي وما يفرضه عليهم الاقطاعيون الاسياد (على اختلاف درجاتهم) واللوردات والملك . ويضاف الى ذلك العبء تكاليف الكنيسة بما فيها من اساقفة وقسيسين وكرادلة . ولم يكن اللوردات - كبيرهم وصغيرهم - يؤدون أي عمل منتج للطعام او جالب للثروة لأنهم اعتبروا ذلك محطاً من قدرهم السامي . وكانت المنازعات شغلهم الشاغل. فاذا توقفت الحرب انصرفوا الى الصيد والمبارزة والرياضة. وكانوا ايضاً مجرد أميين لم يعرفوا الوسائل المهذبة لقضاء اوقاتهم فكرسوا وقتهم للقتال والطعام والشراب . وهكذا القي العبء الأكبر في أنتاج الطعام والحاجيات الأخرى على الفلاحين واصحاب الحرف .

وكان على رأس هذا المجتمع الملك الذي اعتبر نفسه تابعاً لله .

هذه هي الفكرة التي تبلور حولها النظام الاقطاعي. وكان السادة الاقطاعيون مسؤولين اسمياً عن حماية اتباعهم وعبيدهم ، ولكنهم كانوا في الواقع مجرد كابوس ثقيل عليهم . ولم يكن الملك والسادة الاعلون يراقبون سلوك السادة الأدنى منهم كما ان الفلاحين كانوا اضعف من أن يقاوموا طلبات اسيادهم

ولما كان للسادة اليد العليا، فانهم ابتزوا من اتباعهم وعبيدهم اقصى ما يمكنهم ابتزازه ولم يتركوا لهم الا النزر اليسير الذي لا يكاد يمسك رمقهم . لقد اضفت ملكية الارض على السيد كساء من النبل واصبح السيد الذي اغتصب تلك الارض وبنى عليها حصنه المنيع نبيلا يحترمه الاتباع جميعاً وقد هيأت هذه الملكية للسيد القوة التي استخدمها في اغتصاب اموال الفلاحين والصناع والعمال. وقد يسرت القوانين له هذه المهمة لأن صياغة القوانين كانت منوطة به وباصدقائه وهذا هو السبب الذي حمل البعض على المناداة بالغاء ملكية الافراد للأرض وجعلها

ملكاً للمجتمع ، لأن الارض اذا كانت ملكاً للدولة او المجتمع فهي في الواقع ملك لجميع الناس (لا لفرد واحد) ولا يتمكن احد منهم ان يستغل غيره او ان ينال حظاً أوفى من حظ جاره وعلى حساب جاره . ولكن هذه الآراء لم تظهر الا بعد تفكك الاقطاع الذي لم تدر بخلد اهله مثل هذه الآراء المتطورة . كان الناس في تلك الايام تعساء ، ولكنهم لم يروا طريقاً للخلاص من شقائهم فاستكانوا وراحوا يعملون بتعب ونصب حتى تعودت نفوسهم على الخضوع والخنوع . ولا يخفى ان الشعب الذي يعرف الخضوع يتحمل كل شيء . هكذا غدا الاقطاع مقسوماً الى فئتين : فئة الاسياد الاقطاعيين وحاشيتهم من جهة وفئة الفقراء الكادحين من الجهة الاخرى . وكانت قلعة النبيل الحجرية محاطة بأكواخ العبيد الخشبية والطينية . وهذا يعني انه كان هناك عالمان بعيد احدهما عن الآخر : عالم السيد النبيل وعالم التابع العبد. وربما كانت نظرة السيد الى عبده لا تختلف كثيراً عن نظرته الى القطيع الذي كان يستخدمه في ارضه.

وكان بعض الرهبان المساكين يحاولون احياناً ان يحموا العبد من سيده ولكن محاولاتهم ذهبت ادراج الرياح لان القساوسة انفسهم كانوا منضمين الى صف السادة كما كان الاساقفة انفسهم من السادة الاقطاعيين فعلاً.

لم تعرف الهند هذا النوع من الاقطاع بالذات إلا انها عرفت شيئاً قريباً منه. والواقع ان الولايات الهندية بما فيها من حكام ونبلاء ولوردات لا تزال تحتفظ بالكثير من العادات الاقطاعية . ومع ان نظام الطبقات عندنا يختلف عن النظام الاقطاعي ، الا انه قسم الامة الى طبقات متفاوتة . والصين كما ذكرت لك سابقاً – لم تعرف النظام الاوتوقراطي مطلقاً او نظام الطبقات المتفاوتة لانها كانت تتبع نظاماً معيناً من الفحوص يفتح الباب امام اي شخص لشغل اعلى المناصب في البلاد . وكانت هذه الفحوص طبعاً معرضة لبعض المحاباة .

يتضح لنا مما سبق ان النظام الاقطاعي لم يترك مجالاً لقيام المساواة او الحرية وان كانت تظهر فيه فكرة بدائية لتمييز بعض الحقوق والواجبات . فقد كان من حق النبيل الاقطاعي ان يحصل على خدمة اتباعه وعلى نسبة من محصولهم

الزراعي ؛ وكان الواجب المفروض عليـــه ان يقوم بحماية اتباعه . ولكن العادة منذ القدم ان يتذكر الانسان حقوقه وان يغضي عن واجباته . ولدينـا حتى اليوم اقطاعيون في بعض البلدان الاوروبية والهند يتقاضون من الفلاحين اجوراً باهظة دون ان يقدموا اي مقابـل . ولا يفكرون بواجباتهم لانها ماتت منذ زمن بعيد .

اننا نعجب كيف تنازلت القبائل البوبرية تدريجياً عن حريتها (التي كانت مولعة بها) واعتنقت هـذا النظام الاقطاعي الذي يتنافى كلياً مع الحرية . كانت عادة هذه القبائل ان تختار رئيسها وان تراقب سلوكه ، اما الآن فقد اصبح الحاكم اوتوقراطياً مستبداً ، وزال مبدأ الانتخاب . ولا اعلم السبب في هذه الظاهرة ، ولكني اعتقد ان انتشار مبادىء الكنيسة وتعاليمهـــا كان له نصيب في انتشار الافكار المنافية للديمقراطية . لقد اصبح الملك ظل الله في ارضه ، فكيف يستطيع الانسان ان يعصي امر الله او ينازعه ؟ وهكذا ضم النظام الاقطاعي في طياته كلاً من الارض والسماء !

واننا نرى في الهند نفسها كيف ان الآراء الآرية المنادية بالحرية تتبدل تدريجاً وتضعف حتى تصبح نسياً منسياً ، مع ان العصور الوسطى احتفظت بقليل منها .

ولكن الحرية اخذت تتسرب ثانية الى اوروبا عن طريق الاوضاع الجديدة التي اخذت بالظهور . وتذكرين انه كان بالاضافة الى السادة والعبيد قوم آخرون هم اصحاب الحرف والتجار الذين كانوا خارجين عن نطاق النظام الاقطاعي . ومع ان عصر الفوضى لم يتح الفرصة لقيام التجارة الواسعة وازدهار الحرف الحرة ، الا ان اهمية التجارة والحرف اخذت تنمو تدريجياً وتتوسع مما جلب لهؤلاء الناس الثراء وجعل النبلاء يلجأون اليهم لاقتراض المال . وقـــام هؤلاء باقراض المال للنبلاء مقابل امتيازات اعطيت اليهم وعززت مركزهم . واخذت الاكواخ الحقيرة المحيطة بحصون النبلاء بالاختفاء وبرزت المدن الصغيرة ببيوتهـــا المحيطة بالكنيسة او الكاندرائية او مجلس البلدة . وقد كوّن التجار واصحاب الحرف الجمعيات والنقابات ، واصبحت مراكزها الرئيسية تعرف بقاعات النقابات ، وعرفت

فيما بعد بقاعات البلديات .

واصبحت المدن العديدة مثل كولونيا وفرنكفورت وهمبرج منافسة لسلطة نبلاء الاقطاع وقد برزت في هذه المدن طبقة جديدة من التجار والباعة كان لها من القوة ما مكنها من مناوأة النبلاء . واستمر النزاع بينهما ، وكثيراً ما كان الفلاح ينحاز الى صف المدن لأنه كان ينظر الى نبلائه بعين الحيطة والحذر .

أكتفي بهذا القدر من الاقطاع خوفاً من الاسترسال . بدأت قولي بأن هذه الأيام التي نتحدث عنها لم تعرف القومية ، اذ كان الناس يحسبون ان واجبهم ينحصر في ولائهم للنبلاء والسادة الاقطاعيين الذين حلفوا لهم (لا لبلادهم) يمين الطاعة والولاء . فاذا قام سيد اقطاعي بحرب ضد الملك تبعه عبيده في حربه . وهذه الفكرة تختلف تماماً عن فكرة القومية التي نشأت فيما بعد .

قرطبة وغرناطة

١٦ يونيو ١٩٣٢

●

تنقلنا بين آسيا واوروبا عبر السنين وتوقفنا عند العام الألف بعد الميلاد وألقينا نظرة على حالة العالم آنذاك . وربما كنا قد اسقطنا من حسابنا تاريخ اسبانيا تحت حكم العرب ، فعلينا ان نعود اليها لنضعها في موضعها المناسب .

ولعلك تذكرين ان القائد العربي اجتاز البحر من افريقيا الى اسبانيا عام ٧١١ م . ذلك القائد هو طارق بن زياد الذي نزل بالمكان المعروف باسمه . وتمكن العرب من اخضاع اسبانيا في خلال عامين من ذلك التاريخ وان يضموا اليها البرتغال فيما بعد وتابع العرب سيرهم حتى دخلوا فرنسا وانتشروا في جنوبها وقد ارعب هذا الزحف الفرنجة وغيرهم من القبائل فانضموا تحت لواء شارل مارتل لصد العرب . وانتصر هذا الحلف على العرب في معركة تور القريبة من بواتييه في فرنسا

كانت هزيمة العرب بعيدة الأثر لأنها وضعت حداً لآمال العرب في اوروبا وقد اشتبك العرب بعد ذلك مع الفرنجة وغيرهم من مسيحيي فرنسا مراراً في حروب كانت تنتهي احياناً بانتصار العرب ودخولهم فرنسا وتنتهي احياناً بهزيمة العرب وارتدادهم الى اسبانيا . وقد هاجم شارلمان العرب في اسبانيا الا انه ارتد مهزوماً . وظل التوازن محفوظاً الى اجل بعيد ، فلم يتعد العرب اسبانيا في حكمهم . وهكذا كانت اسبانيا جزءاً من الامبراطورية العربية الواسعة الممتدة

من افريقيا الى منغوليا . ولكن الامر لم يدم كذلك ، لأن العباسيين تغلبوا على الامويين. وكان حاكم اسبانيا اموياً فرفض الاعتراف بالخليفة العباسي، وانفصلت اسبانيا عن جسد الامبراطورية العربية. ولم يتمكن الخليفة العباسي ان يفعل شيئاً في هذا الأمر لأن اسبانيا كانت بعيدة عن بغداد ولأن الخليفـــة كان مشغولاً بشؤون اخرى . ولكن شعور العداء ظل مستحكماً بين الدولتين .

كان انفصال اسبانيا عن الوطن الاصلي خطأ كبيراً لأن ذلك ترك العرب في اراض بعيدة عن موطنهم الأصلي وجعلهم محاطين بالأعداء الذين يفوقونهم عدداً، ولم يكن لديهم من ينجدهم في شدتهم . والواقع ان عرب اسبانيا كانوا شديـدي الثقة بالنفس ، وبرهنوا فعلاً على قوتهم لانهم استطاعوا ان يحتفظوا بالجزء الاكبر من اسبانيا حوالي ٥٠٠ سنة صامدين امام ضغط الشعوب النصرانية الشمالية .وقد احتفظوا لمدة ٢٠٠ سنة اخرى بجزء أصغر من اسبانيا الذي عمر اكثر من بغداد نفسها التي درست معالمها قبل ان يغادر العرب اسبانيا بزمن طويل .

ان حـكم العرب لأجزاء من اسبانيا مدة ٧٠٠ سنة أمر يدعو الى الاكبار ، ويزيدنا اكباراً لهم تلك المدنية الرفيعة والثقافة العربية الراقية التي وصفها احـد المؤرخين بقوله :

« لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة التي كانت مفخرة العصور الوسطى والتي حملت نبراس العلوم والحضارة الزاهرة الى العالم الغربي الذي كان مغموراً في الجهل والوحشية » .

ظلت قرطبة عاصمة لمملكة العرب مدة ٥٠٠ سنة . وكان سكانها يزيدون عن مليون نسمة ؛ وكان بها البساتين النضرة والحدائق الغنـــاء الممتدة مسافة عشرة اميال . ولها ضاحية تمتد ٢٤ ميلاً . ويقال انها كانت تحوي ٦٠ الف قصر و ٢٠٠ الف بيت و٨٠٠ الف متجر و٣٨٠٠ مسجد و٧٠٠ حمام عام . ومع مـا في هذه الارقام من مبالغة ، الا انها تعطينا صورة عن عظمة هذه المدينة التي كثرت فيها المكتبات ، ومنها مكتبة الامير التي كانت تحوي ٤٠ الف مجلد . وقـد طبقت شهرة جامعة قرطبة الآفاق . واكتظت قرطبة الى جانب ذلـــك بالمدارس

الابتدائية المجانية للفقراء . وقد كتب احد المؤرخين يقول :

« بينما كان معظم الناس في قرطبة يقرأون ويكتبون ، كان اهل اوروبا المسيحيون في جهل مطبق اللهم الا رجال الدين منهم . ولم ينج من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوروبية . »

هذه هي قرطبة العظيمة منافسة بغداد العظيمة . لقد طارت شهرتها في ارجاء اوروبا حتى سماها الكتاب الالمان بزينة الدنيا ، وقد ام جامعتها الطلاب من جميع انحاء الدنيا ، وشعت منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات اوروبا الكبرى كجامعة باريس واكسفورد وشمال ايطاليا . وكان من فلاسفتها في القرن الثاني عشر الميلادي ابن رشد الذي نفاه الامير من اسبانيا على اثر خلاف معه فذهب الى باريس واستقر فيها

وقد عرفت اسبانيا — كغيرها من البلدان الاوروبية — نوعاً من النظام الاقطاعي ، وظهر فيها النبلاء الاقوياء الذين كانوا يصطدمون مراراً مع الامير (وهو الحاكم الأعلى لاسبانيا) وكان لهذه الاشتباكات اثر سيىء على العرب يفوق اثر الاعتداءات الخارجية . وكانت الدويلات المسيحية في تلك الاثناء تقوي نفسها لمقاتلة العرب ومطاردتهم الى جنوب البلاد .

كانت امارة اسبانيا عند انتهاء الالف الاولى بعد الميلاد تكاد تشمل اسبانيا بأمرها وجزءاً من جنوب فرنسا. ولكن الوهن بدأ يدب فيها وخصوصاً على اثر قيام المنازعات الداخلية . وقد تعرضت الحضارة العربية المعروفة بالفنون والتقدم والترف الى قلاقل وهزات قام بها الفقراء المحرومون منها . ونشبت بعد ذلك حرب اهلية تسببت في ضياع الولايات الاسلامية وتفكك الامبراطورية العربية الاسبانية . وظل العرب على تلك الحالة من التفكك والتدهور حتى سقطت قرطبة عام ١٢٣٦ في يد ملك قشتالة المسيحي .

ومع ان العرب اندحروا وتقهقروا الى الجنوب، الا ان مقاومتهم لم تمت لأنهم اقتطعوا لانفسهم مملكة في غرناطة قدر لها ، على صغرها ، ان تظل نبراساً للحضارة الاسلامية ، وان كان ذلك بصورة مصغرة . وما زالت الحمراء في غرناطة

شاهدة بأقواسها واعمدتها وفنها العربي على مدى تقدم الفن العربي في تلك الايام . ان الفن العربي هو ما تزينه مراراً على البنايات العربية والابنيـــة المستوحاة من الفن الاسلامي . وقد وصل العرب بالفن الى حد انهم كانوا ينسجون آيات قرآنية على اقواسهم جاعلين منها زينة جميلة . ولا غرو في ذلك لأن الحروف العربية طيعة وصالحة للزينة .

عاشت مملكة غرناطة ٢٠٠ عام وهي معرضة لتهديد الدويلات المسيحية كدولة قشتالة التي كانت تضايقها وتفرض عليها الجزية في بعض الاحيـان . ولولا تنازع الدويلات المسيحية فيما بينها لما قدر لغرناطة أن تعمر هذه المدة الطويلة . وقد وقع في عام ١٤٦٩ حادث هام تم به توحيد ثلاث من هذه الدويلات وهي قشتالة وأراغون وليون . ذلك الحادث هو زواج فرديناند وايزابيـلا ، وكانا حاكمين لأعظم ولايتين في اسبانيا . وقد تغلب فرديناند وايزابيلا على العرب وأنهيا حكمهم في اسبانيا بعد قتال طويل ابدى فيه العرب بسالة كبيرة . وقـــد حاصر الاعداء غرناطة وقطعوا عنها الطعام فاضطرت الى التسليم في عام ١٤٩٢

وقد نزح كثير من العرب من اسبانيا الى افريقيا . وما زال على مقربة من غرناطة المكان الذي يدعى : « حسرة المغاربة الأخيرة »

وبقي عدد كبير من العرب في اسبانيا ، غير ان معاملة الاسبانيين لهم تعـد صفحة سوداء في تاريخهم لما ارتكبوه من مذابح وحشية ونكث فاضح للعهود التي قطعوها على انفسهم . وهذه هي الفترة التي تأسست فيها في اسبانيا محاكم التفتيش واتخذتها الكنيسة الرومانية ذريعة وسلاحاً فتاكاً تسحق به كل من لم يذعـــن لأوامرها . وقد حمل اليهود – الذين ذاقوا طعم النعيم ابان الحكم العربي – على تغيير دينهم واحرق عدد كبير منهم رجالاً ونساءً واطفالاً . ويروي احـــد المؤرخين ان العرب اجبروا على نبذ ملابسهم العربية الزاهية ولبس السراويـل والقبعات . واجبر العرب كذلك على ترك لغتهم وتقاليدهم ومراسمهم واسمائهم العربية ، وحملوا على استعمال اللغة والتقاليد والاسماء الاسبانية . وقد ثار العرب طبعاً على هذه الوحشية ، ولكن ثوراتهم اخمدت بلا رحمة ولا شفقة .

ويبدو ان الاسبانيين المسيحيين كانوا يعارضون فكرة الاغتسال والاستحمام. ولعل ذلك ناجم عن شغف العرب بها واقامتهم الحمامات العامة في كل مكان. وقد غالى الاسبانيون في كرههم للاستحمام حتى انهم اصدروا مرسوماً يحرم على العرب ونسائهم واطفالهم ان يغتسلوا او يستحموا سواء في بيوتهم او في اي مكان آخر، وان تهدم جميع الحمامات العامة التي بناها العرب.

واذا عدت النظافة عيباً في العرب، فقد اسند اليهم عيب آخر الا وهو التسامح الديني! ويكاد المرء لا يصدق ان ذلك هي التهمة الرئيسية الموجهة للعرب في كتاب رئيس اساقفة فالنسيا الذي وضعه في عام ١٦٠٢ بعنوان (إلحاد العرب وخياناتهم) وطالب فيه باقصاء العرب عن اسبانيا. وقد قال: «ان العرب يحبذون جداً حرية الضمير في الشؤون المتعلقة بالدين، شأنهم في ذلك شأن الاتراك وبقية المسلمين الذين تركوا لاتباعهم الحرية الدينية». ولعمري ما اجمل هـذا المدح الذي قصد به ذم مسلمي اسبانيا الذين يمتازون بتسامحهم الديني في الوقت الذي استرسل فيه المسيحيون الاوروبيون في التعصب والغلظة!

طرد ملايين العرب من اسبانيا عنوة وذهب معظمهم الى افريقيا وقليل الى فرنسا. وعلينا ان نذكر ان العرب مكثوا في اسبانيا مدة ٧٠٠ سنة، ولا بد انهم في هذه الفترة الطويلة قد اختلطوا الى حد ما بأهالي البلاد الاصليين بحيث اكتسبوا كثيراً من عاداتهم. ولذا فلا بد ان يكون العرب الاسبانيون المتأخرون مختلفين عن عرب بغداد، كما لا بد وان تكون الدماء العربية قـد جرت في عروق اهل اسبانيا.

ذهب قليل من العرب الى جنوب اسبانيا ووصلوا الى سويسرا لا كحكام ولكن كمستوطنين ولربما يلاحظ المرء احد الفرنسيين من كان وجهه عربي الشكل.

هكذا انحسر الحكم العربي عن اسبانيا وأفل نجم الحضارة العربية. وسنرى كيف اضمحلت الحضارة العربية في آسيا. ومع ان هذه الحضارة قد تركت أثرها البعيد وطابعها في كثير من الثقافات الاخرى، الا انها لم تبعث من جديـد بصورة تلقائية.

وقويت اسبانيا – بعد مغادرة العرب لها – على يد فرديناند وايزابيـــلا . وجلب اكتشاف امريكا ثروات طائلة الى اسبانيا جعلتها مـــدة من الزمن قوة كبيرة مسيطرة على اوروبا . ولكنها عادت فضعفت ، واسترسلت في نوم عميق حالمة بالعصور الوسطى وغير عابئة بتقدم جاراتها الاوروبيات . وقد كتب احد المؤرخين الانجليز واسمه لين بول عن العرب في اسبانيا قائلًا :

« ظلت اسبانيا قروناً من الزمن مصدراً المدنية والفنون والعلوم والاشعاع الفكري في شتى مظاهره . ولم يصل اي شعب من الشعوب حتى هذا الوقت الى درجة العرب . فقد كان دهاء فرديناند وايزابيـلا وامبراطورية شارل دون مـا وصل اليه العرب في اسبانيا . لقد طرد العرب ، وشع قمر اسبانيا المسيحية فـترة قصيرة بشعاعه المستعار ، ولكنه خسف وظل مخسوفاً حتى اليوم . ان شواهـد عظمة المغاربة قائمة على الربوع المهجورة التي كانت يوماً مـا معمورة بالاعنـــاب والزيتون وسنابل القمح . لقد انقلب الشعب الفطن الواعي الى شعب بليد جاهل انحط الى درجات الخمول ونزل عن مصاف الامم فاستحق الخضوع والنسيان » .

وربما كان هذا حكماً جائراً ؛ غير انه قامت في اسبانيا قبل عام ثورة طردت الملك واحلت الجمهورية في البلاد ، وربما كان على يديها اعلاء شأن اسبانيا ثانيـــة بين الأمم .

الحروب الصليبية

١٩ يونيو ١٩٣٢

●

حدثتك في رسالة سابقة كيف ان البابا ومجلس الكنيسة اعلنا الحرب المقدسة على المسلمين لاستخلاص بيت المقدس. لقد اخافت قوة الاتراك السلاجقة المتصاعدة دول اوروبا وخصوصاً القسطنطينية لانها كانت اقرب من غيرهـا الى الخطر. وقد أثارت القصص التي اشاعها المسيحيون عن معاملة الاتراك السيئـه للحجاج المسيحيين في القدس غضب الاوروبيين وحماسهم، فأصدر البابا ومجلس الكنيسة نداء الى جميع نصارى اوروبا ناشدهم فيه ان يهبوا لانقاذ بيت المقدس.

وهكذا بدأت الحملات الصليبية عام ١٠٩٥ م، وظلت الحرب مشتعـلة بين الصليب والهلال مدة ١٥٠ عاماً تقريباً. وقد تخللت هذه الحرب فترات طويـلة من الاستراحة، مع ان الحرب لم تضع اوزارها كلياً، وظلت موجات المسيحيين تتدفق الى الارض المقدسة سعياً وراء القتال او الموت. ولكن الصليبيين لم يجنوا من هذه الحملات الثمرة التي كانوا يهدفون اليها. لقد احتلوا القدس فعلاً، ولكنهم اجلوا عنها، ووقعت في يد الاتراك. وكانت الثمرة الرئيسية للحروب الصليبية الشقاء والدمار واراقة الدماء وازهاق ارواح الملايين من الصليبيين والمسلمين.

كان العباسيون يحكمون بغداد ولكن سلطتهم أصبحت اسمية لأن امبراطوريتهم تفككت واستقل كثير من الولاة. وكان محمود الغزني الذي غزا الهند مراراً أحد الولاة الذين كانوا يهددون الخليفة اذا لم يستجب لطلباتهم. وكانت السلطـة

الفعلية في بغداد في يد الاتراك . وقد ظهر فرع جديد من الاتراك يعرفون بالسلاجقة قاموا بتوطيد سلطتهم وتوسيع نفوذهم حتى طرقوا ابواب القسطنطينية نفسها . واصبح رؤساء السلاجقة يلقبون بالسلاطين فلما قامت الحروب الصليبية وقف السلاطين في وجه الصليبيين .

لقد وحدت الحروب الصليبية شعوب اوروبا في غاية واحدة وهي استرجاع بيت المقدس من يد من سموهم بالكفار . وقد طغى الحماس على كثير من الاوروبيين فتركوا اوطانهم وممتلكاتهم وساروا الى الشرق معتقدين انهم ماضون الى هدف نبيل بعد ان اقنعهم البابا ان ذهابهم هذا يكتب لهم الغفران ومحو الخطايا والذنوب. غير ان هناك سبباً آخر للحملات الصليبية وهو ان روما ارادت اخضاع القسطنطينية لأن كنيستها كانت ارثوذكسية ومستقلة عن كنيسة روما ، ولا تعترف بالبابا بل تدعوه محدث نعمة وقد ولد هذا الموقف حقد البابا على القسطنطينية وصمم على اخضاعها ووضعها تحت نفوذه ولم يجد البابا ما يتذرع به خيراً من اقامة حروب صليبية والادعاء بمقاتلة (الكفار) وهذا العمل هو احد الامثلة على دهاء السياسيين واساليبهم المعوجة . وعليك ان تتذكري هذا التنافس بين روما والقسطنطينية لأنه برز في مناسبات عديدة إبان الحروب الصليبية

ولا تنسي ابداً ان هناك سبباً آخر للحروب الصليبية وهو العامل الاقتصادي. لقد كان اصحاب التجارة والمصالح في البندقية وجنوة يقاسون من كساد تجارتهم بسبب اغلاق السلاجقة لكثير من طرقهم التجارية المؤدية الى الشرق ولم يكن الرجل العادي يعرف هذه الاسباب الحقيقية الخفية ، ولم يكن يعلم ان الزعماء – كزعماء الحروب الصليبية – انما يلجأون الى الخطب الرنانة والتظاهر بالحرص على الدين ومبادىء العدالة لإخفاء اهدافهم الحقيقية . لقد خدعت الشعوب آنئذ ، وما زالت تخدع حتى اليوم !

حوت الحروب الصليبية ما هب ودب . كان بعض القادمين مخلصاً في سعيه ، ولكن الكثيرين كانوا يسعون وراء الغنائم والاسلاب . كان في الحملات المتدينون، والى جانبهم المجرمون العريقون في دنيا الاجرام . ويشهد التاريخ ان كثيراً

من رجال الحملات الصليبية قد ارتكبوا ابشع الجرائم واشنعها ، وشغلوا باجرامهم هذا حتى انهم لم يصلوا الى بيت المقدس. وقد انشغل البعض بقتل اليهود في طريقهم او ذبح اخوانهم من المسيحيين . وقد اثار تصرفهم هذا نقمة المسيحيين في البلدان التي كانوا يمرون بها مما جعل هؤلاء يهبون لقتال الصليبيين الغزاة وطردهم .

واخيراً وصل الصليبيون الى القدس بقيادة جودفري النورماندي ، فاستولى على المدينة واقام فيها مذبحة هائلة استمرت اسبوعاً وقد وصف هذه المذبحة شاهد عيان فرنسي بقوله : « وصل الدم الى رواق المسجد والى الركبة والى مروج الخيل . » واصبح جودفري ملكاً على القدس .

غير ان سلطان مصر صلاح الدين الايوبي خلص القدس من يد الصليبيين بعد سبعين سنة من الاحتلال . وقد أثار هذا العمل الصليبيين ثانية فقاموا بحملة اشترك فيها الملوك والاباطرة الاوروبيون. غير ان النجاح لم يحالفهم لانهم اختلفوا فيما بينهم على القيادة .

وقد حصلت اثناء هذه الحملة حوادث قاسية مرعبة ، كما برزت الوان من النبل والفروسية ابداها قواد الطرفين في مناسبات عديدة . كان بين صفوف الصليبيين ريكاردوس قلب الأسد ملك انجلترا المعروف بشجاعته ، وكان بين صفوف المسلمين قائدهم صلاح الدين المعروف بفروسيته التي شهد له بها الصليبيون انفسهم . ويقال ان ريكاردوس قد اعياه الجو فمرض ولزم الفراش . ولما وصل الخبر الى صلاح الدين ارسل رجاله الى قمم الجبال ليحضروا الثلج الى خصمه . وقد رويت قصص اخرى من هذا القبيل . ولعلك قد قرأت كتاب والتر سكوت بعنوان (تالسمان) .

وقد توجه جماعة من الصليبيين الى القسطنطينية واستولوا عليها وطردوا منها الامبراطور الروماني الشرقي واسسوا مملكة لاتينية وكنيسة رومانية . ولم تنج القسطنطينية من مذابح الصليبيين او النيران التى اشعلوها في المدينة . ولكن المملكه اللاتينية لم تعمر طويلاً لان يونانيي الامبراطورية الشرقية تمكنوا من طرد اللاتينيين من القسطنطينية بعد حوالي ٥٠ عاماً . وعاشت الامبراطورية الشرقية مدة ٢٠٠ عام بعد ذلك الى ان قضى عليها الاتراك عام ١٤٥٣

تحقق اذن هدف البابا باخضاع القسطنطينية ، ولكن اليونانيين كانوا يكرهون الصليبيين ولو انهم طلبوا معونة روما ضد الاتراك .

وابشع الحملات الصليبية ما دعي بحملة الصبيان . فقد خدع عدد كبير من الصبيان وتركوا بلادهم مثل فرنسا والمانيا وتطوعوا للسفر الى فلسطين . وقد مات الكثير منهم او فقد بينما وصل الباقون الى مرسيليا حيث وقعوا في ايدي تجار الرقيق الذين نقلوهم الى مصر وباعوهم عبيداً !

اما ريكاردوس فقد أسره اعداؤه في اوروبا وفي طريق عودته الى وطنه ، وطلبوا ثمناً كبيراً لحريته . وقد اسر في فلسطين نفسها ملك فرنسا وكان عليه ان يدفع الفدية لحريته ايضاً اما الامبراطور فردريك باربروسا فقد غرق في احد انهار فلسطين . وبعد ذلك حل الملل بالاوروبيين من هذه الحملات الصليبية ، وبقي بيت المقدس في يد المسلمين حوالى ٧٠٠ سنة – ولم تخرج من سلطتهم الا عام ١٩١٨ عندما سقطت في يد جنرال انجليزي (اللنبي) – وانتزعت من الاتراك .

ومن الحملات الطريفة – التي يصعب تسميتها حملة – تلك التي حصلت في الفترة الاخيرة من الحروب الصليبية والتي قام فيها امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فريدريك الثاني فاجتمع بسلطان مصر واتفق معه على قيام علاقات ودية بينهما . وكان فريدريك يمتاز عن بقية الملوك بأنه كان علامة يتقن لغات عديدة بما فيها اللغة العربية ، وقد لقب باعجوبة الدنيا . وكان ايضاً لا يحفل بالبابا . وقد غضب عليه الاخير وعاقبه بالحرمان ، ولكن فردريك لم يأبه لذلك .

عاد الصليبيون اذن بخفي حنين . اما الاتراك السلاجقة فقد اضعفتهم هذه الحروب . وزاد الطين بلة ازدياد قوة النظام الاقطاعي وما نجم عنه من تنازع بين النبلاء والمسلمين الذين صاروا يستظهرون باعدائهم المسيحيين على اخوانهم . وقد سر المسيحيون لهذا التنازع لأنه يقوي مركزهم . ولكن قيام القواد العظام مثل صلاح الدين كان يحبط مساعيهم .

وهناك نظرة اخرى القاها على الحروب الصليبية مؤرخ انجليزي اسمه جي.م. تريفليان الذي كتب يقول : « لقد كانت الحملات الصليبية المظهر العسكري الذي

انعكست عليه الرغبة الشديدة في اوروبا للوصول الى الشرق . ولم تنجح اوروبا في تخليص بيت المقدس الى الابد او توحيد المسيحية في العالم بل كان العكس اقرب الى الصحيح . غير ان الصليبيين اكتسبوا الفنون والصناعة والترف والعلوم وحب الاستطلاع العلمي . وهذه هي الاشياء عينها التي كان بطرس الناسك وامثاله ابعد الناس عن احترامها وتقديرها » .

توفي صلاح الدين عام ١١٩٣ ، وتفسخت بقية الامبراطورية العربية القديمة . وعمت الفوضى غرب آسيا الذي تردى في الاقطاع . وقد منيت الحملة الصليبية التي سارت عام ١٢٤٩ بقيادة فيليب التاسع ملك فرنسا بالهزيمة واسر فيليب .

اما غرب واواسط آسيا فقد كانت في تلك الاثناء مسرحاً لحوادث جديدة بطلها جنكيزخان الذي جلل آفاق المشرق كما تفعل السحابة السوداء ، وبث الرعب في كل من الصليبيين والمسلمين على حد سواء. وسوف اعالج هذا الموضوع في رسالة اخرى .

وأود قبل ان اختم هذه الرسالة ان اشير الى مدينة بخارى الواقعة في آسيا الوسطى ، فقد انجبت هذه المدينة اعظم اطباء آسيا واوروبا وهو المعروف بابن سينا او امير الاطباء الذي توفي عام ١٠٣٧ اي قبل الحروب الصليبية .

وقد خصصت ابن سينا بالذكر لأن شهرته طبقت الآفاق . ولكنه لم يكن العربي الوحيد في ميدان الحضارة والعلوم العربية التي عمت غرب واواسط آسيا . ولنذكر ان صلاح الدين نفسه لم تشغله مهام الحرب عن انشاء المعابد والكليات والمستشفيات وغيرها من مظاهر الرقي والمدنية . غير ان القدر يشاء ان تتعرض هذه الحضارة السامية الى جحافل المغول الزاحفين من الشرق .

النهضة العلمية في اوروبا

● افسطس ١٩٣٢

●

تمخضت الفوضى التي عمت اوروبا عن نهضة علمية نبتت في ايطاليا واستمدت غذاءها من المصادر الاغريقية لقد استقت من اليونان حب الجمال ، واضافت الى جمال الشكل والصورة جمالاً اعمق واصفى وهو جمال الذهن والفكر . كانت النهضة العلمية كالزهرة التي تنمو في الظل ، ولذا فإن مدن ايطاليا مثل فلورنسه كانت خير منبت لها .

لقد انبتت فلورنسه قبل ذلك ، اي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر دانتي وبترارك اعظم شاعرين ايطاليين . وكانت في القرون الوسطى مركز اوروبا المالي الذي اجتمع فيه المرابون . لقد كانت جمهورية صغيرة طائلة الثراء ولكن اهلها لم تكن لهم صفات حميدة لما عرف عنهم عن اساءة لعظمائهم .

واذا غضضنا النظر عن المرابين والمستبدين والطغاة الذين ظهروا في هذه المدينة فإننا نقدر لها انجابها لثلاثة من العباقرة في النصف الاخير من القرن الخامس عشر. وهؤلاء العباقرة هم ليوناردو دافينسي وميخائيل انجلو ورافائيل . وقد اشترك هؤلاء العباقرة في نبوغهم في الفن والتصوير . وامتاز ميخائيل انجلو بكونه نحاتاً مبدعاً ينحت التماثيل الرائعة من الرخام الصلد ومعمارياً لا يشق له غبار ، كما تشهد بذلك كاتدرائية القديس بطرس في روما التي وضع تصميمها . وقد عمّر حتى بلغ التسعين من العمر . وظل مثابراً على العمل في الكاتدرائية حتى يوم وفاته

تقريباً . وكان انجلو تعيساً في حياته لا يقنع بالمعلومات السطحية بل يسعى وراء الحقيقة ويسبر غورها حتى يصل الى كنهها . وكان يصبو الى الكمال وبلوغ المستحيل . ومما قاله : « المرء يصور بعقله لا بيديه » .

اما ليوناردو دافينسي فقد كان اقرب الثلاثة وربما كان اكثرهم ابداعاً في كثير من الاحيان . وكان بجدارة اعظم رجال عصره مع انه العصر الذي اخرج الكثير من العظماء . وكان يقوم بالتجربة تلو التجربة دون كلل او ملل حتى أصبح في طليعة العلماء الذين وضعوا اساس العلم الحديث . ومما قاله : « ان الطبيعة لطفت بنا لأنها جعلتنا نعثر على المعرفة حيثما ادرنا وجوهنا في هذا العالم » . وكان عصامياً في علمه لأنه علم نفسه اللغة اللاتينية والرياضيات وهو في سن الثلاثين . وكان مهندساً ، كما كان اول من اكتشف حقيقة الدورة الدموية داخل جسم الانسان . وكان يعجب بجمال الجسم البشري حتى انه قال : « ان الرجال الاجلاف ذوي الادراك السطحي لا يستحقون سوى كيس يستوعبون به طعامهم ويخرجونه ثانية ، لأنهم لا يعدون ان يكونوا قناة هضمية » . وكان نباتياً شديد الرأفة بالحيوان . وكان من عادته شراء العصافير واطلاقها من اقفاصها فوراً . ومن اغرب ما عرف عنه محاولته الطيران . وقد فشل طبعاً في محاولته ، الا انه قطع مراحل لا بأس بها نحو النجاح . ولو كان هناك من يواصل جهوده بعده او لو كان معه آخران شبيهان به في العبقرية فلربما تم اختراع الطائرة قبل الآن بمئتي عام . وقد قضى ليوناردو حياته (١٤٥٢ — ١٥١٩) في جدال متواصل مع الطبيعة ، كان دائماً يوجه الاسئلة الى نفسه ويمضي في أجراء التجارب محاولاً ايجاد حل لها . وظل ماضياً في محاولاته كأنه يريد ان يضع يده على مفتاح المستقبل .

لقد خصصت ليوناردو بالذكر لأنه من الشخصيات المحببة لدي . اما تاريخ فلورنسه عامة فليس من النوع السار او الخالد لأنه مشوب بالحكام المستبدين والطغاة والمراوغين . ولا يشفع لفلورنسه الا هؤلاء العباقرة الذين انجبتهم . وان المرء ليكاد يلمح اشباح هؤلاء الابناء الافذاذ في شوارع فلورنسه اوعلى مياه

الآرنو حين يمر تحت اقواس العصور الوسطى وكأن الماضي يبعث حياً بسحره ونشاطه . وكأنك ترى دانتي وحبيبته بياتريس تجر وراءها ذيلها العطر . وكأنك تشاهدين ليوناردو وهو يسير في الزقاق الضيق شارد الفكر سارح الذهن غارقاً في اسرار الحياة الطبيعية .

هكذا اينعت النهضة العلمية في ايطاليا منذ القرن الخامس عشر وتسربت منها تدريجياً الى البلدان الغربية . وقد ابدع الفنانون الافذاذ في النحت والتصوير ، وما زالت المتاحف الاوروبية تزخر بآثارهم وتحفهم . ولكن النهضة ضعفت في ايطاليا في القرن السادس عشر . اما هولندة فانها انجبت في القرن السابع عشر فنانين عظاماً على رأسهم رمبراندت . وظهر في اسبانيا فيلاسكويز . ولا استطيع ان استرسل في ذكر الاسماء ، فهي موجودة في المتاحف . والأسماء بحد ذاتها قليلة الاهمية بالنسبة للفن والجمال الخالدين اللذين ابدعهما اصحاب تلك الأسماء واللذين يحملان للعالم رسالة انسانية خالدة .

شهدت هذه الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر تطور العلوم وتبلورها بشكل قائم بذاته . وقد اصطدمت هذه العلوم مع الكنيسة التي كانت تعاليمها تقف عقبة في سبيل التفكير والتجربة كانت الكنيسة تجزم بأن الارض هي مركز الكون وان الشمس تدور حول الارض وان النجوم مثبتة في السماء . وكانت الكنيسة تصم كل من يجرؤ على مخالفتها بالهرطقي وترمي به الى محاكم التفتيش . غير ان احد اقطاب العلم واسمه كوبرنيكس والمولود عام ١٤٧٣ اثبت دوران الارض حول الشمس ووضع اساس النظرية الفلكية الحديثة . ونجا كوبرنيكس من غضب الكنيسة وتوفي عام ١٥٤٣ ولكن غيره لم ينج من طائلة التعذيب . وقد احرقت الكنيسة في روما عام ١٦٠٠ عالماً ايطالياً اسمه جيوردانو برونو لاصراره على ان الارض تدور حول الشمس وان النجوم هي شموس لها ما يدور حولها اما العالم جاليليو المعاصر لبرونو والذي اخترع المنظار المقرب فانه تعرض لنقمة الكنيسة ولم يجد بداً من التراجع عن موقفه واعترف امام الكنيسة انه كان احمق بظنه ان الارض تدور حول الشمس ووافق على ان

الارض هي مركز الدنيا وان الشمس ، طبعاً ، تدور حول الارض ! وبالرغم من كل ذلك اودع السجن ليستكمل توبته وندمه !

ومن ابرز علماء القرن السادس عشر هارفي الذي تمكن من اثبـــات الدورة الدموية بصورة حاسمة . وكان اسحق نيوتن ابرز علماء القرن السابع عشر . وكان رياضياً فذاً كشف مطراً آخر من اسرار الطبيعة باكتشافه قانون الجاذبية

وقد عرف هذا العصر نهضة ادبية ايضاً . وقد تأثرت اللغات الاوروبية الحديثة بما كان يدور خارج بلادها من احداث . فأنجبت ايطاليا شعراء فطاحل وانجبت انجلترا شومبر . اما اللغة اللاتينية ، التي كانت شائعة لدى المتعلمين والكنيسة في طول اوروبا وعرضها ، فانها بزت اللغات الاوروبية الحديثة التي كان ينظر اليها على انها لغات غير مهذبة . وكان استعمال اللغات الحديثة مدعاة للسخرية في بادىء الأمر . بيد ان الروح الوثابة الجديدة واختراع الطباعة وانتشار استعمال الورق رفع شأن هذه اللغات فتقدمت اللغة الايطالية ، وتلتها اللغة الفرنسية فالانجليزية فالاسبانية فالالمانية . وقد صمم جماعة الكتاب الفرنسيين في القرن السادس عشر على الكتابة بلسانهم (غير المهذب) لا باللاتينية ، واصبحت لغتهم هذه لغة صالحة للأدب الرفيع .

وتطورت اللغات الاوربية واكتسبت روعة وجمالاً حتى وصلت الى مكانها المرموق اليوم وسأقتصر هنا على ذكر عدد قليل من الكتاب. ظهر في انجلترا الشاعر الخالد شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) وتلاه ميلتون الشاعر الاعمى الذي الف (الفردوس المفقود) . وظهر في فرنسا الفيلسوف ديكارت والروائي موليير في القرن السابع عشر وموليير هو مؤسس (الكوميدي فرانسيز) مسرح باريس الرسمي . ومن معاصري شكسبير في اسبانيا سرفانتيس صاحب كتاب (دون كيشوت) .

واذكر لك الآن اسماً حصل على شهرة كبيرة وان لم يصل الى درجة عالية من التقدير والاعجاب . ذلك هو مكيافيلي ، احد ابناء فلورنسه . كان مكيافيلي في الفترة التي عاش فيهـــا (بين القرن الخامس عشر والسادس عشر) سياسياً

عادياً . ولكنه كتب كتاباً نال شهرة فائقة ، وهو كتاب (الأمير) الذي ضمنه آراء امراء ذلك العصر وسياسييه . ويقول في ذلك الكتاب : ان الدين ضروري للحكومة لا لخدمة الفضيلة ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس واخضاعهم ؛ ومن واجب الأمير احياناً ان يساند ديناً ما ولو كان يعتقد بفساده. ويقول ايضاً : « على الامير ان يكون انساناً ووحشاً في وقت واحد وعليه ان يكون اسداً وثعلباً ؛ وعليه ان يحافظ على كلمته الا اذا كان في ذلك ضرر له . واجازف بالقول انه لا يجدي ان يكون المرء شريفاً دائماً ، وان كان من المفيد ان يظهر بمظهر الورع والايمان والانسانية والتضحية وليس افيد للمرء من ظهوره بمظهر الفضيلة . »

وهكذا ترين ان عظمة الامير تعتمد على مقدار سيئاته ،فاذا كان هذا صورة عن تفكير الامير العادي في اوروبا في ذلك العصر فلا عجب ان تسود البلاد القلاقل والآلام . ولكن ألا ترين معي ان القوى الاستعمارية في زماننا تسير في ركاب (امير) مكيافيلي ؟أليست تدّعي الفضيلة بينما تضمر الجشع والظلم والاستهتار؟ أليست تخفي تحت القفاز الناعم مخالب الوحوش الضارية ؟

انجلترا تقطع رأس ملكها

٢٩ اغسطس ١٩٣٢

●

ننتقل الآن الى تاريخ انجلترا التي اهملنا ذكرها لأن تاريخهـــا في العصور الوسطى لا يثير اهتماماً كبيراً فقد كانت متخلفة عن فرنسا وايطاليا . غير ان جامعة اكسفورد أصبحت مركزاً للعلم ، وتلتها جامعة كمبردج . وممن اخرجتهم اكسفورد (ويكلت) الذي ذكرته لك سابقاً

ان اهم مراحل التاريخ الانجليزي تدور حول تطور البرلمان . فقـــد بذل النبلاء منـــذ فترة مبكرة جهوداً جبارة للحد من سلطة الملك وقد صدرت الماجنا كارتا او (الميثاق الاعظم) عام ١٢١٥،وكانت فاتحة عهد البرلمان الانجليزي ولم تكن هذهالبداية حسنة لظهور الاساقفة والنبلاء الذين أصبحوا فيما بعد يؤلفون ما يعرف بمجلس اللوردات . وكان لا بد من اختيار مجلس آخر يكون انتخابياً ويضم الفرسان وصغار أصحاب الاراضي وممثلي المدن . وكان هذا المجلس نواة ما يعرف اليوم بمجلس العموم . وكان كلا المجلسين آنـــذاك ممثلين في الواقع للملاكين والاغنياء .

ولما كانت سلطة مجلس العموم ضئيلة ، اعترض النواب وقدموا التماسات الى الملك يناشدونه برفـع الظلم . وظلوا يتدرجون بمطالبهم حتى تعرضوا لحق الملك في فرض الضرائب على الشعب . ولم يستطع الملك ان يفرض ضريبة جديدة على الشعب دون موافقة سابقة من هذا المجلس . ولما كان للمال اعظم سلطة في الدولة

فإن قوة البرلمان ، وخصوصا مجلس العموم ، اخذت تزداد وتقوى . وقدنشب احتكاك بين مجلس العموم والملك . غير ان البرلمان كان في ايامه الأولى ضعيفاً وكان ملوك اسرة تيودور قادرين ، وكانوا ايضاً يتجنبون الاصطدام العنيف مع البرلمان .

ونجت انجلترا مما وقعت به بلدان القارة الاوروبية من حروب دينية طاحنة سادت فيها القسوة والاضطرابات حتى ان عدداً من النساء اتهمن بالسحر والشعوذة واحرقن وهن احياء . ولما اعتلى هنري الثامن العرش اصبح من المفروض ان تصبح انجلترا برتستانتية المذهب ومع ان البلاد كانت تحوي عدداً من الكاثوليك المتعصبين والبروتستانت المتعصبين ، إلا ان كنيسة انجلترا الجديدة صارت طريقاً وسطاً ، وان كانت بروتستانتية اسمياً وكاثوليكية فعلاً . وكانت في الواقع ادارة حكومية يرئسها الملك . غير ان الانفصال عن روما كان كلياً وقد نجم عنه قيام اضطرابات ومظاهرات معادية للبابا . وقد تم في عهد اليصابات، ابنة هنري الثامن ، فتح الطريق البحرية الى الشرق والى امريكا ، مما فتح اعين التجار الانجليز على المكاسب التي تنتظرهم ، والتي سبقهم اليها الاسبانيون والبرتغاليون . وركب الانجليز البحر ، وراح فرنسيس دريك وامثاله من القراصنة يهاجمون السفن الاسبانية المحملة بكنوز امريكا . ودار دريك بعد ذلك حول العالم. وقطع السير وولتر رالي المحيط الاطلسي وحاول ان يؤسس مستعمرة على الشاطىء الشرقي مما يعرف اليوم بالولايات المتحدة والتي عرفت باسم فرجينيا اي العذراء، نسبة الى الملكة اليصابات التي كانت عذراء . ورالي هو الذي ادخل عادة التدخين الى اوروبا بعد رحلته الى امريكا . وتلا ذلك حملة الارمادا التي فشلت ، وكان لفشلها اثر طيب في نفوس الانجليز .

ومع ان هذه الشؤون الخارجية شغلت عقول الناس ، الا ان عوامل القلق كانت تساور نفوسهم مدة حكم اسرة تيودور .

وتعتبر فترة اليصابات من الفترات الزاهية في انجلترا . وكانت اليصابات ملكة عظيمة ، كما ظهر في عصرها رجال عظام . واعظم من الملكة وفرسانها المغامرين

الشعراء والروائيون الذين نبغوا في هذا العصر وعلى رأسهم الشاعر الخالد ويليام شكسبير الذي لا يعرف العالم عن حياته الخاصة الا القليل بينما يعلم الكثير عن رواياته وكان شكسبير احد النوابغ الذين اتحفوا اللغـة الانجليزية بالدرر الانجليزية الثمينة التي تدخل السرور الى كل من يتذوقهـا . وكان للمقطوعات الشعرية القصيرة في عصر اليصابات طابع خاص من السحر الأخاذ المسكوب في لغة سهلة سلسة مرحة . وقد وصف الناقد الانجليزي ليتون ستريشي رجال هذه الفترة قائلاً « كانوا عصبة نبيلة من عصر اليصابات انتجت لانجلترا في جيل واحد وبوحي من روحها الوثابة امجد تراث من التمثيليات الدرامية التي عرفهـا العالم في زمانه » .

توفيت اليصابات عام ١٦٠٣ ، اي قبل عامين من وفاة (اكبر) العظيم في الهند وقد ورثها على عرش انجلترا ملك اسكتلندا المدعو جيمس الاول الذي وحـد البلدين تحت تاج واحد . ولم يكن جيمس محنكاً مثل اليصابات ، بل كان مفتوناً بحقه المقدس فوقع في خلاف مع البرلمان . وفي ايامه رحل عدد من البروتستانت الاشداء على السفينة (مي فلور) عام ١٦٢٠ الى امريكا كرهاً منهم لحكم جيمس الاوتوقراطي وكنيسة انجلترا التي لم تكن في نظرهم بروتستانتية كما ينبغي لها ان تكون . واجتازوا البحر ونزلوا على الساحل الشمالي في مكان سموه نيوبليموث. وقد تبع هؤلاء عدد كبير من المستوطنين حتى بلغ عـدد المستعمرات على طول الساحل الشرقي ثلاث عشرة. وقد تطورت هذه المستعمرات حتى اصبحت فيما بعد الولايات المتحدة الامريكية .

وتوفي جيمس عام ١٦٢٥ فخلفه ابنه شارل الاول . واشتد الخلاف بين الملك والبرلمان ، وقدم الأخير (ملتمس الحقوق) ١٦٢٨ طالب فيه الملك بعـدم التصرف في بعض الشؤون كفرض الضرائب والامر بالسجن خارج حدود القانون على اعتبار ان الملك لا يتمتع بالسلطة المطلقة . وهكذا انجلترا في القرن السابـع عشر تقف في وجه ملكها وتمنعه من اتيان اشياء يفعلها اليوم - في القرن العشرين - نائب الملك في الهند من اصدار المراسيم الجائرة والزج بالأحرار في السجون !

غضب شارل لتحدي البرلمان له فحله وحكم البـــلاد بدون برلمـان . وبعد سنوات قليلة احتاج شارل للمال ، فاضطر الى استدعاء برلمـان جديد ليوافق له على فرض الضرائب . ولكن البرلمـان الجديد كان شديد النقمة على شارل وعلى افعاله التي أتاها بعد حل البرلمان السابق ، فوقف في وجه الملك وشبت على اثر ذلك نار الحرب الاهلية عام ١٦٤٢ بين الملك ومن آزره من النبـــلاء ورجال الجيش وبين البرلمان الذي وقف الى جانبه التجار الاغنياء ومدينـــة لنـدن . واستمرت الحرب الى ان برز على مسرحها رجل حديدي يدعى (كرمويل) امتاز بقوة التنظيم والحماس الديني . وقد وصف كارلايل هـــذا الرجل بقوله : « بزغ كرمويل كالشعاع الذي بدد دجى الحرب واعاد الثقة الى النفوس ».وقد جهز كرمويل جيشاً جديداً دعا رجاله(الحديديين) وبث فيهم حماسه وتنظيمه. واشتبك جنود البرلمان الملقبون(البيوريتان) مع جنود شارل الملقبين(الفرسان) وانتصر البرلمان ووقع شارل اسيراً في يد كرمويل

ومن رجال البرلمان من نادى بالصلح مع الملك . غير أنـه برز من الصفوف الكولونيل برايد الذي اقتحم دار البرلمان وطرد منه الاعضاء المنادين بالصلح مع الملك .ودعي هذا العمل (عملية تطهير) واذا كان هذا العمل لا يشرف البرلمان، لان المفروض ان يكون جيش البرلمان احرص الناس على حرمته ،الاأن الثورات سبيلاً لا يعرف المنطق .

وقرر مجلس العموم محاكمة الملك ، ولم يلتفتوا الى معارضة مجلس اللوردات. وحكم على الملك بالموت جزاء على(طغيانه وخيانته وقتله للناس وعدائه للشعب). وتم الاعدام في عام ١٦٤٩ في وايتهول وكان ذلك هو الثمن الذي دفعه شارل لادعائه بحق الملك المقدس .

ان الملوك يموتون كما يموت غيرهم من الناس ، وكثير منهم يلقى اسوأ مصير. ولا عجب في ذلك فان الاوتوقراطية والملكية تولدان القتل والاغتيالات .وكان نصيب الملكية البريطانية وفيراً . ولكن وجه الغرابة في قضية شارل ان مجلس العموم قام بدور المحكمة فحاكم الملك وحكم عليه بالاعـــدام وقطع رأسه .

وغريب انِ يقوم شعب محافظ كاره للتغيير المفاجيء باتخاذ هذه الوسيلة في معاملة الطغاة لأنه يضع مثالاً لغيره من الشعوب .

وقد افزع هذا العمل ملوك اوروبا وقياصرتها وامرائها . فكيف يكون مصيرهم اذا نهجت شعوبهم هذا النهج في معاملتهم ؟ وقد فكر كثير من الملوك بالسير الى انجلترا واخضاع شعبها ولم يردعهم عن ذلك الا قيام الجمهورية في انجلترا تحت امرة ديكتاتور قوي وهو كرمويل الذي لقب (حامي الجمهورية) . وكان كرمويل رجلا حديدياً استطاعت انجلترا ان تصبح على يديه سيدة البحار بعد ان هزمت الاساطيل الهولندية والفرنسية والاسبانية .

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعمر اكثر من احد عشر عاماً، اذ توفي كرمويل عام ١٦٥٨ ، وسقطت الجمهورية بعد ذلك بعامين ، وعاد الى انجلترا شارل الثاني ابن شارل الاول من مهجره ، فاستقبل بحفاوة بالغة وتوج ملكاً على البلاد . ولكنه كان ضعيف الارادة ، سيىء السمعة ، لا يهمه من الملك الا المرح واللهو والسرور . وكان مع ذلك من التعقل بحيث تجنب الاصطدام مع البرلمان . وكان في الواقع يعتمد على ملك فرنسا ويتسلم منه معونة مالية سرية . وضعف مركز انجلترا الذي اوصلها اليه كرمويل ، حتى ان الهولنديين احرقوا الاسطول الانجليزي في نهر التمز

وخلف شارل الثاني اخوه جيمس الثاني ، الذي ورط نفسه في خلاف مع البرلمان . وكان هذا كاثوليكياً متعصباً فأراد ان يخضع انجلترا لنفوذ البابا في روما ومع ان الشعب الانجيزي لم يكن لديه الادراك العميق لشؤون الدين ، الا انه كان شديد الكراهية للبابا والبابوية. وهكذا عادى جيمس الثاني كلّا من الشعب والبرلمان فلم يجد مناصاً من الفرار الى فرنسا

وانتصر البرلمان مرة ثانية ، وان كان انتصاره في هذه المرة بطريقة سلمية . وظلت انجلترا بدون ملك ، فاستاء الشعب للوضع، وكان في نفس الوقت يكره ان تعود البلاد الى الحكم الجمهوري . ويقال ان الانجليز يحبون من يفرض سيادته عليهم ويعجبون كثيراً بمظاهر الأبهة والروعة التي تصحب الملكية . ولذلك قام

البرلمان يفتش عن ملك جديد للبلاد فوقع اختياره على أحد افراد اسرة اورنج التي انجبت قبل مئة عام وبليام الصامت الذي تزعم حرب الاراضي المنخفضة مع اسبانيا . وهذا الملك الجديد هو وبليام اورنج الذي تزوج من ماري ،وهي من الاسرة الملكية الانجليزية. واصبح وبليام وماري ملكين في عام ١٦٨٨ وبهذا يتم النجاح للبرلمان والثورة الانجليزية لأن السلطة انتقلت الى يد الشعب الممثل في مجلس العموم . وصارت الملكية الانجليزية منذ ذلك اليوم لا تجرؤ على مجابهة البرلمان او تحديه.غير ان بعض الملوك والملكات كانوا يلجأون الى اساليب ملتوية للوصول الى اهدافهم كالمؤامرات واساءة استخدام النفوذ .

اصبحت السلطة اذن في يد البرلمان . ولكن ، هل كان برلماناً بمعناه الحقيقي؟ كيف يكون ذلك وهو لا يمثل الا قسماً يسيراً من الشعب ؟ فلم يكن مجلس اللوردات ، كما يدل الاسم ، يضم الا اللوردات والاقطاعيين والاساقفة.ولم يكن مجلس العموم ذاته يضم سوى الاغنياء من كبار الملاكين والتجار . ولم يكن يتمتع بحق التصويت الا القليلون . وكان في انجلترا حتى قبل مئة عام تقريباً ما يعرف (بمناطق الجيب) اي المناطق التي كانت في جيب بعض الافراد.تصوري مثلاً ان يكون في الدائرة الانتخابية منتخب واحد او اثنان يصوتان لمرشح واحد . ويقال انه قد تم في عام ١٧٩٣ انتخاب ٣٠٦ من النواب باصوات ١٦٠ من المنتخبين فقط . وقد فاز على احدى الابرشيات الكنسية مرشحان اثنان . وهذا يعني ان غالبية الشعب لم تكن تتمتع بحق انتخاب ممثليها الى مجلس العموم الذي كان ابعد ما يكون عن المجالس النيابية . وحتى ان الطبقة الوسطى التي اخذت بالظهور في البلاد لم تكن ممثلة في المجلس لأنها لم تنتم للاقطاعيين او كبار التجار . وكانت المقاعد تباع وتشترى ، وكانت الرشوة السياسية ضاربة اطنابها . وظلت الحالة كذلك الى ان صدرت اللائحة الاصلاحية عام ١٨٣٢ واعطت عدداً أكبر من الناس حق التصويت .

ونرى مما سبق ان انتصار البرلمان على الملك لم يعن الا انتصار حفنة من الاغنياء ، جلهم اقطاعيون وبعضهم تجار ، بينما ظل الشعب اجمالا غير ذي اثر

في الموضوع .

ولا بد أنك تذكرين الجمهورية الهولندية التي ولدت بعد حروب هولندة مع اسبانيا . لقد كانت هذه الجمهورية ايضاً احتكاراً لعدد من الاثرياء .

وقد خلفت الملكة آن ويليام وماري على عرش انجلترا وهي اخت ماري . وعندما توفيت آن عام ١٧١٤ ، قام البرلمان من جديد يفتش عن ملك للبلاد فوقع اختياره هذه المرة على (منتخب هانوفر) الالماني الذي تَوّجَه ملكاً على انجلترا باسم جورج الأول . ولعل المؤهلات التي نظر اليها البرلمان في جورج الأول البلادة والغباء ، لأن البرلمان يريد ملوكاً ضعفاء لا يناصبونه العداء . كان جورج ملكاً على انجلترا ، ولكنه لا يتكلم الانجليزية . وكان ابنه جورج الثاني قليل الفهم للغة الانجليزية ايضاً . وتعرف هذه الأسرة باسرة هانوفر ، وما زالت حاكمة حتى اليوم .

قامت في القرنين السادس عشر والسابع عشر احتكاكات ونزاع مع ايرلندا . وجرت محاولات لغزو تلك البلاد ، كما جرت مذابح وثورات في عهدي اليصابات وجيمس الاول . وقد استطاع جيمس مصادرة قسم كبير من أراضي ألستر في ايرلندا الشمالية واحلال البروتستانت الاسكتلنديين فيها . وظلت ايرلندا منقسمة وفي نزاع دائم بين السكان الاصليين الكاثوليك والمستوطنين البروتستانت ولا ريب ان حكام انجلترا الذين مهروا في سياسة (فرق تسد) قد استفادوا من هذا الانقسام والخلاف .

وما تزال مسألة ألستر حتى يومنا هذا أكبر المشاكل في ايرلندا وقد قام الايرلنديون إبان الحرب الاهلية بذبح الانجليز في ايرلندا ، فانتقم الانجليز بمذبحة لا تزال ذكراها المريرة مسيطرة على عقول الايرلنديين . وقد تخلل القتال تسويات ومعاهدات كان الانجليز ينكثون بها . انها فترة قاسية من تاريخ ايرلندا المكافحة !

لعلك تودين ان تعلمي هنا ان جوناثان سويفت مؤلف (رحلات جيلفير) عاش في هذه الفترة (١٦٦٧ - ١٧٤٥) وكتابه من اروع ما كتب للاطفال . وكان من معاصريه دانييل ديفو مؤلف (روبنسون كروزو)

انفصال امريكا عن انكلترا

٢ اكتوبر ١٩٣٢

●

انحدث اليوم عن الثورة الثانية التي وقعت في القرن الثامن عشر ، وهي ثورة المستعمرات الامريكية على انجلترا كانت هذه الثورة ثورة سياسية ، فاختلفت بذلك عن الثورة الصناعية التي حدثتك عنها والثورة الفرنسية التي تلتها وزعزعت كيان اوروبا الاجتماعي

لقد كانت هذه الثورة بعيدة الاثر كبيرة الاهمية لأن المستعمرات الامريكية التي تحررت من النير الانجليزي تطورت وتقدمت حتى اصبحت اليوم اقوى دول العالم واكثرها تقدماً صناعياً

ولعلك تذكرين سفينة «مي فلور» التي حملت جماعة من المهاجرين الانجليز الى امريكا عام ١٦٢٠ لقد يئس هؤلاء القوم من حكم جيمس الاول الاتوقراطي ومذهبه الديني فركبوا البحر واجتازوا المحيط الاطلسي ونزلوا على الشاطىء الآخر مؤسسين لهم مستعمرة جديدة . وعرف هؤلاء المهاجرون «بالآباء الحجاج». وكان نزولهم في شمال البلاد وهو المكان المسمى «نيوبليموث» . وقد سبقهم غيرهم الى امريكا ، كما لحق بهم الكثيرون ، واستقر الجميع في الشاطىء الشرقي ، واصبحت لهم مستعمرات على طول الشاطىء من الشمال الى الجنوب .

وكانت هناك مستعمرات كاثوليكية أسسها «الفرسان» الانجليز ، ومستعمرات أسسها الكويكرز ، ومنها بنسلفانيا التي دعيت بذلك نسبة الى «بن» الكويكري

وكان بين النازحين ايضاً هولنديون وألمان ودنمركيون وفرنسيون ونشأ من كل هؤلاء مزيج غريب ، وان كانت الغالبية الانجليزية . وقد أسس الهولنديون مستعمرة سموها «نيو أمستردام» ولكن الانجليز اغتصبوها منهم ودعوها «نيويورك» المشهورة في يومنا هذا

وظل النازحون الانجليز يعترفون بسلطة ملك انجلترا وبرلمانها ، ولم تكن تراودهم فكرة الانفصال عنها ، لان الدافع الى هجرتهم كان تحسين احوالهم المعيشية . وكانت المستعمرات الجنوبية اشد تعلقاً بانجلترا لأنها كانت المنطقة التي نزح اليها فرسان الملك . وكانت المستعمرات الممتدة على الساحل الشرقي ، والتي بلغ عددها ١٣ مستعمرة ، منفصلة بعضها عن البعض ، ولا يجمع بينها الا التاج البريطاني . وكان يقع الى الشمال منها كندا والى الجنوب الاراضي الاسبانية . اما المستعمرات الهولندية والدنمركية فانها ذابت في بوتقة هذه المستعمرات الثلاث عشرة .

ولم تكن هذه المستعمرات تمتد كثيراً نحو الداخل الذي يمتد حتى يصل المحيط الهادي ، وتربو مساحة الداخل على مساحة المستعمرات عشر مرات ، وكانت تقطنه القبائل المعروفة بالهنود الحمر ومن اشهرها ، قبيلة الايروكويز .

تذكرين ان منتصف هذا القرن شاهد حرباً دارت رحاها بين انجلترا وفرنسا وامتدت من اوروبا الى الهند وكندا . وعرفت هذه الحرب (١٧٥٦ ١٧٦٣) بحرب السبع سنوات ، وانتهت بفوز انجلترا التي سلخت كندا عن فرنسا . ولم يكن في كندا مستوطنون فرنسيون خلا الموجودين في كويبك واصبحت انجلترا المسيطرة الوحيدة على المستعمرات الامريكية الشمالية . ومن الطريف ان نجد ان لغة اهل جزيرة كويبك ما زالت اللغة الفرنسية مع ان الجزيرة محاطة بالشعب الانجلوسكسوني . واعتقد ان الناطقين بالفرنسية في مدينة مونتريال ، اكبر مدن كويبك ، يفوقون عدداً ، سكان اي مدينة في فرنسة ، باستثناء مدينة باريس .

حدثتك في السابق عن تجارة الرقيق التي كان يقوم بها الاوروبيون الذين

كانوا يوردون الزنوج من افريقيا الى امريكا . لقد كان معظم هؤلاء النخاسين من الاسبانيين والبرتغاليين والانجليز . وكان الدافع الى هذه التجارة الحاجة الى الايدي العاملة في امريكا وخصوصاً في مزارع التبغ في الولايات المتحدة . ولم يكن اهل البلاد الاصليون يسدون هذا الفراغ لأنهم كانوا رحلاً لا تستهويهم حياة الاستقرار او حياة العبودية . وكانوا من الصلابة بحيث يفضلون الكسر على الانحناء امام رغبات الرجل الأبيض وقد استؤصلوا تقريباً ولم يبق منهم الا النزر اليسير بعد ان كانوا يملأون القارة بأسرها .

ولهذا السبب التفت اهل المستعمرات الى زنوج افريقيا ، فراحوا يصطادون العدد الكبير من الزنوج ويشحنونهم بالبحر بقسوة ووحشية يصعب تصديقها . وعمل هؤلاء الزنوج في الولايات الجنوبية ، مثل فرجينيا وكارولينا وجورجيا ، في المزارع الكبيرة كمزارع التبغ على شكل جماعات وفرق .

اما الولايات الشمالية فقد كانت الحالة فيها تختلف عما سبق لأنها كانت محافظة على مبادىء (الآباء الحجاج) البيوريتان . وكانت مزارعهم صغيرة الحجم ولم تكن تحتاج الى عدد كبير من الايدي العاملة اوالعبيد ، بل كان كل فرد يباشر العناية بأرضه ، مما خلق بينهم روح المساواة .

وبهذا نرى نوعين من النظام الاقتصـــادي بين المستوطنين الامريكيين : احدهما في الشمال وقوامه المزارع الصغيرة والشعور بالمساواة ، والآخر في الجنوب وقوامه المزارع الكبيرة والعبيد . اما اهل البلاد الاصليون فلم يكن لهم نصيب في اي من النظامين لأنهم ظلوا يتقهقرون امام زحف الرجل الابيض متجهـــين نحو الغرب . وســـاعد على انهزامهم هذه الخلافات التي كانت قائمة بين قبائلهم المختلفة .

كان لملك انجلترا واقطاعييها مصلحة مباشرة في هذه المستعمرات؛ ولذا فإنهم حاولوا ان يستغلوها ما وسعهم ذلك . فلما وضعت حرب السنون السبع اوزارها حاول ملك انجلترا ـــ بمساعدة برلمانها الذي يمثل الاقطاعيين والاغنياء ـــ ان يحصل على المال من المستعمرات ، ففرض الضرائب والقيود على التجارة ونذكر ان

الانجليز كانوا في هذه الفترة يستغلون البنغال ويضعون جميع انواع القيـــود في وجه التجارة الهندية .

وقد اعترض المستوطنون على القيود والضرائب المفروضة ، غيران الحكومة البريطانية الظافرة في حرب السنين السبع لم تلق لهم بالاً . ولكن حرب السنين السبع هذه اقامت المستعمرات ايضاً لان الكثيرين من اهلها كانوا قد انضموا الى جيش انجلترا النظامي ونالوا خبرة عسكرية وتمرسوا في فنون الحرب ، فقويت عزيمتهم وتأهبوا للوقوف والمطالبة برفع الحيف اللاحق بهم .

وبلغ الحزام الطبّيين عام ١٧٧٣ عندما حاولت انجلترا ان تجبر المستعمرات على شراء شاي شركة الهنـد الشرقية التي كان اثرياء انجلترا مساهمين فيها . وكان هؤلاء يريدون تنمية نصيبهم من الارباح ، وكانت الحكومة الانجليزية واقعة تحت نفـوذهم وكان للحكومة ايضاً مصلحة مادية في نجاح تجارة شركة الهند الشرقية ، فحاولت ان تيسر للشركة نقل الشاي الى امريكا وبيعه هناك . ولكن أهل المستعمرات قاطعوا هذه التجارة لأن رواجها معناه كساد تجارتهم هم . وجرى في ديسمبر ١٧٧٣ حادث هام اثناء تفريغ احدى شحنات الشاي العائدة لشركة الهند الشرقية في بوسطن ، اذ تنكر بعض اهالي المستعمرات في زي الهنود الحمر وصعدوا الى مراكب التفريغ وقذفوا بالشحنة الى البحر امام جمهرة من الوطنيين المشجعين لهم . وكان ذلك بمثـــابة الشرارة التي اشعلت نار الحرب بين المستعمرات وانجلترا .

ولعل التاريخ لا يعيد نفسه بحيث يكرر جميع المناظر والفصول ، ولكن المرء لا يتمالك نفسه من ان يعجب كيف ان التاريخ يكاد يفعل ذلك مراراً لقد طبق الآفاق خبر حادث الشاي هذا وسمي (حفلة الشاي في بوسطن). وعندما قام غاندي قبل عامين ونصف (بحملة الملح) ، وقام بالزحف البشري الكبير على (داندي) وغارات الملح الأخرى ، استعاد كثير من الامريكيين الى اذهانهم (حفلة الشاي في بوسطن) وقارنوها (بحفلة الملح) . ولا شك ان هناك فرقاً في التفاصيل بين الحالتين .

قامت الحرب الفعلية بين انجلترا ومستعمراتها عام ١٧٧٥ ، اي بعد حادث الشاي بعام ونصف. ولم تكن المستعمرات تهدف من الحرب الاستقلال والانفصال عن انجلترا، بل ظل زعماء المستعمرات -بالرغم من الدم المراق من الجانبين ، وبالرغم من الحرب المستمرة - يخاطبون الملك جورج الثالث (بالملك الصالح)، ويعتبرون انفسهم رعاياه المخلصين . وهذا امر طريف جدير بالملاحظة لتكرره في اكثر من مناسبة . فقد كان الهولنديون يدعون فيليب الثاني الاسباني (بالملك) مع انهم كانوا يخوضون غمار حرب عنيفة مع جيش اسبانيا ، ولم تعلن هولندا استقلالها الا بعد سنوات طويلة من الحروب الطاحنة . وكذلك ، لم يقرر المؤتمر القومي في الهند الاستقلال إلا في ١ يناير ١٩٣٠ ، اي بعد انصرام سنوات عديدة ظلت الهند تتأرجح بين الشك والتردد والتفكير بالانضمام الى صف رابطة الشعوب البريطانية ، وما زال من ينادي بهذه الفكرة الاخيرة بدلاً من الاستقلال ولكن التاريخ علمنا بجلاء درساً من هولندا وامريكا ان خاتمة المطاف لا بد وان تكون الاستقلال التام .

وقد صرح واشنجتن عام ١٧٧٤ ، اي قبل اشتعال نار الحرب بعام واحد ، انه لا يوجد في امريكا الشمالية رجل عاقل واحد يرغب بالاستقلال . ولكن واشنجتون هذا اصبح اول رئيس للجمهورية الامريكية ! وبعد اشعال الحرب، وجه ٤٠ زعيماً من زعماء الكونجرس الامريكي التماساً الى جورج الثالث وقعو ، عليه بصفتهم (الرعايا المخلصين) ، وناشدوه ان يضع حداً للحرب و(اراقة الدماء)، رغبة منهم في اعادة الانسجام والمودة بين انجلترا وابنائها الامريكيين ولم يطلبوا غير تشكيل حكومة لها استقلال داخلي ، اي دومينيون وهذا يعني انه لم يكن هناك رجل عاقل يطلب الاستقلال التام ، كما صرح واشنجتون اوعرف هذا الالتماس (بالتماس غصن الزيتون) .

ولكن لم يمض عامان من ذلك التاريخ حتى وقّع خمسة وعشرون من هؤلاء الملتمسين وثيقة اخرى هي وثيقة (اعلان الاستقلال) .

كانت الثورة الامريكية تهدف الى رفع الظلم والضرائب والقيود التجارية

وكانوا يرددون (لا ضرائب بدون تمثيل) لأنهم لم يكونوا ممثلين في البرلمان الانجليزي .

لم يكن لاهل المستعمرات جيش كبير منظم ، ولكن طبيعة البلاد الشاسعة كانت لمصلحتهم لأنهم كانوا يأوون اليها كلما دعت الحاجة ثم الفو جيشاً وضعوا على رأسه القائد واشنجتون . واحرز هذا الجيش انتصاوات صغيرة . واستغلت فرنسا ، عدوة انجلترا ، هذه الفرصة ، فهبت لمساعدة الثوار ؛ واعلنت اسبانيا ايضاً الحرب على انجلترا . وظلت نار الحرب مستعرة . وفي عام ١٧٧٦ صدر ما يدعى (اعلان الاستقلال) . وفي عام ١٧٨٣ تم صلح باريس ، بعد توقف الحرب بعام واحد

ومنذ ذلك التاريخ اصبحت المستعمرات الامريكية الثلاث عشرة مستقلة واتخذت لنفسها اسم الولايات المتحدة . بيد ان هذه الولايات كانت تحسد بعضها البعض . وتعتبر جمهورية الولايات المتحدة هذه اول جمهورية كبيرة في العالم الحديث ؛ ولم يكن — عدا في العالم الحديث — من الجمهوريات سوى جمهورية سويسرا الصغيرة . فالجمهورية الهولندية كانت بالفعل احتكاراً ارستوقراطياً ،بينما كانت انجلترا ملكية ذات برلمان واقع تحت نفوذ اصحاب المصالح الخصوصية .

كانت الجمهورية الامريكية الجديدة طريفة في نوعها . لم يكن لها ماض عتيد كالذي كان للدول الاوروبية والآسيوية ؛ ولم يكن فيها من آثار الاقطاع ما كان لغيرها ، باستثناء الرق الذي كان منتشراً في الولايات الجنوبية ولهذه الاسباب ، لم تقم في وجه الطبقات البورجوازية عقبات كبيرة ، فدخلت الميدان دون منازع وترعرعت الى اقصى حد . كان عدد سكان الجمهورية الامريكية عند إعلان الاستقلال اربعة ملايين نسمة ،واصبح في عام ١٩٣٠ حوالي١٢٣ مليوناً.

كان جورج واشنجتون اول رئيس للجمهورية،وكان ملاكاً كبيراً من ولاية فرجينيا . ومن عظماء هذه الفترة الذين ساهموا في بناء الجمهورية توماس بين وبنجامين فرنكلين وباتريك هنري وتوماس جيفرسون وآدمز وجيمس مادسون .

ومن انبغ هؤلاء الرجال بنجامين فرنكلين العلامة الذي اثبت — باستعمال

طائرة الاولاد ـ ان البرق الذي يولده السحاب هو نفسه الكهرباء .

نص (اعلان الاستقلال) الصادر عام ١٧٧٦ على ان (الناس جميعاً يولدون متساوين) . واذا حللنا هـذه العبارة وجدنا انها بعيدة عن الحقيقة ، لأن الناس يتفاوتون قوة وذكاء وقدرة على العمل . ولكن الفكرة التي تهدف اليها هذه العبارة واضحة وجديرة بالثناء والتقدير . لقد أراد اهل المستعمرات تقويض معالم الظلم والمغبة اللذين خلفهما الاقطاع في اوروبا . وتلك وثبة حميدة . ويبدو ان كاتبي (اعلان الاستقلال) كانوا متأثرين بفلاسفة فرنسا القرن الثامن عشر امثال فولتير وروسو وغيرهما .

وبالرغم من هـذه العبارة التي جعلت الناس متساوين منذ الولادة ، ظل العبد الزنجي الشقي معدوماً من الحقوق إلا اقلها ، ولم يجد له سبيـــلاً في الدستور الامريكي الى انقامت الحرب الأهلية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ، وانتهت بالغاء الرق وعتق العبيد . ولكن ذلك لم يحل مشكلة العبيد تماماً ؛ وهي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا .

سقوط الباستيل

١٧ اكتوبر ١٩٣٢

●

ذكرت لك ثورتين من ثورات القرن الثامن عشر . واتحدث اليك اليوم عن الثورة الثالثة وهي الثورةالفرنسية التي كانت اكثرها دوياً وضجة . ولدت الثورة الصناعية في انجلترا وزحفت منها الى البلدان الاخرى . وكان زحفها بطيئاً وهادئاً بحيث لم يلاحظه الكثيرون ، مع ان الثورة نفسها كانت بعيدة الاثر.

أما الثورة الفرنسية فإنها داهمت اوروبا كالصاعقة . ولا غرو فقد كانت اوروبا في ذلك الحين مرتعاً خصيباً للملوك والأباطرة . فمع ان الامبراطورية الرومانية المقدسة قد ماتت فعلاً ، الا انها ظلت اسمياً ، وكانت تلقي شبحها المخيف فوق اوروبا . وكانت الثورة اذن وليداً غريبا تمخضت عنه عامة الشعب في عالم يسوده الملوك والاباطرة والقصور والترف والتبذير . ولم يأبه هذا المخلوق الشديد التمسك بالتقاليد والامتيازات الارستقراطية ، بل اطاح برأس الملك وهددالملوك الآخرين بنفس المصير . وانا لندهش لذلك الذعر الذي استولى على ملوك اوروبا ورجالها المترفين من ثورة الرعاع الذين كانوا قد وضعوهم في زاوية من زوايا النسيان وأذاقوهم انواع الظلم والهوان .

ثار بركان الثورة الفرنسية كما تثور بقية البراكين بعد غليان وتفاعل يجريان تحت السطح مدى اجيال عديدة . ويظل ذلك الغليان حتى يضعف سطح الارض ولا يقوى على حبسه ، فينشق له فوهة ويقذف بحممه الملتهبة الى عنان السماء ،

وتتساقط معادنه الحـــارة على سفوح الجبال . هكذا تتفاعل عناصر الثورة مدة طويلة تحت سطح المجتمع. وكذلك الماء الذي ترتفع درجة حرارته تدريجياً دون ان نحس بها حتى ترتفع كثيراً ويأخذ بالغليان .

وتتألف عناصر الثورة من المبادىء والاحوال الاقتصادية . ولكن الاغنياء والاستغلاليين الممسكين زمـــام السلطة لا يبالون بكل ما يتعـــارض مع آرائهم الخاصة ، ويتصورون ان الثورات مجرد نتيجة لتحريض المهيجين. ولكن، هل غاب عن ذهن هؤلاء الاغنياء ان هؤلاء المحرضـــين ان هم الا بشر تسوؤهم الاحوال التي تكتنفهم فيعملون على تغييرها ؟ واننا نجد في كل ثورة من الثورات عدداً من هؤلاء الناس الذين هم وليدو النقمة والاضطراب القائمين ولكن عشرات او مئات الالوف من الناس الذين يسيرون مع الثورة ليسوا مجرد أداة في يـــد المحرضين . لأن غالبية الشعب تحرص دائماً على تأمين المعيشة ولا تبادر الى المجازفة والمخاطرة الا اذا ازدادت الحالة سوءاً واصبحت جحيماً لا يطاق . عندئذ يلقي هؤلاء الناس زي الضعف ويستعدون للمجازفـة والانصياع وراء من يدعون بالمحرضين ، لان هؤلاء (المحرضين) يرسمون للناس طريقاً للخلاص من شقائهم .

حدثتك في كثير من رسائلي السابقة عن مظالم الشعوب وعن ثورات الفلاحين. التي يـكاد لا يخلو منها بلد في آسيا او اوروبا ، والتي كثيراً مـــا اسفرت عن اراقة الدماء والقسوة. كان الفلاحون يثورون رفعاً للحيف اللاحق بهم، ولكنهم لم يكونوا يضيفون لثوراتهم اهدافاً واضحة المعالم ولا مثلاً عليا للسير بمقتضاها . وكان ذلك سبباً في خذلانهم في كثير من الاحيان. ولكن الثورة الفرنسية امتازت بجمعها بين الافكار الناضجة والرغبة الجامحة للثورة. وكلما اجتمع هذان العاملان قامت الثورة بمعناها الحقيقي والثورة بهذا الشكل تؤثر تأثيراً بعيد المـدى في حياة الشعب في شتى مظاهرها سواء كانت سياسية او اجتماعيـة او اقتصادية او دينية وهذا هو ما حل بفرنسا في القرن الثامن عشر .

تطرقت في رسالة سابقة الى ذكر ترف ملوك فرنسا وعجزهم عن سياسة الملك وعن الفقر المدقع الذي كان متمكناً من الشعب الفرنسي . واشرت الى الثورة

الفكرية التي خامرت عقول الفرنسيين والمبادىء الجديـدة التي تفتقت عنها قرائح فولتير وروسو ومنتيسكيو وغيرهم .

هكذا كان العامل الاقتصادي يسير جنباً الى جنب مع المبـــادىء الفكرية ويكمل احدهما الآخر ويعضده . ومن طبيعة المبـادىء الفكرية انها تحتاج الى زمن طويل حتى تتبلور وحتى يهضمها الناس ، وكثير من الناس لا يخلون من الانانية وحب الاحتفاظ بامتيازاتهم وعقائدهم . ويحصل احياناً ان بعض المبادىء تستغرق زمناً حتى يهضمها الناس ، ولكنها تصبح في ذلك الحين قديمة وتحتاج الى تبديل . ولذا فاننا نلاحظ ان المبادىء الفكرية الفرنسية التي ظهرت في القرن الثامن عشر كانت تعالج الفترة التي سبقت قيام الثورة الصناعية في اوروبا . وبما ان هذه الثورة الصناعية التي بدأت في انجلترا قد غيرت الحياة الصناعية والاجتماعية لدرجة كبيرة ، فان المبادىء الفكرية أصبحت تحتاج الى تعديل وتبديـــل . والواقع ان تطور الثورة الصناعية كان متأخراً عن هؤلاء المفكرين الذين اعتمدت عليهم الثورة الفرنسية الى حد كبير .

ومدى تأثير هؤلاء المفكرين على الثورة الفرنسية لا يحتاج الى برهان ، فقـد رأينا امثلة سابقة قام فيها العوام بالثورة ، ولكننا نرى في الثورة الفرنسية جموحاً من العوام الواعين الذين قاموا بأعمال ثورية واعية . وهذا الوعي هو الميزة التي تحلّت بها هذه الثورة .

اخبرتك ان لويس الخامس عشر خلف جده الأكبر لويس الرابع عشر عام ١٧١٥ ، وامتد حكمه ٥٩ عاماً . وهو القائل « فليأت بعدي الطوفان » . وقد برهن بعمله على صحة قوله لأنه قاد البلاد الى الهاوية غير حافل او متعظ بالثـورة الانجليزية التي اطاحت برأس الملك . وقد خلفه في عام ١٧٧٤ حفيده لويس السادس عشر ، المعتوه . وتزوج هذا من ماري انطوانيت شقيقة امبراطور النمسا المنتمي الى اسرة هابسبورج . كانت ماري طائشة ، ولكنها كانت قوية الارادة ومسيطرة على زوجها تماماً وكانت احرص من زوجها على حق الملك المقدس ، وشديدة الازدراء لعامة الشعب . وقام الزوجان فيما بينهما باتيان الافعال التي تبغض الشعب

بالملوك والملكية وصمم الشعب على قبـول الحـكم الجمهوري ، لأنه كان قبل ذلك يشك في صلاح الملكية ، وجاء لويس وماري ليقلبا هذا الشك الى يقين . وبالرغم من كل ذلك فان ما فعله لويس وماري لم يكن مستغرباً على ملوك ذلك العصر . فقيصر روسيا وقيصرتها قاما بمثل هذه الاعمال قبيل الثورة الروسية التي اندلعت عام ١٩١٧ . ولكن الغريب حقاً ان نرى بعض النـاس يزدادون طيشاً وحماقة كلما ازدادت الازمة تعقيداً ويصيرون كالباحث عن حتفه بظلفه ، مصداقاً للمثل اللاتيني القائل : «اذا اراد الله هلاك امرىء ألهمـه الطيش والجنون » . وهناك مثل سنسكريتي بنفس المعنى .

كثيراً ما تعتمـد الملكية والديكتاتورية في دعم مراكزهما على الامجـــاد والبطولات العسـكرية . وكلما ساءت الاحوال في داخـل البلاد ، لجأ الملك الى المجازفات الحربية خارج البلاد لتحويل انظار الشعب عن شقائه . ولكن الملكية الفرنسية لم تحرز نجاحاً في محاولتها هذه، لان حرب السبـع سنوات انتهت بالهزيمة ووجهت لطمة قاسية للملكية بما جرته على البلاد من آلام وتهديد بالافلاس. وزاد الطين بلة اشتراك فرنسا في حرب الاستقلال الأمريكية التي اثقلت كاهل الخزينة الفرنسية وكيف تتوفر الاموال اللازمة للحكومـة بينما النبلاء ورجال الدين معفون من معظم الضرائب ومتمسكون بامتيـازاتهم الخاصة ؟ واذا كان جمع الاموال لتغطية الديون وسد نفقات البلاط الباهظة امراً لا مفر منه ، فهل يقع العبء كله على عامة الشعب ؟ يقول الكاتب الانجليزي كارليـــل في كتابه عن الثورة الفرنسية مصوراً الحقيقة بطريقة ساحرة مؤثرة :

« لم تكن حالة العامة حسنة بل سيئة الطابـع . كان عددهم يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين مليون نسمة . ونحن ننظر الى هؤلاء كأنهم وحدة قائمة بذاتها، كما ننظر الى قطيـع الكلاب التعيسة او (الرعاع) . ولكنك اذا تبعت هؤلاء الناس الى مساكنهم التي تشبه بيوت الارانب عرفت ان كل واحد منهم وحدة قائمة بذاتها لها قلبها الخاص وأساها وشقاؤها الخاص . ترى الواحـد منهم لا يكسوه الا جلده الرقيق الذي لو قرصته لتسرب الدم منه . »

ما صدق هذا التصوير على فرنسا عام ١٧٨٩ والهند عام ١٩٣٢ ! ألسنا ننظر الى هذه الجماعات من الناس في الهنـد كأنهم وحدة واحدة وقطيـع تعيش غير منتج ، مع انهم يحصون بالملايين ومنهم الفلاحون والعمال وغير ذلك !. غير انهم كانوا وما زالوا يعاملون كالحيوانات التي تحمل الاثقال . ونحن احياناً (نعطف) عليهم ونتظاهر بتقديم الخير لهم ، ولكننا لا نعـاملهم كبشر على قدم المساواة معنا ألا يجدر بنا ان نعلم ان داخل كل كهف من كهوفهم عائلة مستقرة تشعر بالجوع والبرد والألم مثلنا؟ ان كثيراً من ساستنا الضليعين بأحكام القانون يتشدقون بالقوانين والدساتير ، ولكنهم يسقطون من حسابهم هؤلاء البشر الذين وضعت القوانين والدساتير لخدمتهم . ان السياسة الحقيقية لسكان الملايين من اكواخنا الطينية والاحياء الفقيرة هي المأكل والملبس والمأوى !

هكذا كانت فرنسا في عهد لويس السادس عشر . افتتح ذلك العهد باضطرابات ناتجة عن الجوع استمرت احد عشر عاماً ، وتلتها فترة استراحة قامت على اثرها مقاومة من جانب الفلاحين، ولما قامت المظاهرات في ديجون طلباً للطعام ، خاطب الحاكم الشعب المتضور جوعاً قائلاً : «لقد نبت الحشيش فاغشوا الحقول وارعوا ما شاء لـكم ذلـكم » وتحولت جموع عديدة من الشعب الى شحاذين محترفين ، حتى اذيـع رسمياً في عام ١٧٧٧ ان عدد الشحاذين في فرنسا بلغ مليوناً ومئة الف شخص . وكيف يمكن ان يغيب عنا طيف الهند عندما نذكر هذا الفقر والشقاء؟

لم يفتقر الفلاحون للطعام فقط بل الى الارض ايضاً ، لأن الاقطاع حصر ملكية الارض في النبلاء فقط فتمتعوا بالنصيب الاوفر من خيراتها . ولم يكن الفلاحون يعرفون اهدافهم على وجه التحديد ، ولكنهم كانوا ممتلئين حقـداً وغيظاً على الاقطاع الذي حرمهم ارضهم وسحقهم سحقاً ، وكانوا يحقدون بوجه خاص على النبلاء ورجال الكنيسة . ونتذكر بهذه المناسبة الهند وضريبة الملح التي اثقلت كاهل الفقراء فيها .

لم يلتفت الملك والملكة لسوء الحالة ، وراحا يواصلان ابتزاز الامـوال ، فعجزت الميزانية وتراكمت الديون ، واستحقت ماري انطوانيت لقب (السيدة

المتلفة) ، ولما سدت السبل في وجـه الملك ، تفتق ذهنه (في عام ١٧٨٩) عن فكرة دعوة المجلس العـــام الذي يضم ممثلي الطبقات الثلاث التي تؤلف الشعب الفرنسي وهي : النبلاء ورجال الدين والعوام . كان هذا المجلس يشبه البرلمان البريطاني الذي يضم مجلس اللوردات (النبـــلاء والاساقفة) ومجلس العموم . ولكن البرلمان الانجليزي كان يمتاز عن المجلس الفرنسي الجديدبقدمعهدهوتطوره مدة مئات من السنين ، بينما لم يكن المجلس الفرنسي الجديد يجتمع إلا لماماً ، ولم تكن له انظمة او تقاليد . ولكن كلاً من المجلسين،وخصوصاًالبرلمان الانجليزي، كان وقفاً على النبلاء وموصداً في وجه الفلاحين .

وافتتح الملك المجلس العام في فرساي في ٤ مايو ١٧٨٩ . وسرعان ما ادركه الندم على هذا العمل لأن الطبقة الثالثة ، وهي طبقة العوام ، اوالطبقة الوسطى ، اصرت على عدم شرعية الضرائب اذا لم تفرض بمشورتهم ؛ وشجعهم على ذلكالمثل الذي ضربته انجلترا حيث حصل العوام على هـذا الحق ، والمثل القريب الذي ضربته الثورة الامريكية . وقد ظنوا – خطأ – ان شعب انجلترا كان متحرراً، بينما كان في الواقع يرزح تحت سيطرة الطبقة الارستقراطية وطبقة كبار الملاكين الذين احتكروا البرلمان بسبب القيود المفروضة على حق التصويت .

ولم يكن لويس كفؤاً للعوام ولما أمر باخراجهم من قاعـــة الاجتماع ، اجتمعوا في ملعب قريب للتنس واقسموا الا يغادروا المكان إلا بعـــد وضع الدستور . وعرف ذلك بقسم ملعب التنس . ولمـــا حاول الملك اخراجهم من المكان بالقوة عصى الجنود الامر . والظاهر ان الازمة تصل مرحلتها الحقيقية في الثورات عندما يعصي الجيش (وهو دعامة الحكومةالاولى) الامر باطلاق النار على اخوانه من افراد الشعب . واسقط في يد لويس ، غير ان حمقه حمله علىطلب النجدة الاجنبية خلسة لمحاربة الشعب ، ولم يغفر الشعب للويس ذلك وقـــام في باريس قومته التاريخية في ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، توجه الى سجن الباستيل واحتـــله واطلق سراح المعتقلين فيه .

كان سقوط الباستيل حدثاً تاريخياً عظيماً في تاريخ العالم لانه اشعل الثورات

الشعبية في جميع انحاء فرنسا ، وقضى على النظام القديم ، وقوّض معالم الاقطاع والملكية وعهد الامتيازات ، وهز جميع ملوك وأباطرة اوروبا . وطلعت فرنسا على اوروبا بطراز جديد ، بعد ان عرفت في السابق بملوكها العظام. ومن الناس من ارتعدت فرائصه لهول الحادث ، ومنهم من دخل السرور الى قلبه والامل الى نفسه . وما زال اليوم الرابع عشر من يوليو عيداً قومياً لفرنسا .

سقط الباستيل اذن في ١٤ يوليو . ولكن تصرف الجالسين على منصة الحكم وعدم ادراكهم يدعوان الى الدهشة . فقد اقيمت في ليلة ١٣ يوليو حفلة ملكية في فرساي سادها الرقص والغناء والشراب . وقد شرب الحاضرون امام الملك والملكة نخب الانتصار القريب على الثوار في باريس . فما اغرب هذا الموقف !. اما مابقي من الملوك فانهم يسيرون اليوم بحذر بعكس ملوك القرن الثامن عشر . وقد كان الناس في ذلك العصر يحسبون ان البلد يموت اذا زالت منه الملكية .

ولذا وبالرغم من حماقة لويس ، لم يطلب الشعب خلعه الا بعد سنتين ونصف عندما حاول الملك الهرب فعيل صبر الشعب وصمم على خلع الملك .

نرجع الى المجلس العام فنرى انه تحول الى (مجلس الأمة) ، واصبح الملك ملكاً دستورياً اي خاضعاً لسلطة المجلس. غير ان الامر لم يرق لماري او الملك ، ولم يرق تصرف الملكين للشعب الذي صار يشك بهما ويتوقــــع قيامهما بألوان الدسائس والمكر والخداع .

وكان بلاط الملك في هذه الاثناء في فرساي بعيداً عن أعين الشعب الباريسي الذي كان يلتقط انباء القصر والولائم والبـــذخ فيزداد تضوره وتزداد نقمته . ولكن الشعب زحف على فرساي وحمل الملك الى باريس في موكب يعد اغرب موكب من نوعه ، وسأتابع سرد قصة الثورة في الرسالة التالية .

الثورة الفرنسية

١٠ اكتوبر ١٩٣٢

●

اجد صعوبة في الكتابة عن الثورة الفرنسية ، لا لفقر في المادة ولكن لغزارتها. فقد حفلت رواية الثورة المدهشة بالحوادث الغريبة التي لا زالت حتى اليوم تملأ الناس اعجاباً ونشوة وخوفاً كانت دسائس الامراء والساسة مبثوثة في المخادع والمقصورات ؛ وكان الجو مكسواً بسحابة قاتمة من الغموض . وكثيراً ما كمنت وراء الفضيلة الرذيلة ووراء الكلام المعسول المنمق الاطماع والتنافس . ومع ان هذا التنافس وهذه المنازعات تقود الى الحرب وازهاق ارواح الشباب ، فأننا لن نتحاشى ذكر هذه الدوافع المنحطة التي كانت تقدم للناس على أنها افكار نبيلة واهداف سامية تتطلب التضحية .

ولكن الثورة تختلف عما سبق ، لأن مهدها الحقل والشارع والاسواق ، وسبيلها وعر شاق ،ورجالها لم تتوفر لهم فرصة التعلم التي اصبحت للامراء والساسة ، ولا يتقنون الكلام المنمق الذي يخفي وراءه المكر والخديعة . وهم لا يحتاجون الى ما يسترون به أفكارهم ، كما ان اجسادهم نفسها يكاد لا يسترها شيء. وعندما تندلع الثورة يسقط في ايدي الملوك ومحترفي السياسة لأنهم يجابهون الحقيقة المرة التي يندفع خلفها مادة خام من البشر والامعاء الطاوية .

كانت الفترة الواقعة بين عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٥ فترة انطلاق الجماهير وسيطرتها على الجبناء من السياسيين ، مجبرة اياهم ان يقوموا بالغاء الملكية والاقطاع والامتيازات

الكنسية . وهذه الجماهير هي نفسها التي تتعرض لحد المقصلة ، وتقوم بالانتقام الفظيع من هؤلاء الذين كانوا يسقونهـا كأس العذاب، ومن هؤلاء الذين كانوا يتآمرون على الحرية التي اهتدت اليها . ان الجماهير التي نراها رثة الثياب حافية القدمين هي التي تندفع الى ارض المعركة ذوداً عن حياض الثورة وتهزم بأسلحتها البالية جيوش اوروبا المدربة والموحدة لقتالها

وقد ابلى ابناء فرنسا بلاء حسناً ولكن بعد سنين من الاجهاد والنزاع خارت عزيمتهم والتفتوا الى الخلافات فيما بينهم ، وبدأت الثورة تحارب نفسها وتلتهم ابناءها . ومن هنا قامت الثورة المعاكسة التي التهمت الثورة الحقيقية وأعادت العوام الذين اثبتوا جرأتهم واكتووا بنار الثورة الى حظيرة حكم الطبقات الممتازة، وتمخضت الثورة المعاكسة عن نابوليون الدكتاتور والامبراطور. ولكن نابوليون والثورة المعاكسة كانا اعجز من ان يعيدا الشعب الى الدرك الذي كان عليه قبل الثورة . ولم يكن باستطاعة احد ان يمحو الصفحة التي سطرتها الثورة بالفتوح المجيدة التي حققتها او ينتزع من شعب فرنسا وشعوب اوروبا الاخري الذكرى الحبيبة ، ذكرى هبة المستعبَدين في الارض وتحطيمهم نير العبودية ، وان كان ذلك لم يدم زمناً طويلاً .

كان عدد الاحزاب والكتل الساعية الى السيطرة في بداية عهد الثورة كبيراً. كان هناك الملكيون الذين حاولوا - عبثاً - ابقاء لويس السادس عشر ملكاً مطلق السلطة؛ والاحرار المعتدلون الذين يرضيهم ان يبقى لويس ملكاً دستورياً محدود السلطة ؛ والمعتدلون الجمهوريون المعروفون بحزب جيروند ؛ والجمهوريون المتطرفون المعروفون باليعقوبيين ، لانهم كانوا يجتمعون في دير يعقوب . وكان الى جانب هذه الاحزاب الرئيسية عدد من المجازفين ؛ والى جانب كل هؤلاء جماهير الشعب الفرنسي ولا سيما الباريسيون الذين كانوا يسيرون وراء عدد كبير من الزعماء المجهولين . وكان هناك (مهاجرون) من النبلاء الفرنسيين الذين لجأوا الى انجلترا وراحوا يديرون دسائسهم ضد الثورة .

وانتظمت قوى اوروبا الرجعية في وجه الثورة الفرنسية . واستوى في الذعر

منها كل من انجلترا ذات البرلمان المشوه والارستقراطية العريقة وملوك وأباطرة بقية بلدان القارة الاوروبية الذين خافوا ان ينفجر بركان العوام في كل مكان . وحاولت هذه القوى الرجعية ان تخنق الثورة في مهدها

واشترك الملك مع جماعة من الملكيين في حبك الدسائس والمكائد للشعب ، فما زادهم عملهم الا قرباً من الهاوية . وكان اقوى الاحزاب في مجلس الامة الحزب الحر المعتدل الذي طالب بوضع دستور شبيه نوعاً ما بدستور انجلترا أو امريكا وكان على رأس هذا الحزب ميرابو . وظل الحزب مسيطراً على المجلس مدة عامين ونصف تقريباً أصدر خلالها عدداً من الاعلانات والتغييرات الهامة . وكان يوم ٤ اغسطس ١٧٨٩ ، اي بعد سقوط الباستيل بعشرين يوماً ، يوماً مسرحياً في تاريخ مجلس الأمة نوقش في ذلك اليوم موضوع الغاء الامتيازات الاقطاعية . ولما كان افراد الشعب – بما فيهم النبلاء الاقطاعيون – واقعين تحت تأثير نشوة الحرية ، اخذوا يتنافسون في مدى ما يتنازل الواحد منهم من امتيازاته الخاصة وكانت نهضة مخلصة نبيلة حقاً ، ولو انها لم تثمر لعدد من السنين. ومن النادر حقاً ان تبدي الطبقات الممتازة مثل هذا الشعور النبيل ، وان كان شعور المرء بقرب زوال امتيازاته يجعل من الحكمة اتخاذه هذا الموقف .

وقد رأينا مثل هذا الشعور في الهند قبل ايام قليلة عندما قام غاندي بصومه محاولة منه انهاء حالة المنبوذين في البلاد وفعل عمل غاندي في النفوس فعل السحر ، فتساقطت القيود التي كان الهندوس قد اوثقوها على جسد اخوانهم المنبوذين ، وفتحت الابواب امام المنبوذين بعد ان ظلت موصدة في وجوههم اجيالاً عديدة .

وهكذا قرر مجلس الامة في فورة الحماس – إلغاء كل من العبودية والامتيازات والاعفاء الذي كان يتمتع به النبلاء ورجال الدين من الضرائب وإلغاء الالقاب . وكان من الغريب حقاً ان يبقى الملك بينما خسر النبلاء ألقابهم.

عالج مجلس الأمة بعد ذلك موضوع اعلان حقوق الانسان . وربما كان رجال المجلس متأثرين باعلان الاستقلال الامريكي ، ولكن الاعلان كان قصيراً بينما

كان الاول مبهماً ، وفيه شيء من التعقيد . وكان المفروض ان يكون اعلان حقوق الانسان هذا ضماناً اكيداً للمساواة والحرية والسعادة ، وهي خطوة جبارة جريئة في ذلك العصر ، مما جعل الاعلان دستوراً يستند اليه الاحرار والديمقراطيون في اوروبا مدة مئة عام من الزمان ، مع انه اليوم يعتبر متأخراً عن روح العصر ولا يحل اياً من مشاكله لقد استغرق الانسان زمناً طويلاً جداً قبل ان يكتشف ان مجرد المساواة امام القانون والحصول على حق الانتخاب لا يضمنان المساواة الحقيقية اوالحرية او السعادة ، وان الرجال القائمين على تصريف شؤون الحكم ما زالوا يملكون الوسائل الأخرى لاستغلال الانسان .

لقد حدث تطور كبير في التفكير السياسي منذ اندلاع الثورة الفرنسية . وربما اعترف المغالون من المحافظين من معاصرينا بالمكانة الرفيعة التي حققتها مبادىء اعلان حقوق الانسان ؛ ولكن هذا لا يعني ، كما لا يخفى ، ان هؤلاء الناس مستعدون حقاً ان يعطوا الشعب المساواة الحقيقية والحرية . وقد حمى الاعلان المذكور حق الملكية الفردية اما مصادرة املاك الكنيسة ورجال الدين فراجعة لأسباب اخرى متعلقة بالامتيازات الاقطاعية والامتيازات الخاصة . اما حق التملك فانه ظل حقاً مقدساً له حرمته وربما علمت ان الافكار السياسية التقدمية اليوم تعتبر الملكية الفردية بيت الداء الواجب استئصاله بقدر المستطاع .

ولئن بدا اعلان حقوق الانسان لنا اليوم كلاماً مبتذلاً ، فإن كثيراً من جلائل الاعمال بالأمس تبدو صغيرة الشأن اليوم . ولا نغفل ان ذلك الاعلان بعث في الناس نشوة الأمل وآسى المحرومين والمعذبين في اوروبا . ولكن الملك ابغض الاعلان واعتبره اهانة له ورفض التوقيع عليه . وكان الملك آنذاك في فرساي ، فسار الشعب الباريسي – وعلى رأسه النساء – الى قصر فرساي واجبر الملك على تصديق الاعلان . وحمل الشعب الملك معه الى باريس في الموكب الغريب الذي ألمحت اليه في رسالتي الأخيرة .

لقد أدخل المجلس اصلاحات مفيدة عديدة في البلاد . صودرت املاك الكنيسة الشاسعة ؛ وقسمت فرنسا تقسيماً ادارياً جديداً يجعلها ٨٠ ادارة ظلت ، كما اعتقد ،

قائمة حتى اليوم ؛ وادخلت المحاكم الحديثة لتحل محل محاكم الاقطاع القديمة. كانت هذه الاصلاحات ذات شان ولا شك ، ولكنها لم تصل الى نهاية الشوط ، فقد ظل الفلاحون النهمون الى الارض بدون ارض ، وظل العوام بدون خبز ، وكأن يد الثورة قد غلت . ولنذكر هنا ان العوام والفلاحين لم يكونوا ممثلين في المجلس ؛ وكانت السلطة في المجلس في يد الطبقة الوسطى التي يتزعمها ميرابو . وعندما شعر هؤلاء ان الثورة قد حققت اهدافهم هم ، حاولوا ان يوقفوها عند هذا الحد ، حتى انهم تحالفوا مع الملك في قتل الفلاحين في المقاطعات الفرنسية . واصبح ميرابو بالفعل مستشاراً سرياً لدى الملك . وقد تبلبلت من جراء ذلك افكار العوام الذين دكوا معاقل الباستيل واحتلوه ظناً منهم ان ذلك قد هيأ لهم تحطيم قيودهم الى الأبد وأنهم نالوا حريتهم . ولكن سرعان ما رأوا ان حريتهم ظلت بعيدة عنهم وان مجلس الامة يسعى لدحض مساعيهم كما كان يفعل قبل ذلك النبلاء الاقطاعيون .

وفتش اهل باريس – وهي قلب الثورة – عن منفس جديد لنشاطهم الثوري خارج مجلس الامة وداخل بلدية باريس . وكان لهذه البلدية ولكل ضاحية من المدينة « التي كان لها ممثلون في البلدية » اتصال مباشر بالجماهير . ولذا فقد حملت البلدية وضواحي المدينة راية الثورة والمنافسة للمجلس الواقع تحت سيطرة الطبقة الوسطى والمعتدلين .

ولما حانت الذكرى السنوية الاولى لسقوط الباستيل ، اقام اهل باريس حفلاً تذكارياً دعوه « عيد الاتحاد » . وقام العوام في باريس بعمل الزينات مجاناً لهذا العيد الذي اعتبروه عيدهم الحقيقي .

هكذا كانت حالة الثورة عامي ١٧٩٠ و ١٧٩١ . لقد فقد المجلس حماسه الثوري وملّت نفسه التغييرات المتعاقبة . اما شعب باريس فإن مرجل الثورة ظل يغلي في نفسه ، وظل النهم الى الارض ينهش فؤاد الفلاحين . ولا بد في حالة كهذه ان تختار الثورة بين المضي قدماً او إلقاء عصاها والاستسلام .

وتوفي ميرابو عام ١٧٩١ . وكان طيلة حياته محبوباً لدى الجمهور ، بالرغم من

تعاونه السري مع الملك . وفي ٢١ يونيو ١٧٩١ وقع حادث قرر مصير الثورة . فقد حاول الملك لويس والملكة ماري انطوانيت الهرب ؛ وكادا يفلحان في المحاولة ويصلان الحدود لولا ان كشف احد الفلاحين امرهما قرب (فارين) القريبة من فردون ، فأوقفا واعيدا الى باريس .

كان عمل الملك والملكة هذا الحد الفصل بالنسبة لشعب باريس فيما يتعلق بمصير الملكية . وانتشرت الدعوة للجمهورية ، مع ان المجلس كان من الاعتدال وعدم الاحساس برغبة الجمهور بحيث استرسل – مع الحكومة في اطلاق النار على الشعب المطالب بخلع الملك واتهم مارا – وهو من ابرز رجال الثورة الفرنسية بتهمة التعرض للذات الملكية فاضطر للاختباء في مجاري باريس حيث اصيب بداء جلدي خبيث والغريب ان لويس ظل – ولو اسمياً – ملكاً على فرنسا لمدة عام آخر . وفي سبتمبر ١٧٩١ انهى مجلس الامة اعماله تاركاً المجال امام تأسيس « المجلس التشريعي » . وكان هذا المجلس كسلفه في الاعتدال وممثلاً للطبقات العليا فلم يتمثل فيه الشعب الفرنسي الممتلىء حمية على الثورة والذي يمثله اليعقوبيون الذين اخذت شوكتهم تقوى

وكانت القوى الاوروبية تراقب الاحداث الجارية في فرنسا بذعر بالغ . ومع ان بروسيا والنمسا كانتا مشغولتين في اقتسام الغنائم فيما بينهما من فريسة بولندا التي حاولتا القضاء عليها ، إلا ان حوادث فرنسا ألهتها عن ذلك . واشتبكت فرنسا في عام ١٧٩٢ في حرب مع النمسا وبروسيا . واذكري ان النمسا كانت في ذلك الحين تسيطر على بلجيكا التي كانت جزءاً من الأراضي المنخفضة المشتركة في الحدود مع فرنسا وزحفت الجيوش الاجنبية داخل الاراضي الفرنسية وهزمت الفرق الفرنسية ، فظن الشعب ان الملك كان على اتفاق مع هؤلاء الغزاة واخذ يرتاب من خيانة الملك . وكلما أحدق الخطر بالشعب الفرنسي كلما ازداد حماساً واضطراباً ورأى الخيانة ماثلة في كل مكان ، وبرزت بلدية باريس الثورية تقود زمام الازمة ، فرفعت العلم الاحمر إشعاراً منها باعلان حالة الطوارىء ومقاومة تمرد الملك . وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ أمرت البلدية بالهجوم على القصر

الملكي . فأمر الملك حراسه السويسريين باطلاق النار على الشعب . وكانت الغلبة حليفة العوام ، واجبرت البلدية على خلع الملك وايداعه السجن.

ان العلم الاحمر اليوم ، كماهو معروف ، علم العمال الاشتراكيين والشيوعيين في كل مكان . ولكنه كان في الاصل العلم الرسمي الذي تعلن بـــه الحكومة الاحكام العرفية ضد الشعب. واظن ان استعمال البلدية الباريسية لهـذا العلم كان المرة الأولى التي استعمل فيها لمصلحة الشعب. وتطور بعد ذلك الى ان اصبح علم العمال .

ولكن خلع الملك وسجنه لم يشفيا غليل شعب باريس الذي لم يغفرله حادثـة اطلاق الحرس السويسري النـــار على الجماهير وقتله العدد الكبير منهم وغلت الصدور حقداً على الخونة والجواسيس خوفاً من دسائسهم ، فانطلقوا يسجنون كل من يرتابون فيهم ويكدسونهم في السجون . وانه وان كان الكثير من هؤلاء المساجين مذنبين في حق الشعب فلا يخلو ان يكون بينهم البريء.

وطغت بعد ايام موجة عاتية من العاطفة على الشعب ، فأخرج المساجين واقام لهم محكمة صورية وقتل معظمهم . ويربو عدد القتلى في هذه المجزرة المعروفـــة (بمجزرة سبتمبر) على الف شخص .وذاق الشعب بذلك طعم الدم المسفوك على مذبح الحرية ، واصبح لايرتوي الا بالمزيد من هذه الدماء .

وفي سبتمبر ايضاً ذاقت الكتائب الفرنسية طعم النصر على جيـــوش النمسا وبروسيا التي غزت فرنسا في معركة فالمي الصغيرة من الوجهة العسكرية والجليلة الأهمية لأنها انقذت الثورة الفرنسية من الهزيمة.

وفي ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ اجتمعت (الجمعية الوطنية) التي حلت محل مجلس الأمة. وقد كانت الجمعيـــة اكثر تطوراً من المجلسين اللذين سبقاها ، ولكنها كانت متخلفة عن البلدية في التطور . وكان اول اعمال الجمعية اعلان الجمهورية. وتلا ذلك محاكمة لويس السادس عشر والحكم عليه بالموت . وفي ٢١ يناير ١٧٩٣ قدم لويس رأسه للمقصلة ثمناً لأخطاء الملكية ، واطاحت المقصلة برأسه.

وبذلك احرق الشعب الفرنسي قواربه خلفه، ولم يبق له من مفر بعد ان لوح براية الثورة في وجه ملوك اوروبا واباطرتها . وقبل ان يجف دم لويس على حد المقصلة ، وقف دانتون، احد قادة الثورة البارزين ، خطيباً في الجماهير ونـــدد بملوك اوروبا قائلاً : «سنرمي لأولئك الذين يتوعدوننا برأس ملك» .

الثورة والنكسة

١٣ اكتوبر ١٩٣٢

●

خلا مسرح فرنسا من الملك لويس ؛ وحلت بالبلاد ، قبل ذلك ، تغييرات مدهشة . كان دم الشعب يغلي من حمى الثورة ، واستبد الحماس الفائض به . ووقفت الجمهورية الفرنسية الفتية موقفاً لا تحسد عليه ، اذ هب في وجهها ملوك اوروبا . ولكن الجمهورية قررت ان تلقن هؤلاء الملوك الخنع درساً وان تريهم كيف يحارب الوطنيون الذين ادفأت اجسامهم شمس الحرية . انهم لم يريدوا الحرب دفاعاً عن حريتهم فقط ،ولكن دفاعاً عن جميع ما قاسوا من دور النبلاء والملوك . وبثت الجمهورية دعوى الحرية بين شعوب اوروبا ، وناشدتهم ان يهبوا في وجه ملوكهم، لان الشعب الفرنسي صديق لجميع الشعوب وعدو للحكومات الملكية اينما كانت. فاصبحت فرنسا بذلك الام الرؤوم التي يفتدونها بأرواحهم. وبينما كانوا في حماسهم المتدفق ، ولدت انشودة رائعة نارية اللحن تدفعهم الى ارض المعركة متخطين جميع الحواجز وغير مبالين بالعواقب. تلك الانشودة هي روجي دي ليل الحربية لجيش الراين والمعروفة منذ ذلك الحين بالمارسيلييز . وهي حتى اليوم نشيد فرنسا القومي .

ولم يعد الشعب يتغنى بطول الحياة للملوك ، بل انصرف الى التغني بحب الوطن وترديد اناشيد الحرية .

واشتدت الضائقة بالشعب وشح عنه الطعام والباس ، وقلت الأسلحة .

وطلب من المواطنين تقديم احذيتهم لرجال الجيش ، كما قطع المخلصون من الشعب اللقمة النادرة عن افواههم وقدموها لرجال الجيش المحارب . وامتدت يد الجيش الى الجلود وادوات المطابخ والجرادل وغيرها من الادوات المنزلية وحول كثير من المواطنين والمواطنات من العوام منازلهم المتواضعة الى مصانع للذخيرة التي راحوا يصنعونها بأيديهم . وما كان يضير اهل فرنسا اعسارهم واثوابهم البالية وقد رأوا فرنسا ، الأم العزيزة ، المتوجة بتاج الحرية ، تقف هدفاً للطامعين الذين يدقون ابوابها . واحتقر شباب فرنسا الجوع والعطش وهب لنصرة وطنه ومشى نحو النصر . ويقول كارلايل : « من النادر ان يكون الشعب في الاحوال العادية ايمان بشيء واحد عدا الطعام واللباس . فاذا تطرق الايمان اليه اصبح تاريخه وثبة روحية خالدة ». وقد واتى الايمان بالهدف النبيل رجال الثورة ونساءها فكتبوا التاريخ الخالد وسجلوا التضحية التي ما زالت تهزنا وتحرك مشاعرنا .

وتمكنت جيوش الثورة المؤلفة من المتطوعين الذين لم يتم تدريبهم من طرد جميع الجيوش الاجنبية من ارض فرنسا ومن تحرير بلجيكا من النير النمسوي وطرد اسرة هابسبورج من الاراضي المنخفضة الى غير رجعة . وتخاذلت الجيوش الاجنبية المرتزقة امام هؤلاء المتطوعين المحاربين في سبيل الوطن غير مبالين بالثمن . كانت جيوش الغزاة تزحف كالسلحفاة وهي تجر اكوام المؤن والذخيرة ، بينما كانت ذخيرة المتطوعين ومؤنهم نزرة يسيرة، واتاح ذلك للمتطوعين سرعة الحركة والوثوب . وقد غير المتطوعون بهذه الحركات السريعة الفنون الحربية القديمة وادخلوا تحسيناً كبيراً على تلك الفنون ظل مثلاً يحتذى طيلة المئة عام التي تلت الثورة . ولكن العامل الذي رجح كفة المتطوعين ايمانهم وحماسهم ، لأن شعارهم وشعار ثورتهم عبارة دانتون الخالدة :

« ولكي نهزم العدو ، يجب ان نتحلى بالجرأة وبالجرأة وبالجرأة دائماً وابداً . »

ثم اتسعت رقعة الحرب . وكانت انجلترا قوية باسطولها البحري ، بينما كانت فرنسا ضعيفة في البحر ، وان كان جيشها البري قوياً . فضربت انجلترا الحصار على جميع الموانىء الفرنسية . وحاول الفرنسيون الهاربون الى انجلترا ان يقضوا على فرنسا مالياً فأغرقوا اسواقها بالملايين من اوراق النقد المزيفة .

جذبت الحروب الخارجية اهتمام فرنسا ، فكرس الشعب جهده لها . والواقع ان هذه الحروب الحقت ضرراً بالثورة لأنهـــا صرفت اهتمامها عن الاصلاحات الداخلية وحرمتها من تحقيق هدفها الذي قامت من اجله . وهذا ما حدث بالفعل في فرنسا ، لان المطاف انتهى بها الى دكتاتورية عسكرية .

ولم تنج البلاد من المتاعب الداخلية ايضاً ، اذ انفجرت ثورة في (فندي) في غرب فرنسا قام بها الفلاحون الذين رفضوا الانضمام الى الجيش الجديد . والواقع ان الذي كان يسير الدفة شعب باريس ، وكان الفلاحون بعيدين الى حـــد ما عن جوها فلم يسايروا ركبها ويفقهوا الكثير من امرها وقمعت ثورة فندي بعنف وشدة . ويقال ان العنف هو طابع الحروب الاهلية لأن الرأفـــة لا تجد لها مكاناً فيها . وقامت ثورة معاكسة ايضاً في ليون ولكنها اخمدت ايضاً . واقترح البعض تدمير المدينة جزاء وفاقاً على (محاربتها للحرية) ولكن الله سلمهـــا من الدمار ، وان حلت بها مآسٍ كثيرة .

اما باريس فانها ظلت في حوزة البلدية (او الكومون) بمجلس منتخب جديد . وظلت الجمعية الوطنية مسرحاً للتنافس على السلطة بـين حزب جيروند الجمهوري المعتدل وحزب اليعقوبيين المتطرف . وانتصر اليعقوبيون وأقصوا الاعضـــاء الجيرونديين من الجمعية ، وذلك في يونيو من عام ١٧٩٣ . وتمكنت الجمعية اخيراً من الغـاء الحقوق الاقطاعية ونزع ملكية الاراضي من النبلاء الاقطاعيين وضمها الى البلديات المحلية ، اي جعلها ملكاً عاماً للشعب .

وانبثقت عن الجمعية الواقعة تحت سلطة اليعقوبيين لجنتان لهما صلاحيات واسعة احداهما دعيت لجنة (المصلحة العامة) ، ودعيت الأخرى لجنة (الامن العام) . وزاد نفوذ اللجنتين وخصوصاً الاخيرة منهما ، فدفعتا المجلس الى اتخـاذ الخطوة تلو الخطوة حتى اشرفتا بالجمهورية على هاوية الارهاب وارخى الخوف سدوله على النفوس : كان الناس يرهبون الجيوش الاجنبية المحيطة بالبلاد ، وكانوا يرهبون العيون المبثوثة والخونة وما كان اكثرهم والخوف عادة يجلل البصائر ويحمل الناس على المجازفة فقد اصدرت الجمعية في سبتمبر من عـام ١٧٩٣ قانوناً دعي

(قانون المشبوهين) ولم يكن لاحد حصانة من الشبهة ففي شهر واحد قدم اثنان وعشرون عضواً من اعضاء الجمعية الجيروندين للمحاكمة امام محكمة الثورة وحكم عليهم ـ بسرعة ـ بالموت . وبهذا دخل عهد الارهاب ، واخذت المقصلة تستقبل كل يوم عدداً من المحكوم عليهم بالموت . وكانوا يحملون اليها في العربات التي تجرها الخيول مخترقـة شوارع باريس المصطفة على جوانبها الجماهير الناظرة شزراً الى هـؤلاء التعساء . واصبح مجرد الكلام ـ حتى داخل الجمعية ـ او التعرض للعصبة المسيطرة على الجمعية مدعاة للشبهة فالمحاكمة فالمقصلة .

كانت لجنتا المصلحة العامة والامن العام مسيطرتين على الجمعية وغير راغبتين في اشراك احـد معها . وللسلطة طريقة غريبة في افساد اصحابها فقد اعترضت اللجنتان على وجود بلدية باريس واقسامها ، فشنتا الحرب عليها مع انها كانت العمود الفقري للثورة . وتم القضاء على الاقسام ثم على البلدية . وكانت هذه الاقسام همزة الوصل بين الشعب والادارة المركزية للثورة والشرايين التي غذتها بدم الثورة القاني . وبالقضاء على الاقسام والبلدية في مطلع عام ١٧٩٤ ، حيل مابين الشعب وبين الجمعية ولجنتيها اللتين اصبحتا جهازاً لفرض السلطة التعسفية الارهابية على الشعب ، وكان ذلك بداية النهاية بالنسبة للثورة الحقيقية . ومع ان الارهاب استمر مدة ستة شهور اخرى ، الا ان النهاية كانت قاب قوسين او ادنى .

ومن زعماء باريس وفرنسا في هـذه الفترة كميل ده مولان قائد الهجوم على الباستيل عام ١٧٨٩ وصاحب المواقف النبيلة الأخرى . وقف كميل داعياً الى سياسة رحيمة ، فسيق الى المقصلة ، وتلته زوجته لوسيل التي آثرت الموت على الحياة بدونه . وهناك الشاعر فابر ديجلنتين ، وفوكييه تنفيل المدعي العـام الرهيب ، ومارا الذي ربما كان اعظم رجال الثورة وأقدرهم والذي طعنته حتى الموت فتاة شابة تدعى شارلوت كوديه ، ودانتون الشجاع الخطيب المفوه الذي اشرت اليه مرتين قبل الآن والذي انتهى بـه المطاف الى المقصلة ، والخطيب روبسبيير اشهر رجال الثـورة وزعيم اليعقوبيين والدكتاتور الفعلي للجمعية في عصر الارهاب حتى لكأن الارهاب تجسد فيه ولكن روبسبيير كان نزيهاً

مخلصاً حتى دعي (بالمعصوم) عن الفساد . ومع انه كان ساذجاً في حياته ، إلا انه من الاعتداد بحيث اعتقد ان كل من خالفه كان خائنـاً للجمهورية والثورة . وكثيراً ما ارسل رفاقه في الثورة الى المقصلة . فلم تطق الجمعية عليه صبراً ورمته بالاستبداد والطغيان وقضت عليه .

كان رجال الثورة العاملون شباباً ، والثورات لا يخوض غمارها عـادة الا الشباب . ومع اهمية هؤلاء الشبان ، الا ان احداً منهم لم يطبعها بطابعه الخاص، لأنها انبثقت من الطبقات السفلى ولم تكن واقعـة تحت سيطرتهم . وكانت زلزلة بشرية من تلك الزلازل التي يتمخض عنها التاريخ عندما تتفاعل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والاحقاب الطويلة من الشقاء والطغيان معاً على النار الهـادئة حتى تصل الى درجة الغليان .

ولا يتبادر الى ذهنك ان مهمة الجمعية اقتصرت على تنافس اعضائها واشباعهم المقصلة ، ولكن الطـاقة التي تتولد عن الثورات تكون دائماً هائلة جبارة . ومع ان الحروب الخارجية استنفدت قسماً من هذه الطاقة ، الا انه بقي منها الكثير للقيام بالوفير من العمل الايجابي المثمر . فقد اصلح نظام التربية والتعليم كليـاً ، وأدخل النظام المتري (الذي يتعلمه الطلاب في المدارس الآن) فسهل قيـاس الاوزان والاطوال والاحجـام واقتبسه عنهم معظم بلدان العالم . اما انجلترا المحافظة فانها احتفظت بنظام الياردة والذراع والرطل واضطرت الهند الى استعمالها مع ما فيها من تعقيد .

ومن نتائج تغيير المقاييس ادخال تقويم جديد يبدأ بيوم اعلان الجمهورية (٢٢ سبتمبر ١٧٩٢) . وجعل الاسبوع عشرة ايام يكون اليوم العاشر فيه يوم عطلة . واحتفظ بعدد الاشهر ولكن اسماءها استبدلت بأسماء جميلة اختارتها قريحة الشاعر فابر ديجلنتين . ولكن هذا التقويم لم يعمر طويلا بعد افول الجمهورية .

وظهرت في فرنسا نزعة جديدة تهدف للابتعاد عن الكنيسة والتقرب من عبادة العقل ، واقيمت (معابد الحقيقة) . وانتشرت هـذه الدعوة بسرعة الى الولايات . واقيم في نوفمبر من عام ١٧٩٣ (عيد الحرية والعقل) في كاتدرائيـة

نوتردام في باريس ، ومثلت العقل فيه فتاة جميلة . ولكن روبسبير كان رجعياً من هذه الناحية فلم يوافق على هذه الحركة ، وكذلك دانتون واعضاء لجنة المصلحة العامة اليعقوبيون ، مما افضى بزعماء هذه الحركة الى المقصلة . واقام روبسبير عيد (الكائن الاعلى) مقاومة لعيد (الحرية والعقل). وصوتت الجمعية العامة الى جانب فكرة (الكائن الأعلى)، وعاد المذهب الكاثوليكي الرومي الى مكانته المرموقة.

تأزمت الأمور بسرعة بعد القضاء على بلدية باريس واقسامها ، ودب الخلاف بين رجال حزب اليعقوبيين المسيطرين على الحكومة وخصوصاً بعد اعدام هيبرت واتباعه الذين قاموا باعداد عيد الحرية والعقل . وتبعهم الى المقصلة فابر ديجلنتين. وعندما اعترض دانتون وكميل ده مولان وغيرهما على روبسبير لارسال العدد الكبير من الناس الى المقصلة ، قضى على الاثنين ايضاً . وباعدام دانتون خلسة (ابريل ١٧٩٤) - خوفاً من سماع الناس بالخبر - ايقن الناس في باريس والولايات ان الستار قد اسدل على مسرحية الثورة ، لان أسداً من اسود الثورة قد سقط عن المسرح وبقيت شلة محاطة بالاعداء من كل جانب ولا يربطها بالشعب اي رابط، وكانت تتصور الخيانة في كل عمل، فلم تر لنفسها مخرجاً الا الاغراق في الارهاب.

واستفحل الارهاب واكتظت العربات المحملة بضحايا المقصلة . وصدر قانون جعل نشر الانباء الكاذبة بقصد بث الفرقة والهياج بين الناس او الاستهانة بالاخلاق وافساد الضمير العام جريمة عقوبتها الموت . ووقع كل من اختلف مع روبسبير واذنابه في حبائل هذا القانون ، كما وقع الناس في هذه الشراك زرافات بلغت احداها مئة وخمسين شخصاً بينهم المجرمون والملكيون ، وكانوا يحاكمون بالجملة .

استمر الارهاب ستة واربعين يوماً اخرى انتهت في السابع والعشرين من يوليو ١٧٩٤ عندما انقلبت الجمعية فجأة على روبسبير وأذنابه وعلا الهتاف بسقوط روبسبير حتى لم يتمكن ان ينبس ببنت شفة ، وألقي عليه القبض ،وسيق في اليوم التالي الى المقصلة في العربة المعهودة ليشرب من نفس الكأس التي

اسقاها الكثيرين . وهكذا إسدل الستار على الثورة .

وبسقوط روبسبير قامت الثورة المعاكسة او النكسة ، اذ تقدم المعتدلون الى الصفوف الاولى وصبوا جام غضبهم على اليعقوبيين واحـــلوا (الارهاب الابيض) محل (الارهاب الأحمر) . وبعد خمسة عشر شهراً ، اي في اكتوبر ١٧٩٥ انحلت الجمعية الوطنية وتشكلت مديرية مؤلفـــة من خمسة اعضاء وتولت الحكم. وكانت هذه الحكومة برجوازية قطعاً ، وحاولت ابقاء العوام على حالتهم السابقة وظلت في الحكم اربع سنوات . وبالرغم من المتاعب الداخلية ، ظل النصر العسكري في الخارج قائماً وقضي على الثورات الداخلية ، وكل ذلك بفعل قوة استمرار روح الثورة .

وقد تم اخضاع احدى الثورات على يد قائد شاب في الجيش الجمهوري يدعى نابوليون بونابرت الذي جرؤ على اطلاق النار على الجمهور الباريسي وقتل منه عدداً كبيراً . وعندما يصبح جيش الثورة ذاته أداة لقتل الشعب فعلى الثورة السلام !.

وتبدد بانتهاء الثورة كثير من احلام المفكرين اللامعة وآمال الفقراء. ولكن الثورة حققت الكثير مما قامت من اجله . ولا يمكن لأي نكسة ان تعيد العبودية ولا يمكن لملوك اسرة البوربون استعادة الأراضي التي وزعت على الفلاحين ، ولم تكن حالة الاهالي في الحقول والمدن افضل في يوم من الأيام من حالتهم بعـد الثورة وحتى في عهد الارهاب ، لأن الارهاب كان موجهاً ضد الطبقات العليا ، ولو ان بعض العوام اصيبوا برذاذ في الآونة الاخيرة .

ولئن سقطت الثورة فان فكرة الجمهورية عمت اوروبا وعمت معها المبادىء التي تضمنها اعلان حقوق الانسان .

تصرف الحكومات

٢٧ اكتوبر ١٩٣٢

●

لم اكتب اليكِ شيئاً في الاسبوعين الاخيرين ، وأخشى ان يكون الكسل قد دب فيّ. ويجوز انني تباطأت لما شعرت انني اقترب من خاتمة القصة التي أرويها لك . لقد وصلنا الآن الى نهاية القرن الثامن عشر ، ولم يبق علينا الا المئة عام الواقعة في القرن التاسع عشر والاثنان وثلاثون عاماً التي انسلخت من القرن العشرين . ولكن هذه المئة واثنين وثلاثين عاماً سوف تستغرق قسماً كبيراً من الكتابة ، لأن قرب عهدنا بها يجعلنا نتذكر حوادثها المهمة وتفاصيلها اكثر مما نتذكر الاحداث السابقة . وكثير مما يكتنفنا اليوم نمت اصوله في هذه السنين ، ولن يكون اجتياز أكمة حوادثها المتراصة بالامر الهين . ولعل هذا هو السبب في تأخيري في الكتابة اليك . واني لا ادري كيف افعل عندما اصل بقصتي الى تاريخ الانسان عام ١٩٣٢ وأصل الماضي بالحاضر الماثل امامه طيف المستقبل . فماذا اكتب اليك اذن يا عزيزتي ؟ كيف اضع القلم في يدي وافكر فيك واتخيل انك جالسة بجانبي توجهين الي الاسئلة العديدة فأحاول الاجابة عليها .

لقد كتبت اليك ثلاث رسائل عن الثورة الفرنسية التي استغرقت خمسة اعوام قصيرة من تاريخ فرنسا ، بينما كنا اثناء تجولنا عبر العصور نكتفي في بعض الاحيان بالقليل عن قرن كامل او لمحة عابرة عن قارة بأمرها . فلما وصلنا فرنسا في الفترة الواقعة بين عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٤ ، استرسلت في الكتابة مع انني كنت

احاول الاختصار وان اكبح جماح قلمي لأن عقلي كان مزدحماً في الموضوع . فالثورة الفرنسية مكانة بارزة في التاريخ لأنها ختمت عصراً وافتتحت عصراً جديداً . وهي مليئة بالحوادث الدراماتيكية والعبر والعظات . وعلى الرغم من اننا نعيش في الهند في ثورة سلمية الا اننا نستطيع ان نتعلم الكثير من الثورة الفرنسية والثورة الروسية التي وقعت حوادثها امام اعيننا . ان الثورات الشعبية الحقيقية كهاتين الثورتين تكشف لنا عن حقيقة الحياة المرة كما يكشف البرق الخاطف وجه الارض والأماكن المظلمة فيه . وتبدو الاهداف قريبة وواضحة للناس فتمتلىء النفس إيماناً واملاً ويتبدد التردد والريبة ولا يبقى مجال للرضا بأقل الامرين صلاحاً . فينطلق رجال الثورة كالسهم الصائب الى الهدف لا يميل يمنة او يسرة . وكلما كان بصرهم اكثر جلاء كلما وصلت الثورة الى مرمى ابعد. ولكن هذا يحصل عندما تصل الثورة الى أوجها ويجلس زعماؤها على قمة الجبل ويوجهون رجالها الزاحفين على السفوح . ولكن المؤسف انهم احياناً ينزلون من القمة الى الوديان والشعاب المظلمة فيضمحل الايمان وتخور العزيمة .

عاد فولتير الى باريس عام ١٧٧٨ بعد حياة طويلة قضاها في المنفى ، فوافته المنية وهو في الرابعة والثمانين . قال فولتير مخاطباً الشعب الباريسي : «ما أسعد الشباب انهم سيرون اعمالا مجيدة .» وهذا ما حصل فعلاً ، لأن الثورة اندلعت بعد ذلك بأحد عشر عاماً . وقال لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم في القرن السابع عشر : «انا الدولة» . وقال خليفته لويس الخامس عشر في القرن الثامن عشر : «بعدي الطوفان» . ولبى الطوفان الدعوة فجرف لويس السادس عشر وصحبه من النبلاء الخنع اصحاب السراويل الحريرية ، وتقدم ابناء فرنسا الفقراء واصبحوا مواطنين ومواطنات لهم حقوق مشروعة ، وصرخوا مدوين في مسمع العالم بالحرية والاخاء والمساواة .

وقد استبد الارهاب بفرنسا في زمن الثورة . وما ان مضت ستة عشر شهراً على تشكيل محكمة الثورة (الى ان سقط روبسبيير) حتى كان ٤٠٠٠ شخص تقريباً قد لاقوا حتفهم على المقصلة . انه عدد كبير ولا شك ، والمؤسف انمنهم

من كان بريئاً . ولكن الإنصاف يدعونا الى النظر الحايد وان نذكر ان الثورة احيطت من كل جانب بالخونة والاعداء والجواسيس، وكان اكثر من استقبلتهم المقصلة من تلك الزمرة المعادية للثورة والمحاولة القضاء عليها

وقبيل انتهاء الثورة حمل البريء وزر المذنب . وهكذا عندما يلوح الخطر يغشى البصر ويصعب التمييز بين البريء والمذنب . واضطرت الثورة وهي في احرج مواقفها - ان تواجه خيانة عدد من جنرالاتها العظام مثل لافاييت ، مما افقد قادة الثورة اتزانهم وجعلهم يضربون ضرب عشواء .

ومن الجدير ان نذكر هنا ، كما فعل ويلز في كتابه التاريخي ، حوادث انجلترا وامريكا وغيرهما في هذه الفترة . كان قانون العقوبات، وخصوصاً الأحكام المتعلقة بحماية الأملاك ، شديداً للغاية ، حتى ان الجرائم الصغيرة كانت تؤدي بمرتكبيها الى حبل المشنقة . وكان التعذيب وسيلة قانونية في بعض البلدان . ويقول ويلز ان عدد الذين شنقوا بهذه الطريقة في هذه الفترة من الزمن في انجلترا وامريكا زاد على عدد من ارسلوا الى المقصلة إبان الثورة الفرنسية

وتذكري ايضاً الغارات البربرية الوحشية التي كانت قائمة في تلك الأيام لاقتناص العبيد والاتجار بهم وتسخيرهم . واذكري حروبنا الحديثة التي تسحق مئات الألوف من الشبان وهم في ريعان الصبا . وعودي بالذاكرة الى بلدنا واستعرضي احداثه القريبة . قتل في ابريل ، قبل ثلاثة عشر عاماً ، وهو يوم عيد الربيع ، المئات من ابناء الشعب في امرتسار . واصيب الآلاف بجراح بالغة في جاليا نوالا باغ . واذكري ايضاً المحاكمات بتهمة التآمر والمحاكم الخاصة والمراسيم الخاصة . فما هي هذه الامور ، اذا لم تكن ارهاباً وتعذيباً للشعب ؟. ان مدى الارهاب والتعذيب يتوقف على مدى الخوف المسيطر على الحكومة . فما من حكومة ، رجعية كانت او ثورية ، اجنبية او وطنية ، الا وتنغمس في الارهاب عندما يدق ناقوس الخطر على بقائها . والحكومة الرجعية تفعل ذلك حماية لمصالح اصحاب الامتيازات على حساب الشعب ، ولكن الحكومة الثورية تفعل ذلك حماية للشعب من اصحاب المصالح والامتيازات . والحكومة الثورية

عادة صريحة ومستقيمة . وهي وان كانت حديدية اليد ، الا انها لا تلجأ للخداع والمداورة . أما الحكومة الرجعية فانها تعيش في جو من الخداع يقيناً منها بأنها ستزول من الوجود في اللحظة التي يفتضح فيها امرها فهي تتكلم عن الحرية وتعني بذلك حريتهـــا في ان تفعل ما تشاء وتتكلم عن العدالة وتعني بذلك الإبقاء على النظام الذي يضمن لها النمو وللشعب الهلاك والعذاب . وهي قبل كل شيء تتحدث عن (النظام والقانون) وتتذرع بهما لقتل الناس وإلقائهم في غياهب السجون وتنزل بهم ما لا يقره قانون او شريعة . وباسم (النظام والقانون) يقدم المئات من اخواننا للمحاكم الخاصة ويحكم عليهم بالموت وباسمها ايضاً حصدت المدافع الرشاشة قبل عامين ونصف في بشاور اخواننا المواطنين العزل من السلاح . وباسمها قام سلاح الطيران البريطاني بالقاء قنابله على قرانا الامامية قاتلًا النسـاء والرجال والاطفال دون تمييز وتاركاً وراءه المشوهين . وقد ولد عقل الغزاة الشيطاني خدعة جديدة اذ راحوا يلقون القنابل الموقتة التي لا تنفجر عند إلقائها فيأمن الاهــالي ويعودون الى بيوتهم ، ولكن بعد فترة تنفجر وتمزقهم شر ممزق .

واذكري كذلك شبح المجاعة الذي يخيم يوماً بعد يوم على الملايين . وكأننا تعودنا رؤية الشقاء المحيط بنا وصرنا نعتقد ان العمال والفلاحين اقوى اجســاداً وتحملًا وأقـل احساساً منا ، وكأننـا بذلك نحاول ان نهدىء من روع ضميرنا المتألم لألمهم . واذكر زيارة قمت بها الى احد المناجم في جهاريا الواقعة في بهار . ولن أنسى تلك الصدمة التي حلت بي عندما ابصرت الرجال والنساء وهم يعملون بعيداً في غور الارض في ممرات داكنة سوداء من الفحم . وعندما يطالب البعض اليوم بتخفيض عدد ساعات العمل في المناجم الى ثماني ساعات ، نرى من لا يزال يعارض بذلك . وكلما سمعت المؤيدين والمعارضين استبد بي الألم ، لأنني قاسيت كثيراً من ثماني دقائق فقط قضيتها في هذه المناجم زائراً .

وربما كان الارهاب الفرنسي مريعاً ، ولكنه كان في شدته كلسعة القملة فقط اذا قيس بالداء العضال الذي يتفشى من الفقر والبطالة في البلاد . ان تكاليف

الثورة الاجتماعية ، مهما عظمت ، اقل من هذه المساوىء ومن تكاليف الحروب التي تجلبها الينـــا نظمنا الاجتماعية والسياسية القائمة . والسبب الذي جعل الناس يتوهمون كثيراً في مدى فظاعة الارهاب الفرنسي هو ان اكثر ضحاياه كانوا من الارستقراطيين واصحاب الامتياز ، وقد تعوّد الناس ان يعطفوا على مصائب هؤلاء الناس اكثر مما يعطفون على غــــيرهم . ولكن ، أليس الشعب كمجموعة أهم بكثير من هذه الحفنة ؟ قال روسو « ان جماهير الشعب هي التي تؤلف الجنس البشري ، وما عداها اقلية لدرجة انهم يستحقون الاحصاء » .

كان بودي ان اخبرك في هذه الرسالة عن نابليون ، ولكن ذهني اخذ يشت وقلمي اخذ يتجول بين المواضيع المختلفة ، ولذا فسأترك نابليون ، لأعود اليه في الرسالة القادمة .

نابليـــون

٤ نوفمبر ١٩٣٢

●

تمخضت الثورة الفرنسية عن نابليون . ودانت فرنسا الجمهورية التي تحـدت ملوك اوروبا ودوختهم لهذا الشاب الكورسيـكي. كانت فرنسا ذات جمال جامح وقد شبهها الشاعر باربيه بالفرس الجامحة ذات الناصية المرتفعة الى السماء والجلد الناعم البراق . وهي تعاف السرج واللجام وتضرب بسنابكها الارض وترعد بصهيلها فتخاف اوروبا . ولكن هذه الفرس الجامحة اسلمت قيادهـــا لشاب من كورسيكا ففعل بها العجائب وطوّعها وانساها حريتها المطلقة . ولكنها اخيراً انهكت فرمته عن ظهرها وسقطت مغشياً عليها.

من هو نابليون ، واي نوع من الرجال كان؟ هل كان عظيما و(رجل القدر) كما كان يسمى ؟ هل كان بطلًا مغواراً ساهم في رفع الاعباء عن الانسانية؟ ام انه كان – كما يعتقد ويلز وغيره – مجرد مغامر مدمر الحق الضرر باوروبا والحضارة؟ وربما كان في كلا القولين قسط من المبالغة او قسط من الصدق . فالناس جميعـــاً كبارهم وصغارهم مزيـج من الخير والشر . وكان نابليون مزيجاً، بيد ان العناصر التي خلطت فيه كانت عناصر ذات صفات غريبة . كان عوامله الشجـــاعة والثقة بالنفس وقوة التصور والنشاط الفياض والطموح الواسع . وكان قائداً عظـــيما وسيداً في فنون الحرب كما كان الاسكندر وجنكيز خان. ولكنه كان بالاضافة الى ذلك اثانياً لا يهمه الا نفسه، وهدفه الاعلى، في الحياة القوة دون المثل العليا .

قال مرة : «ان سيدتي هي القوة . لقد كلفني هزم هذه السيدة الكثير ، ولذا فلن اتنازل عنها لأحد ، لن اشرك فيها احداً معي» . ومع ان نابوليون وليد الثورة الا ان فكرة الامبراطورية سيطرت عليه وفتوحات الاسكندر شغلت افكاره . وصغرت في عينه اوروبا واستهواه الشرق وبوجه خاص الهند ومصر. وقدقال في بدايةعهده عندما كان في سن السابعة والعشرين: « لم تقم الامبراطوريات العظيمة والتغييرات الكبيرة الا في الشرق، ذلك الشرق الذي يقطنه ٦٠٠ مليون نسمة . ان اوروبا بالنسبة للشرق حجر صغير»

ولد نابوليون عام ١٧٦٩ في جزيرة كورسيكا التابعة لفرنسا . وكان دمه مزيجاً من الدم الكورسيكي الفرنسي والدم الايطالي. وقد تعلم في مدرسة حربية فرنسية، والتحق ايام الثورة بالنادي اليعقوبي ، وربما كان ذلك بدافع اناني لا اعتقاداً بمبادىء الحزب . وفي عام ١٧٩٤ احرز اول نصر في طولون. وكان اغنياء المدينة خائفين على ثروتهم من النظام الثوري فاستدرجوا الانجليز وسلموا اليهم البقية الباقية من الاسطول الفرنسي . وكانت هذه الكارثة — مع كوارث اخرى — ضربة قاسية للجمهورية الفتية . فطلب الى كل رجل وامرأة قادرين على الحرب ان ينضما الى صفوف المقاتلين . وقام نابوليون بهجوم ماهر على هؤلاء المتآمرين فسحقهم وهزم القوة الانجليزية الموجودة في طولون . ومن هنا تألق نجم نابوليون واصبح جنرالاً في الرابعة والعشرين. وتعرض بعد شهور قليلة للخطر عندما سيق روبسبيير الى المقصلة اذ شك الناس انه كان من اتباع حزب روبسبيير . ولكن نابوليون لم يدخل الا حزباً واحداً وهو حزب نابوليون نفسه ! . ولما جاءت المديرية اثبت نابوليون بُعده عن مبادىء اليعقوبية وتزعمه للثورة المعاكسة، اذ اطلق النار على العوام دون ان تهتز شعرة في جسده ، وكان ذلك عام ١٧٩٥ كما ذكرت لك سابقاً. وهكذا جرحت الجمهورية ، وبعد عشر سنوات قضى نابوليون عليها ونصب نفسه امبراطوراً على فرنسا .

وفي عام ١٧٩٦ اصبح نابوليون قائد الجيش الزاحف على ايطاليا . واذهلت حملته هذه بلدان اوروبا . وكان الجيش الفرنسي ما زال متمتعاً بشيء من روح

الثورة ، مع انه كان رث الزي ولا يجد لباساً او احذية او طعامـــاً او نقوداً.
ولكن نابوليون قاد هذا الجيش المهلهل عبر جبال الالب ووعده بالحصول على ما لذ وطاب من طعام ومتاع فور وصوله الى سهول ايطالية الغنية . ووعد اهـل ايطاليا كذلك بالحرية لأنه انما جاء منقذاً لهم من مستغليهم . فما اغرب هذا الخلط بين الهدف الثوري النبيل والتطلع الى الغنائم والاسلاب ! ولعب نابوليون بهذه الحيلة على عواطف الفرنسيين والايطاليين معاً ولما احرز النصر ارتفع قدره وطار صيته . وكان من عاداته اتخاذ مكان له في الجيش بين الجنود ،وكان يشاطرهم شعورهم ويشترك معهم في التعرض للخطر حتى قيل ان نابوليون كان يبرز حيث يكمن الخطر . وكان دائمـاً يتفقد اصحاب المقدرة والتفوق فيكافئهم على ارض المعركة ذاتها وكان بالنسبة لجنوده كالأب – الأب الصغير – ودعوه (العريف الصغير) ، وكانوا يخاطبونه دون ان يستعملوا الألقاب . وهل يستغرب اذن ان يصبح هذا الجنرال الذي يتجاوز العقد الثالث معبود الجنود الفرنسيين ؟

احرز نابوليون نصراً في شمال ايطاليا وقهر النمسا وقضى على جمهورية البندقية ووقع على صلح امبراطوري وعاد الى باريس عودة الابطال الفاتحين ، وبـــدأ نفوذه يسيطر على البلاد . ولكنه لم يجد الفرصة موانية للقبض على زمـام السلطة فقرر ان يقود الجيش الى مصر ليحقق حلمه الشرقي . وتمكن من الافـلات من الاسطول الانجليزي في البحر المتوسط وان يصل الى الاسكندرية .

كانت مصر جزءاً من الامبراطورية التركية العثمانية ، ولكن الامبراطورية كانت في دور الضعف والهزال ، واصبح المماليك الحـكام الحقيقيين المستترين وراء اسم سلطان تركيا . وكانت اوروبا تهتز بالثورات والاختراعات بينما كان المماليك يعيشون عيشة اهل العصور الوسطى . ويقال انه عندما تقدم نابوليون من القاهرة برز احد فرسان المماليك مرتدياً الحرير الدمشقي وحاملاً السلاح ،ووقف امام الجيش الفرنسي وطلب مبارزة قائده . ولكن الجنود الفرنسيين امطروه بوابل من الرصاص وأردوه صريعاً .

وانتصر نابوليون في معركة الاهرام. وكان معجباً بالوقفات الدراماتيكية ،فسار

على صهوة جواده امام الجنود ووقف امام الاهرام وقال : « ايها الجنود إن اربعين قرناً من الزمان تلقي نظرها عليكم » .

كان نابوليون سيد الحرب في الارض فسار فيها من نصر الى نصر . ولكنه، كان عاجزاً في البحر ، فلم يكن يفقه شؤون البحر ولم يكن لديه ، على ما يظهر، امراء بحر بارزون . امـــا انجلترا فقد كان لها قائد عبقري لاسطولها في البحر المتوسط واسمه هوراشيو نلسون . وقدم نلسون ذات يوم الى المينـــاء وحطم الاسطول الفرنسي فيما يعرف بمعركة النيل . وحيل بذلك بين نابوليون وبين بلده. لكنه تمكن من الفرار والوصول الى فرنسا . وقد ضحى بذلك العمل بجيشه الشرقي.

وبالرغم من هذه الانتصارات والامجاد العسكرية فان الحملة الشرقية باءت بالفشل. ومن الطريف ان نذكر هنا ان نابوليون صحب معه الى مصر جماعة كبيرة من العلماء والمدرسين المزودين بعـــدد من الكتب والاجهزة وقـــد دارت المباحثات العلمية في هذا (المعهد) الذي انضم اليه نابوليون ، وقام العلماء فيه ببحث علمي ممتاز . وقد توصلوا الى حل لغز الكتابة التصويرية المصرية . واهتم نابوليون ايضاً باقتراح يرمي الى شق قناة من السويس الى البحر الابيض .

اجرى نابليون وهو في مصر مباحثات مع شاه فارس والسلطان «تبو» في جنوب الهند ، ولكنها لم تؤد الى نتيجة بسبب عجز نابوليون في البحر وهذا العجز هو الذي قضى على نابوليون في النهاية ، ورفـع شأن انجلترا في القرن التاسع عشر .

عاد نابليون من مصر فوجد المديرية في فرنسا في حالة يرثى لها ، ووجد الشعب الفرنسي يتطلع اليه كمنقذ للبلاد . ولما كان راغباً في السلطة ، عمل بمساعدة اخيه لوسيل على طرد المجلس بالقوة وتعطيل الدستور الذي استمدت منه المديرية سلطتها.

ومكّن نابوليون من فعل ذلك شعبيته الكبيرة وايمان الشعب به . وكانت الثورات قد تلاشت ومعالم الديمقراطية تختفي امام الجنرال الشعبي وتم وضع دستور جديد قام بموجبه ثلاثة قناصل يتمتع رئيسهم بسلطة واسعة . وعين نابوليون قنصلاً اول لمدة عشر سنوات . وقد اقترح البعض اثناء وضع الدستور ان يختار

رئيس الجمهورية دون سلطة فعليـــة لتمثيل الجمهورية وتوقيع المراسيم كما يفعل الملوك . ولكن نابليون لم يعجب بهذه الفكرة لأنه كان يريد السلطة الفعليـــة لنفسه ولا يقنع بالمظهر فرفض المشروع قائلاً :

« اطرحوا هذا الخنزير السمين جانباً »

وطرح للتصويت الشعبي كل من الدستور وتنصيب نابوليون قنصلاً اول لمدة عشر سنوات ، فصودق عليه بالاجماع وبما لا يقل عن ٣ ملايين صوت . وهكذا قدم الشعب جميع السلطة الى نابوليون آملاً ان ذلك سيوفر له الحرية والسعادة .

ولا نستطيع هنا ان نستقصي حياة نابوليون الحافلة بالنشاط والسعي المتواصل للسلطة والمزيد من السلطة . وفي الليلة الاولى التي تلت الانقلاب ، وقبل وضع الدستور والتصديق عليه ، الف نابوليون لجنتين لصياغة مجموعة قانون . وكان هذا هو العمل الاول الذي يتخذه كدكتاتور . وبعد محاولات اشترك في نهايتهـــا نابوليون وضعت هذه المجموعة موضع القبول عام ١٨٠٤ وسميت مجموعة قوانين نابوليون . وربما لم تكن المجموعة تقدمية بالنسبة للثورة ومقاييسنا الحاضرة ، الا انها كانت تقدماً ملحوظاً بالنسبة للحالة السابقة لها ، وظلت مدة مئة عام تقريباً نبراساً لجميع اوروبا وادخل نابوليون تعديلات على الادارة تكسبها الفعالية والتنظيم . وكان من عادته التدخل في تفاصيل الامور ، وكانت قوة الذاكرة لديه خارقة وقد انهك بحيويته الخارقة جميع معاونيه وكتابه . ي كتب احدهم عنه : « انه يقضي ١٨ ساعة في اليوم في وضع الاحكام وتصريف شؤون الادارة والتفاوض ، بما عرف عنه من ذكاء ولذا فانه حكم في فترة ثلاث سنوات بقدر ما حكم الملوك قرناً »

وربما كان في هذا القول مبالغة ، الا ان الثابت ان نابوليون تمتع بذاكرة قوية وعقل منسق وقد قال عن نفسه « عندما اريد ان اصرف ذهني عن مسألة أقفل الدرج عليها وافتح درج مسألة اخرى ان محتويات الادراج لا تختلط ببعضها البعض ولا هي تزعجني او تتعبني . واذا اردت النوم اقفلت الادراج جميعاً ورحت في نوم عميق . » وقد عرف عنه فعلاً النوم على ارض المعركة مدة

نصف ساعة ثم الاستيقاظ لمباشرة العمل الطويل الشاق .

قلنا ان نابوليون نصب قنصلاً اول ، إلا انه بعد ثلاث سنوات من ذلك نصب نفسه قنصلاً اول مدى الحياة وزاد سلطاته. والحقيقة انه كان بالفعل ملكاً، اذ لم يبق للجمهورية معنى . وفي عام ١٨٠٤ اعلن نفسه امبراطوراً بعد ان استفتى الشعب في ذلك . وبالرغم من هذه السلطة التي حصل عليها في فرنسا فإنه وقع في خلاف مع ملوك اوروبا العريقين . ولم يكن يستطيع ان يدعي التقاليد الملكية وحق الملوك المقدس فلجأ الى الاعتماد على قوته ومحبة الشعب له وخصوصاً الفلاحين الذين كانوا اوفى انصاره اعتقاداً منهم انه انقذ لهم اراضيهم من المغتصبين . وقد قال مرة : « ماذا علي بما يدور في القصور من آراء وثرثرة ؟ انني لا اعترف بغير امراء الفلاحين . » ولكن النقمة تطرقت الى نفوس الفلاحين انفسهم بعد ان رأوا ابناءهم يضيعون طعماً للحرب المتواصلة وكان هذا سبباً في تضعضع اركان الحصن المنيع الذي شاده نابوليون لنفسه .

وظل نابوليون امبراطوراً مدة عشر سنوات قضاها منقضاً على اطراف اوروبا ومحرزاً لانتصارات عديدة . وهز القارة الاوروبية وأثر عليها كما لم يفعله انسان قبله او بعده فيها . ومن انتصاراته المشهورة :مارينو (ام ١٨٠٠ عندما اجتاز ممر سنت برنارد العظيم المغطى بالثلوج الى سويسرا) وأولم واوسترلتز وجينا وييلو وفريدلاند ووجرام . ودانت له اسبانيا وايطاليا والاراضي المنخفضة وبولندا (المعروفة بدوقية وارسو) وجزء كبير من المانيا المعروف بالراين ، بعد ان هزمت امامه النمسا وبروسيا وروسيا . ووضع نهاية للامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت قائمة بالاسم .

ومن الدول التي نجت منه انجلترا التي يفصلها عن فرنسا البحر ، ولم يتمكن نابوليون من السيطرة على البحر ، فصارت انجلترا بفضل البحر من ألد أعداء نابوليون واشدهم مراساً . وقد اخبرتك ان نلسون حطم اسطول نابوليون في معركة النيل ولكنه احرز نصراً كبيراً على الاسطول الفرنسي الاسباني المشترك في معركة الطرف الاغر على الساحل الجنوبي لاسبانيا . وكان ذلك عام ١٨٠٥ وقد قال

نلسون جملته المأثورة : « ان انجلترا تنتظر من كل رجل ان يؤدي واجبه» قبل هذه المعركة . ومات نلسون في ساعة النصر ، فخلدت ذكراه واقامت له تمثالاً وبنت ميداناً في لندن سمته ميدان الطرف الأغر . وكانت هزيمة الأسطول الفرنسي تحطيماً لأحلام نابوليون بغزو انجلترا .

وانتقم نابوليون بأن اقفل جميع الموانىء الأوروبية في وجه السفن الانجليزية ومنع الاتصال بها مطلقاً ، محاولاً اخضاع البلاد التي سماها : « بلاد اصحاب الحوانيت» . وقامت انجلترا ايضاً بفرض حصار على الموانىء لمنع فرنسا من الاتجار مع امريكا والقارات الأخرى وقامت كذلك بتزويد اعداء نابوليون والمحايدين في القارة الأوروبية بالذهب . وساعدها في هذا العمل بعض المؤسسات المالية في القارة وعلى رأسها اسرة روتشيلد اليهودية .

ولجأت انجلترا الى جانب كل ذلك الى حرب الدعاية . وكانت هذه الوسيلة مستحدثة آنذاك وإن اصبحت عادية جداً اليوم . وقامت بحملة صحفية هاجمت فيها فرنسا عموماً ونابوليون خصوصاً ، بمقالات ونشرات وانباء كاذبة وصور كاريكاتورية تمثل الدكتاتور الجديد تمثيلاً هزلياً . وعملت انجلترا على ادخال هذه الدعاية الى فرنسا .

لقد اصبحت حملات الصحف الكاذبة امراً عادياً اليوم وجزءاً لا يتجزأ من الحروب الحديثة . وقد قامت الدول المشتركة في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بنشر الأكاذيب المفضوحة دون وادع من خجل او حياء . غير ان انجلترا بزت الجميع في حرب الأكاذيب ؛ ولا غرو فانها قضت قرناً كاملاً وهي المجلية في هذا المضمار . ونحن في الهند نعرف جيداً كيف تقوم انجلترا باخفاء الحقائق عنا ونشر الأكاذيب المغرضة على اوسع نطاق .

نابوليون

٦ نوفمبر ١٩٣٢

●

اواصل سرد قصة نابوليون

حينما كان نابوليون يسير كان يحمل معه مظاهر الثورة الفرنسية ، ولم يكن اهل البلاد المفتوحة شديدي العداء له لأنهم كانوا يتململون تحت عبء حكامهم الاقطاعيين . وساعد هذا الشعور نابوليون في زحفه وجعل الاقطاعية تنهار امامه. ومحا الاقطاعية من الدنيا ، وقضى على محاكم التفتيش في اسبانيا . ولكن نابوليون تمسك بالقومية ، وسنرى ان ذلك لم يكن في صالحه بل عاملاً على هزيمته ، لأن نابوليون يستطيع التغلب على الملوك والأباطرة ولا يستطيع ان يتغلب على الشعوب التي تقوم عن بكرة ابيها في وجهه ، كما حدث فعلاً عندما هب الشعب الاسباني وحاربه عدة سنوات وانهك الكثير من نشاطه وقوته . وهب كذلك الشعب الالماني بقيادة احد ابنائه المخلصين واسمه بارون فون ستاين الذي عادى نابوليون وقاد ضده حرب التحرر. وهكذا اتحدت القومية التي اثارها نابوليون مع ضعف اساطيله البحرية للقضاء عليه . وعلى كل لم يكن من الممكن لأوروبا بأسرها ان تخضع لدكتاتور واحد . وقد اصاب نابوليون عندما قال بعد ذلك : « لا يلام احد لسقوطي سواي . لقد كنت العدو الاول لنفسي والسبب في الكارثة التي جلبتها عليها . »

مُني هذا القائد العبقري بأعجب الهزائم . فقد لزمته مسحة من غرور محدثي

النعمة فخلقت في نفسه الرغبة الجامحة في ان يعامل معاملة الملوك العريقين في الملك. ورفع اخوته واخواته الى المراكز العالية مع انهم كانوا لا يصلحون لها . وكان اصلح اخوته لوسيل الذي ساعده في احرج ساعات الانقلاب عام ۱۷۹۹، ولكنه اختلف معه فانسحب الى ايطاليا . وقد جعل اخوته الآخرين مع ما هم عليه من غباء وجنون ، ملوكاً وحكاما فقد كانت تستبد به فكرة رفع مركز عائلته، ولكنها تخلت عنه عندما حاقت بها الاخطار . وحاول ان يقيم له وريثا من صلبه وكان قد تزوج في مطلع حياته ، وحتى قبل قيامه بالحملة الايطالية ، من فتاة جميلة لعوب اسمها جوزفين دي بوهارنيه .

ولما لم تنجب جوزفين اطفالاً قرر ان يطلقها رغم حبه لها وان يتزوج من فتاة اخرى فاختار دوقة روسية عظيمة . ولكن القيصر رفض الموافقة على هذا الزواج لأنه اعتبر نابوليون دون المركز اللائق بالعائلة الروسية الامبراطورية وان كان سيدا على اوروبا . ولذلك ضغط نابوليون على امبراطور النمسا المنتمي الى اسرة هابسبورج فزوجه من ابنته ماري لويز التي انجبت له طفلاً . ولكن ماري كانت خاملة قليلة الذكاء ولا تكن له اي حب . ولم تكن زوجة صالحة ، اذ عندما تعرض نابوليون للخطر هجرته ونسيت انه زوجها .

غريب اذن ان نرى هذا الرجل الذي بزّ جميع رجال عصره يقع ضحية العظمة الفارغة التي وقع فيها الملوك القدماء، مع انه كان شديد الاشادة بالثورة والسخرية من هؤلاء الملوك . ولما تخلى عن المبادىء الجديدة وانضم الى المبادىء القديمة لم تقبله الاخيرة فوقع صريعاً بين النظامين .

وأصبح المجد العسكري يسير ببطء نحو الهاوية ، وبدأ رجال نابوليون يتآمرون عليه . تآمر عليه تاليران بالاشتراك مع قيصر روسيا ، وتآمر فوشي مع انجلترا . والغريب ان نابوليون اكتشف هذه المؤامرات واكتفى بتأنيب اصحابها وانقلب احد افراده عليه وصار عدوه اللدود. وساء تصرف افراد عائلته وكثرت مؤامراتهم باستثناء أمه واخيه لوسيل. وزاد السخط في البلاد، فاشتدت قسوة نابوليون الدكتاتورية وارسل الكثيرين الى السجن دون محاكمة . واستمر نجم نابوليون

بالأفول فتخلى عنه الكثيرون كما تتخلى الفيران عن السفينة المشرفة على الغرق .
وبالرغم من صغر سن نابوليون ، الا انه ضعف جسمياً وعقلياً . واصبحت تنتابه نوبات من المغص الشديد وهو في ارض المعركة . لقد افسدته السلطة وأصبح بطيء الحركة كثير التردد ، وقل نشاط جيشه ، مع انه لم يفقد مهارته الاصلية ذاتها .

وفي عام ١٨١٢ زحف نابوليون « بالجيش العظيم » على روسيا ، كان يوالي انتصاراته على الروس ويواصل زحفه اثر جيشهم المتقهقر حتى وصل الى موسكو . وكان القيصر ميالاً للتسليم لولا أن أقنعه بعدم ذلك شخصان احدهما فرنسي وهو برنادوت عدو نابوليون القديم وبارون فون ستاين . واحرق الروس مدينتهم المحبوبة في وجهه . ولما وصل خبر حرق موسكو الى بطرسبورغ رفع ستاين كأسه وقال : لقد فقدت امتعتي ثلاث او اربع مرات وعلينا ان نتعود على رمي هذه الاشياء . واذا لم يكن من الموت بد فلنمت شجعاناً » .

وحل الشتاء فقرر نابوليون ترك موسكو المحترقة والتقهقر ، فعاد « الجيش العظيم » متثاقلاً يجر اذيال الخيبة ويجر الجنود اجسادهم المنهوكة . وكان القوقازيون يهاجمونهم من كل جانب ويقتفون اثرهم . وتسبب الشتاء والقوقازيون بوقوع الوف القتلى من الجيش المنهوك الذي حلقت فوقه اشباح الموت . وسار الجنود على الاقدام ونابوليون على رأسهم بشكل يملأ القلب حزناً ورعباً ، وظلوا يتساقطون حتى لم يصل منهم الى فرنسا الا عدد قليل .

كانت الهزيمة منكرة ، اذ قضت على قوة فرنسا وحطمت معنوية نابوليون وحيويته . غير ان اعداءه لم يتركوه في همه بل ضيقوا الخناق عليه . وازدادت مؤامرات تاليران وانقلب القواد الاوفياء عليه ، مما اضطر نابوليون الذي اضناه التعب ان يتنازل عن العرش عام ١٨١٤ .

اقامت الدول الاوروبية مؤتمراً كبيراً في فيينا لرسم خريطة جديدة لأوروبا اما نابوليون فانه نفي الى جزيرة (ألبا) الواقعة في البحر الابيض المتوسط. واعيد اخ لويس السادس عشر (الذي حزت المقصلة رأسه) ونصب ملكاً باسم لويس

السابع عشر . وهكذا عادت اسرة بوربون وعاد معها الكثير من الطغيان . وانتهت ايضاً فترة الخمسة وعشرين عاماً التي تلت سقوط الباستيل . وكان الملوك والوزراء المجتمعون في فينا يتخاصمون ثم يعودون للترفيه عن انفسهم ويتنفسون الصعداء من زوال شبح نابوليون . وقد لمع في المؤتمر نجم تاليران الفرنسي الخائن ونجم مترنيخ وزير خارجية النمسا .

ولكن بعد مرور عام على ذلك عيل صبر نابوليون بالحياة في المنفى وعيل صبر فرنسا بأسرة بوربون العائدة للعرش ، وتمكن نابليون من الهرب في قارب صغير في ٢٦ فبراير ١٨١٥ ،ونزل بمفرده في (كان) في الريفييرا ، فهب الفلاحون مرحبين به . وعندما سُيرت الجيوش لمنازلته ، انقلبت الى صفه واخذت تنادي (عاش الامبراطور) . وسار نابليون ظافراً مرة اخرى الى باريس ، وهرب الملك منها . ودب الذعر من جديد في العواصم الاوروبية ، وفوجىء مؤتمر فينا بالنبأ فتوقف الملوك والوزراء عن حفلاتهم ولهوهم وبدأوا يدبرون الخطط من جديد لسحق نابليون .

وزحفت اوروبا لقتال نابليون بينما كانت فرنسا منهكة ، ونابوليون الذي لم يتجاوز السادسة والاربعين منهكاً . وانتصر نابليون في معارك قليلة ، الا انه هزم في واترلو القريبة من بروكسل امام الجيش الانجليزي بقيادة ولنجتون والجيش البروسي بقيادة بلوخر . وكان ذلك بعد حوالى مئة يوم من عودته من المنفى ، فعرفت هذه الفترة (بالمئة يوم) وكان النصر في معركة واترلو معلقاً بين الطرفين وكاد نابليون ينتصر فيها . ولكن نصره كان سيجر اليه معارك اخرى ضد جيوش اوروبا وقد حاول كثير من اتباعه درء الخطر عن انفسهم فانضموا الى اعدائه . فتنازل ثانية عن العرش وسار الى سفينة انجليزية راسية في ميناء فرنسي وسلم نفسه الى قبطانها قائلاً انه يريد ان يقضي بقية عمره في هدوء في انجلترا .

ولكن ظن نابليون في انه سيلاقي معاملة حسنة خاب ، لأن انجلترا واوروبا لم تنسيا فراره من جزيرة (ألبا) والرعب الذي القاه فيهم فقرروا ارساله الى مكان

قصي يظل فيه تحت حراسة مشددة فحكموا عليه بالسجن ، رغم احتجاجه ، ونقلوه مع بعض الرفاق الى جزيرة سنت هيلانة في جنوب المحيط الأطلسي . واعتبر سجيناً لدول اوروبا ، فأرسلت الدول حكاماً لمراقبته ، مع ان القسم الاوفر من حراسته كان منوطاً بانجلترا . وقد اوصل جيش لا يستهان به لحراسته مع ان سنت هيلانة لم تكن بالفعل الا صخرة كبيرة بعيدة عن العالم . وقد وصفها الحاكم الرومي المبعوث اليها : « انها احزن بقاع العالم واكثرها انعزالاً واصعبها وصولاً واسهلها دفاعاً واعذرها احتلالاً واقلها اهمية من الناحية الاجتماعية » . وكان حاكم الجزيرة الانجليزي قاسياً وفظاً فعامل نابوليون بغلظة شديدة ، ووضعه في اقل اجزاء الجزيرة صلاحية للمعيشة وفي بيت حقير ، وفرض عليه وعلى اصحابه قيوداً شديدة . ولم يكن طعامه كافياً . وقد منع من الاتصال باوروبا والكتابة الى ولده الذي جعله وهو في عنفوان سلطته ملكا على روما . ولم يسمح له بتسلم انباء ولده .

ان معاملة نابوليون في سجنه تدعو الى الاستغراب ولكن حاكم سنت هيلانة لم يكن الا خادما منفذاً لأوامر حكومته الانجليزية التي تعمدت الإساءة الى سجينها وجرح كبريائه . وقد سكتت الدول الاوروبية عن هذه المعاملة . اما والدة نابليون التي بلغت من العمر عتياً فانها ارادت ان تلحق بابنها في سنت هيلانة ، ولكن الدول الكبرى رفضت ذلك . وهذه المعاملة السيئة التي قامت بها الدول الكبرى مجرد انعكاس للرعب الذي القاه نابليون في روعها ، فلم تكتف بقص جناحيه والقائه في غياهب سنت هيلانة ، بل راحت تسرف في تعذيبه .

وعاش نابليون في منفاه خمس سنوات ونصف . ولا نحتاج الى الكثير من الخيال حتى نتصور مقدار السخط والملل الذي طغى عليه ، وهو الشعلة المتقدة نشاطاً وحيوية وطموحاً ، عندما يسجن في مكان كهذا ويتعرض يومياً للاهانات الحقيرة . وتوفي في (مايو) عام ١٨٢١ فدفن في قبر حقير . ولما وصلت انباء سوء معاملة نابليون الى اوروبا اشتد استنكار الشعوب وخصوصاً الشعب

الانجليزي . ورمى وزير خارجية انجلترا واسمه كاسلريه بالنقد اللاذع على دوره في هذه المعاملة السيئة . وكان الوزير محل النقد لسياسته الأخرى في البـــلاد فآثر الانتحار وقضى على حياته .

من الصعب ان ننطق بالحكم على الرجال العظام البارزين . وليس هنـــاك مجال للشك ان نابوليون تمتع بنوع من العظمة والتفوق . وقد كان مندفعاً كما تندفع قوى الطبيعة ، وكان مفعما بالنظريات والخيال وخالي الذهن من المثـــل العليا والاهداف اللاأنانية لقد حاول احراز النصر والتأثير على الناس باكتساب المجد والثروة فلما نفدما في جعبته من مجد وسلطان لم يجد مثـلًا عليا تلزم الذين أحسن اليهم ان يتمسكوا به ولا يهجروه .

وكان الدين بالنسبة اليه وسيلة لحمل الفقراء والبؤساء على القناعة بحظهم التعيس قال يوماً عن المسيحية : « كيف اقبل ديناً يلعن سقراط وافلاطون ؟ » واظهر تحمساً للدين الاسلامي وهو في مصر ، ولا شك انه فعل ذلك سعياً وراء كسب مودة الناس في تلك البلاد . ومع انه كان بعيداً بقلبه عن الدين ، الا انه شجـع انتشاره لأنه كان الدعامة التي يرتكز عليها النظـام الاجتماعي القائم . وقـد قال يوماً : « ان الدين يجمع مع السماء فكرة المساواة التي تمنع الفقير من ذبح الغني . وللدين مفعول شبيه بمفعول التطعيم ضد المرض ، انه يحبب الينا المعجزات ويقينا من الدجالين ، ولا يكتب للمجتمع البقاء بدون تفاضل في الأملاك . ولكن هذا لا يقوم بدون قيام الدين . فالرجل المتضور جوعاً – بينما جاره يتمتع بمـــا لذ وطاب من الطعام – لا يسكن من ثورته غير الاعتقاد بقوة عليا وعالم آخر يكون توزيع الثروة فيه مختلفاً . » وقد قال في عنفوان مجده : « عندما تتداعى السماوات علينا ان نمنعها بحرابنا من ان تتساقط . »

تمتع نابوليون بجاذبية العظماء المغناطيسية وحاز إخلاص الكثيرين . وكان ثاقب النظر . وقد قال مرة : « لقد كسبت معاركي ببعد نظري لا بسلاحي ونادراً ما سللت سيفي من غمده » وهذا قول غريب من رجل غمس اوروبا في خضم الحروب . وقال وهو في المنفى ان القوة لا تجدي وان الروح اقوى من السيف .

وقال : « اتعرفون اكثر الاشياء اثارة لدهشتي ؟ ذلك هـو عجز القوة عن تنظيم اي شيء . فليس في العالم سوى قوتين : الروح والسيف . ولا بد ان تنتصر الروح في النهاية . » ولكن نابوليون استعجل النهاية فاختار ان يبدأ حياتـه بالسيف . وبالسيف غنم وبالسيف ُهزم . ومما قاله : « ان الحرب سجل فوضوي فكثيراً ما ينتصر المرء بدون مدفع او حراب . »

لقد كان لتألب الحوادث الغلبة على نابوليون ، فقـد كان طموحه لا يعرف حـداً ، وكان ظفره في الحرب يسيراً ، وكان خوف ملوك اوروبا وبغضهم من (محدث النعمة) كبيراً ، فلم ُيترك له فرصة للراحـة . كان يضحي في معاركه بألوف الارواح ، مع انه كان يحزن اذا رأى احداً معذباً

وكان في حياته العادية معتدلاً لا يسرف الا في العمل وقد قال : « مهما أكل الإنسان ، فانه دائماً يأكل أكثر مما ينبغي له وربما مرض المرء من امتلاء جوفه ، ولكنه لا يمرض ابداً من قلة الأكل . » وكانت هـذه الحياة البسيطة مصدر حيويته الهائلة وصحته الحديدية . كان ينام عندمـا يروق له ولا ينام طويلاً . وكان السفر صباح مساء مسافة ١٠٠ ميل لا يكلفه كبير مشقة .

وقد حمله طموحه في اوروبا ان يفكر بها كدولة واحدة ذات حكومة واحدة « سأمزج الشعوب في امة واحـدة » وعندما نفي الى سنت هيلانة تذكر هذا فقال : « لا بد ان تتحد شعوب اوروبا بفعل الحوادث ، وقـد اتخذت الخطوة الأولى ، ولا يمكن بعد سقوطي حفظ التوازن بين دول اوروبا الا عن طريق عصبة للأمم . » وما زالت اوروبا بعد مئة عام من هـذا القول مقسمة وتجرب حظها مع عصبة الامم .

وقد كتب وثيقة اخيرة ضمنها رسالة الى ولده الذي كان قد لقبه ملكا لروما والذي انقطعت اخباره عنه . ولما كان يأمل ان يصبح ولده ملكاً في يوم من الايام فإنه اوصاه ان يتبع سبيل السلم دون سبيل الحرب « لقـد حاولت اخضاع اوروبا بالسلاح ، ولكن السبيل اليوم هو الاقناع بالعقل » غير ان ابنه لم يكتب له ان يتبوأ عرشاً وتوفي في فينا شابـاً بعد وفاة والده بأحد

عشر عاما

ولكن هذه الافكار لم تتجلَّ لنابوليون إلا وهو معذب في منفـاه ، ولربما كتبها للاجيال القادمة املاً منه ان تطيب هذه ذكراه ، لأن المعروف انه كان في ايام عظمته رجل عمل لا رجل فلسفة ولم يقدم قربانه إلا على مذبح السلطة ولم يشغل قلبه إلا حب السلطة ، وان كان يحبها كما يفعل الفنانون في حبهم الاشياء . وقد قال : « انني احب السلطة ولكني احبها كفنان . احبها كما يحب الموسيقار قيثارته فيعزف عليها الحانه المنسجمة . » ولكن السعي وراء السلطة الزائدة لا بد وان يحمل الساعي الى حتفه ان عاجلاً او آجلاً ولعل في سقوط نابوليون عبرة لمن اعتبر .

وعاد ملوك اسرة بوربون مرة اخرى الى فرنسا ، ولكنهم لم يتعلموا جديداً اوينسوا قديماً . فتململت فرنسا ثانية وطردتهم بعد وفاة نابوليون بتسع سنوات ، واقامت ملكية جديدة . وقد اعيد تمثال نابوليون الى عمود فندوم بعد ان ازيح منه . ولما سمعت بذلك ام نابوليون التي هدتها السنون واثقلتها الهموم قالت : « لقد عاد الامبراطور الى باريس » !

كيف حكمت بريطانيـــا الهند

٥ ديسمبر ١٩٣٢

●

كتبت لك ثلاث رسائل عن الهند في القرن التاسع عشر انها قصة طويلة حزينة ، ولو انني اختصرتها لزدتها تعقيداً وجعلتها صعبة الفهم . وربما كنت اهتم بهذه الفترة من تاريخ الهند اكثر من اهتمامي بالفترات المماثلة لها في العالم ، ولكن هذا طبيعي فأنا هندي مهتم بالهند واعرف عنها اكثر من غيرها وبالاضافة الى ذلك فتاريخ هذه الفترة ليس مجرد تاريخ قديم بالنسبة لنا بل هو الاساس الذي بنيت عليه الهند الحديثة كما نعرفها اليوم . فاذا اردنا معرفة الهند اليوم فعلينا ان نعرف العوامل التي عملت في إعمارها أو دمارها . وهذه هي الطريقة السليمة التي تمكننا من خدمة الهند ومعرفة السبيل الذي نسير عليه لخدمتها .

وقد بقي عليّ الكثير مما سأقصه عليك من تاريخ الهند . انني اختار لك في كل رسالة وجهة معينة او اكثر واحدثك عنها على انفراد حتى ايسر فهمهـــا لك ، ولكنك تدركين طبعاً ان جميع هذه الاعمال والتطورات التي ذكرتها وتلك التي سآتي على وصفها في هذه الرسالة وما بعدها ، كانت الى حد كبير تجري جنباً الى جنب وتتضافر معاً لخلق هذا القرن التاسع عشر

وعندما تطالعين اعمال الانجليز ومساوئهم فكثيراً ما تتملكك النقمة على هذه السياسة التي ساروا عليها والشقاء الذي نجم عنها ولكن من هو السبب فيما حدث ؟ أليس السبب في شقائنا هو ضعفنا وجهلنا ؟ واذا كان الانجليز يستفيدون

من تنازعنا فيا بيننا ، ألا نكون مذنبين لسماحنا بوجود هذا التنازع ؟ واذا كان الانجليز يتمكنون من تفريقنا واضعافنا بهذه الفرقـــة مستغلين جشع طوائف متفرقة ، فإن سماحنا بهذا العمل هو في حد ذاته دليل على تفوق الانجليز علينا فإذا كان لا بد لك من السخط فليكن هذا السخط منصباً على الوهن والجهـــل والمنازعات الداخلية لأن عليها تبعة شقائنا .

نحن نهاجم طغيان الانجليز ، ولكن طغيان من نعني ؟ من هو الذي يجني ثمرة هذا الطغيان ؟ ليس الشعب الانجليزي هو المستفيد من شقائنا ، لأن الملايين منهم هم انفسهم تعساء مذلولون . ولا شك ان ثمـة فئة قليلة من الهنود استفادوا من استغلال البريطانيين للهند فأين نضع الحد الفاصل اذن ؟ ليس الأمر يهم الأفراد فحسب بل يرجع الى النظام القائم ذاته . فإننا نعيش تحت سيطرة آلة ضخمة جشعة تعصر وتسحق الملايين من الهنود . هذه الآلة الهائلة هي « الاستعمار الجديد الذي ولده رأس المال الصناعي » .

ان أرباح هـــذا الاستعمار تذهب في الدرجة الاولى لانجلترا ، ولكن في انجلترا نفسها يذهب الربح الى طبقات خاصة لا الى الشعب عامة . ويبقى القليل من الربح في الهند ، ولكن لا يستفيد من هذا القليل في الهند الا القليل ، ومن طبقة خاصة . واذن فمن الحماقة ان نغضب على شعب بأمره . واذا كان نظام ما يلحق بنا الأذى فالواجب إزالة هذا النظام ، ولا يهمنا عند ذلك معرفة من هم الاشخاص او الأفراد الذين يقومون على خدمته . وربما كان من خدامه رجال طيبو القلب ولكنهم لا يستطيعون قلبه وتغييره . فطيبة القلب مهما حسنت لا يمكنها ان تحوّل الحجارة الى طعام ولو وضعتها مدة طويلة فوق النار . هذا هو رأيي ؛ ولكن هناك من يخالفني فيه . وعليك الا تقبلي الآراء جزافاً بل تختاري ما يروق لك بعد دراسة وفهم . ولكن الغالبية مقتنعة ان العيب متأصل في النظام الاستعماري ذاته ، ، ولا فائدة من السخط على الأفراد انفسهم . واذا شئنا تغييراً فلنغير النظام ذاته . وقد اتضح لنا عيب هذا النظام الاستعماري الرأسمالي في الهند، واذا التفتنا الى الصين ومصر وجدنا آلته الضخمة تعصر وتسحق اهلها ايضاً

ونعود الى قصتنا ذكرت لك المرحلة التي تقدمت اليها الصناعة في الاكواخ الهندية عندما وصل اليها البريطانيون . ولو بقيت الهند وحدها ولم يصل اليها البريطانيون لكان من الممكن ان تقوم فيها صناعة آلية بفضل التطور الطبيعي ، لأن فيها الحديد والفحم وهما كما نعلم العامل الأساسي للوثبة الصناعية في انجلترا ، والى حد كبير العامل على نشوئها اصلاً . وقد كان من الممكن ان يحصل ذلك في الهند ايضاً في يوم من الايام ، وان كان يجي متأخراً بسبب النظام السياسي القائم . ولكن البريطانيين تدخلوا في شؤون البلاد وكانوا يمثلون بلداً كان قد ادخل فعلاً الانتاج الآلي الضخم . ويتبادر الى الذهن المحايد ان البريطانيين لهذا السبب يشجعون مثل هذا التطور في الهند والطبقة التي كان يمكن ان تقوم بذلك . ولكن الحقيقة هي انهم فعلوا العكس تماماً ، لأنهم نظروا الى الهند كمنافس لهم فحطموا صناعتها وثبطوا عزمها عن قيام الصناعة الآلية .

وهكذا نرى عجباً عندما نراجع حالة الهند . نرى البريطانيين – وهم آنذاك اكثر البلاد الأوروبية تقدماً – يصبحون في الهند اكثر الطبقات رجعية وتأخراً ويحاولون انعاش الطبقة الاقطاعية المشرفة على الهلاك ، فيخلقون اصحاب الأملاك ويناصرون مئات الحكام المستقلين في نظامهم الاقطاعي ، ويؤازرون الاقطاعية في الهند . جرى كل هذا بالرغم من كون الانجليز في طليعة شعوب اوربا التي ثارت فيها الطبقة الوسطى البورجوازية وسلمت السلطة للبرلمان ، ومع انهم كانوا في طليعة الشعوب التي قامت بالثورة الصناعية التي ادخلت النظام الرأسمالي الى العالم . وكان سبقهم في هذه الميادين هو السبب الذي جعلهم يسبقون غيرهم في الاستعمار .

وليس من الصعب ان نفهم السبب الذي حمل الانكليز على هذا العمل ، لأن الأساس الكامل الذي تقوم عليه الرأسمالية هو التنافس الوحشي والاستغلال ، وما الاستعمار الا مرحلة من مراحله . وهكذا اسعفت انجلترا القوة فقضت على منافساتها فعلاً ووقفت بالمرصاد امام تقدم اي منافس آخر . ولم يسع انجلترا ان تصادق جماهير الشعب لان السبب الوحيد لمجيئها وبقائها في الهند هو استغلال

هذا الشعب . ولا يمكن ابداً ان تتحد مصالح المستغِل والمستغَل . وهكذا لجأت انجلترا الى بقايا الاقطاع في الهند . ومع ان الاقطاعيين لم يبق لهم كثير من القوة ، الا ان بريطانيا زادت ثرواتهم واعطتهم قسطاً يسيراً من ثمرة استغلال الشعب . وقد انعش ذلك العمل هذه الطبقة مؤقتاً وجعلها امام امرين اما ان تقبل الشروط واما ان تسقط في الهاوية . وقد كانت في الهند حوالى ٧٠٠ ولاية هندية يعتمد كبرها وصغرها على عطف الانجليز . وانك تذكرين بعضاً من هذه الولايات الكبيرة مثل حيدر اباد وكشمير وميسور وبارودا وجواليور وغيرها ولكن الغريب ان معظم حكام هذه الولايات الهنود لم يكونوا من نسل النبلاء الاقطاعيين القدماء . ولكن هناك زعيماً واحداً ينتمي الى شعب الشمس الذي يعود بنسبه الى عصر ما قبل التاريخ ولعل منافسه الوحيد في ذلك النسب ميكادو اليابان

وقد ساعد الحكم البريطاني على اثارة الرجعية الدينية . ومن الغريب ان بريطانيا التي ادعت المسيحية جعلت كلا من الهندوكية والاسلام في الهند اكثر تطرفاً وشدة . ومن السهل الى حد بعيد فهم ذلك اذا علمنا ان الغزو الخارجي يحاول دائماً وضع الدين والثقافة للبلد المغزو موضع المدافع عن نفسه باللجوء الى الرجعية فلم يكن هدف بريطانيا الحقيقي تقوية الدين او التبشير له ؛ وانما كانت تسعى وراء الكسب المادي . وكانت حذرة في عدم تدخلها في شؤون الدين بشكل مفضوح لئلا يتحسس الناس ويثوروا عليها . وهكذا تحاشت انجلترا حتى مجرد اثارة الشك بأنها تتدخل في شؤون الدين فذهبت في تشجيعه ، او بالاحرى تشجيع المظاهر الخارجية للدين وكثيراً ما نتج عن ذلك بناء ظاهر الدين واختفاء الجوهر .

ودفع خوف بريطانيا من الشعب المتدين الى التظاهر بأنها تقوم على خطتهم الدينية . وبهذا اوقفت انجلترا تيار التقدم والاصلاح . ومن الصعب على الدولة الاجنبية على كل حال إدخال الاصلاح لأن الشعب يكره اي محاولة تقوم بها . وكان الدين والقانون الهندوكي في حالة تطور ولكنها تباطأ في العصور الأخيرة .

فالقانون الهندوكي مبني الى حـــد كبير على العرف ، والعرف بطبيعته في حالة تطور مستمر . ولكن هذا ايضاً وقف في عهد البريطانيين وسنت القوانين الجامدة بمشورة المغالين في الدين . وتوقف نمو المجتمع الهندي . وقد كان المسلمون في الهند اكثر سخطاً على التبديل والتطور فتمسكوا بالرجعية

يدعي الانجليز لأنفسهم القسط الاوفر من الثناء لالغـاء عادة حرق الارملة الهندية عند وفاة زوجها وحرق جثمانه . وانهم وان استحقوا شيئاً من الثناء لذلك الا ان الحقيقة هي ان الحكومة لم تفعل ذلك الا بعـد سنين عديدة من مطالبة مصلحي الهند وعلى رأسهم راجا رام موهان روي . وقد سبقهم الى منعها حكام ماراناس . وقد الغاها البوكرك البرتغالي في مستعمرة جوا الهندية وقد الغاها البريطانيون بعـــد مطالبة المصلحين الهنود والمبشرين المسيحيين ولا اعرف لبريطانيا اصلاحاً دينياً غيره

وهكذا تحالف البريطانيون مع جميع العناصر الرجعية والمحافظة في الهند . وحاولوا جعل الهند مجرد بلد زراعي منتج للمواد الخام اللازمـــة لصناعاتهم . وحاولوا منع دخول الآلات للهند ففرضوا الرسوم الباهظة عليهـا . اما البلدان الاخرى فانها شجعت الصناعة ، وسنرى بعد قليل وثبة اليابان الرائعـة في مضمار الصناعة . اما في الهند فقد دامت بريطانيا هذه الصناعة واصبح بناء المصنع في الهند – بسبب الرسوم المفروضة على استيراد الآلات – يكلف اربعة اضعاف مثيله في بريطانيا ، وبالرغم من رخص الايدي العاملة في الهند وهـذا الاجراء يؤخر التطور والنمو ، وان لم يستطع ان يوقف التيار كلياً الى الأبد . فبدأت الصناعة الآلية تدخل البلاد في منتصف القرن وبدأت صناعة القنب في البنغال برأسمـال بريطاني . وقد ساعد قيام السكك الحديدية على تقدم الصناعة ، فقامت بعد عام ۱۸۸۲ معامل القطن برأسمال اغلبه هندي في بومباي واحمد اباد . وقامت بعد ذلك صناعة التعدين . وكان معظم المال المستغل في الصناعة ، باستثناء مصانع القطن ، بريطانياً . وكان كل ذلك يكاد يكون رغم انف الحكومة وكانت بريطانيا تتغنى بسياسة السوق المفتوحة الحرة وفتح الباب امام الاستثمار الفردي . ولكن

عندما كانت تجارة الهند في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر تنافس التجارة الانجليزية ، قامت انجلترا بالقضاء عليهـــا بفرض الرسوم الباهظة ومنع استيرادها . فلما تفوقت بريطانيا امكنها التغني بسياسة السوق المفتوحة وبالرغم من ذلك فانها حاولت تثبيط عزيمة صناعة القطن في بومباي واحمد اباد ففرضت على المنتجات ضريبة دعتها ضريبة القطن لتمكن بذلك لبضاعة لنكشير الانجليزيـة منافسة المنسوجات الهندية . ومع ان كل دولة في العالم تقريبا تفرض الجمارك على البضائع الأجنبية لحماية بضائعها او للحصول على دخل لخزينتها ، الا ان بريطانيـا فعلت عجبا اذ وضعت الرسوم على البضاعة الهندية مع انها هي حاكمة الهند . ولم تلغ ضريبة القطن هذه الا مؤخراً ، بالرغم من كثرة الاحتجاجات الموجهة اليها.

وهكذا كان نمو الصناعة الهندية بطيئا ، وقد تم رغم انف الحكومة . وقد كانت الطبقات الغنية تنادي بالتصنيع . ولم تؤلف الحكومة ادارة للتجـــارة والصناعة الا في عام ١٩٠٥ على ما اعتقد ، ولكن عملها هذا لم يثمر الى ان قامت الحرب العالمية الاولى

ونما مع التطور الصناعي طبقة من العمال المشتغلين في مصانع المدن . وحمل ، الفقر الى الأرض الذي حدثتك عنه ، وقيام ما يشبه المجاعـة في المناطق الريفية ، حمل ابناء القرى على المهاجرة الى المعامل والمزارع التي اخذت تظهر في البنغال وأسام ، كما قام عدد كبير بالهجرة الى بلدان اخرى سعيـاً وراء اجور احسن كجنوب افريقيا وفيجي وموريشوس وسيلان . غير ان الهجرة لم تفد العمال كثـيراً لأن المهاجرين عوملوا بما يشبـــه الرق . ولم تكن حالتهم في مزارع الشاي في أسام اصلح من ذلك . وحاول الكثيرون بعد فشلهم وخيبـــة املهم ان يعودوا الى قراهم فلم تحسن قراهم وفادتهم ولم يجدوا عملًا لأن الحاجة الى الارض كانت ماسة. وقـــد ادرك العمال ان زيادة الاجر في المصنع لم تسمن او تغن من جـــوع لان الاسعار في المدن كانت مرتفعة ، وكان مستوى المعيشة عاليـــاً وكانت مساكنهم كهوفاً تعيسة رطبة مظلمة وقذرة وكانت ظروف العمل في غاية من السوء . ومع انهم كانوا قد قاسوا من الجوع في القرية الا انهم كانوا قـــد تمتعوا

فيها بالشمس والهواء النقي ، وهما ما لا يجدهما عامـل المصنع . ولم يكن الاجر يكفي لتغطية نفقات المعيشة . وكان النساء والاطفـال ايضاً يشتغلون السـاعـات المرهقة ، وكانت الامهات الحاملات اطفالهن على ايديهن يخدرنهم بمخدرات منومة حتى لا يعيقوهن عن العمل ! وهذه الظروف التي عاشها عمال المصانع وبثّت فيهم روح التذمر . وكان تذمرهم هذا يؤدي الى الاضراب ، ولكن دون جدوى لانهم كانوا ضعفاء لدرجة لا تمكنهم من الوقوف في وجه الآخرين الموسرين الذين تساندهم الحكومة . ولكن الزمن والخبرة المرة ارشدتهم الى قيمة العمل الجماعي الموحد ، فألفوا نقابات العمال .

ولا يتطرق الى ذهنك انني اتكلم عن احوال ماضية ، فمـا زالت حالة العمال سيئة ولم تتحسن الا قليلاً ، وان صدرت بعض القوانين التي تحمي العمال المساكين قليلاً . وما عليك الا إن تذهبي الى كون بور او بومباي او الاماكن الاخرى التي توجد فيها المصانع ولو اطلعت هناك على بيوت العمال للثت منها رعباً .

اخبرتك في هذه الرسالة والرسائل الاخرى عن الحكومة البريطانية في الهند: كيف كانت وكيف سلكت . كانت هناك أولاً شركة الهند الشرقية وكان يقف خلفها البرلمان البريطاني وبعد الثورة الكبرى عام ١٨٥٨ تسلم البرلمان البريطاني زمام الامر ، ثم الملك الانجليزي او بالاحرى الملكة الـــتي اصبحت امبراطورة الهند . وقد كان في الهند حاكم عام اصبح نائب الملك وتحتـه حشد كبير من الموظفين . وقسمت الهند – كما هي الآن تقريبـــاً – الى ولايات ومقاطعات . كانت ألوية خاضعة لحكام هنود المفروض انهم شبـــه مستقلين ، ولكن الواقع انهم كانوا دون استقلال بالمرة . وكان في كل ولاية مقـــيم بريطاني له السلطة العامة على الادارة . ولم تكن تهمه الاصلاحات الداخليـــة او سوء الادارة في الولاية ، لأن همه الاوحد تعزيز النفوذ البريطاني فيها . وكانت الولايات تشغل ثلث الهند . أما الثلثان الآخران فقد كانا تحت حكم البريطانيـين مباشرة ، ودعي هذا الجزء الاخير بالهند البريطانية . وكان جميع الموظفين الكبار من الانجليز ، إلا في المدة الاخيرة عندما تسرب اليها بعض من الهنود . ولكن

النفوذ ظل لبريطانيا حتى اليوم . وكان هؤلاء الموظفون ، باستثناء العسكريين ، اعضاء فيما يعرف بالجهاز المدني الهندي الذي كان يحكم الهند باسرها . وتدعى هذه الحكومة التي يديرهـــا الموظفون الذين يعينون بعضهم بعضاً (حكومة بيروقراطية) وهي من كلمة (بيرو) بمعنى وظيفة .

وانتا نسمع الكثير عن هذا الجهاز . كان رجاله غربيين ، لهم مهارة في بعض الوجوه ، فقـد نظموا الحكومة وعززوا النفوذ الانجليزي واستفادوا مادياً . وكانت الدوائر الموكل اليها امر تعزيز الحكم الانجليزي وجمع الضرائب على جانب كبير من الفعالية اما الدوائر الأخرى فانها كانت مهملة. فلم يكن جهاز الخدمة المدنية الهندي يلقي بالاً لهذه الدوائر لأنه لم يكن مسؤولاً امام الشعب او معيناً من قبله ، مع ان هذه الدوائر كانت اكثر الدوائر حساسية لمصلحة الشعب .وقد اصبح رجال الخدمـة على درجة كبيرة من الغرور والتعاظم واحتقار الشعب . وظنوا انفسهم احـكم الناس على وجه الارض. وقد اسسوا فيما بينهم جمعية التقدير المتبادل لمدح بعضهم بعضاً . وهذا كله ناتج عن السلطة المطلقـــة التي جعلت الخدمة المدنية سيدة فعلية للهند .

وكان البريطاني بعيداً لدرجة تمنعه من التدخل اذا اراد، ولكنه لم يرد التدخل لأن هذا الجهاز كان يخدم مصالحه ومصالح الصناعة البريطانية .اما مصالح شعب الهند فلم تكن داخلة في حسابه وكان النقد الناعم يثير غضب هذا الجهاز وسخطه .

ولا ننكر ان الجهاز كان يضم بعض الرجال الطيبين الشرفاء، ولكن هؤلاء لم يقدروا ان يقفوا امام التيار الجارف الذي كانت الهند تساق معه ، فقـد كان الجهاز المدني خادماً لمصالح بريطانيا المادية واهم هذه المصالح استغلال الهند .

وقد بلغت فعالية الجهاز حداً كبيراً في كل مايتعلق بمصالحها ومصالح الصناعة البريطانيـة . ولكنه اهمل ما من شأنه رفـــع مستوى الشعب كالتعليم والصحة والنظافة والمستشفيات . وحتى مدارس القرية نفسها زالت من الوجود . غير أنه بدأت حركة بسيطة في ميدان التعليم املتهـا على بريطانيا حاجتها . فقد كان البريطانيون يشغلون الوظائف الكبـيرة ولم يكونوا قادرين على شغـل الوظائف

البسيطة والوظائف الكتابية . ولاحتياج البريطانيين الى الكتاب فانهم انشأوا المدارس والكليات لتخريج هؤلاء الكتاب . وظل هذا هو الهدف من التعليم في الهند ، ولم يكن الخريجون قادرين على تأدية اي عمل آخر سوى الاعمال الكتابية . ولكن عدد الكتاب زاد عن المطلوب للدوائر الحكومية والمكاتب الأخرى فنشأت طبقة جديدة من المتعلمين العاطلين .

كانت البنغال في الطليعة في هذا التعليم البريطاني ، ولذا فقد كانت دفعة الانتاج الأولى من شباب البنغال . وفي عام ١٨٥٧ أسست ثلاث جامعات في كلكتا وبومبي ومدراس . والجدير بالذكر ان المسلمين في الهند لم ترق لهم هذه النزعة الى التعليم فلم يصبح منهم كتبة . وقد أحسوا مؤخراً بهذا النقص فقاموا يتذمرون .

ويجدر بنا ان نذكر ان تعليم المرأة اهمل منذ البداية . ولا يستغرب ذلك على بريطانيا لأنها انما فتحت ابواب التعليم من اجل هدف واحد وهو انتاج الكتبة . وكان الرجال هم المطلوبين لان المرأة لم تكن صالحة لذلك العمل بسبب التقاليد الاجتماعية . وقد ظلت المرأة تقامي من ذلك الى أمد بعيد ، حتى فتح امامها باب التعليم .

بريطانيا ترغم الصين على شراء الافيون

١٤ ديسمبر ١٩٣٢

●

حدثتك بشيء من الاسهاب عن اثر الثورة الصناعية الآلية على الهند وعن اعمال الاستعمار الرأسمالي في الهند . وانني كهندي لا يسعني إلا ان انظر الى الموضوع نظرة حزبية ولكنني حاولت جهدي (واريدك ايضاً ان تحاولي جهدك) ان ننظر الى هذه الامور نظرة الفاحص المحايد الذي يدرس جميع الوقائع دون تحيز لا كما يفعل القوميون الذين يحاولون اثبات وجهة نظر واحدة فقط . فالقومية وان كانت مفيدة في بعض الاحيان ، الا انها صديق جاهل ومؤرخ غير موثوق به ، لأنها ربما اعمت بصيرتنا عن حوادث عديدة وشوهت الحقائق وخصوصاً عند الحديث عن بلدنا وانفسنا . فعلينا اذن ان ننتبه عند معالجتنا لتاريخ الهند الحديث من ان نلقي جميع اللوم لمصائبنا على كاهل البريطانيين .

وبعد ان رأينا كيف استغل الصناعيون والرأسماليون الهند في القرن التاسع عشر ننتقل الى البلد العظيم الآخر في آسيا وصديق الهند القديم ، الصين العتيدة لم تقع الصين كما وقعت الهند تحت سيطرة او حكم دولة اوروبية . وقد نجت من ذلك بفضل قيام حكومة مركزية قوية فيها ابقت على تماسكها حتى منتصف القرن التاسع عشر . اما الهند فقد رأينا انها تمزقت اربا قبل ذلك التاريخ بحوالي مئة سنة عندما سقطت امبراطورية المغول . ومع ان الصين اخذت تضعف في بداية القرن التاسع عشر ، الا انها تماسكت من التداعي وساعدها على النجاة تنافس

الدول الآجنبية وحسد بعضها بعضاً

حدثتك في الرسالة الاخيرة عن الصين وعن المحاولات التي قامت بها بريطانيا لزيادة تجارتها ، وقد اوردت فيها جزءاً من تلك الرسالة المملوءة بالعظمة والاعتزاز والوطنية والتي بعث بها شين لنج امبراطور اسرة مانشو الى الملك جورج الثالث. كان ذلك في عام ١٧٩٢ عام الثورة الفرنسية التي هزت اوروبا ، وتلاها نابليون وحروبه . وكانت انجلترا آنذاك منشغلة كلياً بحروبها مع نابليون ، ولم يكن بوسعها زيادة تجارتها مع الصين الا بعد سقوط نابليون فتنفست الصعداء عام ١٨١٤ وفي عام ١٨١٦ ارسلت انجلترا بعثة بريطانية اخرى الى الصين ، ولكن خلافاً نشأ حول المراسيم التي ستتبع عند مثول البعثة بين يدي الأمبراطور ، اذ رفض امبراطور الصين قبول السفير البريطاني اللورد أمهرست وامره بالرجوع الى بلاده . كانت هذه المراسيم تدعى (كوتو) وتستلزم سجود الرجل على الارض .

وفي هذه الاثناء راجت تجارة جديدة هي تجارة الافيون والواقع ان استيراد الافيون من الهند قد بدأ في القرن الخامس عشر . وكان ذلك من الامور السيئة التي ارسلتها الهند للصين بعكس الاشياء الحسنة التي كانت تصدرها اليها . ولكن نطاق هذه التجارة لم يتسع إلاعلى يد التجار الاوروبيين وخصوصاً شركة الهند الشرقية التي كانت تحتكر التجارة البريطانية ويقال ان الهولنديين في الشرق اعتادوا ان يمزجوا الافيون بالتبغ ويدخنوه كعلاج واق من الملاريا. وبهذه الطريقة دخل الافيون الصين . ولكن الصينيين اصبحوا يدخنون الافيون دون مزجه فقامت الحكومة الصينية لتضع حداً لهذا الداء الذي يهدد كيان الشعب ويستنفد ثروة البلاد .

وفي عام ١٨٠٠ اصدرت الحكومة مرسوماً يحظر استيراد الافيون لأي سبب من الاسباب . ولكن الربح الفاحش حمل الاوروبيين على تهريب الافيون الى الصين وشراء ضمائر الموظفين بالرشوة . فاضطرت الحكومة الصينية ان تحظر على موظفيها الاجتماع بالتجار الاجانب وفرضت العقوبات الشديدة على كل من يقوم

بتعليم الاجانب اللغة المانشوية او الصينية . ولكن ذلك لم يضع حـداً لتجارة الافيون التي استفحلت واستفحل معها الفساد والرشوة . وازداد الامر سوءاً بعد عام ١٨٣٤ عندما ألغت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين وفتحت الباب امام جميع التجار البريطانيين .

وازداد تهريب الافيون على أثر ذلك فقررت الحكومة الصينية اتخاذ اجراء حازم لوضع حد له واختارت رجلاً كفؤاً اسمه (لن تسي هي) وعينته مأمورا لمقاومة التهريب فقام بعمل جبار سريع وذهب الى كانتون في الجنوب (مركز هذه التجارة المحظورة) وأمر جميع التجار الاجانب ان يسلموا جميع الكميات الموجودة لديهم من الافيون . ولما رفضوا ذلك عمل على ارغـــامهم وعزلهم في معاملهم وحمل الخدم والعمال الصينيين على هجرهم ومنع وصول الطعام اليهم ، مما اجبرهم على المصالحة وتسليم ما لا يقل عن عشرين الف صندوق من الافيون . وأمر (لن) باحراق هذه الكمية التي كانت معدة للتهريب ، طبعـــاً . وحذر التجار الاجانب بأنه لن يسمح لأي سفينة بدخول كانتون ما لم يتعهد قبطانها انها لا تحمل شيئاً من الافيون والا تعرضت السفينة وحمولتها الكاملة للمصادرة . لقد فعل (لن)واجبه على ما يرام ولكن لم يدر بخلده ان عمله سيجر المتاعب للصين!

لقد أدى ما سبق الى حرب مع بريطانيا انتهت بهزيمة الصين وتوقيع معاهدة مشينة واطلاق حرية الاتجار بالافيون . اما مقدار الضرر الذي يلحقه الافيون بالشعب الصيني فلم يزعج بال بريطانيا التي لا يهمها الا المكاسب المادية التي يجنيها تجارها من تهريب الافيون ، وما يدره ذلك على الخزينة البريطانيــة من دخل . قامت الحرب عام ١٨٤٠ لأن اغلب الأفيون الذي احرقه « لن » كان ملكاً لتجار بريطانيا ، فاعلنت بريطانيا الحرب بحجة الدفاع عن كرامتها وشرفها . وعرفت هذه الحرب « بحرب الافيون » وانتهت بفرض تعاطي سم الافيون على اهل الصين .

كانت الصين ضعيفة امام الاسطول البريطاني الذي ضرب حصاراً على كانتون واماكن اخرى فسلمت في عام ١٨٤٢ ووقعت معاهدة نانكنج التي ارغمت الصين

على فتح خمس موانىء (كانتون وشنغاي وآموي ونتغبو وفوشوي) في وجه التجارة الاجنبية، او على الاصح تجارة الافيون ، وعرفت هذه الموانىء بـ«موانىء المعاهدة» . واقتطعت بريطانيا ايضاً جزيرة هونغ كونغ القريبة من كانتون وابتزت قسماً كبيراً من المال كتعويض عن كمية الافيون التي احرقت وعن تكاليف الحرب التي فرضتها هي على الصين .

وهكذا أمكن لبريطانيا ان تنتصر وان تفرض افيونها على الصين . وقد كتب امبراطور الصين كتاباً الى الملكة فكتوريا التي كانت تحكم بريطانيا ضمنه بكل لطف شرحاً لتأثير تجارة الافيون السيىء على الصين، ولكن الملكة اصمت اذنيها ولم تجب . ولنتذكر ان سلفه شيين لنج كان قد كتب الى ملك انجلترا كتاباً قبل خمسين عاماً ولكنه كان يختلف تمام الاختلاف عن هذا الكتاب الضعيف .

وقد فتح هذا الحادث الباب للمتاعب التي انصبت على الصين على يـــد القوى الاستعمارية الغربية ، وقضى على عزلة الصين وفتح ابوابها في وجه التجار الغربيين والمبشرين الذين لعبوا دوراً استطلاعياً للاستعمار المقبل . وقد كان سلوك المبشرين من الوقاحة والانحطاط بمكان ، ولكن الصين لم تكن قادرة على محاكمتهم لان المعاهدة الجديدة جعلت سلطة محاكمتهم تابعة لمحاكمهم الخاصة دون ان يخضعوا لقانون البلاد . واستغل المبشرون هذا الحق بصورة بشعة حتى ان الذين اعتنقوا النصرانية صاروا يطالبون بهذا الحق ايضاً . ومع ان هذا الطلب لا يجوز منحه ابداً ، الا ان رئيس المبشرين الذي يمثل اكبر بلد استعماري كان يؤازرهم في مطالبهم . وكثيراً ما ادى تدخل المبشرين الى النزاع بين قرية واخرى والقتال المضني . وفي النهـــاية يثور القرويون على المبشر ويقتلونه او يقوم غيرهم بذلك فتتدخل الدولة الاستعمارية وتطلب التعويض . والواقع ان قتل المبشرين قد افاد الدول الاوروبية لانه اعطاهم الفرص المناسبة للتدخل وكسب الامتيازات.

وقد نجم عن محاولة التبشير بالدين المسيحي ثورة من اخطر الثورات الصينية عرفت بثورة تايبنيـج التي اثارها عام ١٨٥٠ رجل مخبول اسمه (هنج هن شوان) الذي هب ينادي بقتل الكفار . وقد استفحل القتل وعم نصف الصين حتى بلغت

الوفيات حوالى عشرين مليون شخص . وليس من الصعب طبعاً ان نحمّل المبشرين والدول الاجنبية تبعة اشعال النار والفتنة والمذابح التي صحبتها . ومع ان المبشرين كانوا مبتهجين للفتنة في اول الامر ، الا انهم تنكروا لها وتخلوا عنها . اما الحكومة الصينية فانها ظلت على اعتقادها بأن المبشرين هم المسؤولون عن الفتنة . وهذا يعطينا فكرة عن مقدار كره الصين للمبشرين منذ ذلك الحين. لأنهم اعتقدوا ان هدف قدوم المبشرين لم يكن الدعوة الى الدين والاخاء بل تمهيداً للاستعمار والعمل لصالحه . وقد قال احد الكتاب الانجليز: « ويذهب اولاً المبشر ، ويليه القارب الحربي ثم مصادرة الاراضي .هذا هوما يعتقده الصينيون». وهكذا ظل اسم المبشرين في الصين مقترناً بالمتاعب الى زمن طويل . ويستغرب المرء نجاح الثورة التي حركها رجل معتوه ، الا انها اخمدت اخيراً . ولكن السبب الحقيقي لنجاح الثورة هو تداعي النظام القديم في الصين ؛ واعتقد انني اخبرتك في رسالتي الأخيرة عن الصين عن عبء الضرائب الثقيل والتطور الاقتصادي في الصين وروح التذمر التي سرت بين افراد الشعب وقيام الجمعيات السرية لمناوأة حكومة مانشو وامتلاء الجو بريح الثورة . وزاد الطين بلة مساوىء التجارة الاجنبية وخصوصاً تجارة الافيون . لقد اختلفت طبيعة التجارة الاجنبية عن السابق لأن الدول الاوروبية أصبحت تنتج بضائع تفيض عن استهلاكها المحلي وكان لا بد من العثور على اسواق خارجية مما أطمع الدول الاوروبية في الهند والصين . وكما حدث في الهند حدث ايضاً في الصين ، اذ اخذت الاسعار في اسواقها ترتفع متأثرة بالأسعار العالمية مما زاد في نقمة الشعب وتعاسته وعزز ثورة تايبنغ .

كانت هذه هي حالة الصين عندما ازدادت وقاحة الدول الغربية وزاد تدخلها في شؤون الصين . ولا عجب انها لم تقوَ على الصمود في وجه مطالبهم . وقد استغلت الدول الغربية هذه الفوضى والمصاعب لانتزاع الامتيازات والاراضي ، كما فعلت اليابان فيما بعد . ولولا تنافس الدول الغربية واليابان على الصين لوقعت الاخيرة تحت نير الحكم الأجنبي .

وربما ابتعدت عن قصتي الاصلية واسترسلت في حالة الصين من وجهة عامة في القرن التاسع عشر وضعفها الاقتصادي وثورة تايبنغ والمبشرين والعدوان الخارجي. ولكن كان لا بد لي من ذكر ذلك حفظاً لتسلسل الوقائع التاريخية ، لأن احداث التاريخ لا تقع بمجرد الصدفة كما تحدث المعجزات ، بل انها نتيجة لأسباب متعددة تتضافر معاً لاخراج الحادث التاريخي الى حيز الوجود . غير ان هذه الاسباب كثيراً ما تكون خافية عن العيون . ولا شك ان ملوك اسرة مانشو تعجبوا من انقلاب عجلة الزمن فجأة بالنسبة لهم ، إذ انهم لم يروا ان جـذور سقوطهم كانت متأصلة في ماضيهم ، ولم يدركوا مدى التقدم الصناعي في الغرب وعواقبه الوخيمة على النظام الاقتصادي الصيني . فقد كانوا يمقتون تدخل الاجانب (البرابرة) . وقد اشار احد الاباطرة الى ذلك التدخل باستعمال مثل صيني قديم عندما قال : « لا اسمح لرجل ان يقوم بالشخير قرب مخدعي » ولكن الامثال الصينية القديمة — مع ما فيها من حكمة وبث الثقة وحث على الصبر — لم تكن كافية لرد الاجانب عن البلاد .

لقد فتحت معاهدة نانكنغ ابواب الصين امام بريطانيا ، ولكن فرنسا واميركا لم تريدا لبريطانيا الاستئثار بالغنيمة فقامتا بعقد معاهدات تجارية مع الصين . ولكن الصين لم تكن تقوى على رد الاجانب ، فزادت نقمتها عليهم ونظرت اليهم على انهم برابرة . ولم يعرف طمع هؤلاء الاجانب — وعلى رأسهم بريطانيا — حداً في استغلال الصين .

واستغل البريطانيون فرصة انشغال الصين في ثورة تايبنغ ، فراحت انجلترا تبحث عن علة تعلن بسببها الحرب على الصين وواتتها الفرصة عام ١٨٥٦ عندما قام نائب الملك في كانتون بالقاء القبض على بحارة صينيين بتهمة القرصنة على سفينة صينية . غير ان بريطانيا تذرعت بحجة حمل السفينة العلم البريطاني بسبب حصولها على رخصة من حكومة هونج كونج . وبالرغم من ان الرخصة قد انتهت مدتها، الا ان بريطانيا مثلت دور الذئب مع الحمل فارسلت جيوشها الى الصين .

ولما كانت الثورة الهندية عام ١٨٥٧ مشتعلة في الهند حولت بريطانيا سير

الجنود الى الهند لسحق الثورة هناك أولاً . وفي العام التالي اشعلت نار الحرب الصينية . وقد بحثت فرنسا هي الاخرى عن ذريعة لدخول الحرب فوجدت ان احد المبشرين كان قد قتل في الصين. وهكذا انقض البريطانيون والفرنسيون على الصين المنهمكة في ثورة تايبنغ . وحاولت الدولتان اقناع كل من روسيا والولايات المتحدة الامريكية المساهمة في الحرب فلم تقبلا غير انهما كانتا على اتم استعداد للمساهمة في الغنائم . ومع انه لم تقع حرب فعلية إلا انه جرى توقيع معاهدات جديدة وحصلت الدول الغربية على امتيازات جديدة وفتحت في وجهها ابواب جديدة.

غير ان القصة لم تنته بعد بل ظل فصل محزن في هذه الرواية اذ عندما وقعت المعاهدات الآنفة الذكر اتفق المتعاهدون على ان يتم ابرام المعاهدات بعد عام من ذلك التاريخ في مدينة بكين. ولما حان الموعد المضروب وصل المبعوث الرومي رأساً عن طريق البر اما مبعوثو الدول الثلاث الاخرى فانهم جاءوا عن طريق البحر وطلبوا ان يصلوا بقواربهم الى بكين عبر نهر (بيهو) ولما كانت المدينة مهددة آنذاك بثورة تايبنغ،والنهر معززاً بالتحصينات العسكرية، طلبت حكومة الصين من مبعوثي هذه الدول الثلاث ان يتركوا طريق الماء وان يواصلوا سفرهم بالبر عن طريق شمالي . وكان ذلك طلباً معقولاً.فوافق مندوب الولايات المتحدة بينما رفض مندوبا بريطانيا وفرنسا وحاولا شق طريقهما عبر النهر بالقوة . فاطلق عليهم الصينيون النار واضطروهم الى الرجوع بعد ان انزلوا بهم خسائر فادحة

وقد بلغ من وقاحة الدولتين وعجرفتهما انهما ارسلتا قوات جديدة للانتقام مع انهما المتسببتان في ذلك لعدم امتثالهما لطلب الحكومة الصينية وزحفت القوات عام ١٨٦٠ على بيكين واحرقت قصر الامبراطور الصيفي الذي شيده الامبراطور شين لنج . وهو تحفة فنية رائعة زاخر بالكنوز الادبية والفنية التي كانت من خير ما انتجته مواهب الصينيين . وكانت فيها القطع البرونزية الأخاذة والخزف الساحر والمخطوطات النادرة والصور البديعة والفنون التي امتازت بها

الصين مدة ألف عام من الزمان. اما الجنود البريطانيون والفرنسيون - او بالأحرى قطاع الطرق - فانهم نهبوا هـــذه التحف واحرقوا الكثير منها في كومة من الرماد ظلت مشتعلة عدة ايام . فهل يستغرب بعد هذا العمل البربري ان ينظر اهل الصين اصحـاب الحضارة القديمـــة بعين الأسى وان يسموا هؤلاء القوم (برابرة) لا يتقنون سوى فنون القتل والدمار ؟

غير ان (البرابرة) الاجانب لم يلتفتوا الى رأي الصينيين فيهم فقد كان يكفيهم انهم كانوا حصينين في قواربهم الحربيـــة وعتادهم ، وهل يضيرهم تدمير كنوز فنية رائعة او حضارة صينية او ثقافة ؟ كل الذي كان يهمهم انهم يملكون السلاح المتين الذي يفتقر اليه أهل الصين !

الوحدة الايطالية

٣٠ يناير عام ١٩٣٩

●

عندما قصصت عليك حوادث عام ١٨٤٨ ، اجلت البحث في تاريخ ايطاليا الى النهاية ، لأن الحوادث والاختلافات التي حدثت في روما كانت ابعد الحوادث اثراً في النفس .

كانت ايطاليا قبل مجيء نابوليون مجموعة غير متجانسة من دويلات وامارات صغيرة . ومع ان نابوليون وحّدها فترة قصيرة من الزمن الا انها عادت بعده الى اسوأ مما كانت . وقد قسمت الدول المجتمعة في مؤتمر فينا عام ١٨١٥ البلاد فيما بينها . فكان نصيب النمسا البندقية وقسماً كبيراً من الاراضي المحيطة بها ، كما اعطي عدد من امراء النمسا القطع التي اختاروها . وعاد البابا الى روما ، وضمت اليها الاراضي المحيطة بها فعرفت بالولايات البابوية . وتكوّن من نابولي والجنوب ما عرف بالصقليتين تحت عرش امرة بوربون . والى الغرب المتاخم لفرنسا قام ملك على بيدمونت وسردينيا . وقد قام هؤلاء الملوك والامراء الصغار (باستثناء ملك بيدمونت) بحكم اجزائهم بطريقة اوتوقراطية اشد مما كانت عليه قبل قدوم نابوليون . ولكن قدوم الاخير هزّ البلاد وحول انظار الشباب حول الوحدة الايطالية والحرية ، فقامت الثورات الصغيرة والجمعيات السرية غير عابئة بالظلم او مصدر ذلك الظلم .

وبرز في الميدان شاب حمل لواء الحرية واسمه جيوسبي ماتزيني رسول القومية

الايطالية . وفي عام ١٨٣١ الف ماتزيني جمعية باسم (ايطاليا الفتاة) كان هدفها تحقيق الجمهورية الايطالية. وقد ظل يعمل لتحقيق هذا الهدف وهو في منفاه معرضاً حياته للخطر . واصبحت مؤلفاته انجيلاً للقومية الايطالية . ولما اندلعت ثورات عام ١٨٤٨ في شمال ايطاليا ، اغتنم ماتزيني الفرصة وعاد الى روما ، فطرد البابا واعلنت الجمهورية التي يحكمها لجنة مؤلفة من ثلاثة رجال كان ماتزيني احدهم .

وتعرضت هذه الجمهورية للهجوم من كل جانب ، اذ هب في وجهها النمساويون والنابوليونيون والفرنسيون الذين قدموا لاعادة البابا الى روما . وكان في صفوف الجمهورية البطل الايطالي (غاريبالدي) الذي تمكن من هزم الجيوش النمساوية والنابوليونية وصد الفرنسيين . وقد حصل كل ذلك بفضل المتطوعين وخصوصاً شباب روما الذين بذلوا ارواحهم في سبيل الجمهورية . غير ان الجمهورية هزمت اخير على يد فرنسا التي اعادت البابا الى روما .

وانتهى الفصل الاول من الجهاد ، غير ان ماتزيني وغاريبالدي واصلا السعي والدعاية والتحضير للخطوة التالية . ومع ان ماتزيني كان من رجال الفكر وغاريبالدي من رجال الحرب العباقرة في حرب العصابات ، الا ان كلا منهما كرس حياته لتوحيد ايطاليا وتحريرها وانضم اليها وطني آخر هو كافور رئيس وزراء الملك فكتور عمانويل ملك بيدمونت وكان هم كافور جعل عمانويل ملكاً على ايطاليا بأمرها ، فوجد من الحكمة ان يستغل جهود ماتزيني وغاريبالدي للقضاء على الامارات الصغيرة ليخلو الجو الملك وقد اوقع كافور ما بين نابوليون الثالث ملك فرنسا وحكومة النمسا وشبكها في حرب عام ١٨٥٩ انتهت بهزيمة الاخيرة . واستغل غاريبالدي الفرصة فقام بحملة منفردة على ملك نابولي وصقلية . وهذه هي الحملة المعروفة بحملة (الألف) ذوي القمصان الحمراء . وبالرغم من صغر الحملة وقلة تدريبها ، الا انها سارت من نصر الى نصر هازمة الجيوش المدربة التي تفوقها عدداً وطارت شهرة غاريبالدي ، واصبح اسمه من الشهرة بحيث تذوب امامه الجيوش الجرارة واستمر غاريبالدي ومتطوعوه في جهادهم الطويل ، وكثيراً ما اشرف على الهزيمة والهلاك

لولا ان الحظ كان يبتسم له ويحول الهزيمة الى نصر .

ونزل غاريبالدي والألف متطوع في أرض صقلية وشق طريقه من هناك متجهاً صوب شمال ايطاليا وكلما مرّ بقرية استنجد اهلها وطلب منهم التطوع قائلا : « هلموا ، هلموا ، ولا تكونوا مع المتخلفين الجبناء . ان امامكم التعب والمشقة والمعارك . فإما ان ننتصر او نموت » . وليس اجمل من النجاح ، إذ هبّ الايطاليون يتدفقون للتطوع ويزحفون الى الشمال وهم يرددون نشيد غاريبالدي:

تبعثر ما في القبور .
وهب الاموات من اجداثهم .
وخفت ارواح الشهداء الى ارض المعركة .
ممتشقين حسامم وعلى رأسهم اكاليل النصر
هلموا شباب البلاد
وارفعوا راية الجهاد .
ارفعوا الحديد وصبوا النار .
واحموا ايطاليا المتعطشة الى الحرية .
وارحل ايها الغاصب عن ايطاليا .
ارحل ايها الاجنبي عن ديارنا .

لله ما اشد تشابه الاناشيد الحماسية في كل مكان .

واستغل كافور انتصارات غاريبالدي هذه ، واصبح ملك بيد مونت فيكتور عما نويل عام ١٨٦١ ملكاً على ايطاليا . اما روما التي ظلت تحت الاحتلال الفرنسي ، والبندقية التي ظلت تحت الحكم النمسوي فأنهما التحقتا ببقيـة ايطاليا ، وأصبحت روما عاصمة البلاد الموحدة .

وهكذا اصبحت ايطاليا ، شعباً واحداً بفضل ثلاثـة اشخاص هم ماتزيني وغاريبالدي وكافور ؛ ولو تأخر احدهم عن الظهور في حينه فلربما تأخرت الوحدة بعض الوقت .

وربما بدأ هـذا العرض الموجز لكفاح ايطاليا في سبيل الحرية كأي عرض لحوادث تاريخية اخرى ، ولكن الواقع انك عندما تقرئين كتب ترافيليان الثلاثة : « غاريبالدي والجهاد في سبيل الجمهورية الايطاليـة » . و « غاريبالدي والألف رجل » و « غاريبالدي وبناء ايطاليا » فأنك تشعرين بالغبطة الكبيرة والتأثر البالغ وانت تطلعين على خفايا هذا الجهاد في سبيل الحرية . وهذا ما حصل لي انا على الاقل منذ ايام الدراسة .

وكان الشعب الانجليزي يعطف على كفاح غاريبالدي واصحابه ذوي القمصان الحمراء ، وكتب الكثير من شعرائه القصائد المثيرة . وليس هذا غريباً على الانجليز عندما يكون الكفاح لا يتعارض مع مصالحهم الخاصة . فقد ارسلوا الى اليونان المناضلة في سبيل استقلالها شاعرهم الورد بايرون ، وبعثوا الى ايطاليـــا تأييدهم وتمنياتهم الطيبة . اما ايرلندا المكافحة ومصر والهند وغـيرها فأنهم ارسلوا اليها المدافع والبنادق لتدميرها .

النهضة الالمانية

٣١ يناير ١٩٣١

●

تحدثنا في رسالتنا السابقة عن قيام امة هي من أكبر الأمم الاوروبية اليوم، ونتحدث في هذه الرسالة عن قيام امة اخرى كبيرة ، هي ألمانيا

ظل الشعب الالماني بالرغم من اتحاده في اللغة والمظاهر الأخرى ردحاً من الزمن منقسماً الى دويلات عديدة . وظلت النمسا الخاضعة لأسرة هابسبورج القوة الكبرى في المانيا ، الى ان برزت بروسيا تنافسها في الزعامة على العالم الالماني . ومع ان نابوليون قد هز الدولتين ، الا ان القومية الالمانية ترعرعت وساعدت في القضاء عليه نهائياً . وبهذا يكون نابوليون ـ من حيث لا يدري ـ المحرك الاول للقومية والحرية في كل من ايطاليا والمانيا . وكان من معاصري نابوليون في المانيا نيتشه الفيلسوف المعروف الذي اثار حمية شعبه .

وقد ظلت الدويلات الالمانية قائمة لمدة نصف قرن بعد مجيء نابوليون ، ولم تفلح المحاولات العديدة لتكوين اتحاد فيما بينها بسبب تنافس حكام النمسا وبروسيا على الزعامة . وقد زاد الضغط على الشعب فثار في عامي « ١٨٣٠ و١٨٤٨ » ، ولكن الثورة اخمدت في الحالتين . وادخلت الاصلاحات السطحية ترضية للناس .

ولما كانت مناجم الفحم والحديد متوفرة في اجزاء المانيا ، فان الجو كان صالحاً فيها ، كما حصل في انجلترا ، لقيام الصناعة . وكانت المانيا ايضاً مرتعاً

خصبا للفلاسفة والعلماء والجنود . وقد اقيمت المصانع وقام معها طبقة جديدة من العمال .

وظهر في المانيا في منتصف هذا القرن رجل قدر له ان يلعب بسياسة المانيا واوروبا مدة طويلة من الزمن ذلك هو اوتو فون بسمارك . وكان من اصحاب الاملاك في بروسيا ، وولد في العام الذي وقعت فيه معركة واترلو وعمل مبعوثاً دبلوماسياً في بلاطات عديدة . وما ان عين في عام ١٨٦٢ رئيساً لوزراء بروسيا حتى بادر الى العمل الجدي . وقد قال بعد تعيينه بأسبوع واحد : « ان المشاكل الكبرى القائمة اليوم لا يمكن حلها بالخطابات وقرارات الاغلبية وانما بالحديد والدم . »

كانت سياسة «الحديد والدم» التي اصبحت شهيرة في كل مكان هي السياسة التي كرس بسمارك لها جهده وحنكته . فقد كان يبغض البرلمانات والمجالس النيابية ولا يجاملها . ومع انه كان يمثل العصر البائد ، الا انه جعل الحاضر يلين بين يديه ويتمشى طوع امره الى ان صب المانيا في قالبها الجديد ، وصاغ قالباً آخر لأوروبا بأمرها في فترة النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وقد جعل من ألمانيا المعروفة بالفلاسفة والعلماء المانيا اخرى تعتمد على الدم والحديد والمهارة الحربية .. وجعلها تبسط سيطرتها على شؤون اوروبا . وقد قال احد معاصريه من الالمان : «ان بسمارك يرفع من شأن المانيا فيحط من شأن الالمان . » وقد سحرت سياسته الرامية الى جعل المانيا القوة الكبرى في اوروبا والعالم الألمان المتطلعين الى العزة والكرامة القومية ، وجعلتهم يتحملون ما يفرضه عليهم من قيود .

وعندما تسلم بسمارك مركزه القوي كانت له آراء واضحة ، فعمل على تحقيقها بعزم وثبات ولقي نجاحاً باهراً . كان هدفه احلال المانيا ، وعن طريقها بروسيا ، في مكان الصدارة في القارة الاوروبية . وكانت فرنسا في عهد نابوليون الثالث تعد الدولة الاوروبية الاولى ، كما كانت النمسا منافسة كبيرة لها وان الدور الذي لعبه بسمارك في الايقاع بين الدول واصطيادها منفردة ليعطينا صورة اخاذة عن

الاسلوب القديم في السياسة والدبلوماسية الدولية . فقد كان الهدف الاول له ان يضع حداً نهائياً للتنافس القائم بين بروسيا والنمسا على زعامة المانيا واعطاء الزعامة لبروسيا ، وبعد ذلك يجب القضاء على منافسة فرنسا في اوروبا وانني عندما اذكر بروسيا والنمسا وفرنسا لا اعني الا الحكومات لانها كانت حكومات اوتوقراطية ، ولم تكن برلاناتها الا صورة فقط .

وانصرف بسمارك اذن لتقوية بلاده عسكرياً . وفي تلك الاثناء قام نابليون الثالث بمهاجمة النمسا ودحرها . وهذه هي الهزيمة التي ساعدت غاريبالدي وانتهت بالوحدة الايطالية . وقد اضعف هذا الانهزام النمسا لصالح بسمارك . ثم التفت بسمارك لمصادقة قيصر روسيا . فعندما قامت الثورة البولندية ضد روسيا اعلن بسمارك انه مستعد لمساعدة القيصر ولو ادى ذلك الى حصد اهل بولندا بالنار . وهذا غرض شائن طبعاً ، ولكنه ضمن لبسمارك سكوت القيصر على اعماله في اوروبا . ثم التفت بسمارك الى الدنمرك فأخضعها بالتحالف مع النمسا . ثم التفت الى النمسا فحالف فرنسا وايطاليا ضدها وهزمها بسهولة عام ١٨٦٦ . وهكذا زالت عقبة النمسا واصبح من الممكن القيام باتحاد الماني شمالي بزعامة بروسيا. ولم تدخل النمسا في الاتحاد غير ان بسمارك عاملها معاملة كريمة ليزيل من نفسها حقدها عليه . واصبح بسمارك مستشاراً لهذا الاتحاد وربما تعلم زعماؤنا درساً من بسمارك ، فبينما نراهم يضيعون الشهور والسنوات في الحديث عن الاتحاد والدستور ، نجد ان بسمارك قد املى دستور اتحاد المانيا الشمالي في خمس ساعات فقط . وقد ظل هذا الدستور مع تعديلات طفيفة قائماً مدة نصف قرن ولم يزل الا بقيام الجمهورية عقب نهاية الحرب العالمية الاولى .

تم لبسمارك اذن تحقيق الهدف الاساسي ، وظل عليه تحقيق الهدف الثاني وهو اعلاء شأن المانيا في اوروبا باخضاع فرنسا فبدأ يعمل لذلك بحنكة ودهاء ، ويعمل لتحقيق الوحدة الالمانية ، ولكنه كان شديد الحرص على عدم اثارة شكوك اوروبا وقد عامل النمسا المهزومة بلطف وكرم . ولما كانت انجلترا منافسة فرنسا التقليدية وواقفة بالمرصاد لاطماع نابليون الثالث فقد كان طبيعياً

ان تكون الى جانب بسمارك في حروبه مع فرنسا . ولما اتم بسمارك استعداده للحرب احكم لعبته الماهرة وجعل نابوليون الثالث يعلن الحرب من جهته على بروسيا عام ١٨٧٠ وهكذا بدت الحكومة البروسية في عين اوروبا بمظهر الضحية الواقعة تحت الاعتداء . وكان الناس يصيحون في باريس : الى برلين، الى برلين ، وخيل لنابوليون الثالث انه سيدخل برلين ظافراً قريباً ولكن ما حدث لم يكن بحسبانه ، اذا نقض الجيش البروسي المدرب على الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية وأوقع بالجيش الفرنسي الهزائم المنكرة وبعد بضعة اسابيع وقع نابوليون وجيشه اسرى في ايدي الالمان في (سيدان) .

وكان ذلك نهاية الامبراطورية النابولونية الثانية في فرنسا ، فقامت على اثرها حكومة جمهورية في باريس ويعود سقوط نابوليون الى اسباب عديدة كان اهمها سياسته التعسفية . فقد حاول ان يصرف انظار الشعب عن المشاكل الداخلية بالانغماس في الحروب الخارجية (كما يفعل كثير من الملوك والحكومات المضطربة) ولكن فشله ختم مطامعه .

وتأسست في باريس حكومة الدفاع القومي التي قدمت شروط الصلح لبسمارك فرفضها وفرض شروطاً قاسية رفضتها هذه الحكومة وفضلت مواصلة القتال . فضرب البروسيون حصاراً على باريس واقامت جيوشهم في فرساي وما يحيط بها واخيراً سقطت باريس وقبلت بشروط بسمارك القاسية ، ففرض عليها تعويضات هائلة واقتطع منها مقاطعتي الالزاس واللورين اللتين كانتا جزءاً من فرنسا لمدة ٢٠٠ عام .

وشهدت فرســـاي قبيل سقوط باريس الآنف الذكر مولد امبراطورية جديدة في يناير من عام ١٨٧١ عندما أعلن ملك بروسيا قيصراً لالمانيا الموحدة في قصر فرساي في قاعة لويس الرابع عشر الفخمة . واجتمع فيها الامراء والممثلون الالمان ليعبروا عن ولائهم ومبايعتهم لقيصر المانيا الجديد . وهكذا اصبحت اسرة هوهنزلرن الملكية البروسية اسرة امبراطورية لألمانيا الموحدة التي هي اليوم من اكبر دول اوروبا .

وبينما كانت هذه الاحتفالات تملأ جو فرساي ، كانت باريس مجللة بالحزن والصغار ، والشعب يقاسي من الكوارث المتعاقبة ، وليست لديه حكومة ثابتة. وانتخب عدد من اتباع الملكية في مجلس الامة ولكن هؤلاء حاولوا ارجاع الملكية ، فحاولوا تجريد الحرس الوطني صاحب الميول الجمهورية من السلاح . فهاجت العناصر الديمقراطية والثورية وقامت معلنة (الكومون) في مارس ١٨٧١ وكان ذلك نوعاً من الحكم البلدي ويستمد الوحي من الثورة. والواقع ان الكومون كانت تنحو منحى اشتراكياً ، وكانت بذلك طليعة الثورة الروسية السوفييتية التي قامت فيما بعد .

ولكن حكومة الكومون لم يكتب لها البقاء . فقد حاصرها الملكيون والبورجوازيون خوفاً من تقوي العوام . وقد وقف الألمان في فرساي وغيرها من ذلك موقف المتفرج . ولما عاد الجنود الفرنسيون من اسرهم انضموا الى زعمائهم وحاربوا الكومون وانتصروا عليها في مايو عام ١٨٧١ وقتلوا حوالي ٣٠ الف رجل وامرأة في شوارع باريس ، كما قتل العدد الكبير من اسرى رجال الكومون التي ازعجت اوروبا كثيراً لأنها كانت اول ثورة اشتراكية من نوعها في اوروبا فمع ان الفقراء كانوا في السابق يثورون في وجه الاغنياء ، الا انهم لم يكونوا يفكرون في قلب النظام ذاته الذي يسبب فقرهم. اما ظهور الكومون في باريس فقد كان يحمل في طياته مظاهر الثورة الديمقراطية والثورة الاقتصادية، مما يعد تقدماً كبيراً في الفكر الاوروبي ، واصبحت الاشتراكية بعد اخضاعها في فرنسا تعمل من وراء حجاب للعودة الى المسرح .

ولما كانت فرنسا قد قاست اكثر من ذلك على يد الملكية فانها وطدت العزم على اعلان الجمهورية الثالثة بدستورها الجديد ، وكان ذلك في ينساير ١٨٧٥ وما زالت الجمهورية قائمة في فرنسا . وبالرغم من حنين الاقلية الملكية ، فالظاهر ان فرنسا لن تتحول عن الجمهورية . وهي جمهورية بورجوازية يتحكم فيها الاثرياء من الطبقة الوسطى .

ومع ان فرنسا قد ضمدت جروحها التي اثخنتها بها الحروب الالمانية (١٨٧٠–

١٨٧١) وسددت التعويضات، إلا ان المرارة ظلت تملأ قلوب ابنائها الذين حطمت كبرياؤهم فارادوا الانتقام وغسل العار وارادوا على الاخص استرداد الالزاس واللورين ومع ان بسمارك ابدى عفو المنتصر مع النمسا ، الا انه عامل فرنسا معاملة سيئة قاسية واشترى عدوانها باذلاله لها . وبعد معركة (سيدان) وقبل ان تنتهي الحرب نشر كارل ماركس بياناً تنبأ فيه بان اقتطاع الالزاس من فرنسا (سيولد العداوة الابدية وسيجعل من نهاية الحرب مجرد هدنة لا سلم) وقد صدقت نبوءته هذه : كما صدقت نبوءاته الأخرى .

واصبح بسمارك مستشار الدولة وصاحب السلطة الاولى ونجحت سياسة الحديد والدم ولو الى حين واعتنقتها المانيا وطرحت الافكار المتحررة. واراد بسمارك ان يضع السلطة الكاملة في يد الملك لعدم ايمانه بالديمقراطية . بيد ان قيام الصناعة والطبقة العاملة وقوتها خلق مشاكل ومطالب اساسية . وكان علاج بسمارك ذا شقين: الشق الاول تحسين حالة العمال والشق الآخر مقاومة الاشتراكية. وقد حاول بسمارك استمالة العمال واقصاءهم عن التطرف فقام بسن التشريعات الاجتماعية مثل تشريعات تقاعد الكبار والتأمين والمساعدة الطبية للعمال وغيرها. وقد كانت المانيا سباقة في هذا الميدان ، على ان انجلترا التي سبقتها في المضمار الصناعي لم تصل الى كثير من الاصلاحات حتى ذلك الحين. ولم ينجح هذا العلاج تماماً ، اذ ترعرعت المنظمات العمالية وظهر قادة عماليون مبرزون مثل (لاسال) الذي ربما كان افصح خطباء القرن التاسع عشر والذي توفي في مبارزة مع احد خصومه ؛ ووليام لوبكنخت الثائر المقدام الذي كاد يقتل ولكنه نجا وعمر ؛ وكارل بن لوبكنخت الذي واصل الكفاح من اجل الحرية الى ان قتل عند اعلان الجمهورية عام ١٩١٨ ؛ وكارل ماركس الذي قضى معظم عمره منفياً عن وطنه والذي سأحدثك عنه في فصل آخر .

فظلت المنظمات العمالية تتقوى الى ان الفت في عام ١٨٧٥ الحزب الديمقراطي الاشتراكي . ولكن بسمارك لم يكن يسمح بذلك ، فاستغل فرصة محاولة اغتيال القيصر وشن هجوما عنيفا على الاشتراكية. وسنت في عام ١٨٧٨ قوانين لمقاومة

الاشتراكية ومنع نشاطها وكان هـذا النظام شبيهاً بالاحكام العرفية بالنسبة للاشتراكية ، وطرد فعلاً عدد كبير منهم من البلاد او اودع السجن . وذهب اكثر المطرودين الى امريكا فكانوا نواة الاشتراكية فيها . اما الحزب الديمقراطي الاشتراكي فإنه لم يزل من الوجود مع تضعضعه الى ان عـاد الى قوته فيما بعد . ولكن بعض النجاح يغير الاحزاب احياناً . وهذا ما حصل للحزب الديمقراطي الاشتراكي في المانيـا اذ كثر اعضاؤه (اصحاب الرواتب) وكثرت املاكه ، فتوقف نشاطه الثوري .

وفي عام ١٨٨٨ اعتلى عرش المانيا القيصر ويلهلم الثاني الذي كان معجباً بالقوة والسلطة فاختلف مع بسمارك وطرده من منصبه ، ولكن خلع عليه لقب امير . غير ان بسمارك امتلأ غيظاً ونقمة على الملكية وقضى بقية عمره في املاكه . وقد قال لأحد اصدقائه : « كنت عند تولي منصبي ازود نفسي من معين لا ينضب من الحنين والاحترام للملكية . ولكني مع الأسف ارى ذلك المعين يجف وينضب . لقد رأيت ثلاثة من الملوك على حقيقتهم فلم يكن منظرهم ساراً » .

وامتد عمر هذا الرجل الحديدي حتى توفي عام ١٨٩٨ عن ثلاثة وثمانين عاماً . ولكن شبحه ظل مدة كبيرة مخيماً على المانيا وحافزاً لمن خلفه . غير ان الخلف لم يصلوا الى علو الهمة التي كانت للسلف .

انتصار العلم

٣ فبراير ١٩٣٣

●

لقد حدثتك عن الشعراء ، واحدثك الآن عن العلماء . وما زال النـــاس يعتبرون الشعراء يعيشون في عالم الخيال بينما العلماء يحققون المعجزات ويتمتعون بنفوذ واحترام كبيرين . ولكن ذلك المركز لم يتوفر لديهم قبل القرن التاسع عشر إذ كانت حياتهم في اوروبا مجرد مجازفة وكثيراً ما قادتهم الى حتفهم . وقد انبأتك كيف حرق العالم جيوردانو برونو في روما على يد الكنيسة. اما جاليليو فانه كاد يُلقى في النار لقوله بدوران الارض حول الشمس ، ولم ينجه من النار الا اعتذاره وتراجعه عن اقواله . وكانت هذه هي سنة الكنيسة في مناصبةالعداء العلم والافكار الحديثة . فللدين في اوروبا وغيرها عقائد خاصة ، وعلى اتباعه ان يسلموا بها دون تشكك وتساؤل . اما العلم فان نظرته الى الاشياء تختلف عن ذلك لأنه لا يقبل اي شيءافتراضاً ، ولا يمكنه التمسك بعقائد معينة ،لأن مهمته استخدام العقل للوصول الى الحقيقة عن طريق التجارب . وهي نظرةعلى طرف نقيض من النظرة الدينية ، مما يفسر لنا قيام النزاع بين الطرفين .

واعتقد ان التجارب قد عرفت عند شعوب عديدة في جميع العصور . ويقال ان الهند القديمة وصلت الى درجة راقية من علم الكيمياء والجراحة ، ولا يمكن ان يحصل هذا الا بعد تجارب متعاقبة. وقد قام الاغريق القدماء ايضاً بالتجارب. اما الصين ، فقد اطلعت مؤخراً على مقتطفات لكتاب صينيين عاشو قبل ١٥٠٠

سنة تشير الى انهم عرفوا نظرية التطور والدورة الدموية واعطاء المخدرات قبل الجراحة . ولكن جهلنا بتلك العصور يمنعنا من وضع الاستنتاجات المفصلة . فلو فرضنا ان الحضارة القديمة قد توصلت الى هذه الوسائل فلماذا اهملتها ؟ ام انهم لم يلتفتوا الى التقدم في هذا الميدان ؟ وهنالك اسئلة كثيرة لا نستطيع الاجابة عليها .

وكان العرب شديدي الشغف باجراء التجارب ، وقد اخذ ذلك عنهم الاوربيون في العصور الوسطى ، ولكن لم تكن جميع تجاربهم علمية . فقد كانوا يبحثون عما يسمى (حجر الفلاسفة) الذي افترضوا انه يحيل المواد العادية الى ذهب وقد بذل بعض الناس حياتهم في اجراء التجارب الكيمائية المعقدة لكشف السر عن تحول المواد ، وعرف ذلك بعلم الكيمياء . وبحثوا ايضاً عن (اكسير الحياة) الذي يحقق الخلود . ولا يوجد لدينا مستند سوى القصص الخرافية ، على اكتشاف هذا الاكسير او الحجر العجيب . هذه اذن اعمال من السحر تهدف الى الحصول على الثراء والجاه والحياة الطويلة ، ولم يكن فيها كثير من روح العلم الذي لا تربطه بالسحر والشعوذة اية صلة .

وتطور الاسلوب العلمي في اوروبا تدريجياً . ومن ابرز الاسماء في تاريخ العلم في انجلترا اسحق نيوتون الذي عاش بين عامي ١٦٤٢ – ١٧٢٧ . فقد اكتشف قانون الجاذبية اي كيفية سقوط الاشياء على الارض ، واستطاع بهذا القانون والقوانين الاخرى التي اهتدى اليها ان يفسر حركات الشمس والكواكب . وبدت نظرياته كأنها معللة لكل شيء مهما كبر او صغر فنال نيوتون شهرة كبيرة .

وبدأت الروح العلمية تتغلب على عقيدة الكنيسة ، ولم تعد الاخيرة قادرة على كبت انفاس الاولى واحراق اصحابها فراح العلماء يعملون ويجربون ويجمعون المعلومات والحقائق وخصوصاً في انجلترا وفرنسا ، وبعد ذلك في المانيا وامريكا . وهكذا زادت المعلومات والعلوم . وتذكرين ان القرن الثامن عشر في اوروبا كان العصر الذي سادت فيه النظرية العقلية بين الطبقات المتعلمة . فهو القرن الذي ظهر فيه فولتير وروسو وكثير من العظماء والكتاب الفرنسيين الذين كتبوا في

كل المواضيع واحدثوا ثورة في العقل البشري ، فكأنهم نسجوا جنين الثورة في رحم هذا القرن . وقد سايرت هـذه النظرية العقلية النظرة العلمية ، وعمل كلاهما على مقاومةَ نظرة الكنيسة الجامدة .

وقد اخبرتك ان القرن التاسع عشر كان – فيما كان – عصر علم . فقـد كان الفضل في قيـام الثورة الصناعية والتطور الصناعي والتطور السريع على وسائل النقل راجعاً الى العلم . اثرت المصانع العديـدة على وسائل الانتـاج ، كما قصرت السكك الحديدية والبواخر المسافات بين العالم ، وجاء التلغراف الكهربائي ليزيد الى عجائب العلم . فتدفقت الثروة على انجلترا من اطراف امبراطوريتها الواسعة . ولا شك ان هذا قد هز الافكار القديمة وقلل من اهمية الكنيسة لان قيام الحياة الصناعية مقام الحياة الزراعية جعل الناس يفكرون بعلاقاتهم فيما بين بعضهم البعض من زاوية اقتصادية اكثر من تفكيرهم القديم المبني على العقيدة الكنسية

وفي عام ١٨٥٩ نشر كتاب في انجلترا فقام على اثره النزاع بين عقيدة الكنيسة والنظرة العلمية . ذلك الكتاب هو (اصل الانواع) لمؤلفـه (شارل داروِن) . ولم يكن داروِن من اعاظم العلماء ، كما لم يكن قوله جديداً كلياً . فقـد سبقه عدد من علماء الجيولوجيا والعلماء الطبيعيين وجمعوا الكثير من المعلومات. بيد أن الكتاب سجّل طفرة علمية وخلق اهتماماً كبيراً وساعد على تغيير النظرة الاجتماعية اكثر من اي عمل آخر . وقد نتج عن هذه الهزة العنيفة خلود اسم داروِن .

تجول داروِن في امريكا الجنوبية والمحيط الهادي كعالم طبيعي وجمع كمية وافرة من المعلومات استخدمها في اظهار كيفية تطور كل نوع من الحيوانات باختيار الطبيعة له . فقد كان الناس يعتقدون قبل ذلك ان الله قد خلق كل نوع وصنف من الحيوانات (بما في ذلك الانسان) على حـــدة ، وانه بقي دون تطور حتى ذلك اليوم ، اي انه لا يمكن تحوله الى نوع آخر اما داروِن فانه اورد امثلة فعلية تثبت ان الاجناس قد تغيرت من جنس لآخر بطريقة تطور عـادية بحكم اختيار الطبيعة للأصلح . فاذا حصل تغير طفيف في احد الانواع وكان في ذلك أي فائدة له او مساعدة في بقائه ، فان هـذا التغيير يتحول الى تطور دائم

لأن عدداً اكبر من هذا النوع سيكتب له البقاء وبعد مدة تصبح لهذا النوع الاغلبية فيطغى على غيره . ويستمر هذا التغيير والتبديل ويتبع الواحد منها الآخر حتى ينشأ نوع جديد تقريباً . ومع مرور الزمن تنشأ انواع جديدة عديدة بفضل اختيار الطبيعة الأصلح للبقاء . وينطبق هذا على النبات والحيوان والانسان . ويجوز حسب هذه النظرية ان يوجد اصل واحد يشترك فيه جميع انواع النبات والحيوان الموجودة على سطح الارض

وبعد بضع سنوات من نشر ذلك الكتاب ، نشر داروين كتاباً آخر بعنوان (أصل الانسان) طبق فيه نظريته السابقة على الانسان ومع ان فكرة التطور واختيار الطبيعة الأصلح معترف بها الآن لدى معظم الناس ، الا ان الناس في السابق كانوا في بلبلة من امرها حتى جاء اتباع داروين ونشروها . والواقع ان الانسان نفسه يستطيع ان يطبق نظرية انتقاء الأصلح بطريقة اصطناعية عندما يجري عمليات تلقيح تناسلية للحيوانات والنباتات والفواكه والزهور. فكثير من الحيوانات والنباتات القوية الموجودة اليوم هي نتيجة تلقيح اصطناعي فاذا قدر الانسان ان يجري هذا التغيير وان يخرج انواعاً عديدة في فترة يسيرة من الزمن، فما الذي يعسر على الطبيعة عمله في بحر مئات والوف من السنين الغابرة ؟ وان زيارة واحدة الى متحف التاريخ الطبيعي في ساوث كنسنغتون في لندن ، لترينا كيف ان النباتات والحيوانات تعمل باستمرار على التكيف بالبيئة الطبيعية التي تظهر فيها

ولم تكن هذه الأمور مألوفة لدى الناس في زمن داروين كما هي مألوفة لنا الآن . فقد كان معظم اهل اوروبا في ذلك الحين ما زالوا يؤمنون بالخليقة كما جاءت في التوراة قبل ٤٠٠٠ سنة من مجيء المسيح ، وان كل نبتة او حيوان خلقت على حدة بعد ان خلق الله الانسان. وكان الناس يؤمنون بالطوفان وسفينة نوح التي حمل فيها من كل زوجين اثنين حتى لا تبيد الانواع وهذه العقيدة لم تكن متمشية مع نظرية داروين والجيولوجيين الذين حسبوا عمر الارض بملايين السنين لا بمجرد ستة آلاف سنة وقد خلق هذا التباين بلبلة في عقول الرجال

والنساء ، وكثير من الرجال الطيبي القلب اصبحوا في حيرة من امرهم ، لأن دينهم يدعوهم لاعتقاد شيء وعقلهم ومنطقهم يدعوانهم الى اعتقـاد شيء آخر . وهكذا يكون الناس عندما تتزعزع عقائدهم القديمة وتنتابها صدمـة كبرى فيصبحون في حيص بيص ولا يعرفون كيف يسيرون ولكن الصدمة التي تكشف لنا عن الحقيقة هي في الواقع نعمة كبيرة .

هكذا كانت المشادة على أشدها في أوروبا وانجلترا بـين العلم والدين ولا حاجة لمعرفه أيهما سينتصر . فقد اعتمد العالم الصناعي الجديد على العلم ولا يمكن اهمال العلم في هذا العالم . فانتصر العلم اذن الى مدى بعيد واصبحت عبارة الاختيار الطبيعي ، وعبارة بقاء الأصلح ، من العبارات الشائعة على السنة النـاس الذين اخذوا يستعملونها دون فهم صحيح لمعناها . وقد ذهب داروين في كتابه (اصل الانسان) الى احتمال وجود أصل واحـد يجمع بين الانسان وبعض القردة ، ولكنه لم يستطع العثور على امثلة تبين مراحل التطور المختلفة ، مما جعل الناس يتفكهون بنكتة (الحلقة المفقودة) . والغريب في الامر ان الطبقات الحاكمة حوروا نظرية داروين لخدمة مآربهم الخاصة معتقدين انها تقيم دليلاً آخر على حقهم في السيطرة على غيرهم باعتبار انهم اصلح الموجود للبقاء في معركة الحياة وان اختيار الطبيعة لهم وضعهم على قمة الشعب للقيام بمهام الحكم واتخذ هذا الادعاء حجة تبرر حكم طبقة لطبقة اخرى وجنس بشري لجنس آخر ، كما اتخذ حجة لبقـاء الاستعمار وتفوق الجنس الابيض على غيره وقـد ظن بعض شعوب الغرب ان درجـة تقدمهم في سلم التطور ترتفـع بنسبة زيادة سيطرتهم وقوتهم وقسوتهم على غيرهم .

ومع ان نظريات داروين اصبحت فيما بعد هدفاً لنقد العلماء ، الا ان فكرته العامة ما زالت في رجحان . ومن نتائج قبول الفكرة العامة هذه حمل الناس على قبول فكرة التقدم التي تعني ان الانسان والمجتمع والعالم بأمره كلها سائرة نحو الكمال والتحسن المطـرد . والحقيقة ان داروين لم يكن السبب الوحيد في ذلك لأن اتجاه الاكتشافات العلمية وما جرته الثورة الصناعية من تحول قد هيأ عقل

الانسان لقبول هذه الفكرة ، فجاءت نظرية داروين لتدعمها ، وراح الناس يتخيلون انفسهم سائرين بعزة وافتخار من نصر الى نصر حتى يصلوا هدفهم المنشود من الكمال المنتظر ، مهما كانت درجة هذا الكمال . وغريب حقاً ان تظهر فكرة التقدم في هذا الزمن المتأخر من تاريخ الانسان الطويل ، دون ان توجد قديماً في اوروبا وآسيا أو أي حضارة قديمة فقد كان الناس في اوروبا قبل قيام الثورة الصناعية يعتقدون ان الماضي افضل من الحاضر وان الفترة الكلاسيكية الاغريقية والرومانية اكثر تقدماً وثقافة من الفترات التي اعقبتها ، وان التقدم يسير عكسياً مع سير الزمن بما في ذلك تدهور الجنس البشري أو على الاقل ان الزمن لا يجلب معه اي تقدم .

وتسود الهند ايضاً هذه الفكرة القائلة بتدهور البلاد من عهدها الذهبي الماضي . والاساطير الهندية تقيس الزمن بفترات طويلة كالأحقاب الجيولوجية ، وهي دائماً تبتدىء بالفترة القديمة الجيدة حتى تصل الى الفترة الاخيرة ، وهي فترة الشقاء والتعاسة .

واذن فان فكرة تقدم الانسان فكرة حديثة كما يظهر من معرفتنا المحدودة للتاريخ ، وربما تغيرت نظرتنا اذا زادت معرفتنا للتاريخ . ولا نجد حتى في يومنا هذا تحمساً لفكرة (التقدم) بالقدر الذي كان سائداً في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . واذا كان التقدم يحملنا على ان يهلك بعضنا بعضاً على نطاق واسع كما حصل في الحرب العالمية فلا بد ان هذا النظام مبني على اساس خاطىء . وعلينا ان نتذكر ان نظرية داروين المسماة (بقاء الأصلح) لا تعني بقاء الأحسن او الأفضل للبشرية . وهذه امور نتركها للراسخين في العلم . ولنلاحظ هنا ان الفكرة القديمة التي ترى ان المجتمع ثابت لا يتبدل أو أنه يتدهور قد انهزمت امام العلم الحديث في القرن التاسع عشر وحلت محلها الفكرة التي ترى المجتمع يتطور تطوراً اوتوماتيكياً . وقد تطور المجتمع بالفعل لدرجة كبيرة جداً .

واری بهذه المناسبة ان اسوق لك بعض ما كتبه في الموضوع احد الفلاسفة الصينيين قبل حوالي ٢٥٠٠ عام . وهو تسون تسي الذي كتب ما يلي في القرن

السادس عشر قبل الميلاد ، اي في عصر بوذا :

« جميع الأحياء متفرعة من نوع واحـد فقط مرت عليه تطورات تدريجية متواصلة ثم تفرعت عنه الاشكال المتعددة المتباينة . ولم يكن التفريق بين هذه الاشكال واضحاً في بادىء الامر بل على العكس من ذلك فانها اكتسبت هـذه الفروق بعد تطور تدريجي متعاقب جيلاً بعد جيل » . وهذا الاستنتاج قريب من نظرية دارون ، مما يجعلنا ندهش من وصول عالم بيولوجي صيني الى ما احتاج العالم لألفين وخمسمئة عام للحاق به .

كلما تقدم القرن التاسع عشر كلما زاد التطور الحاصل في المجتمع فقد أتى العلم بالعجب تلو العجب من الاكتشافات والاختراعـــات التي اذهلت العقل . وكثير من الاكتشافات غيّرت حيـاة الناس الى درجة كبيرة كالبرق والهاتف والسيارة والطائرة . وقد تمادى العلم فقاس السماوات البعيدة والذرة غير المنظورة واجزاءها . وقد خفف ذلك من عناء الناس ويسّر حياة الملايين ، فازداد عـدد السكان في العالم وخصوصاً البلدان الصناعية ولكن المؤسف ان العلم قد كشف عن اساليب الدمار المهلكة . وليست التبعة في ذلك على العلم ذاتـه ، فهو فقط مكن للانسان السيطرة على الطبيعة ولكن الانسان لم يعرف كيف يستغل هذه القوة الجبارة ولا يعرف كيف يسيطر على نفسه فأساء التصرف كثيراً وأفسد ما وهبه اياه العلم . غير ان الزحف العلمي استمر في اجتياحه العالم مدة ١٥٠ عاماً ، وغيّر العالم بشكل يفوق ما فعلتـه آلاف السنين السابقة . والواقع ان العلم قد احدث انقلاباً في شتى نواحي العالم والحياة .

وما زال العلم في زحفه ويزداد تسارعه ولا يعرف الكلل . فاذا ما بوشر ببناء سكة حديدية فان العلم يضع تصميماً افضل من سابقـــه قبل ان يتم بنـاء تلك السكة . واذا ركبت آلة ضخمـة فلا يمر عام او اثنان حتى تخترع آلة اخرى تفوقها صنعاً وانتاجاً . ويظل السباق سائراً على هذا النحو . وحلت الطاقـــة الكهربائية في زمننا محل البخار ووضعت نهاية للثورة الصناعية العظيمة التي بدأت قبل قرن ونصف من الزمان .

واليوم ينغمس عدد كبير من العلماء والخبراء في خضم العلم الواسع . وعلى رأس هؤلاء ألبرت اينشتاين الذي نجح الى درجة ما في تعديل نظرية نيوتون .

وقد كان التقدم في العلم والاضافات والتبديلات في النظرية العلميـــة كبيرة لدرجة اذهلت العلماء انفسهم وافقدتهم اعتدادهم في انفسهم وبمقـدرتهم وجعلتهم يشكون في استنتاجهم وتنبؤاتهم حول المستقبل .

ولكن هذا التطور الاخير كان من حظ القرن العشرين ، لان القرن التاسع عشر الذي كان للعلماء فيه اعتداد بالنفس وفخر بمـا حققوه من نجـاح ، مما جعل الناس يسجدون اكباراً لهم .

ظهور الاشتراكية

١٣ فبراير ١٩٣٣

●

تحدثت اليكِ في الرسالة الاخيرة عن تقدم الديمقراطية ، وعليك ان تذكري انه كان تقدماً مشحوناً بالكفاح لان الذين لهم مصلحة في بقاء نظام رجعي معين يكرهون زوال ذلك النظام ويعملون كل ما في وسعهم للدفاع عنه . ولكن سنة التطور والتحسن تتطلب التحول ، ولا بد للنظام او الحكومة المعينة ان تترك مكانها للنظام او الحكومة المعينة التي تفضلها . ولا بد لأنصار التقدم من مهاجمة النظام القديم ، مما يجعل سبيلهم وعراً ومحفوفاً بالخطر الذي يصدر عن المنتفعين بالوضع القائم والذين يخشون زواله. وقد وقف الحكام في اوروبا الغربية في وجه كل خطوة من خطوات التقدم . واما انجلترا فان الحكومة فيها كانت ترضى باتخاذ خطوة معينة من التطور تحاشياً لقيام ثورة عنيفة ، ولان الطبقة الجديدة من اصحاب الاعمال كانت تعتقد ان اعطاء شيء من الديمقراطية ينتج لهم بعض الفوائد المادية .

واذكرك ثانية ان الآراء الديمقراطية في النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت وقفاً على المتعلمين . اما العوام فانهم تأثروا كثيراً بالتطور الصناعي ، اذ هجروا اراضيهم وقصدوا المصانع ، مؤلفين بذلك طبقة العمال الذين اكتظت بهم المصانع والمدن الصناعية القذرة القريبة من مناجم الفحم . وقد بدأت أحوال العمال تتطور بسرعة وتتربى في اذهانهم افكار جديدة .

وكانوا يختلفون عن اولئك الفلاحين والصناع القدماء الذين قدموا في السابق الى المصانع هرباً من الجوع . وكما ان انجلترا سبقت البلدان الاخرى في ميدان التصنيع فانها كذلك سبقت غيرها في تطوير حالة الطبقة العاملة . وقد كانت حالة هذه الطبقة في المصانع والبيوت مما يرثى لها من الشقاء والتعاسة . وكان النساء والاطفال يعملون ساعات طويلة . وكان اصحاب المصانع يعارضون كل اصلاح حتى ولو كان عن طريق التشريع ويعدون ذلك تدخلاً مخزيا في حق الملكية الفردية . وقد تمادى هؤلاء الرجعيون لدرجة انهم عارضوا الاصلاح الصحي للمنازل الخصوصية .

وكان العمال المساكين يموتون موتاً بطيئاً من الجوع والعمل المضني . وقد انهكت الحروب النابوليونية بلدان اوروبا فعم الكساد وقاسى العمال الأمرين ، فحاولوا تأسيس الجمعيات لحماية مصالحهم وتحسين احوالهم . وقد كان في انجلترا في السابق نقابات لاصحاب المهن والحرف الفنية ولكنها كانت تختلف عن الجمعيات التي اراد العمال انشاءها : غير ان الطبقات الحاكمة في بريطانيا سنت القوانين التي تمنع العمال من مجرد الاجتماع ومناقشة شكاواهم، وكل ذلك خوفاً من الشبح الذي خلفته الثورة الفرنسية . ودعيت هذه القوانين (قوانين التكتل) وهكذا قام النظام والقانون» في انجلترا (كما هي الحالة في الهند اليوم) بتحقيق الهدف الموضوع له وهو خدمة مصالح وجيوب تلك الحفنة المتسلطة على الحكم .

ولكن القوانين الجائرة لم تزد العمال الا شقاء وتصميماً ، فأسسوا جمعيات سرية يقسم العضو فيها اليمين بعدم افشاء السر ، ويجتمع افرادها في الاماكن غير المطروقة والساعات المتأخرة من الليل . وكلما افتضح امرهم ، قدم الاعضاء امام المحاكم بتهمة التآمر وحل بهم العقاب الشديد . وكثيراً ما حطم العمال الآلات واحرقوا المصانع او قتلوا اصحابها ، واخيراً رفع الحظر عن نقابات العمال (عام ١٨٢٥) وبدأت النقابات بالظهور . ولكن معظم هذه النقابات ظلت الى امد بعيد لا تضم الا الصناع المهرة .

وهكذا اتخذت الحركة العمالية شكل نقابات عمالية تسعى الى تحسين احوال

العامة عن طريق المساومة الجماعية . وكان السلاح الوحيد في يد العمال الاضراب عن العمل . ومع اهمية هذا السلاح ، فإن اصحاب المصانع كانوا يملكون سلاحاً اقوى منه وهو الامتناع عن دفع الاجور وارغـــام العمال بذلك على الخضوع والرجوع الى العمل خوفاً من المجاعة وهكذا بقي الكفاح مستمراً على هـذه الصورة ولم يتحقق الا قليل من النجاح . ولم يكن للعمال نفوذ على البرلمان لانهم لم يملكوا حق التصويت . اما قانون الاصلاح الصادر عام ١٨٣٢ بعد معارضة شديدة فانه لم يمنح حق التصويت سوى الاغنياء من الطبقة الوسطى مغفلاً كلاً من العمال والفقراء من الطبقة الوسطى .

وقد ظهر بين اصحاب المصانع في مانشستر رجل انساني طيب القلب اسمه (روبرت اوين) هالته حالة العمال المحزنة فادخل تحسينات عديدة في مصنعه وحسن حالة عماله ، وحاول اقناع امثاله من اصحاب المصانع ان يحذوا حذوه . وكان هذا احد الاسباب التي حملت البرلمان البريطاني على اصدار قانون المصانع عام ١٨١٩ لحماية العمال من جشع الآخرين . وقد حرم هذا القانون على الآخرين تشغيـــل الاولاد البالغين من العمر التاسعة فما دون اكثر من تسع ساعات في اليوم. وهذا الاصلاح نفسه مثل كاف على حالة العمال السيئة في ذلك الحين .

ويقال ان روبرت اوين اول من استعمل كلمة اشتراكية ، عام ١٨٣٠ واذكر هنا ان فكرة مساواة الغني بالفقير او توزيع الثروة بالتساوي لم تكن فكرة حديثة على العالم . فقد ظهرت هذه الفكرة في الماضي عندما كانت الجماعات تملك الثروة والاراضي مشاعا فيما بينها . ودعيت هذه العادة بالشيوعية الفطرية ، وعرفت عند الجماعات البدائية ووجدت في بلدان عديدة بما فيها الهند. اما الفكرة الاشتراكية الجديدة فانها تختلف عن مجرد كونها فكرة عامة غامضة للمساواة ، بل كانت اكثر تحديداً وكان هدفها الأول تطبيق العدالة على النظـــام الصناعي الجديد . كانت فكرة اوين ترتكز الى قيام جمعيات تعاونية، وان يكون للعامل حصة في المصنع . وقد أسس أوين نفسه مصانع ومدناً عمالية مثالية في كل من انجلترا واميركا . ولكنه لم يستطع اقناع اصحابه الآخرين والحكومة على تبني

افكاره وبالرغم من ذلك فقد صاغ اوين كلمة الاشتراكية التي اعتنقها الملايين من البشر .

وكانت الصناعة البريطانية في هذه الاثناء تتقدم وتحقق النجاح تلو النجاح ، وفي نفس الوقت كانت مشاكل الطبقة العاملة ايضاً في ازدياد . وقد نجم عن الرأسمالية زيادة في الانتاج مما ساعد على زيادة عدد السكان ونشأت المؤسسات الصناعية الضخمة وتعاونت فيما بينها على اصحاب الاعمال الصغيرة . وانهالت الثروة على انجلترا ، وانفق معظمها في بناء مصانع جديدة ومد السكك الحديدية او انشاء المؤسسات الاخرى . وحاول العمال تحسين احوالهم عن طريق الاضرابات ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً فقاموا بمؤازرة الثورات التي قامت في اوروبا عام ١٨٤٨ .

ومع ان نجاح النظام الرأسمالي بهر انظار العالم، إلا انه ما زال هناك من المفكرين والمصلحين والتقدميين ومحبي الانسانية الذين ساءهم ما جرته الرأسمالية من تنافس قضى على الكثيرين والشقاء الذي انصب على العمال ، بالرغم من زيادة ثروة البلاد. وفكر هؤلاء في كل من انكلترا والمانيا وفرنسا في تغيير هذا النظام الرأسمالي ، فاقترحوا حلولاً عديدة تتلخص كلها في الكلمات الآتية : : « اشتراكية » «جماعية» « ديمقراطية اشتراكية » وهذه تتقارب بعضها من بعض وتقوم بينها علاقة غامضة. وكان المصلحون متفقين فيما بينهم ان اصل الداء يكمن في حرية الملكية الفردية والسيطرة على الصناعة ، اذ لو وضعت الملكية او السيطرة في يد الدولة (او على الاقل في ملكية الاراضي والصناعات الهامة) لزالت امكانية استغلال الآجرين العمال . وبينما راح المصلحون في بحثهم عن بديل للنظام الرأسمالي ، راح اصحاب هذا النظام يقوونه ويحاولون انعاشه .

كان دعامة هذه المبادىء الاشتراكية المثقفون من الناس وروبرت اوين من اصحاب المصانع . واستمرت حركة اتحادات العمال في جهادها بأساليب جديدة رامية الى زيادة الاجور وتحسين احوال العمال . وقد كانت متأثرة بالمبادىء الاشتراكية الجديدة التي هي بدورها تأثرت بجهاد العمال . وتطورت الاشتراكية في بلدان اوروبا الرئيسية وهي انجلترا وفرنسا والمانيا على اسس متباينة حسب

قوة وحالة الطبقة العاملة في كل واحد منها . وكانت الاشتراكية الانجليزية على الاجمال تؤمن بالتطور التدريجي البطيء ، بينما كانت الاشتراكية في القارة الاوروبية راديكالية ثورية . اما امريكا فانها كانت تختلف على الحالتين لأنها بلد واسع يحتاج الى الايدي العاملة ، فلم تقم فيها حركة عمالية الا في فترة متأخرة.

وظلت الصناعة البريطانية منذ نصف قرن مسيطرة على العالم مدة جيل من الزمن واصبحت الثروة تتدفق عليها من ارباح صناعتها ومن ارباح استغلال الهند والمناطق الاخرى التابعة لها . وقد تسرب جزء من هذه الارباح الى ايدي العمال مما رفع مستواهم الى درجة لم يسبق لها مثيل وقد أزالت هذه النعمة دواعي الثورة التي كانت تداعب خيال العمال واصبحت الاشتراكية البريطانية اكثر الاشتراكيات اعتدالاً ودعيت بالفابية نسبة الى القائد الروماني الذي كان يداور العدو حتى ينهك قواه دون ان يشتبك معه وجهاً لوجه . وفي عام ١٨٦٧ ادخل تعديل آخر على قانون الانتخابات اعطى البعض من عمال المدن حق التصويت . وكانت اتحادات العمال في ذلك الحين من الهدوء بحيث اعطى اعضاؤها اصواتهم الى مرشحي حزب الاحرار .

وبينما كانت انجلترا في رخاء ودعة ، كانت بقية القارة الاوروبية تستقبل دعوة مبدئية جديدة بحماس واندفاع ، تلك هي « الفوضوية » . وهي كلمة لا تسر من لا يعرف عنها شيئاً ، بينما هي في الواقع ترمي الى قيام مجتمع تزول منه سلطة الحكومة المركزية اذا امكن ومنح الافراد حرية كبيرة ، وكان مثلها الأعلى « الايمان بمجتمع اساسه انكار الذات والتضامن واحترام حقوق الغير عن طيبة خاطر » . وعلى الدولة الا تقوم باستعمال القوة والاكراه . قال « ثورو » الامريكي : « خير الحكومات من لم تحكم ابداً ، وعندما يستعد الناس لذلك فانهم سيختارون حكومة من هذا النوع » .

وهذا مبدأ معقول يطالب بالحرية للجميع وعدم الانانية والاحترام المتبادل والتعاون الاختياري . وما ابعد عالمنا المشحون بالأنانية والعنف عن مثل هذا المبدأ ولا بد ان تكون رغبة الفوضويين في زوال الحكومة المركزية او

وجود اقل نوع ممكن من الحكومات ناتجة عن الحكم الاستبدادي الاوتوقراطي الذي قاسى منه الناس كثيراً وطويلاً . لقـــد قاسوا من طغيان الحكومات فأرادوا زوالها واعتقد الفوضويون كذلك ان الدولة في النظام الاشتراكي ربما مالت الى الاستبداد بسبب سيطرتها على جميع وسائل الانتاج . وهكذا كان الفوضويون اشتراكيين ولكنهم كانوا يشترطون اعطاءالفرد حرية اكبر. ومع ان الاشتراكيين كانوا يوافقون على مبدأ الفوضوية كهدف اخير ،الا انهم كانوا يعتقدون بوجوب قيام حكومة مركزية قوية في بادىء الامر . وهكـذا كان المبدآن مختلفين في بعض الوجوه ومتشابهين في وجوه اخرى .

ادى قيام الصناعة الحديثة الى قيام طبقة منظمة من العمال. اما طبيعة الفوضوية فلم تسمح لها باتباع التنظيم والانتشار في البلدان الصناعية التي قامت فيها اتحادات العمال المنظمة. وهكذا ظلت انجلترا والمانيا خالية من (الفوضوية) بينما انتشرت وتوعرعت في جنوب وشرق اوروبا المتخلفة في المضمار الصناعي . وكلما سار التصنيع الى هذه البلاد ضعفت الفوضوية الى ان اصبحت عقيدة بائدة، باستثناء اسبانيا المتخلفة كثيراً من الناحية الصناعية .

وربما كانت الفوضوية عقيدة لا غبار عليها من الناحية المثالية، غير انها اصبحت ملجأ لا للمحتالين والمظلومين فقط ولكن للأنانيين الذين ارادوا التستر بها والكسب عن طريقها . وقد ادى ذلك الى العنف الذي صار يلازمها ويؤخذ عليها . ولما لم يستطع الفوضويون تغيير المجتمع بالصورة التي ارادوها فانهم ارادوا ان يدعوا الى مبدئهم بأسلوب مستحدث من الدعاية وهو القيام باعمال محسوسة من مقاومة الطغيان والتضحية بالنفس وقاموا بثورات، وكان المشتركون في هذه الثورات لا يأملون بالفوز ولكنهم مع ذلك كانو يعرضون انفسهم للخطر خدمة لعقيدتهم. وقـد احدث هذه الثورات فلجأ اتباع المذهب الى الأعمال الارهابية كإلقاء القنابل واغتيال الملوك وكبار الموظفين . وكان ذلـــك دليلاً على يأس الحركة وضعفها . وتلاشت الحركة في نهـاية القرن التاسع عشر . وقد تخلى كثير من انصارها عن فكرة الدعاية بالعمل والاغتيال والقاء القنابل بقصد الإرهاب.

وسأذكر لك بعض اسماء الفوضويين المشهورين . واذكري انهم كانوا في حياتهم على غاية من اللطف والانسانية والمثالية . واول زعماء الحركة بيير برودهون الفرنسي الذي عاش بين عامي ١٨٠٥ و١٨٦٥ وهناك ميشيل باكونين النبيل الروسي وهو من اشهر زعماء الحركة العمالية في جنوب اوروبا . وقد اختلف مع ماركس فطرده الاخير من الاتحاد العالمي الذي اسسه . والزعيم الثالث هو بيتر كروبكتين الامير الروسي الذي كتب عن الفوضوية كتباً ممتعة ومواضيع اخرى . والرابع هو انريكو مالاتستا آخر الفوضويين في القرن التاسع عشر

وسأقص عليك قصة طريفة عن مالاتستا . فقد مثل امام محكمة ايطاليا واتهمه محامي الحكومة بالتأثير الكبير على العمال حتى انه قلب اخلاقهم لدرجة اوقفت الاجرام . واذا توقف الاجرام فماذا تفعل المحاكم ؟ وهذا يستلزم العقاب ، فحكم على مالاتستا بالسجن مدة ستة شهور !

ومن المؤسف ان يقرن امم الفوضوية بالعنف مع انها فلسفة ومبدأ مثالي اعجب به كثير من الناس . وهي كفلسفة ما زالت بعيدة الملاءمة لزماننا الناقص وحضارتنا المعقدة التي لا يصلح لها حل ساذج الى هذا الحد.

كارل ماركس ونمو منظمات العمال

١٤ فبراير ١٩٣٣

●

ظهرت في عالم الاشتراكية الاوروبية في منتصف القرن التاسع عشر شخصية فذة ساحرة هي شخصية كارل ماركس الذي ذكرت لك اسمه في رسائلي السابقة. وهو يهودي الماني ولد عام ١٨١٨ ودرس القانون والتاريخ والفلسفة . وقد اصطدم مع السلطات الالمانية بسبب جريدة كان يقوم باصدارها فرحل الى باريس حيث احتك بأناس جديدين وقرأ الكتب الاشتراكية والفوضوية واعتنق المبدأ الاشتراكي . وتقابل هنا بألماني آخر كان قد استقر في انجلترا واصبح صاحب مصنع للقطن واسمه (فردريك انجلز) . وكان انجلز متبرماً من الحالة الاجتماعية القائمة آنذاك ، وكان عقله يفكر في ايجاد علاج للفقر والاستغلال الذريع المحيط به . وقد استهوته فكرة روبرت أوين ومحاولته الاصلاحية فاصبح من انصاره. ولما قدم الى باريس واجتمع بكارل ماركس لأول مرة تغيرت افكاره مرة اخرى . واصبح الرجلان صديقين حميمين ذوي آراء واحدة وعاملين بجهد كبير في سبيل هدف واحد . وكان سنهما متقاربا وكذلك تعاونهما لدرجة ان معظم الكتب التي أصدراها حملت اسميهما معا .

وقد طردت حكومة لويس فيليب الفرنسية كارل ماركس من باريس فتوجه الى لندن وعاش فيها سنوات عديدة قضاها في مطالعة الكتب الموجودة في المتحف البريطاني . وقد أجهد نفسه وصقل نظرياته وكتب عنها . ولكنه بالرغم من كل

ذلك لم يكن مجرد بروفسور أو فيلسوف او صاحب نظريات غير عملية ، بل كان يعمل على تطوير وتلقيح المبدأ الاشتراكي الغامض بعض الشيء ووضع الافكار والاهداف الواضحة المحدودة له ، وكان ايضاً يشترك ويقود الحركات والتنظيمات الاشتراكية والعمالية . واثرت عليه كثيراً الأحداث التي جرت في عام ١٨٤٨ ، عام الثورات الاوروبية حتى اصدر في ذلك العام ، بالاشتراك مع انجيلز ، بيانهما الذي اصبح مشهوراً « بالبيان الشيوعي » والذي شرح فيــه المبادىء التي حركت الثورة الفرنسية الكبرى والثورات التي تلتها في عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨ ، وأشار الى عدم ملاءمتها واتفاقها مع الحالات التي كانت قـائمة بالفعل . فانتقدا الهتافات الديمقراطية المترددة آنذاك بالحرية والمساواة والإخاء شارحين انها لا تعني الكثير للشعب المسكين وانها انمـا كانت مجرد قناع روحي يستر مطامع الدولة البورجوازية الحقيقية، ووضعا مختصراً لمبدأهما الاشتراكي، وختما البيان بنداء الى جميع العمال : « يا عمال العالم اتحـدوا ، انـكم لا تخسرون الا قيودكم ، بينما تربحون العالم »

وكان ذلك بمثابة نداء للعمل . وألحقه ماركس بدعاية متواصلة في الجرائد والنشرات وبمحاولات لتوحيد صفوف منظمات العمال . ويبدو انـه كان يحس ان أزمة كبيرة ستحل باوروبا ، فأراد ان يستعد العمال لها وان يجنوا الثمرة الكبرى منها . وقد كان في حسبانه ، بموجب نظريته الاشتراكية ، ان الازمة ستحل لا محالة في النظام الرأسمالي . وقـد كتب في احدى الصحف النيويوركية يقول : « وعلينا الا ننسى ان هناك قوة سادسة في اوروبا لها في اوقات معينـة سيطرة هائلة على كل من القوى الخمس المعروفة بالدول الكبرى. وهذه القوة هي الثورة التي اخلدت موقتاً الى الراحة، ولكنها الآن تسمع نداء الازمات والمجاعات لخوض المعركة ؛ وعند الاشارة الاولى ستهب هذه القوة السادسة وتبرز في ميدان المعركة مدججة بالسلاح وممتشقة الحسام كالالهة منيرڤا الواقفة على جبل اولمبوس . وستكون الاشارة المنتظرة الحرب الاوروبية التي تؤذن بالوقوع . »

ولكن نبوءة كارل ماركس بوقوع الثورة الاوروبية لم تصدق . فقد مضى

ستون عاماً ، وجرت حرب عالمية قبل ان تندلع الثورة التي لم تقم إلا في جزء واحد من اوروبا فقط . وقد رأينا ان محاولة (الكومون) في باريس عام ١٨٧١ قد قمعت دون رأفة او شفقة .

ونجح ماركس عام ١٨٦٤ في عقد اجتماع في لندن كان يضم جماعات متفرقة تدعو نفسها اشتراكية . وكان هناك الديمقراطيون والوطنيون من بلدان اوروبية متعددة خاضعة لنفوذ اجنبي ، وكانت نظرتهم للاشتراكية بعيدة عن جوهرها ، وهدفهم الاساسي تحرير بلادهم وانشاء حكم وطني فيها وكان في الطرف الآخر الفوضويون الذين يريدون ان ينزلوا رأساً الى ارض المعركة. وكان من الشخصيات اللامعة ، الى جانب ماركس الزعيم الفوضوي (باكونين) الذي كان قد فرّ من سيبيريا قبل ثلاثة اعوام بعد ان قضى مدة طويلة في السجون . وكان معظم انصار باكونين من جنوب اوروبا اللاتينية كايطاليا واسبانيا المتأخرتين صناعياً واجتماعياً . وهم من المثقفين العاطلين والعناصر الثورية المختلفة التي لم تجد لها مكاناً في النظام الاجتماعي القائم . وقد جاء معظم انصار ماركس من المناطق الصناعية وخصوصاً المانيا حيث كانت حالة العمال احسن من غيرها . وهكذا كان ماركس ممثلاً لطبقة العمال النامية المنظمة وحسنة الحال بينما كان باكونين يمثل الطبقة الأفقر غير المنظمة من العمال والمثقفين والناقمين .

وكان ماركس ينزع في نظرياته الاشتراكية الى تعليم العمال وتنظيمهم حتى تحين ساعة العمل التي كان ينتظر وقوعها قريباً . اما باكونين وانصاره فقد ارادوا العمل حالاً . وعلى العموم فإن ماركس ربح المعركة واسس (جمعية العمال العالمية) وكانت اولى المؤسسات التي عرفت (بالعالمية) .

وبعد ثلاثة اعوام ، اي عام ١٨٦٩ ، نشر ماركس في المانيا كتابه المعروف بـ (رأس المال) . وهو ثمرة جهود سنين طويلة قضاها في لندن . وقد قدم فيه تحليلاً ونقداً للنظريات الاقتصادية القائمة وشرح فيه نظرية الاشتراكية بتطويل . ولكن الكتاب علمي محض ، عالج تطور التاريخ الاقتصادي باسلوب علمي متجرد دون اللجوء الى الغموض او المثل العليا . وقد عالج بوجه خاص نمو الحضارة

الصناعية الناجمة عن الآلات الجبارة ووضع استنتاجات بعيدة المدى عن التطور والتاريخ والتنازع بين الطبقات في المجتمع الانساني . ودعيت هذه الاشتراكية الماركسية الواضحة المعالم والمسندة بالحجج القوية (بالاشتراكية العلمية) لتمييزها عن الاشتراكية (المثالية) او اليوتوبية الغامضة والتي كانت سائدة قبل ذلك التاريخ . وليس الكتاب سهل القراءة والهضم بل هو ابعد ما يكون عن ذلك. ولكنه بالرغم من صعوبته ، فانه من تلك الكتب النادرة التي أثّرت على مجرى الفكر الانساني وطبعت عدداً كبيراً من الناس بمبادئها ، فاصبحت عاملاً مهماً في تاريخ التطور البشري .

عندما حلت كارثة الكومون الفرنسية عام ١٨٧١ (التي ربما كانت اول حركة اشتراكية واعية) تنبهت الحكومات الأوروبية للخطر واتخذت موقفاً صلباً تجاه حركات العمال . وفي العام التالي عقدت جمعية العمال العالمية التي اسسها ماركس اجتماعاً ، ونجح ماركس في نقل مركزها الى مدينة نيويورك . والظاهر ان ماركس كان يهدف من ذلك العمل التخلص من اتباع باكونين الفوضويين ، وربما كان يعتقد كذلك ان الجو اكثر سلامة هناك من جو الحكومات الاوروبية التي غلت مراجل حقدها على الكومون في باريس . ولكن لم يكن من المستطاع (للعالمية) ان تبقى بعيدة عن عصب حياتها ، اذ كانت اغلب قوتها في اوروبا حيث كانت حركة العمال تعاني الكثير . وهكذا اضمحلت (العالمية) الاولى تدريجياً .

انتشرت الماركسية بين الاشتراكيين الاوروبيين وخصوصاً في المانيا والنمسا حيث عرفت بالديمقراطية الاشتراكية اما انجلترا فانها لم تقبل عليها لانها كانت من الرخاء بحيث لا تلتفت الى اي مبدأ اشتراكي تقدمي . وقد كانت الاشتراكية البريطانية (فابية) وتسير حسب برنامج تطوري معتدل جداً . ولم يكن (الفابيون) على صلة بالعمال بل كانوا من طبقة المثقفين المتحررين . وفي طليعة هؤلاء برناردشو . وخير تعبير عن سياسة هؤلاء ما قاله احد الفابيين المشهورين واسمه (سدني وب) الذي سمى حركتهم (التدرج المحتوم)

اما فرنسا فإن الاشتراكية فيها لم تقم على قدميها بعد زوال الكومون الا

بعد مرور اثني عشر عاماً على ذلك . وقد اتخذت لنفسها طريقاً جديدة وسطاً بين الاشتراكية والفوضوية . ودعيت (بالسنديكالية) او (النقابيـة) من كلمة سنديكا الفرنسية التي تعني نقابة او جمعية عمالية . وكانت النظرية الاشتراكية ترمي الى جعل الدولة التي تمثل المجتمع بأسره مالكة ومسيطرة على وسائل الانتاج اي الارض والمصانع وغيرها . ولكن الخلاف نشب حول المدى الذي يجب ان تمتد اليه الاشتراكية او التأميم، فهناك مثلاً الادوات اليـدوية والآلات المنزليـة البسيطة التي يكون من السخف تأميمها . ولكن الاشتراكيين اجمعـوا على ان يشمل التأميم كل ما يمكن استخدامه لجلب مرابح فردية عن طريق استغلال عمل الآخرين . اما النقابيون فقـد اتفقوا مع الفوضويـين في بغضهم ملكية الدولة وارادوا الحد من سلطتها وجعل كل صناعة خاضعة لسيطرة عمال تلك الصنعة اي النقابة الخاصة بها ؛ وتقوم النقابات المختلفة بانتخاب نوابها الى مجلس عـام يتولى شؤون البلد ويعمل كبرلمان لتصريف الشؤون العامة دون التدخل بشؤون الصناعة الداخلية . وقد دعا النقابيون الى الاضراب ليوقفوا حركة البلاد وحياتها فيتحقق املهم ويطبقوا مبدأهم . اما ماركس فانه لم يوافق على النقابية ابداً ، وان كان هؤلاء قد ادعوا (بعد موت ماركس) انه كان واحداً منهم .

توفي ماركس عام ١٨٨٣ . وكانت قد قامت في انجلترا والمانيا وبعض البلدان الصناعية الاخرى اتحادات قوية للعمال . وبدأت الصناعة البريطانية تفقد عهـد سيطرتها على الاسواق العالمية بسبب ظهور المنافسة الصناعية الالمانية والامريكية وقد ساعد امريكا على نموها الصناعي السريع وفرة مصادرها الطبيعية . واما المانيا فإن حكومة بسمارك والحكومات التي تلتها قد ساعدت الصناعة فيها بطرق عديدة وحاولت ان تربح الى جانبها طبقة العمال بادخال بعض الاصلاحات الاجتماعيـة التي حسنت حالة العمال نسبياً . وقد قام حزب الاحرار البريطاني ايضا باصلاحات اجتماعية مثل تخفيض ساعات العمل وتحسين حالة العمال بعض الشيء ، وساعد هذا على نجاح الحزب فأعطى العمال المعتدلون اصواتهم له ، فلما برزت منافسة البلدان الاخرى في اواخر القرن التاسع عشر ، زال الرخـاء وعم الكساد وتدهورت

اجور العمال . وقد ايقظ هذا الكساد الطبقة العاملة وحرك فيها كوامن الثورة، وجعل كثيراً من الانجليز يتطلعون نحو الماركسية .

وفي عام ١٨٨٩ جرت محاولة اخرى لتأليف اتحاد عمال عالمي . فقد كانت هناك النقابات العمالية والاحزاب العمالية القوية الغنية، وكان بهاموظفون يتقاضون اجوراً مرتفعة . ودعي هذا (بالاتحاد العالمي الثاني) واستمر مدة ربع قرن الى ان قامت الحرب العالمية وكشفت عن عيبه . وضم هذا الاتحاد كثيراً من الناس الذين اصبحت لهم مراكز كبيرة في بلدانهم . واستغل بعض الناس حركة العمال للاستفادة الشخصية ثم هجروها بعد ان اصبحوا رؤساء وزارة او رؤساء دولة ، وحالفهم النجاح في حياتهم فتنكروا للحركة التي كانت تهدف الى خدمة ملايين الناس الذين آمنوا بهم وساعدوهم على تبوؤ هذه المناصب . واعتاد الزعماء الذين كانوا قد اقسموا يمين الولاء لماركس او للقابية على الحياة البرلمانية والوظائف الرفيعة في نقابات العمال، فثقل عليهم ان يجازفوا بهذا النعيم المستحدث وان يواصلوا جهادهم المندفع ، وآثروا حياة الدعة والاستقرار . وكلما قامت جموع العمال بالاعمال الثورية احتجاجاً على الظلم ، وقف هؤلاء الزعماء المنقلبون يهدئون من ثورتهم . وقد اصبح من زعماء الديمقراطيين الاشتراكيين رئيس لجمهورية المانيا ومستشار لها ؛ كما اصبح برياند النقابي الذي نادى بالاضراب العام رئيساً للوزارة الفرنسية احدى عشرة مرة وقضى على احد اضرابات اعوانه ؛ واصبح رامزي مكدونالد رئيس وزراء ، وهجر حزب العمال الذي كان قد اسسه. وحصل مثل ذلك في السويد والدنمرك والبلجيك والنمسا . واوروبا الغربية مليئة اليوم بالدكتاتوريين واولي الشأن الذين كانوا في بداية حياتهم اشتراكيين، ولكن السنين اخمدت شعلتهم الاشتراكية وقلبت بعضهم على رفقائهم في الجهاد . فموسوليني ، دوتشي ايطاليا ، وبلسودسكي دكتاتور بولندا هما من الاشتراكيين القدماء .

وهكذا ضعفت الحركة العمالية ، كما يحصل لمعظم الحركات الوطنية الاستقلالية من جراء تخاذل زعمائها والبارزين من عمالها الذين وهنت عزائمهم وثبط الفشل جهادهم. وكان الطموحون الذين لا يؤمنون بالمبادىء يجتازون الحدود الى الجانب

الآخر ويصالحون أعداءهم ومقاوميهم . ومن السهل على الناس ان يقنعوا ضمائرهم بحكمة الخطة التي يتبعونها . ولكن الحركة تصاب في الصميم من هذه الاعمال فيقوم المعارضون للحركة العمالية باستجذاب هؤلاء الافراد وكسبهم الى جانبهم بمعسول الكلام وشتى انواع الإغراء . ولكن هذا الاغراء لايفيد الطبقة العاملة الكادحة او الشعب المناضل في سبيل الحرية والذي لاتخمد جذوة نقمته بل يواصل سعيه في جهاده نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه .

كبر المؤتمر العمالي العالمي الذي تألف عام ١٨٨٩ وزاد اتباعه وارتفع مقامه . وبعد سنوات طرد الفوضويون الذين يتزعمهم مالا تلسنا بحجة عدم استفادة هؤلاء من الأصوات البرلمانية . فقد اظهر اشتراكيو المؤتمر انهم يفضلون العمل في البرلمانات على بقائهم مع رفقائهم في الجهاد والعمل لاجل قضية العمال . فقد ادلوا في السابق بتصريحات جريئة حول واجب الاشتراكيين في حالة قيام حرب في اوروبا واعلنوا انهم لايؤمنون بالحدود القومية في نضالهم العمالي لأنهم لم يكونوا قوميين ، كما اعلنوا انهم سوف يقاومون الحرب . ولكن ما ان اعلنت الحرب في عام ١٩١٤ حتى انهار المؤتمر العالمي كلياً وتحول الاشتراكيون واحزاب العمال وحتى الفوضويون في جميع البلدان الى قوميين حاقدين على البلدان الأخرى كغيرهم من طبقات الشعب الاخرى ، ولم يقاوم الحرب الا أقلية ذاقت بسبب مقاومتها تلك صنوفاً من الضيق والسجن لفترة طويلة من الزمن .

وبعد نهاية الحرب بدأ لينين (عام ١٩١٩) تأليف مؤتمر عمالي عالمي جديد في موسكو . وكان هذا المؤتمر شيوعياً محضاً ولم يقبل فيه الا الشيوعيون الرسميون ودعي بالمؤتمر العمالي العالمي الثالث . اما بقايا المؤتمر العمالي الثاني فقد أخذت تتجمع ثانية فالتحق القليلون منهم بالمؤتمر الثالث في موسكو بينما رفض الكثيرون ان يفعلوا ذلك بغضاً لموسكو ومذهبها وآثروا اعادة المؤتمر العالمي الثاني الى حيز الوجود . وهكذا يوجد اليوم (١٩٣٣) مؤتمران عاليان اثنان كلاهما يقسم بحياة الماركسية ولكن كلا منها يفهمها بطريقة تختلف عن الآخر ، ويبغض احدهما الآخر اكثر مما يبغض العدو المشترك وهو الرأسمالية .

ولا يضم هذان المؤتمران جميع النقابات والاتحادات العمالية ، اذ لم يشترك الكثير منها في اي منهما . وقد بقيت النقابات الامريكية بعيدة عنهما لأنها محافظة وكذلك لم تشترك فيهما النقابات الهندية .

ولعلك تذكرين نشيد (العالمية) وهو النشيد المعترف به لدى الاشتراكيين والعمال في جميع انحاء العالم .

الماركسية

١٦ فبراير ١٩٣٣

●

كان بودي ان اذكر لك في رسالتي السابقة شيئاً عن المبدأ الماركسي الذي شغل بال الاشتراكيين في اوروبا . ولكن الرسالة طالت فأرجأت الأمر الى هذه الرسالة . وليس الأمر سهلا علي فأنا لست خبيراً في هذا المبدأ ، والواقع ان الخبراء والعلماء انفسهم يختلفون في الأمر . وسوف اعطيك وصفاً لخصائص الماركسية متجنباً الاجزاء الصعبة لأنني لا اقصد من هذه الرسائل اعطاءك صوراً كاملة ومفصلة للأمور .

ذكرت لك ان الاشتراكية على انواع عديدة ، ولكنها تتفق فيما بينها على جعل الدولة مسيطرة على وسائل الانتاج كالأراضي والمناجم والمصانع وما اشبهها ووسائل التوزيع كالسكك الحديدية وعلى البنوك والمؤسسات المماثلة. والحكمة في ذلك عدم تمكين الفرد من استغلال اي من هذه الوسائل والمؤسسات او استغلال عمل الآخرين لمصلحته الخاصة. فمعظم هذه الوسائل واقعة اليوم في أيدي افراد يستغلونها ويجنون منها الثروات الطائلة بينما يظل المجتمع اجمالاً على شقائه والجماهير على فقرها المدقع. ويلاحظ ايضاً ان قسماً كبيراً من نشاط اصحاب هذه المؤسسات يصرف في محاربة ومنافسة بعضهم البعض. فلو امكن استبدال هذه الحرب الفردية بنظام معقول للانتاج والتوزيع لأمكن تلافي التبذير والتلف والمنافسة المبيدة ولزالت حالة الاجحاف في توزيع الثروة واختفت الفروق القائمة بين طبقات الشعب . ولذا فمن الواجب

ان تقوم الدولة بتأميم وتنظيم الانتاج والتوزيع والاعمال الأخرى ، اي ان تصبح هذه الامور بيد الشعب لا الافراد . وهـذه هي فكرة الاشتراكية الاساسية

اما نوع الدولة والحكومة في الاشتراكية فهو أمر آخر ، ولا حاجة بنا ان نتكلم عنه الآن مع انه من الاهمية بمكان.

وننتقل الآن من فكرة الاشتراكية الى وسيلة تحقيقها . وهنا يختلف الاشتراكيون فيما بينهم وان أمكن تقسيمهم الى مجموعتين اساسيتين : الاولى تؤمن بالتطور التدريجي البطيء عن طريق البرلمانات ، ومن هؤلاء حزب العمال البريطاني والفابيون ؛ والثانية تؤمن بالثورة ولا تؤمن بنجاح الوسائل البرلمانية ، ومعظم هؤلاء من الماركسيين .

والمجموعة الاولى آخذة بالضعف والقلة ، وحتى الاشتراكيون في انجلترا يزدادون قرباً من الاحرار والاحزاب غير الاشتراكية الأخرى . وهكذا يمكننا القول ان الاشتراكية السائدة اليوم هي الاشتراكية الماركسية. ولكن الماركسيين انقسموا في اوروبا الى قسمين وهما القسم الرومي الى جانب والاشتراكيون الديمقراطيون في المانيا والنمسا الى جانب آخر . وقد خسر هؤلاء الاشتراكيون الديمقراطيون الكثير من مركزهم بسبب تنكرهم لمبدأهم في الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، فالتحق كثير من قادتهم المتحمسين بالشيوعية ، ولكن الباقين ظلوا مسيطرين على عدد من نقابات العمال في اوروبا الغربية ، اما الشيوعية فأنها تقدمت بسبب نجاحها في روسيا ، وهي اليوم العدو اللدود للرأسمالية في اوروبا والعالم اجمع .

ما هي الماركسية ؟ انها طريقة لتفسير التاريخ والسياسة والاقتصاد والحياة والنزعات البشرية . وهي نظرية ودعوة لعمل ما ، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الانساني ، ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاماً منطقياً يحمل في طياته مصائر محتومة كالقدر . ولكن الناس يشكون في كون حياتهم منطقية بهـذا الشكل ومعتمدة على قواعد مقطوعة مبتوت فيها. غير ان ماركس

استعرض التاريخ القديم كما يفعل العلماء واستخلص من ذلك نتائج معينة . ولاحظ ان الانسان بدأ منذ وجوده يجاهد في سبيل بقـــائه ضد الطبيعة وضد اخيه الانسان ولذا فانه جاهد للحصول على ما يسد به رمقه ويكفل له ضروريات الحيـاة ، وكلما مر به الزمن تطورت اساليبه في حصوله على حاجياته ويعتقد ماركس ان وسائل انتاج مقومات الحياة كانت اهم ما يشغل بال الانسان والمجتمع في كل زمان ومكان ، وقد سيطرت على كل فترة من فترات التاريخ وتحكمت بالنشاط والعلاقات الاجتماعية ، وكلما تطورت هذه الوسائل تطور التاريخ والمجتمع . وقد تتبعنـا الى حد ما مدى اثر هذه التطورات فعندما ادخلت مثلاً لأول مرة طرأ تغيير كبير على حيـــاة الانسان فقد اخذ الرحّل بالاستقرار وبنـــاء القرى والمدن . ولما زاد محصول الزراعة حصل فائض منها وازداد عدد السكان وكبرت الثروة وعم الرخاء فقامت الفنون والحرف ومن الامثلة الاخرى البارزة قيام الثورة الصناعية التي خلقت فارقاً كبيراً في الحياة على اثر ادخال الآلات الانتاجية الضخمة . وهناك امثلة عديدة اخرى .

ان مرحلة تطور وسائل الانتاج في فترة ما مقياس لتطور الناس في تلك الفترة من التاريخ . فالناس يدخلون فيما بينهم في علاقات تستند على متطلبات الانتاج والمعاملات المترتبة عليه مثل المقايضة والبيع والشراء والتبادل المالي وغير ذلك. وهذه العلاقات كلها تكوّن الكيان الاقتصادي للمجتمع . وعلى هذا الكيان الاقتصادي تبنى القوانين والسياسة والعرف والافكار وغير ذلك. وهكذا يعتقد ماركس ان تطور وسائل الانتـــاج ينتج عنه تطور الكيان الاقتصادي الذي بدوره يخلق تطوراً ملائماً في القوانين والافكار السياسية وما الى ذلك .

ونظر ماركس الى التاريخ على انه سجل لتنازع بين الطبقات المختلفة . ويقول: « ان تاريخ المجتمع الانساني بماضيه وحاضره عبارة عن تنـــازع طبقي » . والذي يسيطر على المجتمـع هي الطبقة المسؤولة عن وسائل الانتاج والتي تستغل الطبقات الأخرى وتثري على حســابها . فالطبقات الكادحة لا تعوض تعويضاً عادلاً على جهدها بل يترك لها فقط ما يـسد رمقها ويكفل اقل الحاجيات بينما يذهب

الوفر الفائض الى الطبقة المستغلة ليزيد من ثرائها . وجهاز الدولة والحكومة واقع في يد هذه الطبقة القابضة على وسائل الانتاج ، مما يجعل مهمة الدولة حماية هذه الطبقة ، او كما يقول ماركس : « الدولة هي اللجنة التنفيذية لرعاية مصالح الطبقة الحاكمة كمجموعة » . وتسن القوانين لهذا الغرض ويميل الناس عن طريق التعليم والدين والوسائل الاخرى الى الاعتقاد بأن سيطرة هذه الطبقة حق عادل وامر طبيعي. وتبذل جميع الجهود الممكنة عن طريق هذه الوسائل للتمويه على الناس وستر حقيقة تلك الحكومة وتشريعاتها حتى لا تدرك الطبقات المستغلة الكادحة الحقيقة ويعتريها التبرم فاذا عرف رجل ما الحقيقة وتبرم بها ونـدد بالنظام القائم اتهم بعدائه للمجتمع والاخلاق وخروجه على العرف والتقاليد وقضي عليه .

ولكن الجهود مهما عظمت فإنها لا تستطيع لوحدها الإبقاء على هذه الطبقة في الحكم لان العوامل ذاتها التي اعطتها السيطرة والاستغلال هي التي تعمل على اضعافها الآن. فقد تمكنت تلك الطبقة من السيطرة والاستغلال لتحكمها في وسائل الانتاج القائمة آنذاك ، وعندما تظهر وسائل جديدة من الانتاج تظهر معها طبقات جديدة ترفض ان ترزح تحت اعباء الاستغلال . وتحرك الافكار الجديدة اذهان الناس وتشعل فيهم ثورة فكرية تحطم قيود المبادىء والعقائد البالية ، فيقوم النزاع بين الطبقة الصاعدة وبين الطبقة القديمة التي تخشى أن يفلت زمام الامر من يدها . ولا بد للطبقة الصاعدة من النصر لأن وسائل الانتـاج الجديدة في يدها ولا بد للطبقة القديمة التي لعبت دورهـا في التاريخ من التلاشي والزوال .

ويتناول انتصار الطبقة الجديدة الناحية الاقتصادية والسياسية وهو يعبر عن انتصار وسائل الانتاج الجديدة ويتلو ذلك تغيير في نسيج المجتمع بأسره من الناحيـة الفكرية والسياسية والقانونية والعرفية وغيرها وتصبح هذه الطبقة الجديدة مستغلة لمن دونها من طبقات ، حتى تقوم مكانها طبقة اخرى ، ويستمر الكفاح حتى يصل المجتمع الى المرحلة التي لا تستغل فيها طبقة طبقة اخرى . وهذا لا يتهيأ الا عندما تزول الطبقات من المجتمع وتبقى طبقة واحدة فلا يبقى مجال للاستغلال ، لان الطبقة الواحدة لا تستغل نفسها وهذه هي الوسيلة الوحيدة

لخلق التوازن في المجتمع وقيام التعاون مكان التنازع والتنافس القائمين حالياً. وهكذا يزول الداعي للدولة لفرض سلطتها ، لان الطبقة التي كانت تحتاج الى الحماية من اجل مواصلة استغلالها قد زالت ، وهذا بدوره يجعل وجود الدولة غير ضروري فتصير الى الزوال ، ويتحقق الحلم الذي داعب آمال الفوضويين ايضاً .

وهكذا كان التاريخ بالنسبة الى ماركس سلسلة تنازع طبقي محتوم . وقد استند ماركس الى كنز كبير من التفاصيل والامثلة ليشرح لنا كيف تم هذا التنازع في الماضي وكيف تطور النظـــام الاقطاعي الى رأسمالي على اثر قدوم الآلات وقيام البورجوازية مقـام الطبقة الاقطاعية . ويعتقد ان مرحلة التنازع الطبقي تجري الآن بين الطبقة البورجوازية والطبقة العمالية . فالرأسمالية نفسها آخذة بانتاج الطبقة الاخيرة وتنميتها، وسيكون لهذه الطبقة الغلبة وانشاء مجتمع اشتراكي لا طبقية فيه .

وقد دعيت نظرة ماركس الى التاريخ (النظرية المادية للتاريخ) ودعيت (مادية) لانها لم تكن (مثالية) ، وهي كلمة استعملها الفلاسفة للتدليل على معنى خاص في زمن ماركس . وقد اصبح الناس شغوفين بالمبدأ التطوري ،فقد قربه داروين كما اخبرتك سالفاً في اذهـــان الناس فيما يختص بنظرية اصول الانواع وتطورها ولكنه قصر كلياً في تعليل العلاقات البشرية . وقـد حاول بعض الفلاسفة ان يفسروا التقدم البشري بآراء مثالية غامضة عن تطور العقل البشري. وقد عارض ماركس هذه المحاولات المثالية الهوائية واثبت خطلهـا واعتقد ان فيها خطراً يحمل الناس على تصور اشياء خيالية على انها حقائق مسلم بها . ودرس ماركس الوقائع باسلوب علمي ؛ وهذا هو معنى (المادية) .

ان ماركس لا يفتأ يتحدث عن الاستغلال وتنازع الطبقات ، وبينما يشعر الكثيرون منا بالحنق والغضب للظلم المحيط بنا ، فان ماركس يقول إن هذه الامور لا تحتاج الى الغضب والنصائح الفاضلة لأن تبعة الاستغلال ليست واقعة على المستغل نفسه ولكن سيطرة طبقة من الطبقات كانت نتيجة تطور تاريخي وسيحل محله في يوم من الايام نظام آخر . فاذا انتمى شخص ما الى الطبقة المستغلة واستغل

غيره من الناس فإنه لم يقترف اثماً يستحق عليه المسبة لأنه مجرد عضو في نظام فاسد. وكثيراً ما نغفل التمييز بين الفرد والنظـــام . فالهند اليوم واقعة تحت كابوس الاستعمار الانجليزي ، ونحن نقاوم هذا الاستعمار بكل ما في وسعنا ، ولكن الافراد الانجليز الذين زجت بهم الظروف في هذا النظام لا يستحقون اللوم لأنهم مجرد مسامير صغيرة في آلة ضخمة لا يستطيعون تغييرها او تحريكهـا . ولا بد ان بعضنا ناقم نقمة شديدة على نظام الاقطاع في الهند لانه يضر ضرراً بالغاً بالطبقة الضعيفة ويستغلها ابشع استغلال ، ولكن هذا لا يعني ان اللوم يقع على الاقطاعي الكبير في هذا النظام . ومثل ذلك يقال في النظام الرأسمالي ، فان اللوم يجب ان يقع على النظام ذاته لا على الافراد الرأسماليين الذين اعتدنا ان نسميهم (الاستغلاليين).

بيد ان ماركس لم يدع الى النزاع الطبقي بل اشار الى انه كان قائماً طول الوقت . وكان همه من كتاب (رأس المال) ان يبرز (القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث)، فأبرز بذلك التنازع العنيف الذي يقوم بين طبقات المجتمع وهذا التنازع لا يبدو واضحاً في كثير من الاحيان لأن الطبقة المستغلة تحـاول دائماً اخفاء طابعها الطبقي . ولكن اذا داهم الخطر النظام القائم فان هذه تلقي القناع وتسفر عن وجهها وعندئذ تبرز الخصائص الطبقية ويحتدم النزاع الطبقي ، وكذلك تزول المظاهر الديمقراطية والقوانين العادية . وهـذا التنازع الطبقي لا ينتج عن سوء التفاهم او تحريض المحرضين (الاوغاد) ، كما يدعي بعض الناس ، ولكنه متأصل في المجتمع ويزداد بازدياد الوعي وتعارض المصالح .

ولنقارن نظرية ماركس هذه بالحالة القائمة اليوم في الهند . فطالمـــا ادعت الحكومة البريطانية ان حكمها في الهند مستند الى الحق والعدالة وصالح اهل الهند ، ولا شك ان بعض رجالنا الاقدمين اعتقدوا ان في ذلك الادعـاء بعض الصدق . ولكن قيام حركة شعبية جدية في وجه الحكم جعله يسفر عن وجهه البشع وجسده العاري ويكشف للجميع الحقيقة المرة وهي ان هذا الحكم لا يستند إلا على أسنة الحراب لقد سقط النقاب الموشى وضاعت الكلمات المعسولة وصدرت القوانين للحد من الحريات العادية كحرية الكلام والاجتماع والصحافة.

وكلما ازدادت الثورة كلما ازداد الضغط ، وهذا ما يحصل في حالة الطبقات عندما تهدد طبقة ما طبقة اخرى وهذا ما نلاحظه اليوم في بلادنا في الأحكام الوحشية المفروضة على الفلاحين والعمال .

فنظرية ماركس التاريخية اذن تمثل المجتمع على شكل دائم التطور والتقدم ولا جمود فيه ، فيقوم نظام اجتماعي مكان آخر مهما اعترضت سبيله من عقبات. ولكن النظام القديم لا يزول الا بعد ان يستكمل نموه ، فإذا زاد نمو المجتمع على نمو ذلك النظام القديم فانه يخلعه كما يخلع الانسان القديم الثوب الذي بلي واخذ يعيقه عن الحركة ويستبدله بثوب جديد فضفاض .

ويرى ماركس ان مصير الانسان هو الذي دفعه الى المساهمة في هذا التطور التاريخي الهائل ، فقد اجتاز الانسان المراحل السابقة وبقيت امامه المرحلة الاخيرة التي بدأت اليوم وهي مرحلة النزاع بين البورجوازية والطبقة العمالية .(ولنذكر هنا ان هذا طبعاً ينطبق على البلدان الصناعية التي استكملت الرأسمالية فيها نموها. اما البلدان التي لم تتطور فيها الرأسمالية فأنها ما زالت متخلفة والنزاع فيها مشوش ومختلف في نوعه ولو ان فيه بعض المظاهر المشتركة بفضل ازدياد اشتباك مصالح الاقطار بعضها ببعض) . وقد قال ماركس ان على الرأسمالية ان تواجه الازمة تلو الازمة والصعوبة تلو الصعوبة حتى تنقلب على رأسها بفعل عامل التوازن المتأصل في المجتمع وقد مرت ستون عاماً على كتابات ماركس واجتازت الرأسمالية خلالها ازمات عديدة ولكنها لم تزل بل زادت قوة على قوة باستثناء روسيا حيث استؤصلت شأفتها . ولكنني اذ اكتب هذه الكلمات ارى المرض يدب في جسمها في شتى انحاء العالم وارى الاطباء يحركون رؤوسهم كأنهم يئسوا من انها ستبرأ من سقمها .

ويقال ان الرأسمالية نجحت في اطالة عمرها بفضل عامل ربما غاب عن ذهن ماركس وهذا العامل هو استغلال الدول الغربية للمستعمرات لأن هذا الاستغلال غذى جسم الرأسمالية بالمواد المقوية وذلك طبعاً على حساب الطبقة الفقيرة المستغَلة .

واننا لنعلن كثيراً وتكراراً استغلال الأغنياء للفقراء والعمال بسبب النظام

الرأسمالي القائم ، وهذه حقيقة لا جدال فيها ولو ان الذنب عائد للنظام المبني على الاستغلال وليس للفرد الرأسمالي نفسه . ولا يغرب عن بالنا ان هـــذا النظام لم يكن وليد الرأسمالية فقط ، لأنه كان من حظ الفقراء والعمال في جميع العصور وجمع الأنظمة . والواقع انه بالرغم من الاستغلال الرأسمالي فأن حالة هؤلاء اليوم احسن حالاً مما كانت عليه في اي عصر مضى. ولكن هذا لا يعني الاشادة بالرأسمالية لأنه ليس بالشيء الكثير .

واعظم دعاة الماركسية الحديثة هو لينين الذي لم يكتف بشرحها ونشرها بل اخلص لها وكرس حياته من اجلها ، مع انه حذرنا من الاعتقاد بأنها غير صالحة للتكيف . فقد اعتقد بصدق جوهرها ولكنه لم يكن مستعداً ان يقبل تفاصيلها على عواهنها وتطبيقها دون وعي في كل مكان . وقد قال لنا لينين : « اننا لا نعتبر النظرية الماركسية امراً كاملاً منزهاً ، بل على العكس من ذلك فما هي الا حجر الزاوية في ذلك العلم الاجتماعي الذي يتوجب على الاشتراكيين ان يكيفوه في كل اتجاه ، حتى لا يتخلفوا عن سير الحياة . ونعتقد ان واجب الاشتراكيين الروس بوجه خاص ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة لأنها نظرية عامة يمكن ان تطبق في انجلترا مثلاً بطريقة تختلف عنها في فرنسا ومختلفة في فرنسا عنها في المانيا ومختلفة في المانيا عنها في روسيا

لقد حاولت في هذه الرسالة ان انبئك بنظريات ماركس ، ولا ادري اذا كانت هذه الصورة المرقعة التي صورتها لك تعطيك فكرة واضحة عنها . فمن الخير ان نعلم هذه النظريات لأنها اليوم تداعب خيال جمهرة كبيرة من الرجال والنساء ، وربما كان لنا فيها عون لبلادنا لقد جعل الشعب الروسي العظيم وبقية بلاد الاتحاد السوفييتي ماركس نبيهم الأكبر ، كما اخذت شعوب عديدة في هذا العالم المضطرب تنظر اليه في اكبار علّه يوحي اليهم كيف يجدون العلاج لمصائبهم .

وأختتم هذه الرسالة بثلاثة ابيات للشاعر الانجليزي تينسون :

ان العالم القديم يتبـــدل ويترك مكانه لنظام آخر
وان الله يحقق وجوده بصور متعـــددة
حتى لا يبقى العالم على صورة واحدة فيفسد

الامبراطورية الامريكية المستترة

٢٨ فبراير ١٩٣٣

●

قضت الحرب الاهلية على عدد كبير من الناس وخلفت وراءها عبئاً باهظاً من الديون . ولكن البلاد كانت بكراً ومفعمة بالطاقة والامكانيات وقابلة لاطّراد النمو . ولها معين كبير من مصادر الثروة الطبيعية وخصوصاً المعادن ، وتتوفر لديها المواد الثلاث التي يقوم عليها عمـــاد الصناعة الحديثة والحضارة وهي الفحم والحديد والبترول . وفيها القوى المائية المولدة للطاقة الكهربائية مثل شلالات نياجرا .

كانت امريكا بلاداً واسعة لا يسكنها الا عدد ضئيل من السكان مما افسح المجال للجميع للاستفادة من هذه الظروف المواتية والسير بأمريكا قدماً وجعلها بلداً صناعياً كبيراً . وقد خطت امريكا خطوات سريعة حتى اصبحت في اواخر القرن التاسع عشر منافساً صناعياً لبريطانيا في الاسواق الخارجيـة . وهكذا اشتركت امريكا والمانيا في القضاء على سيطرة بريطانيا على اسواق العالم مدة مئة عام من الزمان .

وتدفق المهاجرون على امريكا من جميع انحاء العالم . اذ جاءها من اوروبا الالمان والاسكندنافيون والايرلنديون والايطاليون واليهود والبولنديون . كان الكثيرون منهم فارّين من وجه الطغيان السياسي في بلادهم ، وآخرون ذهبوا سعياً وراء تحسين معيشتهم . وصبت اوروبا المزدحمة بالسكان فائضها على

امريكا . وكان ذلك الفائض مزيجاً من أجناس وشعوب ولغات واديان متعددة . وبعد أن كان كل من هؤلاء يعيش في دنياه الاوروبية البعيدة عن دنيا الآخر ممتلئاً عداوة وكراهية للآخرين ، وجدوا انفسهم الآن في عالم جديد لم يكن فيه مجال للاحقاد القديمة . وقد ساعد نظام التعليم الاجباري على جبل العادات القومية القديمة في طينة امريكية موحدة جديدة . وقد كان المنحدرون من اصل انجلو سكسوني يعتبرون انفسهم الارستقراطيين ، ومنهم الزعماء الاجتماعيون . ويليهم – ولا يبعد عنهم كثيراً – النازحون من شمال اوروبا . اما النازحون من جنوب اوروبا وخصوصاً ايطاليا فقد كانوا يعتبرون ادنى درجة من هؤلاء وينظر اليهم بنوع من الازدراء اما الزنوج فانهم كانوا على حدة وفي ادنى درجات السلم الاجتماعي ، ولم يمتزجوا ابداً بالجنس الابيض . وقد نزل في الساحل الغربي الصينيون واليابانيون والهنود عندما ازدادت الحاجة الى الايدي العاملة . ولم يختلف هؤلاء الآسيويون كثيراً ايضاً .

وقد ادّت شبكة الخطوط الحديدية والتلغراف الى وصل اجزاء هذه البلاد الواسعة بعضها ببعض، بعد ان كان الانسان في الايام الاولى يحتاج الى الاسابيع والشهور لقطع البلاد من الساحل الى الساحل. وقد رأينا سابقاً قيام امبراطوريات كبيرة في آسيا واوروبا ، ولكن هذه الامبراطوريات لم توثق عراها لصعوبة الانتقال والاتصال بين اجزائها ، فكان بامكان بعض الاقسام الانقسام لولا انها كانت تختار ان تدين بالولاء والطاعة للامبراطور. وهكذا كانت الامبراطوريات مجموعة غير متماسكة ولكنها ترتبط بطاعتها لرجل واحد . اما الولايات المتحدة فقد استطاعت مزج الاجناس المختلفة بفضل السكك الحديدية ووسائل المواصلات الأخرى ونظام التعليم الموحد ، مما خلق شعبا جديداً . ولكن هذا المزج لم ينته بعد . ولم يعرف قبل ذلك في التاريخ ان حدث تجانس بين شعوب مختلفة بهذه الصورة .

وقد حاولت الولايات المتحدة الابتعاد عن شؤون الدول الاوروبية ودسائس هذه الدول وارادت منها كذلك الابتعاد عن التدخل في شؤون الامريكيتين .

وقد ذكرت لك سابقاً مبـــدأ مونرو الذي وضعه رئيس جمهورية الولايات المتحدة المدعو مونرو ليمنع الدول الأوروبية – وعلى الاخص دول الاتحـــاد المقدس – من التدخل في شؤون امريكا الداخلية والتعرض للامبراطورية الاسبانية. فأعلن مونرو ان الولايات المتحدة لا تسمح لأي دولة اوروبية أن تتدخل عسكريا في شؤون القارة الامريكية . وقد حمى هذا المبدأ الجمهوريات الامريكية الفتيـة من اوروبا ، وكاد يؤدي الى حرب مع انجلترا ولكن امريكا التزمت بالمبدأ لمدة مئة عام من الزمن

وقد كانت جمهوريات امريـــكا الجنوبية تختلف كثيراً عن امريكا الشمالية ، ولم تستطع المئة عام ان تزيل هذا البون الشاسع ، مع ان كندا الواقعة الى شمالي الولايات المتحدة تزداد شبهاً بها كل يوم وقد اخبرتك ان جمهوريات امريكا الجنوبية بما فيها جمهورية المكسيك التي تقع في امريكا الشمالية هي جمهوريات لاتينية . ونرى على الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك شعبان يختلفان قومية وثقافة. والى الجنوب من امريكا الوسطى تقع جمهوريات امريـكا الجنوبية التي يتكلم اهلها اللغة الاسبانية واللغة البرتغالية واللغة الاسبانية هي اللغة السائدة لأن البرتغالية على ما اعتقد مستعملة في البرازيل فقـط . وتتطلع امريكا اللاتينية نحو اسبانيا لاستلهام الوحي الثقافي منها . اما التفريق العنصري فهو اخف فيها منه في الولايات المتحدة وكندا وقـد نجم عن التزاوج بين المستوطنين الاسبانيين والسكان الاصليين من الهنود الحمر – والى حد ما الزنوج – مزيج جديد .

وبالرغم من مرور مئة عام على استقلال جمهوريات امريكا اللاتينية فانهـــا لا تزال غير مستقرة سياسياً بل تنتابها الثورات والدكتاتوريات العسكرية بصورة دائمة . ومن الصعب ان نعرف سبب التغييرات السياسية الحكومية المستمرة فيها. والجمهوريات الكبرى فيها هي الارجنتين والبرازيل وشيلي . كما ان المكسيك الواقعة في امريكا الشمالية هي ايضاً في طليعه البلدان الامريكية اللاتينية .

لقد حمت الولايات المتحدة امريـكا اللاتينية من التدخل الاوروبي بفضل مبدأ مونرو ، ولكن الولايات المتحدة نفسها اصبحت عندما توسعت تبحث عن

اماكن جديدة للتوسع ، وطبعاً وقع نظرها على امريكا اللاتينية ، ولكنها لم تحاول ان تبني امبراطورية بالأساليب الاستعمارية القديمة فلجأت الى اغراق الاسواق ببضائعها ووضعت رؤوس اموالها للاستثمار في السكك الحديدية والمناجم والاعمال الاخرى،واصبحت تقرض الاموال للحكومات او للاطراف المتحاربة عند قيام الثورات ، ومع ان الذين كانوا يقومون بهذا العمل هم اصحاب رؤوس الاموال واصحاب البنوك الامريكيون الا ان حكومة الولايات المتحدة كانت تقف من خلفهم وتسندهم؛وقد تمكن اصحاب البنوك بطريق التسليف والاستثمار من فرض نفوذهم على عـــدد كبير من الجمهوريات الصغيرة في امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية . وتمكنوا ايضاً من ان يقيموا الثورات بأن يقدموا الاموال لطرف دون آخر وكان وراء اصحـــاب البنوك ورؤوس المال الحكومة الامريكية العملاقة التي تتضاءل امامها الحكومات الجنوبية الضعيفة وقـــد قامت الحكومة الامريكية فعلاً بارسال جيوشها في بعض الاحيان بحجة المحافظة على النظام .

واستطاع الرأسماليون بهذه الطريقة ان يسيطروا على الجمهوريات الجديدة وعلى البنوك والسكك الحديدية والمناجم واستغلالها لمصالحهم . وقد امتد نفوذهم ايضاً الى الجمهوريات الكبرى بفضل استثمار اموالهم وتشغيلهم فيها . وهـذا يعني ان الولايات المتحدة قد سحبت ثروة هذه البلاد او معظمها اليها دون ان تحتلها احتلالاً عسكرياً . وهذه ظاهرة جديرة بالملاحظة الدقيقة لانها تعني قيام استعمار من نوع جديد . انها امبراطورية مختفية عن النظر تعتمد على الاقتصاد والاستغلال وتفرض سيطرتها دون اللجوء الى الوسائل القديمة المفضوحة . فجمهوريات امريكا الجنوبية بلاد حرة مستقلة سياسياً ودولياً وتظهر على الخارطة وكأنها بلاد كبيرة متحررة من النفوذ الخارجي ، ولكن الواقع ان معظمها واقـــع تحت نفوذ الولايات المتحدة .

رأينا في لمحاتنا التاريخية انواعاً متعددة من الامبراطوريات في مختلف العصور. كان انتصار شعب على آخر يعني قيام المنتصر باحتلال بلاد المنهزم واستعباد سكانه

وكانت هــذه هي العادة المتبعة آنذاك! ونرى في التوراة مثلاً ان اليهود سيقوا الى الاسر لأنهم انهزموا في الحرب على يد البابليين . وهناك امثلة عديدة اخرى. وقد تطورت الامور تدريجياً الى ان اصبحت الحرب تسفر عن ضم الاراضي المغتصبة دون استبعاد اهلها ،لان المنتصر اكتشف ان الاربح له ان يستفيد منهم مالياً عن طريق الضرائب ووسائل الاستغلال الاخرى . ولا نزال نذكر امبراطوريات من هذا النوع كالامبراطورية البريطانية في الهند . ولربما تخيلنا انه لو لم يسيطر البريطانيون على الهند سياسياً لكانت الهند بلاداً حرة . ولكن هذا النوع من الاستعمار السياسي يجر اذياله ليحل محله استعمار اكثر منه تقدماً واتقاناً وهو لا يحتاج الى احتلال اراضي البلاد المغلوبة ، بل يكتفي باحتلال الثروة او مصادرة الانتاج في البلاد . وبذلك يتسنى له ان يستغل هــذه البلاد لمصلحته حتى النهاية ويسلط عليها نفوذه ، وفي الوقت ذاته يوفر على نفسه مشقة حكم تلك البلاد واخضاعها وينتج عن كل ذلك ان ان تقع البلاد واهلها تحت السيطرة الاجنبية دون ادنى عناء .

وهكــذا تطورت اساليب الاستعمار فأصبح الاستعمار الحديث من النوع الاقتصادي المستتر لقد حسب الناس ان الغاء العبودية الحقيقية وزوال عبودية الاقطاع قد حققا الحرية للبشرية ، ولكن الناس اكتشفوا انهم لايزالون واقعين تحت نفوذ وسيطرة تلك الفئة من الناس التي تسيطر على المال وتستعبد غيرها بثمن زهيد وظلت الحرية في منأى عن البشر وعن اقطار عديدة من العالم .وكثيراً ما يتخيل الناس ان مجرّد زوال السيطرة السياسية الاجنبية عن بلد ما كفيل باعطائه الحرية . ولكن الصواب لا يخالف هذا التفكير اذ طالما وقع البلد المستقل سياسياً تحت السيطرة الاقتصادية لبلاد اخرى . والامبراطورية الهندية مثل حي على ذلك ، اذ ان لبريطانيا سيطرة سياسية على جزء من الهند ولها سيطرة اقتصادية كلية على الهند . ومن المحتمل جداً ان يزول نفوذ بريطانيا السياسي قريباً ولكن النفوذ الاقتصادي قــد يظل قائماً بصورة غير منظورة . واذا حدث هذا فمعنى ذلك ان استغلال بريطانيا للهند يظل قائماً.

والاستعمار الاقتصادي هو اقل انواع الاستعمار مشقة للمستعمر لأنه لا يخلق نحو المستعمرين البغض الشديد . وذلك ناتج عن عدم ملاحظة الناس له . ولكن اذا استفحل واحس الناس بلدغته فأنهم يهيجون وينقمون عليه. وهكذا تولد لدى شعوب امريكا اللاتينية الكره للولايات المتحدة ، وبذلت الجهود العديدة لتأليف جبهة من شعوب امريكا اللاتينية تقف في وجه سيطرة امريكا الشمالية . ولكن نصيب هذه الجهود من النجاح سيظل في مهب الريح الى ان تكف هذه الدول عن الانقلابات الداخلية والمنازعات المستمرة .

اما الاستعمار الامريكي المنظور فيمتد حتى جزر الفيلبين . وقد اخبرتك في رسالة سابقة كيف استولت امريكا على هذه الجزر بعد حربها مع اسبانيا ، تلك الحرب التي اشتعلت في عام ١٨٩٨ بسبب جزيرة كوبا الواقعة في المحيط الاطلسي. وقد استقلت كوبا اسمياً فقط اذ انها ما زالت هي وجزيرة هايتي تحت النفوذ الأمريكي.

وقبل اثني عشر عاماً تقريباً افتتحت قناة بنما وهي تجتاز قسماً ضيقاً من اراضي أمريكا الوسطى وتصل المحيط لاطلسي بالمحيط الهادي . وقد صممها قبل اكثر من خمسين عاماً المهندس فرديناند ديلاسبس الذي حفر قناة السويس . ولكنه فشل في مشروع قناة بنما فقام الامريكيون بحفرها . وكان من اسباب فشل ديلاسبس انتشار الملاريا والكوليرا في المنطقة . فقام الامريكيون بالقضاء على بعوض الملاريا وغيرها من الحشرات الناقلة للامراض وجعلوا تلك المنطقة سليمة لحفر القناة . وتقع القناة في اراضي جمهورية بنما الصغيرة ، ولكن القناة والجمهورية ذاتها واقعتان تحت نفوذ امريكا . ومع ان اهمية هذه القناة لا تجاري اهمية قناة السويس الا انها هامة جداً بالنسبة لأمريكا اذ توفر على بواخرها مشقة الدوران حول امريكا الجنوبية .

واستمرت الولايات المتحدة في نموها وازدادت قوة وثراء وانتاجاً للبضائع وكثر فيها اصحاب الملايين وقامت فيها ناطحات السحاب فلحقت بأوروبا وتفوقت عليها ، واصبحت الدولة الصناعية الاولى في العالم كما اصبح مستوى المعيشة لدى

عمالها أعلى منه في اي بلد آخر . ومن شأن هذا الرخاء ، كما حصل في انجلترا في القرن التاسع عشر – عدم افساح المجال للنظريات الاشتراكية والراديكالية .
وكانت الحركة العمالية الامريكية (مع بعض الاستثناءات) كثيرة الاعتدال والتحفظ ، وهذا طبيعي لأن دخل العامل الامريكي كان محترماً ولا حاجة له في ان يجازف بما في اليد لقاء ما في الغيب . وكان معظم العمال من الايطاليين ، وكانوا على درجة من الضعف والفوضى وعدم احترام الناس لهم . اما العمال الأحسن حالاً منهم فهم يعتبرون انفسهم أرفع منزلة من هؤلاء .

وقد قام في امريكا حزبان سياسيان هما الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي . وكان الحزبان (كما كان حزبا بريطانيا) يمثلان الطبقة الغنية من الناس ولا يختلفان اختلافاً جوهرياً في المبادىء السياسية .

كانت هذه هي حالة امريكا عندما دوّى نفير الحرب العالمية الاولى وجرت امريكا الى دوامة النزاع .

الاحتلال البريطاني لمصر

١١ مارس ١٩٣٣

●

حدثتك في رسالة سابقة عن امريكا ، واجتزت في رسالة اخرى المحيط الاطلسي الى ايرلندا ، والآن انتقل الى قارة ثالثة لنتحدث عن ضحية ثالثة من ضحايا الاستعمار البريطاني وهي مصر . وقد اشرت في رسائلي السابقة الى تاريخ مصر القديم ، ولم اتعمق في تلك الاشارة لجهلي في الموضوع . وحتى لو كنت اعرف اكثر من ذلك فلا استطيع ان اعود بالحديث الى تلك الفترة الاولية من التاريخ بعد ان سرت معه حتى كدت انتهي من سرد حوادث القرن التاسع عشر واقف على اعتاب القرن العشرين ، وليس من الحكمة ان نظل نقفز من الامام الى الخلف . وعلى كل فلو انني اردت ان اسرد التاريخ السحيق لكل بلد لما وقف سيل هذه الرسائل .

ولا تحسبي ان قصة مصر لا تحتل مكاناً بارزاً من التاريخ ، لان مصر عريقة بين الشعوب وتعود بنا الى زمن اقدم مما يعود بنا اليه اي بلد آخر . كما ان تاريخها لا يعد بالقرون بل بآلاف السنين . وما زالت الآثار الهائلة الجبارة تربطنا بذلك الماضي البعيد . وقد كانت مصر من اول واعظم البلدان التي قامت بها اعمال التنقيب عن الآثار ، وكلما رفع من باطن الارض تمثال حجري قص علينا قصصاً ساحرة عن العصر الذي نحت فيه . وما زال التنقيب والاكتشاف مستمرين ليضيفا كل يوم صفحة جديدة الى سجل تاريخ مصر القديم . ومع اننا لا نستطيع ان

نجزم متى وكيف بدأ التاريخ المصري ، الا اننا نعلم ان الناس قد عمروا وادي النيل قبل سبعة آلاف سنة وكانت آنذاك حضارة عريقة . وكانوا يكتبون بلغتهم التصويرية المعروفة بالهيروغليفية ويصنعون الفخار والمزاهر الانيقة وآنية من الذهب والنحاس والعاج والمرمر .

ويقال انه سبق فتح الاسكندر لمصر (في القرن الرابع قبل الميلاد) حكم احدى وثلاثين اسرة . ويبرز في تلك الحقبة من الزمن التي تتراوح بين اربعة آلاف وخمسة آلاف سنة شخصيات من الرجال والنساء وكأنهم ما زالوا على قيد الحياة ، فمنهم البناؤون العظام والحالمون والمفكرون والمحاربون والطغاة والمستبدون والحكام المتعاظمون والنساء الجميلات . وكأننا واقفون نستعرض موكب الفراعنة وهم يمرون بنا على مراحل تبلغ الواحدة منها آلاف السنين . نرى المرأة متمتعة بحريتها وتجلس على العرش . ونرى البلاد واقعة تحت سيطرة الكهنة والناس متدثرين برداء المستقبل والعالم الآخر . وما الاهرام التي قامت على جماجم العمال المسخرين الا وسيلة لضمان مستقبل الفراعنة . ونحول نظرنا من هذا العمل القاسي لنرى الرجال يغطون رؤوسهم بشعر مستعار لانهم كانوا يحلقون شعر رؤوسهم ونرى العاب الاطفال من دمى وكرات وحيوانات مصغرة ذوات مفاصل متحركة مما يعكس لنا الصورة الانسانية من حياة هؤلاء المصريين الغابرين .

وفي القرن السادس قبل الميلاد ، اي في زمن بوذا ، فتح الفرس مصر وجعلوها ولاية في امبراطوريتهم الواسعة الممتدة من النيل الى نهر الراندوس . وكان ملوكهم من الأسر الارخمندية واتخذوا برسيبلوس عاصمة لهم . وقد حاولوا اخضاع اليونان ففشلوا ، وانهزموا اخيراً على يد الاسكندر الاكبر الذي استقبله المصريون استقبال المنقذ من نير الظلم الفارسي ؛ وقد خلف الاسكندر نصبه في الاسكندرية التي اصبحت منارة للعلم والثقافة الاغريقية .

وتذكرين ان قواد الاسكندر الثلاثة قد ورثوا امبراطوريته بعد وفاته ، فكانت مصر من نصيب بطليموس ، واقتبس البطالسة العادات المصرية ، وهو ما لم يفعله الفرس . واعتبر البطالسة انفسهم ورثة واحفاداً للفراعنة القدماء . وقد

زال حكمهم بصرع كليوباترة وتحولت مصر الى ولاية رومانية . وكان ذلك قبل الفترة المسيحية بزمن قليل .

وقد دخلت المسيحية مصر قبل ان تدخل اوروبا ، ونال المتنصرون انواع التعذيب على يد الرومان مما جعلهم يفرون الى قلب الصحراء ويقيمون فيها المعابد السرية . وقد امتلأ العالم المسيحي في تلك الايام بأساطير هؤلاء الرهبان والمعجزات التي كانوا يحققونها ولما أصبحت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية على يد قسطنطين حاول هؤلاء المسيحيون المصريون ان ينتقموا لأنفسهم فراحوا يضطهدون من دعوهم « بالملحدين » ، اي اتباع الدين المصري القديم . وأصبحت الاسكندرية مركزاً نصرانياً للعلم ، ولكن النصرانية تفرقت شيعاً واحزاباً تتنازع فيما بينها وتريد كل منها السيطرة على الاخرى . وامتد هـذا الامر واستفحل حتى مل الناس النصرانية واحزابها ورحبوا بالعرب ودينهم الجديد في القرن السابع الميلادي . وهذا هو احد الاسباب التي يسرت للعرب فتح مصر وشمال افريقيا . وقد أصبح المسيحيون انفسهم عرضة للاضطهاد بـدلاً من اضطهادهم لغيرهم .

وهكذا اصبحت مصر ولاية في امبراطورية الخليفة العربي ، وانتشرت اللغة العربية والثقافة العربية واندحرت اللغة المصرية القديمة . وبعد مضي مئتي عام ضعفت الخلافة في بغداد واصبحت مصر خاضعة لحكم ولاة الاتراك المستقلين استقلالاً جزئياً . وبعد ثلاثمئة عام بويع صلاح الدين البطل الاسلامي الذي لمع نجمه في الحروب الصليبية سلطاناً على مصر . وبعد وفاته قام خلفه باستجلاب عدد كبير من عبيد الاتراك من اقليم القوقاز وجعلهم جنوداً له . وقد عرف هؤلاء العبيد البيض بالمماليك . وقد كانوا نخبة مختارة من الصالحين للجندية . وما هي الا سنوات حتى ثار هؤلاء المماليك ونصبوا من بينهم سلطاناً على مصر . وهكذا بدأ حكم المماليك الذي دام قرنين من الزمن . وتلك فترة استقلال جزئي امتدت ثلاثة قرون . ويكون بذلك قد تم للمماليك (او العبيد البيض) حكم مصر اكثر من خمسة قرون ، وتلك حقيقة تاريخية فريدة من نوعها .

غير ان المماليك الأصليين لم يكونوا يؤلفون طبقة منفردة أو طبقة وراثية بل كان عددهم يزداد باستمرار باستجلاب عدد كبير من احرار الجنس القوقازي (وهو جنس آري) . ولكن عائلاتهم لم يلائمها جو مصر فانقرضت بعد مرور اجيال ، ولكن الاستجلاب المستمر كان يحفظ العدد عالياً ويحفظ قوة ونشاط هذه الطبقة . ومع انهم لم يؤلفوا طبقة منفصلة بالوراثة الا انهم كانوا يمثلون الارستقراطية والطبقة الحاكمة لمدة طويلة من الزمن .

وفي اوائل القرن السادس عشر فتح سلطان الاستانة العثماني مصر واعدم سلطان المماليك واصبحت مصر ولاية عثمانية . اما المماليك فانهم ظلوا الطبقة الارستقراطية ، ولما ضعف النفوذ التركي في اوروبا اطلق المماليك لانفسهم العنان ، ولو انهم ظلوا اسمياً تحت سلطة السلطان العثماني . ولما قدم نابوليون الى مصر في اواخر القرن الثامن عشر تغلب على المماليك وهزمهم . ولعلك تذكرين قصة المملوك الفارس الذي برز امام الجيش الفرنسي (وهو على صهوة جواده) وطلب مبارزة قائد الجيش كما يفعل فرسان القرون الوسطى .

وندخل القرن التاسع عشر في مصر فنرى انها كانت في النصف الاول منه خاضعة لسلطة محمد علي ، وهو تركي الباني أصبح خديوياً (اي حاكماً تركياً) دعي محمد علي مؤسس مصر الحديثة . وكان اول ما عمله القضاء على المماليك عن طريق قتلهم بالخدعة . واستطاع ايضاً ان يهزم الانجليز في مصر وان يتولى السلطة الفعلية في البلاد وألا يعترف للسلطان التركي إلا بالسيادة الاسمية . وكوّن محمد علي جيشاً مصرياً جديداً من الفلاحين (وليس من المماليك) ، وفتح القنوات وشجع زراعة القطن الذي اصبح الصناعة الاساسية لمصر . وكاد ان يسيطر على الاستانة وان يخلع السلطان الاسمي ، ولكنه رجع عن ذلك واكتفى بضم سوريا لمصر .

توفي محمد علي عام ١٨٤٩ عن ثمانين عاماً وكان خلفاؤه ضعفاء مبذرين عاجزين . والواقع انهم لو كانوا احسن من ذلك لما استطاعوا الوقوف امام اصحاب الاموال الاجنبية وجشع الاستعمار الاوروبي . فقد كانوا يقترضون المال من المموّلين الانجليز والفرنسيين بربا فاحش لينفقوه على شهواتهم . فاذا تأخروا في

دفع الديون والربا في مواعيدها بوزت في الافق البوارج الحربية لتقوم بالتحصيل. وهذا مثل سافر للخداع العالمي الذي يستخدمه الممولون والحكومات الاجنبية ويسيران عليه يداً بيد لفرض السيطرة على بلد غريب . وبالرغم من ضعف عددٍ من الخديويين فان مصر قد احرزت قسطاً وافراً من التقدم. وقد جاء في عدد التيمس الصادر في يناير ١٨٧٦

« ان مصر مثل رائع للتقدم ، وقد خطت في سبعين عاماً ما يخطوه غيرها في خمسمئة عام » . غير ان الممولين الاجانب ظلوا يطالبون (بوطل اللحم) ، وصاروا ينادون بالتدخل الاجنبي بحجة اشراف مصر على هاوية الافلاس ، وكانت الدول الاجنبية وخصوصاً دولتا انجلترا وفرنسا تجدان في ذلك النداء منية سعيدة وحجة طالما انتظرتاها لدخول ذلك البلد الغني الذي يمتاز ايضاً بوقوعه على طريق الهند .

وقد حفرت قناة السويس بعرق جبين العمال المصريين وتسخيرهم وارهاقهم وافتتحت الملاحة فيها عام ١٨٨٩ . ولعل من الطريف ان اذكر هنا انه يعتقد وجود مثل هذه القناة في عهد الاسر الفرعونية القديمة حوالي عام ١٤٠٠ ق.م. وقد حوّل فتح قناة السويس جميع الحركة التجارية بين اوروبا وآسيا واستراليا الى طريقها مما زاد في اهمية مصر. ووجدت انجلترا ان مصالحها في الهند والشرق تحتم عليها السيطرة على القناة وعلى مصر ، وتمكن دزرائيلي رئيس وزراء انجلترا في عام ١٨٧٥ من شراء اسهم مصر في القناة بثمن بخس من الخديوي المفلس مما هيأ لبريطانيا استثمار مالها وايضاً زيادة في السيطرة على القناة . وقد ذهبت بقية الاسهم لفرنسا مما ترك مصر صفر اليدين بالنسبة للقناة. وامنت تلك الصفقة المورد الهائل لكلا الحكومتين والتحكم في مصير مصر . وقد بلغ دخل حكومة بريطانيا من اسهمها في عام ١٩٣٢ ثلاثة ملايين ونصف من الجنيهات ، بينما كلفت الاسهم اربعة ملايين فقط .

وكان لزاماً على بريطانيا ان تنمي مصالحها في مصر فتزيد في فرض سلطتها عليها فقامت منذ عام ١٨٧٩ بالتدخل في الشؤون المصرية الداخلية وتمكين ممولها

من السيطرة على اقتصاديات البلاد . وقد استاء المصريون من هذا التدخل و قام فيها حزب وطني كرس نفسه لطرد الانجليز من مصر ، وكان على رأس هذا الحزب الضابط الشاب المسمى عرابي باشا الذي ينتمي الى ابوين فقيرين من الطبقة العاملة. بدأ عرابي حياته العسكرية جندياً بسيطاً ثم اخذ يترقى حتى اصبح ناظراً للحربية واصبح يرفض الامتثال لأوامر المراقبين الفرنسيين والانجليز وكان جواب انجلترا على ذلك التحدي الهجوم المسلح وضرب الاسكندرية واحراقهـا . وتمكن الانجليز من فرض حضارتهم الغربية وهزم الجيش المصري وحكم مصر بطرق مباشرة .

هكذا بدأ الاحتلال البريطاني . والاحتلال البريطاني في مصر صورة غريبة من صور العلاقات الدولية ، فالمفروض ان مصر كانت ولاية عثمانية وان بريطانيا على صلات ودية مع الدولة العثمانية ، وبالرغم من ذلك فان بريطانيا وضعت يدها على جزء من الدولة العثمانية وارسلت وكيلاً عنها بيده السلطة العليا كنائب الملك في الهند . وكان الخديوي ووزراؤه دون حول او طول . واول هؤلاء الوكلاء الميجر بيرنغ الذي حكم مصر خمسة وعشرين عاماً واصبح يلقب باللورد كرومر. وكان كرومر طاغية همه الأكبر تمكين الممولين واصحاب السندات من تحصيل ارباحهم . وكانت الارباح ترد اليهم باستمرار ، كما جعل الانجليز يتغنون بمدح مصر وسلامة اقتصادها . وقد فعل الانجليز في مصر كما فعلوا في الهند اذ حسنوا الادارة ، ولكن الدين القومي ظل على ما هو بالرغم من مرور خمسة وعشرين عاماً . اما التعليم فقد وقفوا في وجهه ، كما عطل كرومر مشروع انشاء جامعة وطنية . ويمكننا ان نحكم على سياسة كرومر من عبـارة جاءت في خطاب بعث به عام ١٨٩٢ الى اللورد سالزبوري رئيس الوزارة البريطانية ، وهي: ان الخديوي سيصبح مصرياً صميماً » . فكأن تصرف المصري كمصري ذنب لا يغفر في رأي كرومر. ومثل ذلك يحصل في الهند اذ يغضب الانجليز على الهندي الذي يتصرف بما يمليه عليه ضميره كهندي ويعاقبونه على ذلك .

وقد حقد الفرنسيون على انجلترا لاغتصابها كل الغنـائم كما غضبت بقية الدول

الاوروبية ، اما الانجليز فانهم أخذوا يحدثون الدول قائلين انهم لن يمكثوا الا قليلًا وانهم عما قريب راحلون . وقد كرروا هذا الوعد اكثر من خمسين مرة ، والله يعلم عدد تلك المرات بالضبط ، اذ ما زالوا في مصر حتى اليوم .

وفي عام ١٩٠٤ اتفق البريطانيون والفرنسيون على حل المشاكل المعلقة بينهما، وبموجب هذا الاتفاق اطلقت انجلترا يد فرنسا في مراكش مقابل اعتراف فرنسا باحتلال الانجليز لمصر . غير ان تركيا – المفروض انها ذات السلطة على مصر – فلم يؤخذ رأيها في هذا الموضوع ، كما لم تستشر الدول الاوروبية الاخري

ومن مظاهر هذه الفترة رفع يد المحاكم المصرية عن محاكمة الاجانب الذين اصبح لهم الحق في ان يحاكموا امام محاكم خاصة مكونة من قضاة اجانب . وهذا احد مظاهر امتداد السلطة الاجنبية الى خارج حدود البلد المستعمر . وقد كتب احد هؤلاء القضاة يقول :

« واعتقد ان الاجانب المقيمين في مصر كانوا معفين من معظم الضرائب . وما كان اسعد هؤلاء الذين لا يخضعون للضرائب ولا المحاكم المحلية مع انهم يملكون جميع وسائل استغلال ذلك البلد الذي يعيشون فيه » .

وهكذا امعنت بريطانيا في استغلال مصر ، وراح عملاؤها وممثلوها يعيشون حياة الفخفخة والملوك . ومن الطبيعي ان تنمو روح القومية والنزعة الى الاصلاح ومن ابرز المصلحين في القرن التاسع عشر جمال الدين الافغاني الزعيم الديني الذي اراد ان يجعل الاسلام مسايراً للاحوال الجديدة القائمة ، واصبح ينادي بقابلية الاسلام لاستيعاب المدنية الحديثة ؛ وكانت تلك المحاولة مشابهة للمحاولة التي قامت بالنسبة للدين الهندوسي وتعتمد هذه المحاولة على الرجوع الى قواعد الدين الأساسية واعطائها تفسيراً وشرحاً ومعنى جديداً وتصبح المعلومات الحديثة جزءاً متمماً للمبادىء الأساسية وتختلف هذه المحاولة عن البحث العلمي الذي يندفع بجرأة الى الامام غير مقيد نفسه بالمعتقدات القديمة . وقد تجاوز تأثير جمال الدين مصر الى البلدان العربية المجاورة .

ونشأ في مصر على اثر نشاط الحركة التجارية مع بلدان الخارج طبقة متوسطة

جديدة اصبحت عماد القومية الناشئة . وظهر من هذه الطبقة سعد زغلول اعظم زعيم مصري . ومع ان الاغلبية الدينية في مصر مسلمة ، الا انه ما زال فيها عدد لا بأس به من الاقباط المسيحيين الذين هم اكثر السكان المصريين دماً مصرياً . وقد ضمت الطبقة الوسطى كلاً من المسلمين والاقباط الذين ساروا معاً في وئام تام ، ولم تفلح محاولات الانجليز في خلق الشقاق بينهما . وقد حاول البريطانيون ان يخلقوا الشقاق ايضاً بين صفوف الحزب الوطني ، وكانوا ينجحون في بعض الاحيان كما حصل في الهند ، في استمالة بعض الزعماء المعتدلين الى جانبهم . وسأحدثك عن ذلك في الرسائل القادمة .

كانت هذه هي حالة مصر عند اشتعال نار الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ التي انضمت فيها تركيا الى جانب ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا وحلفائها . وقررت بريطانيا عندها ان تضم مصر الى املاكها ، ولكن الظروف لم تسمح لها بذلك ، فأعلنت عليها الحماية .

اما بقية اجزاء افريقيا فقصتها شبيهة بمصر لانها وقعت ضحية للاستعمار الاوروبي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . فقد انقضت الدول الاوروبية على افريقيا كما تنقض النسور على الفريسة وقسمتها فيما بينها . وكانت الطريق امام هذه الدول مفتوحة ، بيد ان ايطاليا منيت بهزيمة في الحبشة عام ١٨٩٦ . ونالت بريطانيا وفرنسا النصيب الاوفر تاركتين لبلجيكا وايطاليا والبرتغال قسماً من البلاد . اما المانيا فقد احتفظت بنصيبها حتى هزمت في الحرب العالمية . ولم يبق من الدول المستقلة في افريقيا الا الحبشة في الشرق ودولة ليبريا الصغيرة في الغرب اما مراكش فانها وقعت تحت النفوذ الفرنسي والاسباني .

وقصة احتلال اوروبا لهذه الرقعة الشاسعة طويلة وبشعة ، ولما تنته القصة بعد . والاسوأ من ذلك هي الاساليب التي استعملتها تلك الدول لاستغلال القارة وخصوصاً لاستخراج عصير المطاط . ومنذ عدة سنوات هزت انباء القسوة البربرية التي جرت في الكونغو البلجيكية ضمير العالم الذي يدعي الحضارة عندما رأى العبء الفادح الملقى على عاتق الرجل الافريقي الاسود .

وقد كانت معظم اجزاء افريقيا المعروفة بالقارة السوداء وخصوصا الاجزاء الداخلية غير معروفة في القرن التاسع عشر . ولم توضع افريقيا على خارطة العالم بصورة دقيقة الا بعد رحلات من المجازفة والمخاطرة التي قام بها كثير من البعثات الاستكشافية . واشهر المكتشفين ديفيد ليفنغستون المبشر الاسكتلندي الذي ابتلعته القارة عدة سنوات وانقطعت اخباره عن العالم . وهناك هنري ستانـــلي الصحفي الذي ذهب يبحث عن ليفنستون فوجده في مجاهل القارة .

روسيا القيصرية

١٦ مارس ١٩٣٣

●

روسيا اليوم بلد سوفييتي ، وحكومتها مؤلفة من ممثلي العمال والفلاحين . وهي من ارقى بلدان العالم في بعض الوجوه . ومهما كانت حقيقة الأوضاع القائمة فيها فان الاساس المبني عليه كل من المجتمع والحكومة هو المساواة الاجتماعيـة . اما روسيا القرن التاسع عشر فقد كانت اكثر بلدان اوروبا تأخراً ورجعيـة إذ كانت مسرحاً لاكثر انواع الاوتوقراطية والاستبداد مغالاة. ومع ان الثورات والتطورات اجتاحت غرب اوروبا فان القياصرة الروس تمسكوا بحقهم المقـدس في الملكية . وحتى الكنيسة التي كانت ارثوذكسية يونانية (وليست كاثوليكية او بروتستانتية) فانها كانت اكثر استبداداً كما انها كانت اداة في يد القياصرة . وقد لقبت روسيا (روسيا المقدسة)كما لقب القيصر (الاب الاصغر) واستغلت الحكومة والكنيسة هذه الالقاب للتمويه والتأثير على عقول الشعب وتحويل انتباهه عن الاحوال السياسية والاقتصادية . وطالما كانت (القدسية) اداة للاستغلال في العصور التاريخية المختلفة .

ومن مظاهر « روسيا المقدسة » السوط الذي كان مصلتاً فوق رأس العبيد والرهبة التي كانت تعني الاضطراب والتعذيب والتقتيل وخصوصاً لليهود. والمظهر الآخر كان قفار الاستبس في سيبيريا التي اقام فيها القياصرة السجون والمعتقلات والمقابر . وقد ارسلت اليها جموع غفيرة من المجرمين السياسيين وقامت مخيمات النفي

الكبيرة والمستعمرات التي احاطت بها قبور المنتحرين من كل جانب . فقد كان الكثيرون لا يطيقون المنفى النائي لمدة طويلة جداً فتنهار أعصابهم ، اذ لا بد لتحمل المنفى المنعزل عن العالم والاصدقاء والناس الذين يشاطرهم المرء فرحه وترحه من عقل جبار وهدوء نفساني عميق وشجاعة على تحمل المشقة . وهكذا كانت القيصرية تقطع الرأس المرتفع وتقمع كل محاولة لنيل الحرية وتضع العراقيل في وجه التنقل لمنع تسرب الافكار الجديدة من الخارج. ولكن الحرية المكبوتة دائماً تولد قوة وتجد مخرجاً للانفجار والتقدم بوثبات تقلب العربة الموثقة بها .

لقد اطلعنا في رسائلنا السابقة على لمحات متفرقة من نشاط وسياسة روسيا القيصرية في انحاء آسيا واوروبا والشرق الاقصى وآسيا الوسطى وبلاد فارس وتركيا . ولنحاول هنا ان نربط هذه اللمحات بعضها ببعض لنجد الزاوية التي ألقي منها النور على تلك الصورة. فوضع روسيا الجغرافي جعل لها وجهين احدهما يطل على الشرق والآخر يطل على الغرب، مما جعلها دولة اوروبية آسيوية وجعل تاريخها يسير مرة نحو الشرق ومرة نحو الغرب ، فاذا دحرت في الغرب التفتت نحو الشرق ، واذا استقرت في الشرق عادت ونظرت نحو الغرب

وقد حدثتك عن تفكك الامبراطوريات المغولية القديمة وماخلفه جنكيزخان من تراث وعن طرد المغول اخيراً من روسيا على يد الامراء الروس بقيادة امير موسكو في اواخر القرن الرابع عشر. واصبح امراء موسكو على اثر ذلك حكاماً اوتوقراطيين على روسيا بأكملها وخلعوا على انفسهم لقب القياصرة. وقد كانت نظرتهم وتقاليدهم مغولية الى حد كبير ومختلفة عن تقاليد اوروبا الغربية التي كانت تلقبهم بالبرابرة وفي عام ١٦٨٩ اعتلى بطرس الأكبر العرش فأراد تحويل وجه روسيا الى الغرب وقام برحلة في البلدان الاوروبية لدراسة احوالها الاجتماعية. واقتبس كثيراً من العادات التي رآها وحاول فرضها على نبلاء روسيا الجهلاء والمترددين . اما جماهير الشعب فقد كانت في حالة كبيرة من الرجعية والضنك ولم تتحمس لاصلاحات بطرس الاكبر . وقد لاحظ بطرس ان الدول الكبيرة المعاصرة له كانت لها سيطرة بحرية فلفت ذلك نظره الى اهمية القوة البحرية . ولم يكن

لروسيا آنذاك - على ضخامتها - إلا مخرج بحري واحد في المحيط المتجمد الشمالي الذي لم يكن صالحاً كثيراً للملاحة . فتحول نظر بطرس الى بحر البلطيق الواقع في الشمال الغربي والقرم الواقعة في الجنوب . ومع انه لم يصل الى القرم (ولكن احفاده فعلوا ذلك) ولكنه وصل الى البلطيق بعد ان هزم السويد واسس مدينة غربية جديدة تدعى بطرسبورغ على مدخل خليج فنلندا المؤدي الى بحر البلطيق، واتخذها عاصمة له محاولاً بذلك الابتعاد عن موسكو المتمسكة بالتقاليد القديمة ؛ وقد توفي بطرس عام ١٧٢٥

وبعد مرور اكثر من نصف قرن ، اي عام ١٧٨٢ حاولت قيصرة اخرى تدعى كاترينا الثانية ان تدخل الاصلاحات الغربية على روسيا . ودعيت كاترينا (بالعظيمة) . وقد كانت شخصية فذة تتمتع بقوة ارادة ومقدرة وقسوة وسمعة سيئة فيما يتعلق بحياتها الشخصية . وبعد ان تخلصت من زوجها القيصر عن طريق القتل أصبحت قيصرة البلاد الروسية المستبدة مدة ١٤ عاماً . وقد تظاهرت برعاية الثقافة وصادقت فولتير عن طريق المراسلات . وحاولت كثيراً تقليد بلاط فرساي الكبير وادخلت بعض الاصلاحات التعليمية . ولكن ذلك كان سطحياً ومن قبيل التظاهر لأن الثقافة لا تنقل دفعة واحدة بل يجب ان تتأصل جذورها في البلاد . والشعب المتأخر الذي يقلد الشعوب المتقدمة (كما تفعل القرود) انما هو في الواقع كمن يستعيض عن الذهب الخالص بالمعدن الرخيص . كانت حضارة اوروبا الغربية مبنية على اساس من الاحوال الاجتماعية السائدة فيها ، وحاول كل من بطرس وكاترينا ان يقلدا سطح البناء دون ان يحاولا ايجاد الاحوال التي يوضع فيها الاساس ، مما اوقع عبء هذه التغييرات على جماهير الشعب وقوّى العبودية والقيصرية الأوتوقراطية .

وهكذا كان كل درهم من التقدم في روسيا القيصرية يقترن بقنطار من التقهقر ، فكان الفلاحون الروس لا يختلفون عن العبيد كثيراً ، وكانوا مقيدين بأراضيهم لا يبرحونها الا بإذن خاص ، وكان التعليم وقفاً على بعض الضباط والمثقفين المنتمين إلى طبقة اصحاب الاراضي . وكانت الطبقة الوسطى معدومة تقريباً . أما الجماهير فقد

كانت أمية جاهلة كلياً . وقام الفلاحون في الماضي بثورات عديدة دامية وعنيفة بسبب الجور والطغيان الكبيرين ، ولكنها كانت تقمع بشدة . اما اليوم فعلى اثر دخول قليل من التعليم فقد تسربت الى البلاد بعض الافكار السائدة في اوروبا الغربية في زمن الثورة الفرنسية ونابوليون . ولعلك تذكرين ان سقوط نابوليون قد خلق رد فعل في اوروبا بأمرها ،وان القيصر الاسكندر الاكبر تزعم هذه الموجة بحلفه المقدس المؤلف من الاباطرة . اما خلفه فقد كان اسوأ من سلفه. ففي ديسمبر من عام ١٨٢٥ تحمس جماعة من صغار الضباط والمثقفين وقاموا بثورة ولكنهم كانوا جميعاً ينتمون الى الطبقة الاقطاعية فلم تعاضدهم جماهير الشعب او الجيش ، وقمعت ثورتهم . وكانت تلك الثورة هي البادرة الاولى من بوادر اليقظة السياسية في روسيا . وقد سبقها قيام جمعيات سياسية سرية نظراً الى وقوف الحكومة القيصرية بالمرصاد لكل حركة سياسية عامة . واستمرت هذه الجمعيات السرية واخذت الآراء الثورية بالانتشار بين الناس ولا سيما المثقفين وطلاب الجامعات

وبعد هزيمة روسيا في حرب القرم ادخلت بعض الاصلاحات في البلاد وألغيت العبودية عام ١٨٦١ ومع ان هذا امر ذو شأن بالنسبة للفلاحين الا انهم لم يجنوا الثمرة المرجوة لأن العبيد المعتوقين لم يعطوا اراضي كافية لإعالتهم . وظلت الآراء الثورية التي يحملها المثقفون تسير وتسير معها محاولات الحكومة القيصرية لإخمادها . ولكن المثقفين التقدميين لم تربطهم بالفلاحين صلات قوية ولذا فقد قرر هؤلاء الطلاب المتأثرون بالآراء الاشتراكية المثالية الغامضة ان ينقلوا دعوتهم الى الفلاحين فنزح الوف الطلاب الى القرى . ولما لم يكن الفلاحون يعرفون حقيقة هؤلاء الطلاب فإنهم قاموا بإزعاجهم وارتابوا في امرهم وظنوا أن هناك مؤامرة لإعادة العبودية . وبالفعل قبض الفلاحون على كثير من هؤلاء الطلاب الذين خاطروا بحياتهم من اجلهم وسلموهم للشرطة . وهذا مثل واضح عن عبث محاولة العمل دون سابق اتصال بالشعب

كانت خيبة امل هؤلاء الطلاب المثقفين مع الفلاحين صدمة كبيرة ربّت في

نفوسهم اليأس والنفور فالتجأوا الى اعمال الارهاب كرمي القنابل واغتيـال رجال الحكم . وبذا بدأت حركة الارهـاب في روسيا ودخلت الحركات الثورية مرحلة جديدة . وقد اطلقوا على منظمتهم الارهابية اسم (ارادة الشعب) والحقيقة ان اللقب كان لا ينطبق تمامـاً على الواقع لأن القائمين بها لم يمثلوا الا جماعـات صغيرة من الشعب

وهكذا دخل عهد جديد طابعه الصراع بين هؤلاء الفتيان والفتيات المندفعين والحكومة القيصرية . وقد تضخمت القوى الثورية بانضمام جماعات من شعوب روسيا المختلفة الاجناس والاقليات اليها ، والتي كانت تقاسي من معاملة الحكومة السيئة التي حرمت عليهم استعمال لغاتهم في الشؤون العامة ، وتلاقي صنوفـاً من الذل والاحتقار . فبولندا التي كانت تفوق روسيا صناعياً قد اخضعت وجعلت مجرد ولاية روسية كادت تخسر اسمها . وقد حرم استخدام اللغة البولندية . وما لاقته الاجناس الاخرى والاقليات كان اشد مما لاقته بولندا . ولمـا ثار اهل بولندا سحقت روسيا ثورتهم بشدة وعنف وارسلت خمسين الفـاً من اهلها الى سيبيريا . وكان اليهود معرضين باستمرار للمذابح مما حمل كثيراً منهم على النزوح الى بلدان اخرى

وليس غريباً ان ينضم هؤلاء اليهود وغيرهم الممتلئون حقداً وغيظـاً بسبب اضطهـاد الحكومة القيصرية لبني جنسهم الى الارهابيين الروس . وقـد نمت الحركات الارهابيـة المدعوة بحركات (الابادة) ولاقت طبعاً مقاومـة دموية على يـد القياصرة الذين قذفوا بطوابير طويـلة من المجرمين السياسيين الى قفـار سيبيريا ، وقتلوا الكثيرين منهم . وقد لجأت الحكومة القيصرية لمواجهة هـذا الخطر الذي يتهددها الى خطة غريبة في نوعها ، فارسلت من لدنها محرضين يندسون بين صفوف الثوار والارهابيين كانت مهمتهم ان يقوموا بالقاء القنابل او التحريض على فعل ذلك حتى يلصقوا التهمة بغيرهم. ومن هؤلاء المحرضين الرسميين المـدعو (أزيف) الذي كان في طليعة الثوار الذين يقومون بالقاء القنابل وكان في نفس الوقت احد رؤساء البوليس السري الروسي. وهناك امثلة اخرى موثوقة على قيام

ضباط البوليس السري القيصري بالقاء القنابل بأمر من البوليس بقصد إلقاء التبعة على الآخرين .

وفي غضون هذه السنوات ظلت الممتلكات الروسية تمتد شرقاً حتى وصلت الى المحيط الهادي، كما اخبرتك سابقاً. وقد وصلوا في اواسط آسيا الى حدود افغانستان وفي الجنوب الى الحدود التركية . ومن التطورات الجليلة الاخرى في النصف الاخير من القرن التاسع عشر قيام الصناعة الغربية في روسيا التي اقتصرت على مناطق قليلة فقط مثل منطقة بطرسبورغ وموسكو ، بينما ظلت بقية البلاد زراعية كلياً . وقد كانت المصانع الجديدة من الطراز الحديث واجمالاً تحت ادارة انجليزية . وقد نجم عن ذلك نتيجتان . فقد نمت الرأسمالية الروسية بسرعة في هذه المناطق الصناعية القليلة . ونمت بنفس السرعة ايضاً الطبقة العمالية . وقد كان العمال الروس ضحية الاستغلال البشع كاضطرارهم للعمل ليل نهار كما حدث ذلك للعمال الانجليز في اولى مراحل نظام المصانع في انجلترا. غير ان الفارق بين الحالتين هو ظهور افكار اشتراكية وشيوعية جديدة لاقت قبولاً لدى العامل الروسي الذي كان خالي الذهن من الافكار بينما كان العامل الانجليزي سجلا طويلا من التقاليد التي جعلت منه شخصاً محافظاً مرتبطاً بالافكار القديمة .

وقد اخذت هذه الافكار الجديدة بالتبلور فتشكل الحزب العمالي الديمقراطي الاشتراكي المبني على الفلسفة الماركسية المناوئة للاعمال الارهابية . وتنادي نظرية ماركس بضرورة إثارة العمال لأن الكفاح التكتلي هو السبيل الوحيد الذي يدرك به العمال اهدافهم ، واما قتل الافراد عن طريق الارهاب فلا يحمل العمال على الكفاح المشترك لأن هدفهم اسقاط الحكم القيصري لا مجرد قتل القيصر ووزرائه .

ومن بين الطلاب الذين اشتركوا في الاعمال الثورية طالب عرف فيما بعد في جميع أنحاء العالم باسم «لينين» الذي جابه في عام ١٨٨٧ وما زال في السابعة عشرة من عمره صدمة عنيفة عندما عُلق اخوه الاكبر «اسكندر» الذي كان يحبه كثيراً على حبل المشنقة لاشتراكه في محاولة ارهابية لقتل القيصر. وبالرغم من هذه الصدمة

فإن لينين صرح أنه لا يجوز نيل الحرية عن طريق الارهـاب ، وانما عن طريق الكفاح الشعبي فقط .وانصرف هذا الشاب حانقاً كاظماً غيظه الى دروسه ، وتقدم للامتحان المدرسي النهائي واجتازه بامتياز . هذه هي الطينة التي جبل منها قائد الثورة وصانعها التي اندلعت بعد ثلاثين عاماً .

كان كارل ماركس يعتقد ان الثورة العمالية التي تنبأ بقيامها ستنبعث في بلد متقدم صناعياً كألمانيا التي يوجد فيها طبقة عاملة كبيرة ومنظمة . وكان يعتبر ان روسيا ابعد البلدان احتمالاً لقيام هذه الثورة بسبب تقهقرها وحياتها الشبيهة بحياة العصور الوسطى . غير انـه صادف اتباعاً مخلصين في شباب روسيا الذين درسوا معه بحماس للاهتداء الى ما يجب عمله للقضاء على احوالهم التي لم يطيقوا معها صبراً. وكان الدافع الذي حفزهم على هذه الدراسة والتداول فيما بينهم هو انسداد ابواب النشاط الحر والاساليب الدستورية في وجههم . وكان هؤلا الشباب يرسلون زرافات الى السجون والى سيبيريا او المنفى خارج البلاد . وحيثما ساروا واصلوا دراستهم للماركسية واستعدادهم ليوم الكفاح .

ثورة روسيا (عام ١٩٠٥) الفاشلة

١٧ مارس ١٩٣٣

●

كان على الماركسيين (الحزب الديمقراطي الاشتراكي) ان يواجهوا الازمة عام ١٩٠٣ عندما بدأوا يبحثون عن السؤال الذي لا بد لكل حزب يسير على مبادىء ومثل معينة ان يبحث له عن جواب في وقت من الاوقات والحقيقة ان جميع الرجال والنساء الذين يعتنقون مثل هذه المبادىء والاعتقادات يواجهون هذه الازمات مرات عديدة في حياتهم . والسؤال الذي واجهه الماركسيون هو الاختيار بين التمسك المطلق بمبادئهم وتجهيز ثورة عمالية وبين اتباع الحل المتلائم مع الظروف القائمة وان يقوموا بمجرد تمهيد السبيل امام الثورة المرتقبة . وقد ظهر هذا السؤال في جميع بلدان غرب اوروبا وغيرها، كما ظهر الى حد ما ضعف في الحزب الديمقراطي الاشتراكي او مايشبه من الاحزاب وانشقاق داخلي . وقد صرح الماركسيون في المانيا بجرأة انهم مصممون على اتباع الرأي الثوري الكامل مع انهم في الواقع تساهلوا واتبعوا الاسلوب الاكثر اعتدالاً . وقد اعتزل كثير من الاشتراكيين في فرنسا حزبهم واصبحوا وزراء ، وكذلك في ايطاليا وبلجيكا وغيرهما . أما في بريطانيا فان الماركسية كانت ضعيفة ولم تحدث اية ازمة ، مع أن احد الاعضاء العمال اصبح وزيراً .

اما روسيا فقد كان الموقف فيها مختلفاً لعدم وجود مجال للنشاط البرلماني . وبالرغم من ذلك فقد كان هناك احتمال للتخلي عما يدعى بالوسائل غير المشروعة

من الكفاح ضد القيصرية والاستمرار في سياسة الدعاية النظرية لبعض الوقت . ولكن لينين كان واضحاً وحازماً في هذا الموضوع، فلم يقبل بالضعف او أنصاف الحلول خوفاً من اندساس الانتهازيين بكثرة بين صفوف الماركسيين . فقد رأى الوسائل التي سارت عليها الاحزاب الاشتراكية في غرب اوروبا فلم يسره ما رأى . وقد وصف ذلك فيما بعد بقوله : « ان الاساليب البرلمانية التي يسير عليها الاشتراكيون في غرب اوروبا لا تدعو الى الطمأنينة لأنهـا حولت كل حزب اشتراكي تدريجياً الى قاعة (تمني) ولا هم لاعضائه الا الرقي للوظائف واقتناصها». (وقاعة تمني موجودة في نيويورك . وقد اصبحت رمزاً للفساد السياسي) . ولم يكن لينين مهتماً بعدد الاتباع حتى انه هدد مرة ان يقف لوحده . ولكنه كان حازماً الا يقبل إلا من كانوا مستعدين للتضحية في سبيل الهدف ولا ينظرون الى هتاف الجماهير . واراد ان ينشيء جهازاً من الخبراء في شؤون الثورة الذين يمكنهم ان يسيروا بالحركة بمهارة ، اذ لم يلتفت للمؤيدين السطحيين .

وكان موقف لينين هـذا صعباً وانتقده كثيرون ، ولكن النصر كان في النهاية حليفه . وقد انقسم الحزب الديمقراطي الاشتراكي الى قسمين أصبحـا مشهورين وهما : البلشفيك والمنشفيك . ومع ان كلمة بلشفيك لها وقع سيء على الناس الآن إلا انها لا تعني اكثر من (الأغلبية) . وكلمة منشفيك معناهـا (الاقلية) ولما كان قسم لينين من الحزب المنشق عام ١٩٠٣ الأغلبية فدعي بلشفيك . ويجدر بنا ان نذكر هنا تروتسكي الذي رافق لينين في ثورة ١٩١٧ كان في بادىء الامر من حزب المنشفيك .

وحصلت المداولات النظرية في لندن لا في روسيا . فـإن الحزب الروسي اضطر لعقد اجتماعه في لندن لعدم امكان جعل هذا في روسيا القيصرية، وكان معظم اعضائه في المنفى او محكومين بأحكام مختلفة او فارين من سيبيريا.

وكان مرجل الثورة يغلي في نفس الوقت في روسيا . وقد بدأت الاضطرابات السياسية تنذر بوقوع ازمة اذ لم يكن اضراب العمال السياسي ينتج تحسيناً اقتصادياً كرفع الأجور مثلاً ، ولكن كان فقط احتجاجاً على بعض تصرفات الحكومة

السياسية وهذا يدل على وعي سياسي بين صفوف العمال . وهكذا يكون الحال اذا اضرب العمال في الهند احتجاجاً على اعتقال غاندي او احتجاجاً على ضغط الحكومة . ومن الغريب جداً ان نرى ان مثل هذه الاضرابات السياسية كانت نادرة الوقوع في غرب اوروبا بالرغم من قوة اتحادات العمال فيها. وربما كان السبب ان زعماء العمال خففوا من حدة حركات العمال خدمة لمصالحهم الخاصة. اما في روسيا فإن الجور القيصري المستمر أبقى العامل السياسي في طليعة الاعتبارات . ومنذ عام ١٩٠٣ ظهرت اضرابات سياسية كبيرة في جنوب روسيا . وكانت الحركة واسعة النطاق ولم يخفف من تأثيرها الا نقدان الزعماء القادرين على قيادتها .

وظهرت في العام التالي مشكلة في الشرق الاقصى . وقد اخبرتك في رسالة سابقة عن خط حديد سيبيريا الذي بوشر بإنشائه عبر سهول الاستبس الاسيوية الشمالية حتى يصل المحيط الهادي ، واخبرتك ايضاً عن الاشتباك مع اليابان منذ عام ١٨٩٤ والحروب الروسية اليابانية بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ . وذكرت لك ايضاً (الأحد الأحمر) ٢٢ يناير ١٩٠٥ ، عندما اطلقت فرق القيصر النار على مظاهرة سلمية يقودها احد القساوسة كانت تناشد (الأب الأصغر) اعطاءهم الخبز. واجتاحت البلاد على اثرها موجة من الذعر وقامت اضرابات سياسية عديدة . ثم قام اضراب عام شمل جميع البلاد . وهكذا بدأ نوع الثورة الماركسية الجديد.

ونظم العمال المضربون في مراكز المدن الكبرى مثل بطرسبورغ وموسكو منظمة في كل من هذه المراكز سميت (السوفييت) . وكانت هذه المنظمة في بداية الأمر مجرد لجنة تدير شؤون الاضراب. وكان تروتسكي زعيم سوفييت بطرسبورغ. وفوجئت الحكومة القيصرية بصدمة كبيرة فتراجعت ووعدت بإنشاء مجلس دستوري واجراء انتخابات ديمقراطية، وبدا صرح الاوتوقراطية وكأنه يتهاوى، وهكذا حصل العمال بإضرابهم العام على ما فشلت دونه ثورات الفلاحين الماضية ، والارهابيون بقنابلهم والدستوريون المعتدلون الاحرار بالتماساتهم المتحفظة . وأحنت القيصرية رأسها لأول مرة في تاريخها امام عامة الشعب . ومع ان هذا الفوز بالذات لم يكن الا نصراً اجوف غير ان ذكراه اصبحت نبراساً ينير

سبيل العمال .

وَعدَ القيصر ان ينشيء مجلساً دستورياً ، وهذا يعني مكاناً للتفكير لا مجرد الكلام كالبرلمـــانات الأخرى ، (وكلمة برلمان مأخوذة من كلمة فرنسية بمعنى « يتكلم ») ، وشفى هذا الوعد غليل المعتدلين الاحرار ، والمعتدلون دائماً يقتنعون بسهولة . واما الاقطاعيون فان خوفهـــم حملهم على اجراء اصلاحات استفاد منها الفلاحون الاغنيـاء . وواجهت الحكومة القيصرية بعد ذلك الثوار الحقيقيين الذين عرفت موضع ضعفهم فاستغلته . فقدكان هناك العمال الجياع الذين يهتفون مطالبين بالخبز ورفع الأجور اكثر مما تهمهم السياسة ،وكذلك كانهناك الفلاحون الفقراء الذين يهتفون مطالبين باعطائهم اراضي يفلحونهـــا ؛ وكان على الطرف الآخر الثائرون الذين يهتمون بالناحية السياسية ويطالبون بقيام برلمان شبيه بالبرلمانات الغربية ولا يفكرون كثيراً بمطالب الجماهير الغفيرة ومشاعرها . وقد انضم الى الثورة الكثيرون من الطبقة العليـا من العمال المهرة المنتظمـين في اتحـــادات العمال سعياً وراء الاهداف السياسية اما الجماهير الغفيرة في المدن والقرى فإنها كانت غير متحمسة ولذا فإن الحكومة القيصرية والشرطة اتبعا نفس الوسائل التي يتبعها جميـع الطغاة وهي خلق الانشقاق وتحريض الجماهير على بعض الجماعات الثورية . وقد قام الروس بذبح اليهود التعساء كما قام التتار بذبح الأرمن ، وقامت الاصطدامات بين الطلاب والعمال الفقراء وهكذا ، وبعد ان قصمت الحكومة ظهر الثورة في نواحٍ عديدة من البلاد تحولت الى بؤرتي الزوبعة وهما بطرسبورغ وموسكو ، فسحقت سوفييت بطرسبورغ بسهولة ، اما سوفييت موسكو فقد استغرق القضاء عليه خمسة ايام لأن الجيش انحاز الى جانب الثوار . وأتبعت الحكومة ذلك بأعمال انتقامية فاعدمت في موسكو الف شخص دون محـــاكمة وألقت سبعين الفاً في السجون وكان عدد ضحايا الثورات المتعددة في البلاد ١٤٠٠٠ شخص .

وهكذا انتهت ثورة عام ١٩٠٥ بالخيبة والدمار، ولكنها كانت بمثابة مقدمة للثورة الناجحة التي وقعت عام ١٩١٧ فالجماهير تحتاج الى الدروس المستقاة من

الحوادث العظيمة لتنمية الوعي والتمكن من العمل على نطاق واسع . وقد تلقت الجماهير درسها من ثورة عام ١٩٠٥ الذي دفعت ثمنه غالياً .

وقد تم انتخاب مجلس « الدوما » واجتمع في مايو من عام ١٩٠٦ ومع انه لم يكن مجلساً ثورياً إلا انه كان متحرراً لدرجة لا يسمح بها القيصر ، ففضه بعد شهرين ونصف من اجتماعه ، لأنه لم يقم وزناً للقيصر بعد ان اخمد الثورة .

وقد رحل اعضاء مجلس « الدوما » المنحل والذين ينتمون الى الاحرار الدستوريين من الطبقة الوسطى الى فنلندا التي كانت قريبة من مدينة بطرسبورغ وكانت شبه مستقلة ، ولو انها كانت تحت سيادة القيصر الإسمية وناشد هؤلاء اللاجئون الشعب الرومي الامتناع عن دفع الضرائب ورفض التطوع في الجيش او البحرية الروسية احتجاجاً على فض مجلس الدوما ولكن بعض الافراد من جماهير الشعب لم يمكنهم التحرك كما هو مطلوب

وفي عام ١٩٠٧ انتخب مجلس « دوما » آخر . وحاولت الشرطة منع المرشحين الراديكاليين من الفوز بالانتخابات بشتى الطرق والوسائل والعراقيل ولا سيما باعتقال بعضهم كلما دعت الحاجة الى ذلك . وبالرغم من ذلك فقد كان المجلس الجديد محل سخط القيصر ففضه بعد ثلاثة شهور من اجتماعه واتخذت حكومة القيصر الخطوات الكفيلة بعدم نجاح الاشخاص غير المرغوب فيهم ، وكان ذلك عن طريق تعديل قانون الانتخاب . ونجحت الحكومة في ذلك وصار مجلس الدوما الثالث ممثلاً للمحافظين المرضي عنهم ، فعمر المجلس طويلاً .

ولعلك تعجبين للسبب الذي حمل القيصر على انتخاب مجالس الدوما الضعيفة هذه مع انه كان يستطيع ان يحكم كما يريد بعد ان اخضع ثورة عام ١٩٠٥ . ولعل احد الاسباب محاولة القيصر ارضاء بعض الجماعات الصغيرة في روسيا مثل الاقطاعيين والتجار . فقد كانت الحالة في البلاد سيئة جداً ، ومع ان الشعب قد أخضع إلا انه كان حانقاً ناقماً . ووجد القيصر ان من الحكمة المحافظة على صداقة الاغنياء . ولكن السبب الأهم كان محاولة القيصر الادعاء امام البلدان الغربية بأنه

كان حاكماً متحرراً ، بعد ان اصبح فساد حكومة القيصر وطغيـانه مضرب الامثال في اوروبا . وأعتقد ان احد زعماء حزب الاحرار في انجلترا صـاح في مجلس العموم البريطاني على اثر سقوط مجلس الدومـا الاول قائلاً : « لقد مات الدوما ، عاش الدوما الجديد » . وكان القيصر ايضاً في حاجة قصوى للمال الذي كان يقرضه اياه الفرنسيون، والذي تمكن به من اخضـاع ثورة عـام ١٩٠٥ . وهكذا نرى عجباً اذ نرى فرنسا الجمهورية تؤازرالاوتوقراطية الروسية على سحق الراديكاليين والثائرين فيها . غير ان فرنسا الجمهورية لم تعن في الواقع الا اصحاب المال والبنوك . وعلى كل فقد كان على القيصر ان يتمسك بالمظاهر ؛ فاستخـدم الدوما لهذا الغرض

ولكن الحالة في اوروبا والعالم اجمالاً كانت تتطور بسرعـة فائقة . فاصبحت بريطانيا لا ترهب جانب روسيا كما كانت قبل هزيمة الاخيرة على يد اليـابان ، والتفتت الى منافس جديد مخيف وهو المانيا التي زاحمتهـا في الصناعـة وفي البحر الذي كانت تعتبره بريطانيا وقفاً عليها . والواقع ان خوف فرنسا ايضـاً من ألمانيا هو الذي دفعها الى بذل المال الى روسيا واصبح (الشر) الالمـاني سبباً في خلق الود بين عدوين لدودين ، وتمت في عام ١٩٠٧ معـاهدة بريطانية روسية حلت جميع المشاكل المعلقة بين البلدين في افغانستان والعجم وغيرهمـا . وتلاها اتفاق ثلاثي بين انجلترا وفرنسا وروسيا قصد منه الوقوف في وجه التحالف الثلاثي المكوّن من ألمانيا والنمسا وايطاليا . فقد كانت النمسا منافسة لروسيا في البلقان وحليفة لألمانيا وكذلك كانت ايطاليا ولو على الورق . وابتـدأ المعسكران يعدان العدة للحرب بينما كانت الشعوب غارقة في نومها غير عالمة بما يخبئه لها القدر من اهوال .

كانت السنوات التي تلت ثورة ١٩٠٥ سنوات رد فعل . فقد سحقت البلشفية والعناصر الثورية الاخرى سحقاً كاملاً . وكان بعض الفلاسفة في المنفى مثل لينين يواصلون جهودهم بصبر وعزم ويكتبون الكتب والمقالات ويحاولون ان يجعلوا الماركسية ملائمة للظروف الجديدة . واتسعت شقة الخلاف بين المنشفيك (حزب

الاقلية المعتدل) والبلشفيك . وارتفعت اسهم البلشفيك خلال سنوات رد الفعل هذه ، وكانت في الواقع اكبر عـدداً من الحزب الآخر . ولكن تحولاً آخـر طرأ على البلاد منذ عام ١٩١٢ اذ قويت الاعمال الثورية ثانية كما قويت البلشفية . وفي منتصف عام ١٩١٤ قويت الدعوة في بتروغراد الى الثورة وقامت الاضرابات السياسية الضخمة كالتي حصلت عام ١٩٠٥ . ولكن الثورات تظهر العناصر الغريبة التي تندس فيها. فقد ظهر ان ثلاثة من اعضاء اللجنة البلشفية السبعة في بطرسبورغ كانوا من رجال الخدمة السرية القيصرية . وكان عدد البلاشفة في مجلس الدومـا قليلاً ، وكان زعيمهم مالينوسكي الذي ظهر انه كان في الواقـع عميلاً للشرطة مع ان لينين كان يثق به .

واضرمت نار الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ فحولت الانظار فجـــأة الى الطرفين المتحاربين وجند معظم العمال وماتت الحركة الثورية . اما الاقلية البلشفية التي نددت بالحرب فانها تعرضت الى كراهية الشعب .

اتوقف هنا عن الاسترسال ، وأكتفي بأن ألفت نظرك الى الفن والادب الروسيين . فقد نجحت روسيا القيصرية على الرغم من اخطائها الكثيرة في رعـــاية الرقص الروسي المشهور . واظهرت روسيا القرن التاسع عشر عدداً من الادباء الذين خلفوا تراثاً ادبياً خالداً واظهروا براعة في القصص الطويلة والقصيرة . وقد عاش في بداية ذلـك القرن بوشكين معـــاصر اللورد بايرون وشيلي وكيتز والذي يقال انه اعظم الشعراء الروس . ومن ادباء القرن التاسع عشر القصصيين جوجول وتورجنييف ودستويفسكي وتشيكوف . ولعل اعظمهم جميعـــاً ليو تولستوي الذي كان نابغة قصصياً وزعيماً دينياً وروحياً بعيد الأثر لدرجة ان شهرته وصلت الى غاندي عندما كان في جنوب افريقيا، فأكبر كل منهما صاحبه وراسله بعد ان ارتبطت بينهما رابطة الايمان بعدم جواز استخدام القوة . فقد قال تولستوي ان السلام هو الاساس الذي بنيت عليه تعاليم المسيح ، ووصـل غاندي الى نفس النتيجة بالاستناد الى المخطوطـات الهندوكية القديمة . وبينما ظل

تولستوي نبياً يتمشى مع مبادئه وبعيداً عن الجماهير ، قام غاندي بتطبيق هـذا المبدأ عملياً وبطريقة ايجابية في جماهير الناس في جنوب افريقيا والهند .

ومن مشاهير الكتاب الروس ايضاً في القرن التاسع عشر مكسيم غوركي .

زوال القيصرية في روسيا

٧ ابريل ١٩٣٣

●

عندما سردت لك قصة الحرب العظمى اشرت الى الثورة الروسية والى تأثيرها على الحرب . كانت هذه الثورة بالاضافة الى ذلك حادثاً جليلاً وفريداً في نوعه في العالم . ومع انها كانت الاولى من نوعها ، الا انه لم يمر زمن طويل حتى لا تبقى الثورة الوحيدة من هذا النوع لأنها اصبحت مثالاً للبلدان الاخرى وحافزاً لها . ولذا فإنها تحتاج الى دراسة دقيقة . وكانت الثورة الروسية اكبر ما تمخضت عنه الحرب مع انها كانت اقل ما ترغب في حدوثه الحكومات الرجعية والسياسيون الاوروبيون الذين زجوا بأنفسهم في خضم الحرب . ولعل الأصح ان نقول انها كانت وليدة الاحوال التاريخية والاقتصادية السائدة آنذاك في روسيا، والتي طفح كيلها بالخسائر الفادحة والمآسي التي خلفتها الحرب والتي استغلها احسن استغلال عبقري الثورة لينين .

لقد حدثت في الواقع ثورتان في عام ١٩١٧ ، الأولى في مارس والأخرى في نوفمبر. ولكن يمكننا القول انه كانت هناك ثورة واحدة متصلة وصلت الى نقطتين مرتفعتين في هذين الشهرين .

وقد اخبرتك في رسالتي الأخيرة عن ثورة عام ١٩٠٥ التي قامت ايضاً إبان حرب خاضتها روسيا . وقد اخمدتهـــا حكومة القيصر بقسوة واسترسلت في حكمها الاوتوقراطي مطلقة الجواسيس للكشف عن الاحرار وسحقهم . وقـد

ـحق الماركسيون البلشفيون، وبات زعماؤهم من رجال ونساء إما في السجون في سيبيريا او في المنفى في البلاد الخارجية . ولكن هؤلاء المنفيين قلة ، وواصلوا كفاحهم ببث الدعاية والدراسة الشيوعية بقيادة لينين . وكانوا جميعاً مؤمنين بالماركسية. ولكن النظرية الماركسية كانت قد اعدت لبلد متقدم صناعياً كألمانيا وانجلترا . اما روسيا فإنها ما زالت بلداً زراعياً من عهد القرون الوسطى، ولم يكن فيها من الصناعة الا القليل في المدن المهمة . وراح لينين يعدل مبادىء النظرية الماركسية حتى توافق حالة روسيا ، وكتبَ كثيراً حول الموضوع، وكثر الجدال بين رجال المنفى الروس حول نظرية الثورة. وكان لينين يؤمن بأن تكون المهمة في يد رجال خبراء متدربين لا مجرد ثوار متحمسين ، وكان يرى ان محاولة الثورة يجب ان تقترن بتدريب الناس على ما يجب عليهم ان يعملوه عندما تقوم الثورة الفعلية. وهكذا استغل لينين ورفاقه الزمن الذي تلا عام ١٩٠٥ في اعداد انفسهم للعمل المقبل

وفي مطلع عام ١٩١٤ بدأ الوعي والنزعة يدبان في اهل المدن في روسيا مرة ثانية . وقامت الاضرابات السياسية العديدة. ولما قامت الحرب شغلت بها الافكار وارسل معظم العمال الى جبهة القتال وقد قاوم لينين ورجاله (ومعظمهم في المنفى) الاشتراك في الحرب منذ البداية ، ولم ينساقوا اليها كما انساق الاشتراكيون في البلدان الاخرى ، اذ اعتبرها لينين حرباً رأسمالية لا ناقة للطبقة العاملة فيها ولا جمل ، ولا يهم العمال منها إلا انها ستكون السبيل الى حريتهم .

وقد مُنيَ الجيش الروسي بخسارة فادحة لعلها اعظم من خسارة الجيوش المشتركة في الحرب .وكان الضباط الروس على درجة من العجز تزيد كثيراً عن عجز الضباط العاديين . وكان الجنود الروس مزودين بالاسلحة الفاسدة وبدون ذخيرة ودون حماية مما جعلهم يسقطون صرعى بمئات الالوف وكان الاستغلاليون ينشطون في بتروغراد(بطرسبورغ) وغيرها من المدن الكبيرة، ويتاجرون بهذه التعاسة وينمون ثروتهم وكانت مصلحة هؤلاء التجار ان تستمر الحرب طبعاً الى النهاية او الى ما لا نهاية . اما العمال والفلاحون الذين ينتمي اليهم

الجنود فقد انهكت قواهم وذاقوا الجوع وامتلأوا نقمة وسخطاً .

وكان القيصر نيقولا على درجة كبيرة من الغباوة ، وواقعاً تحت تأثير زوجته القيصرة التي تشاركه الغباء وتفوقه في قوة الارادة . وقد أحاطا نفسيهما بالاوغاد والمعتوهين ، ولم يجرؤ احد على انتقادهما . وظـــل الامر يتدهور حتى اصبح الوغد المشهور (راسبوتين) الصديق المفضل للقيصرة . و(كلمة راسبوتين معناها الكلب القذر) وقد بدأ حياته فلاحاً فقيراً وسارقاً للخيول ، فاراد ان يستر خصاله الدنيئة بستار من القدسية الدينية ، وان يمتهن المهنة الرائجة وهي مهنـــة المتصوفين . وكانت الصوفية في روسيا – كما هي في الهنـــد – تغل على اصحابها المال الوفير . واوسل راسبوتين شعره ، وطارت شهرته حتى طرقت ابواب البلاط القيصري . وكان للقيصر ابن وحيد مريض اسمه تساريفتس . فاستغل راسبوتين الفرصة وحمل القيصر على الاعتقاد انه يستطيـــع اشفاءه . وابتسم الحظ لراسبوتين وأصبح من الحظوة ، وصار يسيطر على القيصر والتعيينات في مناصب الدولة العليا. وعاش عيشة من الاباحية والرشوة واستغلال النفوذ مدة من الزمن .

وقد عمّ السخط على هذه الاعمال ، واشترك في ذلك المعتدلون والارستقراطيون ، وبدأ الناس يهمسون بقيام انقلاب لتبديل القيصر . ونصب القيصر نفسه قائداً أعلى للجيش واخذ يتصرف في شؤون الدولة بشكل فاضح وقبل نهاية عام ١٩١٦ بأيام قتل راسبوتين على يد احد افراد العائلة المالكة . فقد دعي الى عشاء وطلب اليه ان يطلق النار على نفسه ، فلما رفض أطلقت عليه النار . واستقبل الناس وفاة راسبوتين بارتيـــاح وشعور بالفرج ، غير ان سلك القيصر السيامي قام بالاعمال الارهابية التعسفية .

واشتدت الازمة وانتشرت المجاعة وقامت مظاهرات الجائعين في بتروغراد . وفي اوائل شهر مارس اندلعت الثورة فجأة من شدة العذاب الذي يرزح تحته العمال واحرزت الثورة نصرها بين اليومين الثامن والثاني عشر من مارس ولم تكن ثورة يشرف عليها القصر او ثورة محكمة التنظيم يدير شؤونهـــا زعماء مفكرون بل كانت منبثقة من الدرجات الدنيا من العمال المظلومين وشاقة طريقها

دون هوادة او تنظيم او زعامة ووقعت الاحزاب الثورية وخصوصا البلاشفة المحليون في حيص بيص لا يدرون كيف يوجهون الثورة التي فاجأتهم. وامسكت الجماهير زمام الموقف واستمالت الى جانبها الجيش الموجود في بتروجراد واحرزت بذلك النصر المؤكد. وعلينا ألا نخلط هنا بين الجماهير الثائرة وبين الرعاع الذين لا هم لهم الا الخراب كالذي ساد ثورات الفلاحين السابقة والجدير بالذكر ان ثورة مارس كانت اول ثورة في التاريخ يقوم بقيادتها طبقة عمال المصانع المدعوة (البروليتاريا) ومع ان هؤلاء العمال كانت تنقصهم الزعامة الفذة (لان لينين واصحابه كانوا في السجن او المنفى)، الا انه كان بين صفوفهم كثير من العمال المجهولين الذين تدربوا على يد رجال لينين. وكان هؤلاء العمال المجهولون المنتمون الى عشرات المصانع هم العمود الفقري للثورة التي قادوها حسب خطط معينة.

ونرى – لأول مرة – الجماهير الصناعية في نضالها. وكانت روسيا اجمالاً بلداً زراعياً لا تفضل حالته العصور الوسطى. وكانت الصناعة الحديثة محصورة في بعض المدن مثل بتروجراد التي كان فيها عدد كبير من المصانع والعمال الصناعيين. وكانت ثورة مارس ثمرة جهاد هؤلاء العمال والجنود المرابطين في تلك المدينة.

دقت طبول الثورة في الثامن من مارس وتقدمت عاملات النسيج الصفوف وتظاهرن في الشوارع. وفي اليوم التالي عمت الاضطرابات، وخرج الرجال وعلت صيحات المطالبة بالخبز (وسقوط الاوتوقراطية). وارسلت الحكومة فرق القوقازيين التي كانت سند القيصر الاول لسحق العمال المتظاهرين. ولكن القوقازيين اكتفوا بتفريق الناس دون اطلاق الرصاص عليهم، ولما لاحظ العمال موقف الجنود السمح ايقنوا ان الجنود كانوا الى جانبهم فزاد ذلك حماس الجمهور وجعلهم ينادون بالاخوة مع القوقازيين. اما الشرطة فقد تعرضت للنقمة وحجارة الجماهير. وفي اليوم العاشر قويت الروح الاخوية بين الجمهور والقوقازيين واشيع بين الناس ان الجنود القوقازيين اطلقوا النار على الشرطة الذين كانوا يطلقون النار على الجمهور. ثم انسحبت الشرطة من الشوارع وتقدمت النسوة من جنود القوقازيين

واثرن نخوتهم وحميتهم ، فنصب هؤلاء حرابهم واخذوا يدافعون عن الشعب .

وفي اليوم الحادي عشر (يوم الاحد) تجمهر العمال في اواسط المدينة واخذت الشرطة تطلق عليهم النار من مكامنها . واطلق ايضاً الجنود النار على الشعب مما جعله يسير الى مقر الفرقة ويرفع الشكوى المريرة لها ، فثارت عاطفة الفرقة وخرجت تحت قيادة الضباط الصغار لتحمي الشعب وتطلق النار على الشرطة. ومع ان رجال الفرقة اعتقلوا الا ان ذلك جاء بعد فوات الاوان ، لأن اليوم التالي شهد خروج فرق اخرى ببنادقها ومدافعها الرشاشة ، واشتد اطلاق النار في الشوارع واختلط الحابل بالنابل . واخيراً تقدم الجنود والعمال للقبض على بعض الوزراء (بعد ان فر الآخرون) ورجال الشرطة والخدمة السرية ، واطلقوا سراح المعتقلين السياسيين .

انتصرت الثورة في بتروجراد وحذت موسكو حذوها بسرعة ، وبقي اهل القرى يراقبون التطورات ، واخيراً قبلوا الامر الواقع دون حماس لان الذي كان يعنيهم هو الارض والطمأنينة لا الحكم والسياسة .

اما القيصر فانه كان في تلك الاثناء بعيداً عن بتروجراد في بلدة صغيرة يدير منها شؤون جيشه بصفته القائد الاعلى . ولكنه كان كالثمرة الناضجة التي لا بد لها من الذبول والسقوط . وهكذا زال القيصر العظيم الاوتوقراطي الذي كان يرتعد من مهابته الملايين و (الأب الصغير) لروسيا المقدسة ، واختفى في سلة مهملات التاريخ . وما اغرب الطريقة التي تتهاوى بها الانظمة بعد ان تلعب الدور الذي فرضه لها القدر وتعيش العمر المقرر لها . وعندما بلغ القيصر نبأ اضرابات العمال والاضطرابات في بتروجراد امر باعلان الاحكام العرفية ومع ان القائد المسؤول اعلن ذلك رسمياً غير ان الامر لم يذع او ينشر في المدينة لان الناس رفضوا ان يفعلوا ذلك . وتعطلت الاجهزة الحكومية وانحلت . وقرر القيصر الذي لم يدرك بعد خطورة ما حصل ان يعود الى بتروجراد ، فاوقف عمال السكك الحديدية قطاره . وبعثت القيصرة الموجودة في ضواحي بتروجراد برقية الى القيصر فاعيدت من مكتب اللاسلكي مكتوباً عليها بقلم رصاص

«المرسل اليه مجهول الاقامة» !.

افزعت هذه التطورات ضباط الجيش في الجبهة والزعماء الاحرار في بترو جراد فارادوا انقاذ ما يمكن انقاذه فتوسلوا الى القيصر ان يتنازل عن العرش ففعل ذلك وسمى أحد اقربائه ليخلفه . ولكن الثورة قررت وضع حد للقيصرية وسدل الستار على اسرة رومانوف التي لعبت دوراً في التاريخ استغرق ٣٠٠ سنة .

ونظر الارستقراطيون واصحاب الاراضي والطبقة الوسطى الغنية وحتى الاحرار والمصلحون الى انفجار بركان الطبقة العاملة برعب وفزع . واسقط في يدهم عندما رأوا الجيش – وهو معقلهم الاخير – ينحاز الى الثوار . ولكنهم لم يتأكدوا بعد لمن ستكون الغلبة في النهاية فلربما تمكن القيصر من العودة بجيش من الجبهة وسحق الثوار . وهكذا كان هؤلاء في حالة لا يحسدون عليها، فقد كانوا يخافون العمال من جهة والقيصر من جهة اخرى وكانوا يريدون ان يحافظوا على حياتهم . اما مجلس الدوما الذي كان يمثل اصحاب الاراضي والطبقة البورجوازية الغنية والذي كان الثوار يعلقون عليه (ولو قليلاً) من الأمل فقد استبد برئيسه واعضائه الخوف فلم يتقدموا لانقاذ الموقف ولم يعلموا ما سيفعلون.

اما السوفييت فانه نظم نفسه واضيف الى ممثلي العمال ممثلون عن الجنود واحتل السوفييت الجديد جناحاً من قصر تورايد الذي كان يحتل جزءاً منه مجلس الدوما . وولدت نشوة النصر حماساً جديداً في العمال والجنود، ولكنهم احتاروا ما الذي يفعلونه بهذا النصر ، فقد حصلوا على السلطة ولم يبق الا معرفة من سيتولى زمامها . ولم يدر بخلدهم ان يقوم السوفييت نفسه بذلك بل اعتقدوا ان ذلك يجب ان يكون مقتصراً على الطبقة البورجوازية . وذهبت بعثة من السوفييت الى مجلس الدوما وطلبوا منه مباشرة الحكم . وقد خشي رئيس المجلس واعضاؤه ان تكون تلك البعثة قادمة لإلقاء القبض عليهم ، ولم يريدوا ان يتدخلوا في شؤون الحكم ، وخافوا من سوء العاقبة ان هم فعلوا ذلك . ولما اصرت بعثة السوفييت على طلبها اذعن المجلس لذلك وقبلت لجنة من مجلس الدوما الحكم بعد تردد وخوف . اما الشعب فقد ظهر له ان الدوما هو الذي كان يقود الثورة . وما اغرب هذه

الملابسات التي لو قرأناها في قصة لما صدقنا انها محتملة الوقوع ، ولكن الحقيقة كثيراً ما تكون اغرب من الخيال !

كانت الحكومة المؤقتة التي عينتها لجنة الدوما محافظة جداً ، وكان رئيس الوزارة فيها اميراً ؛ وكان يحتل الجناح الآخر من نفس البناية مجلس السوفييت الذي كان دائم التدخل في اعمال الحكومة المؤقتة . وكان السوفييت معتدلاً كما كان عدد البلاشفة فيه قليلاً . وهكذا كانت الحكومة في الواقع مزدوجة اذ كانت هناك الحكومة المؤقتة والسوفييت ، وكان وراءهما الجماهير الثائرة التي واصلت الثورة وانتظرت ان تجني الكثير على يديها . وكان كل ما حصل عليه الجياع من الحكومة الجديدة هو مواصلة الحرب حتى تنهزم المانيا . ولكن هل كان ذلك هو الذي يسعى اليه الثوار وطردوا القيصر من اجله .

وفي ١٧ ابريل ١٩١٧ برز لينين على المسرح الرومي اذ عاد الى بلاده بعد ان كان في سويسرا خلال سني الحرب يرتقب فرصة العودة الى الوطن حال قيام الثورة . وكيف تمكن لينين من العودة ؟ لقد كانت انجلترا وفرنسا تحظران عليه العبور بأراضيها ، وكذلك فعلت كل من المانيا والنمسا . واخيراً سمحت له الحكومة الالمانية لاسباب خاصة بها العبور في قطار مغلق من الحدود السويسرية الى الحدود الروسية . وكانت المانيا تأمل طبعاً ان يؤدي وصول لينين الى روسيا الى اضعاف الحكومة الموقتة والحرب ، لأنه كان يعارض الحرب . وهكذا ظنت المانيا انها ستستفيد من لينين غير عالمة ان ذلك الثائر سيهز اوروبا والعالم عما قريب .

ولم يكن الشك او الغموض ليجدا سبيلاً الى ذهن لينين الذي كان له نظر ثاقب يكشف خبايا الجماهير وعقل راجح ييسر له تطبيق المبادىء المدروسة بحيث تلائم الظروف القائمة ، والارادة الحديدية التي تندفع الى تنفيذ الخطط المرسومة دون خوف من العواقب . وما كادت قدماه تطآن ارض الوطن حتى هز الحزب البلشفي هزة عنيفة ولام اعضاءه على الجمود وشرح لهم باسلوب ناري الواجبات الملقاة على عواتقهم . وكان حديثه ذلك بمثابة الشرارة الكهربائية التي تؤلم الانسان

ولكنها تبعث فيه الحياة . وقد قال « لسنا دجالين ، وعلينا ان نؤسس انفسنا على رعاية وعي الجماهير فقط ، ولو اقتضى ذلك ان نبقى اقلية – وعلينا ان لا نخشى من ذلك لأنه قد يكون من الخير التخلي عن الزعامة لمدة من الزمن . » وهكذا تمسك بمبادئه ورفض التساهل فيها . ووجدت الثورة التي ظلت هائمة على وجهها دون قيادة او توجيه زعيمها في النهاية ، واظهرت الساعة رجلها المنشود .

والآن ما هي الفوارق النظرية التي فصلت المنشفيك عن البلشفيك والجماعات الثورية الاخرى في هذه المرحلة ؟ وما هي الاسباب التي شلت نشاط البلشفيك المحليين في الفترة التي سبقت عودة لينين ؟ لماذا تخـــلى السوفييت عن السلطة التي وقعت في يده الى مجلس الدوما الرجعي المحافظ ؟ لا استطيع ان اجيب على هذه الاسئلة بتعمق ، وان كان علينا ان نوليها بعض تفكيرنا اذا اردنا ان نفهم الرواية ذات الفصول المختلفة المتلاحقة التي جرت في بتروجراد خاصة وروسيا عامة في عام ١٩١٧

كانت نظرية كارل ماركس حول تطور الانسان وتقدمه المسماة (النظرة المادية للتاريخ) مبنية على ظهور اوضاع اجتماعية جديـــدة تحل محل الاوضاع القديمة عندما تصبح الاخيرة متخلفة عن العصر الذي تعيش فيه . وعندما تطورت اساليب الانتاج الصناعي تطور تبعاً لذلك وبالتدريج نظام المجتمع الاقتصادي والسياسي . وقد حصل ذلك عن طريق تنازع طبقي مستمر بين الطبقة الحاكمة والطبقات المستقلة . وهكذا أخلت الطبقة الاقطاعية مكانها في غرب اوروبا الى طبقة بورجوازية التي اخذت تتحكم الآن في الكيان الاقتصادي والسياسي في انجلترا وفرنسا والمانيا وغيرها وهذه بدورها ستخلي مكانها الى طبقة العمال وكانت الطبقة الاقطاعية هي المتحكمة حتى ذلك الحين في روسيـا ، ولم يحصل هناك ما حصل في غرب اوروبا من حلول الطبقة البورجوازية محل الطبقة الاقطاعية . ولذا فان معظم الماركسيين ظنوا انه لا محالة من وجوب مرور روسيا بالمرحلة البورجوازية والبرلمانية قبل ان تتمكن من الوصول الى المرحلة النهائية التي تتم فيها الجمهورية العمالية . ولا يمكن حسب رأيهم القفز عن المرحلة المتوسطة . وكان

نفسه قبل ثورة مارس ١٩١٧ قد وضع سياسة وسطاً للتعاون مع الفلاحين (وعدم مقاومة البورجوازية) للوقوف في وجه القيصر واصحاب الاراضي في سبيل قيام الثورة البورجوازية .

ولذا فقد كان البلشفيك والمنشفيك وجميع المؤمنين بالنظريات الماركسية يعتقدون بوجوب قيام جمهورية بورجوازية ديمقراطية على النمط الانجليزي والفرنسي. واعتقد زعماء ممثلي العمال ان ذلك امر مفروغ منه . وهذا هو السبب الذي حمل السوفييت على عدم استئثاره بالسلطة وتقديمها الى مجلس الدوما . وقد اصبح هؤلاء الناس ، كالكثيرين منا ، عبيداً لمبادئهم ، ولم يستطيعوا ان يدركوا ان وضعاً جديداً قد ظهر الى حيز الوجود ويتطلب سياسة مختلفة اوعلى الأقل تعديلاً مناسباً في السياسة القديمة . ولكن الجماهيركانت اكثر امعاناً في الثورة من القادة. وتمادى البلشفيك ، الذين كانت لهم السيطرة على السوفييت في ذلك الحين حتى انهم صرحوا ان ليس للعمال ان يثيروا مسائل اجتماعية في تلك الفترة ، لأن هدفهم الاساسي كان الحصول على الحرية السياسية . وكان البلشفيك في موقف معتدل ، وتم النجاح لثورة مارس بالرغم من تردد زعمائها وحذرهم .

وقد قلبت عودة لينين الموقف ، فقد أحس لينين بتفاصيل الحالة وقام بعبقرية الزعيم الحق بتطبيق البرنامج الماركسي حسب مقتضيات الظرف القائم وتقرر قيام الكفاح ضد الرأسمالية نفسها في سبيل حكم الطبقة العاملة بالتعاون مع الفلاحين الفقراء . واصبحت هتافات البلشفيك الرمزية الثلاث هي : اولاً : جمهورية ديمقراطية، ثانياً : مصادرة المزارع الاقطاعية ، ثالثاً : ٨ في ساعات عمل في اليوم . وفي الحال ألبست هذه الهتافات كفاح العمال والفلاحين ثوب الحقيقة ، ولم يعد كفاحهم مجرد فكرة غامضة جوفاء ، بل كفاحاً في سبيل الحياة والامل بغد اصلح .

وكانت سياسة لينين تهدف الى ان يكسب البلشفيك غالبية العمال الى جانبهم وان يسيطروا بذلك على السوفييت الذي يقوم عندها بانتزاع السلطة من الحكومة الموقتة . ولم يكن لينين يهدف الى ثورة اخرى في الحال . وكان يصر على وجوب

كسب غالبية عمالية في السوفييت قبل ان يحين الوقت لاسقاط الحكومة الموقتة. وكان لا يرحم المنادين بالتعاون مع هذه الحكومة الموقتة لأن ذلك خيانة للثورة، وكان في نفس الوقت ايضاً لا يرحم الذين يريدون الاندفاع واسقاط الحكومة قبل الأوان. وقد قال : «يجب على الانسان في وقت العمل الجدي ألا يحيد عن الهدف لأن ذلك في نظرنا جريمة كبرى وفوضى».

وهكذا اندفعت هـــذه الكتلة الجليدية التي تخفي في طياتها ناراً متأججة الى هدفها المرسوم بهدوء وعزيمة لا تلين، كما يسير القدر المحتوم.

البلاشفة يتولون السلطة

٩ إبريل ١٩٢٣

●

ان التاريخ يسير في الثورات بقدم طولها سبعة فراسخ . فمع ان التغييرات السطحية تسير بسرعة الا ان التغيير في وعي الجماهير يسير بسرعة اكبر . ولا تتعلم الجماهير كثيراً من الكتب لأن الفرصة لم تتح لها لتلقي العلم ، كما ان الكتب نفسها تخفي من الحقائق اكثر مما تعلن . ومدرستهم اذن هي مدرسة الخبرة العملية الوعرة والأصدق تعليماً . وان فترة الثورة التي يسودها الكفاح من اجل الحياة او الموت تميط اللثام عن الدوافع الحقيقية للجماعات ، وتكشف النقاب عن اسس المجتمع الحقيقية . وهكذا راح الشعب في عام ١٩١٧ الحافل بالاحداث التاريخية ولا سيما العمال الصناعيون الذين كانوا في غمار الثورة – يتعلمون دروساً من الحوادث ويبدلون امورهم يوماً بعد يوم .

ولم يكن هناك اي استقرار او طمأنينة في اي مكان ، اذ كانت الحياة تتطور بسرعة فائقة والجماعات تتنازعها اتجاهات مختلفة . فقد ظل بعض الناس يتآمرون ويحلمون بعودة القيصرية لكنهم لم يكونوا ينتمون الى طبقة مهمة ، ويمكننا اهمالهم . وكان النزاع الحقيقي هو القائم بين الحكومة المحلية والسوفييت ، مع ان غالبية السوفييت كانت ترى وجوب التعاون والتفاهم مع الحكومة وكان المنادون بالتفاهم يخشون ان يطلب منهم تولي السلطة وحكم البلاد . وقد قال احد خطباء السوفييت : « من منا سيحل محل الحكومة ونحن نرتعش خوفاً ؟ » وهذا

ما سمعناه في الهند من كثيرين كانت اياديهم وقلوبهم ترتعد خوفاً . ولكن اذا جد الجد فلن تختفي السواعد القوية والافئدة الباسلة .

ولم يكن بد من وقوع التصادم بين الحكومة المركزية والسوفييت بالرغم من وجود العناصر المتساهلة في كلا الجانبين. فقد كانت الحكومة تحاول ارضاء الحلفاء بمواصلة الحرب وارضاء اصحاب الاراضي في روسيا بالمحافظة على مصالحهم . ولما كان السوفييت اقرب الى الشعب من الحكومة فإنه احس برغبة الشعب في السلم ورغبة المزارعين في الاراضي والحاح العمال بالمطالبة بثماني ساعات عمل فقط في اليوم. وهكذا شلّ السوفييت حركة الحكومة كما شلت الجماهير حركة السوفييت لأن الجماهير كانت مندفعة نحو الثورة اكثر من اي حزب او زعيم ..

وقد جرت محاولة لجعل الحكومة تسلك سلوكاً يتمشى مع موقف السوفييت، وبرز محام لسن اسمه (كيرنسكي) واصبح ابرز رجال الحكومــــة ، ونجح في تأليف حكومة ائتلافيـة ارسل اليها المنشفيك الموجودون في السوفييت بعض الممثلين . وقـد حاول ايضاً ارضاء انجلترا وفرنسا بشن هجوم معاد على المانيا ، ولكن الهجوم مني بالفشل لأن الشعب والجيش لم يكونا مستعدين .

وفي تلك الايام قامت مؤتمرات السوفييت التي تمثل روسيا بأسرها في بتروجراد وكان كل مؤتمر اكثر تطرفاً من سابقه . واخذ عدد البلاشفة المنتخبين لهـــذه المؤتمرات يزداد كما اخذت اغلبية المنشفيك والثوريين الاشتراكيين (وهم حزب من المزارعين) تتناقص . وزاد نفوذ البلاشفة ولا سيما بـــين عمال بتروجراد . وانبثقت مجالس السوفييت في طول البلاد وعرضها واصبحت ترفـض الاوامر الحكومية الا اذا صودقت من السوفييت ومن الاسباب التي ادت الى ضعف الحكومة عدم وجود طبقة وسطى قوية في روسيا.

اما الريف فان الفلاحين فيه تركوا المنازعات الجارية في العاصمة حول السلطة واستولوا على السلطة في الريف . وقد اخبرتك سابقاً ان هؤلاء الفلاحين لم يكونوا متحمسين جداً لثورة مارس، ولم يكونوا من معارضيها بل وقفوا موقف المتفرج. وقد خشي كبار الاقطاعيين من مصادرة اقطاعاتهم الواسعة فقاموا بتقسيمها بشكل

صوري على عدد من الاشخاص ليحافظوا عليها لمصلحة كبار الاقطاعيين ، وقامو ايضاً بنقل ملكية كثير من ممتلكاتهم الى الأجانب ، وكل ذلك للمحافظة على تلك الاراضي . ولكن الفلاحين لم يرضوا عن هذا العمل وطلبوا من الحكومة ايقاف بيع الاراضي بمرسوم حكومي ولكن الحكومة ترددت في عمل ذلك لأنها لم تود اغضاب اي من الفريقين . ولذا فقـــد قام الفلاحون بأخذ حقهم بيدهم . وفي ابريل قبض الفلاحون على عدد من الاقطاعيين وانتزعوا اراضيهم ووزعوها فيما بينهم . ولقد لعب الجنود العائدون من الجبهة (وهم طبعاً فلاحون) دوراً رئيسياً في هذا العمل . وانتشرت هذه الحركة وامتدت الى اراضٍ واسعة لم تنج منها سهول الاستبس نفسها. ولما كانت سيبيريا لا يوجد فيها اقطاعيات كبيرة فأن الفلاحين صادروا اراضي الكنيسة والاديرة .

والجدير بالذكر ان مصادرة هذه المزارع الكبيرة انبثق عن الفلاحـــين انفسهم قبل حدوث ثورة البلاشفة بعدة شهور . وكان لينين يفضل نقل ملكية الاراضي الى الفلاحين بطريقة منظمة لا عن طريق الفوضى . وهكذا لما قامت الثورة البلشفية وجدت الاراضي في قبضة الفلاحين انفسهم .

وبعد وصول لينين الى روسيا بشهور عاد منفي روسي آخر من نيويورك بعد ان حجزته بريطانيا وهو في طريق عودته ، وكان ذلك العائد تروتسكي ولم يكن تروتسكي عضواً في الحزب البلشفي القديم كما لم يكن منضماً الى المنشفيك، ولكن سرعان ما انضم الى لينين واصبح زعـــيم سوفييت بتروجراد . كان تروتسكي خطيباً فصيحاً وكاتباً بارعاً وشعلة كهربائية مشحونة بالطاقة ، وكان له فضل كبير على حزب لينين . وأقتبس اليك هنا قسماً من الكتاب الذي كتبه تروتسكي عن نفسه بعنوان «حياتي» الذي يصف فيه الاجتماعات التي كان يلقي فيها خطبه النارية والتي كانت تعقد في بناية تدعى « السيرك الحديث » . وهذه المقتطفات ليست مجرد قطع ادبية رائعة بل صور نابضة بالحياة تعكس امام اعيننا الواناً من ايام الثورة الغريبة في بتروجراد عام ١٩١٧ . يقول تروتسكي :

« ان الهواء مشحون بالزفير والانتظار، وتتنفس فيه

الصيحات والهتافات العاطفية التي اختص بها « السيرك الحديث » .
كانت تلتف حولي وفوقي الأكواخ والصـــدور والرؤوس
المتراصة . وكنت اتكلم في مغارة محشوة بالاجسام البشرية ،
وما مددت يدي الا وقعت على احدهم . وكان رد الفعل يدخل
الطمأنينـة في نفسي ويجعلني لا ابالي وان استرسل في حديثي .
ولا يمكن لاي خطيب مهما لحقه من التعب ان يقـــاوم هذه
العاطفة الكهربائية التي تشع من هذا الجمع البشري المتقد ، الذي
كان يلتمس المعرفة والفهم وطريق الخلاص. وفي بعض الأحيان
كنت احس حب الاستطلاع الشديد الذي يسيطر على هـذه
المجموعة التي انصهرت في بوتقة واحدة واصبحت كتلة واحدة.
وسرعان ما تتهاوى وتتلاشى جميع الكلمات التي كنت قـد
اعددتها امام سلطان العاطفة الجامحة ، وتنفجر كلمات جديدة
وحجج جديدة مرتجلة لم اعدها سابقاً . ولكن هؤلاء القوم كانوا
يحتاجون اليها ، فتظهر في ترتيب انيق وبوحي من عقلي الباطن ؛
وكنت في تلك الأثنـاء أشعر كأنني استمع الى نفسي الثائرة
محاولاً تتبع افـكاري وخائفاً ان اسقط من الشرفة المرتفعة كما
يسقط المصـــاب بمرض المشي اثناء النوم عندما يسمع صوت
العقل .

هكذا كان « السيرك الحديث » بحماسه ورقته وتوتره .
كان الاطفال الوديعون يرضعون من صدور الامهات الهاتفات
بالاستحسان او التنديد . وكان الجمع بأمره على تلك الصورة
كالطفل القابضة شفتاه على حلمة الثورة . ولكنه طفل بلغ الفطام
والرجولة بسرعة . »

وهكذا تلاحقت فصول الدراما في بتروجراد وغيرها من المدن والقرى
الروسية بسرعة . فطم الرضيع ونما بسرعة . وظهرت نتائج الحرب من تدهور

في الاقتصاد ، ولكن التجار الانتهازيين ظلوا يسعون وراء الربح من الحرب .

وظلت قوة البلاشفة تزداد في السوفييت والمصانع . وخاف كيرنسكي من ذلك فحاول اخضاعهم وشنّ عليهم حملة شديدة هاجم فيها لينين واتهمه بانه عميل لألمانيا لخلق الفساد في روسيا . ألم يعبر لينين المانيا من سويسرا بمساعدة السلطات الألمانية ؟ وهكذا اصبحت الطبقة الوسطى تبغض لينين وتعتبره خائناً ،ثم اصدر كيرنسكي امراً بالقبض عليه –لا بتهمة الثورة ولكن بتهمة الخيانة لحساب المانيا. وكان لينين يرحب بالوقوف امام المحكمة ليفند التهمة المسندة اليه ولكن اتباعه عارضوه في ذلك واجبروه على الاختفاء . وقد قبض ايضاً على تروتسكي ، ولكنه سرح على اثر ضغط السوفييت . كما اعتقل عدد كبير من البلاشفة وعطلت صحفهم وجرد العمال المشبوهون بالانتماء الى السوفييت من السلاح . وازداد شعور هؤلاء العمال السيء نحو الحكومة الموقتة وتوعدهم لها ، وقاموا بمظاهرات عديدة احتجاجاً عليها .

وقامت فترة استراحة عندما نشبت ثورة معاكسة لثورة السوفييت اذ قام قائد اسمه كورنيلوف على رأس جيش قيصري وزحف نحو العاصمة لسحق الثورة بأكملها بما في ذلك الحكومة الموقتة . وما ان اشرف على العاصمة حتى ذاب الجيش والتحق بالثورة .

وتلاحقت الاحداث بسرعة ، فقد اصبح للسوفييت وللثورة مقر في مؤسسة سمولني بتروجراد . وكان ذلك القصر مدرسة لبنات النبلاء .

واشرف لينين على ضواحي بتروجراد ، وقرر البلاشفة ان الوقت قد حان لانتزاع الحكم من الحكومة الموقتة. فاسندوا زمام ترتيبات الثورة الى تروتسكي واتفقوا على تفاصيل الحركة والاماكن التي يجب الاستيلاء عليها والزمان المقرر لذلك . وحدد السابع من نوفمبر موعداً للثورة . وكان ذلك هو التاريخ المعد لاجتماع مؤتمر مجالس السوفييت الروسية العامة . وكان اختيار لينين لهذا اليوم طريفاً فقد قال : ان يوم ٦ نوفمبر مبكر جداً لاننا نريد ان نستند الى مؤازرة روسية شاملة ، ولا يكون الاعضاء قد وصلوا في ذلك اليوم . واما يوم ٨ نوفمبر

فإنه متأخر جداً لأن المؤتمر يكون قد انتظم في ذلك اليوم ويصبح من العسير عليه كهيئة كثيرة من الناس ان يتخذ خطوات سريعة حاسمة ، علينا اذن ان نتقدم في يوم ٧ نوفمبر عندما يلتئم المجلس فنجابهه بالقول : امامك السلطة فماذا تريد ان تفعل بها ؟

هذا هو منطق خبير الثورة صافي الذهن الذي كان يعلم ان نجاح الثورات كثيراً ما كان يعتمد على مصادفات تافهة .

ولما حل السابع من نوفمبر خف جنود السوفييت واحتلوا مباني الحكومة وخصوصاً الاماكن الاستراتيجية مثل مكتب اللاسلكي والهاتف وبنك الدولة. ولم تقم في وجههم اية مقاومة ، وعلى حد تعبير احد المراسلين البريطانيين : «ذابت الحكومة الموقتة » .

واصبح لينين رئيس الحكومة الجديدة ، واصبح تروتسكي وزيراً للخارجية. وفي مساء ٨ نوفمبر حضر لينين مؤتمر السوفييت في مؤسسة سمولني فقوبل بعاصفة من الترحيب . وقد وصف المراسل الامريكي (ريد) الذي شاهد الموقف منظر لينين عندما مشى نحو المنصة كما يلي :

« رجل قصير القامة قوي البنية ، ذو رأس كبير اصلع . عيناه صغيرتان ، وانفه افطس وفمه واسع وذقنه غليظة لقد كان حالقاً ذقنه ، ولكن شعر لحيته التي رباها في ماضيه (وعاد فرباها فيما بعد) كان آخذاً بالظهور . كان مرتدياً ملابس قديمة وكان سرواله اطول منه . زعيم محبوب وغريب . وزعامته في عقله . لا لون له ولا فكاهة . لا يتهاون او يمتزج لم تكن له هيبة المنظر ، ولكنه ذو قوة على تعليل الافكار العميقة بعبارات سهلة وتحليل المسائل تحليلاً واقعياً . وكان الى جانب الفطنة عملاقاً فكرياً كبيراً . »

ونجحت الثورة الثانية لهذا العام ، وكانت سلمية حتى الآن لأن نقل السلطة من يد الى يد لم يأت عن طريق اراقة الدماء . اما مارس فقد رأى كثيراً من

القتـــال والدماء . وكانت ثورة مارس مرتجلة ، بينما كانت ثورة نوفمبر مخططة ومحكمة . وهذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يصير فيها ممثلو افقر الطبقـات وخصوصاً العمال الصناعيين على رأس الدولة . ولكن الدنيا لم تتركهم بسلام لأن العواصف اخذت تتألب لتثير عليهم غضباً لا حد له .

ما الذي واجهه لينين والحكومة البلشفية ؟ لقد كانت الحرب مع المانيـــا مستمرة مع ان الجيش الروسي قد تقطعت اوصاله ولم يعد هناك مندوحة لمواصلة القتال ، وكانت البلاد في حالة من الفوضى ، وعصابات الجنود وقطاع الطرق تفعل ما تشاء . وتقوضت معالم الكيان الاقتصادي وشحت الاطعمة وانتشر الجوع ، وانتشر ممثلو النظام القديم الذين يأملون ان يسحقوا الثورة . لقد كانت الحكومة القديمة رأسمالية ويرفض موظفوها القدماء ان يتعاونوا مع الحكومة الجديدة . وكانت البنوك ترفض مدها بالمال ، وحتى ان مصلحـــة البرقيات رفضت ارسال البرقيات . وكل هذه ظروف كافيـــة لأن تلقي الرعب في روع اي رجل مهما كان شجاعاً

ولكن لينين ورفاقه استجمعوا قواهم لدفع عربة الثورة والسير بها . وكان العمل الاول امامهم عقد الصلح مع المانيا فاتفقوا على عقد هدنة معها في الحال . اجتمع ممثلو البلدين في برست ليتوفسك . ولما كان الألمان يعلمون ان البلاشفة لم يبق لديهم قوة للقتال ، ركبوا رؤوسهم ووضعوا شروطاً صعبة ومزرية وجعل هذا الموقف كثيراً من البلاشفه يتراجعون ويرفضون هذا الصلح بالرغم من رغبتهم الشديدة في الصلح . اما لينين فانه كان عازماً على الصلح مهما كلف الامر . ويروي تروتسكي الذي كان احد ممثلي روسيا في مؤتمر الصلح انه دعي الى حضور احد الاجتماعات في ثوب سهرة ، فاحتار ولم يدر اذا كان من اللائق لممثل عمالي ان يرتدي مثل هذه الملابس البورجوازية ، فابرق الى لينين يطلب ارشاداته في الموضوع ، فاجابه لينين على الفور : « اذا كان الصلح يعتمد على لبسك «شلحة» نسائية فلاتتردد في ذلك » .

وبينما كان الروس يناقشون شروط الصلح ، كان الالمان يواصلون زحفهم نحو بتروجراد مما جعل شروطهم للصلح أقسى من السابق وأخـيراً قبل السوفييت

مكرهاً نصيحة لينين بقبول معاهدة صلح برست ليتوفسك في مارس ١٩١٨. وقد كلف الصلح روسيا قسماً من اراضيها الغربية . وكان هذا ضرورياً بالنسبة الى لينين الذي قال : «ان الجيش صوّت بالموافقة على الصلح بأرجله » .

وحاول السوفييت في بادىء الامر ان يعقدوا صلحاً مع جميع الدول المشتركة في الحرب العظمى . فقد اصدروا في اليوم التالي لتسلمهم السلطة مرسوماً عرضوا فيه الصلح مع دول العالم وصرحوا فيه انهم يتنازلون عن جميع الادعاءات الناشئة من المعاهدات السرية التي وقعتها الحكومة القيصرية . وطالبوا ببقاء الاستانة في يد الاتراك وعدم انتزاع اراض تركية جديدة. ولكن نداء السوفييت للصلح لم يجد صدى لدى الدول المتحاربة لان كلا من الطرفين كان يأمل ان يحرز النصر وان يحصل على الغنيمة ولا شك ان من اهداف الدعوة الى السلام كانت الدعاية للتأثير على جماهير الشعوب والجيوش المنهكة واحداث انقلابات اجتماعية في البلدان الاخرى وهكذا كانوا يسعون الى احداث ثورة عالمية لأن هذه هي الوسيلة المثلى للمحافظة على ثورتهم . وقد اخبرتك سابقاً ان الدعاية الروسية اثرت تأثيراً كبيراً في الجيوش الالمانية والفرنسية .

وكان لينين يعتبر صلح برست ليتوفسك مع المانيا عرضاً زائلاً ، وفعلاً الغى السوفييت المعاهدة بعد تسعة شهور على اثر انهزام المانيا امام الحلفاء في الجبهة الغربية . فقد كان لينين يهدف من الصلح ان يعطي العمال والفلاحين الذين انهكت الخدمة العسكرية قواهم فرصة وراحة ليعودوا الى ارض الوطن ويروا بأم أعينهم ما صنعته الثورة في البلاد اراد ان يرى الفلاحون ان الاقطاع قد اصبح اثراً بعد عين وانهم هم اصحاب اراضيهم ، وان يرى العمال ان الاستغلاليين قد زالوا ايضاً ؛ وعندما يرون ذلك يدركون المكاسب التي حققتها الثورة وينذرون انفسهم لحمايتها ويدركون من هم اعداؤهم الحقيقيون ، هكذا فكر لينين الذي كان يعلم حق العلم ان الحرب الأهلية ستقوم قريباً ، وجاء النصر ليبرهن على هذه النظرية فيما بعد وعاد الفلاحون الى مزارعهم كما عاد العمال الى مصانعهم . ومع انهم لم يكونوا بلاشفة الا انهم اصبحوا من اكبر

انصار الثورة التي حققت لهم المكاسب التي لا يريدون ان يفقدوها .

وبينما كان زعماء البلاشفة يحاولون عقد الصلح مـع الالمان واصلوا معالجـة الشؤون الداخلية . فقد كان عدد كبير من الضباط المسرحين المغامرين يقومون بقطع الطرق ببنـادقهم ومدافعهم الرشاشة ويرتكبون اعمـال القتل والسلب في قلب المدن الكبيرة . وكان هناك بعض الاحزاب الفوضوية الذين لم يرضوا عن البلاشفة وسببوا لها مشاكل كبيرة . ولكن الحكومـة السوفييتية ضربت على ايدي جميع هذه العصابات وسحقتها .

وقد جابهت الحكومة السوفييتية خطراً آخر عندما رفض رجال الخدمـة المدنية التعاون مع البلاشفة او الخدمة تحت ارشادهم . وسن لينين مبدأ « من لا يعمل لا يأكل » . وطرد فوراً جميع رجال الخدمة المدنية الذين رفضوا التعاون. وعندما رفض اصحاب البنوك فتح خزائنهم الحديدية فتحت باصابع الديناميت . وخير مثال لاحتقار لينين لرجال العهد البائد الذين يرفضون التعاون معـه هو طرده القائد الاعلى عندما رفض التعاون واستبداله بعد خمس دقائق فقط بأحـد صغار الضباط البلاشفة الذي يدعى كريلنكو .

وبالرغم من كل التغييرات السابقة فان قسماً كبيراً من العهد البائد ظل قائماً . فليس من السهل قلب البلاد الى اشتراكية بين يوم وليـلة . ولربما اخذ ادخال التعديلات على نظام روسيا سنوات طويلة عديدة لو ان الاحداث امدتها بالسرعة. وكما ان الفلاحين طردوا كبار الاقطاعيين فان العمال احتلوا المصانع وطردوا منها اسيادهم الذين كانوا قد أذاقوهم العذاب . ولم يكن من الجائز ان يعيد السوفييت المصانع الى اصحابها فاحتفظ بها . وعندما نشبت الحرب الاهلية فيما بعد حاول بعض اصحاب المصانع ان يخربوها فتدخلت الحكومة السوفييتية ثانية واحتلت هذه المصانع لحمايتها . وبهذه الطريقة تم تأميم وسائل الانتاج (اي جعل الدولة مالكة للمصانع) بسرعة اكبر من المتوقع في الاحوال العادية .

ولم تتغير الحياة في روسيا في الأشهر التسعة الاولى التي تلت قيام الحكـم السوفييتي . فقد تسامح السوفييت عن النقد الموجه لهم واستمرت الصحف المعادية

البلاشفة بالظهور . وكان الشعب عموماً يتضور جوعاً بينما بقي للاغنياء ما يكفي حياة الترف والنعيم. وكانت الملاهي الليلية تغص بروادها وكذلك اماكن السباق والالعاب الاخرى .. وكانت الطبقة البورجوازية الغنية ماثلة في المدن الكبرى وعلى وجهها علائم الفرح لسقوط الحكومة السوفييتية المتوقع وكان هؤلاء الناس الذين يدعون الوطنية والذين يحرصون على مواصلة الحرب مع ألمانيا يرقصون فرحاً لزحف الجيوش الالمانية تجاه بتروجراد مبتهجين لاحتمال احتلال الالمان لهذه العاصمة ، فقد كان بغضهم للثورة الاجتماعية يفوق خوفهم من احتلال العدو لبلادهم . وهذه سنة متبعة عند مثل هذه الطبقات .

اذن كانت الحياة الى حد كبير عادية . والحقيقة انه لم يكن هناك اي ارهاب من جانب البلاشفة في هذه المرحلة وواصلت فرقة باليه موسكو عرض رقصاتها يومياً في قاعة غاصة بالمتفرجين. وانتقلت الحكومة السوفييتية الى موسكو عندما اصبحت بتروجراد مهددة من قبل الالمان ، واصبحت موسكو عاصمتهم. وكان سفراء الحلفاء ما زالوا في روسيا ، وقد فروا الى بتروجراد عندما خافوا سقوطها في يد الالمان ، واقاموا في مكان امين في فولغدا وهي بلدة صغيرة وبعيدة عن جميع اوجه النشاط . وهناك قعدوا معاً في حالة من التوتر المستمر والهياج بسبب الاشاعات الغريبة التي كانت تصلهم . وكانوا دائماً يترددون على تروتسكي ليستفسروا عن مدى صحة هذه الاشاعات وقد ضجر تروتسكي من هذا الهياج العصبي الذي خلفه هؤلاء الدبلوماسيون وعرض عليهم ان يكتب (وصفة طبية) لتهدئة اعصاب اصحاب السعادة المقيمين في فولغدا . (وهذه الوصفة تعرف بوصفة البروميد المستعمل لتهدئة اعصاب المصابين بالهستيريا والتوتر العصبي).

ولكن الحياة انما كانت تبدو عادية على السطح ، لأن تحت هذا الهدوء تيارات متلاطمة . ولم يكن احد بما في ذلك البلاشفة انفسهم – ينتظر ان يكتب للسوفييت البقاء الى هذا الاجل. وراح الجميع يدبرون الدسائس . واقام الالمان في اوكرانيا في جنوب روسيا حكومة كانت ألعوبة في يدهم . وبالرغم من الصلح مع الالمان فقد كان يبدو دائماً انهم كانوا يهددون سلامة الحكومة السوفييتية . ومع ان الحلفاء

كانوا يبغضون الالمان الا انهم كانوا يبغضون البلاشفة اكثر من ذلك . ومع ان رئيس جمهورية الولايات المتحدة ويلسون كان قد ارسل تحية ودية للمؤتمر السوفيتي في اوائل عام ١٩١٨ ، إلا ان الظاهر انه قد ندم على ذلك وغيّر رأيه فيما بعد . وهكذا قامت دول الحلفاء بصورة خصوصية بمد يد المعونة الى العناصر المناوئة للثورة حتى انها ساهمت فيها مساهمة سرية . وغصت موسكو بالجواسيس الاجانب . وأرسل الى هناك العميل الاول للجهاز السري البريطاني المعروف بسيد جواسيس بريطانيا لخلق المشاكل في وجه الحكومة السوفيتية . وكان الارستقراطيون والبورجوازيون الذين جردوا من امتيازاتهم باستمرار يثيرون الاعمال المناوئة للثورة بمساعدة الاموال التي يرسلها لهم الحلفاء .

وهكذا كانت الحال عندما انتصف عام ١٩١٨ واصبحت الحكومة السوفيتية على شفا جرف هار .

كفاح ايرلندا في سبيل الجمهورية

٢٨ ابريل ١٩٣٣

●

اشرح لكِ الآن ببعض التفصيل احداث العالم الحديثة الهامة ، وابدأ بايرلندا. ومع ان هذا البلد الصغير الواقع في أقصى الغرب لا يشغل جزءاً هاما من تاريخ العالم وقوته الآن إلا انـــه بلد شجاع يأبى الضيم . ولم تتمكن الامبراطورية البريطانية بعظمتها وجبروتها من اخضاعه.

حدثتك في رسالتي الاخـيرة عن قانون الحكم الذاتي في ايرلندا الذي اصدره البرلمان البريطاني قبل الحرب العالمية الاولى. لقد أزعج ذلك القانون زعماء (ألستر) البروتستانتية وحزب المحافظين في انجلترا . ورتبت في سبيل مقاومته ثورة منظمة. ونتيجة لذلك نظم الايرلنديون الجنوبيون المتطوعين الوطنيين لمحاربة ألستر اذا اقتضى الامر . وظهر ان الحرب الاهلية قائمة لا محالة لو لم تنشب الحرب العظمى وتتحول الانظار الى مسرحها في بلجيكا وشمال فرنسا. ومع ان زعماء الايرلنديين في البرلمان البريطاني قدموا مساعدة بلدهم في الحرب ، الا ان البلاد نفسها لم تكن على حالة تساعد على خوض تلك الحرب . واما ثوار ألستر فقد حصلوا على مناصب رفيعة في الحكومة البريطانية ، مما زاد في نقمة الشعب .

ونما في ايرلندا شعور عدم الرضا وشعر الناس ان ليس من مصلحة ايرلندا ان تضحي بنفسها وتزجها في الحرب في سبيل انجلترا . ومـا ان اقترح اجراء التجنيد الاجباري في ايرلندا اسوة بانجلترا حتى عم التذمر والتنديد في كل مكان ،

واستعدت ايرلندا ان تقاوم المشروع بالسلاح اذا اقتضى الامر .

وحدثت ثورة في دبلن في اسبوع الفصح من عـام ١٩١٦ واعلنت الجمهورية الايرلندية ، ولكنها سحقت بعدبضعة ايام على يد بريطانيـــا وقتل الشباب الايرلندي الباسل رمياً بالرصاص بموجب الاحكام العرفية . وتعرف هذه الثورة بثورة الفصح . ولم تكن تلك الثورة محاولة جدية لمنازلة بريطانيا بـل مظاهرة باسلة هدفها ان تظهر للعالم ان ايرلندا لا تزال تحلم بالجمهورية وانها ترفض الاذعان طوعاً لسيطرة بريطانيـا . وكان الشباب الطموح الذي يحرك هـــذه الثورة يضحي بنفسه وهو يعـلم ان امله في النجـاح ضعيف ، ولكنه كان يريد ان يُسمِع العالم صوت ايرلندا المكافحة ، وكان مؤمناً ان ثورته وتضحيته ستثمر ان في المستقبل وتنال ايرلندا حريتها..

وألقي القبض اثناء قيام الثورة على احد الايرلنديين بينما كان يحاول تهريب الاسلحة من المانيا الى ايرلندا واسمه (السير روجر كيسمنت) الذي كان لمدة طويلة موظفاً في السلك الدبلوماسي البريطاني . وعندما قدم للمحاكمة في لندن وحكم عليه بالاعدام ألقى في قفص الاتهام كلمة بليغة مؤثرة تنم عن الروح الوطنية الصادقة التي يتمتع بها الايرلنديون .

ومع ان الثورة أخمدت الا ان اخمادها يعد نصراً لها لأن القسوة التي ارتكبها البريطانيون بعد الثورة ورمي الشباب الايرلندي بالنار قـــد ولد النقمة والحقد في نفوس الايرلنديـين . ومع ان ايرلندا بدت هادئة على السطح إلا ان النار ظلت متقدة تحت الرماد الى ان وجدت لها منفـــذاً في حركة (سن فن) التي اخذت تنتشر بسرعة فائقة وقـد اخبرتك عن هذه الحركة في رسالتي السابقة ومع انها لم تصادف نجاحاً في البداية الا انها اندلعت فيما بعد واشتد أوارها.

اجريت بعد الحرب العظمى انتخابات في جميـع انحاء بريطانيا لاختيار اعضاء البرلمان المنعقد في لندن . واكتسح اتباع سن فن المقاعد المخصصة لايرلندا وحلوا بذلك محل الوطنيين الذين كانوا ينادون ببعض التعاون مع بريطانيـا . ولم يكن هدف هؤلاء من الانتخابات الذهاب الى برلمان لندن ، لانهم لم يؤمنوا بالتعاون

مع بريطانيا وكانوا يريدون مقاطعتها . ولذا فلم يتوجه هؤلاء الاعضاء الى لندن بل اقاموا لهم مجلساً جمهورياً في دبلن عام ١٩١٩ ، واعلنوا الجمهورية الايرلندية وسموا مجلسهم (المجلس الايرلندي) . وكان المفروض ان يضم هـــذا المجلس مقاطعة ألستر. غير ان اهل ألستر لم ينضموا اليه لعدم محبتهم لايرلندا الكاثوليكية . واختار المجلس الايرلندي دي فاليرا رئيساً للجمهورية وجريفيت نائباً الرئيس ، وكان كلاهما في السجون البريطانية في ذلك الحين !

وقام بعد ذلك قتال هو من اغرب انواع القتال الذي جرى بين ايرلنـــدا وبريطانيا . فقد هبت حفنة من الشباب والشابات بدافع من الشعور الوطـــني الفياض لمحاربـــة الامبراطورية البريطانية المنظمة الجيوش التي تفوقهم اضعاف اضعاف وكانت حركة سن فن مزيجاً من عدم التعاون والعنف وقـد نادى أتباعها بمقاطعة المؤسسات البريطانية واقامة مؤسسات خاصة بهم مثـــل هيئات التحكيم لتحل محل المحاكم البريطانية النظامية . وقامت في الريف حرب العصابات التي كانت تشن الهجمات على مراكز الشرطة النائية . اما اتباع سن فن المسجونين فإنهم ازعجوا الحكومة باضراباتهم عن الطعام ، واشهر تلك الاضرابات ذاك الذي قام به رئيس بلدية (كورك) المدعو (تيرني مكسويني) الذي هز ايرلندا بأمرها . فعندما اودع السجن صرح انه سيخرج منه إن حياً او ميتـاً ، وامتنع عن تناول الطعام . وبعد خمسة وسبعين يوماً حمـــل جثمانه من السجن الى القبر !

ومن اشهر منظمي ثورة سن فن ميشيل كولنز . امـا الحكومة البريطانية فان المقاومة قد شلت حركتها وجعلتهـا معدومة الأثر في المقاطعات . ولكن الاحتكاك والعنف اخذا يقويان من قبل الطرفين. وجندت بريطانيا قوة بريطانية خاصة من العناصر العنيفة المجازفة التي كانت قد سرحت مؤخراً من جيوش الحرب، ودفعت لافرادها المرتبات الضخمة . وقد عرفت هذه القوة (بالسود والبنيين) وهما لونا ملابسهم العسكرية . وقامت هذه القوة بأعمال القتل والتنكيـــل ، وكثيراً ما قتلوا الناس في مخادعهم ظناً منهم ان ذلـك يحمل اعضاء سن فن على

تسليم انفسهم ، ولكن هؤلاء رفضوا التسليم وواصلوا حرب العصابات . وقامت قوة (السود والبنيين) بالأعمال الانتقامية وأشعلوا النيران في قرى كاملة واجزاء من المدن . واصبحت ايرلندا مسرحاً لقتال عنيف يتبارى فيه الطرفان في اعمال القتل والتخريب . وكان وراء احد الطرفين قـــوة امبراطورية منظمة ووراء الطرف الآخر قوة ايمان حديدية .

وظلت الحرب الانجليزية - الايرلندية مستعرة مـدة عامين من ١٩١٩ الى اكتوبر ١٩٢١ واسرع البرلمان البريطاني في عـام ١٩٢٠ الى اصدار قانون الحكم الذاتي . اما القانون السابق الذي صدر قبل الحرب والذي كاد يقيم الثورة في ألستر فانه اسقط . وقد قسم القانون الجديد ايرلنـدا الى قسمين : الاول يضم ألستر أو ايرلندا الشمالية والثاني يضم بقية ايرلندا ، واعطى لكل من القسمين برلماناً خاصاً . ولما كانت ايرلنـــدا جزيرة صغيرة فان تقسيمها يعني خلق قسمين صغيرين جداً فيها . وتم تأليف برلمان ألستر في الشمال بينما لم يلتفت اهـل ايرلندا الجنوبية لهذا الأمر وانصرفوا الى ثورة سن فن .

وفي اكتوبر ١٩٢١ ناشد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا اتباع سن فن ان يقبلوا هدنة تقوم بعدها محادثات حول تسوية النزاع ، وقد قبل هذا الطلب. ومع انه كان بامكان بريطانيا في النهاية القضاء على اتباع سن فن وقلب ايرلندا الى صحراء قاحلة ، غير ان سياستها في ايرلندا قد جرت عليها غضب امريكا وغيرها من البلدان ، وكانت الاموال تنصب على ايرلندا من الايرلنديين المغتربين في امريكا وحتى من دول جامعة الشعوب البريطانية لمواصلة الكفاح. ولكن أتباع سن فن قد ذاقوا العذاب الكبير من الصراع الهائل الذي قاموا به .

واجتمع الممثلون الانجليز والايرلنديون في لندن مدة شهرين انتهت في ديسمبر ١٩٢١ بتوقيـع اتفاق مبدئي. ومع ان هذا الاتفاق لم يعترف بجمهورية ايرلندا ، إلا انه اعطى ايرلندا حرية تفوق أي بلد آخر من بلدان الدومنيون في الشؤون الوطنية باستثناء امرين فقط . وبالرغم من ذلك فان ممثلي ايرلندا لم يقبلوا ذلـك الصلح إلا خوفاً من تهديد بريطانيا باعلان حرب عليهم .

وقام في ايرلندا هياج كبير حول المعاهدة ، فقد أيدها فريق وعارضها فريق آخر بشدة ، مما قسم اتباع سن فن الى قسمين . وأخيرا اقر المجلس الايرلندي المعاهدة وظهرت الى حيز الوجود « دولة ايرلندا الحرة » ، ولكنها جرت معها حرباً اهلية بين اتباع حركة سن فن وبينما كان دي فاليرا رئيس مجلس ايرلندا معارضاً للمعاهدة مع انجلترا كان جريفيت وميشيل كولينز وغيرهما من مؤيديها واستعرت نار الحرب الأهلية في البلاد عدة شهور ، وكانت بريطانيا طبعاً تساعد المؤيدين للمعاهـــدة و « الدولة الحرة » لتمكنهم من اخضاع خصومهم . وخرّ كولينز صريعاً على يد الجمهوريين كما خر كثير من زعماء الجمهوريين على يد اتباع « الدولة الحرة » واكتظت السجون باتباع الجمهورية وهـذه الحرب الأهلية من التطورات المحزنة لجهاد ايرلندا الباسل في سبيل الحرية . وهكذا انتصرت السياسة البريطانية الماكرة حيث فشلت قوتها وسلاحها وراح الايرلنديون يقتتلون فيما بينهم بينما وقفت بريطانيا موقف المشجع لاحد الطرفين على الآخر والمراقب المرتاح لهذه المأساة

ومع ان الحرب الاهلية خبت تدريجياً ، الا ان الجمهوريين أصروا على رفض الدولة الحرة » وحتى ان الجمهوريين الذين انتخبوا الى مجلس ايرلنـــدا (أي برلمان الدولة الحرة) رفضوا حضور جلساته حتى لا يقسموا يمين الولاء للملك بريطانيا ، وبقي دي فاليرا ورجاله بعيـدين عن المجلس بينما راح حزب « الدولة الحرة » بقيـادة كوسجريف رئيس الدولة الحرة ، يحاولون سحق الجمهوريين بشتى الطرق .

وقد نجم عن تكوين دولة ايرلندا الحرة نتائج بعيدة المدى في سياسة بريطانيا الامبراطورية . فقد اعطت المعاهدة لايرلندا قسطاً من الاستقلال من النـاحية الدستورية يفوق ما كان لأي بلد آخر من دول الدومنيون . وما كادت تحصل ايرلندا على ذلك حتى حصلت بقية تلك الدول ، مما خلق تطوراً في فكرة وضع دول الدومنيون القانوني بالنسبة لبريطانيا وقد تـلا ذلك تطورات اخرى في اوضاع دول الدومنيون نتيجة لمؤتمرات امبراطورية كانت تعقـــد بين بريطانيا

ودول الدومنيون . وظلت ايرلندا (بنزعتها الجمهورية) تتجه دائماً نحو الاستقلال التام ، وكذلك جنوب افريقيا حيث الاغلبية من البوير . وهكذا ظل وضع الدومنيون يتطور ويتحسن الى ان اصبحت دولة تعتبر شقيقة لبريطانيا في جامعة الدول البريطانية . وهذا امر حسن ، ولا شك انه خطوة تقدمية تقود الى المساواة السياسية . ولكن تلك المساواة اسمية اكثر منها فعلية لأن دول الدومنيون مرتبطة اقتصادياً ببريطانيا والرأسمال البريطاني مما يمكّن بريطانيا من ان تسلط عليهم سيف الضغط الاقتصادي بوجوه عديدة . وفي نفس الوقت كان نمو دول الدومنيون يقود الى اصطدام مصالحها بمصالح بريطانيا والى ضعف الامبراطورية التدريجي . وكان هذا الخوف من تصدع بناء الامبراطورية السبب الذي حمل بريطانيا على تخفيف وطأة القيود واعطاء المساواة السياسية لدول الدومنيون . وبهذه الحكمة تلافت بريطانيا ضياع الكثير من مصالحها . غير ان ذلك لن يدوم طويلاً لأن العوامل التي تفرق دول الدومنيون عن بريطانيا تنمو يوماً بعد يوم ، واغلبها اقتصادية ، وهي تعمل باستمرار على تفكيك اواصر الامبراطورية . وهذا هو السبب ، بالاضافة الى سير انجلترا نحو الضعف ، الذي حملني ان اكتب عن اضمحلال الامبراطورية البريطانية . فاذا كان من الصعب على دول الدومنيون ان تظل طويلاً مرتبطة بانجلترا – على ما بينهما من علاقات التقاليد والثقافة والجنس – فما اصعب ان تظل الهند مرتبطة بها . وان مصالح الهند الاقتصادية تصطدم اصطداماً مباشراً بمصالح بريطانيا ولا بد من خضوع احدهما للآخر . ولما كانت الهند الحرة لا تقبل بذلك فانها تأبى ان تخضع اقتصادياتها ومصالحها لبريطانيا .

ان رابطة الشعوب البريطانية (اي دول الدومنيون الحرة) والهند الغنية التابعة لبريطانيا تعني دولاً مستقلة سياسياً . ولكن كل هذه الشعوب في الواقع خاضعة للامبراطورية البريطانية الاقتصادية . وكانت المعاهدة البريطانية الايرلندية تعني استمرار استغلال الرأسمال البريطاني لايرلندا ، وهذا هو الدافع الاساسي لمواصلة السعي للحصول على الجمهورية . وكان دي فاليرا والجمهوريون يمثلون

الفلاحين الفقراء والطبقة الوسطى الفقيرة والمثقفين الفقراء ، بينما كان كوسجريف و (الدولة الحرة) يمثلون الطبقة الوسطى واغنياء الفلاحين ، ولكلا الطبقتين الاخيرتين مصلحة تجارية متبادلة مع بريطانيا

واخيراً قرر دي فاليرا ان يبدل اسلوبه في الكفاح ، فذهب مع رجال حزبه الى مجلس ايرلندا واقسم يمين الولاء ، ولكنه صرح انه لم يفعل ذلك إلا مراعاة للمراسيم الشكلية وانه سيلغي هذا القسم الدستوري عندما تتم له الاغلبية في المجلس. وفي الانتخابات التالية ، عام ١٩٣٢ تم لدي فاليرا الفوز بالاغلبية في برلمان الدولة الحرة فراح تواً يعمل على تنفيذ برنامجه . وكان لا بد ان يستمر الكفاح للوصول الى الجمهورية بيد ان وسيلة الكفاح قد تعدلت . فقد اقترح دي فاليرا الغاء اليمين الدستورية وابلغ الحكومة البريطانية ايضاً عن توقفه عن دفع اقساط الاراضي السنوية واعتقد انني كنت قد ذكرت لك هذه الاقساط . فعندما صودرت الاراضي في ايرلندا وسحبت من كبار الاقطاعيين تقرر تقديم تعويضات ضخمة لمالكيها الانجليز تدفع على اقساط سنوية مما تغله الارض على الفلاحين الذين وزعت عليهم . وظل هذا الدفع السنوي مستمراً مدة جيل دون انقطاع الى ان وقف دي فاليرا في سبيله .

وقوبل هذا الامر بضجة كبيرة في انجلترا وقاد الى تصادم مع الحكومة البريطانية . واحتجت الحكومة الاخيرة اولاً ان الغاء اليمين الدستورية خرق لمعاهدة ١٩٢١ . واجاب دي فاليرا بقوله : اذا كانت ايرلندا وبريطانيا شقيقتين كما تزعم بريطانيا ان دول الدومنيون شقيقات لبريطانيا وأن لها الحق بتعديل دستورها ، فلايرلندا الحق في ان تغير اليمين او ان تزيلها من دستورها . ولا يجب اثارة معاهدة ١٩٢٢ . اما اذا حرمت ايرلندا من هذا الحق فمعنى ذلك انها مستعمرة لبريطانيا .

واحتجت بريطانيا ثانياً وبصورة اشد على توقيف دفع اقساط الاراضي وادعت ان ذلك خرق فاضح للعقود والالتزامات . اما دي فاليرا فإنه رفض هذا التعليل ، ونشبت مشادة قانونية لا نحتاج ان نبحثها هنا بالتفصيل . وعندما حل

موعد دفع الاقساط وامتنعت ايرلندا عن تسليمها شنت عليها بريطانيا الحرب الاقتصادية وفرضت الرسوم على الحاصلات الايرلندية المصدرة الى انجلترا بقصد افلاس المزارع الايرلندي واجبار الحكومة الايرلندية على قبول الشروط البريطانية . وهذه عادة بريطانية لأنها تستخدم القوة لإخضاع مناوئيها مع ان هذا الاسلوب اصبح لا يجدي فتيلاً وقامت الحكومة الايرلندية من جانبها بفرض الرسوم المرتفعة على البضائع الانجليزية المصدرة الى ايرلندا . وقد الحقت هذه الحرب الاقتصادية الخسائر الفادحة بالمزارعين والصناعيين في كلا البلدين . غير ان العنجهية القومية المتطرفة منعتها من وضع حد مريع لها

وجرت في عام ١٩٣٣ انتخابات جديدة في ايرلندا خرج دي فاليرا منها بأغلبية تفوق اغلبيته السابقة جاءت صدمة شديدة لبريطانيا وأرتها ان سياستها في شن حرب اقتصادية لم تنفعها . والغريب في الامر ان بريطانيا التي تهاجم ايرلندا وتتهمها بعدم دفع ديونها هي نفسها لا تريد ان تدفع دينها لأمريكا !

ودي فاليرا اليوم رئيس حكومة ايرلندا ويسير ببلاده خطوة خطوة نحو الجمهورية . لقد زال يمين الولاء ، وتوقفت ايرلندا عن دفع الاقساط السنوية وزال الحاكم العام البريطاني وعيّن دي فاليرا احد رجاله محله . وما زال الكفاح في سبيل الجمهورية وان اخذ شكلاً اقتصادياً

وربما حصلت ايرلندا قريباً جداً على نظام جمهوري وان وقفت في سبيلها عقبة كبيرة . ان دي فاليرا وحزبه يريدان ايرلندا موحدة لها جمهورية واحدة وحكومة مركزية واحدة تضم كامل الجزيرة بما فيها ألستر . ومشكلة دي فاليرا الرئيسية اقناع ألستر بالانضمام الى بقية ايرلندا ، لأن ذلك لا يتم عن طريق القوة ، ودولة ايرلندا الحرة لا تستطيع او لا ترغب في استعمال القوة ويأمل دي فاليرا ان يكسب الى جانبه شعور الود في ألستر لادخالها في الاتحاد الايرلندي ، والظاهر ان دي فاليرا متفائل اكثر من اللازم لان اهل الستر البروتستانت ما زالوا يشكون في نوايا ايرلندا الكاثوليكية

تعقيب :

اتفقت الحكومتان عام ١٩٣٨ على انهاء الحرب الاقتصادية التي قامت بينهما عدة سنوات . وقد كانت الاتفاقية التي حلت مشكلة اقساط الاراضي والالتزامات المالية الاخرى ذات فائدة كبيرة لأيرلندا الحرة . وقد خطا دي فاليرا خطوات عديدة نحو الجمهورية وقطع كثيراً من الروابط التي تقيد ايرلندا بالحكومة البريطانية والتاج البريطاني .

وتدعى ايرلندا الآن (ايره) . والمشكلة الوحيدة التي تواجهها توحيد ايرلندا بضم السبتر لها ، ولكن الاخيرة مازالت عازفة عن هذا الانضمام .

اليابان تتحرش بالصين

١٤ ابريل ١٩٣٣

●

جرت اثناء الحرب العالمية حوادث في الشرق الأقصى تستوعي الانتباه فلنذهب اذن الى الصين لقد اخبرتك في رسالتي السابقة عن تأسيس جمهورية في الصين وعن المتاعب التي جابهتها . وقد قامت المحاولات لاعادة الامبراطورية ، ولكنها فشلت . وبالرغم من ذلك فان الجمهورية لم تنجح في بسط سلطتها على جميع أطراف الصين ، أو بالأحرى لم تقم حكومة واحدة قادرة على ذلك . ومنذ ذلك الحين لم تظهر حكومة تدعي حكم الصين بأمرها دون منازع . وبقيت البلاد مدة من الزمن تحت حكومتين اساسيتين واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب . وكانت السيادة في الجنوب للدكتور صن يات سن زعيم الحزب الوطني المعروف بالكومنتانج وكانت السيادة في الشمال في يد يوان شيه كاي ، وجاء بعده عدد من الجنرالات والعسكريين الذين عرفوا باسم « توشون » وكانوا لعنة على الصين في السنوات الاخيرة .

وكانت الصين في حالة لا تحسد عليها من فوضى مستمرة وحروب أهلية متكررة بين الشمال والجنوب أو بين العسكريين أنفسهم وكان هذا مجالاً خصيباً للدول الاستعمارية لبث الدسائس والكسب من وراء هذا الخلاف الداخلي بمعاضدة أحد العسكريين ثم معاضدة شخص آخر ولعلك تذكرين ان هذه هي الوسيلة التي استخدمها الانجليز لتثبيت أقدامهم في الهند . وقد استغل الاستعماريون

هذه الفرصة الذهبية وراحوا يحرضون أحد العسكريين على الآخر . ولكن متاعب المستعمرين والحرب العالمية قضت على نشاطهم في الشرق الاقصى .

اما اليابان فقد كانت بعيدة عن متاعب الحرب فشعرت ان الجو صالح لها تماماً لإعادة نشاطها القديم في الصين . والواقع ان هذا الجو قد مكنّها من عمل ماتريد اكثر من أي وقت مضى بسبب انشغال الدول الاستعمارية في جهات أخرى وعدم احتمال تدخلهم فأعلنت اليابان الحرب على المانيا لمجرد الحصول على امتيازات المانيا في كياوشو في الصين ، ومن ثم اخذت تتوغل الى الداخل .

وكانت سياسة اليابان تجاه الصين على كثير من الثبات في العشرين سنة الأخيرة وما كادت اليابان تبني جيشاً عصرياً وتتقدم صناعياً حتى قررت السيطرة على الصين لقد أرادت مجالاً تتوسع فية وتقوّي صناعتها فوجدت ان كوريا والصين قريبتان وضعيفتان وكأنهما تدعوانها للسيطرة عليها واستغلالها . وكانت محاولة اليابان الاولى شن الحرب على الصين عام ١٨٩٤ — ١٨٩٥ وقد نجحت هذه المحاولة ، غير ان اليابان لم تحصل على بغيتها كاملة بسبب تدخل ومعارضة بعض الدول الاوربية ثم اشتبكت اليابان في الحرب الطاحنة مع روسيا عام ١٩٠٤ فانتصرت عليها وثبتت اقدامها في كوريا ومنشوريا وضمت كوريا الى الامبراطورية اليابانية .

أما منشوريا فقد ظلت جزءاً من الصين ويشار اليها « بمقاطعات الصين الشرقية الثلاث » . ولكن اليابانيين انتزعوا الامتيازات الروسية الموجودة فيها بما في ذلك امتياز سكة الحديد والتي كان اسمها حتى ذلك الحين خط حديد الصين الشرقية . وأخذت اليابان تحكم قبضتها على منشوريا وقد اجتذبت السكة الحديدية المهاجرين من أجزاء الصين المكتظة بالسكان ولا سيما الفلاحين الذين تدفقوا على منشوريا . وهكذا بينما كان اليابانيون يحاولون السيطرة على جهاز منشوريا الصناعي من الشمال كان الصينيون يتدفقون من الجنوب ويملأون اراضي البلاد . وهكذا غرق شعب « المانشو » في خضم النازحين الصينيين وغيرهم فاصبحوا صينيين ثقافة وشعوراً .

ولم تنظر اليابان بعين الرضا الى قيام الجمهورية الصينية لأنها تكره كل مايؤدي الى تقوية الصين وكانت سياستها ترمي قبل كل شيء الى منع توحيد الصين في حكومة واحدة قوية . ولذا فانها باشرت في مساعدة احد العسكريين على الآخر بقصد ابقاء حالة الفوضى في البلاد .

وكان على الجماهير الصينية الفتية ان تواجه صعاباً جسيمة فلم تكن مهمتها محصورة في اغتصاب السلطة السياسية من الحكومة الامبراطورية المتداعية لأنه لم يكن لها كثير من السلطة لعدم وجود حكومة مركزية بالمعنى الصحيح . فلا بد إذن من انشاء هذه الحكومة المركزية . فالصين القديمة لم تكن امبراطورية إلا اسمياً ، لأنها بالفعل كانت عدداً من المناطق المستقلة التي تربطها أواصر واهية. فقد كانت المقاطعات شبه مستقلة وكذلك المدن والقرى ومع ان سلطة الحكومة المركزية او الامبراطور كانت معترفاً بها ، الا انها لم تكن تتدخل في الشؤون الداخلية فلم يكن هنالك حكومة «موحدة» ذات سلطة وحكومة مركزية في العاصمة ونظام موحد في الحكومات المحلية المختلفة وكانت هذه الامبراطورية المرقعة التي انهارت بفعل الضغط الصناعي الغربي والطمع الاستعماري ولذا فقد تبين ان الصين لن تكتب لها الحياة إلا اذا قامت فيها حكومة مركزية ذات حكومة موحدة . وكان هذا هم الجمهورية الجديدة ، وهي فكرة جديدة خلقت للجمهورية صعوبة جسيمة ، يزيدها صعوبة قلة وسائل المواصلات الجيدة كالطرق والسكك الحديدية التي كانت حتى الآن عقبة كأداء في سبيل الوحدة السياسية .

ولم يكن الصينيون في الماضي يهتمون كثيراً بالسلطة السياسية ، إذ كانت حضارتهم العظيمة ترتكز كلياً على الثقافة . وكانت تلك الحضارة تعلم الناس فن الحياة بطريقة لم تعهد عند أي شعب آخر . وكان الصينيون متشبعين بهذه الحضارة لدرجة أنهم بقوا متمسكين بثقافتهم القديمة عندما انهار كيانهم السياسي والاقتصادي . ومع ان اليابان اقتبست الصناعة الغربية والطرق الغربية قالباً ، إلا انها ظلت إقطاعية قلباً . اما الصين فلم تكن اقطاعية بل كان يسودها

أسلوب العقل وروح العلم ، وكانت ترقب بحماس تطور العلوم والصناعة ، ولكنها لم تندفع الى ما اندفعت اليه اليابان . وكانت تقوم في وجهها عقبـــات لم تقم في وجه اليابان . وكانت تتردد في الاقدام على اية خطوة قـــد تؤدي لفصم صلتها بالثقافة القديمة . فالصين لها طبيعة الفيلسوف والفلاسفة بطبعهم لا يندفعون . وكان وما يزال يشغل ذهنها اضطراب كبير لأن مشاكلها لم تكن سياسية فحسب بل كانت اقتصادية واجتماعية وثقافية وتربوية ايضاً

ويضاف الى كل تلك المشاكل كبر حجم الصين (كالهند ايضاً) فالبلدان يشبهان القارة ، وتقدم القارة وتطورها لا يحدثان بسرعة ، وهي في حجمها كالفيـــل اذا سقط على الارض احتاج إلى فترة طويلة من الزمن ليتمكن من الوقوف ثانية على قدميه بعكس القط او الكلب .

ولما قامت الحرب العالمية بادرت اليابان الى الانضمام الى الحلفاء واعلان الحرب على ألمانيا. فاحتلت كياوشو وراحت تمتد في الداخل الى مقاطعة شانتونج التي تقع فيها كياوشو . وهذا معناه غزو اليابان للصين ، وليس قيامها بعمليات حربية ضد المانيا لأن الاخيرة لم يكن لها أي علاقة بهذه المنطقة من الصين . ولما طلبت الصين من اليابان بكل وداعة ان تخرج من هـــذه المنطقة عدت اليابان ذلك وقاحة من الصين وقدمت لها خطياً واحداً وعشرين مطلباً .

وأصبح «الواحد والعشرون مطلبـــاً »أمراً مشهوراً . ولكني لن امرد في هذه الرسالة تفاصيل هذه المطالب وإنما اقول إنهـــا كانت ترمي الى منح اليابان جميع أنواع الامتيازات والحقوق وخصوصاً في منشوريا ومنغوليا ومقاطعـــة شانتونج . ولو قبلت هذه المطالب لأصبحت الصـــين مجرد مستعمرة يابانية . وقد عارضت حكومة الصين الشمالية الضعيفة هذه المطالب ، ولكن قوتهـــا كانت لا تقاس بالنسبة للجيش الياباني . ولم تكن هذه الحكومة الشمالية نفسها تتمتع بتأييد شعبي وبالرغم من ذلك فإنها قامت بعمل قيم إذ نشرت هـــذه المطالب اليابانية مما أثار ضجة كبيرة في الصين ولفت نظر الدول الكبرى ، مع انهـــا كانت منشغلة جداً بالحرب ، وكان اشد المعارضين للمطالب أمريكا ، مما اضطر اليابان ان تتخلى

عن بعضها وان تعدّل بعضهـا الآخر . اما بقية المطالب فقد نجحت في فرضها على الصين في عام ١٩١٥ ، وقد اثار هذا العمل بغض الصينيين لليابان .

وبعد مرور ثلاثة اعوام على الحرب ، اي في عـــام ١٩١٧ ، انضمت الصين للحلفاء واعلنت الحرب على المانيا وكان هذا امراً سخيفاً لأن الصين لا تملك القوة التي تهدد بها المانيا . غير ان هدف الصين الوحيد من ذلـــك كان وضع نفسها في مصاف الحلفاء ودرء التوغل الياباني

وقامت الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ ، وثارت الفوضى في جميع انحاء آسيا الشمالية وكانت سيبيريا مسرحاً للقتال الناشب بين القوات السوفييتية واعدائها. وكان القائد الروسي الأبيض كولشـاك يقود حركة المقاومة ضد السوفييت من سيبيريا . وقد افزع فوز السوفييت اليابان فأرسلت جيشـاً كبيراً الى سيبيريا ، وفعلت مثل ذلك بريطانيا وأمريـــكا واختفى النفوذ الروسي من سيبيريا وآسيا الوسطى . وحاولت الحكومة البريطـانية ان تضع حداً نهائياً لسمعة روسيا في هذه المناطق وأقامت في قشغر – في قلب آسيا الوسطى – محطة لاسلكية تذيع الدعاية المناهضة للبلشفية .

وكانت منغوليا ايضاً ساحة للصراع العنيف الذي دار بين الشعوب السوفييتية واعدائها وكانت منغوليا في عام ١٩١٥ قد نجحت بمساعدة روسيا القيصرية في الحصول على القسم الأكبر من سيادتها من الحكومة الصينية ، مع ان الاخيرة ، ظلت السيّد الاسمي . اما روسيا فإنها حصلت على بعض النفوذ فيما يتعلق بشؤون منغوليا الخارجية ، وكان ذلك وضعاً غريباً . وبعد الثورة السوفييتية ، قامت حرب اهلية في منغوليا فاز فيها السوفييت المحليون بعد ثلاثة اعوام او اكثر من الصراع .

لم احدثك عن مؤتمر الصلح الذى تلا الحرب العالمية ، ولكـني سأترك ذلك الى رسالة اخرى. وأشير هنا الى ان الدول العظمى في هذا المؤتمر ، وأعني فرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، أرادت ان تعطي مقاطعة شانتونج الصينية لليابان. وهكذا يكافئون الصين حليفتهم زمن الحرب بانتزاع جزء من اراضيها والسبب

في ذلك يرجع الى معاهدة سرية تمت خلال الحرب بين بريطانيا وفرنسا واليابان . ومهما كانت الدواعي إلى ذلك العمل ، فإن الشعب الصيني امتعض لهذه الخديعة الرخيصة ، وهدد حكومة بكين بالثورة إذا أذعنت الأمر وأعلنت المقاطعة الشديدة للبضائع اليابانية ، وقامت مظاهرات ضد اليابانيين . ورفضت الحكومة الصينية (اي حكومة الصين الشمالية الموجودة في بكين، وهي الحكومة الاساسية) التوقيع على معاهدة الصلح

وعقد بعد عامين من ذلك مؤتمر في واشنطن بأمريكا ـ كان من بين الأمور التي عرضت عليه قضية شانتونج وكانت دول المؤتمر تشمل جميع الدول التي لها مصالح في الشرق الاقصى والتي قدمت لدراسة مدى قوة اساطيلها البحرية. وقد نجم عن هذا المؤتمر المعقود في واشنطن عام ١٩٢٢ عدة نتائج هامة بالنسبة للصين واليابان . فقد وافقت اليابان على التخلي عن شانتونج مما ازاح جزءاً كبيراً من مخاوف الصينيين . وقد توصلت الدول ايضاً الى عقد اتفاقيتين اثنتين :

اولاهما عرفت « بمعاهدة الدول الاربع » وهي بريطانيا وامريكا واليابان وفرنسا ، تعهدت كل منها ان تحترم الواحدة ممتلكات الدول الاخرى في المحيط الهادي أي ألا تعتدي إحداهما على املاك الاخرى . والمعاهدة الثانية « معاهدة الدول التسع » المشتركة في المؤتمر وهي الولايات المتحدة والبلجيك وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان وهولندا والبرتغال والصين وقد نصت المادة الأولى من المعاهدة على احترام سيادة الصين واستقلالها ونشاطها الاداري والإقليمي

وكان هدف المعاهدتين ، كما هو ظاهر، حماية الصين من الاعتداء عليها ووضع حد لإطماع الدول القديمة في الحصول على الامتيازات وانتزاع اجزاء من البلاد. فقد كان للدول الكبرى بعد الحرب من المشاكل ما يشغلها عن الصين مما جعلها تعطي هذا التعهد على نفسها ، ومن هذه الدول اليابان ، بالرغم من ان ذلك يتعارض مع سياستها التقليدية التي سارت عليها عدة سنوات . ولكن مرور سنوات قليلة كشف عن حقيقة نوايا اليابان وكيف انها لم تتبدل ، إذ ضربت بالاتفاقيات والالتزامات عرض الحائط وقامت بغزو الصين فقدمت بذلك للعالم مثلا في الخداع

والنفاق الدولي. وعلينا ان نعود الى مؤتمر واشنطن لنستطيع أن نفهم التطورات التي جاءت بعد ذلك التاريخ

وقد حدث أثناء قيام مؤتمر واشنطن انسحاب القوات الاجنبية من سيبيريا. وكان اليابانيون آخر النازحين. وتقدم السوفييت المحليون وانضموا الى جمهورية روسيا السوفييتية.

وكانت الجمهورية الروسية السوفييتية في أول عهدها قد عرضت على الحكومة الصينية أن تتنازل عن الامتيازات الخاصة التي كانت قد حصلت عليها روسيا القيصرية مع بعض الدول الاستعمارية الأخرى. فالاستعمار والشيوعية لا يتفقان كما ان السوفييت قد تعمدوا ان ينتهجوا سياسة سمحة تجاه الدول الشرقية التي لقيت الكثير من الاستغلال والوعيد على يد الدول الاستعمارية ردحاً طويلا من الزمن. وقد كانت هذه السياسة بالإضافة الى الكسب المعنوي، على قسط كبير من الحكمة إذ جعلت لروسيا اصدقاء في الشرق ولم يكن العرض الروسي بالتنازل عن الامتيازات مشروطاً بشرط تلتزم به الصين، بل كان مجاناً وبالرغم من ذلك فقد أوجست الصين خيفة من اغضاب الدول الأوروبية ان هي تعاملت مع السوفييت. واخيراً اجتمع الممثلون الروس بالممثلين الصينيين واتفقوا في عام ١٩٢٤ على بعض الشروط. ولما علمت الحكومات الفرنسية والأمريكية واليابانية بذلك استشاطت غضباً، وقدمت احتجاجاً لحكومة بكين التي تملكها الذعر فأنكرت ان يكون لممثليها حق توقيع الاتفاقية. وما أحزن موقف الحكومة التي تقف موقف حكومة بكين! ورداً على التحدي قام الممثل الروسي بنشر نص الاتفاقية، مما احدث دوياً كبيراً، لان الصين قد عوملت لأول مرة في علاقتها مع الدول الكبرى معاملة شريفة كريمة. وهي المعاهدة الاولى التي وقفت فيها موقف الند للند. وقد ابتهج الشعب الصيني بالمعاهدة وطالب حكومة بكين بتوقيعها. اما كراهية الدول الاستعمارية للمعاهدة فلأنها وضعتها في مأزق حرج إذ انها تريد ان تتمسك بامتيازاتها القديمة بينما تنازلت عنها روسيا كرماً وعفة.

واتصلت حكومة السوفييت أيضاً بحكومة الدكتور صن يات سن القائمة في كانتون وتوصلت معها الى اتفاق متبادل وكانت تدور في ذلك الحين حرب أهلية صغيرة بين الشمال والجنوب وبين العسكريين المختلفين في الشمال . وكان هؤلاء العسكريون «العظماء» كما كانوا يسمون انفسهم ، لا يحاربون من اجل مبدأ او برنامج معين بل لكسب السلطة الفردية . وكانوا يتحدثون مع بعضهم يومياً ويعودون فيتحالفون مع آخرين في الطرف المعاكس، وهكذا، مما جعل الأمر يشكل على الشعب . وقد ألف هؤلاء العسكريون جيوشاً خاصة وفرضوا ضرائب خاصة وشنوا حروبهم الخاصة . وكان العبء هذا بكامله يقع على كاهل الشعب . ويقال ان معظم هؤلاء العسكريين كانوا ألعوبة في يد الدول الأجنبية وخصوصاً اليابان ، كما كانت تصلهم المساعدات والأموال من البيوت المالية الكبيرة الاجنبية في شنغهاي .

ولم يكن في الصين آنذاك جهات يرجى لها الخير سوى الجنوب الواقع تحت سيطرة الدكتور صن يات سن الذي كان له مبدأ وسياسة مرسومين ولم يكن مجرد محارب بقصد الأسلاب كما كانت الحكومات العسكرية في الشمال . وفي عام ١٩٢٤ عقد المؤتمر الأول لحزب الكومنتانج «حزب الشعب» وقدم اليه الدكتور صن برنامجه الذي ضمنه المبادىء التي يجب أن يسير عليها الشعب الصيني وما زالت هذه المبادىء والبرنامج لحزب الكومنتاج ، والمفروض انها الآن الأسس التي تتبعها الحكومة التي تسمي نفسها «الحكومة الوطنية»

وقد توفي الدكتور صن في عام ١٩٢٥ بعد ان قضى حياة كلها نضال في خدمة الصين مما جعله معبوداً للشعب الصيني .

السوفيتيون يكسبون الجولة الاخيرة

١١ ابريل ١٩٣٣

●

شهد شهر يوليو من عام ١٩١٨ تطورات سريعة في روسيا ، اذ اخذ الشرك المنصوب حول البلشفيك في تضييق الخناق عليهم . وكان الالمان يهددونهم من اوكرانيا في الجنوب . وشجع الحلفاء الزحف على موسكو وجود العدد الضخم من اسرى تشيكوسلوفاكيا في روسيا . وكانت الحرب على قدم وساق على طول الجبهة الغربية في فرنسا .

والذي يدعو الى الدهشة ان نرى كلا من قوات الحلفاء واعدائهم الألمان يعملون في روسيا متعاونين نحو هدف مشترك وهو سحق البلشفيك . وهكذا يتجلى امامنا ثانية تفوق قوة البغض بين الطبقات على قوة العداوة بين القوميات مع ان الاخيرة فيها من السم والمرارة ما يكفي . ومع ان هذه الدول لم تعلن الحرب رسمياً على روسيا الا انها وجدت طرقاً عديدة للمشاغبة على السوفييت وخصوصاً بمساعدة الزعماء المناوئين للثورة وامدادهم بالاسلحة والمال . ونزل الى ميدان القتال ضد السوفييت عدد من القواد القيصريين القدماء .

كان القيصر وعائلته معتقلين في ذلك الحين في شرق روسيا قرب جبال اورال تحت حراسة السوفييت المحلي فيها . وقد ارعب تقدم القوات التشيكية في هذا الاقليم السوفييت المحلي الذي خاف ان يتم على يد هؤلاء انقاذ القيصر وجعله محوراً لحركة لمناوأة الثورة . ولذا فإنهم حملوا القانون بأيديهم واعدموا العائلة بأسرها

والظاهر ان اللجنة المركزية للسوفييت لم تكن مسؤولة عن هذا الاجراء. وكان لينين يعارض في اعدام القيصر المخلوع لأسباب تتعلق بالسياسة العالمية ويعارض في اعدام عائلة القيصر لأسباب انسانيه. ولكن بعد ان سبق السيف العذل اضطرت الحكومة المركزية ان توجد مبرراً لما حصل. ولعل ذلك زاد في اثارة حفيظة حكومات الحلفاء وتحرشهم.

وشهد شهر اغسطس ازدياداً في سوء الوضع. وحدث امران جرّا معهما الغضب واليأس والفزع، احدهما محاولة اغتيال لينين والآخر نزول قوات الحلفاء في (آرك انجيل) في شمال روسيا. ودب الهياج في موسكو وخيل للناس ان نهاية السوفييت اصبحت قاب قوسين او ادنى. فقد احاطت قوات الاعداء من الماني وتشيكيين ومناوئين للثورة بموسكو احاطة السوار بالمعصم. ولم يكن من المقاطعات المحيطة بموسكو واحدة في قبضة السوفييت مما جعل نزول جيش الحلفاء نذيراً بالاجهاز على السوفييت. ولم يكن لدى السوفييت جيش يعتد به، اذ لما تنقض خمسة شهور على معاهدة (برست ليتوفسك) حتى سرح رجال الجيش القديم وعادوا الى حقولهم. وكانت موسكو تعج بالمؤامرات كما كان البورجوازيون مبتهجين علناً لقرب سقوط السوفييت.

هذا هو المأزق الحرج الذي وقعت فيه الجمهورية السوفييتية التي لم يمر على تأسيسها غير تسعة شهور. واستولى اليأس والهلع على قلب البلشفيك ولكنهم قرروا ان يموتوا مكافحين ما دام لم يبق لهم من الموت بد. وانقضوا على اعدائهم كالوحش الكاسر الواقع في الشرك، كما فعلت قبل ذلك بقرن وربع من الزمان الثورة الفرنسية الفتية. ولم يبق مجال للتسامح والرأفة. واعلنت الاحكام العرفية في شتى انحاء البلاد. واعلنت لجنة السوفييت المركزية الارهاب الاحمر اي «الموت لجميع الخونة والحرب الطاحنة ضد الغزاة الاجانب.» وصمم السوفييت ان يحاربوا حتى الرمق الأخير كلًا من العدو الداخلي والخارجي، بعد ان وقفت في وجههم دول العالم وجميع الرجعيين الروس. وابتدأت فترة ما يدعى (الشيوعية العسكرية)، وتحولت البلاد بأمرها الى ما يشبه المعسكر المحاصر.

وبذل السوفييت اقصى جهد ممكن لتقوية الجيش الاحمر ، وعهد بهذه المهمة الى تروتسكي .

كان ذلك حوالي سبتمبر واكتوبر من عام ١٩١٨ عندما اخذ الجهاز الالماني الحربي في الغرب ينهار ، وبدأ التفكير في عقد الهدنة . ووضع الرئيس ويلسون مبادئه الاربعة عشر المفروض انها تعبر عن اهداف الحلفاء . ومن هذه المبادىء الجديرة بالذكر هنا مبدأ وجوب الانسحاب من جميع الاراضي الروسية واعطاء روسية الفرصة لتنمية نفسها بمساعدة الدول الاخرى . ولكن ظهر ان المعنى الصحيح لهذا المبدأ هو تدخل الحلفاء في روسيا وانزال قواتهم فيها لقتالها . وقد ارسلت الحكومة البلشفية مذكرة الى الرئيس ويلسون تشجب فيه مبادئه الأربعة عشر جاء فيها : « انكم تطالبون باستقلال بولندا والصرب وبلجيكا وتطلبون الحرية لاهل النمسا وهنغاريا ، ولكن الغريب انكم تغفلون اي ذكر لحرية ايرلندا ومصر والهند وحتى جزائر الفيليبين » .

وقعت الهدنة بين الحلفاء والمانيا في ١١ نوفمبر ١٩١٨ ، وتم الصلح . اما في روسيا فقد ظلت الحرب الاهلية مندلعة خلال عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ . وحارب السوفييت وحدهم امام جحافل الأعداء ، وحتى ان الجيش الاحمر هوجم في وقت واحد من ١٧ جبهة . ولا غرو فإن كلًا من انجلترا وفرنسا وامريكا واليابان وايطاليا والصرب وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ودول البلطيق وبولندا وعدداً كبيراً من القواد الروس المناوئين للثورة كانوا معادين للسوفييت . وامتدت ساحة القتال من سيبيريا الشرقية الى البلطيق والقرم . وكثيراً ما كانت نهاية السوفييت تلوح في الافق ، فقد هُددت موسكو واشرفت بتروجراد على السقوط في يد العدو ، ولكنها صمدت في وجه الازمات وزادها النصر ثقة وقوة .

ومن الضباط المناوئين للثورة الاميرال كولشك الذي انتحل لنفسه صفة الحاكم لروسيا ، واعترف به الحلفاء وبذلوا له المساعدة الكبيرة . ويمكننا ان نطلع على كيفية تصرفه في سيبيريا مما كتبه احد حلفائه وهو الجنرال جريفز قائد الجيش الامريكي المؤازر لكولشك . ومما قاله هذا الجنرال الامريكي : « أرتكبت اعمال

مرعبة ولكنها لم تصدر عن البلشفيك (كما يعتقد العالم) ولا أتجنى على الحقيقة اذا قلت ان اعداء البلشفيك قتلوا من الناس في سيبيريا الشرقية ما لا يقل عن مئة شخص مقابل كل شخص واحد قتله البلشفيك » .

ولعله يهمك ان تعلمي الأسس التي يتصرف بموجبها الساسة المشاهير في شؤون الشعوب الكبرى وكيف يعلنون الحرب او الصلح ولويد جورج ، مثلاً ، كان رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الحين وربما كان اقوى رجل في اوروبا . وقد تحدث يوماً عن روسيا في مجلس العموم فأشار الى كولشك وقادة روسيين آخرين. وأشار ايضاً الى ما سماه « الجنرال خركوف » ؛ والذي يدعو للسخرية هنا ان «خركوف» لم يكن جنرالاً او حتى رجلاً بل كانت عاصمة اوكرانيا ! ولكن هذا الجهل الفاضح في مبادىء الجغرافيا الدولية لم يمنع هؤلاء الساسة من تمزيق اوروبا وشعوبها وتغيير خارطتها

وقام الحلفاء ايضاً بضرب الحصار المحكم على روسيا فتعـــذر عليها البيع او الشراء خارج اراضيها طيلة عام ١٩١٩ . وبالرغم من هذه الصعوبة الجسيمة والاعداء الاقوياء الكثر فإن روسيا السوفييتية صمدت وانتصرت . وكانت هذه انتفاضة جبارة لم ير التاريخ لها مثيلاً ، فكيف احرز السوفييت هذا النصر ؟ لا غرو انه لو توفرت لدى الحلفاء الوحدة والاجماع على سحق البلشفيك لتمكنوا من ذلك في الايام الاولى ، لأن قضاءهم على المانيا ترك تحت تصرفهم قوات عديدة لتسخيرها في الحرب الروسية . ولكن استخدام هذه القوات في اي مكان ولا سيما ضد السوفييت لم يكن من السهولة بمكان ، اذ كانت تلك الجيوش منهكة القوى ولا تقبل ان تساق مرة اخرى للقتال في بلاد اجنبية . وكان هناك شعور كبير من العطف على روسيا بين طبقات العمال . واخافت هذه العوامل حكومات الحلفاء من اغضاب شعوبها ان هي اعلنت الحرب السافرة على روسيا . وكانت اوروبا تبدو كأنها على ابواب الثورة . وهناك عامل آخر وهو التنافس فيما بين الحلفاء الذين اخذوا يختصمون فيما بينهم عندما قرب موعد الصلح مع المانيا . ولهـــذه الاسباب فان هذه الدول لم تقم بمحاولة جازمة من جانبها للقضاء على البلشفيك ،

بل حاولت الوصول الى هذا الهدف عن طريق غير مباشر وهو استخدام غيرها ليقوم بالقتال مكانها بينما هي تمده بالمال والسلاح والمشورة الفنية . وما كان يدور بخلدهم ان السوفييت سيثبتون اقدامهم في ارض المعركة .

ولا ريب ان هذه الظروف قد ساعدت السوفييت وهيأت لهم الفرصة لتقوية انفسهم . ولكن الانصاف يدعونا ألا نتخيل ان كفة انتصار السوفييت لم ترجح الا نتيجة لعوامل خارجية ، لان النصر الذي احرزوه كان في جوهره نصراً للثقة والايمان والتضحية والعزيمة المتوفرة لدى الشعب الروسي . والذي يدعو الى الدهشة في هذا الأمر ان الشعب الروسي كان معروفاً عنه في كل مكان الكسل والجهل والانحطاط والخنوع ، مع ما في هذا القول من صحة . وكأن الحرية عادة من عادات الانسان فاذا اغتصبت منه ردحاً من الزمن فإنه غالباً ما ينساها. ولم تسنح للفلاح او العامل الروسي الجاهل الفرصة لممارسة هذه العادة . ولكن زعماء روسيا في هذه المحنة كانوا من العظمة بحيث استطاعوا ان يقلبوا هذه الكتلة البشرية الفقيرة الى شعب قوي منظم يعمره الايمان برسالته والثقة بنفسه . اما كولشك واشباهه فانهم لم ينهزموا لقوة البلشفيك وعزيمتهم وحسب ولكن لأن الفلاحين الروس ضاقوا بهم ذرعاً لندائهم بعودة النظام البائد ونزعتهم الى تجريد الفلاح من الأرض والامتيازات التي كسبها مؤخراً والى ان يذود عنه بدمه .

ووقف لينين شامخاً كالطود لا ينازعه في سلطته المطلقة اي منازع . واصبح معبود الشعب الروسي ومعقد الأمل والايمان ، والحكيم الذي لا تستعصي عليه مشكلة ولا تفت في عضده اية مصيبة . وكان يليه مركزاً تروتسكي الخطيب المفوه والكاتب الذي راح ينشيء جيشاً قوياً اثناء الحرب الاهلية والحصار، مع انه لم تكن لديه اية خبرة عسكرية سابقة . وكان شجاعاً رابط الجأش كثيراً ما خاطر بحياته في ساحة القتال. ولم تأخذه الرحمة بكل من بدا منه الجبن أو عدم النظام . وفي احدى اللحظات الحاسمة في الحرب الأهلية اصدر امره التالي :
« احذركم انه اذا تقهقرت اية وحدة من وحدات الجيش دون ان يصدر لها امر

بذلك ، فإن اول من سيقتل رمياً بالرصاص هو القومسيار ثم القومندان، ويحل محلها جنديان باسلان. ولن يفلت من الرصاص الجبناء والانذال والخونة. اعدكم بذلك جزماً امام الجيش الأحمر بأمره » . وقد برّ بوعده .

وهناك امر عسكري آخر اصدره تروتسكي عام ١٩١٩ طريف في نوعه ويدلنا على مدى تمييز البلشفيك المتواصل بين الشعوب والحكومات الرأسمالية وعدم تمسكهم بالنعرة القومية . يقول الأمر : « مع اننا نحارب يودنش ، ذنب انجلترا فإنني اطالبكم الا تنسوا ان هناك فئتين في انجلترا . هناك انجلترا المتكالبة على الارباح والقسوة والرشوة والتعطش الى اراقة الدماء ، وهناك انجلترا العمال والقوى الروحية والمبادىء السامية والتضامن العالمي . ان الذي يحاربنا هو انجلترا الدنيئة عديمة الشرف والممثلة في سماسرة البورصة . اما انجلترا العمال والشعب فهي الى جانبنا . »

ونستطيع ان نرى صورة من استماتة الجيش الأحمر في الدفاع عن بتروغراد التي كانت على وشك السقوط في يد يودنش ونحن نطالع مرسوم مجلس الدفاع الذي جاء فيه : « سندافع عن بتروغراد حتى آخر نقطة من دمنا ولن نتخلى عن شبر واحد ، وسنقاتل من شارع الى شارع . »

وينبئنا مكسيم جوركي الكاتب الروسي الكبير ان لينين قال مرة عن تروتسكي :

« اروني رجلاً آخر يمكنه في عام واحد ان ينظم جيشاً يكاد يكون مثالياً وان يكسب اجلال الخبراء العسكريين ، ان لدينا هذا الرجل ولدينا كل شيء. وسنظل نحقق المعجزات . »

ونما الجيش الاحمر نمواً سريعاً . ففي ديسمبر من عام ١٩١٧ بعد ان قبض البلشفيك على السلطة بقليل ، كان الجيش حوالي ٤٣٥ الف جندي . ولا بد ان معظم هذا العدد قد سرح بعد معاهدة برست ليتوفسك، ولم يكن بد من اعادة تشكيل الجيش . وما انتصف عام ١٩١٩ حتى اصبح تعداد الجيش مليوناً ونصف مليون من الجنود . وبعد عام من ذلك ارتفع الرقم الى عدد هائل وهو خمسة ملايين

وثلاثمائة الف رجل .

وفي نهاية عام ١٩١٩ كانت كفة السوفييت راجحة كثيراً على كفة اعدائهم في الحرب الاهلية . ولكن الحرب استمرت عاماً آخر تخللته لحظات حرجة . وفي عام ١٩٢٠ دب خلاف بين روسيا ودولة بولندا (التي شكلت اثر هزيمة المانيا) ونشبت بينهما الحرب . وانتهت الحرب في نهاية عام ١٩٢٠ وأخذ السلام يرفرف ثانية على البلاد

ولكن الصعوبات الداخلية اخـــذت في النمو . فقد اثرت الحرب والحصار والمرض والمجاعة في البلاد وملأتها تعاسة . وانخفض الانتاج كثيراً لأن الفلاح لم يتمكن من فلاحة حقله والعامل من العمل في مصنعه لأن الجيوش الاجنبية كانت تزحف فوقها باستمرار ومع ان الحرب الشيوعية انقذت سلامة البـــلاد الا انه كان على جميع افراد الشعب التقشف المتواصل لدرجة يصعب تحملها . ولم يكن الفلاحون مهتمين بالانتاج الكبير لأنهم يعلمون ان الشيوعية العسكرية تستولي على جميع الفائض من انتاجهم . واصبحت الحالة خطيرة وحرجة ، حتى لقد قامت ثورة بـــين الجنود في كرونستادت قرب بتروغراد واضرابات في بتروغراد (أو لينينغراد) نفسها .

وخف لينين لمعالجة الموقف بعبقريته التي توفق بين المبادىء الاساسية والاحوال القائمة ، فأنهى الشيوعية العسكرية ، ووضع ما يدعى بالسياسة الاقتصادية الجديدة التي اعطت الفلاح المزيد من الحرية في التصرف بانتاجه وبيع محصولاته ، وسمحت بالتجارة الخصوصية . ومع ان في هـذه السياسة خروجاً على المبادىء الشيوعية إلا ان لينين بررها على اساس انها اجراء موقت . ولا شك ان هذه السياسة جلبت اليسر للشعب . ولكن سرعان ما برزت نكبة جديدة وهي فقر المحصول الزراعي في جنوب شرق آسيا نتيجة للتجنيد الكبير في البلاد . وكانت هذه المجاعة من أسوأ ما عرف التاريخ لأنها قضت على الملايين . وكان بإمكان هذه الكارثة ان تقوض بناء الحكومة لأنها جاءت بعد الحرب العالمية والحرب الاهلية مباشرة ، وكان هناك الحصار والتدهور الاقتصادي ، ولم تتمكن الحكومة السوفييتية بعـــد من

تكريس جهدها للنشاط السلمي . ولكن السوفييت انتشلوا انفسهم من هذه الكارثة كما فعلوا في الكوارث السابقة . وعقد ممثلو الدول الاوروبية مؤتمراً ليبحثوا فيه النجدة التي يمكن تقديمها لضحايا المجاعة . وقرر المؤتمر الا تقدم المساعدة الا بعد ان تعد الحكومة السوفييتية بوفاء الديون القيصرية التي كانت قد ألغتها . وكان المرابون اقسى من ان تلين قلوبهم لاستجداء الامهات الروسيات اللواتي فتك الجوع بأبنائهن واطفالهن . ولكن الولايات المتحدة لم تشترط بدلاً للمساعدة وقدمتها مجاناً .

ومع ان انجلترا وبعض الدول الاخرى منعت المساعدة الانسانية عن روسيا الا انها لم تقاطعها تجارياً ، ففي عام ١٩٢١ عقدت معاهدة تجارية انجليزية روسية وحذت دول اخرى حذو انجلترا في ذلك .

اتبع السوفييت سياسة كريمة مع الدول الشرقية مثل تركيا والصين والعجم وافغانستان وتنازلوا لها عن الامتيازات التي حصلت عليها روسيا ايام القياصرة ، وحاولوا اقامة علاقات ودية معها . ومع ان ذلك جاء موافقاً لمبادىء الشيوعية المنادية بالحرية لجميع الشعوب التي تقاسي من الظلم والاستغلال ، الا انه كان في نفس الوقت وسيلة لتقوية مركز روسيا . وقد كانت هذه المعاملة الكريمة تلقي ضوءاً يكشف خبايا الدول الاستعمارية كانجلترا وغيرها .. ويجعل الدول الشرقية تقارن بين المعسكرين فتخرج بفكرة سيئة عن الدول الغربية الاستعمارية .

ومن احداث عام ١٩١٩ المهمة التي اريد ان الفت نظرك اليها عقد المؤتمر العالمي الثالث في موسكو تحت اشراف الحزب الشيوعي . وقد حدثتك عن المؤتمر العالمي الاول الذي عقده كارل ماركس والمؤتمر العالمي الثاني الذي افتتح بخطابات ثاربة ولكنه فشل على اثر اعلان الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ . واعتقد البلشفيك ان العمال الاقدمين والاحزاب الاشتراكية التي عقدت المؤتمر الثاني قد خانت الطبقة العمالية ولذا فانهم قاموا بتأسيس هذا المؤتمر العالمي الثالث لهدف ثوري وهو مقارعة الرأسمالية والاستعمار والانتهازيين من الاشتراكيين الذين انتهجوا لهم طريقاً وسطاً . ودعي المؤتمر العالمي هذا (الكومنترن) اي الشيوعية

العالمية ، وقد لعب دوراً كبيراً في الدعاية في البلدان المتعددة وهو ، كما يدل الامم ، منظمة عالمية تضم اعضاء تنتخبهم الاحزاب الشيوعية في بلدان عديدة . ولما كانت الشيوعية قد ازدهرت اكثرشيءفيروسيا فانالأعضاء الروس يسيطرون على المؤتمر . والكومنترن يختلف طبعاً عن الحكومة السوفييتية وان كان بعض الناس يشغلون مراكز كبيرة في المنظمتين معاً ولما كان الكومنترن منظمة هدفها نشر الدعاية الثورية فإنه قوبل بكراهية شديدة في البلدان الرأسمالية التي تحاول الضغط على اتباعه في بلادها .

اما المؤتمر العالمي الثاني (مؤتمر العمال والاشتراكية العالمي) فانه بعث ثانية في غرب اوروبا بعد الحرب ومع ان هدف كلا المؤتمرين واحد تقريباً ، ولو نظرياً ، غير ان المثل العليا والوسائل المختصة بكل منهما تختلف عن الآخر ، ولا وئام بينهما . وقام بين المؤتمرين عداء يفوق عداءهما للعدو المشترك وهو الرأسمالية. ويعتبر المؤتمر الثاني منظمة محترمة ، واصبح عدد من اعضائه وزراء حكومات في اوروبا ، اما المؤتمر الثالث فهو ما يزال ثورياً ولا يحظى باحترام كبير .

شهدت فترة الحرب الاهلية في روسيا تنافساً بينالارهاب الاحمر والارهاب الابيض في ميدان القسوة والعنف، ولربما كان الارهاب الاخير اشد من الاول، كما يستدل من كتابة الجنرال الامريكي عن اعمال العنف التي ارتكبها كولشك في سيبيريا ، ومن الكتابات الاخرى ولا ريب ان الارهاب الأحمر كانقاسياً وان عدداً من الابرياء اخذوا بجريرة غيرهم ، لأن اعصاب البلشفيك المحاطين بالمؤامرات والجواسيس ،والمتعرضينللهجوم من جميع النواحي،انهارت واخذوا يعاقبون بشدة كل من اشتبهوا في امره . وقرن اسم بوليسهم السياسي (شيكا) بالرعب . وهو شبيهبقسم المباحث الجنائية فيالهند ، وان كانت له سلطاتاوسع.

لقد طالت هذه الرسالة ولكن عليّ قبل ان اختمها ان احدثك المزيد عن لينين فبالرغم من محاولة اغتياله في اغسطس من عام ١٩١٨ فإنه لم يخلد للراحة واندفع يعمل عملاً مضنياً حتى سقط مغشياً عليه في مايو ١٩٢٢ . واستراح قليلاً ليعود الى الاجهاد والى مرض آخر في عام١٩٢٣ لازمه حتى فارق الحياة في

موسكو في اليوم الحادي والعشرين من يناير عام ١٩٢٤

وحنطت جثة لينين وعرضت اياماً عديدة في موسكو . وكان ذلك في فصل الشتاء . وقام بزيارة الجثمان ممثلون عن عامة الشعب والفلاحين والعمال في جميع انحاء روسيا رجالاً ونساءً واطفالاً مترحمين على ذكرى رفيقهم المحبوب الذي انتشلهم من اعماق الظلم واثار لهم سبيل الحياة الفاضلة . وقد بنوا له ضريحاً في الميدان الاحمر في موسكو وضعت فيه الجثة داخل صندوق من الزجاج تمر به صفوف لا نهاية لها من الناس الخاشعين في كل مساء . وما زال الجثمان في ذلك المكان . ومع انه لم تمض مدة طويلة من الزمن على وفاة لينين الا انه اصبح اسطورة من الاساطير لا في روسيا وحدها بل في العالم اجمع . وكلما مرت الاعوام زادت عظمة الرجل واصبح في عداد الخالدين . وسميت بتروغراد (لينينغراد) واصبح في كل بيت في روسيا زاوية باسم لينين او صورة له تزين الحائط. ولكن لينين لا يعيش في النصب التذكارية او الصور وانما في العمل الذي قام به وفي قلوب مئات الملايين من العمال الذين يجدون فيه اليوم وحياً واملاً وايماناً بايام اسعد وافضل

ولا يتبادر لذهنك ان لينين كان مجرد آلة لا تحس بالعواطف الانسانية ولا يفكر الا بالعمل . فمع انه كان يكرس حياته لعمله ورسالته في الحياة الا انه عاش لا لنفسه فقط ، فكأن المبادىء تجسدت فيه . وتجلت فيه مظاهر الإنسانية وخصوصاً المقدرة على الضحك من اعماق قلبه . ويقول لوكهارت الوكيل البريطاني في موسكو ايام السوفييت الاولى الحرجة ان لينين لم يفقد روحه المرحة مهما حل من احداث « وكان احسن من عرفتهم طبعاً وخلقاً » وكان بسيطاً وقوياً في كلامه وعمله ومبغضاً للكلام الأجوف . وقد شغف حباً بالموسيقى لدرجة انه كان يخشى معها ان تخلق فيه النعومة والتقاعس .

وقد اشار اليه احد رفقائه وهو لوناشارسكي الذي كان قومسياراً للتعليم عندما قارن اضطهاد لينين للرأسماليين باخراج المسيح المرابين من الهيكل قائلاً : «لو أن المسيح كان حياً اليوم لكان بلشفياً » . وهذه المقارنة غريبة على قوم لا

يتمسكون بالدين .

وقال لينين مرة عن المرأة «لا حرية لشعب نصفه عبيد في المطبخ» .
ويخبرنا صديقه القديم مكسيم غوركي انه ربت مرة على رؤوس بعض الاطفال وقال : «سيكون لهؤلاء حياة افضل من حياتنا انهم لن يلاقوا المتاعب التي عشنا نحن فيها ، ولن تمتلىء حياتهم بالقسوة التي ملأت حياتنا» ونرجو ان يكون الامر كذلك

واختتم هذه الرسالة بكلمات انشودة ألفت حديثاً ليترنم بها شعب بأسره .
ويقول الذين سمعوها ان موسيقاها مليئة بالحيوية والعزم وانها تعكس روح ثورة الجماهير . وانني نلاحظ شيئاً من هذه الموسيقى في الكلمات الانجليزية التي اذكرها لك هنا . واسم النشيد (اكتوبر) اي الثورة البلشفية التي وقعت في نوفمبر عام ١٩١٧ . وقد كان التقويم الروسي آنذاك ينقص عن التقويم الغربي ثلاثة عشر يوما ولذا فان تاريخ ثورة مارس حسب ذلك التقويم هو (فبراير) وتاريخ الثورة البلشفية في نوفمبر هو (اكتوبر) . فسميت الثورة (ثورة اكتوبر) . ومع ان روسيا اقتبست الآن التقويم الغربي الا ان الاسماء القديمة ظلت مستعملة .
واليك النشيد :

مشينا نطلب العمل ونطلب الخبز .
وقلوبنا مفعمة بالتعب والشقاء
وارتفعت المداخن الى السماء كالأيدي الهزيلة .
التي لا تستطيع ان تقبض على شيء
وشقت سكون الكون اصوات حزننا وألمنا
التي علت على اصوات المدافع
يا لينين يا امل الايدي الشديدة .
لقد ادركنا ان لا امل لنا إلا في الكفاح ، الكفاح ، الكفاح .
لقد نصرت يا لينين العمال .
ولن ينزع منا احد هذا النصر او يعيد الجهل .

لا أحد ، لا احد مطلقاً
وَلـْيَعْـمُرْ كلٌ واحد منا العزم والشباب في الكفاح
فان امم انتصارنا (اكتوبر) ..
اكتوبر ، اكتوبر ..
اكتوبر رسول الشمس الساطعة .
اكتوبر مشيئة الاجيال الثائرة .
اكتوبر هو العمل والفرح والنشيد .
اكتوبر طالع حسن العقل والمصنع .
هذه راية الجيل الفتي وراية لينين .

مصطفى كمال ينفض غبار الماضي

٨ مايو ١٩٣٣

●

لقد مررنا مع تركيا ورأيناها في أيام هزيمتها السوداء ثم في ايام انتصارها ورأينا كيف ان الخطوات التي اتخذها الحلفاء ولا سيما بريطانيا لإخضاع تركيا وإضعافها قد انقلبت الى عوامل من شأنها تقوية الوطنيين وشحذ قوتهم الفولاذية للمقاومة . فمحاولات الحلفاء قطع أوصال تركيا ، وارسال القوات اليونانية الى ازمير والانقلاب الذي احدثته بريطانيا عام ١٩٢٠ عندما سجن الزعماء الوطنيون ورحلوا من البلاد ومساعدة بريطانيا للخليفة — الذي كان ألعوبة في ايديهم — في مقاومة الوطنيين — كل ذلك أوقد حماس الاتراك واثار غضبهم . وهذا ما يحدث دائماً للمحاولات التي تبذل لتضييق الخناق على شعب أبي شجاع.

ما الذي فعله مصطفى كمال ورفاقه على اثر النصر الذي احرزوه ؟ لم يكن مصطفى كمال مؤمناً بالتمسك بالقديم البالي بل أراد تغيير معالم تركيا، وكان عليه بالرغم من شعبيته الكبيرة ان يتقدم نحو ذلك الهدف بحرص شديد، لان خلع الجذور القديمة الضاربة في تربة صلبة من التقاليد والدين أمر صعب خطر ، فقد كان يؤمن بالغاء السلطنة والخلافة . بينما كان كثير من رفاقه يعارضون ذلك ، وربما كان الشعب نفسه لا يرغب في ذلك . ومع ان الشعب نفسه لم يرغب في بقاء السلطان وحيد الدين العوبة بيد الاجانب واعتبروه خائناً حاول ان يبيع بلاده ، غير ان الكثير من الناس كانوا يريدون قيام خلافة وسلطنة دستوريتين، وان تكون

القوة الفعلية في يد المجلس الوطني. ولكن كمال باشا لا يرضى بأنصاف الحلول فراح يترقب الفرصة الموائية لتحقيق اهدافه .

خلقت بريطانيا كعادتها هذه الفرصة السانحة . إذ بينما كانت الترتيبات تعد لعقد مؤتمر الصلح في فرساي ، أرسلت الحكومة البريطانية الدعوة لحضور المؤتمر الى السلطان في الاستانة لبحث شروط الصلح مع تركيا وطلبت منه تبليغ الأمر لحكومة أنقره وكانت هذه المحاولة المتعمدة في التغاضي عن حكومة انقره ورفع قيمة السلطان - الذي كان ألعوبة - سبباً في اثارة الشعب التركي وإغضابه وجعله يشك في وجود مؤامرة جديدة بين الحكومة البريطانية والسلطان الخائن . واستغل مصطفى كمال ذلك الشعور فنجح في إقناع المجلس الوطني بالغاء السلطنة في نوفمبر من عام ١٩٢٢ ولكن الخلافة ظلت كما كانت ، واعلن انها ظلت قائمة في بني عثمان . وبعد ذلك بقليل اتهم السلطان المخلوع وحيد الدين بالخيانة ، فآثر الفرار على المحاكمة العلنية وفر خفية في سيارة اسعاف انجليزية نقلته الى سفينة حربية بريطانية . وانتخب المجلس قريبه عبد المجيد افندي خليفة اي رئيساً دينياً رمزياً دون اية سلطة سياسية .

وفي العام التالي ، اي في عام ١٩٢٣ أعلنت الجمهورية التركية رسمياً واصبحت عاصمتها انقره ، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية ، فركز السلطة في يده واصبح بالفعل ديكتاتوراً يملي ارادته على المجلس الوطني . واخذ يهاجم كثيراً من التقاليد الاخرى، كما انه لم يجامل الدين كثيراً . وقد غضب الكثيرون من موقف مصطفى كمال هـذا وديكتاتوريته والتفوا حول الخليفة الذى كان هادىء الطبع ضعيف الإرادة. ولكن مصطفى كمال لم يرتح لذلك ، فعامل الخليفة معاملة سيئة وارتقب الفرصة الموائية للخطوة التالية

وقد سنحت الفرصة بسرعة وبطريقة غريبة في هذه المرة، فقد ارسل كل من آغا خان وامير علي (وهو قاض هندي سابق) رسالة لمصطفى كمال من لندن . وادعى الاثنان انهما ينطقان باسم ملايين المسلمين وانهما يحتجان على المعاملة التي يعامل بها الخليفة ويطلبان لذلك ان يحسن معاملة الخليفة وان يقدم له الاحترام

اللازم . وأرسلا نسخة من الكتاب الى احدى صحف الاستانة التي نشرته قبل ان تصل الرسالة الى مصطفى كمال في انقره . ومع ان الرسالة لم تكن مثيرة ، الا ان مصطفى كمال استغلها واقام ضجة كبيرة حولها ولم يشأ ان يترك الفرصة تفلت من يده . وهكذا اعلن أن إقدام آغا خان وزميله على ذلك العمل لم يكن الا مؤامرة بريطانية جديدة . فقد كان يقال ان آغا خان عميل خاص لبريطانيا، سيما وانه كان يعيش في انكلترا ومنغمساً في سباق الخيول ، وكان على تفاهم مع السياسيين البريطانيين ، أضف الى ذلك أنه لم يكن مسلماً سنياً ، بل كان زعيم طائفة خاصة . واعلن ايضاً ان بريطانيا استخدمت آغا خان اثناء الحرب العالمية الأولى بديلاً للسلطان ـ الخليفة في الشرق وعززوا مركزه بالدعاية وغيرها وحاولوا جعله زعيماً لمسلمي الهند ليكون ألعوبة في يدهم . فلو كان آغا خان مخلصاً في دفاعه عن الخليفة فلماذا لم يسند الخليفة أيام الحرب عندما اعلن الجهاد على بريطانيا ؟! ولماذا حالف بريطانيا آنذاك ضد الخليفة ؟!

وهكذا أثار مصطفى كمال زوبعة حول هذه الرسالة التي ارسلها صاحباها من لندن غير عالمين بالنتائج، وظهر آغاخان بمظهر لا يحسد عليه . اما الصحفيون الذين نشروا الرسالة في صحف الآستانة فانهم اتهموا بالخيانة ولقوا العقاب الصارم ، وبينما كان الشعور الشعبي في أوجه ، تقدم مصطفى كمال للمجلس الوطني بمشروع قانون لالغاء الخلافة فأقره المجلس في نفس اليوم من مارس ١٩٢٤ . وهكذا زال من المسرح الحديث نظام عتيد بعد ان لعب دوراً كبيراً في التاريخ . ولم يبق لتركيا على الأقل أمير المؤمنين لأن تركيا تحولت الى دولة زمنية .

وقبل ذلك بزمن كانت الهند قد اصابها القلق الكبير لتهديد بريطانيا للخلافة، فانتشرت لجان الخلافة في طول البلاد وعرضها وانضم الى الحركة كثير من الهندوس الذين اعتقدوا ان بريطانيا كانت تسعى لالحاق الضرر بالاسلام . والآن وضع الاتراك انفسهم نهاية للخلافة ووقف الاسلام بلا خلافة . وكان لمصطفى كمال ايمانه الراسخ بأن على تركيا الابتعاد عن المشاكل الدينية التي تربط تركيا بالبلدان العربية والهند ، وزهد في زعامته هو أو زعامة بلاده للاسلام ، ورفض طلب

بعض الهنود والمصريين ان يصبح خليفة للمسلمين . ثم التفت نحو الغرب واراد ان يجعل من تركيا دولة غربية في اسرع وقت ممكن . كما وأنه عارض فكرة الاتحاد الاسلامي معارضة كلية . واصبحت الفكرة السائدة هي الفكرة الطورانية لأن الأتراك جنس طوراني . وهكذا فضّل مصطفى كمال الفكرة القومية الوثيقة على الفكرة الاسلامية العالمية المطاطة .

أخبرتك سابقاً ان تركيا اصبحت دولة وطنية متماسكة وان العناصر الدخيلة فيها قد تقلصت كثيراً . ولكن ظل في شرق تركيا شعب غير تركي متاخم للحدود التركية الفارسية وهم الاكراد القدماء الذين كانوا يتكلمون اللغة الفارسية وكانت بلادهم كردستان مقسمة بين تركيا وفارس والعراق ومنطقة الموصل . وقد نقص عدد الاكراد من ٣ ملايين الى مليون ونصف ، وكان نصف هؤلاء يقطنون داخل حدود تركيا . وقد قامت هذه الفئة بحركة قومية بُعَيْد الثورة التركية عام ١٩٠٨ ، كما طالب ممثلو الاكراد في مؤتمر الصلح في فرســـاي ، باعطائهم الاستقلال القومي .

وفي عام ١٩٢٥ قامت ثورة كبيرة في الرقعة الكردية من تركيا ، وكان ذلك أيام الاحتكاك الناشب بين بريطانيا وتركيا حول منطقة الموصل التي كانت قسماً من المنطقة التركية الكردية والتي قامت فيها الثورة . فاستنتج الاتراك أن الأصابع البريطانية هي التي حركت العناصر الدينيـــة المتطرفة ضد اصلاحات مصطفى كمال ومع انه يصعب الحكم عما اذا كان البريطانيون هم المحرضين ، غير انه من المؤكد أن بريطانيا قابلت ثورة الاكراد في تركيا بالارتياح . وواضح ايضاً ان النزعة الدينية كان لها أثر في هذه الحركة كما كان للقومية الكردية سهم آخر ، وربما كان السهم الأوفر .

وقام مصطفى يعلن أن بريطانيا هي المحركة للأكراد ، مما جعل المجلس الوطني يسن قانوناً يلحق الخيانة العظمى بكل من يستخدم الدين كوسيلة لإثارة الشعور الشعبي سواء بالكلام او بالنشر ، ويوقعه تحت طائلة العقوبة القصوى . وحرم ايضاً تعليم المبادىء الدينية التي تناقض الولاء للجمهورية في المساجد . وقضى كمال

باشا بعد ذلك على الاكراد بلا رحمة ، وأقام محاكم «الاستقلال» الخاصة لمحاكمتهم بالالوف وأعدم الزعيان الكرديان الشيخ سعيد والدكتور فؤاد وغيرهما الذين ماتوا وامنية استقلال كرستان لا تفارقهم .

وهكذا نرى ان الاتراك الذين حاربوا مؤخراً للحصول على حريتهم سحقوا الأكراد لمطالبتهم بحريتهم فما اغرب تحول القومية من دفاع عن الوطن الى هجوم لسلب حرية الغير . وفي عام ١٩٢٩ ثار الاكراد ثانية ، ولكن ثورتهم سحقت ولو الى حين ، إذ كيف يمكن أن تخمد الى الأبد ثورة قوم يكافحون من اجل الحرية وهم مستعدون لدفع الثمن !.

والتفت كمال باشا بعد ذلك الى معارضي سياستـــه داخل المجلس الوطني وخارجه . فشهوة الدكتاتور للسلطة تزداد باستمرار ولا تعرف الشبع اومهادنة المعارضين . ولم يكن مصطفى كمال ليرضى عن معارضيه ، فاستغل فرصة محاولة احد المتطرفين الفاشلة لاغتياله لوضع الامور في نصابها ، فأرسل محاكم الاستقلال في طول البلاد وعرضها لمحاكمة كل مناوىء لسياسته ولمعاقبته عقاباً صارماً . ولم ينج من ذلك زعمـــاء المجلس او زملاؤه القوميون إذ كانوا من معارضيه . اما رؤوف بك ـ الذي كانت الحكومة البريطانية قد نفته الى مالطة والذي اصبح فيما بعدرئيساًلوزراء تركيا فقد حكم عليه غيابياً . وكثيرمن الضباطوالعسكريين الذين حاربوا بجانب الغازي في حرب الاستقلال حل بهم الخزي والعقاب وحتى الموت . وكانت التهمة الموجهة الى هؤلاء التآمر مع الاكراد او التآمر مع العدو اللدود بريطانيا ضد سلامة الدولة .

وبعد ان ازاح مصطفى كمال جميع معارضيه عن المسرح تمت له الدكتاتورية المطلقة واصبح عصمت إينونو ساعده الأيمن وباشر عندئذ في تطبيق الافكار التي كانت تداعب مخيلته ، فأبتدأ بأمر يبدو لأول وهلة صغيراً ولكن له دلالة بالغة ، إذ هاجم الطربوش الذي اصبح شعاراً للتركي والى حد ما للمسلم ، فحرمه في بادىء الامر على الجيش ، ثم ظهر فجأة في احد الاماكن العامة بالقبعة مما ملأ الناس بالدهشة وأخيراً جعل لبس الطربوش مخالفة يعاقب عليها القانون . وربما بدا

لنا هذا الأمر سخيفاً لأن المهم هو مايوجد داخل الرأس لا ما يوجد فوقه ، غير ان الأمور البسيطة تصبح احياناً رمزاً لأمور جليلة لأن مصطفى كمال كان يهدف من وراء مهاجمته الطربوش مهاجمة التقاليد البالية والرجعية القديمة وقد سبب الامر كثيراً من الاضطرابات غير انها اخمدت ، وفرضت الجزاءات الشديدة على المخالفين .

وانتقل مصطفى كمال الى الجولة الثانية من اصلاحاته فأغلق جميع التكايا والزوايا والبيوت الطائفية وصادر املاكها لصالح الدولة ، وحرم على الدراويش ملابسهم التقليدية وامرهم ان يأكلوا عيشهم من عملهم .

وكان قبل ذلك قد تم الغاء المدارس الدينية وفتحت بدلاً منها المدارس المدنية اما المدارس والكليات الاجنبية المنتشرة في تركيا فقد امرت بتوقيف الدراسة الدينية او اغلاق ابوابها .

وقد حل بالقانون تغيير كلي ، فقد كان القانون مبنياً على القرآن او الشريعة غير انه ادخل عليه الآن القانون المدني السويسري والقانون الجزائي الإيطالي والقانون التجاري الالماني . وتبع ذلك تغيير في قانون الاحوال الشخصية المتعلق بأحكام الزواج والإرث وغيرها . وقد ألغي نظام تعدد الزوجات .

ومن التغييرات التي خرجت على التقاليد الدينية القديمة تشجيع الرسم والتصوير والنحت على شكل الانسان . ومع انها محرمة في الإسلام ، إلا ان مصطفى كمال قد فتح لها المدارس وافسح المجال لتعليم المرأة الفنون ايضاً .

اما المرأة التركية فإنها لعبت دوراً هاماً في كفاح تركيا في سبيل الحرية . وقد حرص مصطفى كمال على تحريرها من كل قيد . وقامت جمعية باسم «الدفاع عن حقوق المرأة» ، كما فتحت المناصب امام المرأة . وكان الحجاب اول ما وقع عليه الهجوم فزال بسرعة فائقة ، لان المرأة كانت ترتقب الفرصة لخلعه، فأعطاها مصطفى كمال تلك الفرصة فأسرعت إلى القائه . وشجع الغازي كذلك الرقص الاوروبي كثيراً ، وكان مولعاً به ، ويعتقد انه يحرر المرأة ويساعد على تغلغل الحضارة الاوروبية . واصبحت القبعة والرقص رمزي التقدم والتمدن .

ومع ان هذين المثالين لايشرفان الغرب كثيراً ، غير انهما تركا اثراً سطحياً وجعلا الاتراك يبدلون لباس رأسهم وثيابهم وطريقة معيشتهم . وهكذا قفز جيـــل من النساء في بضع سنين من حياة العزلة الى حياة المهن العامـة كالمحاماة والطب والهندسة والقضاء . وظهرت الشرطة النسائية في شوارع الاستانة . ومن الطريف أن نلاحظ كيف أن خطوة واحدة تجر وراءها خطوات اخرى . فقد نجم عن استعمال الابجدية اللاتينية وفرة الآلات الكاتبة وفتح ذلك بدوره مجـال العمل للمرأة التركية

وقد شجع مصطفى كمال الاطفال على تنمية شخصيتهم والاعتماد على انفسهم بنبذ الأساليب البالية من الحفـظ عن ظهر قلب التي كانت تتبعها المدارس الدينيـة . ويقال ان تركيا جعلت اسبوعاً في العام يتنازل فيه كل موظف مسؤول في الدولة عن منصبه (اسمياً) لاحد الأطفال لإدارته ، وتصبح الدولة تحت إدارة الأطفال ذلك الاسبوع . وإني لا اعرف مقدار نجاح الدولة في هــــذا الاسبوع ، غير أني اعتقد ان كثيراً من الاطفال مهما كانوا عليه من بلاهة وقلة خبرة فإنهم لا يجارون في الحماقة والسخافة الكثير من كبار الساسة والموظفين الذين يعجب الناس منظرهم ولا يعرفون مخبرهم .

ومن التعديلات البسيطة التي لها دلالة على الاتجاه الجديد الذي سار عليه حكام تركيا هو صرف الناس عن الطرق القديمة من «السلام» بعضهم على بعد واستبدالها بالمصافحة باليد لأنها اكثر ملاءمة لروح التمدن والرقي .

وانتقل كمال باشا في كفاحه الى اللغـة التركية أو بالأحرى العناصر الدخيلة – في رأيه – على تلك اللغة . فقد كانت التركية تكتب بالحروف العربية وهي في رأيه دخيلة وصعبة . وكان السوفييت قـد واجهوا مثل هذه المشكلة في آسيا الوسطى لأن كثيراً من التتار كانوا يكتبون بالأحرف المشتقة من العربيـــة والفارسية فعقد السوفييت مؤتمراً في باكو عام ١٩٢٤ للتداول في الموضوع ، وقرر المؤتمر استعمال الاحرف اللاتينية او الرومانية . وقـــد جعلت اشارات خاصة للتعبير عن الالفاظ التي امتازت بها هذه اللغات . وقد اعجب مصطفى بهذا التبديل

وقام بتعلمه ، وطبقه على اللغة التركية ، وقام بحملة شخصية في هذا السبيل وبعد مرور عامين من الدعاية للفكرة وتعليم الناس تطبيقها ، صدر قانون حدد المدة التي يلغى بعدها استعمال الاحرف العربية ويصبح استعمال الاحرف اللاتينية اجبارياً . واجبر كل من يتراوح عمره بين السادسة عشرة والاربعين على دراسة الابجدية اللاتينية في المدرسة . وتعرض الموظفون الممتنعون عن التعلم للفصل من اعمالهم . اما المساجين فإنهم لا يبرحون السجن الا بعد ان يزاولوا الكتابة والقراءة بالاحرف الأبجدية . هذا هو شأن الديكتاتور لا سيما اذا كان محبوباً في فرض الاصلاحات على شعبه . اما الحكومات الاخرى فإن معظمها لا يجرؤ على التدخل الى هذا الحد في حياة شعوبها .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ظهر ان الكلمات العربية والفارسية صعبة الكتابة بالاحرف اللاتينية لما لها من ألفاظ خاصة وإعلال واقلاب بينما كانت الكلمات التركية اقل سلاسة واكثر خشونة واسهل كتابة بالاحرف اللاتينية . وتقرر لذلك إسقاط الكلمات العربية والفارسية من اللغة التركية والاستعاضة عنها بالكلمات التركية الاصلية . وكان وراء ذلك التغيير دافع قومي لأن كمال باشا كان يريد ان يفصل تركيا بقدر الامكان عن المؤثرات العربية وغيرها . فربما كانت اللغة التركية المحشوة بالكلمات والتعابير العربية والفارسية مناسبة لحياة الأبهة والعظمة السائدة في البلاط العثماني الامبراطوري ، ولكنها لم تناسب جمهورية تركيا الحديثة . وهكذا اسقطت الكلمات غير السلسة وخف العلماء والاساتذة الى القرى لتعلم لغة الفلاحين واصطياد الكلمات التركية الاصلية ، وما زال هذا العمل مستمراً . ومعنى مثل هذا التغيير بالنسبة الينا ان نترك كثيراً من كلمات اللغة الهندوستانية المزينة المزخرفة التي خلقتها حياة القصور وان نستعيض عنها بالكلمات الريفية الجافة .

وقد تبع التبديل في اللغة تبديل في اسماء المدن والاشخاص ايضاً فقد اصبحت القسطنطينية «استانبول» وانكورا «انقره» وسميرنة «ازمير» وكانت معظم اسماء الاعلام عربية كاسم مصطفى كمال . اما الاتجاه الحديث فهو اعطاء اسماء تركية صرفة .

ومن التغييرات التي احدثت ضجة، القانون الذي دعا الى جعل الصلاة والأذان باللغة التركية . ولكن الصلاة كانت تؤدى بالعربية كما هي الحالة في الهند اليوم ، ولذا فقد شعر «المولويون» ان هذا القانون بدعة فظلوا يصلّون بالعربيـــة . وظلت هذه المسألة تثير الخلافات ، ولكن كمال باشا كان يقمعها بشدة .

وقد بدلت هذه الانقلابات الاجتماعية في السنوات العشر الاخيرة حياة الناس وبدأ يظهر في البلاد جيل جديد متحرر من قيود التقاليد والرجعية الدينية ولكن بالرغم من اهمية هذه التغييرات إلا انها لم تؤثر كثيراً في حياة البـلاد الاقتصادية . فمع ان الظاهر قد تبدل قليلاً غير ان الجوهر لم يتبدل . فلم يكن كمال باشا رجل اقتصاد ولا كان يريد ان يحدث انقلابا اقتصاديا كالذي حدث في روسيا السوفيتية . فمع انه كان على تحالف مع الروس من الناحية السياسية الا انه كان يبتعد عـن مبادىء الشيوعية الاقتصادية . ويبدو ان مبادئه وآراءه الاجتماعية كانت مشتقة من دراسته للثورة الفرنسية الكبرى .

ولا توجد في تركيا ، حتى الآن ، طبقة وسطى قوية ، باستثناء اصحـــاب الوظائف . وقد اصيبت الحياة التجارية بنكسة نتيجة ترحيل اليونانيين وغيرهم من العناصر الاجنبية ، ولكن الحكومة التركية اليوم تفضل الفقر مع الاستقلال القومي والتقدم الصناعي البطيء على التضحية باستقلالها الاقتصادي . فقـد كانت تركيا تخشى ادخـال الرأسمال الاجنبي على نطاق واسع لئلا تخسر استقلالهـــا الاقتصادي وتصبح بؤرة استغلال للاجانب ، ولذلك لم تشجع استثمار الاموال الأجنبية فيها وفرضت الضرائب العالية على البضائع الاجنبية ، وأممت كثيراً من الصناعات (اي جعلت إدارتها للحكومة وملكيتها للشعب) ومدت السكك الحديدية في البلاد .

وقد كان معظم انتباه مصطفى موجهاً نحو الزراعة لأنها كانت دعامة الشعب والجيش التركي . فانشأت المزارع النموذجية وأدخلت جرارات الحراثة وشجعت جمعيات المزارعين التعاونية .

وقد وقعت تركيا كغيرها من البلدان تحت وطأة الكساد الذي ساد العـالم ووجدت صعوبة في تدبير امورها ، ولكنها تسير الى الخلاص بهمة وثبات بقيادة زعيمها الاكبر ودكتاتورها مصطفى كمال الذي سمته «اتاتورك» اي ابا الاتراك .

الهند تسير وراء غاندي

١١ مايو ١٩٣٣

●

علي ان احدثك الآن عن الاحداث القريبة العهد في الهند . ونحن طبعاً نهتم بما يحدث داخل بلادنا اكثر مما يحدث في الخارج ، وانني احاول ان امسك نفسي عن الخوض في التفاصيل . وبالاضافة الى اهتمامنا الشخصي بتاريخ الهند فاننا نلاحظ ان مشكلة الهند من اكبر مشاكل العالم اليوم. فهي خير مثال وأوضحه لمبادىء السيطرة الاستعمارية لأن الهند هي الدعامة الاساسية التي اعتمد عليها الاستعمار البريطاني وحمل نجاح انجلترا في الهند الدول الاخرى في مجاراتها في الاستعمار سعيا وراء الكسب والاستغلال .

وقد حدثتك في رسالتي الاخيرة عن التطورات التي حلت بالبلاد اثناء الحرب العالمية ، وعن قيام الصناعة الهندية والطبقة الرأسمالية الهندية والتحول في موقف بريطانيا تجاه الصناعة الهندية . فقد كان الضغط الصناعي والتجاري والسياسي الذي وضعته بريطانيا على الهند يزداد شدة . وقد ساد الشرق موجة من البعث السياسي كما عم العالم بأسره اضطراب في السنوات التي تلت الحرب . وقد برزت في الهند بوادر نشاط ثوري عنيف وكان الشعب شديد الطموح للتحرر مما جعل الحكومة البريطانية تحس بضرورة تلافي الامر فقامت باتخاذ خطوة اصلاحية سياسية واجرت تحقيقات تلتها بعض المقترحات الرامية لاجراء تعديلات سياسية بموجب تقرير (مونتاجو وشلمسفورد) ، واتخذت ايضاً خطوة اقتصادية اذ الهت الطبقة

البورجوازية النامية بفتات المكاسب بينما احتفظت لنفسها بمعاقل القوة والاستغلال.

وقد تلا الحرب فترة من الرخاء واليسر التجاري وتحققت الارباح الضخمة وخصوصاً في صناعة القنب في البنغال وكثيراً ما كان الربح مئة في المئة. ومع ان الأسعار ارتفعت الى حد ما، الا ان الأجور ارتفعت بنسبة ضئيلة وارتفعت الأجور المفروضة على المستأجرين لدفعها الى طبقة الاقطاعيين. وسرعان ما جاء الكساد التجاري فسارت حياة العمال الصناعيين والزراعيين من سيء الى اسوأ وازداد التبرم بسرعة وقد أدت حياة العمال السيئة الى اضرابات في المصانع، كما ادت حالة المستأجرين للاراضي في «اوض» السيئة جداً تحت النظام المعروف بـ (تالوقداري) الى قيام حركة الفلاحين. وازدادت البطالة بين صفوف الطبقة الوسطى المتعلمة وسببت ضنكاً شديداً.

هذه هي الحالة الاقتصادية التي تلت الحرب، فاذا احتفظت بها في ذاكرتك تمكنت من فهم التطورات التي حلت بالبلاد. وقد بدت في البلاد روح حربية اتخذت مظاهر مختلفة. فالعمال الصناعيون اخذوا بتأليف النقابات ثم تشكيل مؤتمر اتحادات العمال الهندية كلها. وقد استاء صغار الملاك (الزامندار) والفلاحين من الحكومة واخذوا يفكرون باتخاذ خطوات سياسية، وحتى المستأجرون المساكين فكروا في التمرد. اما الطبقة الوسطى وخصوصا العاطلون منها عن العمل، فانهم التفتوا فعلاً الى شؤون السياسة وذهب بعضهم الى الاعمال الثورية. وقد امتد اثر هذه الحالة الاقتصادية الى كل من الهندوس والسيخ والمسلمين على حد سواء، لأن الامور الاقتصادية لا تقيم وزنا للاختلافات الدينية. ولكن المسلمين كانوا بالاضافة الى ذلك ممتعضين بسبب الحرب ضد تركيا لأنهم خافوا من ضياع جزيرة العرب والمدن المقدسة مثل مكة والمدينة والقدس.

وهكذا كانت الهند بعد الحرب حانقة على اوضاعها ويكاد يستولي عليها اليأس لولا فسحة من الأمل. وما هي إلا بضعة شهور حتى ظهرت اولى ثمار السياسة البريطانية المرتقبة على شكل اقتراح باصدار قوانين خاضعة للتحكم في الحركة الثورية. وبدلاً من زيادة الحرية فقد زادت القيود. وقد استمدت هذه الانظمة من تقرير

احدى اللجان الذي عرف (بأنظمة رولات). وقد اصبحت تعرف في طول البلاد وعرضها بالانظمة السوداء واستنكرها كل هندي مهما كان معتدلاً. واعطت الأنظمة الحكومة والشرطة حرية القاء القبض على كل شخص غير مرغوب فيه او مشبوه وسجنه دون محاكمة، وقد عبر عن ذلك بعبارة: «لا وكيل ولا استئناف ولا دليل». وبينما كانت تتعالى صيحات الاستنكار، بدا في افق السياسة الهندية عامل جديد كأنه السحابة الصغيرة التي تظل تنمو وتكبر حتى تجلل السماء بأمرها.

ذلك العامل الجديد هو (مهندس كرمشند غاندي) الذي كان قد رجع الى الهند من جنوب افريقيا اثناء الحرب. واستقر في مستعمرته في (اشرم) في سابرماتي. وقد كان الى زمن قريب بعيداً عن الجو الوطني السياسي حتى انه قام بجمع المتطوعين للحكومة البريطانية للاشتراك في الحرب مع الحلفاء.

ولكنه كان معروفاً بسياسته المسماة (ساتياجراها) او المقاومة السلبية في جنوب افريقيا. وفي عام ١٩١٧ تزعم بنجاح كفاح طبقة المستأجرين البؤساء الذين ذاقوا الظلم على يد أصحاب المزارع الاوروبيين في مقاطعة بهار. وقام بعد ذلك بالدفاع عن الفلاحين في كوجارت. وقد أصيب بالمرض في اوائل عام ١٩١٩، وما أبل منه حتى كانت البلاد تغلي احتجاجاً على انظمة رولات، فأضاف صوته الى صوت الشعب.

وكان هذا الصوت الجديد مختلفاً عن غيره، كان هادئا رزينا، ولكنه كان يطغى على اصوات الغوغاء؛ وكان ناعما لطيفا، ولكنه قوي كالحديد الصلب؛ كان رقيقا جذابا، ولكنه مليء بالنذير والوعيد. كان لكل كلمة من كلامه معنى وعزم جبار. وكان كلامه السلمي ينطوي على قوة وينم عن استعداد للعمل واباء الضيم واحتقار الظلم. هذا هو الصوت الذي فاجأنا في فبراير ومارس من عام ١٩١٩ فأذهلنا، ولكنه اصبح اليوم، بعد ١٤ عاما، مألوفا لدينا. لقد كان الصوت مختلفا عن ضجيجنا السياسي السابق المحشو باللعنات وخطاباتنا المسهبة التي كانت دائما تختتم بالمقررات الفارغة الرامية الى الاحتجاج الذي لم تلق له الحكومة

اي بال . كان صوت العمل لا صوت القول .

نظم المهاتما غاندي حركة تسمى (ساتياجراها سبها) لهـؤلاء الذين كانوا مستعدين لتحدي القوانين البريطانية الجائرة ومواجهة السجن والمحاكم . وكان هذا اسلوبا جديداً في ذلك الحين ودفع الكثيرين الى العمل . واصبح هـذا الاسلوب مألوفا اليوم وامراً طبيعياً في حياتنا

وكان من الطبيعي ان يرسل غاندي الى نائب الملك معروضاً مهذباً ينذره فيه بسوء العاقبة اذا اصرت الحكومة على تطبيق الانظمة الجائرة. ولما رأى غاندي تصميم الحكومة على رأيها دون مبالاة بمعارضة الهند لها ، دعا الى اعلان يوم حداد يعم البلاد ويتوقف فيه العمل وتعقد فيه الاجتماعات ، وذلك هو يوم الاحد الأول الذي يلي وضع الانظمة موضع التنفيذ. وكان ذلك افتتاحا لحركة(ساتياجراها)، وصادف يومها ٦ ابريل عام ١٩١٩ ، فعم الاحتفال به الهند بمدنها وقراها . وكان اول مظاهرة هندية موحدة من نوعها ومظاهرة رائعة اشترك فيها مختلف الناس والهيئات . وقد اذهلنا ، نحن الذين عملنا لانجاحها ، ذلك النجاح الذي احرزته الحركة . فمع اننا لم نستطع الاتصال الا بعدد صغير من اهل المدن الا ان الروح الشعبية اشتعلت كما تشتعل النـار في الهشيم ووصلت الدعوة الى اقصى القرى ، فاشترك اهل المدن مع أهل القرى لاول مرة في تاريخهم في مظـاهرة سياسية شعبية واحدة

وقد اخطأ اهل دلهي في الموعد المضروب للمظاهرة وظنوا انه يوم ٣١ مارس ١٩١٩ اي قبل موعده الصحيح بأسبوع واحد . وقد سادت دلهي في ذلك اليوم روح غريبـة من الود بين الهندوس والمسلمين ووقف الزعيم الآري المشهور « سوامي شرادهانند » في المسجد الجامع في دلهي خطيبا في الجموع المتجمهرة فيه. وقد حاولت الشرطة والجيش تفريق المتجمهرين في الشوارع فأطلقت عليهم النار وقتلت بعضهم . واستقبل الزعيم سوامي شرادهانند الفارع الطول حرب البوليس والشرطة بصدره العاري ولكنه لم يمت . وقد اثار هذا الحادث حماس الشعب ؛ غير ان المؤسف حقاً هو اغتيال هذا الزعيم وهو على فراش الموت بعـد أقل من

ثماني سنوات على يد احد المسلمين المتعصبين .

وتتابعت الحوادث بسرعة بعد ٦ ابريـل . وتأزمت الحالة في ١٠ ابريل في امر تسار عندما اطلق الجيش النار على جمهور اعزل من السلاح حـاسر الرأس احتجاجاً على اعتقال زعيميه الدكتورين كتشلو وساتيا بال ، وقتل عدداً منه . فثار الجمهور فقتل خمسة او ستة من الانجليز الابرياء مقتحمـاً مكاتبهم ومحرقاً ابنيتهم وبعد ذلك اسدل الستار على البنجاب ، وفصلت عن الهند بفعل الرقابة الشديدة التي منعت دخول الاخبار اليها وجعلت تنقل الناس منها واليها صعبا جداً واعلنت الاحكام العرفية وعم البؤس عدة شهور . واخيراً اخذ الستار يرتفع والحقائق المروعة تنكشف .

ولن اذكر لك هنا فظائع عهد الحكم العرفي في البنجاب ، فالدنيا بأمرها تعلم نبأ المذبحة التي جرت في أمرتسار عندما تساقط الوف من القتلى والجرحى الذين وقعوا في الشرك المنصوب لقتلهم . ومنذ ذلك الحين وكلمة امرتسار مقترنة بالمجزرة . ولم تقتصر المخازي على هذه المجزرة بل حدث اكثر من ذلك في البنجاب .

ومع انه من الصعب الصفح عن هذه الاعمال البربرية المريعة بالرغم من مرور السنوات الطويلة عليها ، الا اننا نستطيع ان نجد الاسباب التي حملت الحكومة عليها . فالبريطانيون في الهند وبحكم سيطرتهم عليها لا يملكون الا ان يشعروا انهم جالسون على فوهة بركان . ولم يحاولوا ان يفهموا العقلية الهندية او مشاعر الهنود . وعـاشوا في الهند على انفراد معتمدين على نظامهم الواسع المعقد وعلى القوة . ويكمن وراء تلك الثقة المصطنعة خوف كبير من المجهول . والهند ، بالرغم من حكمهم لها مدة قرن ونصف من الزمن ما زالت امراً مجهولاً بالنسبة اليهم . وما زالت ذكرى عام ١٨٥٧ ماثلة في مخيلتهم وتجعلهم يفكرون انهم يعيشون في بلد غريب معادٍ لا يلبث ان ينقلب عليهم ويمزقهم شر ممزق . هذه هي نظريتهم التي كانت تقوى في ذهنهم كلما رأوا حركة وطنية في البلاد . وما ان وصلت انباء حركة امرتسار الدامية في (١٠ ابريل) الى كبار الموظفين في البنجاب (في لاهور) حتى خارت اعصابهم وانهارت . وحسبوا ان هنـاك ثورة

عارمة كثورة عام ١٨٥٧ وان حياة جميع البريطانيين اصبحت في خطر، فراحوا يتخبطون كالثور الذي أهاجه اللون الاحمر ، فقامت المجزرة والاحكام العرفية نتيجة لهذه العقلية الانجليزية الهلعة .

واذا استطعنا أن نفهم ما سلف ، الا اننا لا نستطيع ان نرى فيه مبرراً . والذي اثار الهند اكثر من ذلك تبرير الجنرال دَيَر بعدشهور عديدة لهذه الاعمال البربرية بصورة مهينة واغضاؤه الوحشي عن جرم الحكومة في مهاجمة الآلاف من الشعب المسالم . والجنرال دير هو المسؤول عن اطلاق النار في امر تسار . وقد قال بعدها : «لا شأن لي بذلك» وقد وجه البعض في الحكومة وفي انجلترا انتقاداً ناعما للجنرال . ولكن المناقشة التي جرت في مجلس اللوردات تدل بجلاء على سوء نية بريطانيا لأن المجلس وجه المديح والاطراء الى دير .

وقد اشعل كل ذلك نار الغضب في الهند وولدت مآسي البنجاب الحقد والمرارة في نفوس الشعب ، وشكلت كل من الحكومة والمؤتمر لجاناً للتحري عن حقيقة ما حصل في البنجاب ، وانتظر الشعب تقاريرها بفارغ الصبر .

اصبح يوم ١٣ أبريل منذ ذلك اليوم عيداً قوميا في الهند واصبح الاسبوع الواقع بين ٦ و ١٣ أبريل اسبوعا وطنيا . واصبحت « جاليــا نوالا باغ » في أمرتسار كعبة الحج السياسي في البلاد واصبحت كذلك جنة غناء بعد ان ازيل منها اثر الرعب ، وان ظلت فيها ذكراه .

ومن عجيب الصدف ان مجلس المؤتمر عقد في عام ١٩١٩ في امرتسار ذاتها ومع ان المؤتمر لم يسفر عن نتائج هامة بسبب انتظار تقرير اللجنة المنتدبة للتحقيق، الا انه قد ظهر تطور واضح في المؤتمر ، فقد تجلى فيه تكتل جديد وحيوية جديدة ازعجت اعضاء المؤتمر القدامى . برز الزعيم (تلاك) المتصلب في موقفــه والذي كان يحضر اجتماع المؤتمر لآخر مرة في حياته (لأنه توفي قبل انعقاد المؤتمر ثانية) وكان هناك غاندي معبود الجماهير الذي اخذ في فرض زعامته على المؤتمر والحياة السياسية في الهند وحضر المؤتمر ايضاً كثير من الزعماء الذين افرج عنهم بعد سجنهم بتهمة القيام بالمؤامرات خلال الاحكام العرفية وحكم عليهم بمدد طويلة ،

ولما صدر العفو عن هؤلاء سارعوا الى حضور المؤتمر وكذلك حضر المؤتمر الأخوان (علي) المشهوران بعد أن قضيا في السجن مدة .

وفي اجتماع المؤتمر في العام التالي تقرر الأخذ ببرنامج غاندي المبني على عدم التعاون مع الحكومة وقد اوصت به اولاً جلسة خاصة عقدت في كلكتا وأقره الاجتماع السنوي المعقود في ناغبور . وكانت وسيلة الكفاح سلمية تماماً لا عنف فيها ، وتهدف الى حجب المساعدة عن الحكومة في ادارتها واستغلالها الهند . وكانت الخطوة الأولى مقاطعة الالقاب التي تخلعها الحكومة الأجنبية ورفض المناصب الرسمية ومقاطعة المحامين والمتداعين للمحاكم والمدارس والكليات الحكومية والمجالس الجديدة التي تمخضت عنها اصلاحات مونتاجو شلمسفورد . وكانت الخطوة التالية هي مقاطعة الخدمة المدنية والعسكرية والامتناع عن دفع الضرائب . ومن الخطوات الايجابية تشجيع المغازل اليدوية واللجوء الى التحكيم الاهلي بدلاً من المحاكم . وابعد الخطوات اثراً هما الوحدة الهندوسية ـ الاسلامية والقضاء على حالة المنبوذين .

وقد غير المؤتمر ايضاً دستوره ليتمكن من النزول الى ميدان العمل الفعال وفتح المجال امام الجماهير للانتماء اليه.

واصبح المؤتمر الجديد يختلف عن المؤتمر السابق . والواقع ان هذه التطورات كانت بدعة جديدة في العالم لان حركة (ساتياجراها) في جنوب افريقيا كانت على نطاق ضيق . وقد فرض هذا الكفاح تضحيات كبيرة على الناس لا سيما المحامين الذين طلب منهم عدم مزاولة المهنة والطلاب الذين هجروا مدارسهم وكلياتهم الحكومية . وكان من الصعب ان نحكم على مزية هـــذه الحركة لعدم وجود وجه للمقارنة ثم لعدم وجود حركات سابقة لها ومن هذا النوع . وليس غريباً ان نرى زعماء المؤتمر القدامى المحنكين يجفلون ويترددون . وقد توفي (تلاك) ، ولم يقف الى جانب غاندي في اولى ايام كفاحه من زعماء المؤتمر الا موتلال نهرو . اما موقف رجل المؤتمر العادي ورجل الشارع وابن الشعب فلم يكن فيه تردد لأن غاندي سحرهم بمبدأ عـدم التعاون السلمي فاتخذوه انجيلاً لهم . وكان المسلمون لا يقلون حماساً

عن غيرهم ، والواقع ان لجنة الخلافة التي كان يتزعمها الاخوان (علي) قد اقرت برنامج غاندي قبل ان يقره المؤتمر ذاته . وقد حمل نجاح الحركة السريع وحماس الجماهير البالغ لما اغلب الزعماء القدامى ان ينضموا اليها

ولا استطيع في هذه الرسائل ان احلل مزايا وعيوب هذه الحركة الجديدة ، لان ذلك امر معقد وربما استعصى على كل الناس باستثناء صاحب الحركة المهاتما غاندي . ونكتفي هنا ان ننظر اليها نظرة رجل غريب عنها فنحاول تفسير السبب في انتشارها السريع .

لقد حدثتك عن الضائقة الاقتصادية التي حلت بالجماهير وتردي الحالة الناشئة عن الاستغلال الاجنبي وارتفاع نسبة البطالة بين الطبقات المتوسطة. فما هو العلاج لكل ذلك؟ان نمو الوعي القومي فتح عقول الناس الى ضرورة نيل الحرية السياسية. فنيل الحرية لا ينتج عن مجرد الشعور بالخزي للاعتماد على الغير والعبودية للغير ، ولا لمجرد كونها حق الناس الطبيعي الذي يجب ان يسترد كما قال (تلاك) ولكن لانها ايضاً وسيلة لتخفيف عبء الفقر الملقى على كاهل الشعب . فكيف الوصول الى الحرية ؟ من الطبيعي ان الحرية لا تنال بالخنوع والتمني ، فقد ظهر جلياً ان اسلوب المؤتمر القديم الرامي الى الاحتجاج والاستجداء كان لا يشرف الشعب ولا يغنيه من عبودية . وما نجحت هذه الاساليب قبل ذلك التاريخ في نيل الحرية او اقناع الطبقة الحاكمة بالتنازل عن سلطتها ، وقد علمنا التاريخ ان الشعوب والطبقات المستعبدة لم تنل حريتها الا بالثورات العنيفة والعصيان .

وكان العصيان المسلح لا يناسب حالة الهند لأن الشعب كان اعزل ولم يكن يعرف كيف يستعمل السلاح. اضف الى ذلك ان الاشتباك المسلح مع دولة كبيرة كبريطانيا لا يكفل النصر للهند آنذاك . فالتمرد المسلح يناسب الجيوش ولا يناسب الشعب الاعزل الواقف امام القوات المدججة بالسلاح. اما اغتيال الافراد والضباط والقاء القنابل واطلاق عيارات المسدسات فهو سبيل للافلاس . ولجوء الشعب الى مثل هـــذه الأعمال أمر سخيف يحط من معنويته لأنــه لا يؤثر على حكومة قوية منظمة وان كان يرعب بعض الافراد فقط. وكما اخبرتك سابقاً ،

فان هذا النوع من الارهاب الفردي قد تخلى عنه الثوار الروس .

ما هو السبيل اذن ؟ لقد نجحت الثورة الروسية في اقامة جمهورية عمالية واعتمدت على النضال الشعبي الذي يسانده الجيش . ولكن السوفييت نجحوا في روسيا في وقت كانت البلاد والحكومة القديمة فيه ممزقين من جراء الحرب ، ولم تكن تقف امامهم قوة جبارة . ويضاف الى ذلك انه لم يكن في الهند من يعرف عن روسيا الماركسية او يفكر بتفكيرها الا القليل .

وهكذا لم يكن هناك من مخرج من الحالة التي لا تطاق والعبودية الرازحة ، ومن كان له إحساس مرهف خامره اليأس والقنوط ، حتى برز غانـــدي و قدم برنامجه السلمي الذي علمنا الدرس الذي تعلمتـــه ايرلندا من قبل في الاعتماد على أنفسنا وتقويتها وظهر بجلاء مدى تأثيره في الضغط على الحكومة . فقد كانت الحكومة تستند الى حد كبير على تعاون الهنود طوعاً او كرهاً ، فاذا حجب هذا التعاون وتمت المقاطعة كان من الجائز تقويض صرح الحكومة وحتى لو لم يصل الكفاح الى هذا الحد البعيد ، فلا ينكر انه كان اداة فعالة في القاء الضغط على الحكومة وزيادة قوة الشعب . كان النضال سلمياً ولكنه لم يكن سلبيا واذا كانت حركة (ساتياجراها) تخلو من العنف ، الا انها تقف موقفا حازما في وجه الظلم . واذا كانت في جوهرها ثورة سلمية ، فانها كانت اكثر الحروب مدينة وأبعدها اثراً في زعزعة اركان الدولة . كانت وسيلة فعالة لإثارة الشعب الى العمل والكفاح وانسجمت كليا مع طبيعة النبوغ الهندي ، واظهرت فينـا خير مزايانا وألبست عدونا ثوب المذنب . وانقذتنـا من الخوف الذي كان يغشانا ، ومكنتنا من رفع صوتنا ومخاطبة الناس مخاطبـــة الند للند ، ولم نعد نخفي ما تكنه ضمائرنا ، وازاحت عن عقولنا غشاوة ثقيلة ، وربّت فيـــنا احترام الحرية بالقول والعمل والثقة بالنفس والشجاعة . اخيراً فان الكفاح السلمي قـــد وقانا شر قيام الخصومات الشخصية المريرة والاحقاد القومية التي كانت تلازم مثل هذا الكفاح ، كما يسرت لنا الوصول الى التسوية النهائية .

واثناء هذا الكفاح اسست الحكومة مجالس وهيئات جديدة بموجب خطة

مونتاجو شلمسفورد الاصلاحية . وقد قبل المعتدلون ، الذين لقبوا انفسهم بالاحرار ، عضوية هذه المجالس واصبحوا وزراء وموظفين كباراً وامتزجوا بالحكومة دون ان يحصلوا على تأييد شعبي . اما اعضاء المؤتمر فإنهم قاطعوها ، ولم يلتفت ابناء الشعب اليها كثيراً ، بل تحولت انظارهم الى الكفاح في خارجها ، في المدن والقرى . وقام العاملون في المؤتمر بالتجوال بين القرى لأول مرة واقامة لجان فيها وايقاظ الوعي بين القرويين .

وظلت هذه الامور سائرة الى ان وقع التصادم في ديسمبر ١٩٢١ على اثر زيارة ولي عهد بريطانيا للهند ، فقد قاطع المؤتمر الزيارة . فقامت الحكومة بالاعتقالات الواسعة واكتظت السجون (بالسياسيين) . وكان ذلك بالنسبة للكثيرين منا بداية اكتساب الخبرة في حياة السجون . ولما كان رئيس المؤتمر احد المساجين قام عضو آخر (حكيم اجمل خان) مقامه وترأس الجلسة التي عقدت في مدينة احمد أباد . ولكن غاندي لم يدخل السجن ، وانتشرت الحركة حتى اصبح عدد المقدمين انفسهم للاعتقال يربو على عدد الذين تم اعتقالهم فعلاً !

وقد نجم عن اعتقال الزعماء والعاملين في الحقل السياسي المعروفين دخول رجال تنقصهم الخبرة والسمعة الحسنة (ومنهم جواسيس تابعون للبوليس السري) في الحركة ، مما ادى الى بعض الفوضى والعنف . ففي اوائل عام ١٩٢٢ وقع اصطدام في (شوري شورا) القريبة من (جوراخبور) بين جماعة من الفلاحين والبوليس انتهى بحرق الفلاحين لمركز البوليس بينما كان بعض الجنود داخله . وقد اغضب هذا الحادث وحوادث اخرى متفرقة غاندي الذي خاف من دخول الفوضى والعنف الى الحركة ، فاقترح على لجنة المؤتمر التنفيذية إلغاء ذلك القسم من البرنامج الذي يدعو الى تحدي القوانين ، ففعل المؤتمر ذلك . وفي مارس ١٩٢٢ القي القبض على غاندي وسيق الى المحاكمة وحكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات.

وبهذا انتهت المرحلة الاولى من مراحل الكفاح السلمي

الثورة السلمية في الهنـــد

١٧ مايو ١٩٣٣

●

كتبت لك رسائل عن الهند وماضيها اكثر مما كتبت عن اي بلد آخر ولكن الماضي اخذ يتداخل بالحاضر، وآمل ان تقودنا هذه الرسالة الى قصة الهند الماثلة امامنا اليوم وسأذكر لك حوادث قريبة العهد ما زالت حية في مخيلتنا. والحقيقة أن وقت تدوين هذه الأحداث لم يأت بعدلأنها لم تنته وما زالت خواتمها في طي الكتمان، وان كانت قصة التاريخ لا تنتهي أبداً.

حوالي نهاية عام ١٩٢٧ اعلنت الحكومة البريطانية انها ستبعث الى الهندلجنة تحقيق لتقوم بالتوصيات اللازمة للاصلاحات المستقبلة والتغييرات في جهاز الحكومة. وقد قابل السلك الدبلوماسي في الهند هذا الاعلان بالغضب واللعنة كما عارضها المؤتمر ايضاً لعدم ارتياحه لفكرة قيام تحقيقات كل حين وآخر لمعرفة ما اذا كانت الهند مستعدة للحكم الذاتي. وكان ذلك الاسلوب هو الحجة التي كانت تتذرع بها بريطانيا للبقاء في الهند اطول مدة ممكنة. فقد كان المؤتمر ينادي لمدة طويلة بحق الهند في تقرير المصير الذي كان يدعيه الحلفاء إبان الحرب العالمية الاولى ويرفض الاعتراف بحق البرلمان البريطاني في املاء رغبته على الهند وان يكون له حق تقرير مصيرها. ولذا فان المؤتمر عارض فكرة ارسال هذه اللجنة البرلمانية. اما المعتدلون فانهم عارضوا ارسال اللجنة لأسباب اخرى اهمها ان اللجنة لم تضم اعضاء من الهنود بل اقتصرت على البريطانيين. وهكذا، وبالرغم من اختلاف الاسباب التي دعت

الهيئات الى معارضة اللجنة فان الحقيقة المهمة هي ان جميع سكان الهند بما فيهم المعتدلون نددوا باللجنة وطلبوا مقاطعتها .

وفي ديسمبر من عام ١٩٢٧ اجتمع المؤتمر في مدراس وقرر ان الهدف الذي يسعى اليه هو تحقيق استقلال الهند ، وكان ذلك اول مرة يعلن فيها ذلك الهدف ، وقد اصبح هذا الهدف بعد عامين الهدف الاكبر للمؤتمر الوطني المعقود في لاهور. وقد الف المؤتمر المعقود في مدراس مؤتمراً يضم جميع الاحزاب عاش مدة قصيرة كانت حافلة بالنشاط .

وشرعت اللجنة البريطانية بالعمل في عام ١٩٢٨ ، ولكنها قوطعت واستقبلت بالمظاهرات انى توجهت . وكان اسم اللجنة (لجنة سيمون) نسبة الى رئيسها ، وقد قابلها الشعب بهتاف (ارجع يا سيمون) وتدخل البوليس في مناسبات عديدة لتفريق المتظاهرين حتى ان (لالا لاجبت راي) قد تعرض للضرب على يد البوليس في لاهور . وعندما توفي بعد بضعة شهور ظن الاطباء ان ضرب الشرطة له قد عجل في وفاته . وقد اثار كل هذا حفيظة اهل البلاد .

وفي تلك الاثناء حاول المؤتمر الممثل لجميع الاحزاب ان يضع له دستوراً وان يجد حلاً للمشكلة الطائفية ، فوضع تقريراً يحتوي على اقتراحات للدستور والمسألة الطائفية ، وعرف هذا التقرير بتقرير نهرو نسبة الى بانديت موتلال نهرو رئيس اللجنة التي صاغته .

ومن الحوادث المهمة الاخرى في ذلك العام الحملة الكبيرة التي قام بها الفلاحون في باردلو في كوجارت احتجاجاً على الضرائب المقررة عليهم للحكومة . ولم يكن في كوجارت اقطاعيون كبار كما كان في المقاطعات المتحـــدة بل كان هناك فلاحون بسطاء وقد اظهر هؤلاء الفلاحون الذين تزعمهم ساردار باتل شجاعة فائقة واحرزوا نصراً كبيراً .

وقد اقر المؤتمر المعقود في كلكتا عام ١٩٢٨ تقرير نهرو الذي اوصى بدستور شبيه بدستور دول الدومنيون (رابطة الشعوب البريطانية) وكان ذلك الإقرار بصورة مبدئية ، واعطى المؤتمر الحكومة البريطانية مهلة عام واحد للموافقة عليه.

فإذا رفضت فإن المؤتمر سيعلن الاستقلال وهذا يعني ان المؤتمر والبلاد كانا يسيران نحو الأزمة .

اما العمال فإنهم بدأوا بالتململ والهياج لقيام بعض المحاولات لتخفيض الأجور. وكان عمال بومبي منظمين وقامت اضرابات كثيرة اشترك فيها اكثر من ١٠٠ الف عامل . واخذت الآراء الاشتراكية (وإلى حد ما الشيوعية) بالانتشار بين العمال ، فخافت الحكومة من هذا التطور الثوري لدى العمال فقامت في اوائل عام ١٩٢٩ بالقاء القبض على اثنين وثلاثين زعيماً عمالياً واتهمتهم بالتآمر على سلامة الدولة . وقد اشتهرت هذه المؤامرة في جميع انحاء العالم باسم قضية «ميروت» .

وبعد انتهاء المحاكمة التي دامت اربع سنوات حكم على كل المتهمين تقريباً بالسجن لمدة طويلة . والغريب في هذه المحاكمة أن المتهمين لم تسند اليهم تهمة القيام باعمال ثورية أو الإخلال بالأمن بل اعتناق آراء معينة ومحاولة نشرها . وقد خفضت الاحكام كثيراً بعد الاستئناف .

ومن انواع النشاط الذي كان يعمل في السر ويظهر أحياناً على السطح ما كان يقوم به قسم من الناس يعتقدون بضرورة إحداث الثورة بالعنف . وكان ذلك في الغالب في البنغال وإلى حد ما في البنجاب وقليلاً في المقاطعات المتحدة . وقد حاولت الحكومة البريطانية بشتى الطرق القضاء على هذا النشاط وقدمت الكثيرين للمحاكمة بتهمة التآمر ، كما وإنها اصدرت قانوناً خاصاً يعرف « بمرسوم البنغال » يخولها القبض على أي شخص تريد إيداعه السجن بدون محاكمة. وقد ألقي القبض بموجب هذا المرسوم على عدة مئات من ابناء البنغال والقوا في غياهب السجن ودعوا « بالمعتقلين » ولم يكن لاعتقالهم أجل محدود. وتجدر الاشارة أن هذا المرسوم قد صدر في حكومة بريطانية عمالية .

قام هؤلاء الثوريون بعدد من أعمال الارهاب وخصوصاً في البنغال . وأهم هذه الأعمال ثلاثة : احدها ، قتل ضابط شرطة بريطاني في لاهور يعتقد انه كان قد ضرب لالا لاجبت ري اثناء مظاهرة الاحتجاج على لجنة سيمون، وثانيها القاء قنبلة في بناء المجلس في دلهي مع انها لم تحدث ضرراً كبيراً إذ كان المقصود به

إحداث ضجة كبيرة وإثارة البلاد ، وثالثها حادث وقع في شيتاغونغ عام ١٩٣٠ عندما بدأت حركة العصيان المدني . إذ قامت حملة شديدة على مكان الذخيرة وأحرزت بعض النصر. وقد لجأت الحكومة الى كل الوسائل الممكنة لاخماد هذه الحركة. فأطلقت الجواسيس والمبلغين ينقلون اليها الأخبار ، وقامت بالقاء القبض والمحاكمات بتهمة التآمر وبالاعتقالات (حتى ان بعض الذين برأت المحاكم ساحتهم اعتقلوا بموجب المرسوم الخاص) ، واحتلت اجزاء من البنغال الشرقية احتلالاً عسكرياً ، ولم تسمح للناس بالتنقل دون تصريح ولا ركوب الدراجات ولا لبس الثياب التي يختارونها . وفرضت الغرامات الباهظة على المدن والقرى الكاملة بسبب عدم تبليغ المعلومات اللازمة للبوليس .

وفي احدى قضايا التآمر في لاهور عام ١٩٢٩ قام احد المساجين واسمه جاتندرانات داس بالاضراب عن الطعام احتجاجاً على معاملة السجن السيئة، وظل هذا الفتى صائماً حتى توفاه الله بعد مضي واحد وستين يوماً ، مما أحزن الهند واثر على شعور الشعب ، وكان لإعدام باغات سنغ في اوائل عام ١٩٣١ أثر مماثل .

ولنعد الى سياسة المؤتمر . فقد انقضى العام الذي حدّده المؤتمر المنعقد في كلكتا للحكومة البريطانية . وفي اواخر عام ١٩٢٩ حاولت الحكومة البريطانية تلافي النتائج الخطيرة التي كانت تلوح في الأفق فاصدرت تصريحاً غامضاً حول اصلاح الاوضاع، بالرغم من ذلك فإن المؤتمر أبدى استعداده للتعاون بشروط معينة ، فلما رفضت الحكومة هذه الشروط ، لم يجد المؤتمر المنعقد في لاهور في ديسمبر عام ١٩٢٩ بداً من تقرير المطالبة بالاستقلال والكفاح في سبيله .

وهكذا عندما اطل عام ١٩٣٠ ، خيم في الجو شبح الاحداث المقبلة ، والاستعداد للعصيان المدني . وقوطعت المجالس والهيئات التشريعية واستقال منها اعضاء المؤتمر . وفي ٢٦ يناير ، قطع الشعب على نفسه عهداً ان ينال الاستقلال ، وعقدت الاجتماعات في المدن والقرى لاعلان ذلك، وأصبح السادس والعشرون من يناير يوم الاستقلال . وفي مارس قام غاندي بزحفه المشهور الى داندي الساحلية لتحدي قانون الملح فيها . وقد اختار غاندي ضريبة الملح لبدء حملته إذ

كان عبء هذه الضريبة فادحاً على الفقراء فكانت بذلك اسوأ الضرائب المفروضة على الشعب .

وبلغت حملة العصيان المدني اوجها في منتصف ابريل عام ١٩٣٠ . ولم يقتصر التمرد على تحدي قانون الملح في كل مكان بـل تعداه الى تحدي قوانين اخرى . وعم العصيان المدني البلاد بأسرها واخذت القوانين الخاصة تصدر متتابعة لقمعه ، ولكن هـذه القوانين نفسها اصبحت هدفاً للعصيان المدني ، فقامت الاعتقالات الواسعة وكثرت المحاكمات واطلاق النار على الآمنين ولجأت الحكومة الى لجان المؤتمر واخماد صوت الصحافة والمراقبة الشديدة والضرب والسجن لمدد كبيرة . وكلما سن قانون خاص قامت في وجهه المقاومة الشعبية وقام الشعب بمقاطعة القماش والبضائع البريطانية وقد زاد عدد المساجين على مئة الف ، وأصبحت الثورة السلمية تحتل مكاناً بارزاً من تفكير العالم .

وهنالك ثلاث نقاط أود ابرازها لك . الاولى اليقظة السياسية الممتازة في مقاطعات الحدود الشمالية الغربية . ففي بداية الكفاح في ابريل عام ١٩٣٠ أطلقت النار بكثرة على الشعب المسالم في بشاور وظل مواطنونا في الحدود طوال السنين يتحملون الاعمال المغرقة في الوحشية بجلد وشجاعة . ووجه الاعجاب المزدوج هنا هو ان أهل الحدود كانوا بعيدين في طبيعتهم عن المسالمة وكانوا يثورون لأقل الأسباب ، ولكنهم بالرغم من ذلك تحكموا باعصابهم وحافظوا على السلم . وكان هذا جديراً بالتقدير لقوم أقدموا على السياسة منذ امد قريب فقط ، ولكنهم تقدموا الصفوف وأظهروا بسالة فائقة .

والنقطة الهامة الثانية ، والتي هي اخطر حوادث هذا العام ، بروز وعي المرأة الهندية ، ويكاد المرء لا يصدق ان مئات الالوف من النساء هجرن بيوتهن وخلعن احجبتهن وخرجن الى الشوارع والاسواق ليكافحن الى جانب الرجال ويتفوقن على بعضهم في كثير من الأحيان .

والنقطة الثالثة هو ظهور العوامل الاقتصادية بالنسبة الى الفلاحـين عندما اخذت الحركة بالتطور . فقد كان عام ١٩٣٠ عام كساد اقتصادي في العالم وقـد

هبطت اسعار المنتوجات الزراعية كثيراً ، فحلت الضائقة بالفلاحين لأن دخلهم يعتمد على بيع محصولاتهم . ولذا فإن عدم دفع الضرائب كان امراً مناسباً لهم والمقاومة لم تعد مجرد هدف سياسي بعيدبل عاملاً اقتصادياً مباشراً مما قرب الحركة منهم وصبغها بالصبغة الطبقية والتنازع بين طبقتي الملاك والفلاحين وخصوصاً في المقاطعات المتحدة والهند والهند الغربية .

وبينما كان العصيان المدني في الهند على اشده ، عقدت الحكومة البريطانية مؤتمر المائدة المستديرة في لندن واحاطته بالابهة والدعاية . اما المؤتمر الهندي فلم يكن له علاقة بهذا المؤتمر اللندني لان الهنود الذين حضروه كانوا من الذين اختارتهم الحكومة البريطانية. وقد ذهب هؤلاء الاشخاص ليمثلوا دوراً زائفاً على مسرح لندن عالمين حق العلم ان العمل المثمر يجري في الهند نفسها . وقد وضعت الحكومة البريطانية المشكلة الطائفية في طليعة المحادثات لتظهرها وتوهم الناس بضعف الهنود. وقد اختاروا للمؤتمر اكثر الهنود تعصباً طائفياً ورجعية حتى يصبح الوصول إلى أية تسوية في المؤتمر مستحيلاً .

وفي مارس ١٩٣١ اعلنت هدنة أو تسوية مبدئية بين المؤتمر الهندي والحكومة تمهيداً لقيام المباحثات بينهما ، وقد دعيت الهدنة باسم غاندي – إيرون. واوقف العصيان المدني واطلق سراح الوف المساجين ، كما سحبت المراسيم الخاصة.

وفي عام ١٩٣١ حضر غاندي مؤتمر المائدة المستديرة الثاني نائباً عن المؤتمر الهندي وكانت في الهند ثلاث مشا كل هامة شغلت بال المؤتمر الهندي والحكومة على حد سواء . الاولى في البنغال حيث قامت الحكومة بحملة شديدة ضد العاملين في الحقل السياسي بحجة القضاء على الارهاب ، وصدر مرسوم آخر اشد عنفاً من سابقيه ولم تعرف البنغال الاستقرار بالرغم من المعاهدة التي تمت في دلهي.

والمشكلة الثانية قامت في مقاطعة الحدود حيث دفع الوعي السياسي الشعب الى العمل وقامت فيها منظمة سلمية كبيرة بقيادة خان عبد الغفار خان ، وكان يطلق عليهم احياناً «القمصان الحمراء» دون ان يكون لهم علاقة بالاشتراكيين أو الشيوعيين لأنهم كانوا يلبسون ثياباً حمراء . وقد غضبت الحكومة على هذه

الحركة وحسبت لها حساباً كبيراً لما تعلمه من شدة مراس هؤلاء القوم في الحرب .

وقامت المشكلة الثالثة في المقاطعات المتحدة لأن المستأجرين الفقراء قد قاسوا الى حد كبير من الكساد العالمي وهبوط الاسعار، فلم يتمكنوا من دفع الاجور. ومع ان الاجور خفضت إلا ان ذلك لم يقض على الازمة ، وحاول المؤتمر ان يتوسط في الامر ولكن النجاح لم يحالفه كثيراً وقد تأزمت الحالة في نوفمبر ١٩٣١ عندما حل وقت الجباية . وطلب المؤتمر ، مبتدئاً في « الله أباد » من المستأجرين والآجرين (اصحاب الاملاك) التوقف عن الدفع حتى تسوى مسألة التخفيضات اما الحكومة فانها قابلت هذا العمل بمرسوم شديد معقد صدر في المقاطعات المتحدة يخول حكام الألوية قمع اي حركة او اي نشاط فردي . وصدر على أعقاب ذلك مرسومان غريبان لمقاطعة الحدود، وقامت الاعتقالات الكبيرة فيها وفي المقاطعات المتحدة لأعضاء المؤتمر الهندي .

هذا ما واجه غاندي عندما عاد من مؤتمر لندن الفاشل في الاسبوع الأخير من العام . وجد غاندي ثلاث مقاطعات تحت الاحكام الاستثنائية ، وكثيراً من زملائه في السجون . وفي غضون اسبوع اعلن المؤتمر العصيان المدني ثانية، وقامت الحكومة من جانبها بمطاردة الالوف من اعضاء لجان المؤتمر والمنظمات الموالية له .

وكان هذا الكفاح أشد من كفاح عام ١٩٣٠ وقد زادت الحكومة من استعدادها واستفادت من خبرتها السابقة وخلعت الحكومة قناع القانون والشكليات القانونية تاركة القوانين الاستثنائية العديدة وجاعلة البلاد تحت حكم عرفي بإشراف الحكام المدنيين وبدت قوة الحكومة الوحشية جلية، وهذا شيء طبيعي ، إذ كلما قويت الحركة القومية كلما زاد تهديدها لكيان الحكومة الاجنبية، وكلما زادت مقاومة لهذه الحركة ، مما يجعلها تنبذ العبارات التقليدية من «وصاية» و « حسن النية » وتلجأ للهراوات والحرب كسندها الوحيد . وأصبح التذرع « بالقانون غير مقصور على نائب الملك بل تعداه الى كل ضابط صغير صار بإمكانه ان يفعل ما يريد في حماية رؤسائه . وامتدت شبكة البوليس السري وقوي قسم التحقيق الجنائي في كل مكان كما حدث قبل ذلك في روسيا القيصرية ولم

يكن لهم رادع يكبح جماح سلطتهم وشهوتهم للسلطة وعندما تلجأ الحكومة الى حكم البلاد عن طريق جهازها السري وتخضع البلاد اليه ، لا بد انها تقترب من نهايتها لأن الجهاز السري ينعم في جو من الدسائس والتجسس والكذب والارهاب والتحرش والتهم الكاذبة والتهديد ومثلها وفي السنوات الثلاث الاخيرة استفحل شر السلطات الاستثنائية المعطاة لصغار المسؤولين والشرطة والمباحث ، بما ادى الى وحشية وانحطاط هذه الاجهزة لأن الهدف الذي كانت ترمي اليه هو الارهاب

ولن اذهب بعيداً في تفصيل هذا الموضوع ولكنني اشير هنا الى ظاهرة مهمة من سياسة الحكومة في هذه الفترة وهي مصادرتها الواسعة للأملاك والبيوت والسيارات واموال البنوك وامثالها التابعة للأفراد والمنظمات . وكان الهدف من ذلك ضرب الطبقة الوسطى المنتمية الى المؤتمر ومن المظاهر ايضاً نص سياسة الحكومة على معاقبة الآباء والاوصياء على ما يقترفه الابناء والقاصرون .

وراحت الدعاية البريطانية اثناء كل ذلك تصور الهند بصورة زاهية ولم تكن اي صحيفه هندية لتجرؤ على نشر الحقيقة خوفاً من طائلة العقاب ، لان مجرد نشر أسماء المعتقلين كان ذنباً تعاقب عليه الصحف .

ولكن اكبر مظاهر السياسة البريطانية في الهند كانت محاولتها التحالف مع جميع العناصر الرجعية في البلاد . والامبراطورية البريطانية اليوم لا تستند إلا على القوى الرجعية والاقطاعية في محاولتها للقضاء على القومية التقدمية .. وقد حاولت ان تجر الى جانبها اصحاب ما يعرف « بالحقوق المكتسبة » الذين اوهمتهم بضياع هذه الحقوق إذا تحقق الاصلاح الإجتماعي بخروج الانكليز من الهند . وكان خط الدفاع الاول للحكومة الامراء الإقطاعيين ، ويليه طبقات الملاكين. واستعملت الحكومة اقصى حنكتها لدفع دعاة الطائفية المغالين الى الصفوف الاولى لجعل حقوق الاقليات العقبة الاولى في سبيل تحرر الهند . وقد تجلت هذه المهارة مؤخراً عندما صرحت الحكومة البريطانية انها تعطف كلياً على زعماء الرجعية الدينية

الهندوكية في مسألة دخول المعابد . وهكذا يلجأ البريطانيون دائماً للرجعيين والنفعيين والأنانيين .

وللكفاح الشعبي مزية كبيرة لأنه اسرع الوسائل لايقاظ الوعي السياسي ولربما كان اكثرها إيلاماً . فالشعب يحتاج الى الخبرة من الحوادث الكبيرة وكثيراً ما يبعد النشاطُ السياسي العادي في ايام السلم، والانتخاباتُ الديمقراطية، الرجلَ العاديَّ عن فهم الحقيقة لأن الزعماء يسترسلون في الخطب ويقدم كل مرشح الوعود جزافاً ويصبح الناخب المسكين كالفلاح والعامل والصانع في حيرة من أمرهم ، فلا يعرف الحد الفاصل بين سياسة جماعة واخرى . اما في الكفاح الشعبي وفي ايام الثورية فإن الوضع السياسي يبرز جلياً امام برق الثورة . ولا يمكن للافراد والجماعات والطبقات التي تخفي شعورها الحقيقي في مثل هذه الازمات فالثورة لا تكشف فقط عن اخلاق الناس من حيث الشجاعة والتحمل وعدم الأنانية، بل هي ايضاً تفضح التنازع الحقيقي بين الجماعات والطبقات المختلفة الذي كان مستتراً أجلا طويلاً تحت قناع الكلام المنمق المصطنع .

لقد كان العصيان المدني في الهند كفاحاً قومياً ولم يكن ابداً كفاحاً طبقياً . وكان عماده الطبقة الوسطى وساعده الفلاحين . ولذا فانه لم يفرق بين الطبقات كما يفعل الكفاح الطبقي ، وان تكتلت بعض الطبقات بعض الشيء . فطبقة الامراء الاقطاعيين و « التالقداريين » و « الزامندريين » انحازت كلياً الى جانب الحكومة مؤثرة مصلحتها الخاصة على المصلحة القومية .

وقد ادى نمو الحركة الوطنية بزعامة المؤتمر الى انضمام جماهير الفلاحين الى المؤتمر ونظرهم اليه كمنقذ لهم من اعبائهم الثقيلة وقد قوى ذلك المؤتمر كثيراً واضفت عليه الصبغة الشعبية . ومع ان زعامة المؤتمر ظلت في يد الطبقة الوسطى إلا ان الضغط من الأسفل اشتد حتى اصبحت المشاكل الزراعية والاجتماعية تستأثر بقسم كبير من نشاط المؤتمر وظهر ميل نحو الاشتراكية عندما اصدر المؤتمر المعقود في كراتشي عام ١٩٣١ قراراً هاماً حول الحقوق الاساسية والبرامج الاقتصادية. وقد نادى هذا القرار بأن ينص الدستور على ضمانات الحقوق الديمقراطية الأساسية

والحريات وحقوق الأقليات ، ودعـــا الى إعطاء الدولة السيطرة على الصناعات الأساسية . وهكذا اصبح الكفاح من اجل الاستقلال يتعدى مجرد نيل الحرية السياسية الى نيل نظام اجتماعي اشتراكي وصار الموضوع الاساسي القضاء على الفقر واستغلال الجماهير . اما الاستقلال فهو وسيلة لتحقيق ذلك .

وأثناء قيام العصيان المدني في الهند وإيداع جحافـل السياسيين في السجون ، قدمت الحكومة البريطانية مقترحاتها للاصلاح الدستوري في الهند ، فاقترحت إعطاء سلطة مقيدة للمقاطعات وقيام اتحاد يكون للأمراء الاقطاعيين فيه صوت راجح . واستخدمت الحكومة كل ما يتفتق عنه العقل البشري من وسائل لا للمحافظة على مصالحها فحسب بل للابقاء على احتلالها المثلث للهند: وهو العسكري والمدني والاقتصادي والاحتفاظ « بالحق المكتسب » احتفاظاً تاماً. ولم يغفل من المصالح إلا مصلحة الثلاثمائه وخمسين مليون هندي ! ولا عجب ان تقابل هذه المقترحات بالمقاومة الشديدة .

ولكي لا أغفل بورما فلأذكر لك شيئاً عنها . ان اهل بورما لم يشتركوا في العصيان المدني في عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٢ . ولكن الفلاحين في شمالي بورما قاموا بثورة عارمة بسبب الضيق الاقتصادي الواقع عليهم . وقد أخمدت الحكومة البريطانية هذه الثورة بقسوة ووحشية . وتجري المحاولة الآن لفصل بورمـا عن الهند سياسياً حتى اذا قدر للهند الاستقلال ظلت بورما منطقة استغلال للاستعمار البريطاني . ولبورما اهمية كبيرة بسبب وجود الثروة الزيتيـــة والاخشاب والمعادن فيها .

ملاحظة (اكتوبر ١٩٣٨) :

بعد كتابة هذه الرسالة من السجن قبل خمسة اعوام ونصف طرأت تطورات هامة في الهند . فقد كانت حركة العصيان المدني في ذلك الحين مستمرة ، وان كانت بصورة مخففة وكثير من رجال المؤتمر في السجون ، واعلن خروج المؤتمر واعضاء آلاف اللجان المتفرعة عنه والمنظمات الموالية عن القانون. وفي عام ١٩٣٤

أوقف المؤتمر العصيان المدني ورفعت الحكومة الحظر المفروض عليه . وبدل المؤتمر سياسة مقاطعة المجالس التشريعية ودخل رجال المؤتمر الانتخابات للمجلس المركزي بحماس بالغ .

وفي عام ١٩٣٤ صدق البرلمان البريطاني بعد مناقشات طويلة على قانون حكومة الهند الذي وضع دستوراً جديداً للهند ، أعطيت منه المقاطعات قسطاً من السيادة المحلية مع تحفظات عديدة واقيم بموجبه اتحاد بين المقاطعات والولايات الهندية . وقد قوبل القانون بمعارضة شاملة كما رفضه المؤتمر ،ورفض معه التحفظات « والسلطات الخاصة » المعطاة للحكام ونائب الملك . لأنها تتنافى مع جوهر السيادة في المقاطعات . ورفضت بصورة اشد من ذلك فكرة الاتحاد التي تقوي الحكم الاوتوقراطي في الولايات وتخلق اتحاداً مصطنعاً غريباً بين الوحدات الاقطاعية والاوتوقراطية وبين المقاطعات الشبه ديمقراطية . وقد خلق القانون الجديد نظاماً طائفياً وقسم البلاد الى دوائر انتخابية مختلفة . ومع أن هذا الاجراء صادف هوىً لدى بعض الأقليات التي تستفيد منه ، إلا أنه رُفض على اساس معارضته للأسس الديمقراطية والتقدم .

وقد وضع قسم القانون الذي يعطي السيادة للمقاطعات موضع التنفيذ في اوائل عام ١٩٣٧ وأجريت تبعاً لذلك الانتخابات العامة في شتى انحاء الهند . ومع ان المؤتمر قرر رفض هذا القانون ،إلا انه قرر الاشتراك في هذه الانتخابات فقام بحملة انتخابات واسعة وشديدة في جميع انحاء البلاد . وقد احرز المؤتمر نجاحاً ساحقاً في اغلب المقاطعات وألف رجال المؤتمر الغالبية الحزبية في معظم مجالس المقاطعات الجديدة . وقامت مجادلة عنيفة في المؤتمر حول جواز قبول مناصب وزارية في حكومات المقاطعات ، وقرر المؤتمر اخيراً جواز ذلك بعد ان اوضح تمسكه بالهدف القديم الساعي للاستقلال والسياسة القديمة ، وإن قبول المناصب كان لمواصلة هذه السياسة وتقوية البلاد في كفاحها من اجل الاستقلال . وطالبوا بالإضافة الى ذلك بعدم تمسك حكام المقاطعات بالسلطات الاستثنائية .

ونتيجة لذلك قامت وزارات من اعضاء المؤتمر في سبع مقاطعات هي بومباي

ومدراس والمقاطعات المتحدة وبهار والمقاطعات الوسطى واوريسا ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية . وقد ألف المؤتمر بعد ذلك وزارة ائتلافية في اسام . والمقاطعتان المهمتان اللتان لم تقم فيهما وزارة من اعضاء المؤتمر هما البنغال او البنجاب .

وقد ادى قيام وزارات من اعضاء المؤتمر الى الافراج عن الزعماء السياسيين ورفع القيود عن الحريات المدنية في تلك المناطق . وقد رحبت الجماهير بهذا التطور وتأمل الناس ان تتحسن أحوالهم بسرعة . وزاد الوعي السياسي بين الشعب بسرعة وأخذت الحركات الزراعية والعمالية تستجمع قواها، وكثرت الاضرابات وانصرفت الوزارات الى التشريع الزراعي لتخفيف العبء عن كاهل الفلاحين واصلاح حالة العمال الصناعيين . ومع ان بعض الاصلاح قد تم إلا ان الظروف المحيطة به والقيود التي وضعها القانون وضعا حداً لهذه الاصلاحات الاجتماعية

وقد تكرر التصادم بين الوزراء المنتمين للمؤتمر والحكام مما جعل الوزراء يقدمون استقالتهم مرتين ، ولو انها قبلت لنجم تصادم عنيف بين المؤتمر والحكومة البريطانية ، ولما كانت الحكومة البريطانية تتفادى ذلك ، فان رأي الوزراء قد فاز . ولكن الحالة على العموم بقيت غير مستقرة ، والتصادم كان لا بد منه . وكان المؤتمر يعتبر كل ذلك مجرد مرحلة عابرة في سبيل الوصول الى الهدف الكامل وهو الاستقلال .

وكان لا بد من حصول اصطدام عنيف اذا حاولت الحكومة البريطانية فرض الاتحاد بالشكل الذي تريده ، ولكنها لم تفعل ذلك لشدة المقاومة له . فقد أصبح المؤتمر اليوم أقوى منه في اي عهد مضى ، ولا يمكن للحكومة تجاهله ، وهو مصمم على عدم قبول الاتحاد والمطالبة بتشكيل مجلس تأسيسي يتم انتخابه عن طريق تصويت البالغين من الهنود وتكون مهمته وضع دستور للهند الحرة

وظهرت المشكلة الطائفية ثانية في الهند وسببت تصادماً جديداً . ولكن ، هنالك اتجاه نحو تقدم المسائل الاجتماعية والاقتصادية والاهتمام بها أكثر من الفروق الطائفية الدينية .

وقد امتد الوعي الشعبي في الهند الى الولايات الهندية وقويت الحركات المطالبة

بتأليف حكومات مسؤولة فيها ولا سيا في ميسور وكشمير وترافنكور من المقاطعات الكبرى . وقد قوبلت هذه الحركات ولا سيا في ترافنكور بمقاومة وحشية على يد حكومة الولاية وكانت إدارة معظم هذه الولايات شبه اقطاعية « مثل كشمير » في يد المسؤولين البريطانيين .

وفي السنوات القليلة الأخيرة أخذت الهند تقترب من الشؤون العالمية وتسعى لربط قضيتها بالمشكلة العالمية، لأن الحوادث في الحبشة واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا والصين وفلسطين قد حركت الشعب الهندي كثيراً وجعلت «المؤتمر» يتخذ له سياسة خارجية . وهي سياسة تدعم السلام والديموقراطية وتناقض الاستعمار والفاشية على حد سواء .

وقد فصلت بورما عن الهند في عام ١٩٣٧ واعطيت مجلساً تشريعياً شبيهاً بالمجالس التي اعطيت للمقاطعات الهندية .

كفاح مصر في سبيل الحرية

٢٠ مايو ١٩٣٣

●

لنرجع الآن الى مصر ونرقب هناك العراك الناشب بين قومية ناشئة ودولة مستعمرة، والدولة المستعمرة هناك هي نفسها الموجودة في الهند: انها بريطانيا. تختلف مصر عن الهند في كثير من النواحي، مع انها لم تبق تحت الاحتلال الانجليزي الا مدة قصيرة نسبياً، الا ان هناك كثيراً من الاشياء التي يشترك فيها البلدان. وعلى الرغم من ان الحركات الوطنية قد اتبعت في كل من البلدين اسلوباً مغايراً للآخر، الا ان الدوافع الاساسية في سبيل الحرية كانت واحدة، وكذلك الاساليب التي اتبعها الاستعمار في اخضاع هذه الحركات. ولهذا فان كلًا منا يستطيع ان يتعلم من تجارب الآخر؛ فنحن في الهند نستطيع ان نتعلم درساً من مصر، ونشاهد ما هي «الحرية» التي تمنحها بريطانيا.

واذا نظرنا الى جميع الدول العربية (السعودية والعراق وسوريا وفلسطين) فإننا نلاحظ ان مصر هي اكثر هذه الدول تقدماً. فلقد كانت الجسر الذي يربط الشرق بالغرب، والطريق الذي تمخر فيه السفن منذ ان فتحت قناة السويس. كما ان علاقاتها مع اوروبا خلال القرن التاسع عشر كانت من اقوى العلاقات التي تربط اوروبا مع أي بلد في غربي آسيا. انها تؤلف وحدة منفصلة، غير انها ترتبط بالدول العربية الأخرى بأوثق الصلات الثقافية، فجميعها تتكلم لغة واحدة وتدين بدين واحد وتشارك في نفس العادات والتقاليد. فالجرائد

اليومية التي تصدر في القاهرة مثلاً توزع في جميع انحاء الوطن العربي ، وتتمتع بنفوذ كبير فيها واول ما ظهرت الحركات الوطنية في مصر ، فكان من الطبيعي ان تصبح هذه الحركات انموذجاً تسير على هداه الدول العربية الأخرى .

تحدثت لك في رسالة سابقة عن مصر وعن الحركات الوطنية التي قامت فيها بين سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ بقيادة عرابي باشا ، وكيف ان بريطانيا قضت عليها . كما تحدثت الك عن المصلحين الاوائل مثل جمال الدين الافغاني و عن الأفكار الغربية واثرها في الاسلام . لقد حاول هؤلاء المصلحون التوفيق بين الاسلام والنظريات الحديثة في التقدم والرقي وذلك بالتمسك بالمبادىء الاساسية للدين ونبذ ما طرأ عليه من تحريفات على مر القرون . وكانت الخطوة الثانية في نظر التقدميين هي فصل الدين عن الدولة ؛ لأن الأديان القديمة حاولت ان تنظم وتعين لنا سلوكنا في كل منحى من مناحي الحياة . وهكذا فان الدينين الهندوكي والاسلامي برغم ما بينهما من الاختلاف في العقيدة قد وضعا قوانين وقواعد للزواج والميراث والقانون المدني والجنائي والتنظيم السياسي ، وكل شيء تقريباً . وبعبارة أخرى وضعا تصميماً كاملا لمعيشة الامة وحاولا الإبقاء عليه بأن صبغاه بالصبغة الدينية . حتى ان الديانة الهندوكية قد غالت في هذا المضمار بفرضها نظام الطبقات القاسي . ان الإبقاء على هذه النظم في الواقع يضع العراقيل امام اية محاولة للتغيير والاصلاح . ولذلك فإنك تجدين في مصر ، كما تجدين في البلاد الاخرى ، ان الناس التقدميين يحاولون فصل الدين عن الدولة ، وحجتهم في ذلك ان القوانين القديمة التي فرضتها الديانات المختلفة والعادات انما فرضت على اناس كانوا يعيشون في الماضي ، فهي بالتالي لا تصلح ابداً لأناس يعيشون في الوقت الحاضر ، وخصوصاً بعد كل هذه التغييرات التي طرأت على احوال العالم . فاذا حكمنا عقلنا قليلا ، وجدنا انه لا يمكن ان يصلح نظام وضع لعربة تجرها الثيران من اجل تطبيقه على سيارة أو قطار .

هذه هي الطريقة التي ينتهجها التقدميون والمصلحون ، وهذه هي الطريقة التي أدت الى فصل الدولة وكثير من نظمها عن الدين . وقد ظهر هذا بأوضح شكل

في تركيا فلم يعد رئيس الجمهورية هناك مكلفاً بأن يقسم يمين الولاء باسم الله ، وانما يقسمه بشرفه . غير ان مصر لم تصل إلى هذه الدرجة بالرغم من ان التيار الفكري الذي يجري فيها وفي بقية الدول الاسلامية يجري في هذا الاتجاه . ومن المحتمل ان مسلمي الهند قد قاوموا هذا الاتجاه اكثر من اي فئة اسلامية اخرى؛ ولذلك فانهم محافظون ويتمتعون بعقلية دينية لا نجدها بهذه القوة عند نظرائهم في الدول الاسلامية الاخرى. انها غريبة وهامة. فالقومية الجديدة تطورت بتطور الطبقات البورجوازية ، وهي الطبقات الوسطى في النظام الرأسمالي والمسلمون في الهند قد تلكأوا في تطوير البورجوازية ، ولهذا أعاقوا تطور قوميتهم. ويجوز ان وجودهم في الهند كأقلية قد ضاعف من شعور الخوف وزاد في انكماشهم وحبهم في المحافظة على التقاليد القديمة لأنهم يشكّون في كل فكرة جديدة . واعتقد ان هذا هو السبب النفساني الذي دفع بالهنود ان ينزووا في قواقعهم ويضاعفوا من شدة تزمتهم الطائفي منذ ان غزا المسلمون الهند قبل الف عام .

أخذت الطبقة الوسطى في مصر تنمو مع نمو التجارة الخارجية في مستهل الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وقد ظهر من طبقة الفلاحين رجل اسمه سعد زغلول . وكان سعد في مستهلّ شبابه عندما ثار عرابي وتحدى الانجليز سنة ١٨٨١ ١٨٨٢ كما حارب معه ومنذ ذلك الوقت حتى مماته في سنة ١٩٢٧ أي لمدة خمسة واربعين سنة ، عمل سعد من اجل حرية مصر ، وأصبح بذلك قائد حركة الاستقلال . لقد كان بالفعل قائد مصر دون منازع ، فقد كان محبوباً من قبل الفلاحين ، اي الطبقة التي نشأ منها ، ومعبوداً من قبل الطبقة الوسطى ، الطبقة التي كان ينتمي إليها. ولكن الطبقة الارستقراطية،طبقة الاقطاعيين ، لم ترض عنه ولم تحبه ، لأن هؤلاء الاقطاعيين لم يعجبهم نهوض الطبقة الوسطى التي اخذت في زحزحتهم عن مراكزهم . فكان سعد شوكة في حلوقهم ، لأنه يمثل هذه الطبقة الوسطى . وكما عمل الانجليز في الهند ، عملوا في مصر ، اذ حاولوا ايجاد انصار لهم من بين هؤلاء الاقطاعيين ، الذين كانوا في الواقع اتراكاً اكثر منهم مصريين ، وممثلين للطبقة الحاكمة القديمة .

وهنا حاول الانجليز بطريقتهم الاستعمارية التي أكل الدهر عليها وشرب ، ان يوثقوا علاقاتهم ببعض الهيئات السياسية والاجتماعية في مصر ، وذلك لإعاقة اي تطور وطني ولضرب فئة بفئة ، وحزب بحزب. وكما فعلوا في الهند ايضاً،حاولوا ان يخلقوا من قضية الأقلية القبطية مشكلة كبيرة ، غير انهم فشلوا في مسعاهم . وكانت جميع محاولاتهم تتبع نفس الطريق : الكلمات المعسولة، والادعاء بأن كل ما يعملوه انما هو لمصلحة الفريق الآخر ، فكانوا يتقمصون شخصية «الاوصياء» على «الملايين الصابرة» ، ويقولون : لو ان الامر يخلو من «مثيري الاضطرابات» والفوضويين واولئك الذين ليس لهم علاقة في المسألة ، لحلت جميع المشاكل . ولنذكر بهذه المناسبة ان هذه الادعاءات والاقوال كانت تتمثل في كثير من الاحيان في اطلاق الرصاص على الجماهير وقتلهم. وقد يكون تفسيرهم لذلك بأنهم يتخذون هذه الاجراءات ليسرعوا في انهاء شقاء هؤلاء الناس ، ونقلهم الى العالم الآخر حيث الراحة والخلود !

بقيت مصر ترزح تحت الحكم العرفي طوال مدة الحرب وحتى بعد انتهائها بعدة سنوات . وخلال مدة الحرب سُن قانونا نزع السلاح والتجنيد الاجباري. وكانت بريطانيا قد اعلنت حمايتها على مصر منذ ابتداء الحرب العالمية وملأتها بقواتها.

وما كادت الحرب تنتهي في سنة ١٩١٨ حتى جدد الوطنيون المصريون نشاطهم في طلب الاستقلال ، فرفعوا قضيتهم الى الحكومة البريطانية ومؤتمر الصلح في باريس . ولم يكن في مصر في ذلك الوقت احزاب بالمعنى الصحيح ، عدا الحزب الوطني الذي لم يكن له من الأعضاء الا القليل .ولذلك اقترح ارسال وفد برئاسة سعد زغلول الى لندن وباريس للدفاع عن قضية الاستقلال . ولكي يكون هذا الوفد ممثلاً لجميع الاتجاهات ، وقادراً على التكلم باسم الشعب ، فقد بُدىء بتنظيم حركة واسعة النطاق . وهذا هو اصل انشاء حزب الوفد في مصر غير ان الحكومة البريطانية لم تسمح لهذا الوفد بالسفر الى لندن ، وزادت على ذلك بانها اعتقلت سعداً وبعض القادة الآخرين في مارس ١٩١٩

نتج عن ذلك العمل ثورة دموية قتل فيها كثيرون من الانجليز ، وسيطرت

على القاهرة وبعض المدن الاخرى اللجان الثورية . وتألفت في كثير من الاماكن هيئات للمحافظة على الأمن العام ، وشارك طلاب الجامعة في هذه الثورة. وبالرغم من بعض هذه النجاحات المبدئية ، فان البريطانيين استطاعوا اخضاع الثورة ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الحركة الوطنية ، التي غيرت اسلوبها في العمل ، فلجأت الى المقاومة السلبية . وقد بلغت هذه المقاومة من الشدة بحيث اضطرت الحكومة البريطانية الى تلبية بعض المطالب المصرية ، فأوفدت الى مصر لجنة برئاسة اللورد ملنر . غير ان الوطنيين المصريين قرروا مقاطعة هذه اللجنة ، وفعلا تم ذلك بنجاح باهر ، وكان للطلاب فضل كبير في هذا السبيل . ولما رأت اللجنة عنف هذه المقاومة ، شعرت انه لا بد من اعطاء المصريين شيئاً من حقوقهم ، فوضعت توصياتها على هذا الأساس ولكن الحكومة البريطانية تجاهلتها . فاستأنف المصريون كفاحهم واستمر ذلك ثلاث سنين من سنة ١٩١٩ الى اوائل ١٩٢٢ ، وكان طلبهم هو الاستقلال التام ولا شيء اقل من ذلك .

اما سعد زغلول فقد اطلق سراحه بعد اعتقاله في سنة ١٩١٩ ، ثم اعيد اعتقاله مرة ثانية في ديسمبر ١٩٢٢ وارسل الى المنفى . ولكن ذلك لم يساعد على تحسين الاوضاع في مصر من وجهة نظر البريطانيين فاضطروا الى اتخاذ بعض الاجراءات للتخفيف من غلواء المصريين ، وقد فشلت جميع المحاولات التي كانت ترمي الى حلول وسط بالرغم من ان سعد زغلول نفسه لم يكن في يوم من الايام متطرفاً الى الحد الذي يرفض فيه الحلول الوسط. ومما يدل على ذلك محاولة اغتياله من قبل بعض الاشخاص الذين كانوا يعتقدون انه خان بلاده بمحاولة الوصول الى حلول وسط مهلهلة . ولكن الاسباب الحقيقية التي جعلت الوصول الى اتفاق مع البريطانيين مستحيلاً هي اعمق من ذلك بكثير . انها نفس الاسباب التي حالت دون الوصول الى حل وسط في الهند . ان الوطنيين المصريين لم يرغبوا ابداً في تجاهل المصالح البريطانية في مصر، بل على العكس من ذلك ، اذ كانوا مستعدين لإعطاء بريطانيا بعض الامتيازات لصيانة مصالحها وطرق مواصلاتها ، ولكنهم كانوا يصرون ان تبحث هذه المسائل بعد حصولهم على الاستقلال التام . ومن الجهة الاخرى كانت

بريطانيا تعتقد ان لها الحق في تعيين مقدار الحرية الذي تمنحه . وان تكون هذه الحرية خاضعة لمصالحها التي يجب ان تحمى قبل اي اعتبار آخر !

ولهذا لم يكن هنالك قاعدة مشتركة للتفاهم   غير ان الحكومة البريطانية شعرت بأن شيئاً ما يجب ان يعمل وبسرعة وحتى بدون اتفاق. ولذلك صرحت في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ انها ستعترف في المستقبل بمصر « كدولة مستقلة حرة » ، ولكن ـ وهذه « لكن » كبيرة ـ هنالك أربعة امور يجب ان يحتفظ بها لدراسة أشمل وهي :

١ ـ تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر .

٢ ـ حماية مصر من اي اعتداء او تدخل اجنبي سواء كان هذا الاعتداء او التدخل مباشراً أو غير مباشر .

٣ ـ حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات .

٤ ـ مستقبل السودان .

وتشبه هذه التحفظات ابناء عمومتها في الهند ، وندعوها هنا « تأمينات » . وبالطبع لم يقبل المصريون هذه التحفظات برغم ما يبدو عليها من بساطة وبراءة ، لأن معناها الحقيقي انه لن يكون هناك استقلال بالمعنى الصحيح سواء في الشؤون الداخلية او الخارجية . ولهذا فتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ كان صادراً من جهة واحدة ، من جهة الحكومة البريطانية ، ولم تعترف به مصر   ولقد ظهرت في السنوات اللاحقة قيمة الاستقلال المقيد بهذه التحفظات او التأمينات .

وبالرغم من هذا « الاستقلال» استمرت الاحكام العرفية وأشرف عليها ضباط بريطانيون لمدة سنة ونصف اخرى . ولم تنته حتى سنت الحكومة المصرية قانون العفو العام الذي أعفي بموجبه جميع الموظفين من مسؤولية اية اعمال قاموا بها اثناء فترة الاحكام العرفية .

ثم أهدي لمصر « المستقلة » دستور لا يشبهه دستور آخر في الرجعية ، اعطى الملك فؤاد الذي فرض على المصريين ، صلاحيات واسعة جداً   وقد تعاون فؤاد مع الانجليز بشكل رائع ، فكلاهما يكره الوطنيين، وكلاهما يرفض فكرة

اعطاء الحرية للشعب او حتى اعطاءه حكومة برلمانية . فاعتبر فؤاد نفسه الحكومة وعمل حسب اهوائه، فحل البرلمان وحكم البلاد حكماً دكتاتورياً معتمداً بذلك على الحراب الانجليزية التي كانت مستعدة دائماً لنجدته .

وكان اول عمل قامت به الحكومة البريطانية بعد اعلانها استقلال مصر ان طلبت مبالغ ضخمة جداً كتعويض للموظفين الذين احيلوا على التقاعـــد في ظل الحكومة الجديدة . فوافق الملك ، بصفتــه الحكومة المصرية ، على جميـع ما طلبوه ، ودفع مبلغ ٦٬٥٠٠٬٠٠٠ جنيه خص بعض كبار الموظفين منها مايقرب من ٨٥٠٠ جنيه للواحد ، ومن الطريف ان بعض هؤلاء الموظفين الذين دفعت لهم هذه المكافآت الضخمة ، قد أعيد تعيينهم بموجب اتفاقيات جديدة ويجب ان نتذكر في هذا الصدد ان مصر بلد صغير وان عدد سكانه اقل من ثلث عـدد سكان المقاطعات المتحدة في الهند .

ينص الدستور المصري بكل صراحة على « ان جميع السلطات تنبـــع من الشعب » . ومع ذلك لم يستطع البرلمان المصري ان يعمل بحرية منذ ان انتخب . وحسبما اذكر ، فانه لم يسمح لأي برلمان مصري حتى هذا الوقت اكمال مدته القانونية ؛ وفي كل مرة يحله فؤاد الذي عطل الدستور في النهاية وحكم حكماً اوتوقراطياً

أجريت اول انتخابات لأول برلمان في سنة ١٩٢٣ ، وفاز سعـــد زغلول وحزبه الذي أصبح يدعى بحزب الوفد بأغلبية ساحقة ، إذ حصل على ٩٠ ٪ من الاصوات وعلى ١٧٧ مقعداً من مجموع ٢١٤ وقد حاولت الحكومة الجديدة برئاسة زغلول التفاهم مع بريطانيا ، فذهبت إلى لندن لهـــذا الغرض ، غير انه لم يتوصل إلى أي اتفاق ، وانقطعت المفاوضات على اثر اصطدامها بعقبات كثيرة منها مسألة السودان وفي السودان يجري نهر النيل ، وهذا النهر كان منذ ان سجل التاريخ – أي منذ ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة – عصب حياة مصر ؛ فعليـــه تعتمد الزراعة المصرية ، وعلى جانبيه تدور الحياة من جراء الفيضان الذي يجلب معه التربة الخصبة من أعالي الحبشة ، وهو الذي حوّل الصحراء الى ارض غنيـة

خصبة . وقد كتب اللورد ملنر (رئيس اللجنة التي قوطعت) عن النيل يقول:

« انه لمن المزعج حقاً ، ان مورد المياه الدائم الذي يجلبه هذا النهر العظيم ، والذي يعتبر بالنسبة لمصر ، لا مسألة رفاهية وانتعاش فحسب ، وانما مسألة حياة أو موت ، ان يكون هذا المورد معرضاً لبعض الأخطار طالما ان منابع النيل لا تقع تحت سيطرة المصريين » .

تقع منابع النيل هذه في السودان ، ولهذا تتضح اهمية السودان لمصر. وكان من المفروض ان السودان في الماضي وقع تحت الادارة البريطانية المصرية المشتركة . ولهذا سمي بالسودان المصري الانكليزي . ولما كانت بريطانيا هي الحاكمة الفعلية لمصر ، لم يكن هنالك مجال للنزاع على المصالح بين الحكومتين ؛ وفي الواقع أسهم المصريون كثيراً في مشاريع متعددة في السودان . وقد صرح اللورد كيرزون في البرلمان البريطاني سنة ١٩٢٤ انه لو لا الاموال المصرية التي تصرف في السودان لأفلس منذ أمد بعيد . وعندما برزت مسألة استقلال مصر ، أراد البريطانيون الاحتفاظ بالسودان كما ان المصريين من جهة اخرى، شعروا بأن وجودهم نفسه يعتمد على اشرافهم على منابع النيل العليا في السودان . ولهذا نشأ التضارب في مصالح الفريقين .

وعندما كانت مسألة السودان موضع بحث بين سعد زغلول والحكومة البريطانية في سنة ١٩٢٤ ، أظهر السودانيون في كثير من المناسبات حبهم لمصر وتعلقهم بها . وقد كافأهم الانجليز على ذلك بأن عاقبوهم عقاباً شديداً ، وأخذ الانجليز يعملون بوحي خاطرهم فقط ، دون ان يستشيروا الحكومة المصرية بالرغم من وضوح حق مصر في الاشتراك في الادارة وخصوصاً انها كانت تدفع قسطها من المصاريف

اما التحفظ الآخر الذي ارادته بريطانيا فيا سمته باعلان الاستقلال المصري فقد كان حماية المصالح الاجنبية . فما هي هذه المصالح ؟ تحدثت لك عنها في رسالة سابقة : عندما أخذت الامبراطورية التركية في الضعف والتدهور ، فرضت عليها الدول الكبرى ان تعامل رعاياها المقيمين في تركيا معاملة خاصة . وهذا

يعني ان الاوروبيين الاجانب لم يعودوا خاضعين للقوانين التركية أو المحاكم التركية ، مهما كان نوع الجرم الذي يرتكبونه ، انما يحاكمون امام قناصلهم وممثليهم الدبلوماسيين ، او امــام محكمة خاصة قضاتها من الاجانب . كما انهم يتمتعون « بامتيازات » خاصة كاعفائهم من مختلف انواع الضرائب . وبما ان الحكومة التركية قد قبلت اعطاء هذه الامتيازات، فقد اصبح لزاماً على الولايات الخاضعة لها، أن تسري عليها نفس المعاملة. بما ان مصر كانت خاضعة للحكم البريطاني ولا علاقة لها البتة بتركيا ، إلا انها اعتبرت جزءاً من الامبراطورية التركية وطبقت فيها الامتيازات . وتبعاً لذلك ، وفي ظل هذه الاحوال الملائمة جداً ، تكاثر الرأسماليون الأجانب ووسعوا اعمالهم في المدن المصرية. وكان من الطبيعي جداً ان يعارضوا في الغاء النظام الذي جعلهم اغنيـاء ، والذي لا يتطلب منهم حتى دفع الضرائب . هذه هي المصالح الاجنبية التي تعهدت الحكومة البريطانية بحمايتها . ولذلك فانه لم يكن في امكان مصر ان توافق على مثـل هذا النظام ، الذي لا يسلبها قسماً من استقلالها فحسب، وانما يسلبها قسماً من ماليتها وعوائدها، وانه لمن المستحيل ان يقوم اي اصلاح في اية بلاد على نطاق واسع إذا كان أغنى رجالها غير خاضعين للضرائب . وفي الحقيقة لم يحاول الانجليز ابداً طوال مدة حكمهم المباشر ان يساعدوا في نشر التعليم الابتدائي او تحسين الاحوال الصحية في الريف المصري .

ومن طريف الصدف ان تركيا التي نبعت فيها فكرة الامتيازات قد تخلصت منها على اثر انتصار كمال اتاتورك . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الصين في الوقت الحاضر تعاني من مثل هذه الامتيازات في بلادها ، كما ان اليابان عانت منها في القرن التاسع عشر ، ولكن ألغتها بمجرد ان اصبحت قوية

وهكذا كانت مسألة المصالح الاجنبية عقبة كأداء في سبيل التفاهم بين بريطانيا ومصر ان المصالح الاجنبية هي دائماً عقبة في طريق الحرية .

لم تكتفِ الحكومة البريطانية بهذا، بل قررت بشهامتها المعهودة! ان تحافظ على مصالح الاقليات ، وكان هذا احد التحفظات في اعلان الاستقلال الصادر في

فبراير ١٩٢٢ . وكان الاقباط هم اكبر اقلية في البلاد . ويقال انهم سليلو قدماء المصريين،فهم يشكلون بذلك اقدمعنصر في مصر.وهم نصارى منذ الايام الاولى للنصرانية وقبل ان تعتنقها اوروبا . وبدلاً من ان يشكر الاقباط الحكومة البريطانية على اهتمامها بالاقليات ، اظهروا امتعاضهم وطلبوا منها عدم التدخل في شؤونهم . وما كاد البريطانيون يعلنون استقلال مصر فيفبراير ١٩٢٢ حتىاجتمع الاقباط وقرروا « انهم في سبيل الوحدة الوطنية والحصول على الاماني القومية ، يتنازلون عن كل طلب لتمثيلهم على اساس انهم اقلية ،ويرفضون اي حماية». وقد انتقد البريطانيون هذا القرار ووصفوه بأنه قرار احمق ! ولكن مهما قيل فيهذا القرار سواء أكان احمق أم رزيناً ، فانه وضع حـــداً لادعاءات الانجليز بحماية الاقباط ، ولم تعد مشكلة الاقليات موضوع بحث بعد ذلك.والواقع انالاقباط قد اشتركوا اشتراكاً فعلياً في الكفاح من اجل الحرية،وكان بعضهم منالزملاء المخلصين جداً لزغلول والوفد .

كان اختلاف وجهات النظر وتعارض المصالح بين مصر التي يمثلها سعد زغلول وبين بريطانيا سبباً في انقطاع المفاوضات في سنة ١٩٢٤ . فاغتاظت بريطانيا لهذه النتيجة ، لأنها كانت في السابق تفعل ما تريد في مصر ، ولكنها الآن فوجئت بعناد البرلمان الجديد كما فوجئت بعناد زعماء الوفد . ولذلك قررت – حسب اسلوبها الاستعماري – ان تعطي الوفد والحكومة المصرية درساً لاينسيانه. وقد سنحت هذه الفرصة بعد مضي وقت قصير فقط . وسأحدثك في رسالة قادمة عن الطريقة التي انتهزت فيها بريطانيا هذه الفرصة ، وماذا فعلت ، لأن عملها هذا يبيّن بصورة جليّة كيف يعمل الاستعمار الحديث

الاستقلال في ظل البريطانيين

٢٢ مايو ١٩٣٣

•

تحدثت لك في رسائلي الأخيرة كيف فشلت المفاوضات سنة ١٩٢٤ بين الحكومة المصرية والبريطانية ، وكيف غضبت الحكومة البريطانية لهذا الفشل . وقبل ان امضي قدماً في سرد التطورات التي حدثت بعد ذلك ، يجب ان انبهك الى ان مصر بالرغم مما تحوزه من «استقلال» إلا انها بقيت تحت الاحتلال العسكري البريطاني ولم يكتف البريطانيون بوضع جيشهم هناك ، بل وضعوا الجيش المصري نفسه تحت السيطرة البريطانية وعينوا انجليزياً رئيساً له لقبوه بالسردار. وكان كبار ضباط البوليس ايضاً من الانجليز . واستولت الحكومة البريطانية ، بحجة حماية الاجانب في مصر ، على ادارات المالية والعدل والداخلية ، اي انها استولت على كل الادارات الحيوية في البلاد . وبالطبع كان المصريون اثناء كل هذا الوقت يصرون على ازاحة هذه السيطرة ويطالبون باسترداد حقوقهم .

وفي ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ اغتال بعض المصريين السردار الانجليزي السير لي ستاك ، وكان يشغل ، بالإضافة الى قيادة الجيش المصري مركز الحاكم للسودان. وبالطبع سبّب اغتياله هذا صدمة عنيفة للبريطانيين في مصر وانجلترا ؛ ومن المحتمل ان يكون قد سبّب صدمة اعنف لزعماء حزب الوفد لأنهم كانوا يعرفون انهم هم الذين سيقع عليهم القصاص . وفعلاً جاءهم القصاص بأسرع مما كانوا يظنون إذ ان اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني في مصر قدم في ٢٢ نوفمبر ، اي بعد

الحادث بثلاثة ايام فقط ، انذاراً للحكومة المصرية يطالبها بما يلي :

١ – اعتذار .

٢ – معاقبة المجرمين.

٣ – منع جميع المظاهرات السياسية .

٤ – دفع تعويض قيمته ٥٠٠،٠٠٠ جنيه مصري .

٥ – سحب جميع الجيش المصري من السودان خلال اربعة وعشرين ساعة .

٦ – ازالة جميع القيود على سقاية بعض الاراضي في السودان والتي سبق ان وضعت من اجل مصلحة مصر .

٧ – عدم الاعتراض على الفكرة القائلة بان الحكومة البريطانية هي صاحبة الحق في حماية كل الاجانب في مصر . وهذا يشير الى احتفاظ البريطانيين بسلطانهم في ادارات المالية والعدل والداخلية

ان الطلبات السبعة هـــذه جديرة بالاهتمام . فمع ان القضية هي ان بعض الاشخاص اغتالوا السيرلي ستاك إلا ان الحكومة البريطانية عمدت حالاً – وبدون تحقيق – الى معاملة الحكومة المصرية والشعب المصري كأنهما هما المسؤولان عن هذا الاغتيال . يضاف الى ذلك انهم ارادوا ان يربحوا بعض المال من هذه المسألة، وانتهزوا الفرصة ليسوّوا بالقوة جميع المسائل المعلقة بينهم وبين الحكومة المصرية والتي فشلت المفاوضات التي جرت في لندن منذ اشهر قليـلة لحلها . ولم يكتفوا بذلك بل منعوا جميـع المظاهرات السياسية ، وبعبارة اخرى منعوا الحياة العامة الطبيعية للبلاد من الاستمرار.

ان التطورات التي تبعث الاغتيال لعجيبة حقاً ، وتحتـاج الى خيال واسع خصب لتصورها . ومما يزيد في عجب هذه التطورات ان الرجلين (وهما رسمياً تابعان للحكومة المصرية) اللذين يمكن ان يعتبرا مسؤولـيـن عن منع الجرائم والاضطرابات وهما مدير شرطة القاهرة والمدير العام للادارة الاوروبية للامن العام، كانا بريطانيين . فلم يعتبرهما احد مسؤولين عن الاغتيال. ولكن الحكومة المصرية المسكينة ، التي ابدت اسفها وحزنها بعد حادث الاغتيال مباشرة ، صبّ

عليها جام غضب الحكومة البريطانية بشكل فظيع .

لقد مرّغت الحكومة المصرية انفها بالرغام ، ووافق زغلول باشا على جميع شروط الانذار تقريباً ، حتى انه دفع تعويض الـ ٥٠٠،٠٠٠ جنيه مصري خلال اربعة وعشرين ساعة . ولكن الحكومة المصرية لم تستطع ان تتنازل عن حقوقها في السودان . وكأن اللورد اللنبي لم يكتف بهذا الخضوع وهذا الاعتذار ، بل عمد ، بمجرد ان رأى ان الشروط المتعلقة بالسودان لم تقبل ، الى الاستيلاء بالقوة باسم الحكومة البريطانية ، على جمرك الاسكندرية ووضع يده على حاصلاته . وبعد ذلك ، بالرغم من الاحتجاجات المصرية ، نفذ شروطه في السودان وحوّله الى مستعمرة انجليزية . وقد ثارت الفرق المصرية في السودان ، إلا انه اخضعها بمنتهى القسوة والوحشية .

عندما رأى زغلول باشا ذلك ، استقال هو وحكومته احتجاجاً على هذه الاعمال ، وفي نفس الوقت حل الملك فؤاد البرلمان . وهكذا نجح الانجليز في طرد زغلول وحزب الوفد من الحكومة ووضع نهاية للبرلمان بصورة موقتة على الأقل . ثم استولوا على السودان واصبحوا في وضع يمكنهم من خنق مصر عن طريق سيطرتهم على منابع نهر النيل .

وقد استنجد البرلمان المصري التعيس بعصبة الامم « ضد استغلال حادث مؤلم لتحقيق اهداف استعمارية » ، ولكن العصبة اثبتت انها صماء وخصوصاً اذا كانت الشكوى ضد دولة كبرى.

ومنذ هذا الوقت استمر الكفاح في مصر بين حزب الوفد وهو الذي يمثل الشعب المصري تقريباً من جهة ، وبين الملك فؤاد والمندوب السامي البريطاني تدعمها المصالح الاجنبية وتنابلة السلطان وغيرهم من جهة اخرى . وكان الملك فؤاد يحكم البلاد في معظم الوقت حكماً اوتوقراطياً دكتاتورياً متحدياً بذلك الدستور . وعندما كان يسمح للبرلمان بالاجتماع ، يتضح له ان البلاد كلها تقريباً تساند حزب الوفد ، ولهذا السبب حل البرلمان. ولم يكن فؤاد ليستطيع ان يعمل هذه الأعمال دون ان يدعمه البريطانيون والجيش والبوليس الواقعان تحت سيطرتهم .

وعلى هذا فقد كانت مصر « المستقلة » تعامل كأنها ولاية هندية ، يسيطر عليها تماماً المقيم البريطاني .

حل البرلمان سنة ١٩٢٤ وفي مارس ١٩٢٥ اجتمع برلمان جديد ضمّ اغلبية وفدية . وما ان انعقد حتى انتخب زغلول باشا رئيساً له . ولكن هذا لم يعجب الانجليز كما لم يعجب الملك فؤاد ، فأمر هذا بحله في نفس اليوم الذي انعقد فيه . ثم مضت سنة كاملة لم ينعقد فيها اي برلمان بالرغم من معارضة ذلك لنصوص الدستور. وحكم فؤاد اثناء هذه المدة حكماً دكتاتورياً ، يحركه من وراء الستار المندوب السامي البريطاني . وقد غضبت البلاد كلها لذلك ، واستطاع سعد زغلول ان يوحد كل الاحزاب لمعارضة الملك فؤاد والانجليز؛ فقرر اعضاء البرلمان في نوفمبر ١٩٢٥ ان يجتمعوا ويتحدّوا قرار الحكومة الذي يمنعهم من ذلك ؛ ولما رأوا ان بناية البرلمان تحتلها قوات الجيش ، عقدوا اجتماعهم في مكان آخر .

عندئذٍ حاول فؤاد تغيير الدستور كله باصدار مرسوم ملكي ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الميل به نحو المحافظة الشديدة ، حتى يستطيع السيطرة على البرلمانات المقبلة بسهولة اكثر ، وحتى يمنع الوفديين من دخولها . ولكن الاحتجاجات على هذا الاجراء بلغت عنان السماء ، وكان من الواضح ان اية انتخابات تجري في ظل القانون الجديد لن يشترك بها احد وسيقاطعها الجميع . فاضطر الملك فؤاد إلى اجراء الانتخابات حسب القانون القديم ، وكانت النتيجة فوزاً ساحقاً لحزب الوفد إذ حصل على ٢٠٠ مقعد مقابل ١٤ مقعداً حصل عليها خصومه ! فلم يبق هنالك من شك في ان زغلول كان يمثل مصر ويمثل ارادتها . وبالرغم من هذا فان المندوب السامي البريطاني اللورد لويد قد اعترض على تعيين زغلول باشا رئيساً للوزارة ، فعيّن الملك شخصاً بدلاً عنه وليس من الصعب ابداً معرفة الاسباب التي حدت بالانجليز ان يتدخلوا في هذا الأمر . فقد كانت الحكومة الجديدة مؤلفة من اغلبية وفدية ، وبالرغم من كل المحاولات التي بذلت لجعلها تخفف من حدتها وتعتدل في موقفها ، إلاّ انها كانت كثيراً ما تصطدم مع لويد بغطرسته وكبريائه وتهديده الدائم باستعمال سفنه الحربية في ضرب مصر .

جرت محاولة اخرى في سنة ١٩٢٧ للاتفاق مع بريطانيا، ولكنها باءت بالفشل مع ان رئيس الوزراء المعروف باعتداله الشديد قد دهش هو لشروطها . لقد كانت بريطانيا تريد مصر ان تكون محمية بريطانية وراء ستار معاهدة الاستقلال.

توفي اثناء هذه المفاوضات زعيم مصر العظيم سعد زغلول في ٢٣ اغسطس ١٩٢٧ عن عمر يناهز السبعين عاماً . توفي زغلول ولكن ذكراه ما زالت حيّة في مصر، توقد عزيمة الشعب وتزيدها مضاءً وما زالت زوجته صفية زغلول موضع حب الشعب واحترامه حتى انها لقبت « بأم المصريين » واصبح بيتها « بيت الأمة » يجتمع فيه الوطنيون .

خلف زغلول في زعامة حزب الوفد مصطفى النحـــاس ، وعُيّن في مارس ١٩٢٨ رئيساً للوزارة . وعلى اثر ذلك حاول ان يدخل بعض الاصلاحات البسيطة فيما يتعلق بالحريات الخاصة وحرية الشعب في اقتناء السلاح ، بعد ان كانت هذه الحريات قد صادرها الانجليز اثناء فرضهم للاحكام العرفية . وما كاد البرلمان المصري يبدأ مناقشة هذا الموضوع ، حتى تواردت التحـذيرات من انجلترا من ان مثل هذا يجب ان لا يحدث . ويتبـــادر الى الذهن انه من الغريب ان تتدخل انجلترا في هذه المسائل الداخلية الصرفة ؛ ولكن اللورد لويد بطريقتـه التقليدية قدم إنذاراً للحكومة المصرية يحذرهـا من مغبة الاقدام على هـــذه الاصلاحات وأمر السفن الحربية الانجليزية بالابحار من مالطة الى الاسـكندرية . فتراجع النحاس قليلاً ثم قبل ان يؤجل نظر هذه الاجراءات للدورة المقبلة بعد بضعة شهور .

ولكن الدورة المقبلة لم تعقد ، لأن الملك الذي يمثل الرجعية ، والمندوب السامي الذي يمثل الاستعمار قد تعاونا وقررا ان لا يدعا فرصة للبرلمان « يُقلّ ادبه » فيها . وتمت المؤامرة بطريقة فريدة في نوعها : كان النحاس معروفاً باستقامته الشديدة واخلاقه العالية ؛ وفجأة اتـّهم مع زعيم آخر من زعماء الاقباط الوفديين بالفساد على اساس رسالة ثبت فيما بعد انها مزوّرة . وقد قامت دوائر القصر والانجليز بحملة دعاية واسعة لهذه التهمة الـكاذبة ليس في مصر فقط ، وانما

في البلاد الاجنبية ايضاً بواسطة وكالات الانباء والصحف الاجنبية . وتحت ستار هذه التهمة طلب الملك فؤاد من النحاس تقديم استقالته ، ولكنه رفض فعمد فؤاد الى طرده طرداً . وتبعت مؤامرة لويد - فؤاد مؤامرة اخرى ، اذ حل الملك البرلمان مرة ثانية وعدّل الدستور بأن الغى البنود المتعلقة بحرية الصحافة والحريات الاخرى واعلن نفسه دكتاتوراً . فسرّت الصحافة الانجليزية بذلك كما اغتبط الاوروبيون المقيمون في مصر .

وعلى الرغم من كل هذه الاجراءات التعسفية ، فقد اجتمع اعضاء البرلمان واعلنوا عدم شرعية الحكومة الجديدة ، ولكن لويد وفؤاد لم يهتمّا بهذا القرار لأن ما يفهمانه من «القانون والنظام» هو تقوية الرجعيـــة الاستعمارية ، وليس محاربتها

فشلت القضية التي رفعتها الحكومة ضد النحاس بالرغم من جميع انواع الضغط الذي استعملته ، وقررت المحكمة ان التهمة كاذبة . ولكن الحكومة (لله درّها ما اشهمها !)امرت بعدم نشر هذا القرار في الصحف . غير ان الانباء انتشرت وانتشر معها الفرح والحبور .

لقد حاولت الدكتاتورية بسندها لويد والقوات البريطانية سحق حزب الوفد لأنه كان يمثل الحركة الوطنية المصرية ، واستعملت من اجل ذلك اسلحة كثيرة منها الارهاب ومراقبة الانبـاء . ومع ذلـــك قامت المظاهرات العظيمة ، واشتركت فيها النساء بصورة خاصة ، واعلن اضراب عـــام لمدة اسبوع ، اضرب فيه المحامون وغيرهم ، ولكن الصحف لم تذكر شيئاًمن هذه الأخبار بسبب الرقابة .

وهكذا مرت سنة ١٩٢٨ يسودها الاضطراب والشقاء وفي اواخرها حدث تغيير في الوضع السياسي في انجلترا كان له تأثير مباشرفي مصر ، اذ تشكلت هناك حكومة عمالية ، كان من اول اعمالها استدعاء لويد الذي اصبح لا يطيقه احد بما في ذلك الحكومة البريطانية نفسها . وقد اضعف رحيل لويد التحالف المعقود بين فؤاد والانجليز ، فلم يعد فؤاد بقادر على الاستمرار بمؤامراته دون مساعدتهم

ولذلك سمح باجراء انتخابات برلمانية جديدة في ديسمبر ١٩٢٨ ، فاز فيها حزب الوفد بجميع المقاعد تقريباً

بدأت الحكومة العمالية الانجليزية في مفاوضـــة مصر مرة اخرى ، وذهب النحاس الى لندن سنة ١٩٢٩ لهذا الغرض . وقـد كانت الحكومة العمالية اكثر اعتدالاً من سابقتها اذ قبلت وجهة نظر النحاس فيما يختص بالتحفظات الثلاثة . اما فيما يختص بالتحفظ الرابع – السودان – فلم يتوصل الفريقان لأي اتفاق بشأنه؛ وهكذا فشلت المفاوضات مرة اخرى . غـــير ان الفريقين فيها وقدّرا جميـع وجهات النظر ، وافترقا وكل منهما يظهر للآخر الود والصداقة على ان يتباحثا في الموضوع في فرصة اخرى . كان هذا يعتبر على وجه العموم نصراً للنحاس والوفد، فلم يعجب ذلك الانجليز ورجال الاعمال والمـال المقيمين في مصر ، كما لم يعجب الملك فؤاد . ولذلك نشب خلاف بين الملك والبرلمـان بعد بضعة اشهر في يونيو ١٩٣٠ واستقال النحاس من رئاسة الوزارة .

عندئذ تسلم فؤاد زمام الحكم واعلن نفسه دكتاتوراً – وهذه هي المرة الثانية التي يعلن نفسه بها دكتاتوراً . ثم حلّ البرلمان وعطّل جرائد الوفد وبدأ يحـكم بقسوة وشدة . وقد تحدى اعضاءُ مجلسي البرلمان حكومة القصر وشقوا طريقهم الى داخل بناية البرلمان وعقدوا جلسة هناك في ٢٣ يونيو ١٩٣٠ أقسموا فيها اليمين بالاخلاص للدستور والدفاع عنه بكل ما يملكون من قوة . ثم اجتاحت البلاد مظاهرات صاخبة اخمدها البوليس والجيش وسقط فيها القتلى والجرحى، واصيب النحاس نفسه بجراح . وبهذه الطريقة ساندت قوة البوليس والجيش التي يقودها ضباط بريطانيون دكتاتورية يعارضها الشعب بأمره ولا يؤيدها سوى حفنة من الارستقراطيين والاغنياء المحيطين بالملك . وقد اجتمع على هذه الدكتاتورية ، بالاضافة الى الوفديين ، كل من المعتدلين والأحرار ، الذين كانوا يعارضون اي اجراء عنيف يتخذه الشعب .

في اواخر سنة ١٩٣٠ اصدر الملك مرسوماً اعلن فيه دستوراً جديداً ، انقص فيه سلطات البرلمان وزاد سلطاته هو ! وقد كان عمل مثل هذا الشيء سهلاً جداً

عليه بمجرد اصداره مرسوماً، لأنه كان يستند في الواقع الى دولة استعمارية

حدثتك عن قصة هـذه السنوات التسع في مصر من ١٩٢٢ الى ١٩٣٠ بشيء من التفصيل لأنني أراها قصة غريبة . فقد كانت هـذه السنوات هي عهـد « الاستقلال » ، حسب التصريح البريطاني في فبراير ١٩٢٢ . لم يكن احد يهتم بارادة الشعب المصري ، وعندما كانت تتاح له الفرصة للتعبير عن رأيه ، كانت اغلبية من اقباط ومسلمين تنتخب الوفديين . ولما كان الشعب يريد تقليل نفوذ الاجانب وخاصة البريطانيين في استقلال بلاده ، كان هؤلاء بصورة دائمة يعارضونه بكل الطرق - بالقوة والعنف ، وبالتزوير والتآمر - وعلى هذا نصبوا ملكاً يحركونه متى ارادوا وكيف شاءوا .

كانت حركة الوفد حركة وطنية بورجوازية ، كانت تناضل في سبيل الاستقلال ولم تتدخل في الاصلاحات الاجتماعية . وعندما كان البرلمان ينعقد ، كانت تعمل أعمالاً طيبة في حقل التعليم وغيره من الحقول . والحقيقة ان البرلمان قد عمل في فترة وجيزة اكثر مما عملت الادارة الانجليزيه خلال الاربعين سنة السابقة برغم انشغاله في الكفاح الوطني . وقد ظهرت شعبية الوفد بين الفلاحين في الانتخابات والمظاهرات . ومع ذلك فان حركته التي تمثل الطبقة الوسطى ، لم تستطع اثارة حماس جماهير الشعب إلى الحد الذي تستطيعه حركة تهدف لاصلاحات اجتماعية واسعة .

قبل ان انهي رسالتي هذه يجب ان اخبرك عن الحركة النسائية في مصر بدأت المرأة تستيقظ في جميع الاقطار العربية إلا في الجزيرة العربية ، وتتقدم مصر كلّا من العراق وسوريا وفلسطين في هذا المضمار . وتوجد فيها جميعاً حركات نسائية منظمة ! ومثالاً على ذلك عقد في يوليو ١٩٣٠ في دمشق مؤتمر نسائي عربي . وقد بحث هـذا المؤتمر القضايا العربية الثقافية والاجتماعية ، واهتم بها اكثر مما اهتم بالقضايا السياسية اما المرأة في مصر ، فانها تميل الى الاشتراك بالحركات السياسية ، فتراها تشترك بالمظاهرات السياسية وتطالب باعطائها حقوقها الانتخابية ، كما تطالب بادخال اصلاحات على قانون الزواج ، وفرص متكافئة مع الرجال في الوظائف العامة . الخ وتتعاون المرأة المسلمة مع المسيحية تعاوناً تاماً ؛ واخذت عادة

وضع الحجاب على الوجه في الزوال في كل مكان ، وخصوصاً في مصر . صحيح انه لم يختفِ تماماً كما في تركيا ، ولكنه في طريق الاختفاء .

ملاحظة (اكتوبر ١٩٣٨) :

منذ ١٩٣٠ ومصر ترزح تحت حكم دكتاتوري يسيطر عليه القصر وهي تعتبر نظرياً « دولة مستقلة حرة » ، ولكنها في الواقع اقرب الى كونها مستعمرة انجليزية منها إلى اي شيء آخر . وتعسكر فيها القوات البريطانية : في القاهرة والاسكندرية وقناة السويس والسودان . وكانت هذه هي سنوات الازمة الاقتصادية في كل ارجاء العالم ، فتأثرت مصر كثيراً نظراً لهبوط اسعار القطن .

غزت ايطاليا الفاشية سنة ١٩٣٥ الحبشة ، فظهر خطر جديد على مصر وعلى المصالح البريطانية في وادي النيل ، مما حتم تبديل العلاقات بين مصر وانجلترا ، إذ انه لم يكن في صالح انجلترا ان تبقى مصر ثائرة غير راضية عنها. وفي الانتخابات البرلمانية انتصر حزب الوفد ، واصبح النحاس رئيساً للوزارة. ونظراً لتغير الجو الدولي الذي احدثه احتلال ايطاليا للحبشة ، توصلت مصر الى اتفاق مع انجلترا وامضت معها المعاهدة في اغسطس ١٩٣٦ . وقبلت مصر ان تتنازل عن كثير مما كانت تصر عليه في السابق حباً في السلام ، فقبلت الوضع الراهن في السودان ، واعترفت بحق انجلترا في الدفاع عن قناة السويس ، وان تربط سياسة مصر الخارجية بانجلترا ، مقابل كل هذا ان تسحب انجلترا قواتها من القاهرة والاسكندرية ، وتعد بمساعدة مصر في الغاء المحاكم المختلطة والامتيازات الاجنبية وادخالها عصبة الامم .

عمّ الفرح والاغتباط لهذه المعاهدة ، ولكن ثبت انها سابقان لأوانها. فقد استمر القصر بالرغم من موت فؤاد ومجيء فاروق ، في كراهية الوفد والتآمر عليه ، كما استمر الاستعمار الانجليزي يعمل من وراء الستار . ان قسماً كبيراً جداً من اراضي مصر يملكها عدد قليل من الاشخاص ، وتملك العائلة المالكة حصة ضخمة جداً . كان هؤلاء الملاكون يعارضون دائماً وبشدة اي تشريع اصلاحي

واي قوة الشعب . ولذلك استمر الاحتكاك كما كان ، وعزل الملك النحــــاس من رئاسة الوزارة وحلّ البرلمان.

ثم تشكلت في مصر حكومة من رجال القصر ، واجرت انتخابات جديدة ، وفوجىء الناس كلهم بهزيمة حزب الوفد هزيمة شنيعة . وقد ثبت فيما بعد ان الانتخابات كانت كلها مزورة . وما زال حزب الوفد وزعيمه النحاس يتمتعان بشعبية كبيرة ، ولكن الحكومة الحاليــــة يسيّرها رجال القصر يسانـــــدهم الاستعمار البريطاني .

الاقطار العربية — سوريا

٢٨ مايو ١٩٣٣

●

رأينا كيف ان القومية تقوي الرابطة التي تربط بين فئات من الناس يعيشون في اقطار مختلفة ويشتركون في اللغة والتقاليد؛ وهذه القومية التي تربط هذه الفئات، تفصلها بنفس الوقت عن فئات أخرى تعيش في بلاد ثانية، فالقومية جعلت من فرنسا وحدة قوية متماسكة تنظر لبقية اجزاء العالم نظرة مختلفة، وكذلك فعلت في الشعوب الألمانية فوحدتها في امة واحدة. ولكن هاتين القوميتين فصلتا البلدين عن بعضها البعض وأقامتا الحواجز بينهما.

واذا وجدت هذه القومية في بلاد تعيش فيها جنسيات مختلفة، فإنها تعمل على اضعافها بدلاً من تقوية الرابطة التي تربطها. فمثلاً كانت الامبراطورية النمساوية المجرية قبل الحرب العالمية (الاولى) بلداً واحداً تضم عدة جنسيات أهمها النمساوية - الألمانية والمجرية. فأضعف البلاد نمو القومية فيها، لأن كل جنسية من هذه الجنسيات ارادت الحصول على حريتها بعد ان دخلها دم جديد. وجاءت الحرب فازدادت الحالة سوءاً وانقسمت البلاد إلى اقسام صغيرة بعد الهزيمة التي منيت بها، والفت كل جنسية دولة منفصلة. (لم يكن هذا التقسيم معقولاً او منطقياً، ولكننا لن نبحث هذا الموضوع). ولكننا نرى أن المانيا برغم انهزامها، لم تنقسم إلى اقسام وانما احتفظت بتماسكها بفضل قوة القومية التي آمنت بها في السراء والضراء.

كانت الامبراطورية التركية قبل الحرب العالمية (الاولى) تشبه الامبراطورية

النمساوية ـ المجرية ، اي انها كانت تضمّ عدة جنسيات، كشعوب البلقان والعرب والأرمن وغيرهم . ولذلك كان نشوء القومية ونموها عاملاً فعـــالاً في تفسيخ الامبراطورية التركية ، فانفصلت عنها في بادىء الأمر شعوب البلقان في القرن التاسع عشر ، واضطرت تركيا ان تقاتل هذه الشعوب لتستردها لحظيرتها . ثم حاولت الدول الكبرى وعلى الأخص روسيا القيصرية أن تستفيد من قيام هذه القوميات،فاخذت تتآمر معها،واستعملت الارمن مثلاً لتضرب بهم الامبراطورية التركية ؛ ولهذا نجد الصراع مستمراً والمذابح الدامية تجري بصورة دائمة بينهم وبين الحكومة التركية . وقد استغلتهم الدول الكبرى اثناء الحرب في الدعاية ضد تركيا ، ولكن ما كادت الحرب تنتهي حتى لم تعد هذه الدول الكبرى في حاجة الى اية دعاية فتركتهم يواجهون مصيراً غامضاً . واخيراً تشكلت في ارمينيا الواقعة الى الشرق من تركيا على البحر الاسود جمهورية سوفييتية انضمت الى الاتحاد السوفييتي

أما الاقطار العربية التي كانت قسماً من الامبراطورية التركية ، فقد تأخرت قليلاً في الاستيقاظ مع العلم ان العرب كانوا يكرهون الاتراك . واول ما بدأت نهضتهم بدأت في الشؤون الثقافية واحياء اللغة العربية وآدابها . بدأت في سوريا اولاً حوالي سنة ١٨٦٠ ثم انتقلت الى مصر والى البـــلاد العربية الأخرى . وتكونت حركات سياسية بعد الانقلاب الذي قامت به جمعية تركيا الفتاة في سنة ١٩٠٨ وسقوط السلطان عبد الحميد . وانتشرت الافكار الوطنيــة بين العرب ، المسلمين منهم والمسيحيين ، وبدأت فكرة تحرير الاقطار العربية من الحكم التركي وتوحيدها في دولة واحدة تتبلور في الاذهان . وكان لمصر في ذلك الوقت وضع سياسي خاص بها ، ولم يكن يُتوقع ان تنضم الى الدول العربية الموحدة ، وانما كانت هذه الدولة ستقتصر على الجزيرة العربيـــة وسوريا وفلسطين والعراق . وكذلك اراد العرب استرجاع زعامة الاسلام الدينيـة بنقل الخلافة من السلطان العثماني اليهم . وهذا الأمر كان يعتبر قسماً من الحركة الوطنية اكثر منه قسمـاً من الحركة الدينية ، إذ كان العرب المسيحيون يؤيدونه كل التأييد .

بدأت بريطانيا تتآمر مع الحركات الوطنية العربية قبيل الحرب العالمية . ولما نشبت الحرب ، قطعت مختلف انواع الوعود لإنشاء دولة عربية موحدة ؛ وعلى هذا الاساس أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك والتحالف مع الانجليز. وقد انضم السوريون العرب، مسلوهم ومسيحيوهم ، الى ثورة الحسين ؛ ودفع عدد كبير منهم حياته على اعواد المشانق ثمناً لذلك. وكان اعدامهم في ٦ مايو في كل من دمشق وبيروت . وما زال هذا اليوم يُحتفل به كذكرى للشهداء .

نجحت الثورة العربية بمساعدة الانجليز ، وعلى الاخص بواسطة رجل عبقري غامض كان يشتغل في قلم الاستخبارات اسمه الكولونيل لورنس وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى كان معظم الاقطار العربية تحت السيطرة الانجليزية . وهكذا تفتتت الامبراطورية التركية . وقد قلت لك سابقاً ان مصطفى كمال لم يهدف ابداً في نضاله من اجل استقلال بلاده الى استرجاع الاقطار غير التركية (فيما عدا كردستان) ، وحسناً فعل .

وهكذا برزت بعد انتهاء الحرب مشكلة تقرير مصير الاقطار العربية . فأعلن الحلفاء المنتصرون ، او بالأحرى الانجليز والفرنسيون ، بكل تقوى وورع ان اهداف حكوماتهم ترمي إلى «تحرير الشعوب التي كانت ترزح تحت النير التركي لمدة طويلة تحريراً تاماً ، وانشاء حكومات وطنية وادارات تستمد سلطانها من ارادة هذه الشعوب. » ولتحقيق هذه الاهداف النبيلة ، شرعت كل من الحكومتين الانجليزية والفرنسية بتقسيم البلاد العربية فيما بينهما ! ! فاخترعتا نظام الانتداب وهو النظام الاستعماري الجديد الذي ابتكروه لاستعمار اقطار جديدة بموافقة عصبة الامم . فأخذت فرنسا سوريا ، واخذت انجلترا فلسطين والعراق . اما الحجاز فقد بقي تحت حكم الشريف حسين الذي كان يتمتع بالحماية الانجليزية . وهكذا بالرغم من كل الوعود التي قطعت لانشاء دولة عربية موحـــدة ، قسموا البلاد إلى اقسام مختلفة وضعت تحت الانتداب ، ما عدا الحجاز الذي كان يعتبر في الظاهر مستقلاً ، ولكنه بالحقيقة تحت الحكم الانجليزي . وقد أصيب العرب جميعهم بخيبة أمل مريرة لهذا التقسيم ، ورفضوا الاعتراف به كحل نهائي . ولم

يكونوا يعرفون ان الدول الاستعمارية تخبّىء في جعبتها خيبات امل اخرى ، لأنها ، بعد ان قسمت البلاد العربية الى اقسام مختلفة ، اخذت تطبق سياسة التقسيم الداخلي او سياسة « فرّق تسُد » حتى تستطيع ان تحكم البلاد المنتدبة عليها بدون مواجهة مشقات كثيرة . وسوف يكون من الاسهل ان نستعرض كل قطر من هذه الاقطار على حدة ، ولنبدأ اولاً بسوريا

في اوائل سنة ١٩٢٠ شكل الامير فيصل ابن الملك حسين حكومة عربية في سوريا بمساعدة الانجليز . واجتمع مجلس وطني سوري واقرّ دستوراً ديمقراطياً لسوريا الموحدة . ولكن هذه الحكومة لم تستمر الا لمدة اشهر فقط ، اذ ان فرنسا التي كانت قد انتدبتها عصبة الامم على سوريا ، جاءت في صيف ١٩٢٠ وطردت فيصلاً من البلاد واحتلتها بالقوة . ولم يكن يبلغ عدد سكان سوريا بأجمعها اكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، ومع ذلك فقد اثبتوا انهم شوكة قاسية في حلق الفرنسيين ، لأنهم سواء كانوا مسلمين او مسيحيين قد صمموا على نيل الاستقلال ، ورفضوا الخضوع لسيطرة دولة اجنبية فانتشرت الاضطرابات وكثرت حوادث العصيان المدني ، واضطر الفرنسيون لجلب جيش كبير . ثم حاولت الحكومة الفرنسية اتباع السياسة الاستعمارية القديمة لاضعاف القومية العربية ، فلجأت الى تقسيم البلاد الى دويلات صغيرة ، واظهار الاهتمام الزائد بالاختلافات الدينية والاقليات . انها سياسة قصدوا منها تفريق صفوف الشعب ، او باختصار طبقوا سياسة « فرق تسد » .

وهكذا قسموا سوريا على صغر مساحتها الى خمس دويلات ، واحدة على الساحل الغربي وسميت لبنان ، ومعظم سكانها من المسيحيين المارونيين الذين لاقوا من الفرنسيين امتيازات خاصة ليكسبوهم الى جانبهم ضد العرب السوريين ، واخرى خلقوها في شمال لبنان يسكنها مسلمون علويون ، والى الشمال من هذه دويلة سميت الاسكندرونة . وبهذا تكون سوريا قد فقدت معظم مناطقها الخصبة ، وانقطت عن البحر الذي عاشت عليه آلاف السنين كانت فيها احدى دوله الكبرى وتركت الآن على طرف الصحراء القاحلة ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل

اقتطعوا من سوريا ايضاً جبل الدروز .

لم يقبل السوريون بهذه التقسيمات منذ البداية ، فقاموا بكفاح مرير ومظاهرات صاخبة اشتركت فيها النساء ، وحاول الفرنسيون اخضاعهم بالقوة ، وزادوا على ذلك بأن اخذوا يخلقون مشاكل دينية وطائفية ، فعم القلق ، وانتشرت الفوضى. ثم عمدوا بعد ذلك كما عمد الانجليز من قبلهم — الى خنق الحريات الشخصية والحريات السياسية ، فملأوا البلاد بالجواسيس ورجال الاستخبارات وعينوا الموظفين الكبار من السوريين « المخلصين » الذين لم يكن لهم اي نفوذ في اوساط الشعب ، وكان الاهالي يعتبرونهم خونة مارقين . كان الفرنسيون يقومون بكل هذه الأعمال ، وبنفس الوقت يدعون انهم انما « ينفذون واجباتهم في تعليم السوريين طريقة الوصول الى النضج السياسي والاستقلال » — هذه العبارة هي نفسها التي تستعمل في الهند .

تأزمت الامور ووصلت الى حد الانفجار ، وخصوصاً بين اهالي جبل الدروز ؛ فقد دعا الحاكم الفرنسي زعماء الدروز الى وليمة ، ولما وصلوا القى القبض عليهم واحتفظ بهم كرهائن . حدث ذلك في صيف ١٩٢٥ ، وما كاد الاهالي يعرفون هذا الخبر حتى انفجروا في ثورة عارمة في جبل الدروز ثم انتشرت الثورة في جميع انحاء البلاد ، واصبحت حركة عامة تسعى الى حرية سوريا ووحدتها

كانت هذه الثورة حدثاً فريداً في نوعها . فسوريا البلاد الصغيرة جداً تقف في وجه فرنسا التي كانت تعتبر اكبر قوة عسكرية في العالم في ذلك الوقت . وبالطبع لم يستطع السوريون محاربة الفرنسيين في معارك حربية منظمة لما كان يتمتع به الفرنسيون من جيوش عديدة ومعدات ضخمة ، ولكنهم استطاعوا ان يجعلوا بقاء الفرنسيين خارج المدن ضرباً من المستحيل . فكان الفرنسيون يسيطرون فقط على المدن السورية التي كثيراً ما تعرضت لهجمات الثوار . عندئذ عمد الفرنسيون الى ارهاب الاهالي باطلاقهم النار على اعداد كبيرة منهم وحرق قرى كثيرة . ولم تسلم مدينة دمشق المشهورة من الاذى ، اذ ضربها الفرنسيون بالطائرات وخربوا قسماً كبيراً منها في اكتوبر ١٩٢٥ . اصبحت سوريا معسكراً حربياً

يعج بالجنود والعتاد ، ومع ذلك بقيت الثورة مشتعلة مـــدة سنتين ، تمكنت الجيوش الفرنسية الجرارة من القضاء عليها بعد ذلك . غير ان تضحيات السوريين لم تذهب عبثاً ، فقد اثبتوا بها حقهم في الحرية ، واصبح العالم كله يعرف من اية طينة جبل هؤلاء الســوريون

ومن الطريف ذكره ان الفرنسيين حاولوا صبغ الثورة بصبغة دينيـة ، كما حاولوا ضرب المسيحيين بالدروز ، ولكن السوريين جميعهم وقفوا لهم بالمرصاد وافهموهم بصراحة ووضوح انهم يحاربون من اجل الحرية ، لا من أجل اغراض دينية . وبمجرد ان اعلنت الثورة تشكلت حكومة موقتة دعت الشعب الى الانضمام الى صفوف المحاربين « من اجل استقلال سوريا بكامل اجزائهـا وانتخاب مجلس تشريعي لوضع الدستور ، وسحب جيش الاحتلال الاجنبي وتأليف جيش وطني يحافظ على الأمن ويطبق مبادىء الثورة الفرنسية وحقوق الانسان » . وهكذا نرى ان الحكومة الفرنسية والجيش الفرنسي كانا يحاولان اخضاع الشعب الذي وقف يدافع عن مبادىء الثورة الفرنسية والحقوق التي تمخضت عنها !

في اوائل سنة ١٩٢٨ رفعت الاحكام العرفية في سوريا ، وكذلك الرقابة على الصحف ، واطلق سراح المساجين السياسيين . واضطرت الحكومة الفرنسية الى الاستجابة الى طلب الوطنيين ، فعقدت جمعية تشريعية لوضع الدستور ؛ ولكنها بنفس الوقت بذرت بذور الشقاق بين الفئات الدينية المختلفة ، فانشأت دوائر خاصة بالمسلمين والكاثوليك الشرقيين والارثوذكس الشرقيين واليهود ، واجبروا كل ناخب ان يقترع في الدائرة التي يتبع لها كل حسب دينه وحدثت مشكلة طريفة وغريبة في نفس الوقت في دمشق . فزعيم الوطنيين مسيحي بروتستانتي ، ولذلك فلا يحق انتخابه في احدى الدوائر الخاصة مع العلم انه من اكثر الرجال شعبية في دمشق . ولما كان للمسلمين عشر مقاعد ، فقد عرضوا ان يتنازلوا عن واحد منها لاعطائه للبروتستانت ، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت ذلك .

ومع كل هذه العقبات ، فقد فاز الوطنيون باغلبية مقاعد الجمعية التشريعية ، ووضعوا دستوراً يتناسب مع دولة مستقلة حرة ، ينص على ان سوريا جمهورية

تستمد فيها السلطات من الشعب . ولم يكن في هذا الدستور اية اشارة للفرنسيين او انتدابهم فاحتج الفرنسيون وحاولوا ادخال نص على الدستور بهذا الخصوص ولكن الجمعية التشريعية رفضت ذلك بشدة . وبقي هذا الصراع بينهما عدة أشهر اقترح المندوب السامي الفرنسي في نهايتها ان يوافق على الدستور بشرط واحد هو ان لاتطبق اية مادة من مواد الدستور قد تتعارض مع التزامات فرنسا بموجب الانتداب ، ما دام هذا قائماً كان هذا الاقتراح غامضاً ، ولكنه بنفس الوقت اعتبر تنازلاً كبيراً من الفرنسيين . ولكن الجمعية التشريعية رفضته ايضاً وعندها اعلن الفرنسيون في مايو ۱۹۳۰ حل الجمعية ووضع دستور جديد يتضمن النص الذي اقترحوه .

وهكذا نجحت سوريا في الحصول على ما تريد ،دون ان تكون قد ساومت على حقوقها . وبقيت مسألتان : الاولى ، انهاء الانتداب ، وبانهائه يزول النص الجديد ، والثانية توحيد سوريا . وفيما عدا ذلك يعتبر الدستور تقدمياً ويصلح لدولة حرة مستقلة . لقد اثبت السوريون بسالة فائقة اثناء ثورتهم ، كما اثبتوا انهم أولو عزم وثبات اثناء المفاوضات بعد ان رفضوا ان يساوموا على حريتهم التامة اية مساومة .

ثم عرضت فرنسا في نوفمبر ۱۹۳۳ على مجلس النواب ابرام معاهدة معها . ومع ان كثيراً من النواب كانوا من المعتدلين ، الا انهم رفضوها ، وكان ذلك بسبب تمسك فرنسا بتقسيم سوريا الى خمس دويلات ، وبابقاء معسكراتها ومطاراتهـا وقواتها الحرة في الاراضي السورية .

ملاحظة (اكتوبر ۱۹۳۸)

كان انتصار النازية في تشيكوسلوفاكيا ، وازدياد سيطرة المانيا على أوروبا ومطالبتها بالمستعمرات عاملاً هاماً في تغيير توازن القوى في العالم . فاصبحت فرنسا في الدرجة الثانية بين الدول ، ولم تعد تتمكن من الاحتفاظ بامبراطورية مترامية الاطراف . وادت الصعوبات التي نشأت في فلسطين ، الى الاعتقاد بأن سوريا وفلسطين وشرقي الأردن ستتحد مع بعضها البعض في اتحاد فيدرالي .

فلسطين وشرقي الاردن

٢٩ مايو ١٩٣٣

●

تقع فلسطين الى الجنوب من سوريا وتحكمها بريطانيا المنتدبة عليها من قبل عصبة الامم . وهي بلد صغير لا يزيد عدد سكانه عن مليون نسمة، ولكنها مهمة جداً بالنظر لتاريخها وما تضمه من اماكن يقدسها كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين . ومعظم سكانها عرب مسلمون يطالبون بالحرية والاتحاد مع سوريا . ولكن السياسة الانجليزية خلقت من اليهود الأقلية مشكلة، وساند اليهود الانجليز في معارضة طلبات العرب خوفاً من ان يحكمهم هؤلاء وبدأ كل جانب يشد من جهة ، فلم يكن بدٌ من وقوع الصراع . يمتاز العرب بكثرة عددهم ، ويمتاز اليهود بمواردهم المالية الضخمة ، وتأييد المنظمات اليهودية العالمية . وكانت انجلترا تضرب اليهود بالعرب وتقول انه لا بد من وجودها هناك لحفظ السلام بينهما . انها نفس اللعبة التي نراها في سائر الاقطار التي ترزح تحت النير الاستعماري . اما الغريب فيها فهي انها تتكرر وتعاد دائماً

اليهود شعب عجيب . كانوا في السابق قبيلة صغيرة او عدة قبائل تسكن فلسطين ورد تاريخها في العهد القديم في التوراة . وكانوا وما زالوا يظنون انهم شعب الله المختار . ويظهر ان هذا الظن قد جنى عليهم كثيراً ، فغزاهم الغزاة واخضعوهم وأسروهم . ويضم الادب الانجليزي اجمل القصائد وأروعها التي تصف عذابهم كما ورد في التوراة . ولا بد انها في اصلها العبري اجمل منها في ترجمتها .

وأورد مثلاً على ذلك هذه الابيات من احد المزامير :

هناك ، على انهار بابل جلسنا ، وبكينا عندما تذكرناك يا صهيون .

وعلى اشجار الصفصاف علقنا اعوادنا . بعد ان طلب منا الذين سبونا ان نغني لهم اغنية من اغاني صهيون .

كيف نغني اغنية الربّ في ارض غريبة ؟

شلّت يميني ان نسيتك يا أورشليم .

ليلتصق لساني بحلقي ان لم اذكرك يا اورشليم ، وان لم افضّلك على اعظم افراحي .

واخيراً تفرق هؤلاء اليهود في مختلف انحاء العالم. فلم يكن لهم بيت او وطن ، واينما حلوا كانوا يعاملون معاملة الغرباء غير المرغوب فيهم. فاضطروا ان يسكنوا في اماكن خاصة في المدن منفصلة عن باقي الاحياء ؛ حتى لا يدنسوا بقية الناس. وكانوا في بعض الأحيان يجبرون على ارتداء ألبسة خاصة تميزهم عن غيرهم . لقد أذلوا وعذبوا وذبحوا ، حتى ان كلمة «يهودي» اصبحت مرادفة للبخل والربا. ومع ذلك فقد استطاع هذا الشعب العجيب ان يعيش ويحتفظ بكل مقوماته وينجح وينجب رجالاً يعتبرون من اعظم رجال العالم. فنرى منهم اليوم العلماء والسياسيين والأدباء ورجال الاعمال والمال . غير ان اغلبيتهم لا تعتبر غنية ، فنرى كثيراً منهم يتجمعون في مدن شرقي اوروبا ، ويتعرضون بين آن وآخر لمذبحة من المذابح . فهؤلاء الناس الذين يعيشون بلا بيت ولا وطن يحلمون دائماً في القدس التي تتراءى لهم احسن واعظم مما هي بالحقيقة. يسمون القدس «صهيون» او الارض الموعودة ، ومنها كلمة « الصهيونية » التي تعني نداء الماضي للعودة الى القدس .

اتخذت هذه الحركة الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر طابعاً استعمارياً ، وهاجر كثير من اليهود واستوطنوا فلسطين ، وبدأوا في احياء اللغة العبرية . وعندما غزت الجيوش البريطانية فلسطين في الحرب العالمية (الاولى) ودخلت القدس ، اعلنت الحكومة البريطانية وعد بلفور الذي قطعته في نوفمبر ١٩١٧ نص هذا الوعد على انشاء « وطن قومي يهودي » في فلسطين. وقصدت الحكومة

البريطانية بهذا الوعد كسب صداقة اليهود العالمية وخصوصاً من الناحية المادية . غير أن الجميع لم يلتفتوا الى مسألة هامة ، وهي ان فلسطين لم تكن بلاداً جرداء أو خالية من السكان ، بل كان يقطنها اصحابها العرب ولذلك كان هذا الكرم الانجليزي على حساب سكان فلسطين الذين احتجوا ضد هذا الوعد احتجاجاً صارخاً بما فيهم العرب وغير العرب ، المسلمون والمسيحيون ، وكل شخص آخر غير يهودي . وكانت المشكلة في الواقع مشكلة اقتصادية ، اذ شعر سكان فلسطين ان هؤلاء اليهود سينافسونهم في معيشتهم ، وانهم - بفضل ثرواتهم الضخمة - سيصبحون سادة البلاد . وباختصار خاف السكان من ان هؤلاء اليهود سينتزعون اللقمة من افواههم ، ويغتصبون الاراضي من اصحابها .

ويتلخص تاريخ فلسطين منذ ذلك الوقت في النزاع بين العرب واليهود . اما الحكومة البريطانية فهي في هذا الصف مرة ، وفي ذلك الصف مرة اخرى ، ولكنها اجمالاً كانت تساعد اليهود اكثر من العرب . وقد حكمت البلاد كمستعمرة دون تمثيل اهاليها . فطلب العرب ، المسلمون منهم والمسيحيون ، السماح لهم بتقرير مصيرهم ومنحهم الحرية التامة . وقد اعترضوا بشدة على الانتداب وعلى السماح للمهاجرين بدخول البلاد على اساس انها لا تتسع لهم . وكلما ازداد عدد المهاجرين كلما ازدادت مخاوف العرب . وقد اعلنوا ان « الصهيونية صِنْوٌ للاستعمار الانجليزي ، وان الزعماء الصهاينة المسؤولين قد نادوا دائماً بفائدة ايجاد وطن قومي يهودي قوي يعتمد عليه الانجليز لحماية طريقهم الى الهند وللوقوف في سبيل نمو القومية العربية . »

عقد العرب مؤتمراً وطنياً قرروا فيه عدم التعاون مع الحكومة البريطانية ومقاطعة الانتخابات لمجلس تشريعي كان الانجليز ينوون تشكيله . وقد نجحت هذه المقاطعة ولم يتشكل المجلس . واستمرت سياسة عدم التعاون هذه سنين عديدة ، ثم ضعفت الى حدٍّ ما ، وأخذت بعض الاحزاب تتعاون مع الانجليز تعاوناً جزئياً . ومع ذلك لم يستطع الانجليز تأليف المجلس التشريعي ، وبقي المندوب السامي يحكم حكماً مطلقاً .

اتحدت الاحزاب العربية المختلفة وعقدت مؤتمراً وطنياً في سنة ١٩٢٨ طالبت

فيه بانشاء حكومة برلمانية ديمقراطية ، لأن ذلك حق من حقوق اهل البلاد . ثم قرر المؤتمر « ان اهل فلسطين لا يمكنهم ابداً ان يتحملوا نظام الحكومة الاستعماري المستبد الحاضر » . ومن الجدير بالذكر ان العرب وسط موجة حماسهم ، اخذوا يهتمون بالمسائل الاقتصادية ، وهذا دليل على وعيهم لظروف القضية .

حدثت في اغسطس ١٩٢٩ اضطرابات بين العرب واليهود . وكان سببها الحقيقي المرارة التي يشعر بها العرب وتخوفهم من تزايد عدد اليهود وثرواتهم ، ومعارضة هؤلاء لمطالب العرب بالحرية. اما السبب المباشر فكان اختلافاً على حائط المبكى . وهذا الحائط هو القسم الباقي من هيكل هيرودس ملك اليهود، فيقدسه هؤلاء لانه يذكرهم بمجدهم الغابر. ثم بُني في ذلك المكان مسجد وعمل ذلك الحائط قسماً منه . ويذهب اليهود ويصلون بالقرب منه ويبكون عليه بصوت عالٍ ، اما المسلمون فقد اعترضوا على هذا العمل وخصوصاً انه كان يتم بالقرب من اشهر وأقدس مساجدهم .

بعد ان قمعت الاضطرابات، استمر الصراع بين الفريقين بأشكال مختلفة اخرى . ومن المدهش حقاً ان جميع المسيحيين كانوا يؤيدون المسلمين تأييداً تاماً، واشتركوا معهم في الاضرابات والمظاهرات وهذا دليل على ان المشكلة الحقيقية ليست دينية وانما هي صراع اقتصادي قائم بين قادمين ومقيمين . وقد انتقدت عصبة الامم الادارة البريطانية على فشلها في القيام بواجباتها التي انتدبت من اجلها وخصوصاً انها فشلت في منع حدوث الاضطرابات في سنة ١٩٢٩

وهكذا استمرت بريطانيا في معاملة فلسطين كأنها مستعمرة من مستعمراتها او أسوأ ، كما استمرت في ضرب العرب باليهود واليهود بالعرب. ان البلاد ملأى بالموظفين الانجليز الذين يشغلون كل المناصب العالية. وقد عمل الانجليز في فلسطين كما عملوا في كل مكان يستعمرونه ، فلم يولوا التعليم اهمية تذكر مع ان العرب كانوا توّاقين لنشره . اما اليهود فقد انشأوا ، بفضل مواردهم المالية الضخمة ، المدارس الجميلة والكليات . ويبلغ عدد السكان اليهود رُبع السكان العرب ،

ولكن نفوذهم الاقتصادي ، اكبر بكثير من نفوذ العرب . ويظهر انهم يأملون ان يسيطروا في يوم من الايام على البلاد . وقد حاول العرب التعاون معهم في سبيل الكفاح من اجل الحرية وتأليف حكومة ديمقراطية ، ولكنهم رفضوا ذلك ، وفضلوا ان يتعاونوا مع الدولة الحاكمة الاجنبية ، وبذلك عرقلوا مسعى اغلبية الشعب في الحصول على الحرية . فليس من المستغرب ابـــداً ان يقاوم العرب ، مسلموهم ومسيحيوهم ، اليهود .

شرقي الاردن

●

تقع شرقي الاردن الى الشرق من فلسطين ، وهي دولة صغيرة خلقتها بريطانيا بعد الحرب . انها بلاد صغيرة تحدها الصحراء وتقع بين سوريا والجزيرة العربية ، ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠،٠٠٠ نسمة ، اي ان سكانها لا يزيدون عن سكان مدينة متوسطة ، وكانت بريطانيا تستطيع بسهولة ضمها إلى فلسطين ، ولكن السياسة الاستعمارية تفضل دائماً التفريق على التوحيد . وتلعب هذه الدولة دوراً هاماً في حلقة المواصلات البرية والجوية إلى الهند ، كما انها تشكل حاجزاً يفصل الصحراء عن الاراضي الخصبة القريبة من البحر .

ومع ان هذه الدولة صغيرة ، إلاّ ان احداثها تشبه الاحداث في البـــلاد الاخرى الكبيرة والمجاورة . فالشعب فيها يطالب ببرلمان ديمقراطي ، ولكن المسؤولين لا يوافقون ويزيدون على ذلك بفرض الرقابة على الصحف ونفي الزعماء وتفريق المظاهرات . وقد عرف الانجليز من يعينون لحكم هذه البلاد ، فعينوا الامير عبدالله ابن الملك حسين واخ فيصل ، حاكماً على شرقي الاردن ، وكان طوع بنانهم ! وقـــد افاد الانجليز في انه كان يتلقى عنهم كل اللوم ، فازدادت كراهية الشعب له . والحقيقة ان شرقي الاردن في ظل عبدالله تشبه الامارات الهندية الصغيرة عندنا .

تعتبر شرقي الاردن دولة مستقلة نظرياً ، ولكنها ترتبط مع الانجليز بمعاهدة وقعها عبدالله في سنة ١٩٢٨ وأعطى فيها كافـــة الامتيازات العسكرية وغيرها لبريطانيا واصبحت شرقي الاردن في الحقيقة قسماً من الإمبراطورية البريطانية. وهذا مثل جديد ، ولو على مقياس صغير ، على طراز الاستقلال الذي ينشأ في ظل الانجليز . وقد عارض الاهالي ، سواء منهم المسلمون أو المسيحيون هذه المعاهدة ولم يُرضهم ما يجري في البلاد . إلا ان هذه المعارضـــة قد اخضعت ، كما اغلقت الصحف جميعها حتى المؤيدة للحكومة. عندئذٍ اشتدت المعارضة ، واجتمع مؤتمر وطني أقرّ ميثاقاً وطنياً شجب فيه المعاهدة . ولما بدأت الحكومة في تحضـــير جداول الانتخابات قاطعتها اغلبية الشعب . ومع كل هـذا فقد استطاع عبدالله بمساعدة الانجليز جمع بعض الانصار واقناعهم بالمصادقة على المعاهدة

وقامت في شرقي الاردن مظاهرات كبيرة في سنة ١٩٢٩ احتجاجاً على الانجليز ووعد بلفور .

اتحدث اليك عما يحـــدث في اقطار مختلفة ، ويظهر ان ما يحدث في قطر من الاقطار يحدث في غيره . وانني احدثك كل هـــذه الاحاديث لأبين لك اننا عندما نناضل ضد الاستعمار ، لا نناضل لوحدنا ، كما ان مشكلتنا ليست مشكلة فريدة في نوعها ؛ فالقومية الصاعـدة في الشرق تستعمل نفس الاساليب في صعودها ، كما ان الاستعمار يستعمل نفس الاساليب في مقاومتها ، ومع ان القومية تزداد نمواً فإن اساليب الاستعمار لا تتغير كثيراً . فالاستعمار يحاول هذه الايام ان يهدّىء الناس ويعطيهم بعض المطالب الشكليّة . وبنفس الوقت الذي يزداد فيه الصراع مع الاستعمار في مختلف البلاد ، ينمو صراع آخر بين مختلف الطبقات في البلد الواحد يأخذ الاقطاعيون والمستغلون فيه جانب الدول الاستعمارية.

ملاحظة (اكتوبر ١٩٣٨) :

تطور النزاع المثلث في فلسطين بين القومية العربية من جهة وبين الصهيونية اليهودية والاستعمار البريطاني من جهة اخرى ، وازداد تحرجاً . وقـــد اضطر انتصار النازية في المانيا اعداداً كبيرة من اليهود للمهاجرة من وسط اوروبا والذهاب

إلى فلسطين ، مما زاد في مخاوف العرب من ان المهاجرين اليهود سيغرقون البلاد ويسيطرون عليها . فهب العرب يدافعون عن انفسهم ، ولجأوا للأعمال الارهابية ، وردّ عليهم الصهاينة باعمال مماثلة .

واعلن العرب الفلسطينيون في ابريل ١٩٣٦ اضراباً عاماً استمر حوالي ستة اشهر برغم كل المحاولات التي بذلتها السلطات البريطانية لإيقافه باستعمال القوات العسكرية . وانشأت لهذا الغرض معتقلات واسعة تشبه المعتقلات النازية . ولما فشلت الحكومة في ذلك عينت لجنة ملكية للتحقيق ، وأوصت هذه اللجنة انه ثبت فشل الانتداب على فلسطين ، وانه يجب انهاؤه ، وان تقسم البلاد إلى ثلاثة اقسام : قسم كبير تحت سيطرة العرب ، وقسم صغير بالقرب من البحر تحت سيطرة اليهود ، وقسم ثالث يشمل القدس تحت سيطرة الانجليز المباشرة . وقد عارض هذا التقسيم كل السكان ، عرباً ويهوداً ، ولكن بعض اليهود كانوا على استعداد لقبوله . اما العرب فقد رفضوه رفضاً باتاً وزادوا من اعمال المقاومة . وفي خلال الاشهر القليلة الماضية اتخذت هذه المقاومة طابعاً وطنياً عاماً قوياً ضد الانجليز ، واستطاع الوطنيون فعلاً الاستيلاء على اقسام من البلاد وادارتها . فعمدت الحكومة البريطانية لارسال جيوش جديدة للاستيلاء على هذه الاقسام فتطور النزاع وعمّت الاضطرابات.

ومما يؤسف له ان العرب قاموا بأعمال ارهابية كثيرة ، وكذلك اليهود ولكن على نطاق محدود. أما البريطانيون فإنهم نفذوا سياسة التخريب والتقتيل ، قاصدين من ذلك سحق الكفاح الوطني . واستعملوا اساليب اشد عنفاً وهمجية من الاساليب التي استعملوها لاخضاع الثورة الايرلندية ، واحاطوا اعمالهم بسياج من الرقابة على الانباء والصحف حتى لا تصل إلى اسماع العالم الخارجي . ومع ذلك فالأنباء التي تصلنا ، على قلتها ، تكفي للحكم على ما يجري هناك . لقد قرأت منذ مدة قصيرة ان القوات العسكرية البريطانية القت القبض على بعض «المشبوهين» وحبستهم كل ٥٠ — ٤٠٠ منهم في سياج حديدي ، واضطرت اهاليهم لإطعامهم ، وعاملتهم تماماً كأنهم حيوانات في اقفاص .

وفي هذه الاثناء اشتعل الوطن العربي والشرق مسلمين وغير مسلمين، غيظاً على هذه الاعمال الوحشية التي يُلجأ اليها للقضاء على شعب يكافح من اجل حريته واستقلاله . صحيح ان العرب ارتكبوا بعض الاعمال الارهابية ، ولكن يجب ان لا يغرب عن بالنا انهم كانوا يحاربون قوى الاستعمار الغاشم في سبيل حريتهم .

انها لمأساة ان يتنازع شعبان مضطهدان - العرب واليهود . يجب ان يعطف كل واحد على اليهود لما لاقوه من اهوال في اوروبا ، ولأن عدداً كبيراً منهم أصبح بلا مأوى ، ولا ترحب بهم أية بلاد في الدنيا . ويمكننا فهم وجهة نظرهم القائلة بأن فلسطين تجذبهم اليها ، وان المهاجرين اليهود قد حسّنوا البلاد وادخلوا الصناعات ورفعوا مستوى المعيشة . ولكننا يجب ان نذكر بنفس الوقت ان فلسطين هي قطر عربي ويجب ان تبقى كذلك ، ويجب ان لا يقضى على العرب فيها . ويمكن للشعبين التعاون مع بعضهما في سبيل بناء دولة تقدمية دون ان يضرّ احدهما بمصالح الآخر .

ولسوء الحظ تقع فلسطين على الطرق البحرية والجوية المؤدية الى الهند والشرق ، ولذلك فهي هامة من وجهة نظر الاستعمار . وقد استغل البريطانيون كلّا من العرب واليهود في سبيل الاحتفاظ بمصالحهم وتنفيذ مآربهم . اننا لا نستطيع ان نتكهن بالمستقبل ، كما يظهر ان خطة التقسيم القديمة لن تنجح . وعلى الاغلب تتحد الاقطار العربية المجاورة مع فلسطين وتمنح اليهود وضعاً خاصاً داخل بلادها . ولكنه من المؤكد ان القومية العربية في فلسطين لا يمكن القضاء عليها، كما لا يمكن بناء البلاد إلاّ على اساس متين من التعاون بين العرب واليهود وطرد الاستعمار نهائياً منها

الجزيرة العربية — قفزة من الماضي

٣ يونيو ١٩٣٣

●

كتبت لك عن بعض الاقطار العربية ، ولكني لم اتحدث اليك حتى الآن عن الجزيرة العربية ، منبع اللغة العربية والثقافة العربية وموطن نشوء الاسلام ومع ان الجزيرة العربية كانت منبع المدنية العربية ، إلا انها بقيت متأخرة تعيش بعقلية القرون الوسطى ، وسبقتها الى التمدن جاراتها العربيات مثل مصر وسوريا وفلسطين والعراق . والجزيرة العربية بلاد واسعة تقرب مساحتها من ثلثي مساحة الهند ، ولكن سكانها لا يزيدون عن ٤ أو ٥ ملايين نسمة وواضح من هذا ان كثافة السكان فيها قليلة جداً ، ومعظم مساحتها صحراء ، ولهذا السبب سلمت من غزوات الطامعين ، وبقيت في معزل عن العالم. ولا يوجد فيها سكك حديدية ولا تليفونات او تلغرافات . وكان سكانها يتألفون من بدو رحل يتنقلون على ظهور جمالهم التي سميت « سفن الصحراء » وعلى صهوات خيولهم العربية التي ذاع صيتها في كل العالم . كانو يعيشون حياة قبلية لم تتغير كثيراً خلال الالف سنة الماضية . ولكن الحرب العالمية غيرت هذه البلاد كما غيرت اشياء اخرى كثيرة .

اذا نظرت الى الخارطة وجدت ان الجزيرة العربية تقع بين البحر الاحمر والخليج العربي ، ويحدها جنوباً البحر العربي وشمالاً فلسطين وشرقي الاردن والصحراء السورية ، والى الشمال الشرقي حوض الرافدين الخصيب . اما الحجاز

مهد الاسلام فيقع على الساحل الغربي ، وفيه المدينتان المقدستان مكة والمدينة وكذلك ميناء جدة حيث ينزل آلاف الحجاج كل سنة في طريقهم الى مكة . وتقع نجد في وسط الجزيرة الى الغرب من الخليج العربي . والحجاز ونجد همـــا اهم قسمين من اقسام الجزيرة العربية . وتقع اليمن الى الجنوب الغربي وتسمى اليمن السعيدة لخصبها وجمالها بالنسبة لبقيـة البلاد الصحراوية القاحلة ، وهي غاصة بالسكان . وكذلك تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة مدينة عدن المحمية البريطانية والميناء الذي تقصده السفن في ذهابها وايابها بين الشرق والغرب.

كانت الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية (الاولى) خاضعة للحكم التركي ، ولكن ظهر ابن سعود في نجد واخذ يوطد اركان حكمه ويوسع مملكته شرقاً في اتجـاه الخليج العربي . وكان ابن سعود رئيساً لمذهب اسلامي يسمى المذهب الوهابي الذي كان قد انشأه في القرن الثامن عشر محمد بن عبد الوهاب . وكان هذا المذهب يرمي الى اصلاح الأسلام ، وهو في هذه الناحية يشبه الى حد كبير الحركة البيوريتانية بالنسبة للديانة المسيحية . وكان الوهابيون يعارضون في بعض الطقوس مثـل تقديس القبور وآثار الاولياء التي تقوم بهـــا جماهير المسلمين ، ويرمون هذه الاشياء بالوثنية ، تماماً كما عمل البيوريتانيون عندما عارضوا الروم الكاثوليك في تقديسهم للأولياء والتماثيل . ولذلـك كان الوهابيون يختلفون عن بقية المسلمين في نظرتهم الدينية ، يضاف الى ذلـك ما كانوا عليه من اختلافات بسبب المنافسات السياسية.

اصبحت الجزيرة العربية خـلال الحرب العالمية مركزاً لمؤامرات الانكليز ، صرفوا فيها الاموال بسخاء بالـغ لرشوة رؤساء القبائل العربية ، وقطعوا لهم مختلف انواع الوعود وشجعوهم على الثورة ضـد تركيا . وكان يصدف مثلاً ان يكون رئيسا قبيلتين متنافستين يتقاتلان مع بعضهما ولكنهما يأخذان معـــاً الرشوات من الانجليز ، ثم نجح الانجليز في اقناع الشريف حسين ، شريف مكة ، بإعلان الثورة . وكان هـذا مهماً لأن حسيناً من نسل النبي محمد ، ويحترمـــه المسلمون على هذا الاساس . وقـــد وعده الانجليز ان ينصبوه ملكاً على البلاد

العربية الموحدة .

اثبت ابن سعود انه اذكى من الحسين ، اذ استطاع ان يقنع الانجليز بالاعتراف باستقلاله وبنفس الوقت حصل منهم على مساعدة شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه على ان يبقى على الحياد؛ وهكذا أخذ يقوي مركزه بواسطة الذهب الانجليزي بينما كان غيره مشغولاً في عراك مستمر . أما الحسين فقد اخذت سمعته تسوء في الاقطار الاسلامية بما فيها الهند لأنه اعلن الثورة ضد سلطان تركيا الذي كان خليفة المسلمين . وانتهز ابن سعود هذه الفرصة واخذ يظهر للعالم انه هو رجل الاسلام .

وفي الجنوب تقع بلاد اليمن ، ويحكمها « الامام » وقد بقي مخلصاً لتركيا طوال الحرب العالمية ، ولو ان مواصلاته قطعت عنها . وبعد انهزام تركيا ، اعلن استقلاله ، وما زالت اليمن مستقلة حتى الآن .

عندما انتهت الحرب ، كان الانجليز هم المسيطرين على الجزيرة العربية ، فأرادوا ان يستعملوا كلًا من الحسين وابن سعود لأغراضهم الخاصة . ولكن ابن سعود كان له من الذكاء ما جعله يتخلص من استغلالهم له ، اما عائلة الحسين فقد انتعشت بفضل الانجليز ، فالحسين اصبح ملكاً على الحجاز ، وابنه فيصل ملكاً على سوريا وعبد الله اميراً على شرقي الاردن. غير ان هذا الانتعاش لم يعمر طويلًا ففيصل طرده الفرنسيون من سوريا ، وعرش الحسين تلاشى امام ابن سعود. ولما اصبح فيصل عاطلًا عن العمل ، اخذه الانجليز للعراق واعطوه عرشها واصبح حاكماً عليها .

وخلال الفترة القصيرة التي اصبح فيها الحسين ملكاً على الحجاز ، اعلن البرلمان التركي في انقره الغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ ، فانتهز الحسين الفرصة واعلن نفسه خليفة للمسلمين ، ولكن ابن سعود اثار القومية العربية والنخوة الاسلامية ضد الحسين وظهر بمظهر بطل الاسلام الذي يعارض اطماع ملك مغتصب ، واستطاع بفضل دعاية واسعة ان يكسب عطف المسلمين في الاقطار الاخرى ، فبعثت له لجنة الخلافة في الهند تحياتها وتمنياتها . ولما رأى الانجليز ان الرياح لا تهب حسبما تشتهي سفنهم ، وانهم بتأييدهم للحسين انما يراهنون على الحصان الخاسر ، سحبوا تأييدهم

له بهدوء ، فاوقفوا مساعداتهم المالية له واصبح بذلك ، بعد ان منّوه بالوعود المعسولة ، لا صديق له ولا سند ، امام عدو قوي زاحف الى الأمام .

وبعد اشهر قليلة ، وعلى وجه التحديد في اكتوبر ١٩٢٤ ، دخل الوهابيون مكة ، وهدموا بعض القبور فيها عملاً بتعاليم مذهبهم ، فأثاروا بهذا العمل مشاعر كثير من المسلمين في الاقطار الاخرى . وفي السنة التالية احتل ابن سعود جدة والمدينة ، واضطر الحسين وعائلته إلى الخروج من الحجاز . وفي اوائل سنة ١٩٢٦ أعلن ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز ؛ ولكي يقوي مركزه الجديد ويكسب عطف بقية المسلمين ، دعا لعقد مؤتمر اسلامي عالمي في يونيو ١٩٢٦ ، حضره ممثلون عن المسلمين في كل مكان . ويظهر انه لم يكن يرغب في الخلافة ، وعلى كل حال فإنه كان من المحتمل ان يجد من يعارضه في هذا الشأن بسبب مذهبه الوهابي . وكان الملك فؤاد في مصر يطمع ايضاً في الخلافة مع ان شعب مصر نفسه لم يردها له لما عُرف عنه من الطغيان والتآمر على مصالح الشعب . أما الحسين فقد تنازل عن الخلافة بعد هزيمته .

لم يتخذ المؤتمر الاسلامي اية قرارات هامة ، وقد يكون عدم اتخاذه لقرارات هامة غايةً مقصودة ، لأن غرض ابن سعود كان تقوية مركزه وخصوصاً أمام الدول الاجنبية . وقد رجع ممثلو لجنة الخلافة الهندية ومن جملتهم على ما أظن مولانا محمد علي ، آسفين على خيبة أملهم غاضبين على ابن سعود . ولكن هذا الغضب لم يؤثر عليه في كثير او قليل لأن ما أراده من لجنة الخلافة الهندية قد تحقق له ، واصبح الآن قادراً على ان يعمل ما يريد دون مساعدتها .

أصبح ابن سعود الحاكم المطلق لكامل الجزيرة العربية تقريباً باستثناء اليمن التي بقيت دولة مستقلة تحت حكم الامام . وفيما عدا هذه الزاوية فقد صار ابن سعود سيد الجزيرة العربية واتخذ له لقب ملك الحجاز ونجد . واعترفت الدول الاجنبية باستقلاله . وبنفس الوقت لم يسمح للاجانب بأية امتيازات خاصة كالتي في مصر ، كما لم يسمح لهم ابداً بادخال اي نوع من انواع الخمور .

بعد أن نجح ابن سعود كجندي وكمحارب ، كرس كل جهوده لبناء بلاده

على اسس عصرية حديثة لقد أراد القفز بها من حياتها القبلية الى حيـــاة العصر الحديث.ويظهر ان ابن سعود قد نجح الى حد كبير في هذا المضمار واثبت بذلك انه رجل سياسي قدير بعيد النظر .

كان اول عمل ناجح قام به هو اقرار الأمن داخل البلاد، فأصبحت، في وقت قصير ، قوافل الحجاج تسير بطمأنينة كبيرة . و كان هذا انتصاراً عظيماً سُر له الناس كثيراً لأن الحجاج كانوا في السابق معرضين للنهب والسلب اثناء اسفارهم .

أما ثاني نجاح احرزه ــ وقد يكون اعظم من الاول ــ فهو توطين البـدو الرحل . وقد بدأ في هذا العمل قبل فتح الحجـــاز ، وبذلك أرسى اسس دولة حديثة . ولم يكن هذا العمل سهلاً بالمرة مـــع بدو عاشوا حياتهم يحبون التنقل والحرية ، ومع ذلك فقد نجح ابن سعود في ذلك . وعلاوة على هذا اصلح الجهاز الاداري وادخل الطائرات والسيارات والتلفونات وغيرهـا من مظاهر الحضارة الحديثة . ان الحجاز يتقدم ببطء ولكن بخطوات ثابتة راسخة ، لأن من اصعب الامور القفز بالشعب من القرون الوسطى الى العصر الحاضر ، اذ يحتاج ذلك الى تغيير عقلية الناس وافكارهم . وقد لاقى هذا التقدم وهذه الآلات الحديثة التي ادخلها ابن سعود معارضة بعض الناس بحجة انها من صنع الشيطان ،فاحتجوا عليها وبلغت احتجاجاتهم قمتها عندما ثاروا في سنة ١٩٢٩ ولكن ابن سعود تغلب عليهم بعد ان تمكن من استمالة بعضهم بالحسنى والبعض الآخر بالسيف .

واجه ابن سعود مشكلة صعبة اخرى ، وهي نفسها التي واجهت العـالم كله عندما وقعت الازمة الاقتصادية سنة ١٩٣٠.وقد تأثرت الاقطار العربية الصناعية اكثر من غيرها ، وما زالت تعاني منها . اما الجزيرة العربية فليست لها علاقات تجارية واسعة حتى تتأثر بالازمة الاقتصادية ، ومع ذلك فقد تأثرت بها بصورة غير مباشرة ، اذ ان اكبر مورد لابن سعود كان يأتي من الحجاج الى مكة وكان يبلغ عددهم حوالي ١٠٠٠٠٠ سنوياً يفدون من الاقطار الاخرى . امـــا في سنة ١٩٣٠ فقد هبط العدد الى ٤٠٠٠٠ وما زال الهبوط مستمراً . وقد سبب هذا قلب الحـالة الاقتصادية رأساً على عقب ، فكثر الفقر وانتشرت التعاسة ،

وتعرقلت جهـــود ابن سعود ومشاريعه الاصلاحية . ولكنه كان بنفس الوقت يرفض منح الاجانب اية امتيازات لاستغلال موارد البـــلاد خوفاً من ازدياد نفوذهم ، مما قد يؤدي الى تدخلهم في شؤونه الداخلية .ولمخاوفه هذه ما يبررها ، اذ انمعظم الشرور التي تعاني منها المستعمرات كانت بسبب الاستغلال الخارجي ، فكان ابن سعود يفضّل فقراً مع حرية ، على غنىً بدون حرية

ولما ساءت الحالة الاقتصادية في البلاد اضطر ابن سعود لتعديل سياسته قليلاً، وبدأ باعطاء بعض الامتيازات للاجانب ، ولكنه بنفس الوقت احتـــاط للامر ووضع الشروط الكفيلة بحفظ استقلاله . وحتى الآن لم يعـطِ اية امتيازات إلا للمسلمين ، فأعطى لشركة هندية مسلمة امتياز سكة حديدية بين جدة ومكة . وسكة الحديد شيء رائع في الجزيرة العربية وتعتبر عملاً انقلابياً ، وهي بالاضافة الى فائدتها كوسيلة لنقل الحجاج ، تعطي العرب طابع التحضّر

وقد حدثتك في رسالة سابقة عن سكة الحديد الوحيدة الموجودة في الجزيرة وهي سكة حديد الحجاز التي تربط المدينة مع سكة حديد بغداد في حلب .

قلت لك في مطلع هذه الرسالة ان الجزء الجنوبي يدعى اليمن السعيدة . وفي الحقيقة ينطبق هذا الاسم على مساحة كبيرة من جنوبي الجزيرة تمتد حتى الخليج العربي . ولكن الاسم لا ينطبق على المسمى ، لان الصحراء في هـذه النواحي موحشة مقفرة . وقد لا تكون هذه الاجزاء معروفة في الماضي ، ولهذا اطلق عليها هذا الاسم الخاطىء ، وكانت لوقت قريب جداً غير معروفة ، وتعتبر من الاماكن القليلة في العالم التي لم تُمسح او ترسم على الخرائط .

العراق وحسنات الغارات الجوية

٧ يونيو ١٩٣٣

●

بقيت دولة عربية واحدة لم أتحدث لك عنها بعد ، انها العراق، البلاد الخصبة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، والتي عاصمتها بغداد ، بلد هارون الرشيد وقصص الف ليلة وليلة ، والتي تقع بين ايران والصحراء العربية. وفي الجنوب يقع ميناؤها الرئيسي البصرة على الخليج العربي ، وفي الشمال تلاصق تركيا . وتلتقي العراق مع تركيا في كردستان المنطقة التي يقطنها الاكراد . ومعظم هؤلاء يعيشون في تركيا ، وتذكرين انني تحدثت لك سابقاً عن كفاحهم ضد الاتراك في سبيل حريتهم . ويوجد قسم من هؤلاء الاكراد ايضاً في العراق ، ويؤلفون اقلية هامة . وكانت الموصل الواقعة في الطرف الشمالي من منطقة كردستان في العراق موضع تنازع بين تركيا وانجلترا ، وهي الآن تحت سيطرة الانجليز . وبالقرب من الموصل توجد آثار مدينة نينوى عاصمة الآشوريين .

وكانت العراق احدى البلاد التي انتدبت عليها بريطانيا من قبل عصبة الامم. والانتداب في عُرف العصبة معناه « امانة مقدسة » في عنق المنتدب لتمدين وترقية المنتدب عليه بالنيابة عن عصبة الامم. وأصل الفكرة ان سكان هذه البلاد المنتدب عليها لم يصلوا بعد الى درجة من الرقي تمكنهم من ادارة شؤونهم ، ولذلك اقترح ان تساعدهم الدول الكبرى في هذا السبيل . ويشبه هذا الى حد كبير تأمين نمر مفترس على حراسة بعض الغزلان والابقار . وكان المفروض في الانتداب ان

تكفل به الدول الكبرى على اساس الطلبات التي تتقدم بها الشعوب وكانت البلاد التي تحررت من سيطرة تركيا في غربي آسيا من نصيب بريطانيا وفرنسا وقد اعلنت هاتان الحكومتان ، كما اخبرتك سابقاً ، ان غاية ما تهدفان اليه هو «تحرير الشعوب تحريراً تاماً وانشاء حكومات وادارات وطنية تستمد سلطاتها من ارادة هذه الشعوب» . اما تنفيذ هذا الهدف النبيل فقد رأيناه في السنوات الاخيرة في كل من سوريا وفلسطين وشرقي الاردن على شكل اضطرابات وعدم تعاون ومقاطعة . وكانت الدولتان المنتدبتان تشجعان «ارادة هذه الشعوب» باطلاق النار عليها ونفي زعمائها وتعطيل صحفها وهدم مدنها وقراها واعلان الاحكام العرفية فيها . والواقع انه لا يوجد شيء جديد في هذه الأعمال ، فالدول الاستعمارية قد لجأت لأساليب العنف والتخريب والارهاب منذ ان وجد الاستعمار. ولكن الجديد فيه محاولات الاستعمار اخفاء ارهابه واستغلاله بستار من الكلمات المنمقة مثل «وصاية» و«خير الشعب» و«تدريب الشعوب المتخلفة على حكم نفسها» وما اشبه. انهم يطلقون النار ويقتلون ويخربون من اجل خير الشعب! قد يكون هذا النفاق علامة من علامات التمدّن لأن النفاق اساس من اسس الفضيلة ! فالمنافق لا يحب اظهار الحقيقة وانما يحاول طمسها بعبارات كاذبة . ومهما يكن من شيء فان النفاق الذي يظهر بمظهر الورع والتقوى اسوأ بكثير من الحقيقة مهما كانت مرّة .

لننظر الآن الى رغبات السكان في العراق وكيف سارت هـذه البلاد في طريق الحرية في ظل الانتداب البريطاني !.. اتخذ الانجليز من العراق خلال الحرب العالمية قاعدة حربية في قتالهم مع الاتراك ، فملأوها بالجنود الانجليز والهنود وقد منوا بهزيمة واحدة منكرة في ابريل ١٩١٦ عندمـا اضطر الجنرال الانجليزي تاونشند الى التسليم الى الأتراك في كوت العمارة. ولقد كانت العمليات العسكرية في العراق مثالاً في سوء الادارة والتبذير ، ولما كانت الحملة تحت اشراف الحكومة الهندية ، فقد واجهت هذه انتقادات عنيفة . وعلى كل استطاع الانجليز بالنهاية ، بفضل مواردهم ومعداتهم الضخمة ، ان يهزموا الاتراك ، فاحتلوا بغداد ووصلوا تقريباً الى الموصل . وما ان انتهت الحرب حتى كانت العراق بأكملها تحت سيطرة

الانجليز العسكرية .

عندما أعلن انتداب بريطانيا على العراق ، حدث رد فعل شديـــد هناك في اوائل سنة ١٩٢٠ ، فاحتج الاهالي بشدة ، وتطور الاحتجاج إلى اضطراب ، وتطور الاضطراب إلى ثورة ، سرعان ما انتشر لهيبها حتى عم البلاد بأسرها ومن الغريب ان النصف الأول من عام ١٩٢٠ شهد اضطرابات مماثلة - وبنفس الوقت تقريباً - في كل من تركيا ومصر وسوريا وفلسطين وايران .حتى في الهند كان السكان يستعدون لإشهار سلاح المقاطعة واخيراً استطاع الانجليز، بمعونة الجنود الهنود ، القضاء على ثورة العراق وسحقها .وكان من عادة الاستعمار الانجليزي ان يكلف الجنود الهنود بتحمل الاعباء القذرة ، ولهذا فقد نقم اهـــالي الشرق الاوسط وغيرهم على الهند بسبب ما عمله جنودها بأمر من الانجليز .

استطاع الانجليز القضاء على الثورة بوسيلتين الاولى القوة ، والثانية الوعد باعطاء الاستقلال . فأنشأوا حكومة موقتة تضم وزراء عرباً ، ولكنهم عينوا لكل وزير مستشاراً بريطانيـاً هو الذي يملك السلطة الحقيقيـة . ولكن هؤلاء الوزراء الذين عينوهم والذين كانوا واثقين منهم ومن خضوعهم تمردوا عليهم ولم يقبلوا ان ينفذوا الأوامر التي يصدرها اليهم الانجليز . فقام الانجليز في ابريل ١٩٢١ والقوا القبض على الوزراء ونفوا زعيمهم السيد طالب ، أقدر الوزراء اطلاقاً ، وبهذا يكونون قد خطوا خطوة اخرى في سبيل اعطاء البلاد استقلالها ! ثم احضروا فيصلاً ابن الحسين في صيف ١٩٢١ ونصبوه ملكاً على العراق . وتذكرين ان فيصلاً كان في ذلك الوقت عاطلاً عن العمل لكونه لم يستطع الاحتفاظ بعرشه في سوريا بسبب عـــدوان الفرنسيين ، وكان صديقاً وفياً للانجليز واشترك بالثورة العربية ضد تركيا في الحرب العالمية ولذلك اعتقـــد الانجليز انه سيكون لهم أطوع من الوزراء السابق ذكرهم وقد قبل الوجهاء والطبقة الوسطى الفنية والشخصيات البارزة بفيصل ملكاً على البلاد بشرط ان تؤلف حكومة دستورية وبرلمان ديمقراطي . والواقع ان احداً لم يعر شرطهم هذا اي انتباه ، فما ارادوه كان برلماناً حقيقياً ، ولكن لما تأكدوا بأن فيصلاً سيعين

ملكاً عليهم سواءً رضوا ام لم يرضوا ، فقد اشترطوا هذا الشرط .. ولم يستشر الشعب في المسألة ، واصبح فيصل ملكاً في اغسطس ١٩٢١

ولكن هذا لم يحل المشكلة ؛ فالشعب العراقي كان يعارض بشدة الانتداب البريطاني ، ولا يريد سوى استقلاله التام ووحدته مع الاقطار العربية الاخرى. فقامت المظاهرات وهاج الناس وتأزمت الأمور إلى حد كبير في اغسطس ١٩٢٢ . عندها قررت السلطات البريطانية تعليم العراقيين درساً آخر في الاستقلال. فعطّل المندوب السامي الانجليزي السير برسي كوكس جميع سلطات الملك (وكان في ذلك الوقت مريضاً) وسلطات الوزارة والمجلس المعيّن ، وتسلم بنفسه زمام الحكومة ، واصبح بذلك دكتاتوراً مطلقا ، واستطاع ان يفرض ارادته ويخضع الاضطرابات بمساعدة القوات الانجليزية وخصوصاً سلاح الطيران . ثم كرر القصة نفسها التي تحدث في كل مكان بتغيير طفيف – في الهند ومصر وسوريا .. الخ – فعطل الصحف الوطنية وحل الاحزاب ونفى الزعماء واستطاعت الطائرات البريطانية ان تثبت بقنابلها قوة الامبراطورية البريطانية وعظمتها .

ومع كل هذا لم تحل المشكلة ، فبعد شهور قليلة سمح السير برسي كوكس للملك ووزرائه بمزاولة أعمالهم بصورة شكلية واجبرهم على امضاء معاهدة مع بريطانيا وفي هذه المعاهدة وُعدت العراق مرة اخرى بالاستقلال وبإدخالها في عصبة الامم. ووراء كل هذه الوعود كانت تكمن الحقيقة الرهيبة وهي ان حكومة العراق بموجب المعاهدة تتعهد بادارة البلاد بمساعدة موظفين انجليز او آخرين توافق عليهم بريطانيا . ابرمت هذه المعاهدة في اكتوبر ١٩٢٢ دون موافقة الشعب ، الذي بقي على اعتقاده بأن الحكومة ألعوبة في يد الانجليز وان السلطة الحقيقية في ايديهم. ثم قرر الشعب مقاطعة الانتخابات التي كان مزمعاً اجراؤها لتشكيل جمعية تأسيسية تضع الدستور ، ونجحت المقاطعة ، ولم تجر الانتخابات ولم تجتمع الجمعية التأسيسية ، وتلت ذلك اضطرابات وامتنع الناس عن دفع الضرائب .

استمرت هذه الاضطرابات حتى اواخر سنة ١٩٢٣ حين وافق الانجليز على تعديل المعاهدة قليلاً ، وبعد ان نفوا زعماء البلاد . فخففت حدة التوتر واجريت

الانتخابات للجمعية التأسيسية في اوائل سنة ١٩٢٤. ولما اجتمعت الجمعية عارضت بشدة المعاهدة البريطانية، فاستعملت بريطانيا كل انواع الضغط على اعضائها لتصديقها، فلم يوافق عليها إلا ثلثهم او أكثر قليلاً، وكان معظمهم غائباً عن الجلسة.

وضعت الجمعية التأسيسية دستوراً جديداً للعراق، وكان هـذا الدستور – حسبما هو موجود على الورق – لا بأس به، إذ نصّ على ان العراق دولة حرة مستقلة، ملكية دستورية وراثية وشكل الحكومة فيها برلماني. ولكن مجلس الشيوخ، وهو احد مجلسي البرلمان، كان يجري تعيين اعضائه من قبل الملك. وهكذا اصبح للملك سلطات واسعة، ويسند الملك الموظفون الانجليز الذين يشغلون المناصب الهامة. وبدأ تنفيذ هذا الدستور في مارس ١٩٢٥ واجتمع البرلمان ومارس صلاحياته لعدة سنوات، إلا ان معارضة الانتداب والاحتجاج عليه بقيا مستمرين.

ومن اهم المسائل التي استرعت الانتباه في هذه الايام نشوب النزاع بين انجلترا وتركيا حول الموصل. وكانت العراق طرفاً في هذا النزاع الذي انتهى اخيراً في يونيو ١٩٢٦ بعقد معاهدة بين انجلترا والعراق وتركيا اخذت بموجبها العراق الموصل، ولما كانت العراق واقعة في ظل الاستعمار الانجليزي فقد أمّنت هذه المعاهدة مصالح الانجليز.

ثم عقدت معاهدة جديدة بين بريطانيا والعراق في يونيو ١٩٣٠، وبموجبها اعترفت بريطانيا باستقلال العراق التام سواء في الشؤون الداخلية او الخارجية؛ غير انها تشمل بعض الشروط التي حوّلتها من معاهدة استقلال إلى معاهدة حماية. كانت المعاهدة تنص على انه من اجل حماية الطريق الى الهند تضع العراق تحت تصرف بريطانيا بعض المواقع لاستعمالها كمطارات، كما يحق لبريطانيا وضع قواتها العسكرية في الموصل وغيرها من الاماكن. وتنص المعاهدة كذلك على ان العراق تستطيع ان تستعين فقط بخبرة الضباط العسكريين الانجليز. اما الاسلحة والمعدات والذخائر والطائرات الخ ... فتجيء من بريطانيا. وفي حالة وقوع الحرب يحق لبريطانيا استعمال جميع مرافق البلاد في عملياتها الحربية ضد عدوها. وهكذا تستطيع بريطانيا بواسطة قواتها المعسكرة في المركز الاستراتيجي في

الموصل أن تضرب بسهولة تركيا وايران واذربيجان في الاتحاد السوفييتي .

وتلت هذه المعاهدة معاهدة اخرى قضائيـــة في سنة ١٩٣١ تتعهد العراق بموجبها ان توظف مستشاراً قضائياً انجليزياً ورئيساً انجليزياً لمحكمة الاستئناف ورؤساء انجليزاً لمحاكم بغداد والبصرة والموصل وغيرها .

وبالاضافة إلى ذلك يشغل الموظفون الانجليز كل المناصب العالية في البلاد . وهذا يعني ان « الاستقلال » أصبح يعني حماية انجليزية تستمر لمدة خمسة وعشرين سنة وهي أجل المعاهدة .

ومع ان البرلمان بدأ يمارس صلاحياته بعد التصديق على الدستور في سنة ١٩٢٥ فإن الشعب بقي على سخطه ، وحدثت بعض القلاقل في الأماكن النائية خصوصاً في المناطق الكردية ، فاستعمل سلاح الجو البريطاني في إخضاع هذه الاضطرابات بالقاء القنابل من الجو وتهديم القرى بأكملها . وبعد ابرام معاهـــدة سنة ١٩٣٠ ظهرت قضية ادخال العراق عصبة الامم بتوصية من بريطانيا. ولكن البلاد كانت طوال الوقت في هياج مستمر ، فلم يكن ذلك من صالح الانجليز ولا من صالح حكومة الملك فيصل ، لأن استمرار الثورات دليل على ان الشعب لم يكن راضياً عن الحكومة التي فرضها عليه البريطانيون. فرأوا من المناسب ان لا تعرف عصبة الامم عن هذه الثورات فقرروا القضاء عليها بالقوة والارهاب : ومن اجل هذا الغرض استعملوا سلاح الجو البريطاني . وكان احسن وصف لنتيجة محـاولاتهم فرض السلام والنظام بالقوة ، ما قاله الضابط الانجليزي الكولونيل السير ارنولد ويسون في محاضرته في الجمعية الأسيوية الملكية في لندن ٨ يونيو ١٩٣٢ ؛ فقد اشار فيها إلى :

« التصويب المحكم (بالرغم من كل ما يقال في جنيف) الذي قام به سلاح الجو الملكي في قذف السكان الاكراد ، خلال العشر سنوات الماضية ، وعلى الأخص خلال الستة اشهر الاخيرة . ان القرى المهدّمة والماشية المذبوحـــة والنساء المشوهات والاطفال المشوهين دليل لا يُدحض ، حسبما قال مراسل جريـــدة التايمس ، على طراز فريد في المدنية » .

ولما رأوا ان سكان القرى يهربون ويختبئون عندما تقترب منهم الطائرات ، ولم يظهروا روحاً رياضية في انتظار القنابل الساقطة عليهم ! عمدوا لاستعمال نوع جديد من القنابل هي القنابل الموقوتة ، وهذه القنابل لا تنفجر عنـــد سقوطها مباشرة ، وانما تنفجر بعد وقت محدود . وقصدوا من هذه الحيلة الشيطانيـة ان يغرروا بالقرويين فيعودون الى اكواخهم بعد انصراف الطـــائرات ، فتنفجر فيهم القنابل عندئذ كان الذين يموتون في هـذه الغارات يعتبرون سعداء بالنسبة لأولئك الذين يشوهون فتقطع أيديهم أو ارجلهم أو تصيبهم عاهـات خطيرة ، وخصوصاً لفقدان التسهيلات الطبية في تلك القرى النائية . وقد نجحت هـــذه الغارات ، فاستتب الامن والنظام؛ وقدمت حكومة العراق نفسها برعاية بريطانيا بعصبة الامم وقبلت عضواً فيها .

ولما اصبحت العراق عضواً في عصبة الامم انتهى الانتـداب البريطاني الذي استبدل بمعاهدة سنة ١٩٣٠ والتي تضمن سيطرة الانجليز على الدولة سيطرة تامة.

ومع ذلك لم يهدأ الشعب هدوءاً تاماً بل بقي ناقماً على الاوضاع العامة، إذ ان ما كان يريده هو الحرية التامة ووحدته مع البلاد العربية الاخرى . اما عضويتهم في عصبة الامم فلم تهمهم في كثير او قليل لأنهم كانوا مع غيرهم من الشعوب المظلومة يعتقدون انها اداة في ايدي دول اوروبا الكبيرة لتنفيذ مآربها الاستعمارية (١) .

انتهينا الآن من جولاتنا في البلاد العربية . ولا بد انك لاحظت كيف ان هذه البلاد بالاشتراك مع الهند والاقطار الشرقية الاخرى كانت تحركها موجات الوطنية بعد الحرب العالمية انها تشبه موجـــات الكهرباء التي تسير في سلك واحد يربط هذه البلاد جميعها . وتشبه هذه البلاد بعضهـا البعض ايضاً في اسلوب نهضتها ، فتبدأ اولا بالعصيان، ثم يتطور العصيان الى ثورة عنيفة ثم تأخذ تدريجيا بالاعتماد على سياسة عدم التعاون والمقاطعة . وليس من شك في ان اسلوب المقاومة الجديد هذا قد اخترعته الهند في سنة ١٩٢٠ عندما وافق المؤتمر الهنـــدي على

---

(١) توفي الملك فيصل في سبتمبر ١٩٣٣ وخلفه ابنه غازي الاول الذي قتل في حادث سيارة سنة ١٩٣٩ وخلف غازي ابنه الصغير فيصل الثاني .

اقتراحات غاندي . فانتشرت فكرة عدم التعاون ومقاطعة المجالس التشريعية من الهند الى الاقطار الاخرى في الشرق، واصبحت من الاساليب التي تمارسها الشعوب في كفاحها من أجل حريتها واستقلالها .

واريد الآن ان ألفت نظرك الى مقارنة طريفة بين الاسلوب الانجليزي والاسلوب الفرنسي في الاستعمار . فانجلترا حاولت في جميع مستعمراتها ان تتحالف مع الاقطاعيين والمحافظين والرجعيين، كما حدث ذلك في الهند ومصر وغيرهما من البلاد. فخلقت عروشاً واهية في هذه المستعمرات ونصبت عليها حكاماً رجعيين كانت واثقة انهم سيساندونها فنصبوا فؤاداً ملكاً على مصر ، وفيصلاً على العراق ، وعبد الله على شرقي الاردن ، وحاولوا تنصيب الحسين في الحجاز . أما فرنسا التي تعتبر احسن مثل للبورجوازية ، فقد حاولت ايجاد من تستند اليهم في مستعمراتها من الطبقة البورجوازية وهي الطبقة الوسطى النامية فمثلاً في سوريا حاولوا الاعتماد على الطبقة الوسطى من المسيحيين . وتسعى بريطانيا مع فرنسا في تنفيذ سياسة واحدة في مستعمراتها وهي اضعاف القومية التي تعارضها وتفتيتها وخلق اقليات ومشاكل عنصرية ودينية . وبرغم ذلك فاننا نلاحظ ان القومية الصاعدة في الشرق تتغلب على كل هذه العقبات التي اقيمت في طريقها ، واكثر ما ينطبق هذا على اقطار الشرق الاوسط العربية حيث تضعف النعرات الدينية لتفسح المجال امام القومية المشتركة

حدثتك عن اعمال سلاح الجو الملكي البريطاني في العراق اذ اصبح من سياسة الحكومة البريطانية ان يقوم سلاحها الجوي «بالاعمال البوليسية» في البلاد الخاضعة لها ، وخصوصاً اذا كانت هذه البلاد تتمتع بنوع ما من الحكم الذاتي . فلم تعد بريطانيا تحتفظ بأعداد كبيرة من جنودها في هذه البلاد بل خفضتها كثيراً. ولا يخفى ما لهذا من فوائد ، فمصاريف الاحتلال اقل من الاول، كما ان الاحتلال لم يعد واضحاً بيّناً . وبنفس الوقت تتمكن الطائرات والقنابل من السيطرة التامة على الاوضاع . وبهذه الطريقة اصبحت الغارات الجوية في ازدياد مستمر في البلاد المستقلة، ويحتمل ان يكون البريطانيون اكثر الأمم استعمالاً لها.

فبالاضافة الى العراق استعملوا هذا الاسلوب في ضرب الحدود الشمالية الغربية من الهند بصورة متكررة .

وقد يكون هذا الاسلوب ارخص واسرع من الاسلوب القديم في ارسال الجيوش ولكنه اسلوب همجي فظيع . والحق يقال انه لا يمكن تصوّر اي عمل اكثر بربرية من إلقاء القنابل ،وخصوصاً الموقوتة منها ،على قرى بكاملها وتهديمها وقتل الابرياء والمذنبين على السواء . وهذا الاسلوب يسهّل مهمة غزو البـــلاد الاخرى. ولذلك علا صياح بعض المندوبين في عصبة الامم ، وألقوا الخطب الرنانة في جنيف لوقف هذه الاعمال البربرية . وقد وافقت كل الدول بما فيهـا الولايات المتحدة على تحريم الغارات الجوية ، إلا ان بريطانيا اصرّت على ان تحتفظ بحقها في استعمال الطائرات في «الأعمال البوليسية» في المستعمرات مما عرقل الوصول الى اي اتفاق سواء كان ذلك العصبة أو في مؤتمر نزع السلاح المنعقد في سنة ١٩٣٣

سلوك النقود العجيب

١٦ يونيو ١٩٣٣

●

من اهم مميزات فترة ما بعد الحرب سلوك النقود العجيب. فقبل الحرب كانت النقود في كل بلد اسعار ثابتة تقريباً . وكان لكل من هذه البلاد عملتها الخاصة ، فالروبية في الهند والجنيه في انجلترا والدولار في امريكا والفرنك في فرنسا والمارك في المانيا والروبل في روسيا والليرة في ايطاليا وهكذا وكل عملة من هذه العملات ترتبط بالعملات الاخرى بروابط ثابتة ؛ وجميعها مرتبط بما يسمى قاعدة الذهب العالمية،اي ان كل عملة من هذه العملات لهاسعر معيّن من الذهب. وكانت هذه العملات صالحة للتداول كل منهـا داخل بلادها ولا تتجاوزها الى الخارج . وكانت الرابطة التي تربط اي عملتين هي الذهب ، وبه تدفع المبالغ وتسوّى الحسابات فيما بين الدول . وطالما كان للعملات اسعار ثابتة من الذهب، فستبقى قيمتها ثابتة لأن الذهب معدن حافظ لقيمته .

اقتضت ظروف الحرب الحكومات المتحاربة التخلي عن قاعـدة الذهب ، وبذلك رخصت عملاتها . ونتج عن ذلك تضخّم في النقد مما ساعد هذه الحكومات على متابعة جهودها الحربية ؛ غير انه قلب علاقات النقد الدولية رأساً على عقب . وكان العالم اثناء الحرب مقسوماً إلى معسكرين : معسكر الحلفاء ومعسكر الألمان ؛ وفي كل من هذين المعسكرين كان يوجد نوع من التنظيم والتعـاون ، ويخضع كل شيء فيها للمجهود الحربي . ثم نشأت بعـد انتهاء الحرب صعوبات

كثيرة ، فكان من نتيجة الاحوال الاقتصادية المتقلبة وعدم الثقة المتبادل بين الدول ، ان سلكت مختلف العملات سلوكاً عجيباً . ان نظام النقد في الوقت الحاضر يقوم على الاقراض ، فورقة النقد والشيك اذا هما تعهدان بالدفع ويقبلان على هذا الاساس كنقود . والاقراض يعتمد على الثقة ، فإذا زالت الثقة زال الاقراض معها. وهذا هو احد الاسباب التي حدت بنظام النقد ان يسلك سلوكه العجيب في سنوات ما بعد الحرب ، لأن الاحوال المضطربة في أوروبا قد زعزعت كل ثقة . والعالم في الوقت الحاضر يعتمد على بعضه البعض ، وكل جزء منه يرتبط بالجزء الآخر ، ويمارس مختلف نواحي النشاط . وهذا يعني ان اي اضطراب يحصل في بلد ما يؤثر تأثيراً مباشراً على بلاد أخرى . فمثلاً اذا سقط المارك الألماني او اذا افلس بنك ألماني ، فأن أهالي لندن وباريس ونيويورك يتضررون في نواح كثيرة .

من اجل هذه الاسباب وكثير غيرها - لا أريد ان اطيل عليك بوصفها - نشأت صعوبات نقدية في معظم انحاء العالم وكلما كانت البلاد متقدمة صناعياً ، كلما كانت الصعوبات التي تواجهها اكبر ، لأن التقدم الصناعي هو في الواقع هيكل ضخم متشابك يتألف من علاقات هذه الدولة مع الدول الأخرى . وواضح ان بلاداً متأخرة ومنعزلة عن العالم كالتبت مثلاً لا تتأثر بسلوك المارك او الجنيه. غير ان هبوط سعر الدولار قد يقلب الاقتصاد الياباني رأساً على عقب .

وكذلك نرى ان مصالح مختلف الفئات في كل بلد صناعي تتضارب مع بعضها البعض . فهناك اناس يريدون نقوداً رخيصة وتضخماً (بحيث لا يبلغ درجة كبيرة كما حصل في المانيا) بينما هنالك اناس يريدون عكس ذلك تماماً : يريدون نقوداً غالية وانكماشاً ، اي انهم يريدون رفع سعر النقد من الذهب . مثال ذلك ان الدائنين واصحاب البنوك وما شابههم يريدون سعراً للنقد أعلى مما هو لأنهم هم الدائنون فيريدون رفع سعر ما يطلبونه من ديون ، بينما المدينون يريدون بالطبع سعراً منخفضاً للنقد . وكذلك فان رجال الاعمال واصحاب المصانع يفضلون نقوداً رخيصة لانهم مدينون لأصحاب البنوك ، ولأنهم يتمكنون من

تصريف منتوجاتهم في الخارج . فإذا كانت النقود الانجليزية رخيصة ، فهذا يعني ان اسعار البضائع الانجليزية ارخص من البضائع الالمانية والامريكية او اية بضائع اجنبية اخرى في الاسواق الخارجية، وينتج من هذا نفع اصحاب المصانع الانجليزية وزيادة مبيعات بضائعهم ولهذا نلاحظ عدة فئات مختلفة وكلّ منها تشدّ في ناحية ، واهم هذه الفئات اصحاب المصانع وأصحاب البنوك . انني احاول أن أبسّط المسألة بقدر الامكان ، لأنه في الواقع هناك عوامل اخرى كثيرة معقدة .

حصل تضخّم نقدي في كل من فرنسا وايطاليا ، وهبطت قيمة كل من الفرنك والليرة . كانت قيمة الفرنك السابق حوالي $\frac{١}{٢٠}$ من الجنيه الاسترليني فهبط إلى $\frac{١}{٢٧٥}$ منه ، ثم حدد سعره بـ $\frac{١}{١٢٠}$ من الجنيه

وكذلك الأمر في بريطانيا ، فبعد ان انتهت الحرب ، توقفت امريكا عن مساعدتها فهبطت قيمة الجنيه قليلاً . وبذلك واجهت بريطانيا صعوبة كبيرة . فهل تقبل هذا الهبوط الطبيعي في قيمة الجنيه وتحدد سعره كما وصلت قيمته؟ ان مثل هذا الاجراء سيساعد الصناعة لأنه يرخص البضائع ، ولكنه بنفس الوقت سيضرّ بأصحاب البنوك والدائنين ، واهم من هذا وذاك ، فأن اتخاذ مثل هذا الاجراء سيضع حداً لزعامة لندن ومركزها المالي في العالم، وتتسلم مدينة نيويورك مركز الزعامة وتصبح بذلك كعبة للمقترضين بدلاً من لندن . والحل الوحيد الآخر هو إجبار الجنيه على البقاء في مركزه الاول ، وبذلك يتعزز مركزها وتتعزز معها سمعة لندن وتستمر في زعامتها المالية. غير انه يترتب على ذلك ان تتأثر الصناعة ، وتحدث اشياء اخرى غير مرغوب فيها كما حصل بالفعل.

اختارت الحكومة البريطانية الطريق الثاني في سنة ١٩٢٥ ورفعت قيمة الجنيه إلى سابق عهدها ، وبهذا ضحت ببضاعتها الى حدما في سبيل ارضاء اصحاب البنوك . غير ان المسألة الهامة التي واجهتها كانت تنحصر في هل تستمر الامبراطورية في البقاء ام لا . لأنه اذا خسرت لندن مركز القيادة في العالم في الشؤون المالية ،

فان مختلف انحاء الامبراطورية لن تتطلع اليها بعد ذلك طلباً للمساعدة او الاسترشاد ، وبذلك تذوب الامبراطورية تدريجياً ولهذا فقد اصبحت هذه المسألة تتعلق بسياسة الامبراطورية وقد نجحت هذه السياسة الاستعمارية على حساب الصناعة البريطانية وعلى حساب المصالح الداخلية المباشرة وكانت هذه هي نفس الطريقة ، كما تذكرين ، التي اتبعتها بريطانيا ، وذلك من اجل اعتبارات استعمارية ، في تشجيع الصناعة الهندية بعد الحرب ، حتى ولو كان ذلك على حساب لانكشير والصناعة البريطانية

وهكذا فإن الحكومة البريطانية قد قامت بهذه المحاولة الجريئة في سبيل الحفاظ على قيادتها وامبراطوريتها ، غير ان هذه المحاولة كلفتها كثيراً ؛ وكان مقدراً لها الفشل منذ البداية . لأنه لا الحكومة البريطانية ولا اية حكومة أخرى تستطيع السيطرة على التطورات الاقتصادية المحتومة . صحيح ان الجنيه قد استرجع قيمته لفترة من الزمن ، ولكن ذلك كان على حساب شلّ الصناعة المتزايدة . فانتشرت البطالة ، واصيبت صناعة الفحم باضرار جسيمة ، وكان ذلك كله نتيجة حتمية لارجاع قيمة الجنيه الى ما كانت عليه (وهذا يعني رفع سعره من الذهب) . وهناك اسباب اخرى منها أن الفحم الالماني اخذ يصل بريطانيا كقسم من التعويضات الحربية ، وهذا يعني ان كمية الفحم الانجليزي المطلوبة قلّت عما كانت عليه مما ساعد على انتشار البطالة بين عمال مناجم الفحم . وهكذا ادرك كل من الدائنين والدول المنتصرة بأن تسلم مثل هذه التعويضات من الدول المنهزمة لا يشكل بركة ويمناً ومما زاد الطين بلة ان صناعة الفحم الانجليزي لم تكن منظمة ، فكانت تتألف من مئات الشركات الصغيرة ، ولم تستطع هذه الوقوف في وجه المنافسة الضخمة للشركات الكبيرة في كل من اوروبا وامريكا .

ولما اخذت صناعة الفحم في التدهور من سيىء الى اسوأ ، قرر اصحاب المناجم تخفيض اجور عمالهم ، مما سبّب قلقاً شديداً في أوساط العمال وتأييداً لهم من قبل العمال في الصناعات الاخرى فبرزت قوة العمال ، واجتمعوا من اجل تقرير الدفاع عن حقوق عمال المناجم وألفوا مجلساً للعمل وقبل ذلك تألفت « محالفة

ثلاثية ، تضم نقابات العمال الثلاث القوية وهي نقابة عمال المناجم ، وعمال سكك الحديد ، وعمال النقليات ، وأصبحت بذلك هذه المحالفة منظمة قوية تضم ملايين العمال. ولقد ارعب العمال الحكومة عندما رأت ما ينوون عمله ، فقررت تأجيل إحلال الازمة باعطائها اصحاب المناجم قسماً من مصاريفهم وذلك من اجل المحافظة على مستوى اجور العمال لمدة سنة اخرى . ثم تألفت لجنة للتحقيق في هذه المسألة، غير انها لم تخرج بأية نتيجة وفي سنة ١٩٢٦ وقعت الازمة عندما قرر اصحاب المناجم مرة اخرى تخفيض اجور عمالهم ؛ وكانت الحكومة في هــــذا الوقت قد أصبحت مستعدة للوقوف في وجه العمال ورفض مطالبهم بعد أن انتهت من كافة استعداداتها في الاشهر الماضية .

وعلى اثر ذلــك قرر اصحاب المناجم منع عمالهم من النزول في المناجم اذا لم يقبلوا تخفيض اجورهم وقــد نتج عن هذا القرار ان اعلن مؤتمر نقابات العمال الاضراب العام، وقد استجاب جميـع العمال المنتسبين الى النقابات الى هذا القرار ، وتوقف الجميع عن العمل ، فتعطلت الحياة في البلاد ، وتوقفت القطارات والمطابع ومعظم الاعمال الأخرى . غـير ان الحكومة استطاعت ان تقوم بالخدمات الضرورية بواسطة بعض المتطوعين . لقد بدأ الاضراب العام في منتصف ليلة ٣-٤ مايو ١٩٢٦ . وبعد مضي عشرة ايام على بدئه، قرر زعماء العمال المعتدلون الذين لا يرغبون في مثل هذه الخطوات الثورية، انهاء الاضراب بحجة الاعتماد على وعود غامضة، ولكن عمال المناجم لم ينهوا اضرابهم فبقوا لوحدهم شهوراً عديدة. لقد جاعوا وغلبوا على امرهم في النهاية . ان ذلك كان ايذاناً ليس بانهزام عمـال المناجم فحسب بل بانهزام الحركة العمالية في انجلترا اجمـــالاً فخفضت اجور العمال في كثير من الحالات ، وزيدت ساعات العمل في بعض الصناعات ، وتدهور مستوى معيشة الطبقة العامـلة وانتهزت الحكومة فرصة انتصارها على العمال فشرعت تسن القوانين لإضعاف جبهة العمال وخصوصاً لمنع اي اضراب عام في المستقبل . لقد فشل اضراب سنة ١٩٢٦ نتيجة لتردد وضعف زعماء العمال ولعدم استعدادهم له . وفي الحقيقة كان غرضهم الوحيد هو تجنب هذا الاضراب، ولما لم يستطيعوا ذلك

انتهزوا اول فرصة لإنهائه ، اما الحكومـــة فكانت مستعدة تماماً لمواجهتهم تؤيدها الطبقة الوسطى

ان الاضراب العام في انجلترا ومنع عمال المناجم من النزول في مناجمهم قد اثار عطف العمال في روسيا، فجمعت نقابات العمال هناك مبالغ ضخمة ارسلتها الى عمال المناجم في انجلترا لمساعدتهم وشد أزرهم .

تمّ القضاء على حركة العمال في انجلترا موقتاً ، ولكن ذلك لم يكن حلاً للتدهور الذي اصاب الصناعة والبطالة التي اخذت في الانتشار ، والبطـالة بين العمال تعني آلاماً لا حد لها ، كما انها تعني اعباءً كبيرة تقع على كاهـل الدولة ، وخصوصاً بعد ان انتشر نظام التأمين ضد البطالة في كثير من البلدان ، لأن من واجبات الدولة ان تؤمن معيشة العامل الذي لا يجد عملاً دون ذنب جناه . ولهذا فقـد اضطرت الحكومة الى دفع المعونات للعمال المسجلين العاطلين ، وهذا يعني تحميل الخزينة والهيئات الاخرى احمالاً جساماً

لماذا حدث كل هذا ؟ لماذا اخذت الصناعة في التدهور ، والتجارة في التأخر ، والبطالة في الازدياد ، والأحوال كلها تسير من سيء الى اسوأ ، ليس في انجلترا فحسب ، وانما في معظم البلدان الاخرى ؟ لقد عقدت المؤتمرات من اجل ايجاد حلول لهذه المشاكل ، واجتمع الساسة والحكام ، ولكنهم لم يتوصـلوا الى اي نجاح . لم تكن هذه المصائب تشبه الكوارث التي تنزلها الطبيعـة بالعالم كالزلزال او الفيضانات او شح الامطار . لم تكن ابداً كذلك . كل شيء في الدنيا على ما هو عليه . وفي الواقع كان الطعام متوفراً وازداد عدد المصـانع ، وكل شيء موجود ؛ ومع ذلك فإن شقاء الإنسانية في ازدياد . لماذا ؟ لا بد ان هناك خطأً اساسياً . لا بـد ان هناك سوء ادارة في مكان ما . علّل الاشتراكيون والشيوعيون هذه الظاهرة بأنها خطأ الرأسمـالية التي بدأت تلفظ آخر انفاسها . واستشهدوا بروسيا حيث عدمت البطالة بالمرة على الأقـــل ، برغم وجود بعض المصاعب .

هذه مسائل معقدة وصعبة ، واختلف العلمـــاء كثيراً على طريقة العلاج ،

ولكن برغم ذلك لننظر حولنا ونتفحّص الأمور .

اصبح العالم اليوم وحدة واحدة ، اي ان الحياة ومختلف نواحي النشاط والانتاج والتوزيع والاستهلاك.. الخ ، اصبحت تتسّم بالطابع الدولي . فمثلاً اصبحت الصناعة وانظمة النقد تهمّ الدول كلها ، فارتبطت معظم الدول بعضها ببعض ، واضحى كل حادث يقع في بلد ما يؤثر تأثيراً سريعاً في البلدان الاخرى. وبالرغم من هذه العلاقات الدولية المتشابكة ، فان كل دولة من الدول تحاول ان تعمل ضمن نطاق حدودها الضيقة، فسارت الامور من سيىء الى اسوأ وخصوصاً في سنوات ما بعد الحرب . وكانت النتيجة صراعاً مستمراً بين الحوادث الدولية العالمية وبين سياسة الحكومات المحلية . ويمكن تشبيه هذا الصراع بأن نتخيل الحوادث الدولية العالمية نهراً كبيراً يصب في البحر ، والسياسة المحلية محاولات لإيقافه او سدوداً اقيمت في وجهه لتحويل مجراه او حتى ارجاعه الى الوراء. وبالطبع لن يرجع النهر الى الوراء كما لا يمكن ايقافه . ولكن قد يحوّل قليلاً أو يقام عليه سد يتسبّب في احداث فيضان . وهكذا فان هذه السياسة المحلية تشكل تدخلاً في سير النهر الطبيعي مما يسبب الفيضانات وينتج المستنقعات ، ولكنها لن تعيق النهر عن المسير بأي حال من الاحوال .

هناك اصطلاح يطلق على التجارة والأمور الاقتصادية ويسمى « الاقتصاد الوطني» وهو يعني ان كل بلد يريد ان يبيع اكثر مما يشتري ، وان ينتج اكثر مما يستهلك . كل دولة تريد ان تبيع بضائعها ، ولكن من يشتري ؟ يجب ان يكون في كل صفقة مبايعة بائع ومشتري . ولذلك فمن المستحيل ان يكون العالم كله بائعاً . ومع ذلك فهذا تماماً هو «الاقتصاد الوطني » الذي ذكرته . كل دولة تفرض الرسوم الجمركية العالية على البضائع الاجنبية وتقيم الحواجز الاقتصادية في وجهها وبنفس الوقت تريد ان تنمي تجارتها الخارجية ، اي انها تريد ان تبيع منتجاتها في البلاد الاخرى ولا تسمح لمنتجات البلاد الاخرى بدخول بلادها . هذه الحواجز الجمركية تقتل التجارة الدولية التي هي حجر الزاوية في بناء العالم المتحضّر . واذا تدهورت التجارة فان ذلك يؤثر على الصناعة ، وبسبب

انتشار البطالة ، مما يضطر الحكومة الى اتخاذ اجراءات مشددة لمنع البضائع الاجنبية من دخول بلادها، بحجة انها تعرقل تقدم الصناعة الوطنية ، وتعود الى فرض رسوم جمركية أعلى وهكذا . ونتيجة لذلك تتضرر التجارة الدولية ، وتبقى تدور في هذه الحلقة المفرغة .

لقد مضى عصر الوطنية الضيقة في العالم الصناعي الحديث القائم في هذه الايام . فلم يعد انتاج البضائع وتوزيعها محصوراً في الحدود الضيقة للبلد الواحد، بل ضاقت الصدَفة التي تغلّف نمو العالم ولا بد ان تنكسر في يوم من الايام

ولا بد ان نذكر ان هذه الحواجز الجمركية والعوائق في سبل التجارة انما تفيد فقط بعض الطبقات في كل بلد من البلدان ، وهذه الطبقات تصبح ، بالنظر لقوتها ، مسيطرة على سياسة تلك البلاد ، فتجبرها على التسابق مع البلدان الاخرى مما يسبب التنافس والكراهية بينها وبين هذه البلدان . وتُبذل في العادة جهود مضنية للتخفيف من هذه الكراهية ، فتعقد المؤتمرات ويحضرها سياسيون يحملون اطيب الأماني ، غير ان الحظ لا يحالفهم ابداً . ألا يذكرك هذا بالمحاولات الكثيرة للتوفيق بين الهندوس والمسلمين والسيخ في الهند ؟ قد يكون سبب الفشل في كلتا الحالتين هو ان هذه المحاولات تقوم على افتراضات خاطئة كما تهدف إلى اهداف خاطئة .

ان هذه الطبقات التي تنتفع بهذه الحواجز الجمركية ، وتشجع على منح الهبات والمعونات الخاصة للشركات المختلفة مثل سكك الحديد وغيرها ،تتألف من اصحاب المصانع الذين يهمهم حماية منتوجاتهم. ولذلك فانهم يعارضون في اي تغيير او تبديل قد يؤثر عليهم ، شأنهم في ذلك شأن اصحاب المصالح الخاصة هذا هو احد الاسباب الذي من اجله تدوم هذه الحواجز الجمركية اذا ما قيمت بالرغم من ان معظم الناس مقتنعون بأن في بقائها ضرراً لكل انسان. وليس من السهل أبداً وضع حد لهذه الحواجز ، كما انه من الصعب جداً ان تبدأ أية دولة من الدول في رفعها قبل بقية الدول الاخرى . اما لو اتفقت كل الدول على رفع هذه الحواجز في وقت واحد فقد يكون ذلك ممكناً . وحتى في مثل هذه الحالة ستعاني الدول

المتخلفة صناعياً كثيراً من جراء عدم قدرتها على الوقوف في وجه منافسة الدول المتقدمة عليها . اذ ان الصناعات الجديدة انما تقف على رجليها اذا ما وجـــدت الحماية في داخل بلادها

ان سياسة «الاقتصاد الوطني» لا تشجع التجارة بين الدول وتزيد على ذلك بأن تحاول ايقافها تماماً ، وهكذا تتـأثر التجارة الدولية ، وتصبح كل دولة منطقـة احتكار لتجارة محمية ، فتتلاشى التجارة الحرة . وتنشأ الاحتكارات الخاصة داخل البلاد نفسها وتتقلص التجارة الحرة فيها، فتنمو الشركات الكبيرة والمصانع الضخمة وتبتلع المتاجر الكبيرة المتاجر الصغيرة وبذلك تضع حداً لكل منافسة. وهكذا ازدادت قوة هذه الاحتكارات في كل من امريكا وبريطانيا والمانيا واليابان والبلاد الصناعية الاخري ، وانحصرت في ايدٍ قليلة جداً . فاحتكرت صناعة البترول والصابون والمواد الكيماوية والسلاح والفولاذ ، كما احتكرت البنوك ومؤسسات اخرى غيرها ان هذه الاحتكارات هي النتيجة الحتمية للعلم والرأسمالية ، ومع ذلك فإنها هي التي تسبب خراب الرأسمالية هذه . وان الرأسمالية بدأت بالتجارة الدولية الحرة ، وتؤلف المنافسة عصب الحياة فيها، فاذا قضي على التجارة الدولية الحرة وزالت المنافسة داخل اي بلد من البلدان ، فان كيان الرأسماليـة نفسه يزول ،اما ماذا يحل محلها فهذه مسألة اخرى ، غير انه يظهر لي ان النظام القديم لا يمكن ان يدوم جنباً الى جنب مع كل هذه المتناقضات .

لقد سبق العلم والتطور الصناعي نظام المجتمع ، فالعلم والصناعة ينتجان كميات كبيرة من الطعام والاشياء الاخرى النافعة في الحياة ، غير ان الرأسمالية لا تجد الوسيلة للتصرف بها ، فمثلاً نجدها تخرب الطعام وتحدّ من الانتاج. ولهذا نرى الغنى والفقر ، والكثرة والقلة ، جنباً الى جنب . واذا لم تستطع الرأسمالية ان تتقدم في نظامها لحل هذه المشاكل ، فيجب ان يكون هنالك نظام آخر يحلّ محلهـا يساير تطور العلم ، والا فالحل الوحيد هو خنق العلم وتجميده بحيث لا يسير الى الأمام اية خطوة . وبالطبع فان هذا غير معقول.

وليس من المستغرب ابداً ان تنتشر الاضطرابات في هذا العالم الذي يسود فيه

« الاقتصاد الوطني» وتنتشر فيه الاحتكارات. ان الاستعمار الحديث انما هو نتاج الرأسمالية هذه ، لأن كل دولة استعمارية تريد حل مشاكلها باستغلال الشعوب الاخرى . وهذا بالطبع يقود الى التنافس والاختلاف بين الدول الاستعمارية .
والنتيجة انه يظهر لي ان كل شيء في هذه الدنيا يقود إلى التنافس والاختلاف .

لقد بدأت هذه الرسالة باخبارك كيف تسلك النقود سلوكها العجيب خلال فترة ما بعد الحرب . فهل نلوم النقود على مسلكها هذا عندما يسلك نفس السلوك كل شيء في هذه الدنيا ؟!

موسوليني والفاشية في ايطاليا

٢١ يونيو ١٩٣٣

●

تحدثت لك في رسائلي السابقة عن قصة اوروبا لغاية سنة ١٩٢٩ على ان هنالك نقطة هامة اغفلتها عامداً كي اخصص لها الحديث في هذه الرسالة . تلك هي قصة الاحداث التي جرت في ايطاليا بعد الحرب العالمية ، وليست اهمية هذه الاحداث انها وقعت في ايطاليا، ولكن في انها نوع جديد من انواع الصراع في العالم كله، وخصوصاً لأن اهميتها تتجاوز ايطاليا الى خارج حدودها . ولذلك خصصت هذه الرسالة لأتحدث عن موسوليني ، احد الشخصيات البارزة في عصرنا هذا ، وعن ظهور الفاشية في ايطاليا .

كانت ايطاليا قبل نشوب الحرب العالمية (الاولى) في حالة اقتصادية خانقة، بالرغم من انها اشتبكت في حرب مع تركيا انتهت بانتصارها واستيلائها على ليبيا إلا ان هذه الحروب الصغيرة لم تستطع ان تحل مشاكلها الاقتصادية ، بل على العكس ، فقد تفاقمت الحالة ، حتى انه ما كاد يحل عام ١٩١٤ حتى كانت ايطاليا على ابواب ثورة ، فانتشرت الاضطرابات الضخمة في المصانع ، ولم يمسك بزمام العمال ويخفف من حدتهم إلا الزعماء الاشتراكيون المعتدلون الذين نجحوا في اخماد هذه الاضرابات ، ثم جاءت الحرب ورفضت ايطاليا الانضمام الى حليفتها المانيا ، ووقفت موقفاً حيادياً بغية الوصول على اكثر ما يمكن من الامتيازات من كل من الفريقين المتحاربين . ولا شك ان هذا الموقف الذي ينطوي على المساومة بين الفريقين لا

يمكن اعتباره موقفاً شريفاً ، غير ان الدولة تعودت ان تتجرد من الاخلاق التي يلتزم بها عادة الأفراد ، وهي لذلك تتصرف بشكل مخجل . فلما عرضت كل من انجلترا وفرنسا ان تدفعا لها رشوة اكبر مما عرضته ألمانيا ، سواء كان ذلك نقداً او وعوداً باقطاعها بعض البلاد، دخلت ايطاليا الحرب الى جانبهما في مايو ١٩١٥؛ وأظن انني حدثتك في السابق عن المعاهدة السرية التي بموجبها اعطيت ايطاليا ازمير وقطعة من آسيا الصغرى . غير ان الثورة الروسية نشبت قبل ان تصدق المعاهدة فضاعت الصفقة . وكان هذا هو احد الاسباب في سخط الايطاليين ؛ ومما زاد في سخطهم ايضاً انهم شعروا بأنهم مغبونون في مؤتمر الصلح ، وأن «حقوقهم قدهضمت»وكان الرأسماليون والبورجوازيون الطليان قد وضعوا أملهم في ضم مستعمرات جديدة يخففون بها حدة الازمة في ايطاليا .

ساءت الاحوال في ايطاليا بعدالحرب اكثر مما ساءت في اكثر البلدان المتحالفة، وبدا أن النظام الاقتصادي يتداعى وان انصار الاشتراكية والشيوعية في تزايد مستمر ، وخصوصاً عندما رأوا ان الثورة الروسية قدوة يحتذى بها. فمن ناحية، كان هناك عمال المصانع الذين يقاسون ويلات الحياة ، ومن الناحية الاخرى كان هناك الجنود المسرحون بلا عمل . فانتشرت الاضطرابات ، ودعا زعماء الطبقة المتوسطة الى تنظيم هؤلاء الجنود ليقاوموا بها قوة العمال النامية . وتطورت الازمة في صيف عام ١٩٢٠ ، فأعلن اتحاد عمال المعادن الذي يضم نصف مليون عامل مطالبته بزيادة الأجور . ولما رفض طلبه هذا قرر اعلان الاضراب واختار نوعاً جديداً من الاضراب وهوان يذهب العمال الى المصانع ويمكثوا هناك دون ان يعملوا شيئاً ، وهو نوع من الاضراب ابتكره العمال الفرنسيون قبل ذلك بزمن . ورد اصحاب المصانع على ذلك باغلاق مصانعهم . وعندها استولى العمال على المصانع وحاولوا ادارتها على اسس اشتراكية .

كان هذا العمل ثوريا تماما ، ولو استمر لأدى الى ثورة اجتماعية واسعة أو الى كارثة شاملة اذ لم تعد هنالك فرصة لأي حل وسط . وكان الحزب الاشتراكي في ذلك الوقت قويا جداً في ايطاليا، فالى جانب سيطرته على نقابات العمال ، كان

يسيطر على ٣٠٠٠ بلدية، وكان له ١٥٠ نائباً في البرلمان، اي ثلث مجموع الاعضاء. واذا كان الحزب قوياً ومنظماً ويمتلك مؤسسات كبيرة ويشغل مراكز هامة في الدولة، فإنه من الصعب جداً عليه ان يكون ثورياً. ومع ذلك فإن هذا الحزب - رغم كثرة عدد المعتدلين فيه - أيد العمال في استيلائهم على المصانع ؛ ولكنه اكتفى بذلك دون ان يفعل اي شيء آخر. ولم يشأ الحزب ان يتراجع، ولكنه لم يجرؤ بنفس الوقت على المضي إلى الأمام ، فاختار موقفاً وسطاً ، وكما يحدث لكل من يتشكك ويتردد في اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، فقد فشلت حركة العمال في الاستيلاء على المصانع .

وقد شجع هذا الفشل اصحاب المصانع ، وكشف لهم قوة العمال الحقيقية ، وجوهر زعمائهم ووجدوها اقل بكثير مما كانوا يظنون ، فبدأوا يفكرون في خطة للانتقام ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكي. وكان اول من فكروا بالاستعانة بهم جماعة من المغامرين .تألفت سنة ١٩١٩ من الجنود المسرحين بقيادة بنيتو موسوليني ، تدعى « الفرق الفاشية ». وهدفها انتهاز كل فرصة لمهاجمة الاشتراكيين ومؤسساتهم . كأن يحطموا مطبعة احدى الصحف الاشتراكية او يهاجموا مجلساً بلدياً او تعاونياً يسيطر عليه الاشتراكيون. واخذ كبار الرأسماليين وابناء الطبقة البورجوازية الكبيرة يموّلون هذه الفرق الفاشية ويحاولون استخدامها في مقاومة الاشتراكية. حتى الحكومة نفسها كانت تشجعها في سبيل تحطيم قوة الحزب الاشتراكي .

فمن هو بنيتو موسوليني هذا ، هذا الرجل الذي نظم هذه الفرق الفاشية ؟ كان في ذلك الوقت شاباً مغامراً (ولد في سنة ١٨٨٣) ، وكان ابوه حداداً يؤمن بالمبادىء الاشتراكية ، مما جعل موسوليني نفسه يشب وفي ذهنه كثير من الافكار الاشتراكية . واصبح في صباه مهيّجاً عنيفاً وطرد اكثر من عدة مقاطعات سويسرية بسبب دعايته الثورية . وكان يهاجم الزعماء الاشتراكيين المعتدلين بشدة على اعتدالهم ، ويدعو علنا الى استخدام القنابل وشتى وسائل العنف ضد الدولة . وفي خلال حرب ايطاليا مع تركيا كان اكثر الزعماء

الاشتراكيين يؤيدون الحرب،بعكس موسوليني الذي القي في السجن عدة مرات بسبب استخدامه وسائل عنيفة في معارضتها وقد اشتد في حملاته على الزعماء الاشتراكيين لتأييدهم هذه الحرب حتى نجح في اقناع الحزب بطردهم من حظيرته، واصبح هو رئيس تحرير الجريدة اليومية الاشتراكية الكبرى « افانتي » التي كانت تصدر في ميلان ،ومضى يكتب فيها داعياً العمال الى مقابلة العنف بالعنف، وهي دعوة كانت تقابل بالمعارضة الشديدة من الزعماء الماركسيين المعتدلين .

ثم نشبت الحرب العالمية (الاولى) وظل موسوليني لبضعة اشهر يعارض اشتراك ايطاليا في الحرب ويدعو الى الحياد ولكنه فجأة غيّر آراءه جميعاً ، وبدأ يدعو الى الانضمام الى الحلفاء وترك الجريدة الاشتراكية، واصدر جريدة يدعو فيها الى سياسته الجديدة ، فطرده الحزب الاشتراكي من صفوفه ، وبعد قليل تطوع في الحرب كجندي عادي وحارب في الجبهة الايطالية حتى سقط جريحاً .

ولما انتهت الحرب ، لم يعد موسوليني يسمي نفسه اشتراكياً .اصبح شخصاً مائعاً لا يتقيد بمبدأ معين ؛لا يحبه الاشتراكيون ، ولا صلة له قط بالعمال .وبدأ يهاجم الاشتراكية بل والدولة البورجوازية ايضاً . هاجم كل اشكال الدولة وسمى نفسه « فردياً » ، واخذ يدعو الى الفوضوية . وكتب عن ذلك مقالات صريحة ،أعلن بعدها عن تكوين «الفاشية» في مارس ۱۹۱۹ من الجنود المسرحين ، ونظمهم في فرق مقاتلة . وكان اسلوب هذه الفرق في العمل هو العنف .ولما لم تتدخل الحكومة في امر هذه الفرق ، كثر عدوانها وزادت جرأتها ، وكثيراً ما كان العمال في المدن يشتبكون معها في قتال عنيف، ويتغلبون عليها، ولكن الزعماء الاشتراكيين قاوموا فكرة مقابلة العنف بالعنف، ودعوا العمال إلى مقابلة الارهاب الفاشي بالسلم والهدوء ، أملاً في ان تتعب الفاشية ، فتستريح وتريح. ولكن الفرق الفاشية على العكس من ذلك اخذت تتزايد قوتها بفضل اموال الاغنياء وتغاضي الحكومة،بينما فقد الرأي العام روح المقاومة التي كانت لديه ضد هذه الفرق ؛ فلم يحاول مثلاً القيام بأي إضراب احتجاجاً على هذا العنف الفاشي .

وقد اتجه الفاشيون بزعامة موسوليني إلى الخلط بين دعوتين متعارضتين ،

الأولى معاداة الاشتراكية والشيوعية مما ضمن لهم تأييد الطبقات الغنية ، والثانية ان موسوليني كان معروفاً في السابق بأنه اشتراكي ومهيج وثوري ، كما كان معروفاً بشعاراته المعادية للرأسمالية ، مما اعجب الطبقات الفقيرة . كما انه تعلم كثيراً من اساليب الشيوعيين في الاثارة والتهييج. وهكذا اصبحت الفاشية مزيجاً يمكن تفسيره بأكثر من معنى . فهي حركة رأسمالية تنادي بهتافات معادية للرأسمالية ، وتضم اناساً من كل لون . اما العمود الفقري لها فكان من الطبقة المتوسطة وخصوصاً الصغيرة منها كذلك جذبت هذه الحركة العمال العاطلين وغير المهرة الذين لم تنتظمهم النقابات على مر الايام . كما حدث عندما استطاع الفاشيون ارغام التجار بالقوة على تخفيض الاسعار فكسبوا بذلك عطف الطبقات الفقيرة ، وانضم الى الحركة كل المغامرين ومع ذلك فقد بقيت الفاشية حركة لا تمثل الا اقلية من الناس .

وهكذا، بينما كان القادة الاشتراكيون يتشككون ويترددون ويتنازعون فيما بينهم ، وتقع الانقسامات في حزبهم ، نمت قوة الفاشية ،وجذبت الى صفوفها الجيش وقواده .وقد كان مدهشاً حقاً ان يستطيع موسوليني ان يجمع في حزبه كل هذه المتناقضات ، وان يقنع كل فئة بأن الحركة الفاشية انما خلقت من اجلها فقط.فالاغنياء يرون فيه المدافع عن املاكهم ، واعتبروا كلماته وشعاراته المعادية للرأسمالية مجرد عبارات جوفاء لخداع الجماهير . والفقراء اعتقدوا انها حركة ضد الرأسمالية وأن الباقي ضحك على ذقون الاغنياء .وهكذا مضى موسوليني في لعبته، يتكلم يوماً للفقراء ، ويوماً آخر للأغنياء ، وان كان في حقيقته صنيعة للطبقة الغنية التي تموّله والتي ارادت استخدامه لتحطيم قوة العمال والاشتراكية التي هددت مصالحهم مدة طويلة من الزمن .

واخيراً في اكتوبر ١٩٢٢ زحفت الفرق الفاشية يقودها جنرالات من الجيش على روما. وعندها اعلن رئيس الوزراء، الذي صبر على اعمال الفاشيين مدة طويلة، الاحكام العرفية ، غير ان هذا الاجراء جاء متأخراً جداً ، اذ ان الملك نفسه كان قد اصبح في صف موسوليني ، فرفض التوقيع على قرار اعلان الاحكام العرفية

وَقبلَ استقالة رئيس وزرائه ودعا موسوليني ليشكل الوزارة الجديدة . ووصل الجيش الفاشي الى روما في ٣٠ اكتوبر ١٩٢٢ ، وفي نفس اليوم وصل موسوليني من ميلان بالقطار ليصبح رئيساً للوزارة .

انتصرت الفاشية اذن ، واستولى موسوليني على الحكم ولكن ماذا كان هدفه ، وماذا كان برنامجه ، وماذا كانت سياسته ؟ ان الحركات الكبرى لا بد ان تقوم على اساس مذهبي جلي واضح ينمو ويتبلور حول مبادىء ثابتة واهداف ينتظمها برنامج محدد . غير ان الفاشية تنفرد بأنها ليست ذات مذهب معيّن تدين به او مبدأ او فلسفة تعتمد عليها ، اللهم إلا اذا كان مجرد مقاومة الاشتراكية والحرية يمكن ان يكون فلسفة . لقد اعلن موسوليني في سنة ١٩٢٠ بعد عام واحد من تكوين المنظمات الفاشية « ان الفاشيين ، وان كانوا غير مرتبطين بمبادىء معينة ، إلا انهم يسعون باستمرار نحو هدف واحـــد ، الا وهو رخاء الشعب الايطالي ورفاهيته » . وواضح ان هذا الهدف لا يعتبر انه يمثل سياسة معينة ، إذ من السهل على أي واحد ان يقول انه يسعى الى رخاء الشعب ورفاهيتـه . لقد فضح موسوليني حقيقة نواياه في سنة ١٩٢٢ وقبل زحفه على روما بشهر واحد عندما قال « ان برنامجنا بسيط جداً : اننا نريد ان نحكم ايطاليا » .

وقد اوضح موسوليني هذه الحقيقة مرة اخرى في مقال كتبه عن اصل الفاشية في دائرة المعارف الايطالية إذ قال انه لم تكن لديه خطط معينة للمستقبل عندما قرر الزحف على روما ؛ ولكنه قرر استغلال الازمة السياسية للقيام بمغامراتـه متأثراً في ذلك بما تعلمه ايام كان اشتراكياً

وعلى الرغم من تناقض الفاشية والشيوعية ، فأنهما يشتركان في بعض النواحي . ولكن قد لا يكون هناك شيئان ابعد عن بعضهما البعض بُعد الفاشية عن الشيوعية فيما يتعلق بالمذاهب والمبادىء فالفاشية كما رأيناها ليس لها مبادىء اطلاقاً ، انها تبدأ من لاشيء . اما الشيوعية او الماركسية فإنها نظرية اقتصادية ضخمة وتفسير للتاريخ مما يتطلب استعمال العقل بشكل منظم شاق .

والفاشية وان لم يكن لها أي مبدأ او عقيدة ، إلا ان لها اسلوباً اكيداً في

العنف والارهاب ، وانه من نظرتها إلى التاريخ لا يمكن ان نعرفها على حقيقتها .
اما رمزها فقد اخذوه من رمز قديم كان يحمله الأباطرة والقضاة الرومان القدامى وهو عبارة عن حزمة من العصي (واسمها اللاتيني « فاشس » ومن هنا جاءت كلمة الفاشية) وفي وسطها بلطة . اما التنظيم الفاشي فقد اخذ ايضاً من التشكيلات الحربية في روما القديمة ، حتى الاسماء هي نفسها التي كانت تستعمل في الماضي .
والسلام الفاشي هو نفس السلام الذي كان مستعملاً في روما القديمة برفع الذراع مبسوطاً الى الامام. وهكذا نرى ان الفاشيين اخذوا ينظرون الى الامبراطورية الرومانية القديمة يستلهمونها الوحي، اي ان نظرتهم أصبحت استعمارية، وقد كان شعارهم « لا مناقشة ؛ بل طاعة فقط » ، وهو شعار قد يناسب الجيوش المحاربة، ولكنه قطعاً لا يناسب الدول الديمقراطية . وكان اسم قائدهم موسوليني « الدوتشي » وهي كلمة ايطالية تعني « دكتاتور » ، وكان زيهم الرسمي عبارة عن قميص أسود ومن اجل ذلك عرفوا باسم « ذوي القمصان السوداء » .

ولما كان برنامج الفاشية الوحيد هو الحصول على السلطة ، فقد تحقق لهم هذا البرنامج بمجرد ان عين موسوليني رئيساً للوزارة ؛ وبدأ بعد ذلك موسوليني يدعم مركزه عن طريق تحطيم المعارضة وتدمير الخصوم . وقد استعمل العنف في التاريخ كثيراً ، ولكنه كان يستعمل دائماً مصحوباً بالأعذار والمبررات على اعتبار انه ضرورة مؤلمة . اما الفاشية فإنها لا تقف من هذا العنف موقف الاعتذار، بل ان الفاشيين يدعون الى العنف ويشيرون به علناً ويمارسونه بالرغم من عدم وجود اية مقاومة. لقد لجأ موسوليني إلى ارهاب اعضاء البرلمان عن طريق الاعتداء عليهم بالضرب المبرح ، فأرغمهم بهذا الاسلوب على اقرار قانون انتخابي كان بمثابة الغاء للدستور ، وحصل موسوليني بهذا الاسلوب على اغلبية كبيرة.

وكان غريباً حقاً ان يستمر الفاشيون في اعمال العنف غير المشروعة حتى بعد أن اصبحوا في الحكم ، يسيطرون على بوليس وشتى اجهزة الدولة . ومع ذلك فهذا هو ما عملوه ، وبالطبع لم يجدوا من يعارضهم ما دام بوليس الدولة نفسه لا يعارضهم . لقد ارتكبوا جرائم القتل والتعذيب والضرب وتدمير الممتلكات ،

واتخذوا اسلوباً فريداً تميزوا به هو ارغام المعارضين على تناول كميات كبيرة من زيت الخروع .

وفي سنة ١٩٢٤ اهتزت اوروبا كلها لحادث اغتيال « جياكومو مايتوني » عضو البرلمان الايطالي وأحد الزعماء الاشتراكيين الكبار . لقد وقف في البرلمان وهاجم الأساليب الفاشية التي استعملت خلال الانتخابات التي اجريت في ذلك الوقت . وبعد خطبته هذه بايام قليلة تم اغتياله ، وحوكم القتلة محاكمة صورية ، انتهت باطلاق سراحهم دون عقاب . كذلك مات زعيم من زعماء الاحرار اسمه « امندولان » نتيجة للضرب المبرح ، واستطاع رئيس وزارة سابق اسمه «نيتي» ان يفر من ايطاليا ولكن بيته هدم . هذه هي فقط بعض الحوادث التي لفتت انظار العالم ، ولكن بالرغم من ذلك فقد استمر الارهاب وانتشر . ولم يكن الارهاب هذا إلا ملحقاً للارهاب الذي كان يدار بالوسائل الشرعية ، فلم يكن الارهاب ارهاباً جماهيرياً بل ارهاباً حكومياً منظماً لم يقتصر على الشيوعيين او الاشتراكيين وحدهم ، بل شمل ايضاً الاحرار المعتدلين. كانت تعليمات موسوليني لاتباعه هي ان يجعلوا حياة المعارضين صعبة او « مستحيلة » وقد طبق الاتباع هذه التعليمات بامانة واخلاص . فيجب ان لا يوجد اي حزب في البـــلاد سوى الحزب الفاشي ويجب ان لا تبقى اية منظمات الا المنظمات الفاشية . كل شيء يجب ان يكون فاشياً ، وكل الوظائف يجب ان يشغلها فاشيون .

وهكذا اصبح موسوليني الحاكم المطلق في ايطاليـــا فلم يكن رئيس الوزارة فحسب بل كان ايضاً وزيراً للخارجية والداخلية والمستعمرات والحرب والبحرية والطيران والعمل ! كان في الواقع مجلس الوزراء بنفسه ، وانزوى الملك خلف الستار ، وتحطمت سلطات البرلمان شيئاً فشيئاً حتى صار شبحاً . كان المجلس الفاشي الاعلى هو الذي يحكم الدولة ، وكان موسوليني هو الذي يحكم المجلس الفاشي الاعلى .

وقد لفتت الأنظار في اوروبا الخطب الأولى التي ألقاها موسوليني عن السياسة الخارجية . كانت خطباً غريبة انفجارية تهديدية ، لا تمت بصلة الى خطب الساسة

والدبلوماسيين ورؤساء الدول الآخرين . كان يبدو دائماً متحدياً طالباً للنزال . كان يتحدث عن الامبراطورية التي ستبنيها ايطاليا ، والطائرات الايطالية التي ستملأ الجو ، وكثيراً ما هدد جارته فرنسا بدون سبب . وكانت فرنسا بالطبع اقوى بكثير جداً من ايطاليا ، ولكن احداً لم يكن في فرنسا مستعداً للدخول في حرب ، ولهذا فقد اهملوا خطب موسوليني ، وتركوه يتكلم . واصبحت عصبة الامم هدفاً رئيسياً لهجوم موسوليني وتنديده واحتقاره ، بالرغم من ان ايطاليا كانت عضواً فيها . ومع ذلك فقد سكتت العصبة والدول المشتركة فيها .

وقد تغير الكثير في ايطاليا خلال هذه المدة ، واصبح السائح يعجب بما يراه من مظاهر النظام في كل شيء . واصبحت روما من اجمل البلاد بما ادخل عليها من منشآت ، وبات حلم الامبراطورية الرومانية يتهادى امام عيني موسوليني .

وفي سنة ١٩٢٩ انتهى الخلاف بين البابا والحكومة الايطالية باتفاق الطرفين بعد ان كان البابا يرفض الاعتراف بمركز روما كعاصمة للحكومة الايطالية منذ انشائها في سنة ١٨٧١ ولذلك فقد اعتاد البابوات عند انتخابهم على الاعتكاف في قصرهم في الفاتيكان حيث توجد كنيسة القديس بطرس وعدم الخروج منه كي لا تلمس اقدامهم التربة الايطالية ، فسجنوا انفسهم باختيارهم . وبموجب اتفاق سنة ١٩٢٩ اعترف بمنطقة الفاتيكان في روما كدولة مستقلة ، واصبح البابا السلطان المطلق لهذه الدولة التي لا يتجاوز عدد سكانها الخمسمائة . ولهذه الدولة نحا كما وعملتها وطوابعها وخدماتها العامة كما ان لها اغلى سكة حديد في العالم . فلم يعد البابا بعد هذا الاتفاق سجيناً كما كان بل بدأ يخرج في بعض الاحيان . وقد اكسب هذا الاتفاق موسوليني سمعة حسنة بين الكاثوليك.

واستمر الارهاب غير الشرعي لمدة سنة او اكثر حتى سنة ١٩٢٦ ، عندما اصدر موسوليني في هذه السنة « قوانين استثنائية » اعطت الدولة سلطات واسعة للقضاء على المعارضة ، فاصبح بذلك الارهاب غير الشرعي لا ضرورة له . وهذه القوانين تشبه الى حد كبير المراسيم التي توجد عندنا في الهند بكثرة . وفي ظل هذه « القوانين الاستثنائية » بقي الناس يسجنون ويعاقبون ويطردون من

البلاد بأعداد كبيرة . وتقول الاحصاءات الرسمية ان عدد الذين حوكموا طبقاً لهذه القوانين في الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٢ بلغ ١٠,٠٤٤ شخصاً . وخصصت ثلاث جزر قريبة من ايطاليا لنفي غير المرغوب فيهم ، هي جزر بونزا وفنتولين وترميتي ، وكانت احوال المعيشة فيها سيئة للغاية .

وقد استمر الضغط واستمرت الاعتقالات على نطاق واسع ، وهذا يعني ان المقاومة الثورية والسرية بقيت مشتعلة في تلك البلاد بالرغم من كل المحاولات التي بذلت لإخمادها . وفي خـــلال ذلك كله تزايدت الاعباء المالية على كاهل الدولة وساءت الاحوال الاقتصادية كثيراً .

ثورة في الصين وثورة اخرى معاكسة

٢٦ يونيو ١٩٣٣

●

لنترك الآن اوربا ومشاكلها وننظر الى بلدان اكثر اتساعاً ومشاكلها أكثر تعقيداً – ألا وهي بلدان الشرق الاقصى : الصين واليابان . حدثتك ، في آخر رسالة لي عن الصين ،عن الصعوبات التي واجهتها الجمهورية الفتية في اقدم بلاد العالم ، وأعمقها ثقافة فكانت الصين تبدو انها منقسمة على نفسها ، وظهر فيها قادة عسكريون يسمون «توشون» بتشجيع ومساعدة الدول الاستعمارية التي لم يكن من هم لها سوى ابقاء الصين ضعيفة مشتتة الاجزاء . لم يكن لهؤلاء القادة اية مبادىء ، فكل واحد منهم يحاول اعلاء كلمته هو ، وكثيراً ما كان الواحد منهم ينتقل من جبهة الى اخرى معاكسة في حروبهم الاهلية الصغيرة المستمرة . وكانوا يعيشون على حساب الفلاحين التعساء. وحدثتك ايضاً عن الحكومة الوطنية التي تشكلت في الجنوب في كانتون برئاسة الدكتور صن يات سن ، هذا الزعيم العظيم الذي اوقف كل حياته على تحرير الصين .

كانت البلاد واقعة تحت سيطرة المصالح الاقتصادية للدول الاستعمارية الاجنبية التي كانت تتخذ من الموانىء الكبيرة مثل شنغهاي وهونج كونج مراكز لها ، فكانت تسيطر على جميع التجارة الخارجية للصين . وقد علق على ذلك الدكتور صن يات سن بقوله ان الصين مستعمرة اقتصادية لهذه الدول . وانه لمن سوء الحظ ان يكون في البلاد سيد اجنبي واحد ، فما بالك اذا كثر السادة ؟ وقد حاول

الدكتور صن ان يحصل على مساعدات اجنبية لتطوير بلاده اقتصادياً وتنظيمها ، وخصوصاً من امريكا وبريطانيا ولكنها بالاضافة الى الدول الاستعمارية الاخرى لم تعيراه اي اهتمام . كانت جميع هذه الدول مهتمـــة فقط باستغلال الصين لا برفاهيتها وتقويتها. عندئذ تحوّل الدكتور صن الى روسيا السوفييتية في سنة ١٩٢٤.

كانت الشيوعيـة تنمو في الصين بالسر في صفوف الطلاب والطبقات المثقفة . وقد تشكل حزب شيوعي في سنة ١٩٢٠ وكان يعمل مثل الجمعيات السرية ، لأن مختلف الحكومات لم تسمح له بالعمل بصراحة وقد كان الدكتور صن من ابعد الناس عن الشيوعية ؛ كان اشتراكياً معتـــدلاً ، كما يظهر من « مبادىء الشعب الثلاثة » التي نادى بها ومع ذلك فان سلوك السوفييت المستقيم الكريم نحو الصين والبلاد الشرقيـة الاخرى قد ترك انطباعات حسنة في رأســه فحاول تحسين علاقاته معهم فاستقدم بعض المستشارين السوفييت كان اهمهم بورودين ، وهو بلشفي قدير جداً.

اصبح بورودين قوة كبيرة في الكومنتانج في كانتون واخذ يعمل ليل نهار لخلق منظمة حزبية قوية تستند الى تأييد الجماهير . ولم يحاول ابداً تشكيل هذه المنظمة على اسس شيوعية وانما حاول ان يشكلها على اسس قومية ، غير ان الشيوعيين سمح لهم بالانتساب لحزب الكومنتانج كاعضاء . وهكذا تحالف حزب الكومنتانج والحزب الشيوعي بصورة غير رسمية . وبالطبع لم يعجب هذا التحالف المحافظين والاعضاء الاغنياء في الكومنتانج وخصوصاً الاقطاعيين منهم . ومن جهة اخرى لم يعجب بعض الشيوعيين لأن هذا التحالف يعني تنازلهم عن قسم من برنامجهم ومنعهم من عمل الاشياء التي يريدون عملها ولذلك لم يكن التحالف مرتكزاً على اساس متين ، فانهار ، كما سنرى ، عند اول ازمة حرجة ؛ وقد سبب هذا الانهيار كارثة كبيرة للصين . انه لمن الصعب جداً ان يجتمع فريقان لهما مصالح متعارضة في منظمة واحدة . ولكن قوة الكومنتانج وحكومة كانتون قد زادت طوال مدة التحالف ، فشجعت منظمات الفلاحين ونقابات العمال . ان هذه المنظمات في الحقيقة هي التي قوّت الكومنتانج في كانتون وهي نفسها التي اخافت الزعماء

الاقطاعيين ، بما دعاهم لتفسيخ الحزب في المستقبل

ان الاحوال في الصين تشبه الى حد كبير الاحوال في الهند ، مع ان هنالك بعض الاختلافات بينهما . فالصين اجمالاً بلد زراعي والصناعة الرأسمالية محصورة في ست مدن او سبع وخاضعة للسيطرة الاجنبية . ويعاني ملايين الفلاحين اعباء الديون الثقيلة ؛ وكانت ايجارات الاراضي مرتفعة بشكل فاحش كما هي الحالة في الهند ويضطر المزارعون ان يقضوا كثيراً من اوقاتهم عاطلين عن العمل عندما لا يكون لديهم اعمال في الحقول . ولذلك احتاجوا الى الصناعات الصغيرة المحلية التي يقومون بها في اكواخهم لتمضية اوقات فراغهم وتحسين احوالهم المعيشية . وفي الحقيقة انتشرت هذه الصناعات كثيراً ، ولم يبق من الاقطاعيات الكبيرة الا القليل . وتقسم هذه الاقطاعيات الى اجزاء صغيرة بين الورثة عند وفاة صاحبها. واصبح نصف الفلاحين يملكون اراضيهم والنصف الآخر يشتغلون بالاجرة في حقول اصحاب الاراضي ولذلك تتألف الصين من اعداد كبيرة من المزارع الصغيرة . والصينيون مشهورون منذ مئات السنين بأنهم قادرون على استخلاص اقصى ما يمكن استخلاصه من الأرض ، وقد اضطروا لذلك لصغر مساحات الاراضي التي يملكونها فعملوا بها بكل قواهم . ولم يكن لديهم من الادوات الحديثة التي توفر كثيراً من الوقت ، فاضطروا لمضاعفة جهودهم للحصول على نتائج معقولة .

وبالرغم من كل هذه الجهود التي يبذلونها في الحقول فان اكثر من نصفهم لا يستطيعون تدبير ما يحتاجون اليه من غذاء وكساء ، فيقضون حياتهم القصيرة التعيسة في شبه مجاعة ، كما هو حاصل في الهند . انهم كانوا يعيشون على حافة الفاقة ، ثم توالت عليهم المصائب والمجاعات والفيضانات التي اودت بالملايين منهم. وقد سنت حكومة الدكتورصن ، بناء على اقتراح بورودين ، قانوناً لتحسين احوال الفلاحين والعمال ، فخفضت ايجارات الاراضي بنسبة ٢٥ ٪ وحددت ساعات العمل اليومية بثمانٍ ، ووضعت حداً ادنى للاجور وانشأت نقابات الفلاحين . وطبيعي ان تلاقي هذه الاصلاحات ترحيباً حاراً من جماهير الشعب ، وتملأهم حماساً ، فتقاطروا

للانضمام الى النقابات الجديدة ولتأييد حكومة كانتون .

وهكذا ركزت حكومة كانتون نفسها واخذت تستعد لمواجهة القـادة العسكريين « التوشون » فانشأت كليـة عسكرية وجيشاً . وحـدث تطور مهم ليس في كانتون وحدها وانما في كل الصين ، والى حد كبير في كل الشرق ، ألا وهو استبدال السلطات الدينية بسلطات علمانية . والواقع ان الصين لم تكن في يوم من الايام بلاداً تسيطر عليها الديانات بالمعنى الحرفي ، ومع ذلك فقد اصبحت اكثر علمانية . ومن اهم الامثلة على ذلك هو استعمال المعابد القديمة العديدة كمراكز لتدريب البوليس واسواق للخضار وما اشبه .

توفي الدكتور صن يات سن في مارس ١٩٢٥ ، ولكن حكومة كانتون استمرت في تقوية نفسها يساعدها بذلك مستشارها بورودين . ثم حدثت بعض الحوادث التي اثارت غضب الصينيين ضد المستعمرين الاجانب وخصوصاً البريطانيين منهم ؛ ذلك ان اضراباً حدث في مصانع القطن في شنغهاي في مايو ١٩٢٥ وقتل عامل من عمال المصانع اثناء اشتراكـه في المظاهرات . فانتهز الطلاب والعمال فرصة السير في جنازته وحولوها لمظاهرة نادوا بها بسقوط الاستعمار ؛ وكان هنالك ضابط بريطاني وتحت امرته رجال شرطة سيخ فأمرهم الضابط بأن يطلقوا النار على الجماهير « ليقتلوهم » فسقط عدة طلاب قتلى . فانتشر الغضب على البريطانيين في كل الصين . وحدث حادث آخر زاد الاحوال سوءاً ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٥ في المنطقة الاجنبية من كانتون (المعروفة بمنطقة شا مين) عندما اطلقت النار على الطلاب وقتل منهم اثنان وخمسون آخرون . وقد اعتبر الانجليز مسؤولين عن هذا الحادث الذي عرف بمذبحة شامين . فاعلنت في كانتون مقاطعة البضائـع البريطانية ، واوقفت تجارة هونج كونج عدة اشهر ، مما سبب خسائر كبيرة للشركات البريطانية والحكومة البريطانية . وتقع هونج كونج ، كما تعرفين ، في جنوبي الصين ؛ وهي قريبة من كانتون ولكن البريطانيـين استولوا عليها ، واصبحت مركزاً تجارياً كبيراً .

تبع وفاة الدكتور صن عراك مستمر بين الجناح الايمن المحافظ في حكومة

كانتون وبين الجناح الأيسر التقدمي ،فرة يكون هؤلاء في الحكم ومرة هؤلاء . في اواسط سنة ١٩٢٦ اصبح شان كاي شك ، وهو من الجناح الايمن ، القائد الأعلى ، وبدأ في طرد الشيوعيين . ومع ذلك استمر الجناحان في العمل مع بعضهما . ولو ان الواحد لم يكن يثق بالآخر . ثم بدأ جيش كانتون يتقدم نحو الشمال لقتال القادة العسكريين وطردهم وانشاء حكومة وطنية لكل البلاد. كان هذا الزحف شيئاً مدهشاً استرعى انظار العالم ، ولم يقابل الجيش مقاومة تذكر فسار من نصر الى نصر ، وخصوصاً ان المناطق الشمالية كانت مختلفة فيما بينها ، ولكن الأهم من ذلك ان قوة الجنوب تكمن في التأييد الشعبي الذي لاقاه سواء من الفلاحين او من العمال . وسبق الجيش شرذمة صغيرة من الدعاة اخذوا ينظمون نقابات العمال والفلاحين ويعرفون الشعب بالفوائد التي ستعود عليهم إذا ما انضموا الى حكومة كانتون . وهكذا كان الجيش يستقبل في المدن والقرى بترحاب بالغ وتقدم له المساعدات الممكنة . اما الفرق التي ارسلت لقتال جيش كانتون فلم تحارب وانما كانت تدير ظهورها وتنضم اليه بقضها وقضيضها . وما كادت سنة ١٩٢٦ تشرف على نهايتها حتى كان الوطنيون قد قطعوا نصف الصين واحتلوا مدينة هانكو العظيمة على نهر اليانجتسي . ثم نقلوا عاصمتهم من كانتون الى هانكو وسموها ووهان. لقد هُزم القادة العسكريون في الشمال وطردوا من مناطق نفوذهم ، وعندئذ تنبهت الدول الاستعمارية فجأة الى الخطر الماثل امامهم في صين جديدة قوية جريئة تريد ان تقف معها على قدم المساواة .

في اوائل سنة ١٩٢٧ حدث نزاع بين الصينيين والبريطانيين عندما اراد الوطنيون الاستيلاء على امتيازات البريطانيين في هانكو . وفي العادة اذا جرؤ الصينيون على مثل هذا العمل فان ذلك يعني الحرب، وعندئذ تسحقهم الحكومة البريطانية سحقاً وتفرض عليهم الغرامات وتأخذ منهم امتيازات اخرى . هذه هي العادة كما رأيناها تحدث طيلة قرن من الزمن منذ حرب الافيون سنة ١٨٤٠ ولكن الزمن قد تغير ، واصبح الآن امامهم صين جديدة. ولذلك، ولاول مرة في حياتهم ، غيّر البريطانيون سياستهم، واخذوا يحاولون الوصول الى حلول سلمية

فقالوا ان مسألة الامتيازات في هانكو مسألة بسيطة يمكن حلها بسهولة. وكان أمام الوطنيين الآن وعلى خط تقدمهم مدينة شنغهاي ، اكبر واغنى منطقة نفوذ اجنبية في الصين . وكانت مصالح الاجانب فيها ضخمة للغاية . كانت المدينة نفسها أو بالاحرى منطقة الامتيازات خاضعة تماماً للاجانب ، وكأنها مدينة مستقلة عن الحكومة الصينية . وقد قلق هؤلاء الاجانب في شنغهاي كما قلقت حكوماتهم عندما اقتربت الجيوش الوطنية منهم ، ولذلك اسرعوا بارسال السفن الحربية والجيوش الى الميناء ، وارسلت الحكومة البريطانية فرقة كبيرة قسم منها مؤلف من جنود هنود الى شنغهاي في اوائل يناير ١٩٢٧

وهنا واجهت الحكومة الوطنية في هانكو أو ووهان مشكلة صعبة - هل تتقدم ام تقف ، وهل تحتل شنغهاي ام لا . لقد اكسبها النجاح الذي احرزته حتى الآن ثقة بنفسها ، وهي ترى الآن امامها شنغهاي ثمرة ناضجة تسيل اللعاب. ومن جهة اخرى فانها احتلت مسافة ٥٠٠ ميل في مناطق لم توطد بعد حكمها بها، فاذا هاجمت شنغهاي فقد تتعرض لمشاكل وقد تصطدم مع الدول الاجنبية مما قد يضيع ما كسبت حتى الآن . وهنا اقترح بورودين اتباع الحذر والحيطة وتثبيت مركز الحكومة قبل كل شيء. وكان من رأيه ان الوطنيين يجب ان يبقوا بعيداً عن شنغهاي ويقووا مركزهم في النصف الجنوبي من الصين الذي سبق ان احتلوه ، وان يهيئوا الرأي العام في المناطق الشمالية عن طريق نشر الدعاية . وقدر انه لن يمضي اكثر من عام حتى تكون الصين بأكملها مستعدة للترحيب بهم . وعندها يحتلون شنغهاي ويسيرون نحو بكين ، ويستطيعون مواجهة الدول الاستعمارية الاجنبية . هذه النصيحة بالحذر قدمها بورودين مع انه ثوري من الدرجة الاولى، ولكنه استطاع ان يحكم على الوضعية العامة نظراً لخبرته في هذه الشؤون. ولكن زعماء الجناح الأيمن في الكومنتانج، وعلى الاخص شان كاي شك، اصروا على ان يتقدموا نحو شنغهاي . وقد ظهر السبب الحقيقي الذي دفع هؤلاء لاحتلال شنغهاي، عندما انقسم الكومنتانج الى فريقين . وكانت نقابات العمال والفلاحين آخذة بالتقوي والنمو ، فلم يعجب ذلك زعماء الجناح الأيمن ، الذين كانوا هم

بأنفسهم اقطاعيين ، ولذلك صمموا ان يقضوا على هذه النقابات حتى ولو كان ذلك على حساب انقسام الحزب الى قسمين واضعاف القضية الوطنية . وكانت شنغهاي مركزاً هاماً للطبقات البورجوازية الصينية . ولذلك توقع الزعماء اليمينيون أن يتلقوا منها مساعدات مالية وغيرها في كفاحهم ضد العناصر التقدمية للحزب وخصوصاً الشيوعيين ، كما توقعوا ان يلقوا تأييداً من قبل البنوك الاجنبية واصحاب المصانع في شنغهاي .

وهكذا زحفوا نحو شنغهاي، واحتلوا القسم الصيني منها في ٢٢ مارس ١٩٢٧ ، ولكنهم لم يهاجموا منطقة الامتيازات الاجنبية، ولم يلاقوا في الواقع اية مقاومة. فانضم اليهم جيش المعارضة ، واعلن العمال في المدينة اضراباً عاماً تأييداً للوطنيين. وبذلك اسقطوا آخر معقل من معاقل الحكومة في شنغهاي . وبعد يومين احتلوا مدينة نانكين، وعندها حدث الانقسام في الكومنتانج فانقسم الحزب الى فريقين واحد يميني والآخر يساري، وقد وضع هذا الانقسام حداً لانتصارات الوطنيين وجلب لهم المصائب . لقد انتهت الثورة ، وبدأت الثورة المعاكسة .

لقد زحف شان كاي شك على شنغهاي بدون موافقة اعضاء حكومة هانكو . وكان كل من الفريقين يتآمر على الآخر ، فأهل هانكو أرادوا أن يقللوا نفوذ شان كاي شك في الجيش وبعدها يتخلصون منه ؛ ورد شان على ذلك بانشاء حكومة اخرى في نانكين . حدث هذا كله خلال ايام قليلة من احتلال شنغهاي. واتبع شان ثورته على الحكومة في هانكو بأن أخذ يشن حرباً لا هوادة فيها على الشيوعيين اليساريين وعمال النقابات ـ هؤلاء العمال انفسهم الذين رحبوا به عندما دخل شنغهاي وساعدوه على احراز النصر ؛ وكثير منهم اطلق النار عليه وكثير آخرون قطعت رؤوسهم ، وآلاف غيرهم ألقي القبض عليهم وسجنوا . وهكذا تحولت الحرية التي كان المفروض في الوطنيين ان ينشروا لواءها في شنغهاي الى عهد من الارهاب الفظيع .

وفي نفس هذه الأيام في ابريل ١٩٢٧ حدثت غارات على السفارة السوفييتية في بكين والقنصلية السوفييتية في شنغهاي . وكان واضحاً ان شان كاي شك اصبح

على اتفاق مع القائد العسكري الشمالي شان تسولين الذي كان مفروضاً انه في حرب معه . ثم قام بحملات «تطهيرية» في بكين وشنغهاي ضد الشيوعيين والعمال التقدميين . وبالطبع رحبت الدول الاستعمارية بهذا التطور ، لأن ذلك يعني اضعاف صفوف الوطنيين الصينيين . ثم اخذ شان كاي شك يتقرب لممثلي الدول الاجنبية في شنغهاي . ولا بد انك تذكرين انه في هذا الوقت تقريباً ، في مايو ١٩٢٧ ، قامت الحكومة البريطانية بغارة «اركوس» على المنشآت السوفييتية في لندن ثم اتبعتها بقطع علاقاتها مع روسيا

وهكذا لم يمض اكثر من شهر او شهرين حتى تغيرت الحالة تماماً في الصين ، فبعد ان كان حزب الكومنتانج متحداً قوياً منتصراً يمثل الشعب الصيني ومستعداً لمقاومة الدول الاجنبية ، اصبح الآن متفسخاً منقسماً على نفسه ، واصبح العمال والفلاحون الذين كان لهم الفضل في انتصاره وعزته موضع الاضطهاد والتنكيل. وقد اثلج هذا التفسخ صدور اصحاب المصالح الاجنبية في شنغهاي ، فاخذوا يزيدون النار ضراماً بتأييد فريق ضد آخر حتى تُستنزف جميع قواهم . لقد كان عمال المصانع في شنغهاي (والواقع في كل الصين) مستغَلين من قبل اصحاب المصانع ، وكان مستوى حياتهم منخفضاً جداً . فلما نشأت نقابات العمال ، استطاعت ان تحسن احوالهم المعيشية وترفع اجورهم . ولذلك لم يكن اصحاب المصانع الاوروبيون واليابانيون والصينيون راضين عن هذه النقابات .

أما بورودين فقد واجه نقداً عنيفاً في موسكو لتطور الاحداث في الصين بهذا الشكل ، واستُدعي لروسيا في يوليو ١٩٢٧ ؛ وبخروج بورودين ، فقد الجناح الايسر في الكومنتانج في هانكو آخر سند له . واصبحت حكومة نانكين تسيطر تماماً على حزب الكومنتانج ، واستمرت في حربها ضد الشيوعيين واليساريين وزعماء العمال . وكان في جملة من أخرج من الصين في هذه المرحلة السيدة صَنْ ، ارملة الزعيم الكبير الدكتور صن يات سن . وقد صرّحت ، والأسى يملأ فؤادها ، ان ما عمله زوجها في سبيل حرية الصين قد خرّبه العسكريون ومن لفّ لفّهم . ومع ذلك فقد استمر هؤلاء العسكريون يقسمون بالمبادىء الثلاثة الشهيرة :

تحولت الصين مرة اخرى إلى ساحة يتقاتل فيها القادة العسكريون، فانفصلت كانتون عن نانكين والفت حكومة خاصة بها في الجنوب . وفي سنة ١٩٢٨ سقطت بكين في ايدي حكومة نانكين ، وحُوِّل اسمها إلى بيبنج أي « السلام الشمالي » وكانت كلمة بكين تعني « العاصمة الشمالية » فغيروا اسمها لأنها لم تعد عاصمة .

وبالرغم من سقوط بكين او بنج كما يجب ان ندعوها الآن ، فقد استمرت الحرب بين مختلف اجزاء البلاد فشكلت كانتون حكومة مستقلة ؛ اما في الشمال فاستمر القادة العسكريون في قتال بعضهم البعض . كانت الحكومة « الوطنية » في نانكين تعتبر نظرياً انها هي الحاكمة للصين فيما عدا كانتون ، وقسم آخر في الداخل انشئت فيه حكومة شيوعية وكانت حكومة نانكين تعتمد اعتماداً كبيراً على رجال المال واصحاب البنوك في شنغهاي . واصبحت جيوش القادة العسكريين عبئاً ثقيلاً على الفلاحين ، واخذت اعداد كبيرة من الجنود المسرحين تجوب البلاد للبحث عن عمل ، ولما لم تجد اتخذت اللصوصية والنهب مهنة لها .

ثم قطعت العلاقات بين حكومة نانكين وروسيا السوفييتية في ديسمبر ١٩٢٧ ، واخذت حكومة نانكين ، بتشجيع من الدول الاستعمارية ، في تنفيذ سياسة عدائية ضد السوفييت . وكان هذا التحرش كافياً لأن يقود البلدين للحرب سنة ١٩٢٧ لولا اصرار روسيا على تجنبها بأي ثمن . وتوالت اعتداءات الحكومة الصينية . وكانت هذه المرة سنة ١٩٢٩ في منشوريا ، فهوجمت القنصلية السوفيتية هناك ، وطُرد الموظفون الروس الذين كانوا يشتغلون في سكة حديد الصين الشرقية . وكانت سكة الحديد هذه ملكاً للحكومة السوفييتية ، فاتخذت هذه اجراءات سريعة ضد الصين . وبقيت الحالة متوترة لعدة اشهر ، وكأن الدولتين في حالة حرب الى ان وافقت الحكومة الصينية على مطالب السوفييت باعادة الامور الى ما كانت عليه سابقاً

سببت منشوريا وسكة الحديد المارة بها مشاكل دولية كثيرة لان مصالح عديدة تشتبك فيها ، فالصينيون واليابانيون والروس ، كلهم لهم مصالح . ومنذ

وقت قصير استولت اليابان على هـذه المناطق الشمالية الشرقية من الصين برغم معارضة كل العالم وسأحدثك عن هذا الموضوع في رسالتي القادمة .

كنت اشرت إلى انشاء حكومة شيوعية في داخل الصين ، ويظهر ان اول حكومة شيوعية الفت هناك في نوفمبر ١٩٢٧ فيمنطقة هيفنج في مقاطعة كوانتونج في الجنوب ، وسميت هذه الحكومة « جمهورية هيفنج السوفييتية » وتألفت من اتحاد نقابات الفلاحين وقد نمت هـذه الحكومة وكبرت داخل الصين ، وما انتصف عام ١٩٣٢ حتى كان تحت سيطرتها سدس مساحة الصين أي ما يقرب من ٢٥٠،٠٠٠ ميل مربع يسكنها حوالي ٥٠ مليون نسمة وانشأت هـذه الحكومة الجيش الأحمر ويتألف من ٤٠٠،٠٠٠ رجل وتساعده وحدات من الفتيان والفتيات . وقد بذلت كل حكومة نانكين وحكومة كانتون جهوداً جبارة للقضاء علىهؤلاء الصينيين السوفييت،وقامشان كاي شك بحملات متكررة في هذا السبيل دون ان يحرز اي نجاح . وكان السوفييت يتراجعون في بعض الاحيان ويركزون انفسهم في اماكن أخرى في الداخل (١) .

(١) سأروي لك في ملحق هذا الكتاب قصة الصين والماريشال شان كاي شك والصينيين السوفييت ثم اتحادهما ضد العدو المشترك اليابان ، وقصة غزو اليابان للصين وما تلاه من حروب .

اليابان تتحدى العالم

٢٩ يونيو ١٩٣٣

●

تابعنا قصة الصين المحزنة وتفسخها ، ورأينا كيف ان الثورة التي بدت للجميع منتصرة لا محالة ،قد انهارت فجأة وابتلعها اعداؤها ولم تنته هذه القصة بعد ؛ اذ ان الثورة قد فشلت في الحقيقة بسبب الصراع القائم بين الطبقات والذي كان من العنف والقوة بحيث تغلب على القومية . وقد كان الاقطاعيون واصحاب المصالح يفضلون تحطيم الحركة الوطنية على ان يروا الفلاحين والعمال يسيطرون على الحكومة.

وبالاضافة الى هذه المتاعب الداخلية التي كانت تعانيها الصين، فقد توجب عليها ان تواجه هجوماً مركزاً يشنّه عليها عدو اجنبي ، لأن اليابان قد عقدت العزم على ان تستغل فرصة ضعف الصين وتهاجمها اثناء انشغال الدول الاخرى .

ان اليابان بلاد فريدة في نوعها ،ففيها صناعات حديثة ، واقطاع يشبه اقطاع القرون الوسطى ، وفيها نظام برلماني وحكم اوتقراطي عسكري بنفس الوقت . وحاولت الطبقات الاقطاعية مع العسكريين ان يبنوا الدولة على اساس قبـــلي ، يكونون فيه هم رؤساء القبيلة، والامبراطور الرئيس الاعلى. فسخروا الدين والتعليم وكل شيء من اجل تحقيق ذلك ، فوضعوا الدين تحت سيطرة الدولة المباشرة ، وأصبحت المعابد تحت ادارة الدولة والرهبـان موظفين فيها . ولهذا نجد ان حملة دعاية واسعة جداً تقوم بها المدارس والمعابد لا لتعليم الشعب حب بلاده فقط ، وانما لتعليمه الطاعة التامة للامبراطور الذي يجب ان يعتبر شبه إله . ويطلقون في

اليابان على الفروسية القديمة اسم « بوشيدو » وهي نوع من الرابطة القبلية ، وقد وسعوا معناها لتشمل الدولة بأمرها ووضعوا الامبراطور على الرأس . والواقع ان الامبراطور رمزٌ تحكم الطبقاتُ الاقطاعية والرجالُ العسكريون باسمه . ان تصنيع اليابان قد خلق فيها طبقة بورجوازية، غير ان اصحاب المصانع كلهم جاءوا من العائلات الاقطاعية، ولذلك لم يستطع البورجوازيون ان يستولوا على السلطة . وهذا يعني ان في اليابان احتكارات واسعة لدرجة ان بضع عائلات قوية تسيطر على صناعة البلاد وسياستها

يدين اليابانيون بالبوذية، غير انهم يعتبرون « شنتو » ديانتهم الوطنية ، ومن اهم أسسها عبادة الاجداد بما فيهم الاباطرة الاسبقين والابطال وخصوصاً اولئك الذين قتلوا في الحروب . وبهذه الطريقة اصبحت هذه الديانة اداة قوية فعالة في الحض على حب الوطن وطاعة الامبراطور ،فاشتهر الشعب الياباني بوطنيته المدهشة وتضحياته الجسيمة في سبيل بلاده . ولكن هناك حقيقة واحدة يجهلها كثير من الناس، وهي ان هذه الوطنية يسيطر عليها حب الاعتداء والاحلام ببناء امبراطورية عالمية ونشأ في اليابان مذهب جديد حوالي سنة ١٩١٥ وانتشر بسرعة في جميع انحاء البلاد ، وهذا المذهب ينادي بأن اليابان يجب ان تصبح حاكمة للدنيا كلها، وعلى رأسها يتربع الامبراطور . قال احد دعاة هذا المذهب :

« اننا نهدف الى ان نجعل من الامبراطور حاكماً عاماً للدنيا كلها ، لأنه هو الحاكم الوحيد في كل الدنيا الذي يحتفظ بالرسالة الروحية التي ورثها عن أقدم الاجداد في عالم الآلهة » .

وكما رأينا في السابق ،أرادت اليابان خلال الحرب العالمية أن تسيطر على الصين، فقدمت طلباتها الاحدى والعشرين ، ولم تحصل على كل ما تريد بسبب الضجة التي ثارت في امريكا وأوروبا ،غير انها حصلت على شيء كثير. وما ان انتهت الحرب وانهارت الامبراطورية القيصرية، حتى ادركت اليابان ان فرصتها الذهبية للتوسع في آسيا قد حلّت . فدخلت جيوشها سيبريا ، ووصل عملاؤها إلى سمرقند وبُخارى في اواسط آسيا . ولكن هذه المغامرة باءت بالفشل بسبب تيقظ روسيا السوفييتية ومعارضة امريكا لها، اذ يجب ان لا

يغرب عن بالنا أن امريكا لم تكن تحب اليابان ابداً . ولم تكن تثق بها ، كما ان اليابان لم تكن تحب امريكا ، وكلاهما ينظر للآخر شزراً عبر المحيط الهادي وكان مؤتمر واشنطن الذي عقد في سنة ١٩٢٢ ضربة قاضية لاطماع اليابان وانتصاراً كبيراً للسياسة الامريكية، اذ ان هذا المؤتمر الذي ضمّ تسع دول من جملتها اليابان ، قد قرّر احترام استقلال الصين ، وهذا يعني فقدان أمل اليابان بعد الآن بالتوسع على حساب الصين . وانهيت في هذا المؤتمر ايضاً المحالفة المعقودة بين بريطانيا واليابان ، وبذلك اصبحت هذه معزولة لوحدها في الشرق الاقصى . وبدأت الحكومة البريطانية في بناء قاعدة بحرية جبارة في سنغافورة، وهذا يعني تهديداً اكيداً لليابان ، وفي سنة ١٩٢٤ سنّت الولايات المتحدة قانوناً يمنع بموجبه العمال اليابانيون من الهجرة لامريكا . وقد غضبت اليابان كما غضبت معظم بلدان الشرق لهذا التمييز العنصري ، ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئاً ضد امريكا. ولما شعرت انها معزولة عن العالم ومحاطة بالاعداء من جميع الجهات ، تحولت جهة روسيا وعقدت معها معاهدة في سنة ١٩٢٥ .

واريد ان اتحدث اليك عن كارثة ضخمة اصابت اليابان في هذه الفترة واضعفتها كثيراً . فقد حدث زلزال ارضي في ١ سبتمبر ١٩٢٥ تبعه فيضان البحر وحريق كبير في العاصمة طوكيو مما خربها وخرب ايضاً ميناءها يوكوهاما . ومات في هذه الحوادث مايقرب من ١٠٠،٠٠٠ شخص وتضررت البلاد اضراراً جسيمة . وقد قابل اليابانيون هذه الكارثة بشجاعة وصبر وبنوا مدينة جديدة على انقاض طوكيو .

اضطرت اليابان لمصالحة روسيا بسبب مشاكلها الكثيرة . ولكن هذا لم يعن انها توافق على الشيوعية ، لأن الشيوعية تعني وضع حد لعبادة الامبراطور وانهاء الاقطاع واستغلال الطبقة الحاكمة للطبقات الفقيرة ، وباختصار انهاء كل ما يدافع عنه نظام الحكم الحاضر في اليابان وكانت الشيوعية في اليابان في نمو مستمر بسبب تردّي الشعب المتزايد في الشقاء واستغلاله من قبل اصحاب المصانع . وكان عدد السكان في ازدياد مستمر ، ولم يستطيعوا ان يهاجروا لأمريكا او كندا ولا حتى لصحاري استراليا ؛ فقد اغلقت الابواب في وجوههم . صحيح ان الصين قريبة منهم ، ولكنها هي ايضاً غاصة بالسكان ؛ فاضطر بعضهم للهجرة الى

كوريا ومنشوريا . وبالاضافة الى هذه المتاعب ، كان على اليابان ان تواجه متاعب اخرى في التصنيع وبسبب الازمة الاقتصادية العالمية . وكلما كانت الحالة الداخلية تزداد سوءاً ، كلما كان ضغط الحكومة على الافكار الشيوعية واية افكار متحررة اخرى في ازدياد . وفي سنة ١٩٢٥ سنّت الحكومة قانون «حفظ الأمن» ؛ واثبت هنا اول بند فيه نظراً لطرافته

« ان كل شخص ينتسب الى اية جمعية هدفها تغيير الدستور او الغاء نظام الملكية الخاصة ، وكل شخص ينتسب الى هذه الجمعيات وهو عارف اغراضها يعاقب بعقوبة تتراوح بين الاعدام والسجن لمدة خمس سنوات . »

ان قسوة هذا القانون الذي لا يمنع الشيوعية فقط ، وانما يمنع كل انواع الاصلاح الاشتراكي او الدستوري ، تدل على مدى الرعب الذي شعرت به الحكومة اليابانية بعد قيام الشيوعية

ولكن الشيوعية انتشرت بسبب الشقاء المتزايد والاحوال الاجتماعية السيئة ، وما لم تُحسَّن هذه الاحوال ، لن تُجدي مقاومة الشيوعية شيئاً . فالتعاسة الموجودة في اليابان شديدة جديداً ، والفلاحون هناك يئنون تحت اعباء الديون كما هي الحالة في الصين والهند . والضرائب مرتفعة بسبب التسليح ومستلزمات الحروب . وقد وردتنا تقارير تفيد ان بعض الفلاحين بلغ بهم الجوع حداً اجبرهم على التفتيش على العشب والجذور واكلها ، ومنهم من باع اولاده ولم تسلم الطبقة الوسطى كذلك بسبب انتشار البطالة ، فكثرت الانتحارات .

بدأت الحملة ضد الشيوعية على نطاق واسع في اوائل سنة ١٩٢٨ عندما اعتقل اكثر من ١٠٠٠ شخص في ليلة واحدة ، ولم يُسمح لاية جريدة ان تنشر هذا الخبر الا بعد مضي اكثر من شهر . وتكررت غارات البوليس والاعتقالات وازدادت سنة بعد سنة . ومن اكبر هذه الغارات ما حدث في سنة ١٩٣٢ عندما اعتقل ٢٢٥٠ شخصاً ، معظمهم ليسوا من العمال وانما من التلاميذ والمعلمين ، وفيهم مئات من خريجي الجامعات والنساء . ومن الغريب حقاً اننا نلاحظ شباناً يابانيين اغنياء في صفوف الشيوعيين . وكما هي الحالة في الهند كان المتحررون في

افكارهم يُعتبرون أكثر خطراً من المجرمين ، واستمرت محاكمات الشيوعيين في اليابان سنين عديدة .

حدثتك كل هذا الحديث لأوضح لك احوال اليابان ولتكوّني عنها فكرة تساعدك على فهم مغامراتها في منشوريا التي سأروي لك قصتها الآن .

قرأت في رسائلي السابقة عن محاولات اليابان المستمرة ايجاد موطىء قدم لها في البر الآسيوي ، بدأت في كوريا ثم انتقلت الى منشوريا . وقد شنّت حرباً على الصين في سنة ١٨٩٤ وألحقتها بحرب مع روسيا بعد عشر سنوات من اجل هذا الغرض . وانتصرت اليابان وبدأت تتقدم خطوة خطوة . فاعلنت عن ضم كوريا وجعلتها قسماً من الامبراطورية اليابانيــة . وفي منشوريا التي هي عبارة عن ثلاث مقاطعات في شرقي الصين ، اخذت اليابان الامتيازات التي كانت لروسيا في بورت آرثر ، واصبح قسم من سكة الحديد التي مدّتها روسيا وتخترق منشوريا ، وهي المسماة سكة حديد شرقي الصين ، تحت سيطرة اليابان وسمّتها سكة حديد جنوبي منشوريا . وبالرغم من كل هذه التغييرات ظلت منشوريا تابعة للحكومة الصينية ؛ وبسبب وجود سكة الحديد استمر سيل المهاجرين الصينيين اليها . وهذه الهجرة للمقاطعات الثلاث الشمالية الشرقية تعتبر من اكبر الهجرات في تاريخ العالم ، إذ هاجر بين سنة ١٩٢٣ و١٩٢٩ ما يقرب من ٢،٥٠٠،٠٠٠ صيني . ويبلغ عدد سكان منشوريا الآن حوالى ٣٠ مليوناً ، ويؤلف الصينيون ٩٥ ٪ منهم ، ولذلك تعتبر هذه المقاطعات الثلاث صينية ، اما الـ ٥ ٪ الباقية فهي مؤلفــة من روس ومغول رحّل وكوريين ويابانيين . لقد امتزج «المنشوس» وهم سكان منشوريا الاصليين بالصين ، فنسوا لغتهم الاصلية واصبحوا قسماً منها .

ولا بد انك تذكرين ما قلته لك عن معاهدة الدول التسع التي وقعت في مؤتمر واشنطن سنة ١٩٢٢ ، وقد كان قصد الدول الغربيــة من هذه المعاهدة ايقاف مطامع اليابانيين في الصين . وقد نصّت المعاهدة بصورة واضحة جلية لا لبس فيها ولا ابهام (وكانت اليابان احدى الدول الموقعة عليها) على ان هذه الدول قد وافقت على «ان تحترم سيادة واستقلال الصين وحدودها وادارتها» .

بقيت اليابان عدة سنوات وهي تحافظ على عهدها، ولكنها بنفس الوقت كانت تساعد القادة العسكريين الصينيين بالنقود وغيرها للاستمرار في حربهم الاهلية ، وذلك لإضعاف الصين. ومن اهم هؤلاء شان تسوين الذي كان يسيطر على منشوريا وبكين قبل انتصار الوطنيين الجنوبيين . وفي سنة ١٩٣١ بدأت الحكومات اليابانية تنفذ سياسة اعتدائية في منشوريا . وقد يكون السبب في ذلك الازمة الاقتصادية الحادة التي اجبرتها على عمل شيء ما في الخارج لكي توجه انظار الشعب اليها وتلهيه عن ازمته الداخلية ، وقد يكون السبب سيطرة العسكريين على الحكومة او شعورها بأن الدول الاخرى مشغولة بمشاكلها وازمتها الاقتصادية، وبأنها على الاغلب لن تتدخل ومن المحتمل ايضاً ان تكون كل هذه الاسباب مجتمعة هي التي دفعت الحكومة اليابانية لاتخاذ خطوة جريئة من هذا النوع ، لأنها خرق صريح لمعاهدة الدول التسع المعقودة سنة ١٩٢٢ ، كما انها كانت خرقاً لميثاق عصبة الامم ، اذ ان الصين واليابان كانتا عضوين في العصبة ، ولا تستطيع أي واحدة منهما مهاجمة الاخرى دون الرجوع للعصبة اولاً، واخيراً كانت خرقاً لميثاق باريس المعقود سنة ١٩٢٨ والقاضي بتحريم الحرب . ولذلك تكون اليابان قد نقضت كل هذه المعاهدات والعهود ، وتحدت العالم بأعمالها الحربية ضد الصين.

وبالطبع لم يعترف اليابانيون بذلك، بل قدموا اعذاراً واهية ادعوا فيها ان عصابات في منشوريا قد هددت مصالحهم مما اضطرهم لإرسال قواتهم لحفظ الأمن والنظام وحماية مصالحهم . وبالرغم من انهم لم يعلنوا الحرب ، إلا ان قواتهم شرعت في غزو منشوريا . فغضب الشعب الصيني واحتجت حكومته واشتكت إلى عصبة الامم والدول الاخرى ، ولكن احداً لم يعرها اي اهتمام ، فكل دولة كانت لها مشاكلها الخاصة الكثيرة ، ولم ترد أي منها ان تضيف إلى متاعبها معاداة اليابان. ومن المحتمل جداً ان بعض الدول ، وعلى الأخص انجلترا ، كانت متفقة سراً مع اليابان على هذا العمل . وقد قاوم الصينيون مقاومة عنيفة في منشوريا، ومع ذلك كان المفروض انه لا يوجد اي حرب بين البلدين . وقامت حركة كبيرة في الصين لمقاطعة البضائع اليابانية ، وكان هذا اكبر سلاح في يد الصين .

وفي يناير ۱۹۳۲ نزل جيش ياباني إلى الارض الصينية في شنغهاي وقام بمذبحة كبيرة تعتبر من أشنع ما حدث في العصور الحديثة . وقد تجنب الجيش الاحياء التي تسكنها الجاليات الاجنبية حتى لا يثير الدول الغربية ، وركز هجومه على الاحياء الوطنية . ويوجد قرب شنغهاي منطقة واسعة (اسمها على ما اظن شابي) قذفت بالقنابل وخربت تخريباً تاماً وقتل الالوف من سكانها واصبح غيرهم دون مأوى . تذكري ان هذا الهجوم لم يكن موجهاً ضد جيش ، وانما كان منصباً على سكان آمنين . وقال الاميرال الياباني قائد هذه العملية الباسلة ! جواباً على سؤال وجه اليه ان اليابان قد قررت بدافع من الشفقة والعطف ان « تواصل قذف القنابل على المدنيين بدون تفريق بومين آخرين فقط» . وكانت هذه المجزرة من العنف بحيث وصفها مراسل جريـــدة التايمس اللندنية في شنغهاي وهو من انصار اليابانيين بأنها « مذبحة بالجملة » تقشعر لها الأبدان . ويمكنك بعد ذلك ان تتصوري كيف شعر الصينيون ، لقد مرت موجة من الرعب والغضب في جميع انحاء الصين ، ونسي تجار الحروب خلافهم مع الحكومة ، أو على الأقل تظاهروا بالنسيان عندما رأوا هذا الغزو البربري الاجنبي . وبدأوا يتحدثون عن تأليف جبهة موحدة ضد اليابان ، حتى ان الحكومة الشيوعية في داخل الصين عرضت خدماتها على حكومة نانكين . ومع ذلك ، ويا للعجب ، رفضت نانكين أو على الأصح رئيسها شان كاي شك ان يتحرك للدفاع عن شنغهاي ضد القوات اليابانية المتقدمة . وكان كل ما عملته حكومة نانكين ان قدمت احتجاجاً لعصبة الأمم ، ولم تحاول ابداً ان توحد الجبهة لمقاومة اليـابانيين ، وكان يظهر انها لم ترغب في المقاومة بالرغم من كل ماتصرح به من اقوال وما يشعر به الشعب من غضب وحقد .

وعندما قدم إلى شنغهاي جيش من الجنوب ، يسمى جيش الطريق التاسعة عشرة ، وكان مؤلفاً من اهالي كانتون ، ولم يكن خاضعاً لحكومة نانكين ولا لحكومة كانتون . كان جيشاً فقيراً لا يملك من المعدات إلا القليل ولا يوجد معه مدافع كبيرة ، ولا يلبس افراده زياً موحداً ولا ملابس تكفي لوقايتهم من برد الصين القارس . وكان كثير من جنوده تتراوح اعمارهم بين اربع عشرة سنة

وست عشرة سنة ، ومنهم من كان عمره لا يتجاوز الاثنتي عشرة . وقد قرر هذا الجيش مقاومة اليابانيين وايقافهم عند حدهم متحدياً بذلك اوامر شان كاي شك. فاشتبك مع اليابانيين لمدة اسبوعين في يناير وفبراير ١٩٣٢ في قتال مرير دون ان تصله اية مساعدة من حكومة نانكين. واستبسل في قتالهم واظهر بطولات نادرة واستطاع فعلا أن يوقف زحف اليابانيين المزودين بأحدث الاسلحة والمعدات، وقد دهش الجميع لهذا النصر سواء كانوا يابانيين أو سواهم حتى الصينيين انفسهم. وبعد مضي اسبوعين على القتال دون ان يتلقى هذا الجيش اية مساعدة ، بل كل ما كان يتلقاه المديح والثناء ! تلطف شان كاي شك وارسل بعض فرقه لمساعدته في الدفاع عن البلاد

لقد كتب جيش الطريق التاسعة عشرة التاريخ بدمه ، واصبح مشهوراً في كل العالم . فبسالته التي اظهرها قد قلبت كل الخطط اليابانيـــة رأساً على عقب ، فاضطرت اليابان ان تسحب قواتها تدريجياً من شنغهاي وخصوصاً بعد ان رأت ان الدول الغربية الاخرى كانت تواقة لحماية مصالحها فيها . ومن الجدير بالملاحظة في هذا المجال ان هذه الدول الغربية كانت مهتمة بمصالحها المالية اكثر بكثير من اهتمامها بالمذابح المروعة - كمذبحة «شابي» - التي ذهب ضحيتها آلاف من الناس، ومن نقض اليابان للعهود والمواثيق والمعاهدات . اما عصبة الامم فقد كانت دائماً تنتحـــل الاعذار لتأجيل بحث القضية ، لأن وجود حرب حقيقية وقتل الآلاف ليس امراً هاماً مستعجلا بالنسبة للعصبة ! لقد قالوا انه لم يكن هنالك اية حرب لأنها لم تعلن رسمياً ! ان هذا الموقف الذي وقفته العصبة قد اضعفها كثيراً . ومسؤولية ذلك تقع على الدول الكبرى وبالأخص انجلترا التي كانت تؤيد اليابان في اروقة العصبة. واخيراً جداً عينت العصبة لجنة دولية للتحقيـــق في مسألة منشوريا برئاسة اللورد ليتون . وقد وافقت الدول على تشكيل هذه اللجنة لأن ذلك يعني تأجيل اتخاذ قرار لعدة اشهر . ومنشوريا بلاد بعيدة ويستغرق السفر اليها وقتاً طويلاً ؛ وقد تنفرج المسألة في هذا الوقت فتريحهم.

انسحب اليـابانيون من شنغهاي ، ولكنهم بدأوا يركزون اهـــتمامهم في

منشوريا ، فعينوا فيها حكومة اسمية واعلنوا ان منشوريا قد استعملت حقها في تقرير مصيرها . وسميت هذه الحكومة «منشوكو» ،وعينوا ملكاً عليها واحداً من سلالة «مانشو» التي كانت تحكم الصين في الماضي . وبالطبع عملت كل هـذه الترتيبات من اجـل ذر الرمـاد في العيون ، اذ ان الحكام الحقيقين كانوا هم اليابانيين . وكل واحد يعرف انه لو انسحب الجيش الياباني لسقطت حكومـة منشوكو في اليوم التالي .

لم يجد اليابانيون طريقهم في منشوريا مفروشاً بالورود والرياحين ، بل استمر المتطوعون الصينيون في قتالهم ، وكان اليـابانيون يدعون هؤلاء المناضلـين «عصابات» . واخذ اليابانيون في تدريب جيش محلي لحكومة منشوكو مؤلف من الصينيين . وعندمـا كان يتم تدريب الجنود وتسليحهم وينقلون لقتال «العصابات» كانوا يديرون ظهورهم وينضمون لهـذه العصابات بجميع اسلحتهم الحديثة . وقد عانت منشوريا كثيراً من الخراب بسبب القتال المستمر ، وتعرضت تجارة حبوب فول الصويا ، وهي مشهورة هناك الكساد .

بعد عدة اشهر قضتها لجنة يتـون في التحقيق ،قدمت تقريرها لعصبة الامم . كان تقريراً معتدلاً حكيماً بذلت عناية كبيرة في تحضيره ،ادانت به اليابان مئة بالمائة . وقد اغتاظت الحكومة البريطانية كثيراً لأنها كانت تريد ان تحمي اليابان ، فأرجيء بحث الموضوع عدة اشهر مرة اخرى . وفي النهـاية لم يكن هنالك امام العصبة من مفر لبحث الموضوع . كانت امريكا تختلف عن انجلترا اذ انها كانت تعارض اليابان واعلنت انها لن تعترف بأي وضع تفرضه اليابان بالقوة على منشوريا او اي مكان آخر . وبالرغم من هـذا الموقف الامريكي القوي إلا ان انجلترا كانت تساند اليابان ، يساعدها في ذلك كل من فرنسا وايطاليا والمانيا .

وبينما كانت عصبة الامم تحاول كل جهدها في عدم اتخاذ اي قرار ، قامت اليابان بعمل جديد . ففي اول يوم من سنة ١٩٣٣ دخـل جيش ياباني بصورة مفاجئة الى الاراضي الصينية ،وهاجم مدينة « شانهيكوان » التي تقع على سور الصين العظيم من الجهة الصينية ، وصحبت هذا الهجوم مدفعية ثقيلة وغارات جوية، وكان

من نتيجة هذا الهجوم تحول «شانهيكوان» الى كتلة من الدخان ، وقتل سكانها المدنيين ، ثم تقدم الجيش الياباني في مقاطعة « جيهول » واصبح على مقربـــة من بكين . وكان العذر الذي اتخذوه ذريعة لهذا الهجوم هــو ان « العصابات» كانت تستعمل «جيهول» مركزاً لنشاطها في مهاجمة منشوكو ، وعلى كل حال يمكـــن اعتبار « جيهول » قسماً من منشوكو !!

ايقظ هذا الاعتداء الجديد العصبة من سباتها ، فقررت ، بناء على اصرار الدول الصغرى ، الموافقة على تقرير بتــون وإدانة اليابان . غير ان هذه لم تهتم كثيراً (لأنها كانت متأكدة من ان الدول الكبرى ومن جملتها انجلترا تؤيدها سراً) وانسحبت من العصبة ، واستمرت في تقدمها نحو بكين . وقد لاقت مقاومة طفيفة لا تذكر ، ولما وصلت جيوشها الى ابواب بكين اعلنت الهدنة بين الصين واليابان في مايو ١٩٣٣ كان هذا نصراً لليابان ، ولم يكن مستغربــاً ان تخسر حكومة نانكين والكومنتانج تأييد الشعب بعد ان رأى مقدار المقاومـــة التي ابدتها ضد الاعتداء الياباني .

تحدثت كثيراً عن المسألة المنشورية لأنها هامة وتؤثر على مستقبل الصين . والأهم من ذلك ان عصبة الامم اثبتت عدم فعاليتها وفشلها في وجه الاخطاء التي ترتكبها الدول ، كما اثبتت نفاق الدول الاوروبية الكبيرة ومؤامراتها . وفي هذه المسألة بالذات اتخذت امريكا (وهي لم تكن عضواً في العصبة) موقفاً شديداً ضد اليابان وكادت تشتبك معها في حرب . ولكن التأييد السري الذي قدمته انجلترا والدول الاخرى لليابان قلـل من اهمية موقف امريكا ، ولما شعرت هذه بانها توشك ان تعزل عن بقية الدول ، اصبحت اكثر حذراً من السابق . لقد ادانت العصبة اليابان بقرارها ولكنها لم تتبع ذلك بأي عمل مجد صحيح انها حذرت الدول الاعضاء من الاعتراف بحكومة منشوكو ، ولكن ذلك لم يؤثر على الوضع ابداً .

وعلى الرغم من ان عصبة الامم قد ادانت اليابان إلا ان وزراء بريطانيـــا وسفراءها كانوا يصرّون على تبرير اعمال اليابان . كان هذا مثلاً واضحاً يبين الفرق بين موقفهم هذا وموقفهم من روسيا . ففي ابريل ١٩٣٣ حوكم بعض المهندسين

الانجليز في روسيا بتهمة التجسس فبرّىء بعضهم وحكم اثنان منهم احكاماً خفيفة بالسجن . فثارت انجلترا واقامت الدنيا واقعدتها وقررت حالاً منــع دخول البضائع الروسية لبريطانيا – واجابت روسيا على ذلك بأن منعت دخول البضائع البريطانية اليها [1]

وهكذا خسرت الصين منشوريا وكثيراً غيرها ، واستمرت اليابان في تهديد بقية البلاد . فكانت التبت مستقلة ،ومنغوليا بلاداً سوفييتية متحالفة مع الاتحاد السوفييتي . وكذلك واجهت الصين متاعب اخرى في سنكيانج او تركستان الصينية الواقعة بين التبت وسيبيريا . وتذهب القوافل بصورة منتظمة من سرنغار في كشمير الى يرقند وكشغر في هذه المقاطعة عن طريق « له » في « لوخ » . وسكان هذه المقاطعة يتألفون من الأتراك المسلمــين . انهم صينيون في ملامحهم وثقافتهم حتى وفي اسمائهم ، ولكنهم بعيدون جداً عن قلب الصين ، وتفصلهم عنها صحراء جوبي . اما المواصلات فهي بدائية للغاية ، والروابط التي تربطهم بالصين ليست قوية ، فهم يحنّون للقومية التركية كانت هذه المقاطعة مسرحاً للمؤامرات الدولية منذ الحرب العالمية . فكل من انجلترا وروسيا واليابان تتجسس على الاخرى ، وكلها تتجسس على الحكومة الصينية وتساعد الزعماء المحليين في نزاعهم مع بعضهم البعض .

وفي اوائل سنة ١٩٣٣ انفجرت ثورة تركية في سنكيانج ، واحتل الثوار يرقند وكشغر واعلنوا فيها جمهورية مستقلة . فاتهم البريطانيون السوفييت بأنهم شجعوا الثورة ، ولكن السوفييت اتهموا البريطانيين صراحــة بأنهم هم الذين حرضوا على الثورة بقصد خلق دولة تفصل الصين عن روسيا مثل دولة منشوكو ، وذكروا ايضاً اسم الضابط البريطاني الذي نظم الثورة في سنكيانج .

ملاحظة : استطاع انصار الحكومة الصينية اخضاع هذه الثورة بمساعــدة السلطات السوفييتية بصورة غير رسمية . فتعززت سمعة السوفييت في اواسط آسيا بقدر ما سقطت سمعة الانجليز .

---

[1] ـ هذه الحرب التجارية بين انجلترا وروسيا قد انتهت اخيراً باتفاق بين البلدين .

اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية

٧ يوليو ١٩٣٣

●

لنرجع الآن الى روسيا ، ارض السوفييت، ونواصل قصتنا من حيث تركناها. وصلنا الى يناير ١٩٢٣ عندما توفي لينين قائد الثورة ونبيها . وقد ذكرت روسيا في كثير من الرسائل التي بعثتها لك عن البلاد الاخرى . فعندما نطالع المشاكل الاوربية ، او مسألة الحدود الهندية أو بلاد الشرق الاوسط أو تركيا او ايران او الصين واليابان في الشرق الاقصى فانه لا بد من ذكر روسيا . ولا بد انه تأكد لك الآن انه لا يمكن بالحقيقة فصل السياسة عن الاقتصاد في اية دولة من الدول . لقد تشابكت مصالح الدول بعضها مع البعض في السنوات الاخيرة لدرجة ان اصبح العالم وحدة واحدة . واصبح التاريخ بذلك تاريخاً دولياً ؛ ولا يمكن فهم اية امة دون النظر بنفس الوقت الى تاريخ العالم .

يشغل الاتحاد السوفييتي مساحة كبيرة من الارض تمتد في اوروبا وآسيا . وبالرغم من انه منفصل عن العالم الرأسمالي ، إلا ان علاقته معه ، سواء الحسنة او السيئة مستمرة . تحدثت الك في رسائلي السابقة عن السياسة الكريمة التي اتبعها السوفييت مع الدول الشرقية وعن المساعدات التي قدموها الى كل من تركيا وايران وافغانستان ، وعن العلاقات الودية جداً مع الصين التي قطعت فيما بعد . كما تحدثت الك ايضاً عن الغارة التي شنت على مكاتب التجارة الروسية (اركوس) في انجلترا وعن « رسالة زينوفييف » التي ثبت تزويرها ، ومع ذلك فقد اثرت على

الانتخابات البريطانية العامة . واريد الآن ان اتحدث اليك عن ارض السوفييت نفسها لتري ء‌و اول تجربة اشتراكية عجيبة .

مضت السنوات الاربع الاولى بعد الثورة من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢١ في حرب مستمرة للمحافظة على الثورة من اذى اعدائها كانت هذه السنوات ملأى بالقتال والجوع والموت ، ويبرز في اثنائها حماس الجماهير وبطولتها في الدفاع عن المثل الأعلى الذي اتخذته . ولم تحصل على فوائد مباشرة من هذا القتال وانما كانت تملأها آمال كبار جعلتها تنسى كل ما عانته من آلام وجوع . هذه الفترة اطلق عليها اسم « الشيوعية العسكرية » .

ثم جاءت فترة رخاء قصيرة عندما اتخذ لينين سياسة اقتصادية جديدة في سنة ١٩٢١ . وهذه السياسة عبارة عن تراجع عن الشيوعية او بالاحرى قبول حل وسط في سبيل ارضاء العناصر البورجوازية في البلاد . ولم يكن هذا يعني ان الزعماء البلاشفة قد غيروا اهدافهم ، انما يعني انهم تراجعوا خطوة الى الوراء كي يستريحوا ويستطيعوا بعدها السير الى الامام عدة خطوات ثم قرر السوفييت بناء بلادهم من جديد بعد ان كان معظمها خرباً مهدماً . ولكي يبنوا بلادهم ، احتاجوا الى الآلات والمواد كقاطرات سكك الحديد والعربات والشاحنات والجرارات ومعدات المصانع. فتوجب عليهم ان يشتروا هذه الاشياء من الخارج؛ غير انه لم يكن لديهم المال اللازم ، ولذلك حاولوا شراء هذه الاشياء بالنسيئة . يشترون الآلة ويدفعون الثمن مقسطاً في المستقبل . ولكن على الدولة التي تؤيد الاقتراض ان تقيم علاقات حسنة مع الدول المقرضة . ولذلك ركز الاتحاد السوفييتي كل جهوده في سبيل الاعتراف به من قبل الدول الكبرى وانشاء علاقات تجارية معها . ولكن الدول الاستعمارية الكبرى كانت تكره البلاشفة وجميع ما يعملون، وكانوا ينظرون الى الشيوعية على انها وباء يجب القضاء عليه ! وقد حاولوا فعلاً القضاء عليها في حرب التدخل ولكنهم فشلوا ، وكانوا يفضلون الا ينشئوا مع الاتحاد السوفييتي اية علاقة ، غير انه لا يمكن تجاهل حكومة تشغل سدس سطح العالم ، كما لا يمكنهم تجاهل عميل ممتاز مستعد لشراء كميات كبيرة

من الآلات الثمينة . فالتجارة بين بلد زراعي كروسيا وبلاد صناعية كألمانيا وانجلترا وامريكا تفيد الفريقين ، لأن روسيا تريد الآلات وتعطي بدلها المواد الغذائية والمواد الخام .

ويظهر ان سحر المال كان اقوى في نفوس الدول من كراهية الشيوعية ، ولذلك اعترفت معظم الدول بالاتحاد السوفييتي ما عـــدا امريكا التي رفضت الاعتراف به بالرغم من وجود علاقات تجارية بينهما [1]

وبهذه الطريقة انشأ الاتحاد السوفييتي عـلاقات مع معظم الدول الرأسمالية والاستعمارية، واستطاع ان يستغل المنافسات الموجودة بين هذه الدول كما فعل مع المانيا المنهزمة عندما وقع معها معاهدة ريالو في سنة ١٩٢٢. ولكن هذه العلاقات كانت متقطعة ،اذ ان هنالك اختلافات جوهرية بين النظامين الرأسمالي والشيوعي؛ فكان البلاشفة يشجعون دائماً الشعوب المظلومة والمستغَلّة على تحطيم مستغليهم وظلاّمهم سواء كان ذلك في المستعمرات او في المصانع . وبالطبع لم يقوموا بهذا التشجيع بشكل رسمي، ولكن بواسطة الكومنترن او الشيوعية الدولية . ومن ناحية أخرى كانت الدول الاستعمارية وخصوصاً انجلترا مستمرة في حبك المؤامرات والدسائس ضد كيان السوفييت انفسهم ؛ ولهذا كان لا بد من ظهور المشاكل ، ولا بد من استمرار الصراع ، مما ادّى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية في كثير من الاحيان . وانت تذكرين ما قلته لك عن قطع العلاقات مع انجلترا التي نتجت عن الغارة على اركوس في سنة ١٩٢٧ . ويمكننا فهم سرّ هذا الاحتكاك اذا تذكرنا ان انجلترا هي اكبر دولة استعمارية، وان الاتحاد السوفييتي يمثل الفكرة التي تريد القضاء على الاستعمار نفسه . ولكن قد يكون هنالك اشياء أخرى بين الدولتين زيادة عما ذكر ، اذ ان العـداوة والمنافسة التقليديتين بينهما قد ورثتاها من روسيا القيصرية وانجلترا القديمة .

ان الخوف الذي يجتاح انجلترا والدول الرأسمالية الأخرى لا يرجع إلى رهبة من الجيوش السوفييتية بقدر ما يرجع الى شيء غير ملموس هو في الواقع اقوى من

١ــ اعترفت امريكا بالاتحاد السوفييتي سنة ١٩٣٣ وتبادلت الدولتان التمثيل الدبلوماسي .

الجيوش وافعل اثراً ، ألا وهي الافكار السوفييتية والدعاية الشيوعية. ولمكافحة ذلك قامت الدول الرأسمالية باكبر دعاية تضليلية ضد روسيا ونشرت عنها اعجب القصص وابعدها عن الحقيقة . واخذ الساسة الانجليز يصفون الزعماء السوفييت بأوصاف لا يوصف بها سوى الأعداء اثناء الحرب ، فمثلا وصف اللورد بركنهد الساسة السوفييت بأنهم « عصبة من القتلة » و « عصبة من الضفادع المتورمة » وذلك في وقت كان المفروض فيه ان تكون الدولتان على علاقات حسنة ، والتمثيل الدبلوماسي قائم بينهما في مثل هذه الظروف لا يمكن في الواقع ان تسود العلاقات الحسنة بين السوفييت والدول الاستعمارية . فالاختلافات بينهما اساسية . ويمكن مثلاً ان يتفاهم المنتصرون في الحرب مع المنهزمين ، ولكن ذلك غير ممكن بين الرأسماليين والشيوعيين . فالتفاهم بين هؤلاء ، اذا حصل ، انما يحصل موقتاً . انه هدنة لا اكثر ولا اقل .

من اسباب الاختلاف بين روسيا السوفيتية والدول الرأسمالية الغاء روسيا لديونها الاجنبية ، ولم يعد الامر مهماً هذه الايام لأن كل دولة مدينة تقريباً لا تدفع ديونها ، ولكن هذا الموضوع يُثار من آن لآخر . فعندما تسلم البلاشفة الحكم ألغوا الديون التي استدانها القياصرة من الخارج . وقد اعلنت روسيا هذه السياسة منذ فشلت الثورة الأولى في سنة ١٩٠٥ . وبموجب هذه السياسة سامحت روسيا الدول الأخرى بديونها التي لها عليها وكفّت عن ادعاءاتها السابقة في البلاد الشرقية مثل الصين . وكذلك فإنها لم تطالب بأي نصيب من التعويضات . قدم الحلفاء في سنة ١٩٣٢ مذكرة الى السوفييت بخصوص ديونهم، وردّ السوفييت على هذه المذكرة بأن ذكروا الحلفاء بأن كثيراً من حكومات الدول الرأسمالية نفسها قد ألغت ديونها والتزاماتها فيما مضى وصادرت ممتلكات الاجانب . ومما جاء في الرد «ان الحكومات والنظم التي تنشأ عن الثورات ليست مقيدة بالتزامات الحكومات السابقة» . وذكّرت الحكومة السوفييتية دول الحلفاء بما فعلته احداها وهي فرنسا اثناء ثورتها العظيمة : « ان المجلس الفرنسي الذي يعتبر نفسه الوريث الشرعي للحكومة الفرنسية قد قرر في ٢٢ ديسمبر ١٧٩٢ أن « سيادة الشعب لا يمكن ان

تقليدها معاهدات وقعها الطغاة ! » وبموجب هذا القرار لم تكتف فرنسا الثورة بتمزيق المعاهدات السياسية التي عقدتها الحكومات السابقة مع الدول الاجنبية ، بل ألغت ديونها التي استدانتها الحكومات السابقة من الأهالي »

بالرغم من كل هذه الأسباب التي بررت موقف الحكومة السوفييتية ، فإنها كانت عازمة على التفاهم مع الدول الاخرى لدرجة انها كانت مستعدة تماماً لبحث موضوع الديون معها ولكنها اصرّت على ان مسألة الديون هذه يجب ان تبحث بعد أن تعترف الدول الأخرى بها وقد اكدت بالحقيقة لكل من انجلترا وفرنسا وامريكا بأنها ستدفع الديون وتوفي التزاماتها، غيران الحكومات الرأسمالية لم تكن تواقة للتفاهم مع روسيا .

قدّم السوفييت ادعاءً ضد انجلترا مقابل ادعاء الاخيرة ضدهم كان ادعاء انجلترا ضد روسيا يبلغ ٨٤٠ مليون جنيه بما فيه من ديون حرب وسندات سكك الحديد واموال . اما السوفييت فقد ادعوا بأن بريطانيا والجيوش البريطانية قد ساعدت اعداء السوفيات اثناء الحرب الاهلية مما سبب اضراراً بالغة قدرت بـ ٤٠٥٠٤٠,٢٢٦,٠٦٧,٤ جنيه . وتبلغ حصة بريطانيا منها ٢,٠٠٠ مليون جنيه . وهكذا كان ادعاؤهم المضاد اكثر من الادعاء الاصلي بمرتين ونصف المرة .

ولم يكن موقف السوفييت من هذه الناحية ضعيفاً ، فقد استشهدوا بحادثة الطراد ألباما . وقصة هذا الطراد انه صنع في انجلترا لحساب الولايات الجنوبية اثناء الحرب الاهلية الامريكية. ترك هذا الطراد ميناء لفربول بعد ان بدأت الحرب الاهلية ، وكان سبباً في احداث اضرار بالغة بتجارة وسفن الولايات الشمالية . وكانت انجلترا وامريكا على شفا الحرب . فادعت حكومة الولايات المتحدة بأن انجلترا لم تكن تملك الحق في تسليم الطراد الى الولايات الجنوبية اثناء الحرب ، وطلبت تعويضات عن الاضرار التي سبّبها فأحيلت القضية الى التحكيم ، واضطرت انجلترا إلى دفع ٢,٢٢٩,١٦٦ جنيهاً إلى حكومة الولايات المتحدة .

اذا قارنا المساعدة التي قدمتها انجلترا اثناء الحرب الاهلية الروسية إلى اعداء روسيا بالمساعدة التي قدمها الطراد في الحرب الأهلية ، لوجدنا ان الاضرار التي

احدثها هذا الطراد والتي قدرت بالمبلغ المذكور لا تقاس ابداً بالاضرار التي سببتها انجلترا وقد اجري احصاء عن عدد الاشخاص الذين قتلوا اثناء حرب التدخل في روسيا فبلغ ١,٣٥٠,٠٠٠ شخص .

ان مسألة ديون روسيا القديمة قد حلت جزئياً واخذت تموت بمضي الوقت . واننا نرى بنفس الوقت ان الدول الرأسمالية والاستعمارية مثل انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا قد قامت بنفس العمل الذي دهشوا له من روسيا ، صحيح انهم لم يلغوا الديون ولم يتحدّوا النظام الرأسمالي كما فعلت روسيا ، غير انهم توقفوا عن سدادها !

كانت السياسة السوفيتية مع الدول الأخرى تقوم على السلام بأي ثمن ، لأنهم ارادوا فترة من الوقت يستردون بها انفاسهم ويستعدون للقيام باكبر عمل ، وهو بناء البلاد على اسس النظام الاشتراكي مما استغرق كل انتباههم . ولما لم تظهر في الافق بوادر الثورات الاشتراكية في البلاد الاخرى فقد اخذت فكرة « الثورة العالمية » تضمحل فاقامت روسيا علاقات صداقة وتعاون مع الدول الشرقية بالرغم من انها كانت تتبع النظام الرأسمالي . وقد ذكرت لك سلسلة المعاهدات التي عقدتها روسيا مع كل من تركيا وايران وافغانستان . ولم يكن يربط جميع هذه الدول بعضها ببعض سوى خوفها المشترك وكراهيتها للدول الاستعمارية .

عندما بدأ لينين في سنة ١٩٢١ سياسته الاقتصادية الجديدة أراد من ورائها ان يكسب طبقة الفلاحين المتوسطة الى صف الاشتراكية . وعلى هذا الاساس فانه لم يشجع الفلاحين الاغنياء او الكولاك – وهي كلمة روسية تعني قبضة اليد – لأنهم كانوا رأسماليين صغاراً وكانوا يقاومون الاشتراكية . ثم بدأ لينين مشروعاً ضخماً لكهربة المناطق الريفية ، واقام مولدات الكهرباء الضخمة لهذا الغرض . وقد قصد من هذا المشروع مساعدة الفلاحين واعدادهم لتصنيع البلاد ، واهم من هذا إكساب الفلاحين عقلية صناعية ، وبذلك يقربهم من عمال المدن أو البروليتاريا . فالفلاح الذي بدأ ينير بيته بالكهرباء ، اخذ ينفض عنه غبار الكسل والخرافات ويفكر تفكيراً جديداً . هنالك دائماً

صراع بين المدينة والقرية ، بين سكان المدينة وسكان القرية . فسكان المدينة يريدون طعاماً ومواد خام رخيصة واسعاراً عالية لمنتوجاتهم التي يصنعونها؛ ومن ناحية اخرى يريد سكان القرية آلات ومنتوجات المصانع رخيصة واسعاراً عالية للطعام والمواد الخام . وقد احتد هذا الصراع في روسيا نتيجة للشيوعية العسكرية التي استمرت اربع سنوات . بسبب هذا ، ومن اجل تخفيف حدة هذا الصراع بدأ لينين في تنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة واعطى الفلاحين الوسائل اللازمة من اجل القيام بالتجارة الخاصة .

كان لينين مهتماً جداً بمشروع كهربة البلاد حتى انه استعمل معادلة اصبحت مشهورة وهي « كهرباء + سوفييت = اشتراكية » . وقد استمر مشروع الكهربة هذا يسير بخطوات جبارة حتى بعد لينين . وكانت الطريقة الثانية التي تأثر بها الفلاحون وحسّنوا وسائلهم الزراعية هي ادخال الجرارات للحراثة والاغراض الاخرى ، فاشتروها من شركة فورد في امريكا ؛ ثم اتفقوا معها على بناء مصنع ضخم للسيارات في روسيا يستطيع انتاج ١٠٠,٠٠٠ سيارة كل سنة ، وقد قصد من هذا المصنع انتاج الجرارات اكثر من اي شيء آخر .

ومسألة اخرى زادت من حدة الصراع القائم بين السوفييت والمصالح الاجنبية وهي انتاج البترول وبيعه في الخارج . يوجد البترول بكميات كبيرة في اذربيجان وجورجيا الواقعتين في القوقاز ، وقد تكون هذه الكميات امتداداً لحقول البترول الضخمة الموجودة في ايران والعراق . ومدينة باكو على شاطىء بحر قزوين هي المركز الرئيسي لصناعة البترول في جنوبي روسيا . بدأ السوفييت في بيع بترولهم في الخارج باسعار تقل عن اسعار شركات البترول الاجنبية . وكانت هذه الشركات مثل شركة ستاندرد أويل أوف امريكا وشركة الانجلو ايرانيان وشركة شل ، شركات قوية جداً ، وتسيطر على صناعة البترول في العالم . ولذلك حالما رأت هذه الشركات ان السوفييت يبيعون بترولهم باسعار اقل من اسعارها ، خسرت كثيراً واغتاظت اكثر . فشنت حملة كبيرة ضد البترول السوفييتي وسمته بـ « البترول المسروق » لان آبار البترول في القوقاز قد صادرها السوفييت من

اصحابها الرأسماليين . ومع ذلك وبعد فترة وجيزة توصلت هـذه الشركات الى اتفاق مع اصحاب « البترول المسروق » !

استعمل في سياق حديثي كلمة «سوفييت» ، وفي بعض الاحيان اتحدث عن «روسيا» ، وكنت استعمل هذه الكلمة او تلك بلا دقة لتدل على نفس المعنى ، واجد انه يجب علي ان اخبرك ماذا تعني هاتان الكلمتـــان . اعلنت الجمهورية السوفييتية في نوفمبر ١٩١٧ ، كما تعلمين ، في بطرسبورج على اثر الثورة البلشفيـة . ولم تكن قبلها الامبراطورية القيصرية دولة واحدة متماسكة ، فروسيا التي تنتشر في اوروبا وآسيا تؤلف قسماً كبيراً منها ، وكان هنالك غيرها ما يقرب من ٢٠٠ قومية اخرى كل واحدة تختلف عن الاخرى . وكانت هذه القوميات تعتبر في زمن القيصر شبه مستعمرات ، فلغاتها وثقافتها مضغوط عليها . وبالحقيقة لم يُعمل شيء من اجل تحسين اوضاع الشعوب المتأخرة في اواسط آسيا . وكان اليهود ، بالرغم من انهم لم يكونوا يسكنون منطقة معينة ، مضطهدين جداً ، وحدثت لهم بالفعل مذابح كثيرة . وادى هذا الاضطهاد الى انحياز كثير من هذه القوميات المظلومة الى الثورة الروسية ، ولو انها كانت تقصد من وراء ذلك ثورة وطنية لا ثورة اجتماعية . وحالما انشئت الحكومة الموقتة بعد ثورة فبراير ١٩١٧ وعدت هذه القوميات وعوداً كثيرة ولكنها بالفعل لم تنل شيئاً . اما لينين فقـد اصرّ منذ الايام الاولى للحزب البلشفي وقبل الثورة على اعطاء هذه القوميات حقها في تقرير مصيرها حتى ولو ادى ذلك الى انفصالها التام واستقلالها . كان هذا مـــن برنامج البلشفية القديم ، وما كاد البلاشفة يتسلمون الحكم بعد الثورة حتى اعادوا تأكيدهم لمبدأ حق تقرير المصير .

تمزقت الامبراطورية القيصرية اثناء الحرب الاهلية شر ممـزق ، ولم تكن الجمهـورية السوفييتية سوى مساحة مـن الارض حول موسكو ولينغراد . وبتشجيع من الدول الغربية اعلنت قوميات متعددة تسكن على شاطىء بحـر البلطيق استقلالها وهي فنلندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا وكذلك بولندا . ولما انتصر الروس السوفييت في الحرب الاهلية وانسحبت الجيوش الاجنبية ، نشأت

حكومات سوفييتية مستقلة في كل من سيبيريا واواسط آسيا . ولما كانت لهذه الحكومات اهداف مشتركة، فقد كانت بطبيعة الحال متحالفة على اشد مايكون التحالف . واتحدت هذه الحكومات في سنة ١٩٢٣ لتشكل الاتحاد السوفييتي او ما يسمى باتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . ومنذ سنة ١٩٢٣ حدث بعض التغيير في عدد هذه الجمهوريات ، لأن بعضها قد انقسم الى جمهوريتين . وفي الوقت الحاضر يوجد سبع جمهوريات اتحادية :

(١) جمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية الاتحادية
(٢) « « البيضاء « «
(٣) « اوكرانيا « «
(٤) « ما وراء القوقاس « «
(٥) « التركمان « «
(٦) « ازبك « «
(٧) « تاجكستان « «

كما ان منغوليا متحالفة مع الاتحاد السوفييتي .

وهكذا ترى ان الاتحاد السوفييتي انما هو اتحاد بين جمهوريات كثيرة، وبعض هذه الجمهوريات نفسها عبارة عن اتحاد بين جمهوريات اصغر ، فمثلاً جمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية الاتحادية عبارة عن اتحاد بين اثنتي عشرة جمهورية، وكذلك فان جمهورية ما وراء القوقاس اتحاد بين ثلاث جمهوريات هي اذربيجان وجورجيا وارمينيا يضاف الى هذه الجمهوريات المتشابكة والتي يعتمد بعضها على بعض عدة مناطق « وطنية » داخل الجمهوريات . والغرض من هذه الاستقلالات المحلية هو المحافظة على ثقافة كل قومية ولغتها ، ولاعطائها اكبر قسط ممكن من الحرية . وتبذل الجهود دائماً في سبيل عدم تغليب قومية على اخرى . ان حل مشاكل الاقليات في الاتحاد السوفييتي مهم بالنسبة لنا لأننا سنواجه مشكلة مماثلة . وكانت مشاكل السوفييت اصعب بكثير من المشاكل التي ننتظرها لأن لديهم ١٨٢ قومية ، وقد ذهبوا بعيداً في اعطاء كل قومية الحرية التامة وتشجيعها على العمل والتعليم بلغتها

التي تتكلمها ، فكانت هذه التجربة ناجحة جداً . ولم يكن هذا الاجراء من اجل ادخال السرور على نفوس الانعزاليين ، وانما لأنهم آمنوا بأن الثقة الحقيقية لا يمكن ان تنشر وتؤثر بالجماهير ، إلا اذا كانت بلغة القوم . وكانت النتائج التي حصلوا عليها باهرة حقاً .

فبالرغم من هذه الاستقلالات المحلية ، فان مختلف الاجزاء داخل الاتحاد قد قربت من بعضها كثيراً ، واكثر مما كانت زمن القيصر والحكومة المركزية . والسبب في ذلك انه اصبح لديهم الآن هدف أعلى يسعون اليه وكل جمهورية اتحادية لها الحق ، نظرياً ، في ان تنفصل عن الاتحاد عندما تريد ، ولكن ذلك غير منتظر بسبب المنافع الكثيرة التي تجنيها كل جمهورية من جراء بقائها داخل الاتحاد والقوة التي تكسبها في وجه عداوة العالم الرأسمالي .

اهم جمهورية داخل الاتحاد هي جمهورية روسيا ، وهي تمتد من لينتغراد حتى سيبيريا . أما روسيا البيضاء فهي المحاذية لبولندا ، واوكرانيا في الجنوب قرب البحر الاسود ، وهي مشهورة بكثرة انتاجها للحبوب . اما جمهورية ما وراء القوقاس ، فكما يدل اسمها عليها ، واقعة عبر جبـــال القوقاس وتمتد بين البحر الاسود وبحر قزوين ، وفيها تقع جمهورية ارمينيا التي كانت مسرحاً لمذابح مخيفة بين الاتراك والارمن. اما وقد اصبحت جمهورية سوفييتية فقد ساد فيها الهدوء والنظام . وفي الناحية الاخرى من بحر قزوين تقع جمهوريات اواسط آسيا الثلاث وهي التركمان والازبك التي تضم مدينتي بخارى وسمرقند ، والتاجكستان التي تقع الى الشمال من افغانستان وهي اقرب الجمهوريات السوفييتية الى الهند .

لجمهوريات اواسط آسيا اهميـة خاصـة بالنسبة لنا نظراً لعلاقاتنـــا معها . واهم من ذلك انها احرزت تقدماً مدهشاً خلال السنوات القليلة الماضية .فكانت زمن القياصرة متأخرة جاهلة ترسف في قيود الخرافات ، أما نساؤها فقد كُنَّ يختبئن وراء الحُجب ؛ أما الآن فقد تقدمت وسبقت الهند بمراحل عديـدة في مختلف النواحي .

مشروع الخمس سنوات في روسيا

٩ يوليو ١٩٣٣

●

كان لينين ، اثناء حياته ، زعيم روسيا السوفييتية دون منازع . فلقراراته بنصاع الجميع ، وكلمته هي القانون بجد ذاتها تجمع حولها الفئات المتخاصمة في الحزب الشيوعي . وعند وفاته اصطدمت عدة فئات كل منها يريد السيطرة على الحزب . وكان ابرز الشخصيات المعروفة بعد لينين سواء في خارج روسيا او داخلها شخص يدعى تروتسكي . وتروتسكي هذا هو الذي قام بدور هام في ثورة اكتوبر ، وبالرغم من كل الصعوبات التي واجهها انشأ الجيش الأحمر الذي انتصر في الحرب الاهلية وعلى التدخل الاجنبي . وبالرغم من كل ذلك فقد كان تروتسكي جديداً في صفوف الحزب ولم يكن يحبه او يثق به البلاشفة القدماء فيما عدا لينين . وكان أحد هؤلاء البلاشفة رجل يدعى ستالين ، الذي اصبح سكرتيراً للحزب الشيوعي ، وبذلك اصبح مسيطراً على اقوى منظمة في روسيا . فكان لا بد من وقوع التنافس بين تروتسكي وستالين . كان كل منهما يكره الآخر جداً ، وكل منهما يختلف عن الآخر كثيراً . فكان تروتسكي كاتباً وخطيباً لامعاً واثبت ان له قدرة هائلة على التنظيم والعمل . وكان يتمتع بذكاء خارق يمكّنه من تطوير نظريات الثورة ، ومن لسع خصومه بكلمات هي أقرب إلى الكرابيج والعقارب منها إلى أي شيء آخر . أما ستالين فكان يظهر بالنسبة له رجلاً عادياً ، هادئاً صموتاً ، ولكن بنفس الوقت كانت له قدرة عظيمة على التنظيم ، كما انه كان محارباً عظيماً

ابدى من ضروب البطولة الشيء الكثير ، ويتمتع بارادة حديدية . والواقع ان الاسم الذي اطلق عليه « ستالين » يعني « رجل الفولاذ » . فإذا كان تروتسكي يثير الإعجاب، فإن ستالين يوحي بالثقة. لقد جاء من وسط الجماهير من اصل قروي من جمهورية جورجيا . ولذلك لم يكن هنالك مجال لزعامة الاثنين في الحزب الشيوعي . فتوجب ان يزول احدهما ويفسح المجال للآخر .

كان الصراع بين ستالين وتروتسكي صراعاً شخصياً، ولكنه كان ايضاً اكثر من ذلك ، فكان كل منهما يمثل سياسة مختلفة، واسلوباً مختلفاً لتطوير الثورة. فتروتسكي حتى قبل الثورة بسنوات عديدة ، كان ينادي بنظرية « الثورة الدائمة » وهذا يعني انه لا يمكن لأي بلد من البلدان ، مهما كانت الظروف ملائمة ، ان ينشىء اشتراكية كاملة ، لأن الاشتراكية الحقيقية لا تحصل إلا بعد ثورة عالمية . ولما كانت الاشتراكية محتوماً عليها ان تحل محل الرأسمالية في التطور الاقتصادي ، فإننا نرى انه كلما انتشرت الرأسمالية وأصبحت دولية كلما اخذ نظامها بالانهيار كما نشاهد في كثير من البلدان . ان الاشتراكية وحدها هي القادرة على صيانة الكيان الدولي هذا ، ولذلك لا بد من مجيء الاشتراكية . هذه هي النظرية الماركسية. ولكن اذا بذلت الجهود في سبيل اقامة الاشتراكية في بلد واحد دون أن تعم العالم كله ، فهذا يعني رجوعنا اقتصادياً الى الوراء . ولذلك يعتبر انتشار الاشتراكية في العالم كله اساساً من أسس كل تقدم ، بما فيه التقدم الاشتراكي ، والرجوع عنه لا يفيد ولا يجدي . ويمضي تروتسكي في شرح نظريته بقوله : واذن فلا يمكن لأي بلد واحد ، من وجهة نظر اقتصادية ، اقامة الاشتراكية فيه مهما كان هذا البلد كبيراً وحتى لو كان الاتحاد السوفييتي نفسه ، لأنه يترتب على السوفييت الاعتماد كثيراً على بلاد غرب اوروبا الصناعية . فالمسألة تشبه مسألة تعاون المدينة والقرية فالغرب الصناعي يمثل المدينة ، وروسيا الزراعية تمثل القرية . ومن ناحية سياسية ايضاً كان تروتسكي يعتقد ان بلاداً اشتراكية وحيدة لا يمكن ان تعيش وسط دول رأسمالية . لأن النظامين لا يمكن لهما ان يعيشا جنباً الى جنب . وقد رأينا ذلك يحدث فعلاً . فأما ان تسحق

الدول الرأسمالية هذه الدولة الاشتراكية ، واما ان تقوم ثورات اشتراكية في البلاد الرأسمالية وُتقام الاشتراكية في كل مكان . وبالطبع يمكن للنظامين ان يعيشا لعدة سنوات جنباً الى جنب ولكن في جو مضطرب مكفهر .

كانت هذه الآراء تمثل الى حد كبير وجهات نظر الزعماء السوفييت قبل الثورة وبعدها فكانوا ينتظرون على احر من الجمر حدوث ثورات في بعض الدول الاوروبية . وقد تجمعت الغيوم في سماء اوروبا فعلاً ، ولكنها انقشعت دون ان ترعد اما روسيا فقد اخذت تنفذ السياسة الاقتصادية الجديدة ، وكرست كل جهودها لها ، غير ان تروتسكي دقّ ناقوس الخطر وقال ان الثورة في خطر ما لم تتبع سياسة جريئة لاقامة الثورات في العالم . كان هذا الرأي تحدياً قاسياً لستالين ، كما ان صراعهما قد هزّ الحزب الشيوعي عدة سنوات ، وانتهى بانتصار ستالين انتصاراً تاماً ، ويرجع الفضل في ذلك الى انه كان يسيطر على منظمات الحزب . اما تروتسكي ومؤيدوه فقد اعتُبروا اعداءً للثورة فطردوا من الحزب ، ثم ارسل تروتسكي إلى سيبيريا وبعدها نقل الى خارج البلاد .

بدأ الصراع بين ستالين وتروتسكي بسبب اقتراح قدمه ستالين باتباع سياسة زراعية جريئة لكسب الفلاحين الى صفوف الاشتراكية وكان هذا الاقتراح بالطبع يرمي الى تقوية الاشتراكية في روسيا وغض النظر عما يحدث في الخارج . فعارضه تروتسكي وتمسك بنظرية «الثورة الدائمة» التي قال عنها إن الفلاحين بدونها لا يمكن كسبهم إلى صفوف الاشتراكية . وبالحقيقة فان ستالين قد تبنى كثيراً من اقتراحات تروتسكي وصبغها بطابعه هو وقد كتب تروتسكي عن ذلك في كتابه عن تاريخ حياته قائلاً : « لا يُهمّ في السياسة فقط ماذا يُقرّر وانما يهم جداً كيف ومن يقرر »

وهكذا انتهى الصراع بين هذين العملاقين باندحار تروتسكي واخراجه من المسرح الذي لعب عليه دوراً بطولياً لامعاً . لقد اجبر على مغـــادرة الاتحاد السوفييتي الذي كان هو احد بُناته . ونظراً لما كان يتمتع به من شخصية قوية فقد خافت معظم الدول الرأسماليـة من ايوائه ، ولذلك منعته انجلترا ومعظم

الدول الاوربية من دخول بلادها . واخيراً وجد ملجأ موقتاً في تركيا على جزيرة بونكيبو بالقرب من استانبول . وهناك كرس وقته للكتابة ، فكتب كتابه المشهور عن « تاريخ الثورة الروسية ». وقد كانت كراهيته لستالين تملك كل حواسه ، ولذلك لم يكف عن مهاجمته ونقده . وفي بعض انحاء العالم تألف حزب تروتسكي واخذ يهاجم الحكومة السوفييتية والشيوعية الرسمية التي يدين بها الكومنترن .

وما كاد ستالين يتخلص من تروتسكي حتى كرس جهوده بشجاعة نادرة لتنفيذ سياسته الزراعية . ولم تكن المشاكل التي واجهته بالمشاكل البسيطة ، فقد كانت البطالة والتعاسة منتشرة بين طبقة المتعلمين ، وقام العمال بعدة اضرابات . وكان اول عمل قام به هو فرض ضرائب عالية على الكولاك او المزارعين الاغنياء ، وخصص هذه الاموال لبناء مزارع جماعيّة ، حيث يشترك عدد كبير من المزارعين في مزرعة جماعية واسعة ، يقسمون فيما بينهم الارباح التي يجنونها . وبالطبع عارض الكولاك هذه السياسة وغضبوا على الحكومة السوفييتية . وخافوا ايضاً ان تصادر مواشيهم ومواد زراعتهم وتوضع كلها مع مواشي الفلاحين الفقراء وموادهم الزراعية ، ولذلك عمـــدوا الى قتل مواشيهم . وقد بلغ هذا القتل درجة انه في السنة التالية عانت روسيا نقصاً كبيراً في المواد الغذائيـة واللحوم ومستحضرات الالبان .

كانت هذه ضربة لم يتوقعها ستالين ، ومع ذلك فقد ثابر على تطبيق برنامجه بعزم وتصميم ، فطوّره وطبقه بشقيه الزراعي والصناعي في جميع انحاء الاتحاد. كان يريد ان يقرّب الفلاح من الصناعة بانشاء مزارع نموذجية ضخمة للدولة ومزارع جماعية ، كما انه اراد تصنيع البلاد كلها بانشاء مصانع ضخمة ومولدات كهربائية وفتح المناجم وما شاكلها . بالاضافة الى كل هذا وجنباً الى جنب معه ، اراد القيام بمختلف نواحي النشاط في حقول التعليم والعلم والتجارة والتعاونية وبناء البيوت لملايين العمال ، وبالاجمال رفع مستوى معيشة السكان كان هذا هو مشروع السنوات الخمس . انه مشروع ضخم ، وصعب تحقيقه حتى ولو كان في بلاد لها من الثروة والامكانيات ما يساعدها على ذلك. فما بالك في بلاد فقيرة متأخرة مثله

روسيا ، انه ضرب من الجنون .

خطّط مشروع الخمس سنوات بعد دراسة وافية تماماً . فدُرست امكانيات جميع انحاء البلاد ، وبحث العلماء والمهندسون والخبراء مشكلة تنسيق اجزاء البرنامج بعضها مع بعض . وكان هذا من أصعب الامور . فمثلاً لن يكون لمصنع ضخم اية قيمة اذا كانت تنقصه المواد الخام ، وحتى لو كانت المواد الخام موجودة فيجب نقلها الى المصنع ، ولذلك وجب بحث مسألة المواصلات وبناء السكك الحديدية ، وهذا يحتاج الى فحم ، ولذلك وجب فتح مناجم للفحم . والمصنع نفسه يحتاج الى قوة كهربائية لادارته ، وللحصول عليها يجب اقامة السدود على الانهار لتوليد هذه الكهرباء التي ترسل الى المصانع والمزارع وتستخدم في انارة المدن والقرى . وهذا ايضاً يحتاج الى مهندسين وميكانيكيين وعمال مهرة، وليس من السهل ابداً تخريج عدة الوف من هؤلاء الرجال والنساء المدربين في وقت قصير . صحيح انه يمكن ارسال آلاف الجرارات الآلية الى المزارع ، ولكن المشكلة تنحصر في من يُشغّلها ويصلحها ان خربت ؟

هذه امثلة قليلة (ابينها لك لتعرفي مبلغ تعقيد المشاكل التي ينطوي عليها مشروع الخمس سنوات . فاذا حدثت غلطة واحدة كان لها نتائج سيئة كثيرة . واذا وجدت حلقة ضعيفة في السلسلة ، فانها تؤخر ذلك القسم من البرنامج ، ان لم توقفه ايقافاً تاماً . ولكن روسيا كانت تمتاز بميزة واحدة عظيمة عن الدول الرأسمالية . فمختلف انواع النشاط الرأسمالي متروكة للافراد ويُفقد قسم كبير من الطاقة والامكانيات في المنافسة بينهم . فليس فيه تنسيق بين المنتجين المختلفين او بين فئات العمال ، اللهم الا التنسيق العفوي الذي يحدث عندما يذهب كل من البائع او المشتري الى نفس السوق . وبالاختصار لا يوجد في النظام الرأسمالي تخطيط على نطاق واسع، كل فرد فيه يعمل تخطيطاً خاصاً بنفسه للمستقبل يقصد من ورائه منافسة الفرد الآخر وزحزحته من طريقه ، وبالطبع عندما تتكون الامة كلها من امثال هؤلاء الافراد ، لن يبقى اي نوع من التنظيم ، وانما تزداد الشقة الفاصلة بين الغنى والفقر اتساعاً . أما الحكومة السوفييتية فكانت تتمتع بقدرتها على

السيطرة على مختلف الصناعات ونواحي النشاط في جميع انحاء الاتحاد ، وبذلك تستطيع ان ترسم خطة موحدة تجد فيها كل ناحية من نواحي النشاط مكانها الملائم . وبهذه الطريقة لن تهدر الجهود عبثاً الا عند ارتكاب الاخطاء ، حتى هذه يمكن اصلاحها بسرعة ما دام هنالك جهاز واحد يراقب العملية كلها .

كان هدف المشروع وضع الاساس المتين لتصنيع الاتحاد السوفييتي . ولم تكن الفكرة بناء بعض المصانع لتنتج البضائع الاستهلاكية كالقماش وما اشبه فذلك سهل جداً ، اذ ما عليهم إلا شراء الآلات من الخارج وتركيبها كما عملنا في الهند. مثل هذه الصناعات التي تنتج البضائع الاستهلاكية تسمى «بالصناعات الخفيفة» . وهذه الصناعات الخفيفة تعتمد اعتماداً كلياً على «الصناعات الثقيلة» وعلى الحديد والفولاذ والصناعات التي تصنع المصانع والآلات والمعدات اللازمة للصناعات الخفيفة كالمحركات وما اشبه . نظرت الحكومة السوفييتية الى الامام وقررت ان تكرس جهودها لهذه الصناعات الاساسية او الثقيلة في مشروع الخمس سنوات . بهذه الطريقة يُمكّن اساس التصنيع ، ويصبح من السهل انتاج الصناعات الخفيفة فيما بعد . يضاف الى ذلك ان الصناعات الثقيلة تغني روسيا عن الاعتماد على الدول الاجنبية للحصول على الالآت والمواد الحربية .

قد يبدو ان اختيار الصناعات الثقيلة وتفضيلها على الخفيفة امر بديهي ، ولكنه في الواقع كلف السكان مشقات وآلاماً كثيرة . فالصناعات الثقيلة أغلى بكثير من الخفيفة ، ولا تعطي ربحاً سريعاً فمثلاً يستطيع مصنع القماش بمجرد تركيبه انتاج القماش وبيعه الى الناس حالاً ، وكذلك الحال في الصناعات الخفيفة الاخرى التي تنتج بضائع استهلاكية . اما مصنع الحديد والفولاذ فينتج قضباناً جديدة وقاطرات ، وهذه لا يمكن استهلاكها او حتى استعمالها الا اذا بنيت سكة الحديد نفسها ، وهذا يحتاج الى وقت ، وتبقى بذلك النقود التي استغلت في هذه الصناعات مجمدة ، مع ان البلاد في امس الحاجة للمال .

وهكذا فان بناء الصناعات الثقيلة في روسيا على نطاق واسع يعني تضحيات جسيمة . كل ما أنشىء وكل الآلات التي اشتروها من الخارج دفعوا ثمنها ذهباً

تقدماً . كيف استطاع الشعب الروسي عمل ذلك؟انهم شدوا احزمتهم على بطونهم وجاعوا وحرموا انفسهم الاشياء الضرورية ،كل ذلك ليستطيعوا دفع مايشترونه من الخارج.صدروا موادهم الغذائية واشتروا بحاصل ثمنها آلات .لقد صدروا كل شيء له سوق في الخارج : القمح والشعير والذرة والخضروات والفواكه والبيض والزبد واللحم والدواجن والعسل والسمك والكافيار والسكر والزيوت والحلويات .. الخ وتصدير هذه الاشياء الى الخارج يعني حرمانهم منها . لم يكن عند الشعب الروسي زبد او غيره ، لأنّ ما عنده صدره الى الخارج .

وبعد هذا الجهد الجبار لتنفيذ مشروع الخمس سنوات في سنة ١٩٢٩ ، كانت روح الثورة والمثل العليا التي يجاهدون من اجلها هي التي تحرك الجماهير وتجعلهم يكرسون كل جهودهم في سبيل هذا الكفاح الجديد . لم يكن هذا الكفاح ضد عدو اجنبي او داخلي . انما كان ضد الاحوال الرجعية والتأخر في روسيا ، وضد بقايا الرأسمالية وضد فقر الناس. لقد قبلوا هذه التضحيات بحماس بالغ وعاشوا حياة قاسية ؛ انهم كانوا يضحّون بالحاضر من اجل المستقبل العظيم الذي يتراءى لهم على الافق والذي كان لهم فخر بنائه .

كانت الدول في الماضي تكرس كل جهودها من اجل القيام بعمل عظيم واحد، وذلك زمن الحرب فقط . فخلال الحرب العالمية ، كانت كل من المانيا وانجلترا وفرنسا تعمل من اجل غرض واحد ، هو كسب الحرب ، وفي سبيل ذلك هان كل شيء . ونرى في الاتحاد السوفييتي ، لأول مرة في التاريخ ، دولة كرست كل جهودها لا لتخرّب ، بل لتعمّر ولترفع بلاداً متأخرة الى مصاف الدول الصناعية داخل اطار الاشتراكية . غير ان العوز الذي شعرت به الطبقات الوسطى والعالية والفلاحون على الخصوص ، كان كبيراً . وكثيراً ما ظهرت البوادر التي توحي بأن المشروع ضخم جداً لدرجة انه يمكن ان ينهار ، ويجرف معه الحكومة السوفييتية نفسها . ولذلك فقد احتاجوا الى شجاعة نادرة لتسيير الأمور . فكّر كثير من الزعماء البلاشفة بأن التوتر والضيق اللذين سببهما البرنامج الزراعي لا يُحتمل وانه يجب تخفيفه ، ولكن ستالين لم يقبل ، بل قاد السفينة

بهدوء وصمت وتصميم . لم يكن يحب الكلام ، ولا يتكلم امام الجماهير إلا نادراً . كان يظهر كأنه تمثال حديدي للقدر المحتوم الذي يسير في طريقه المرسوم . وقد تسرب قسم من شجاعته وتصميمه إلى بقية اعضاء الحزب الشيوعي والعمال الآخرين في روسيا .

وفي هذه الاثناء كانت حملة الدعاية التي تدعو لمشروع الخمس سنوات على أشدها ، تحمّس الشعب وتدفعه الى الامام . وقد أبدت الجماهير حماساً خاصاً في بناء المولدات الكهربائية على الانهار واقامة السدود والجسور والمصانع والمزارع الجماعية . كانت الهندسة المعمارية العمل الشعبي الذي يقبل عليه الناس . كما ان الجرائد كانت تنشر تفصيلات هندسية واقعية عن الاعمال العظيمة التي حققها المهندسون . انتشر الناس في الصحارى والسهول يعمرونها ، وبنوا مدناً جديدة كبيرة حول المؤسسات الصناعية . بنوا الطرق الجديدة وفتحوا القنوات التي تصل بين الانهار ، ومدوا السكك الحديدية ومعظمها يسير على الكهرباء ، وانشأوا المواصلات الجوية . بنوا مصانع كيماوية ومصانع حربية ومصانع آلات ؛ وبذلك اخذ الاتحاد السوفييتي في انتاج الجرارات والسيارات والقاطرات والمحركات ومولدات الكهرباء والطائرات . انتشرت الكهرباء في مناطق واسعة ، كما انتشر استعمال الراديو . اختفت البطالة تماماً ، لأن البناء والاعمال الاخرى احتاجت كل عامل يمكن وجوده . وقد جاء مهندسون كثيرون من الخارج للعمل هناك ، فلقوا كل ترحيب . ومن الجدير بالذكر ان ذلك الوقت كان وقت الازمة الاقتصادية في غرب اوربا وامريكا وكانت البطالة منتشرة هناك بشكل مفزع .

لم يمض مشروع الخمس سنوات بسهولة تامة . لقد لاقوا فيه بعض المشاق ونقصاً في التنسيق مما سبب بعض التلف . ولكن بالرغم من هذا فقد استمر العمل في سيره بقوة واندفاع ، واستمرت الحاجة إلى مزيد من العمل . وعندئذ ظهر شعار « مشروع الخمس سنوات في اربع » كأن الخمس سنوات لم تكن وقتاً قصيراً لتنفيذ هذا البرنامج المدهش . وقد انتهوا رسمياً من المشروع في ٣١ ديسمبر ١٩٣٢ أي بعد انتهاء اربع سنوات على ابتدائه ، ثم بدأوا مباشرة في ١ يناير ١٩٣٣ في تنفيذ

مشروع خمس سنوات جديد .

لقد تناول كثير من الناس مشروع الخمس سنوات بالبحث ؛ فمنهم من يعتقد انه نجح نجاحاً باهراً ، ومنهم من يعتقد انه فشل . وانه لمن السهل جداً ان نبين اين فشل ، لأنه فعلاً لم يحقق جميع ما صبوا اليه . كانت الأشياء في روسيا غير متناسبة أبداً ، واكبر نقص كانوا يعانون منه هو نقص العمال المدربين والخبراء. فكان هنالك عدد من المصانع اكثر من المهندسين اللازمين لادارتها ؛ اي انه كان هنالك مطاعم اكثر من الطباخين. وطبعاً كان عدم التناسب هذا محتوماً ان يزول بسرعة او على الأقل يقل تدريجياً . شيء واحد بارز ؛ هو ان مشروع الخمس سنوات قد غير معالم روسيا، فقد قفزت من دولة اقطاعية متأخرة رأساً الى دولة صناعية متقدمة . كما ان الثقافة والخدمات الاجتماعية والتأمين الصحي والتأمين ضد الحوادث قد تقدمت تقدماً باهراً اكثر من اية دولة اخرى . وبالرغم من العوز والحاجة ، فان الخوف من البطالة والجوع الذي يبقى مسلطاً كالسيف على رقاب العمال قد اختفى بالمرة ، واصبح الشعب يحس بالطمأنينة الاقتصادية .

ان الجدل حول نجاح او فشل مشروع الخمس سنوات لا محل له بالمرة . لأن الجواب يمكن معرفته بالنظر إلى حالة الاتحاد السوفييتي الآن. والملاحظة ان هذا المشروع قد جذب انظار العالم اجمع . فالكل يتحدث الآن عن « التخطيط » ، وعن مشروعات الخمس سنوات والعشر سنوات لقد بث السوفييت في هذه الكلمة سحراً خاصاً .

الصعوبات التي لاقاها الاتحاد السوفيتي
فشله ونجاحــــه

١١ يوليو ١٩٣٣

•

كان مشروع الخمس سنوات ضخماً جداً ضمّ بين جناحيه انقلابات كبيرة. ففي ميدان الزراعة استبدل الأساليب القديمة البالية بالأساليب الحديثة من استعمال للآلات إلى القيام بها على نطاق واسع، وفي ميدان الصناعة، استطاع هذا المشروع تصنيع روسيا بسرعة هائلة . ولكن اهم من هذا كله هي الروح التي كانت تكمن وراءه ، فقد كانت روحاً جديدة في السياسة والصناعة ؛ تلك هي روح العلم التي حاولت تطبيق الأساليب العلمية على بناء المجتمع . لم يحدث مثل هذا ابداً في أي بلد آخر ، حتى ولا في البلاد المتقدمة . ان تطبيق الأساليب العلمية على الشؤون الانسانية والاجتماعية هو اهم شيء في التخطيط السوفييتي . ولهـذا نرى ان العالم كله يتحدث الآن عن التخطيط؛ ولكن من اصعب الصعاب تطبيق هذا التخطيط على نظام اجتماعي مثل النظام الرأسمالي ؛ لأنـه يرتكز على المنافسة وحماية مصالح الافراد وممتلكاتهم .

ولكن ، كما قلت لك سابقاً ، فقد مشى مع مشروع الخمس سنوات ، جنباً إلى جنب ، الشقاء والصعوبات ودفع السكان ثمناً باهظاً في سبيل تحقيقه. دفع كثير منهم هذا الثمن عن طيب خاطر وقبل التضحيات والمتاعب لسنوات قليلة على امل ان تتحسن الاوضاع في المستقبل ودفع بعض الناس هذا الثمن كرهاً لأن

الحكومة اجبرتهم على ذلك. وكانت اكثر طبقة عانت المتاعب هي طبقة الكولاك أو الفلاحين الاغنياء ، فانهم - بثروتهم ونفوذهم - لم ينسجموا مع المشروع ؛ لأنهم كانوا رأسماليين ؛ فحاولوا اعاقة انشاء وتطوير المزارع الجماعية على اسس اشتراكية . فكانوا في بعض الاحيان يعارضون في انشاء هذه المزارع ، وفي بعض الاحيان الاخرى يدخلونها ليضعفوها من الداخل ويمنعوها من جني اي ربح ، ولكن الحكومة السوفييتية كانت لهم بالمرصاد فشدّدت من ضغطها عليهم وعلى الطبقات الوسطى التي كانت تشك في انها تتجسس وتتآمر مع اعداء البلاد . وكان من جملة من عوقب بالحبس عدد كبير من المهندسين . ولما كانت البلاد في امس الحاجة لمهندسين ، فان هذا قد أضرّ بالمشروع نفسه ضرراً كبيراً .

وكان هناك عدم تنسيق في كثير من الاحيان ، فنظام المواصلات كان متأخراً ، ولذلك اضطرت البضائع التي تنتجها المصانع إلى الانتظار مدة طويلة ؛ وبالطبع عرقل هذا العمل في اماكن اخرى . اما اكبر الصعاب التي واجهوها فهي قلة الخبراء الاكفاء والمهندسين .

كان العالم الخارجي او بالأحرى العالم الرأسمالي اثناء مشروع الخمس سنوات يعاني اشد الازمات الاقتصادية التي مرّت به . فالتجارة كاسدة ، والمصانع مقفلة ، والعمال عاطلون . وقد مُني المزارعون في جميع انحاء العالم بضربة قاسية من جراء هبوط اسعار المواد الغذائية والمواد الخام . فاذا قارنا هذه الاوضاع مع الاوضاع في الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت لوجدنا ان الاتحاد السوفييتي يتميز بحركة دائمة ، وليس فيه اي عامل عاطل . ولم يتأثر الاتحاد السوفييتي بالازمة الاقتصادية العالمية ، لأن اساس اقتصاده كان مختلفاً تماماً . ولكنه لم ينجُ من آثارها غير المباشرة ، مما زاد في مصاعبه . لقد سبق ان قلت لك ان السوفييت كانوا يشترون الآلات من الخارج ويدفعون ثمنها من حاصل بيع منتوجاتهم الزراعية في الدول الاجنبية . فلما هبطت اسعار المواد الغذائية في السوق العالمي ، هبطت معها اثمان المنتوجات الزراعية التي يبيعونها فاضطروا الى زيادة تصدير هذه المنتوجات كما اضطروا الى تصدير اكبر كمية من الذهب ليدفعوا ثمن

الآلات . وهكذا سبب هبوط الاسعار خسارة كبيرة للسوفييت وقلب ما حسبوه رأساً على عقب ، كما أدّى الى نقص في الحاجات الضرورية في البلاد بالاضافة الى الصعوبات الاخرى .

ومما زاد في هذه الصعوبات انه عندما كان نقص المواد الغذائية في ازدياد، كان عدد السكان في جميع انحاء الاتحاد في ازدياد ايضاً ، وكان هذا الازدياد الذي لم يكن متناسباً مع التقدم في الانتاج الزراعي اكبر مشكلة واجهها السوفييت. كان عدد سكان الاتحاد السوفييتي قبل الثورة ١٣٠ مليوناً ، فاصبح في السنوات التي تلت الثورة ، بالرغم من العدد الهائل الذي خسروه في الحرب الاهلية ، كما يلي : —

في سنة	١٩١٧	كان عدد السكان	١٣٠	مليوناً
» »	١٩٢٦	»	١٤٩	»
» »	١٩٢٩	»	١٥٤	»
» »	١٩٣٠	»	١٥٨	»
» »	١٩٣٣	»	١٦٥	»

اي ان السكان ازدادوا ٣٥ مليوناً في اقل من خمس عشرة سنة أي بنسبة ٢٦ ٪ وهي نسبة عالية جداً .

ولم يزد عدد السكان الاجمالي في الاتحاد السوفييتي فقط ، وانما زاد عدد سكان المدن ايضاً . فالمدن القديمة توسعت واصبحت اكبر واكبر ، وبنيت مدن صناعية جديدة في الصحارى والسهول . وهاجر كثير من الفلاحين من قراهم الى المدن حيث جذبهم العمل في المشاريع الضخمة طبقاً لمشروع الخمس سنوات. كان في الاتحاد السوفييتي سنة ١٩١٧ اربعة وعشرون مدينة يزيد سكان الواحدة منها على مئة الف . واصبح هناك في سنة ١٩٢٦ احدى وثلاثون مدينة ، وفي سنة ١٩٣٣ اكثر من خمسين. وفي خلال خمس عشرة سنة بنى السوفييت اكثر من مئة مدينة صناعية . وفي الفترة الواقعة بين سنة ١٩١٣ و ١٩٣٢ تضاعف عدد سكان موسكو من ١,٦٠٠,٠٠٠ الى ٣,٢٠٠,٠٠٠ وزاد عدد سكان لينتغراد مليون نسمة آخرين فأصبح ما يقرب من ثلاثة ملايين . وتضاعف عدد سكان باكو في

ما وراء القوقاس من ٣٢٤،٠٠٠ إلى ٦٦٠،٠٠٠ وبالاجمال ارتفع عدد سكان المدن من ٢٠ مليوناً في سنة ١٩١٣ إلى ٣٥ مليوناً في سنة ١٩٣٢

والفلاح الذي يهاجر من القرية إلى المدينة ويصبح عاملاً فيها، لم يعد بالطبع ينتج المواد الغذائية كما كان يفعل في القرية. انه في المدينة ينتج الآلات والبضائع، ويستهلك المواد الغذائية، فهو مستهلك لها غير منتج. فالهجرة التي جرت على مقياس واسع من القرية إلى المدينة قلّلت من منتجي المواد الغذائية وحولتهم إلى مستهلكين لها. وكان هذا احد العوامل التي جعلت وضعية المواد الغذائية حرجة.

وهناك عامل آخر: فالصناعة النامية تحتاج إلى مزيد من المواد الخام، فمصانع القماش مثلاً تحتاج القطن، ولذلك عمدوا إلى زراعة القطن في كثير من الاراضي التي كانوا يزرعونها مواد غذائية. وهذا قلل من موارد الطعام

ان نمو عدد السكان في الاتحاد السوفييتي يعتبر بحد ذاته علامة من علامات الرخاء، فلم يكن هذا النمو ناتجاً عن هجرة من الخارج كما هو الحال في امريكا، وانما كان من الداخل، وهو يعني انه بالرغم من كل الصعوبات التي واجهها السكان إلا انه لم تحدث اجمالاً اية مجاعة. وقد طبق نظام البطاقات بشدة مما اتاح المجال لكل فرد ان يحصل على ضروريات الحياة. ويخبرنا المراقبون الحياديون الاكفاء ان نمو عدد السكان السريع يعود الفضل فيه إلى الشعور بالطمأنينة الاقتصادية التي شعر بها السكان. فلم يعد الاطفال عبئاً على كاهل العائلة، ما دامت الدولة مستعدة للعناية بهم واطعامهم وتعليمهم. وسبب آخر للنمو هو انتشار النظافة والوسائل الصحيّة التي خففت وفيات الاطفال من ٢٧ في الألف إلى ١٢ في الألف. ففي موسكو مثلاً كانت نسبة وفيات الاطفال في سنة ١٩١٣ تزيد عن ٢٣ في الألف، فاصبحت في سنة ١٩٣١ اقل من ١٣ في الألف.

ومما ساعد ايضاً على تعقيد مشكلة نقص الطعام ان حدث شح في الامطار في بعض انحاء الاتحاد في سنة ١٩٣١ كما انه في سنة ١٩٣١ و١٩٣٢ تراءى شبح الحرب في الشرق الاقصى، وخاف السوفييت ان يشنّ اليابانيون بالاتفاق مع

الدول الرأسمالية الاخرى حرباً عليهم، فأخذوا يخزنون الحبوب لتزويدجيوشهم بها عند الحاجة . هنالك مثل رومي قديم يقول : « للخوف عيون واسعة » . ما اصدق هذا المثل ، انه ينطبق على الاطفال الصغار كما ينطبق على الهيئات والشعوب. وبما أن الرأسمالية لا يمكن ان تترك الشيوعية في سلام واطمئنان وانما تحاول دولها القضاء على الشيوعية ، فهي تناور وتناور من اجل هذه الغاية ،لذلك نجد أن اعصاب البلاشفة في توتر مستمر ، وتتسع عيونهم لأقل اثارة . ولهم الحق في هذا الخوف اذ انهم كثيراً ما يواجهون ، حتى في داخل بـــلادهم ،محاولات لتدمير وتخريب مصانعهم ومشروعاتهم .

كانت سنة ١٩٣٢ حرجة جداً في تاريخ الاتحاد السوفييتي . واتخذت الحكومة فيها خطوات قاسية للضرب على ايدي المخربين واللصوص الذين يسرقون املاك المجتمع ، كما حدث في المزارع الجماعية وفي العادة لا يوجد حكم بالاعـــدام في روسيـــا ، غير انه استحدث لعقاب كل من اراد الاضرار بالثورة . ثم اعلنت الحكومة السوفييتية ان سرقة أملاك المجتمع تعتبر بمثابة إضرار بالثورة ، ولذلك فإن عقوبتها الاعدام. وتعليقاً على ذلك قال ستالين : « ان الرأسماليين يعتبرون الملك الخاص مقدساً لا يجوز التعدي عليـــه ؛ وذلك من اجل تقوية نظـامهم الرأسمالي ونحن الشيوعيين يجب علينا ان نعتبر الملك العام مقدساً لا يجوز التعدي عليه حتى نستطيع تقوية نظامنا الاشتراكي » .

ثم اتخذت الحكومة السوفييتية اجراءات جديدة لتخفيف الضائقة ، وكان اهم هذه الاجراءات هو السماح للمزارع الجماعية والخاصة ببيع فائض انتاجها في اسواق المدينة وهذا يذكرنا بالاجراءات التي اتبعتها الحكومة في « السياسة الاقتصادية الجديدة» بعد فترة الشيوعية العسكرية في سنة ١٩٢١ ،ولكن الاتحاد السوفييتي الآن يختلف كثيراً عما كان عليه. لقد تقدم خطوات واسعة إلى الامام في طريق الاشتراكية والتصنيع، واصبحت معظم زراعته جماعية .

نُظّمت بين سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٣ ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ مزرعة جماعيـة و٥٠٠٠ مزرعة حكومية والمزارع الحكومية هذه مزارع نموذجية ليقتدي بها

الاخرون ، وبعضها واسع جداً . وخلال هذه الفترة ايضاً أدخلت ١٢٠,٠٠٠ جرارة واصبح ثلثا الفلاحين اعضاء في المزارع الجماعية

وهناك ناحية أخرى تقدمت بسرعة وهي المنظمات التعـــاونية . فجمعيات المستهلكين التعاونية كانت تضم في سنة ١٩٢٨ ٢٦,٥٠٠,٠٠٠ عضواً ، وأصبحت تضم في سنة ١٩٣٢ ٧٥,٠٠٠,٠٠٠ عضواً . ولهذه الجمعيات سلسلة من مخازن الجملة والقطاعي تمتد في جميع انحاء الاتحاد القريبة منها والبعيدة.

شهد اول يناير ١٩٣٣ بدء مشروع السنوات الخمس الثاني ، وكان يهدف الى الصناعات الخفيفة لرفع مستوى الحياة بسرعة . وكانت الحكومة تأمل ان تكافىء الاهالي بعد كل الجهود التي بذلوها في مشروع السنوات الخمس الاولى . ولم يعودوا في حاجة الى شراء الآلات من الخارج ، لأن الصناعات السوفييتية الثقيلة أصبحت تزودهم بما يحتاجونه . وهذا بالطبع خلصهم من عبء ارسال كميات الغذاء الكبيرة إلى الخارج لدفع ثمن ما يشترون

خطب ستالين في مؤتمر الفلاحـــين الذين يشتغلون في المزارع الجماعية سنة ١٩٣٣ وقال :

ان هدفنا الاول هو رفاهية الفلاحين الجماعيين . نعم ، ايها الرفقاء ، نريد لهم الرفاهية . يقول بعض الناس : إذا وصلنا الى الاشتراكية ، فلماذا نعمل ! لقد عملنا في السابق ، واننا نعمل الآن . الم يحن الوقت لترك العمل ؟.. اني اجيب لا ، فالاشتراكية اساس العمل .. الاشتراكية تتطلب من الجميع ان يعملوا بأمانة ، ليس لغيرهم ، وليس للاغنياء ، وليس للمستغلين ، وانما لهم هم وللمجتمع . »

ان العمل باق ، ويجب ان يبقى ، ولو أنه سيكون اخف وابسط مما كان عليه في السنوات الاولى . والمبدأ في الاتحاد السوفييتي الذي يقول : « من لا يعمل لا يأكل » صحيح . واضاف اليه البلاشفة حافزاً جديداً للعمل : هو تحسين المجتمع وترقيته . في السابق كان هذا الحافز يثير همة بعض الافراد والمثاليين ، ولكنه لم يسبق ان أثار شعباً بأمره كما حدث في الاتحاد السوفييتي . ان المبـدأ الأساسي الذي تقوم عليه الرأسمالية هو التنافس والربح الفردي ، ودائماً يكون ذلك على

حساب الآخرين . وحافز الربح هذا اخذ يزول في الاتحاد السوفييتي ويحل محله الحافز الجماعي ، وقد كتب كاتب امريكي يقول ان العمال في روسيا يتعلمون انه «من اقبالهم على الاعتماد المتبادل على بعضهم البعض، يتحررون من العوز والخوف». ان استئصال شأفة الخوف من الفقر وعدم الطمأنينة ، وهو ما يجثم على صدور الناس في كل مكان ، عمل عظيم بحدذاته . وقد قيل ان استئصال الخوف هذا قد وضع حداً نهائياً تقريباً للامراض العقلية في الاتحاد السوفييتي .

وبالرغم من كل هذه السنوات الشاقة، فقد نما الاتحاد السوفييتي في كل الميادين ، مع ما في ذلك من مشقة وعدم تناسب، فانتشرت المدن والصناعات في كل مكان وظهرت المزارع الجماعية والتعاونيات الضخمة ، وانتعشت التجارة وزاد عـــدد السكان ، وانتشرت الثقافة وعمت العلوم وعم التعليم . وفوق كل هذا نمت وحدة تماسك مختلف الشعوب الذين يسكنون الاتحـــاد السوفييتي من بحر البلطيق الى المحيط الهادي ومن جبال بامير وهندكوش الى اواسط آسيا .

انني ارى نفسي تواقاً لأن اكتب لك عن تقدم التعليم والعلوم والثقافـــة في الاتحاد السوفييتي ؛ ولكني سأكبح جماح نفسي ، واحدثك حديثاً قصيراً عـن بعض الامور التي قد تهمك . يعتبر كثير من المراقبين الاكفاء ان النظام التعليمي في روسيا هو أحسن وأرقى نظام موجود في العالم . لقد ازيلت الأمية تماماً ، والمدهش هو التقدم العظيم الذي احرز في المناطق المتأخرة مثل ازبكستان وتركمنستان في اواسط آسيا . وكان في هذه المنطقة سنة ١٩١٣ ، ١٢٦ مدرسة تضم ٦٢٠٠ تلميذ ؛ وما كادت سنة ١٩٣٢ تطل حتى كان في المنطقة نفسها ٦٩٧٥ مدرسة تضم ٧٠٠,٠٠٠ تلميذ ، اكثر من ثلثهم بنات ؛ وأدخل نظام التعلـــيم الاجباري . ولكي تستطيعي تقدير هذا التقدم المدهش ، يجب ان تذكري ان البنات كنّ حتى وقت قريب جداً في عزلة تامة، ولم يكن يسمح لهن بالظهور في الخارج في هذا الجزء من العالم . وقد قيل ان سبب هـــذا التقدم السريـع هو ادخال الحروف اللاتينية مما جعل التعليم الابتدائي اسهل بكثير منه في الحروف التي كانت تستعمل سابقاً . ولابد انك تذكرين ما حدثتك به عن مصطفى كمال عندمـــا

استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية . لقد اخذ الفكرة والحروف الهجائية بعد تعديلها لتناسب اللغات الاخرى، من التجربة السوفييتية . تركت جمهوريات القوقاس في سنة ١٩٢٤ الحروف العربية وبدأت تستعمل الحروف اللاتينية : وقد ساعد هذا كثيراً على انجاح حملة ازالة الامية ، حتى ان قوميات كثيرة اخرى مثل الصينيين والترك والتتار والبوريات والباشكير والتاجيك — كلها بدأت تستعمل الحروف اللاتينية بقيت اللغات المحلية هي المستعملة ، ولكن طريقة كتابتها هي التي تغيرت فقط .

لعله يهمك ان تعرفي ان ثلثي مجموع طلاب المدارس في الاتحاد السوفييتي يتناولون وجبات غداء ساخنة في مدارسهم مجاناً — بالطبع — كما ان التعليم بالمجان ايضاً ، وهو ما يجب ان يكون في دولة العمال .

وادّى انتشار التعليم وتقدمه الى خلق فئة قارئة كبيرة ، ومن المحتمل ان يكون ما يطبع في الاتحاد السوفييتي من كتب وجرائد يزيد عن اي بلد آخر . ومعظم هذه الكتب جدية ومن « الوزن الثقيل » ، وليست من الكتب الخفيفة التي تطبع في البلاد الاخرى للتسلية واضاعة الوقت فالعامل الرومي يهتم كثيراً بالمسائل الهندسية والكهربائية لدرجة انه يفضل ان يقرأ الكتب التي تبحث هذه الامور على ان يقرأ القصص . واما الاطفال فلهم ألطف الكتب بما فيها القصص الخيالية ، مع انني اعتقد ان البلاشفة الاقحاح لا يحبذون مثل هذه الكتب الخيالية .

اما في العلوم فقد اصبحت روسيا في الدرجة الاولى سواء في العلوم النظرية او التطبيقية . لقد بنوا معاهد عديدة ضخمة لمختلف فروع العلوم كما بنوا المحطات التجريبية . ففي لينينغراد مثلاً يوجد معهد ضخم جداً لبحث صناعة النباتات ، وهو يضم اكثر من ٢٨٠٠٠ صنف من اصناف القمح ، وهذا المعهد يدرس الآن اجراء تجارب لبذر الأرز بواسطة الطائرات .

حُوّلت قصور القياصرة والنبلاء القديمة الى متاحف واستراحات واماكن للثقافة يستعملها الشعب . ويوجد بالقرب من لينينغراد بلدة صغيرة كانت تسمى « قرية القيصر » لأنها تضم قصرين ملكيين كان القيصر يقضي الصيف فيها . وقد

غيّر اسمها الآن واصبحت تسمى « قرية الاطفال » لأن الاطفال والاولاد هم الذين يستعملون القصرين الآن. ان الاطفال والجيل الناشيء يلاقون افضل معاملة في بلاد السوفييت ، فلهم احسن الاشياء حتى ولو كانت تنقص غيرهم . ان الجيل الحاضر يعمل من اجل هؤلاء الاطفال ، لان هؤلاء الذين هم سيرثون الدولة الاشتراكية العلمانية اذا تحققت في زمانهم . ويوجد في موسكو معهد عظيم يسمى « المعهد المركزي لحماية الامومة والطفولة » .

اما النساء في روسيا فيتمتعن بحرية لاتتمتع بها نظيراتهن في الدول الأخرى . وبنفس الوقت تضفي عليهن الدولة حماية خاصة ، فيستطعن ان يشتغلن بأي عمل ، واصبح كثيرات منهن مهندسات . وكانت اول سفيرة عينتها اي حكومة هي مدام كولونتي ، وكانت ارملة لينين واسمها كروبسكايا رئيسة لفرع من فروع دائرة التعليم السوفييتية .

ان الاتحاد السوفييتي بلاد تثير الدهشة بما يحدث فيها من تغييرات في كل ساعة وفي كل يوم . واهم اجزاء هذه البلاد التي تثير اكبر الدهشة سهول سيبيريا ، وأواسط آسيا ، فكلاهما كان مقطوعاً عن العالم والحضارة لمدة اجيال كثيرة مضت ، ولكنهما الآن يسيران في مضمار التقدم بخطى واسعة جداً. ولكي اعطيك فكرة عن هذا التقدم سأحدثك حديثاً قصيراً عن بعض ما حدث في تاجكستان التي كانت تعتبر من اكبر المناطق تأخراً في الاتحاد السوفييتي

تقع تاجكستان في وديان جبال بامير ، شمالي نهر أكسس على حدود افغانستان وتركستان الصينية ، ولا تبعد كثيراً عن الحدود الهندية . وكانت تاجكستان تحت حكم امراء بُخارى الذين كانوا بدورهم يخضعون للقياصرة الروس حدثت في سنة ١٩٢٠ ثورة في بخارى عُزل فيها الامير واسست جمهورية شعبية سوفييتية فيها . وتبعت هذه الثورة حرب اهلية ، كان احد قتلاها انور باشا احد زعماء تركيا السابقين واصبحت جمهورية بُخارى تدعى جمهورية ازبك الاشتراكية السوفييتية ، وانضمت الى جمهوريات الاتحاد السوفييتي . في سنة ١٩٢٦ شكلت جمهورية تاجك داخل منطقة ازبك ، واصبحت مستقلة في سنة ١٩٢٩ وانضمت

الى جمهوريات الاتحاد السوفييتي كعضو فيها .

حصلت تاجكستان على هذا ، ولكنها كانت منطقة صغيرة متأخرة لا يزيد عدد سكانها عن مليون نسمة ، ولم تكن بها تقريباً اية مــواصلات ، اللهم إلا طرق قوافل الجمال وحالما اظلّها النظام الجديد ، اتخذت الاجراءات السريعة لتحسين الطرق والرّي والزراعة والصناعة والخدمات التعليمية والصحية ، فبنيت الطرق ونمت زراعة القطن ونجحت بفضل مشاريع الرّي الجديدة . ولم تكد تحل سنة ١٩٣١ حتى كان اكثر من ٦٠٪ من مزارع القطن ومعظم مزارع الحبوب قد سارت حسب النظام الجماعي ؛ كما انشئت هناك محطة لتوليد الكهرباء وثمانية مصانع لنسج القطن وثلاثة مصانع لصناعة الزيت المستخرج منه . وبنيت سكة حديد ربطت البلاد بالاتحاد السوفييتي عبر ازبكستان ، وانشئت خدمة طيران ربطت بينها وبين بقية خطوط الطيران الرئيسية .

كان فيها سنة ١٩٢٩ عيادة واحدة ، ولكنهـا اصبحت في سنة ١٩٣٢ تضم واحداً وستين مستشفى وسبعة وثلاثين عيادة اسنان ، وفيهـا ٢١٢٥ سريراً وعشرون طبيباً . اما التقدم في ميدان التعليم فتستطيعين ان تحكمي عليه بدراسة الارقام التالية : —

في سنة ١٩٢٥ كان فيها ٦ مدارس حديثة فقط .

في نهاية سنة ١٩٢٦ اصبح فيها ١١٣ مدرسة تضم ٢٣٠٠ تلميذ .

في سنة ١٩٢٩ « « « ٥٠٠ «

« « ١٩٣١ « « اكثر من ٢٠٠٠ معهد تعليمي يضم اكثر من ١٢٠,٠٠٠ تلميذ .

وبالطبع قفزت ميزانية التعليم فيها قفزات عالية ؛ فكانت ميزانية المدارس في العام الدراسي ١٩٢٩ — ١٩٣٠ تعادل ٨ ملايين روبل (والروبل يعادل شلنين أو عشرة قروش مصرية) وفي عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ اصبحت الميزانية ٢٨ مليون روبل . وبالاضافة الى المدارس العادية بنيت بساتين الاطفال ومدارس التدريب ، والمكتبات وغرف المطالعة ، وكان الشعب يشعر بحاجة ملحة جداً الى التعليم .

ولم تعد المرأة - والظروف قد تغيرت الى هذا الحد - منعزلة وراء حجابها، لأنه أخذ بالزوال بسرعة .

يبدو كل هذا صعب التصديق ولكني اخذت هذه المعلومات والارقام من تقرير نشره مراقب امريكي موثوق زار تاجكستان في اوائل سنة ١٩٣٢ . ولا بد ان تحسينات كثيرة اخرى قد حدثت منذ ذلك الوقت .

يظهر ان الاتحاد السوفييتي ساعد جمهورية تاجكستان الفتية بالاموال من أجل نشر التعليم وتحقيق الاغراض الاخرى ، لأن سياسته تقوم على أساس مساعدة المناطق المتأخرة . ويظهر انه ثبت ان البلاد غنية بالمعادن ، فقد اكتشف فيها الذهب والبترول والفحم ، ويعتقد ان احتياطي الذهب فيها كبير . وقد كانت مناجم الذهب هذه تستغل في الازمنة القديمة حتى ايام جنكيزخان ، غير انها على ما يظهر قد تركت منذ ذلك الوقت .

قامت في سنة ١٩٣١ ثورة معاكسة في تاجكستان ، اشتركت فيها الطبقات الغنية القديمة التي كانت قد هربت الى افغانستان وعادت الآن ، فهاجمت البلاد ، ولكن لم يكتب لها النجاح لأن الفلاحين لم يؤيدوها .

اخذت هذه الرسالة تطول وتتعقد . وعليّ قبل ان انهيها ان احدثك بعض الشيء عن نشاط الاتحاد السوفييتي في الحقل الدولي : تعرفين ان السوفييت وقعوا حلف «كلوج» للسلم المفروض فيه ان يحرّم الحرب . كما انهم وقعوا حلف «لتفنوف» في سنة ١٩٢٩ بينهم وبين جيرانهم . واخذ السوفييت في تعزيز علاقاتهم مع الدول الاخرى بعقد محالفات تنفيذاً لسياستهم الرامية الى «منع الاعتداء» وحفظ السلم . وكانت اليابان احدى جارات السوفييت التي رفضت توقيع اي حلف معهم . وفي سنة ١٩٣٢ وقعت روسيا وفرنسا معاهدة عدم اعتداء . وكانت هذه المعاهدة مهمة جداً لأنها ادخلت روسيا في الحلبة السياسية في اوربا .

أما الصين ، فانها بعد مدة طويلة من العداء الصامت وعدم ايجاد علاقات دبلوماسية ، اعترفت من جديد بالحكومة السوفييتية عندما شعرت بالخطر الياباني يهدد منشوريا . ثم انشأت روسيا مع اليابان علاقات دبلوماسية ، ولكن علاقات البلدين

بقيت سيئة بصورة مستمرة . فالسوفييت يشكلون حجر عثرة في طريق اطماع اليابانيين في آسيا ، وكثيراً ما حدثت مناوشات بينهما على الحدود وتحاول الحكومة اليابانية دائماً اثارة السوفييت ، وتهددهم دائماً بالحرب ، غير ان روسيا كانت تفضل ان تتلقى الاهانات وتسكت على ان تدخل في حرب

اما الاحتكاك بين الروس والانجليز ، فقد كان علامة فارقة من علامات السياسة الدولية . فأدت محاكمات المهندسين الانجليز في ابريل ١٩٣٣ في موسكو الى انتقامات ورد على الانتقامات ، غير ان العاصفة هدأت ورجعت العلاقات العادية الى سابق عهدها . ولكن حكومة المحافظين في بريطانيا تكره السوفييت ، ولذلك سيبقى التوتر بين الدولتين قائماً أما في الولايات المتحدة فقد اخذ شعور الصداقة نحو روسيا يزداد ، ويعمل الرئيس روزفلت الآن على انشاء علاقات دبلوماسية عادية معها ، اذ انه لا يوجد اي صراع بين مصالح امريكا وروسيا في العالم !!

اما قيام الحكومة النازية في المانيا فقد اظهر عدواً جديداً خطراً لروسيا . وعلى الرغم من ان المانيا لن تستطيع الاضرار بروسيا في الوقت الحاضر، إلا انها تشكل خطراً كبيراً في المستقبل، فالتيارات الفاشية في اوروبا في ازدياد مستمر.

سلكت روسيا في الشؤون الدولية سلوك دولة مكتفية بنفسها ، تتجنب كل المشاكل وتحاول المحافظة على السلم بأي ثمن . وهذا بالطبع يناقض تماماً السياسة الثورية التي تهدف الى تشجيع الثورات في البلاد الاخرى. ان روسيا كانت تتبع سياسة قومية في محاولتها بناء الاشتراكية في بلد واحد حتى تتجنب كل المشاكل والتعقيدات التي قد تجيء من الخارج. وهذا يستدعي بالتالي قبول الحلول الجزئية وعقد اتفاقات مع الدول الاستعمارية والرأسمالية. ولكن تدعيم اساس الاقتصاد السوفييتي الاشتراكي مستمر ، ويعتبر نجاحه اكبر دعاية في صالح الاشتراكية .

هذا هو موقف روسيا السوفييتية في يوليو ١٩٣٣ عقد مؤتمر اقتصادي دولي في لندن اشتركت به روسيا ، وانتهزت الفرصة وعقدت معاهدات عدم اعتداء بينها وبين كل من جاراتها افغانستان واستونيا ولاتفيا وايران وبولندا ورومانيا وتركيا ولتوانيا اما اليابان فقد رفضت توقيع اية معاهدة معها

تطبيقات العلم الحسنة والرديئة

١٤ يوليو ١٩٣٣

●

تحدثت لك في آخر رسائلي عن تقدم العلم ، ولا ادري ان كانت تلك اللمحة سوف تحبّب اليك آفاق العلم والمعرفة ، فان كان الأمر كذلك فيمكنك ان تستنيري بكثير من الكتب عن هذا الموضوع . ولكن يجب ان تذكري ان الفكر الانساني يتطور بصورة دائمة ويحاول ان يعرف كل شيء حتى عن «الطبيعة» و «أصل العالم» ، ولذلك قد يكون ما احدثك به اليوم غير صحيح غداً. انني شخصياً اعجب كثيراً بهذا الفكر الانساني الذي يحلق في الاعالي ويحاول أن يكشف عن كل زاوية من زوايا هذا العالم المترامي الاطراف ويسبر غورها ، وفعلاً فانه يستطيع أن يفهم ويقيس الاشياء المتناهية في الكبر والاخرى المتناهية في الصغر .

كل هذا نسمّيه «العلم المجرّد» اي العلم الذي ليس له تأثير مباشر على حياتنا .. وواضح ان نظرية النسبية او قياس حجم العالم وغيرها لا تؤثر في كثير او قليل على احوالنا المعيشية ؛ فكل هذه النظريات تعتمد على الرياضيات العالية ، وهذه الرياضيات هي التي تسمى بالعلم المجرّد . ومعظم الناس لا يهتمون بهذا العلم لأن ما يهمهم في الواقع تطبيقاته على حياتنا العادية . وهذا هو ما قلب حياتنا وغيرها خلال المئة والخمسين سنة الماضية . والواقع ان حياتنا اليوم خاضعة تماماً لنتائج هذا العلم ، وانه لمن الصعب جداً ان نتصور حياتنا بدونها . وكثيراً ما

يتحدث الناس عن الايام الجميلة الماضية وعن العصور الذهبية التي مرت صحيح ان بعض فترات التاريخ السابقة جميلة ، وقد تفوق ايامنا هذه ، ولكن هذا التفوق في الواقع يعود الى بعد المسافة والغموض الذي يكتنفها اكثر من اي شيء آخر ولذلك نميل الى الاعتقاد بأن عصراً ما كان جميلاً ، لأن بعض الرجال العظام ظهروا فيه. ولكن من المؤكد ان حياة الناس العاديين كانت خلال التاريخ الماضي حياة تعيسة ، ولم يخفف عنهم بعض الاعباء سوى العلم الحديث .

انظري حولك تجدي ان معظم الاشياء التي تشاهدينها مرتبطة بشكل من الاشكال بالعلم انا نسافر بواسطة العلوم التطبيقية ، ونتصل مع بعضنا البعض بنفس الواسطة ، ونحضر طعامنا وننقله من مكان لآخر ايضاً بنفس الواسطة ، فالجريدة التي نقرأها ، والكتب التي بين ايدينا ، والورق الذي اكتب عليه الآن والقلم الذي اكتب به ، كل هذه الاشياء نتاج العلم النظافة والصحة وقهر الامراض يعتمد على العلم ، فالدنيا الحاضرة لا يمكن ان تعيش بدون هذه العلوم التطبيقية . وهناك سبب واحد اهم من كل ما تقدم ، الا وهو ان العالم بدون علم لا يمكن ان ينتج طعاماً يكفي جميع سكانه ، ولذلك سيهلك نصفهم بدونه . لقد تحدثت لك عن ازدياد عدد السكان خلال المئة سنة الماضية ، ولا يمكن لهذه الزيادة ان تعيش بدون مساعدة العلم في انتاج الطعام ونقله من مكان لآخر

منذ استطاع الانسان ان يخترع - بواسطة العلم - الآلة الكبيرة ، وهو مستمر في تحسينها . وقد تمكن من ادخال تغييرات كثيرة صغيرة كل سنة وحتى كل شهر في سبيل تحسين كفاءة هذه الآلة وجعلها اقل اعتماداً على المجهود الانساني . وفي خلال الثلاثين سنة الماضية وصلت هذه التحسينات أوجها ، لدرجة انها بلغت من التقدم ما جعلها تقلب الصناعة واساليب الانتاج تماماً كما قلبتها الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . والسبب في هذا هو زيادة استعمال الكهرباء في الصناعة . وهكذا نرى ثورة كهربائية في القرن العشرين وخصوصاً في الولايات المتحدة الامريكية ، وهذا يقود بدوره الى تغيير الاحوال المعيشية تماماً . وكما ان الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر قد انتجت عصر الآلة ، فان الثورة الكهربائية

هذه الايام تنتج عصر القوة . فالكهرباء التي تستعمل في الصناعات وسكك الحديد وكثير من الاشياء الاخرى تسيطر على كل شيء ومن اجل هذا قرر لينين – بفكره الثاقب – ان يبني مولدات كهربائية ضخمة تدار بالمياه في جميع انحاء روسيا

وقد انتج استعمال الكهرباء في الصناعة – بالاضافة الى التحسينات الاخرى – تغييرات هامة دون أن تكلف كثيراً . فمثلاً قد يسبب تعديل بسيط في آلة مسيرة بالكهرباء مضاعفة انتاجها ، ويعود الفضل في هذا الى الاستغناء عن العمال الذين يخطئون اكثر من الآلة ويعملون ابطأ منها . وهكذا نرى انه كلما تحسنت الآلة ، كلما قل الاعتماد على الانسان ، ولذلك فالآلات الضخمة الآن يسيرها عامل واحد فقط يكبس على ازرار معينة . وهذا يساعد على زيادة انتاج البضائع المصنوعة ، وبنفس الوقت يستغني عن عمال كثيرين لعدم الحاجة اليهم . ولكن تقدم العلم سريع جداً لدرجة انه ما تكاد الآلة تركب في مصنع ما ويمضي عليها وقت قصير حتى يُصبح قسم منها او حتى كلها من النوع القديم بسبب ادخال تحسينات جديدة عليها .

بدأ استبدال العمال بالآلات – كما حدثتك سابقاً – منذ اختراع الآلات ، وقد احدث هذا الاستبدال ثورات كثيرة في تلك الايام ،وحمل العمال على تكسير الآلات الجديدة . ولكنهم وجدوا في النهاية ان وجود الآلات يسبب وجود وظائف جديدة . ولما كان العامل يستطيع انتاج البضائع اكثر بمساعدة الآلات ارتفع اجره وهبطت اسعار البضائع . وهكذا يتمكن العمال والناس العاديون من شراء بضائع اكثر ، فيرتفع مستوى حياتهم وتزيد حاجتهم للبضائع المصنوعة ، وهذا حمل الناس على بناء مصانع جديدة ، وتشغيل عمال اكثر . ولذلك نرى انه بالرغم من ان العمال قد استبدلوا بالآلات في كل مصنع من المصانع الا ان عمالاً اكثر قد وجدوا اعمالاً جديدة في المصانع الكثيرة الحديثة .

استمر هذا الانتعاش لمدة طويلة وساعده في هذا الاستمرار استغلال البلاد الصناعية للاسواق البعيدة في البلاد المختلفة . ويظهر ان هذا الانتعاش قد توقف

خلال السنوات القليلة الماضية، لأنه من غير الممكن أبداً ان يستمر في ظل النظام الرأسمالي الحاضر ؛ واذا أريد له الاستمرار يجب تغيير النظام الذي نعيش فيه . فالصناعة الحديثة تقوم على «الانتاج بالجملة» ، وهذا الانتاج بالجملة لا يمكن ان يستمر الا اذا اشترى كثير من الناس هذه البضائع ، فاذا كانت اغلبية الناس فقيرة أو عاطلة عن العمل ، فانها لا تستطيع شراء هذه البضائع .

وبالرغم من كل هذا فقد استمرت التحسينات الفنية في الآلات دون توقف ، واستمر احلالها محل العمال واضافة هؤلاء الى قائمة العاطلين . وحدث كساد كبير في التجارة سنة ١٩٢٩ في كل انحاء العالم ، ومع ذلك لم يتوقف التقدم الفني. وقد قيل ان التحسينات الكثيرة التي ادخلت في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٢٩ قد بلغت حداً يمكن الاستغناء به عن الملايين من العمال الذين طردوا من اعمالهم في السابق حتى ولو ارادوا انتاج نفس ما انتجوه سنة ١٩٣٩

كان هذا هو احد الاسباب – وهنالك اسباب اخرى كثيرة – التي ادت الى المشكلة الكبيرة وهي انتشار البطالة في العالم كله وخصوصاً في البلاد الصناعية المتقدمة . ان الأمر لعجيب حقا ، فالمفروض ان زيادة الانتاج بواسطة الآلات الحديثة تسبب ازدياد ثروة الأمة وارتفاع مستوى المعيشة ، ولكن هذه الزيادة في الانتاج سببت كما نرى اليوم الفقر والآلام . ويظن الواحد منا أن هذه المشكلة يمكن حلها اذا طبقنا الاساليب العلمية ، وقد يكون هذا صحيحا ، ولكن الصعوبة هي محاولة حلها بالاساليب العلمية المعقولة ؛ لأن محاولة حلها تؤثر على مصالح كثيرة ، أصحابها من القوة لدرجة أنهم يسيطرون على حكوماتهم . وهنالك أيضا الوضع الدولي ، فكل دولة تنافس الاخرى وتمنع الوصول الى حل للمشكلة . ونرى روسيا السوفييتية تطبق أساليب العلم الحديث على مشاكل مماثلة ، ولكنها تجد صعوبات أكثر من أية دولة أخرى ، لانها تسير في هذا الطريق لوحدها بسبب عداء العالم الرأسمالي لها . فدول العالم اليوم، اذا أرادت أن تعيش ، يجب أن تعتمد على بعضها البعض . والاشتراكية اذا أريد لها النجاح في النهاية يجب أن تعمّ العالم كله . اننا لا نستطيع ارجاع عقارب ساعة

الزمن الى الوراء . وكذلك لا يمكن للعلاقات الدولية ان تخضع لرغبات بعض الدول ان محاولات بعض الدول الفاشية من اجل اعلاء بلادها على حساب الآخرين لا بد ان تفشل في النهاية لانها تسير سيراً معاكساً لطبيعة الاقتصاد الدولي هذه الايام . ومن المحتمل ان هذه الدول ستحمل العالم كله والمدنية معها الى الهاوية .

ان خطر هذه الكارثة ليس بعيداً كما يظن بعض الناس. وكما رأينا العلم يجلب معه الاشياء الحسنة ، فانه كذلك تجلب معه اهوال الحرب الفظيعة . وقد تهمل لدول والحكومات كثيراً من فروع العلم ، سواء كانت مجردة او تطبيقية ، ولكنها لا تهمل نواحي العلم الحربية ، فاستغلت كل امكانية من امكانيات العلم الحديث لتسليح نفسها وتقويتها . وتعتمد معظم الدول على القوة واساليب العلم الحديث في تقوية حكوماتها وتخويفها للشعوب دون ان تخشى هي عواقب اعمالها . لقد مضى العهد الذي كانت تقوم به الثورات الشعبية ضد حكومات الظلم والطغيان وبناء المتاريس في الشوارع والاشتباك مع القوات المسلحة كما حدث في الثورة الفرنسية . فمن المستحيل الآن ان يتمكن شعب اعزل أو حتى مسلح من قتال جيش منظم مسلح . وقد يحدث ان ينحاز هذا الجيش للشعب ضد الحكومة ، كما حدث في الثورة الروسية ، وبغير هذا لا يمكن ان يتم بالقوة . ولذلك املت الضرورة على الناس المكافحين من اجل حريتهم ان يبحثوا عن اساليب سلمية جماعية اخرى .

وهكذا نرى ان العلم قد ادى الى سيطرة بعض الافراد او الجماعات على الحكومات والى القضاء على الحرية الفردية والافكار الديمقراطية التي نشأت في القرن التاسع عشر . وكان هؤلاء الافراد والجماعات تتظاهر في بعض الاحيان بالعطف على الديمقراطية وفي بعض الاحيان تعلن العداء لها بصراحة . وهذان النوعان من النظم يتعارضان مع بعضهما وسوف يؤديان الى حرب عالمية ، تدمر هذه الحكومات والمدنية ، وقد تنتج نظاماً اشتراكياً دولياً ، كما تنبأت بذلك الفلسفة الماركسية .

ان الحرب قاسية بشكل لا يمكن تصوّره ، وبسبب ذلك فان دعاتها يخفونها وراء ستار من الموسيقى العسكرية الجميلة والازياء البراقة ومن الضروري ان نعرف ما هي الحرب وكيف تكون في هذا العصر . ان الحرب العالمية الماضية اظهرت حقيقة الحرب وقسوتها ، ومع ذلك فانها ستكون شيئاً لا يذكر بالنسبة لأية حرب قادمة. فاذا كان التقدم العلمي في ميدان الصناعة قد تقدم خلال السنين القليلة الماضية عشرة اضعاف ما كان عليه ، فان علم الحرب قد تقدم مئة ضعف. لم تعد الحرب هجوماً يقوم به جنود المشاة او الفرسان ، فهذه أساليب اصبحت عديمة الجدوى هذه الايام تماماً كالقوس والنشاب ، ولكن الحرب اليوم تشمل الدبابات والطائرات والقنابل .

فاذا نشبت الحرب اصبح من المتوقع ان تهاجم كل دولة الدول التي تحاربها بالطائرات بمجرد ان تعلن هذه الحرب ، وقد تهاجمها حتى قبل ان تعلن لتكسب انتصاراً موقتاً على العدو فتقذف القنابل على المدن والمصانع وقد تسقط بعض هذه الطائرات ، ولكن البقية سوف تكفي لتدمير المدينة. وقد يلجأ المتحاربون لاستعمال قنابل الغازات السامة ، وهذه القنابل ، عندما تنفجر ، تنشر الغازات السامة حولها وتخنق جميع الاحياء في تلك المنطقة . ان الحرب ستكون دماراً على السكان في اشنع الصور الممكنة ، وستسبب آلاماً ومتاعب نفسانية . وهذا الشيء سيحدث في مدن كل من الطرفين المتحاربين،فاذا نشبت الحرب في اوروبا مثلاً فستتحول لندن وباريس الى خرائب خلال ايام قليلة او أسابيع

وهنالك شيء افظع مما مرّ ذكره . فالقنابل التي تقذفها الطائرات قد تحتوي على ميكروبات ومختلف انواع الامراض الفظيعة لايذاء سكان المدينة ونشر الاوبئة بينهم . وهذه تسمى « الحرب الجرثومية » ومن اساليبها ايضاً وضع الميكروبات في الطعام أو الماء أو تحميل الفيران مرض الطاعون وارسالها الى مدن الاعداء .

يبدو كل هذا الوصف فظيعاً لا يمكن تصديقه ، ولكن هذه هي الحقيقة ، فالوحوش نفسها لا تعمل مثل هذه الأعمال . ولكن الناس يعملون اعمالاً

لا تصدق عندمـــا يكون الخوف مستحوذاً عليهم ،ويخوضون معركة حياةاو موت . فخوف كل دولة ان تلجأ الدول الثانية لمثل هذه الاساليب يجعلها تحاول ان تسبق بقية الدول في هذا المضمار ، لأن كل دولة تستعمل هذه الاساليب قبل الثانية تسير مرحلة واسعة نحو النصر .

وفي الحقيقة استعملت الغازات السامة كثيراً خلال الحرب العالمية الاولى ، ومن المعروف ان الدول الكبرى الآن تملك مصانع كبيرة لصناعتها وينتـج من ذلك شيء عجيب هو ان الحرب القادمة لن يكون فيهـــا القتال الحقيقي في الخطوط الامامية حيث يتقابل الجيشان ويحفر كل منهما خنادق تواجه الاخرى ، وانما ستكون خلف الخطوط الأمامية ، أي في المدن وبيوت السكان المدنيين . وقد تصبح الخطوط الأمامية على هذا الاساس اسلم مكان لأن الجنود فيهـــا بعيدون عن الغارات الجوية والغازات السامة وعدوى الامراض ! ولن تتوفر مثل هذه الحماية للرجال والنساء والاطفال الذين يبقون في المؤخرة .

وماذا ستكون النتيجة ؟ دمار العالم ! ونهاية هذا الصرح الجميل ـ صرح الثقافة والمدنية الذي استغرق بناؤه مئات السنين !!

لا يدري احد ماذا يحدث غداً ، اذ اننا لا نستطيع ان نستشف المستقبل من خلال الستار الذي يغلفه . اننا اليوم نرى في هذا العالم نظامين متناقضين متنافسين : الاول يمثل التقدم والتعاون والعقل وبناء صرح المدنية ؛ والثـــاني يمثل التدمير وهدم كل شيء ومحاولة للانتحار . وكلا النظامين يسيران بسرعة هائلة ،ويسلحان نفسيهما بأحدث ما عرف العلم . فمن ينتصر يا تُرى ؟

الازمة الاقتصادية العالمية

١٩ يوليو ١٩٣٣

●

كلما فكر الانسان في تلك القوى التي وضعها العلم تحت تصرفه ، وكيف انه يسيء استعمالها ، كلما زاد عجبه . فالعالم الرأسمالي هذه الايام عالم عجيب . فبواسطة الراديو ينقل العلم اصواتنا إلى بلاد بعيدة ، وبواسطة التلفون اللاسلكي ، نستطيع ان نتكلم مع من نريد بأقصى الأرض ؛ وقريباً سنستطيع رؤيته بالتلفزيون . ونستطيع بواسطة العلم ان ننتج كل ما يحتاجه الجنس البشري وتخلصه من الفقر الذي يتودى فيه ومنذ اقدم العصور حاول الناس – هرباً من واقعهم المر وحياتهم القاسية – أن يتخيلوا أرض السعادة التي تفيض لبناً وعسلاً وحيث الهناء والسرور وحيث يتوفر كل شيء يحتاجون اليه . تخيلوا ان العصر الذهبي قد مضى وتأملوا أن الجنة قادمة اليهم حيث يجدون السلام والفرح . ثم جاء العلم ووضع تحت تصرفهم جميع الوسائل لمساعدتهم على انتاج كل شيء ؛ ومع كل هذه الامكانيات ، تعيش اكثر الانسانية في شقاء وفاقة . أليس ذلك من المتناقضات العجيبة ؟

ان العلم وما يستطيع تقديمه الينا يحرجان مجتمعنا كثيراً ، لأنهما لا يسيران مع بعضهما البعض ، فالاختلاف قائم بين النظام الرأسمالي الحالي وبين تطبيقات العلم وأساليب الانتاج . لقد تعلم مجتمعنا كيف ينتج ، ولكنه لم يتعلم حتى الآن كيف يوزع هذا الانتاج .

بعد هذه المقدمة القصيرة ، لنرجع مرة اخرى إلى اوروبا وامريكا . لقد تحدثت

لك عن المصاعب التي وقفت في طريقها خلال السنوات العشر التي عقبت الحرب العالمية (الاولى) . فالدول المنهزمة مثل المانيا وبعض دول وسط اوروبا قد ساءت الاحوال فيها كثيراً وسقطت عملاتها وساءت حالة الطبقات الوسطى فيها. ولم يكن حظ الدول الاوروبية المنتصرة أحسن من ذلك بكثير . فكلها مدينة لأمريكا ، كما انها مدينة ايضاً لشعوبها بديون ضخمة ، فأصبحت تئن وتتعثر تحت ثقل هذين الدَينين . لقد كانت تأمل ان تسدد ديونها الخارجية بما ترتب على ألمانيا ان تدفعه لها في شكل تعويضات ، غير ان المانيا نفسها لم تقدر ان تدفع شيئاً . ولم ينقذ الموقف إلا امريكا التي اخذت تقرض المانيا وهذه بدورها تدفع هذه القروض إلى انجلترا وفرنسا وغيرها من البلدان تسديداً للتعويضات ، ثم ترجع هذه بدورها ايضاً الاموال التي قبضتها إلى امريكا

لقد كانت الولايات المتحدة الامريكية هي البلاد الوحيدة المنتعشة اقتصادياً، فكانت تفيض بالاموال ، مما شجع كثيراً من الناس على المغامرة والمقامرة في الاسهم والسندات . وكانت الفكرة السائدة في العالم الرأسمالي ان تلك الازمة الاقتصادية ستمر كما مرت ازمات اقتصادية قبلها ، وان العالم سيرجع تدريجياً إلى حالة الرخاء . والحقيقة ان حياة الرأسمالية كانت دائماً تتأرجح بين الرخاء والأزمات. وهذا بحكم طبيعتها والاساليب غير العلمية وعدم اتباعها التخطيط السلمي فانتعاش الصناعة يسبب انتاجاً ضخماً ، لأن كل واحد يريد أن ينتج أكثر ما يستطيع ، وتكون النتيجة ان يزيد الانتاج عن مقدار ما يمكن بيعه . وعندما تنتعش الصناعة تزيد قيمة اسهم الشركات ، وعندما يخف الانتاج تنزل قيمة الاسهم وتحدث ازمة وبعد فترة هدوء ، تُباع الكميات الفائضة ، وتعود المصانع للانتاج وتظهر فترة جديدة من الرخاء . وهكذا تتم الدورة ، ويأمل الناس دائماً في ان تعود فترة الرخاء .

ساءت الاحوال كثيراً في سنة ١٩٢٩ . وأوقفت امريكا اعطاء القروض لألمانيا ودول امريكا الجنوبية ، وبذلك تهدّم ذلك الصرح الشامخ من ورق الكمبيالات وايصالات الديون . وكان من الواضح ان رأسمالي امريكا لا يمكن ان يستمروا

في اعطاء القروض إلى الابـــد ، لانهم بذلك يزيدون عجز المدينين عن تسديد ديونهم . لقد اعطوا القروض في السابق لكثرة ما لديهم من نقد لا يحتاجونه . وكثرة النقد هذه جعلتهم يضاربون بالبورصة بشكل جنوني ، فانتشرت حمى المقامرة هذه وأراد كل واحد ان يصبح غنياً بأقصى سرعة .

تسبب ايقاف القروض لألمانيا مباشرة في ازمة كبيرة ، أفلس فيها كثير من البنوك الألمانية . وبالطبع توقفت المانيا عن دفع التعويضات وتسديد الديون ، واخذت دول امريكا الجنوبية تترنح تحت هذه الضربة . ولما رأى الرئيس هوفر ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ان صرح نظام الديون يتداعى ، أعلن في يوليو ١٩٣١ تأجيل تسديد الديون لمدة سنة واحدة . وهذا يعني ان جميع الديون الداخلية ودفعات التعويضات تتوقف لمدة سنة واحدة ، وبذلك يُعطى الدائنون فرصة لتدبر أمورهم .

وفي هذه الاثناء ، وفي اكتوبر ١٩٢٩ على وجه التحديد حدث شيء مهم في امريكا ، اذ أدت المضاربة في البورصة إلى ارتفاع الاسعار ارتفاعاً جنونياً ، ثم إلى سقوطها دفعة واحدة . فاهتزت لهذه الازمة الدوائر المالية في نيويورك ، ومنـذ ذلك الوقت انتهى عهد الرخاء في امريكا ، وانضمت بذلك إلى قافلة الدول التي تعاني من الازمة الاقتصادية . وأصبح تدهور التجارة والصناعة منتشراً في انحاء العالم وبدأ يطلق عليه اسم الازمة الاقتصادية العالمية ، ولا تظني ان المضاربة في بورصة نيويورك هي التي تسببت في هذه الازمة ، اذ لم تكن في الواقع الا بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، بينما كانت الاسباب الحقيقية اعمق من ذلك بكثير .

اخذت التجارة في التقلص في جميع انحاء العالم ، وأخذت الاسعار وخصوصاً اسعار المنتوجات الزراعية في الهبوط . وقيل حينئذٍ ان هنالك فائض انتاج في كل شيء ، وهذا يعني في حقيقة الأمر انه لم يكن لدى الناس نقود ليشتروا بها هذه البضائع ، فلم يستهلكوا ما اعتادوا ان يستهلكوه . وبقيت منتوجات المصانع دون ان تُباع ، واصبحت تتراكم ، مما اضطر اصحاب المصانع الى قفل مصانعهم ، لأنه من غير المعقول ان يستمروا في انتاج اشياء لا تُباع . وقاد هذا

بدوره الى انتشار البطالة في كل من اوروبا وامريكا وكل مكان آخر . لقد اصيبت كل البلاد الصناعية بضربة مؤلمة ، وكذلك ايضاً البلاد الزراعية التي كانت تزود السوق العالمية بالغذاء والمواد الأوليـــة . وهكذا تأثرت الصناعات المندية الى حدّ ما ، ولكن اكثر الطبقات تأثراً كانت طبقات المزارعين بسبب هبوط الاسعار. وفي العادة يكون هبوط اسعار المواد الغذائية نعمة على الأهالي، لأنهم يستطيعون بذلك شراء ما يحتاجونه رخيصاً . غير ان كل شيء في هـــذه الدنيا ، وفي ظل هذا النظام الرأسمالي مقلوب رأساً على عقب ، فانقلب ما كان يجب ان يكون نعمة إلى نقمة . لأنه توجب على الفلاحين دفع اجرة اراضيهم إلى الملاكين او الحكومة نقداً ، ولا يستطيعون ذلك إلاّ اذا تمكنوا من بيع محصولهم . وكانت اسعار المحصولات منخفضة جداً لدرجة ان الفلاح لو باع كل محصوله لما استطاع دفع اجرة الأرض. ولذلك كثيراً ما كان الفلاحون يُطردون من أراضيهم واكواخهم بعد ان يُباع اثاثهم – ان كان لهم اثاث – في المزاد العلني . وهكذا بالرغم من ان الطعام كان رخيصاً ، فان الذين انتجوه اصبحوا جياعا بلا مأوى .

ونظراً لتشابك التجارة والمصالح في العالم ، فان هذه الأزمة قد عمّت الدنيا كلها . ولم تنج منها سوى تلك البلاد المنعزلة عن العالم مثل التبت . كانت هـذه الازمة تشبه الشلل الذي يتسلل إلى جسم المجتمع . وقد يكون مـن المفيد – لكي نعرف مبلغ شدة الأزمة – ان ننظر إلى الارقـام الحقيقية عن التجارة العالمية التي نشرتها عصبة الامم . وتمثل هـــذه الارقام ملايين الدولارات وهي تشمل الاشهر الثلاثة الأولى من كل سنة :

الربيع الاول من سنة	قيمة الوردات	قيمة الصادرات	قيمة الواردات والصادرات
١٩٢٩	٧٩٧٢	٧٣١٧	١٥٢٨٩
١٩٣٠	٧٣٦٤	٦٥٢٠	١٣٧٨٤
١٩٣١	٥١٥٤	٤٥٣١	٩٦٨٥
١٩٣٢	٣٤٣٤	٣٠٢٧	٦٤٦١
١٩٣٣	٢٨٢٩	٢٥٥٢	٥٣٨١

تبيّن لنا هذه الارقام كيف ان التجارة العالمية قد تدهورت ، وانه ما كاد الربع الأول من سنة ١٩٣٣ يحل حتى اصبحت ٣٥ ٪ أو ثلث ما كانت عليه قبل اربع سنوات .

ماذا توضح لنا هذه الارقام بلغة بسيطة ؟ انها توضح لنا ان معظم الناس كانوا فقراء لدرجة انهم لم يستطيعوا شراء ما ينتجون. انها توضح لنا ان اعداداً كبيرة من العمال اصبحوا عاطلين عن العمل وانهم لا يجدون عملاً مهما توافرت النوايا الحسنة . بلغ عدد العمال العاطلين في اوروبا وامريكا ٣٠ مليون عامل ، منهم ثلاثة ملايين عامل في بريطانيا و١٣ مليوناً في الولايات المتحدة ولم تتوفر الاحصاءات لمعرفة عدد العمال العاطلين في الهند أو اقطار آسيا الأخرى . قد يزيد عددهم في الهند عن مجموع اوروبا وامريكا تأملي هذه الاعداد الكبيرة من العمال العاطلين في جميع انحاء العالم وفي عائلاتهم التي تعتمد عليهم ، وفي مقدار الشقاء والتعاسة اللذين سببهما تدهور التجارة . كانت بعض اقطار اوروبا تدفع مبالغ ضئيلة للعمال العاطلين المسجلين الذين اشتركوا في التأمين على عملهم عند الدولة، وفي امريكا كانت تعطى لهم بعض الصدقات ، ولكن لا هذه ولا تلك افادت العمال او خففت من ضائقتهم، وفي كثير من الأحيان كانوا يجوعون،وقد بلغت الأحوال في اواسط وشرقي اوروبا درجة مفزعة .

وبالرغم من ان امريكا كانت آخر دولة اصابتها الازمة الاقتصادية ، إلا ان ردّ الفعل كان اكبر منه في اي دولة اخرى . فالشعب الامريكي لم يتعود على تدهور التجارة واستمرار هذا التدهور مدة طويلة .

لقد اذهلت هذه الضربة امريكا التي كانت تفخر بكثرة اموالها ؛ وكلما زاد عدد العمال العاطلين ، وارتفعت ارقامهم إلى خانة الملايين ، كلما انتشرت المجاعة واصبحت منظراً مألوفاً ، مما اضعف ثقة الشعب بنفسه، فتزعزعت الثقة في البنوك واخذ الناس يسحبون اموالهم ويكدسونها. والاساس في وجود البنوك هو الثقة، فإذا ذهبت الثقة ، ذهبت البنوك . ونتج عن ذلك افلاس آلاف من البنوك في امريكا. وكلما افلس بنك، كلما زاد في تعقيد الامور وتدهورها من سيىء الى اسوأ.

اخذت اعداد كبيرة من العمال العاطلين ، رجالاً ونساءً ، تجوب البلاد وتنتقل من بلد الى آخر بحثاً عن عمل . كانوا يمشون على الطريق ويطلبون من سائقي السيارات التكرم عليهم واركابهم ، أو كانوا يتعلقون بدرجات سلالم القطارات البطيئة ، ولكن اكثر منظر يحز في النفس هو منظر الاولاد والبنات حتى والاطفال وهم يجوبون البلاد طولاً وعرضاً وفي هذه الاثناء كان الرجال القادرون على العمل جالسين ينتظرون ويأملون في ايجاد العمل هذه هي طبيعة الرأسمالية ، وقد بلغت حداً ان نشأ كثير من المصانع الصغيرة الوسخة المظلمة حيث يُشغّل الاولاد بين سني الثانية عشرة والسادسة عشرة مدة عشر ساعات او اثنتي عشرة ساعة نظير اجر طفيف . وقد استغل بعض اصحاب المصانع هذه الفرصة ـ فرصة عدم وجود اعمال ـ واضطروا الاولاد والبنات الى الاشتغال في مصانعهم اعمالا شاقة طويلة مضنية . وهكذا ارجعت هذه الازمة مرة ثانية عادة تشغيل الأطفال وانتهكت حرمات القوانين بما فيها قانون العمل والعمال .

وهنا يجب ان نذكر انه لم يكن في امريكا او في العالم نقص في الغذاء او البضائع المصنوعة . بل على العكس كانت المشكلة هي الزيادة في الانتاج . وقد ذكر الاقتصادي الانجليزي المعروف السيد هنري ستراكوش في يوليو ١٩٣١ ، اي في السنة الثانية من سني الأزمة ، بأنه يوجد في العالم بضائع ومواد تكفي لحفظ مستوى معيشة سكان العالم حسبما كان في السابق لمدة سنتين وثلاثة اشهر اخرى حتى ولو لم يعمل الانسان اي عمل خلال هذه الفترة . ومع ذلك فقد كانت المجاعة والفاقة منتشرتين في هذه الفترة بشكل لم يسبق له مثيل في عالمنا الصناعي الحديث . ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل في نفس الوقت الذي تنتشر فيه الفاقة والمجاعة ، يقوم بعض الناس بتدمير المواد الغذائية وحرقها ، ليس هذا فحسب ، بل انهم لم يعودوا يجنون المحصول وأخذوا يتركونه يتعفّن في الحقول ، كما لم يعودوا يجنون ثمار الاشجار . وفي بعض الحالات خربوه بالفعل . ولأضرب عن ذلك مثلاً واحداً فقط : في البرازيل وبين يونيو ١٩٣١ وفبراير ١٩٣٣ أحرق ١٤ مليون كيس من البنّ ، ولما كان كل كيس يحتوي على ١٣٢ رطلاً فهذا يعني ان ١،٨٤٨،٠٠٠،٠٠٠

وطلاً من البنّ قد اتلف . وهذا يزيد عن حاجة كافة سكان العالم لو فرضنا اننـا اعطينا لكل واحد منهم رطلاً . ومع ذلك فأننا نعرف ان ملايين الناس يرحبون بشرب القهوة ، غير أنهم لا يستطيعون شراءها

وبالاضافة إلى القهوة فقد اتلفت محاصيل القمح والقطن واشياء اخرى كثيرة. وقد اتخذت الاجراءات للتقليل من المحصولات في المستقبل بوضع قيود على زراعة القطن والمطاط والشاي . . الخ . وقد قصد من هذا الاتلاف وتلك القيود رفع اسعار المحصولات الزراعية ، حتى يحصل نقص في كمياتها وبذلك يكثر الطلب منها فترتفع اسعارها. وهذا حسن ومربح بالنسبة للفلاح الذي يبيـع محصوله في السوق؛ ولكن ما هو موقف المستهلك ؟ حقاً ، ان عالمنا هذا لعجيب . اذ انه لو كان هنالك نقص في الانتاج لارتفعت الاسعار لدرجة لا يتمكن معها معظم الناس من شراء ما يريدون فيحرمون منها . واذا كان هنالك زيادة في الانتاج هبطت الاسعار لدرجة لا تتمكن معها المصانع من العمل ، فتنتشر البطالة ، وكيف يتمكن العامل العاطل من شراء ما يحتاج اذا كان لا يملك النقود لذلك ! ففي كلا الحالين، سواء كان هنالك نقص في الانتاج او زيادة ، فالحرمان من نصيب الجماهير.

وكما قلت في السابق ، لم يكن يوجد نقص في البضائـع في امريكا او في أي مكان آخر طوال مدة الازمة . فالمزارعون كانوا يملكون المحصولات الزراعية التي لم يستطيعوا تصريفها ، ومع ذلك فكل من المزارعين وسكان المدن في حاجة لبضائع الآخر . وقد توقف تبادل هـــذه البضائع بسبب قلة النقد . وعندئـذ اضطر الناس في امريكا، البلاد الصناعية المتقدمة الرأسمالية ، الى الرجوع الى نظام المقايضة الذي وجد في الماضي قبل معرفة النقود . فتألفت في امريكا مئات المنظمات للمقايضة. لأن نظام التبادل الرأسمالي قد ثبت فشله لقلة النقد ، فبدأ الناس يصرفون امورهم بدون استعمال النقود، ويتبادلون البضائـع والخدمات. وقامت جمعيات المقايضة باصدار شهادات للمساعدة في تبادل البضائع ومن الامثلة الطريفة ان فلاحاً يقدم إلى الجامعة الحليب والزبدة والبيض نظير تعليم أولاده .

انتشر نظام المقايضة في البلاد الاخرى . وحلّ محل النظام المعقّد لتبـادل

النقد بين الدول ، فانجلترا قايضت قمحها نظير خشب اسكندنافيا . واعطت كندا الالمنيوم للاتحاد السوفيتي مقابل الزيت ، وتبادلت الولايات المتحدة مع البرازيل قمحاً بقهوة وهكذا .

أصيب المزارعون في امريكا بالفقر بشكل لم يسبق له مثيل فعجزوا عن تسديد ديونهم التي اقترضوها من البنوك رهناً على مزارعهم . وعندئذ حاولت البنوك تحصيل ديونها بإجبار المزارعين على بيع مزارعهم ولكن المزارعين صمموا على منع ذلك ، فتألفت منهم لجان للعمل على منع البيع . وكانت النتيجة انه لم يجرؤ احد على شراء املاك المزارعين في المزادات العلنية ، واضطرت البنوك الى القبول بشروطهم . انتشرت هذه الثورة في اقاليم امريكا الوسطى الزراعية . وهي تعتبر مهمة جداً وذات دلالة بالغة تبين كيف ان المزارعين المحافظين الذين كانوا يشكلون العمود الفقري للبلاد ، قد حولتهم الازمة بين عشية وضحاها الى ثوريين في نظرتهم وعملهم . وكانت حركتهم تلك وليدة ظروفهم ، وليس لها علاقة قط بالاشتراكية والشيوعية . لقد حولتهم هذه الازمة الاقتصادية من مزارعين يملكون اراضي وحقوقاً إلى فلاحين ليس لهم من الحقوق سوى حرث الأرض وغرسها. واصبحت لهم شعارات مثل : « حقوق الانسان قبل حقوق التملك » و « للنساء والاطفال الاعتبار الاول قبل تسديد الديون » .

لقد تحدثت كثيراً عن الاحوال في امريكا لانها بلاد تتمتع بطابع خاص. فهي اكثر البلاد الرأسمالية تقدماً ، وليس فيها جذور اقطاعية كتلك الموجودة في اوروبا وآسيا . لذلك فالتغيير فيها مفروض فيه ان يكون مريعاً . ومع ان البلاد الاخرى معتادة على مشاهدة فقر جماهيرها ، إلا ان ذلك لم يكن معروفاً في امريكا . ويمكنك ان تتعرفي على الاحوال في البلاد الاخرى اذا ما قارنتها مع امريكا ، فمنها من كان اسوأ بكثير ومنها من كان احسن قليلاً . وعلى العموم لم تتأثر البلاد الزراعية والبلاد المتأخرة بقدر ما تأثرت البلاد الصناعية المتقدمة ، لقد انقذها تأخرها الى حد ما ! كانت اكبر مشاكلها هو تدني اسعار المحصولات الزراعية مما سبب مصاعب كثيرة للفلاحين. فمثلاً لم تستطع استراليا التي تعتبر بلداً

زراعياً ان تدفع ديونها للبنوك الانجليزية واصبحت على شفا الافلاس بسبب هبوط اسعار محصولاتها الزراعية . ولكي تنقذ نفسها قبلت بالشروط القاسية التي أملتها عليها البنوك الانجليزية . وكقاعدة عامة ، لا ينتعش خلال الازمات الاقتصادية سوى طبقة اصحاب البنوك .

وكانت نتيجة وقف امريكا اعطاء القروض لدول امريكا الجنوبية احداث ازمة اقتصادية قلبت معظم حكوماتها أو بالاحرى معظم حكامها الدكتاتوريين . فانتشرت الانقلابات في كل مكان في الارجنتين والبرازيل وشيلي . وكانت هذه الانقلابات كجميع الانقلابات التي تحدث في امريكا الجنوبية ، مجرّد انقلابات داخل القصور ، يتغير فيها الدكتاتور او الطبقة الحاكمة فقط . فالذي يسيطر على الجيش أو البوليس يحكم البلاد . ولما كانت كل دول امريكا الجنوبية غارقة الى اذنيها في ديونها ، فقد امتنعت عن تسديدها .

ما هي اسباب الازمة

٢١ يوليو ١٩٣٣

•

أمسكت الازمة الاقتصادية بخناق العالم فبدا كأنه يختنق . توقفت آلات المصانع عن الدوران في كثير من البلاد ، وبقيت الحقول التي كانت تنتج الطعام والمحاصيل الاخرى بوراً لا يحرثها احد . واشجار المطاط تفرز المطاط ولا أحد يجمعه ، واهملت شجيرات الشاي القائمة على سفوح الجبال بعد ان كانت موضع عناية فائقة . انضم كل من كان يعمل في هذه الحقول الى جيوش العاطلين عن العمل وأخذ ينتظر – بلا أمل – فرصة العثور على عمل . وفي كثير من البلاد ازدادت الانتحارات وعمت

وكما قلت في السابق تأثرت جميع الصناعات بهذه الأزمة إلا صناعة واحدة هي صناعة الأسلحة والمواد الحربية لإمداد الجيوش والاساطيل البحرية والجوية بما يلزمها . وانتعشت تجارة الأسلحة وربح تجارها كثيراً ، اذ انهم استغلوا فرصة الصراع القائم بين الدول ، والذي اخذ يزداد سوءاً كلما ازدادت الازمة تفاقماً

وهنالك بلاد عظيمة واحدة لم تتأثر بالأزمة ، ألا وهي الاتحاد السوفييتي . لم تكن هناك بطالة بل استمر العمل في مشروع الخمس سنوات كأشد ما يكون العمل . يقع الاتحاد السوفييتي خارج المنطقة التي تسيطر عليها الرأسمالية ، ويخضع اقتصاده لنظام يختلف عن النظام الرأسمالي . ولكن كما قلت لك تعرض الاتحاد السوفييتي بصورة غير مباشرة لبعض الصعاب الناجمة عن الازمة من جراء هبوط

اسعار المحصولات الزراعية التي كان يبيعها الدول الاخرى .

ما هو سبب هذه الأزمة الشديدة ؟ هذه الأزمة العالمية التي تشبه في قسوتها الحرب العالمية نفسها ؟ انها تسمى أزمة الرأسمالية ، لأن جهاز النظام الرأسمالي لم يتحمل عبئها فلماذا ؟أكانت أزمـــة موقتة تستطيع الرأسمالية اجتيازها ، ام كانت بدء موت هذا النظام العظيم الذي سيطر على العالم مدة طويلة ؟ هذه اسئلة مهمة يتوقف على اجابتهـــا مستقبل الانسانية ومستقبلنا . ارسلت الحكومة البريطانية في ديسمبر ١٩٣٢ مذكرة للحكومة الامريكية تطلب فيهـا اعفاءها من ديون الحرب . واشارت الحكومة البريطانية في هذه المذكرة الى ان العلاج الذي حاولت استعماله زاد المرض حـدة وتعقيداً قالت المذكرة : « زيدت الضرائب في كل مكان بلا رحمة ، وقلّت المصروفات على نطاق واسع ،ومع ذلك فإن قيود المراقبة التي قصد منها علاج الاوضاع لم تزدها الا تعقيداً » . ومضت المذكرة تقول : « ان الخسارة والآلام التي تعانيها البشرية لا يرجـع سببها الى نذالة الطبيعة وسوء تصرفها ، فانتصارات علوم الطبيعة في استمرار ، وامكانيات انتاج ثروات حقيقية ما زالت كما هي . ان الخطأ ليس خطأ الطبيعة ؛ انما هو خطأ الانسان وخطأ النظام الذي يسير عليه »

ليس من السهل معرفة طبيعة مرض الرأسمالية معرفة صحيحة او وصف علاج لها . فعلماء الاقتصاد انفسهم يختلفون على الاسباب وطرق العلاج والاشخاص الوحيدون الذين يعتقدون انهم يعرفون هذه الامور تماماً وبشكل واضح هم الشيوعيون والاشتراكيون الذين يجدون فيهذه الازمة تعليلًا لنظرياتهم التي تتنبأ بزوال الرأسمالية . اما خبراء الرأسمالية فقد دهشوا ، حتى ان مونتاجو نورمان ، وهو من اعظم واقدر الماليين البريطانيين ويشغل منصب محافظ بنك انجلترا ،قال في حفل عام : « ان معالجة المشكلة الاقتصادية التي نواجهها فوق طاقتي،فالصعاب كبيرة ومن نوع جديد لم يسبق له مثيل مما يضطرني انأخوض الموضوع، فيحين يسيطر عليّ الجهل والخضوع . اما فيما يتعلق بالمستقبل فاني آمل ان نرى النور يطل من الناحية الثانية من الافق ، هذا النور الذي بدأ بعضنا يراه . » ولكن

يظهر ان هذا النور انما هو سراب خادع ، ما كاد يحيي الامل حتى أماته . قـال السير اوكلاند جدس ، السيامي الانجليزي : « ان الرجال المفكرين يعتقدون ان زوال نظامنا قد بدأ . اننا في اوروبا نعرف ان عصراً من عصور التاريخ يحتضر الآن . »

كان الالمان يعتقدون ان سبب الأزمة هو التعويضات التي فرضت عليهم ؛ وآخرون يعتقدون انها حلت بسبب ديون الحرب سواء أكانت بـين الدولة والدول الاخرى أم بين الدولة وشعبها ، مما زاد في ثقل العبء فتدهورت الصناعة . وهكذا اعتبروا الحرب مسؤولة عن مشاكل العالم ! اما بعض علماء الاقتصاد فقد اعتقدوا ان السبب الحقيقي هو سلوك النقود العجيب وتدني الاسعار الذي سببته قلة الذهب . وقـلة الذهب ناتجة عن عدم استخراجه بكميات كافية من المناجم ، ولأن الحكومات تخزنه ولا تستعمله . ولكن كثيرين غيرهم اعتقدوا ان السبب الحقيقي هو سياسة الاقتصاد الوطني التي تشجع على اقامـة الحواجز الجمركية ، وبذلك تتعرقل التجارة . واعتقد بعضهم ان السبب هو تقدم العلم وتطبيقاته مما قلل عدد العمال المطلوبين في الاعمال ، ولذلك انتشرت البطالة !

قد تكون جميع هذه الامور ساعدت على احلال الازمة ، ولكنه من الخطأ الفادح ان نلقي اللوم على اي منها او جميعها بل بالعكس كان بعضها نتيجة للأزمة ، مع ان كلاً منها ساعد على تفاقمها يجب ان يكون السبب الحقيقي اعمق من ذلك بكثير. لم تسببها الهزيمة في الحرب لأن الدول المنتصرة عانت منها ايضاً ، ولم يسببها فقر الأهالي لاننا رأينا ان امريكا اغنى دول العالم قد عانت منها اكثر من غيرها وليس من شك في ان الازمة العالمية أسرعت في مجيئها لسببين: الاول الديون الكثيرة التي تراكمت ، والثاني طريقة توزيعها على الدائنين ، وكذلك لأن اسعار الحاجيات اثناء الحرب كانت اسعاراً غير حقيقية وكان من المحتم هبوطها . ولكن دعينا ننظر الى المسألة بشكل اعمق

قيل ان سبب المشكلة هو فيض الانتاج ؛ وكلمة فيض الانتاج خادعة ، لأنه لا يمكن ان يكون هنالك فيض في الانتاج عندما نرى ملايين الناس يعانون من

قلة الاشياء الضرورية جداً لحفظ حياتهم . فمئات الملايين في الهند لا يملكون الملابس ،ومع ذلك فان مصانع القماش في الهند تزخر بما فيها من بضائع و «تفيض» . فالحقيقة اذن هي ان الناس فقراء جداً لدرجة انهم لا يستطيعون شراء هذه البضائع وليس انهم لا يحتاجونها انها قلة النقد في ايدي الناس . ولا يعني هذا ان النقود قد اختفت من العالم ، انما يعني ان توزيعها في العالم قد تغير وما زال يتغير - اي ان هناك غبناً في توزيع الثروات ، فمن ناحية نرى ان الثروة تتراكم في ايدي طبقة من الناس لا يدرون كيف ينفقونها وانما يخزنونها في البنوك ، فلا تستغل في شراء البضائع من السوق . ومن ناحية اخرى نرى ان هناك طبقة من الناس لا تملك النقود لتشتري بها الحاجيات الضرورية جداً .

ويمكن تلخيص هذه النقطة بقولنا ان هناك اغنياء وهناك فقراء، وهي حقيقة لا تحتاج الى ايضاح ، فهي موجودة منذ بدء التاريخ . ولكن لماذا تكون هذه الحقيقة مسؤولة عن الازمة الحالية ؟ اعتقد انني قلت لك في السابق ان من شأن النظام الرأسمالي إساءة توزيع الثروات .كان الوضع زمن النظام الاقطاعي جامداً لا يتحرك بسرعة ، أما في الرأسمالية - حيث الآلات الضخمة والتجارة الدولية - فالتغير سريع يساعد على تراكم الثروة في ناحية واحدة فقط . وأدت إساءة توزيع الثروات مع عوامل اخرى الى نزاع جديد بين العمال ورأس المال في البلاد الصناعية . وقد حاول الرأسماليون تخفيف حدة هذا النزاع باعطاء العمال بعض الزيادة في الاجور وتحسين احوالهم المعيشية .. الخ ، وذلك على حساب استغلالهم المستعمرات والبلاد المتأخرة . وهكذا اصبح استغلال المستعمرات والبلاد المتأخرة في كل من آسيا وافريقيا وامريكا الجنوبية عاملاً في مساعدة اقطار اوربا الغربية وامريكا الشمالية الصناعية على تجميع الثروات في ايديها واعطاء عمالها قسماً ضئيلاً منها . ولما اكتشفت الاسواق الجديدة ونمت الصناعات وتطورت ، بدأ الاستعمار يتخذ شكلاً عنيفاً في البحث عن الاسواق الجديدة والمواد الخام، فنمت المنافسة بين الدول الصناعية وتحولت الى صراع . ولما وصل العالم الى الدرجة التي اصبح فيها تحت سيطرة الرأسمالية ولم يعد هناك مجال للمنافسة ، تحول الصراع

الى حرب عالمية .

لقد قلت لك هذا الحديث في السابق واعيده الآن لأساعدك على فهم الازمة العالمية . في خلال فترة التطور الرأسمالي ونمو الاستعمار حدثت عدة ازمات في الغرب بسبب تجميع الثروات في ناحية وقلتها في ناحية اخرى. ولكن هذه الازمات كانت تمر بهدوء لأن الرأسماليين كانوا يصرفون نقودهم الفائضة في تطوير واستغلال البلاد المتخلفة فخلقوا اسواقاً جديدة هناك مما زاد في استهلاك البضائع . كان الاستعمار يوصف بأنه آخر مرحلة من مراحل الرأسمالية . وكان من المفروض ان يستمر استغلال الشعوب حتى تتصنّع كل الدول ، غير ان صعاباً كثيرة نشأت في الطريق ، واهم هذه الصعاب هي المنافسة العنيفة بين الدول الاستعمارية. كلٌ تريد اكبر نصيب ، مضاف الى ذلك ظهور الحركات الوطنية الجديدة في المستعمرات ونمو الصناعات بها ، مما ادى الى سدّ حاجياتها من انتاجها . ادى كل ذلك للحروب ، ولكن الحرب لم تحل مشاكل الرأسمالية فمثلاً خرج الاتحاد السوفيتي من العالم الرأسمالي نهائياً ولم يعد يمكن استغلاله، وكذلك نمت في الشرق الحركات الوطنية واتخذت شكلاً عنيفاً وانتشر التصنيع . وساعد تقدم العلم اثناء الحروب وبعدها على توزيع الثروات توزيعاً غير عادل فانتشرت البطالة . يضاف الى ذلك ديون الحرب التي كانت عاملاً مهماً في احداث الأزمة

كانت هذه الديون باهظة ، ولم يؤخذ بدلها ثروة ملموسة ،بمعنى انه اذا اقترضت بلاد ما نقوداً لمدّ سكة حديد أو إقامة سدّ أو أي شيء آخر ينفعها تكون قد كسبت ثروة ملموسة نظير الدين الذي اقترضته ، وقد تكون هذه المشاريع التي قامت بها نافعة جداً لدرجة انها تنتج أكثر مما صُرف عليها . تسمى هذه الاعمال «الاعمال المنتجة» . واذا نظرنا الى ديون الحرب لوجدنا انها لم تصرف في سبيل مثل هذه الاغراض ، بل على العكس صرفت في سبيل التخريب ، فاقترضت اموال كثيرة وصرفت تاركة وراءها سلسلة من الدمار ؛ وهكذا فإن ديون الحرب ثقيلة جداً لا يخفف من حملها اي شيء . كانت هذه الديون على ثلاثة انواع: التعويضات وهي التي فرضت على الدول المنهزمة ؛ والديون التي اقترضتها الدول

المتحالفة من بعضها البعض ، وخصوصاً من امريكا ؛ والديون الوطنية أي التي اقترضتها الدول من مواطنيها

كانت كل انواع هذه الديون كبيرة، ولكن اكبرها كانت الديون الوطنية ، فبلغت مثلاً في بريطانيا ٦٥٠٠ مليون جنيه . وحتى دفع الفوائد عن هذه المبالغ يشكل عبئاً ثقيلاً ، ولذلك زيدت الضرائب . اما المانيا فقد تخلصت من دينها الوطني عندما تضخم نقدها مما اسقط المارك القديم، وهكذا كان تخلصها على حساب الاهالي الذين اقرضوها المال . وتضخم النقد في فرنسا ايضاً ولكن ليس بنفس النسبة التي تضخم بها في المانيا ، فخفضت قيمة الفرنك الى الخمس ، وهكذا انزلت فرنسا بضربة واحدة قيمة دينها الى الخمس ولم يكن في المستطاع القيام بهذه الحيلة في الديون بين الدول أو التعويضات التي كان يتوجب دفعها بالذهب

عندما تدفع دولة دينها لدولة اخرى ، فان ذلك يعني انها اصبحت افقر مما كانت بمقدار ما دفعته ، ولكن عندما تدفع دينها لمواطنيها تبقى الاموال داخل البلاد ، ولأول وهلة يخطر على بال الواحد منا ان ذلك لا يؤثر كثيراً . ولكننا اذا امعنا النظر وجدنا ان الدولة عندما تريد تسديد ديونها تفرض ضرائب على الشعب، الفقير منهم والغني . والاموال التي تجمعها تدفعها لحاملي سندات الديون، وهم من الاغنياء . فتكون النتيجة ان تفرض الضريبة على الفقير والغني ليُدفع ما يجمع الى الغني . فالغني يحصل على ما دفع ، والفقير لا يحصل على شيء . وهكذا يزيد الغني غنىً والفقير فقراً .

واذا سددت الدول الاوروبية المدينة ديونها لأمريكا ، فذلك يعني ان هذه الأموال تذهب الى اصحاب البنوك والممولين الكبار. وهكذا ساعدت ديون الحرب على تفاقم الحالة بزيادة تجميع المال لدى الاغنياء على حساب الفقراء وطبعاً يريد الاغنياء استغلال اموالهم فلا يحبون ان يروها معطلة ، ولذلك ساهموا في انشاء المصانع وشراء الآلات على مقياس واسع لا تتطلبه حاجات البلاد ، كما انهم بدأوا في المضاربة بالبورصة . اعدوا كل شيء لانتاج البضائع على نطاق واسع، ولكن ما فائدة ذلك عندما لا تستطيع الجماهير ان تشتري هذه البضائع لقلة النقد في ايديها؟

وهكذا فاض الانتاج، ولم تُبع البضائع واصبحت المصانع تخسر فأقفلت ابوابها. ولما رأى رجال الاعمال هذه الخسائر فزعوا وتوقفوا عن المساهمة في الصناعات واحتفظوا بأموالهم وجمدوها في البنوك. وهكذا انتشرت البطالة وعمت الأزمة الاقتصادية العالم بأمره.

بحثت اسباب الأزمة كلاً على انفراد. ولكنها جميعها بالطبع ساعدت على احداث الأزمة مما جعلها اكبر من اية ازمة مرت. انهـا ناتجة مبدئياً عن سوء توزيع الدخل الزائد وجعله حسب مقتضيات النظام الرأسمالي. ونَصِفها بشكل آخر فنقول ان الجماهير لم تأخذ من الاجور والمعاشات ما يكفيها لشراء الحاجيات التي تنتجها هي؛ لأن قيمة المنتوجات تزيد كثيراً عن دخل العمال. فلو كانت النقود متوفرة لدى العمال لاشتروا بها هذه المنتوجات؛ ولكنها تجمعت في أيدٍ قليلة لم تدرِ كيف تنفقها. هذه النقود الفائضة هي التي اقرضتها امريكا الى كل من المانيا ودول وسط اوربا وامريكا الجنوبية. هذه النقود الفائضة هي التي ابقت عجلة الرأسمالية في الدوران بضعة سنين. وبنفس الوقت هي التي تسببت في وقوع هذه الازمة. وكان ايقاف هذه القروض ايذاناً بوقوع الكارثة.

فاذا كان تحليل ازمة الرأسمالية هذا صحيحاً، فان العلاج ينحصر في تساوي الدخل او على الاقل في العمل نحو هذا الهدف، ولا يكون ذلك إلا بتطبيق الاشتراكية. غيران الرأسماليين لايمكن ان يقبلوا ذلك إلااذا اجبرتهم الظروف. يتحدث الناس عن الرأسمالية المخططة (المنظمة) وعن هيئات دولية لاستغلال المناطق المتخلفة. ولكن خلف كل هذا الحديث، تكمن المنافسة والصراع على أشد ما تكون المنافسة ويكون الصراع بين الدول الاستعمارية. تخطيط لأي شيء؟ ألاستغلال الآخرين والربح على حسابهم؟ ان الرأسمالية تقوم على الربح الفردي، والمنافسة هي اساسها، فكيف تتفق المنافسة والتخطيط؟

وبالاضافة الى الاشتراكيين والشيوعيين، فاننا نجد كثيراً من المفكرين قد بدأوا يتساءلون عن امكانية الرأسمالية في الظروف الراهنـة. واقترحوا علاجات غريبة لا لإلغاء نظام الأرباح فحسب، وانما لإلغاء نظام الاسعار نفسه،

الذي يدفع الانسان بموجبه نقوداً نظير البضائع التي يشتريها . هذه مسائل معقدة لا لزوم لبحثها هنا ولكنها تبيّن كيف ان ثقة الناس بهذا النظام قد تزعزعت . واصبح بعض الناس يقترحون اقتراحات ثورية مع انهم ابعد الناس عن الثورات.

اقترحت منظمة العمل الدولية في جنيف اقتراحاً بسيطاً للتقليل من البطالة وهو تحديد ساعات العمل بأربعين ساعة في الاسبوع ، وهذا يعني ايجاد اعمال لملايين من العمال . وقد رحب بهذا الاقتراح ممثلو العمال ، غير ان الحكومة البريطانية ، بمساعدة المانيا واليابان ، عارضت الاقتراح واستطاعت وضعه على الرف وبهذه المناسبة اود ان ابيّن ان تاريخ بريطانيا بالنسبة الى منظمة العمل الدولية كان دائماً رجعياً خلال فترة ما بعد الحرب .

ولما كانت الازمة الاقتصادية قد عمت العالم كله ، فانه يتبادر الى الذهن ان العلاج يجب ان يكون على نطاق دولي . وقد بذلت اقطار كثيرة محاولات في هذا السبيل ، غير انها باءت جميعها بالفشل . ولذلك عندما يئست الدول من ايجاد علاج على نطاق دولي ، اخذت كل دولة تفتش عن العلاج داخل بلادها . وقد كانت نظريتها انه إذا تدهورت التجارة الدولية فلنحفظ نحن تجارتنا لأنفسنا ونمنع استيراد البضائع من الخارج . أي انه عندما اصبحت التجارة بين الدول غير مضمونة وعرضة للتقلبات ، حصرت كل دولة جهدها في التجارة الداخلية . ولذلك انشئت الحواجز الجمركية وزيدت الرسوم على البضائع الاجنبية ، وهكذا تضررت التجارة بين الدول كثيراً . وكانت اقطار اوروبا واميركا من جملة هذه الدول التي أقامت هذه الحواجز. ونتج عن اقامة هذه الحواجز ارتفاع اسعار الحاجيات ، لأن الحماية الجمركية تمنع دخول المواد الغذائية من الخارج ، وتخلق في البلاد احتكارات وطنية وبذلك تقل المنافسة من الخارج واذا وجدت الاحتكارات ، زادت الاسعار ، ولم يستفد من ذلك سوى الصناعة المحتكرة نفسها ، او بالأحرى اصحابها وذلك على حساب المستهلكين ، لأنهم مضطرون ان يدفعوا اسعاراً عالية وهكذا تجدين ان الحواجز الجمركية تنفع طبقة من الناس ، وتخلق مصالح اقتصادية تجعل اصحاب المصانع يحاولون معها

الابقاء عليها . فمثلاً تتمتع صناعة الاقمشة في الهند بالحماية ضد اليابان ، وهذا يفيد اصحاب مصانع الاقمشة في الهند كثيراً ، لأنهم لا يستطيعون منافسة اليابان بغير هذه الحماية ، ولذلك نراهم يتحكمون في السوق ويفرضون اسعاراً عالية وكذلك تتمتع صناعة السكر بالحماية ، ولذلك انشئت مصانع كثيرة للسكر وخصوصاً في المقاطعات المتحدة وبيهار . فالمصلحة التي خلقت يمكن ان تعاني كثيراً اذا ما رفعت الحماية واضطرت مصانع السكر إلى اقفال ابوابها .

هنالك نوعان من الاحتكارات التي ازدادت : الاحتكارات الخارجية الموجودة بين الدول والتي ساعد على وجودها التعرفة الجمركية ؛ والاحتكارات الداخلية التي تبتلع بها المؤسسات الكبيرة المؤسسات الصغيرة . وبالطبع لم يكن نمو الاحتكارات شيئاً جديداً . اذ انها كانت موجودة قبل الحرب العالمية بعدة سنين . ولكنها في هذه الآونة اخذت تزداد بسرعة كبيرة ؛ وكذلك كانت التعرفة الجمركية موجودة في كثير من البلاد . اما انجلترا فقد كانت تعتمد حتى هذا الوقت على التجارة الحرّة ، ولم تستعمل التعرفة الجمركية ، ولكنها غيرت موقفها الآن وتبعت الدول الأخرى واقامت الحواجز الجمركية ، وبذلك انعشت بعض صناعاتها .

والحقيقة انه برغم الانتعاش السريع الذي تحدثه هذه الاجراءات ، إلاّ ان الحالة ازدادت سوءاً في جميع انحاء العالم اجمالاً ، لان هذه الحواجز قللت من التجارة الدولية وساعدت على الاستمرار في اساءة توزيع الثروات . وكذلك فانها ادت إلى الاحتكاك المستمر بين الدول المتنافسة ، كل منها ترفع الحواجز في وجه الاخرى ، وتسمى هذه بالحروب الجمركية . وكلما قلت الاسواق العالمية وحميت من التجارة الخارجية ، كلما زاد الصراع من اجلها عنفاً ، وبدأ اصحاب الأعمال يصرون على تخفيض اجور عمالهم ليتمكنوا من منافسة الدول الأخرى . وهكذا تفاقمت الازمة وازداد عدد العمال العاطلين ؛ وكلما خفضت اجور العمال كلما قلّت قدرتهم الشرائية

التنافس بين امريكا وبريطانيا على الزعامة

٢٥ يوليو ١٩٣٣

•

تحدثت اليك عن كساد التجارة الدولية وكيف لم يبق منها اكثر من الثلث. لقد تبع ذلك كساد في التجارة المحلية بسبب ضعف القوة الشرائية، فانتشرت البطالة وثقل العبء الملقى على الحكومات في اعالة هذه الملايين العاطلة عن العمل؛ فاضطرت ان تفرض ضرائب عالية، ومع ذلك لم تستطع تدبير امورها. فالواردات هبطت وبقيت المصروفات مرتفعة على الرغم من تقليل المعاشات والاقتصاد في الاشياء الاخرى، لأن القسم الاكبر من هذه المصروفات كان مخصصاً على الجيوش والاساطيل البحرية والجوية ودفع الديون الداخلية والخارجية كانت الميزانيات في عجز دائم، أي ان المصروفات زادت عن الدخل، وهذا العجز بدوره اضعف مركز البلاد، لأن الطريقة الوحيدة هي اقتراض اموال أخرى أو استعمال الاموال الاحتياطية.

وبنفس الوقت بقيت كميات كبيرة من البضائع لا يشتريها احد بسبب قلة الاموال التي بين ايدي الناس، وفيما كانت هذه البضائع « الفائضة » والاطعمة في كثير من الحالات تدمّر وتحرق على الرغم من حاجة كثير من الناس لها. عمّت هذه الازمة كل ارجاء العالم (ما عدا الاتحاد السوفييتي)، ومع ذلك لم تتوصل الدول المختلفة الى طريق للتعاون فيما بينها فحاولت كل دولة ان تربح على حساب شقاء غيرها، مما زاد الحالة سوءاً. وهناك مسألتان اخريان لا تمتان للأزمة

الاقتصادية بصلة مع انها تؤثران عليها كثيراً ، وهما : اولاً التنافس بين العـــالم الرأسمالي والاتحاد السوفييتي ، وثانياً التنافس بين امريكا وانجلترا .

لقد اضعفت هذه الازمة الدول الرأسمالية وأفقرتها ، وقللت من امكانيـــة وقوع الحرب الى حدّ ما ، لأن كل دولة تحاول ان تدبر شؤونها الداخلية اولاً، فليس لديها ما تصرفه على المغامرات الحربية . ولكن بنفس الوقت زادت هـذه الازمة من خطر الحرب، لانها تدفع الدول الى اليأس، واليائس هو الذي يحاول حل مشاكله الداخلية بشن حرب على غيره . وتصحّ هذه النظرية عندما تكون الدولة تحت سيطرة دكتاتور ، فقبل ان يضطر للتنازل عن منصبه ، يغرق البلاد بحرب مدمرة،وبذلك يصرف انظار الشعب بعيداً عن المشاكل الداخلية. ولذلك من المنتظر دائماً ان تشنّ الدول الرأسمالية حرباً صليبية على الاتحـاد السوفييتي او الشيوعية على أمل ان تقترب هذه الدول الرأسمالية من بعضها البعض . وكما حدثتك سابقاً ، فان الازمة الاقتصادية لم تؤثر تأثيراً مباشراً على الاتحادالسوفييتي وهو الآن ماضٍ في تنفيذ مشاريع الخمس سنوات محاولا جهـــده ان يتجنب الحرب بأي ثمن ..

اما المنافسة بين امريكا وانجلترا بعد الحرب ، فلم يكن بُدّ من وقوعها ؛ فالدولتان هما اعظم دول العالم ، وتريد كل منهما السيطرة على الشؤون الدولية . كانت انجلترا سيدة العالم قبل الحرب العالمية ، ولكن الولايات المتحـدة اصبحت بعد الحرب اغنى واقوى دولة، ولذلك ارادت ان تأخذ ما اعتبرته حقها الطبيعي في زعامة العالم ، فلن تسمح لانجلترا بعد اليوم بتقرير كل شيء . وقد ادركت انجلترا ان الايام تغيرت وانه من الافضل لها ان تتودد لأمريكا وتكسب صداقتها. فعمدت الى التخلي عن تحالفها مع اليابان ارضاءً لها ؛ غير انها لم تكن مستعدة ان تتخلى عن مركزها ومصالحها الخاصة ، وخصوصاً عن زعامتها المالية، لأن عظمتها وامبراطوريتها قائمتان عليها ومرتبطتان بها . وهذه الزعامة نفسها هي مـا كانت تصبو اليه امريكا، ولذلك لم يكن بد من وقوع الاحتكاك بينهما. فأخذ اصحاب البنوك في كلا البلدين -تدعمهم حكوماتهم - يتنازعون على هذه الزعامة الماليـة

والصناعية ، ويخفون النزاع وراء كلمات براقة منمقة . وكانت امريكا تبدو أنها هي المنتصرة لا محالة في هذه المباراة ، إذ ان معظم الاوراق الرابحة معها، ولكن انجلترا امتازت بالخبرة الطويلة والمهارة في اللعب .

وزادت ديون الحرب البغضاء بين الدولتين، فكان الانجليز يلعنون الامريكيين ويتهمونهم بأنهم يشبهون «شيلوك» عندما أصرّ على اقتطاع رطل اللحم . والحق يقال ان الدّين الامريكي على الحكومة البريطانية قد اقرضته لها البنوك الامريكية الخصوصية خلال الحرب، وكان كل ما عملته الحكومة الامريكية ان كفلت هذا الدين فقط . ولذلك لم تكن المسألة مسألة اعفاء الحكومة الامريكية للحكومة الانجليزية من هذا الدين ، اذ لو اعتذرت انجلترا عن دفعه فستضطر الحكومة الامريكية لدفعه هي . ولم يرَ الكونغرس الامريكي سبباً وجيهاً لحمل هذا العبء الجديد وخصوصاً في وقت ازمة كهذه الازمة .

وهكذا تعارضت مصالح انجلترا مع مصالح امريكا ، واخذت كل منهما تشد في ناحية. واذا كانت المسألة مسألة اقتصادية، تلاشت اهمية المسائل الاخرى فعلى الرغم من ان شعبي الدولتين يرتبطان بروابط كثيرة ، إلا ان النزاع بينهما لا بد وان يحدث . وتتمتع الولايات المتحدة بقوة وموارد تفوق قوة وموارد انجلترا . وقد يتطور هذا النزاع بين الدولتين ويتخذ اشكالاً اخرى ، او تبدأ الامتيازات الخاصة والمركز الممتاز في الانتقال تدريجياً من انجلترا الى الولايات المتحدة . وكلما نظر الانجليز حولهم ورأوا انهم سوف يتخلون عن اشياء ثمينة كثيرة ، وانهم سيخسرون مركزهم القديم والارباح التي يجنونها من استغلالهم المستعمرات ، وانهم سيرجعون ويحتلون مركزاً ثانوياً في العالم، كلما زاد ضيق صدورهم وصمموا على ان لا يتخلوا عن كل هذه الاشياء دون كفاح مرير . هذه هي المأساة التي تجتازها انجلترا هذه الايام . فكل عناصر قوتها القديمة في اضمحلال ومستقبلها بالتأكيد الى زوال. ولما كان الانجليز قد اعتادوا لأجيال عديدة على السيطرة والاستعمار ؛ فانهم لن يقبلوا بسهولة مصيرهم المحتوم ، وسيحاربون بشراسة لابعاده .

لقد اشرت في مستهل رسالتي الى وجود تنافسين كبيرين في العالم هذه الايام، وعلى ضوئها نستطيع تفسير الاحداث الجارية؛ وبالطبع هنالك منافسات اخرى، اذ ان النظامين الرأسمالي والاستعماري قائمان على اساس السباق والتنافس .

ولنرجع الآن لنتابع الاحداث التي جرت في ظل الازمة الاقتصادية: أخلى الفرنسيون منطقة الراين في يونيو ١٩٣٠ فارتاح الالمان لذلك ، غير ان هذا الاخلاء جاء متأخراً بحيث لم يساعد على تحسين العلاقات بين الدولتين، وكان الظل الذي يلقيه الكساد التجاري يجعل الجو مظلماً قاتماً. وكلما زادت الاحوال التجارية سوءاً ، كلما قلّت النقود في ايدي المدينين واصبح من الصعب عليهم – ان لم يكن من المستحيل – ان يسددوا ديونهم او يدفعوا التعويضات . ولتلافي هذه الصعوبات اعلن الرئيس الامريكي هوفر انه سيمهل المدينين سنة واحدة ريثما يحسنون اوضاعهم . وقد بذلت المحاولات لبحث مسألة ديون الحرب من اولها ، ولكن الكونغرس الامريكي رفض بحث الموضوع . وكانت فرنسا متشدّدة ايضاً في موقفها من مسألة اخذ التعويضات من المانيا . اما الحكومة البريطانية التي كانت دائنة ومدينة بنفس الوقت فقد كانت تفضل ان لا تطلب ديونها ولا تدفع ما يُطلب منها بل ان تكشف صفحةجديدةنظيفةفي علاقاتها المالية. وكانت كل دولة تفكر في مصلحتها الخاصة على حساب غيرها ، فلم تتوصل الدول المعنية الى اي تفاهم. وقد حدث تدهور في المانيا في اواسط سنة ١٩٣١ وافلست بنوك كثيرة ، مما ادى الى وقوع ازمة في انجلترا لأنها لم تعد تستطيع الايفاء بالتزاماتها، واصبحت على شفا هاوية الافلاس . ولما رأى رئيس الحكومة الانجليزية العمالية مكدونالد ذلك ، ألف «حكومة قومية» جديدة اغلب اعضائها من المحافظين ، ومع ذلك فان هذه الحكومة لم تستطع انقاذ الجنيه. وفي نفس الوقت تمرد البحارة البريطانيون العاملون في اسطول الاطلسي بسبب تخفيض رواتبهم . وقد اثار هذا التمرد السلمي الخواطر في بريطانيا واوربا، واخذوا يقارنونه مع تمرد البحارة زمن الثورة الروسية ، فخشوا ان هذا مقدمة لمجيء البلشفية ، وعندئذ قرر الرأسماليون البريطانيون انقاذ رؤوس اموالهم قبل ان تحل بها اية كارثة ،

وارسلوها إلى الدول الاجنبية . ويظهر ان وطنية الاغنياء لاتتحمل خطر خسارة نقودهم او مصالحهم .

ولما هُرِّب الرأسمال البريطاني الى الخارج ، هبطت قيمة الجنيه ، واضطرت انجلترا في ٢٣ سبتمبر ١٩٣١ إلى التخلي عن قاعدة الذهب ، اي فصل الجنيه عن الذهب في سبيل انقاذ ما لديها منه . وعلى هـذا الاساس لم يعد حامل الجنيهات الاسترلينية بقادر على المطالبة بما تعادله جنيهاته من ذهب كما كان سابقاً .

اثـّر تخفيض الجنيه تأثيراً كبيراً على الامبراطورية البريطانية ومركز انجلترا الدولي ، فإن ذلك يعني تخليها ــ ولو موقتاً ــ عن الزعامة المالية التي جعلت من لندن مركز العالم وعاصمته فيما يختص بالشؤون المالية . ولـكي تستعيد انجلـترا مركزها هذا ، رجعت الى قاعـدة الذهب سنة ١٩٢٥ بالرغم من ان ذلك قد خسر صناعاتها وزاد في انتشار البطالة، وعلى اثره اضرب عمال الفحم . . الخ ولكن كل هذه الاجراءات لم تفد ابداً ، واضطرت انجلترا مرة اخرى لفصل الجنيه عن قاعدة الذهب . ويعتبر هذا الحادث في كل انحاء العالم بأنه بدء نهاية الأمبراطورية البريطانية ان يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٣١ يوم هام في التاريخ .

ولكن انجلترا لم تستسلم بسهولة ، فنظرت حولها تريد المعونة من البـلاد الواقعة تحت سيطرتها ، وفعلاً استطاعت ان تنعش نفسها قليلاً بفضل ما اخذتـه من الذهب من مصر والهند . ولما هبطت قيمة الجنيه ، انتعشت صناعاتها ، لأن الدول الاجنبية اصبحت قادرة على شراء هذه الصناعات بأسعار ارخص من السابق .

بقيت الآن مسألتا التعويضات وديون الحرب . كان واضحاً ان المانيا لم تستطع دفع التعويضات وصرّحت بذلك علناً . واخيراً عقد في لوزان سنة ١٩٣٢ مؤتمر خفضت فيه التعويضات الى مبالغ اسمية على امل ان تحذو الولايات المتحدة هـذا الحذو ، وتخفض ما لها من ديون . ولكنها رفضت ان تخلط بين مسألتي الديون والتعويضات ورفضت ان تلغي ما لها من ديون . فـكان لهذا القرار صدى أليم في اوروبا ، واجتاحت شعوبها موجة من الغضب على امريكا .

استحق دفع الاقساط لامريكا في ديسمبر ١٩٣٢ واصرّت هـذه على قبضها

برغم كل ما أبدتـــه انجلترا وفرنسا وغيرهما من بيانات فصيحة وحجج دامغة . وبعد اخذ ورد دفعت بريطانيا قسطها وقالت ان ذلك سيكون آخر دفعة . أما فرنسا والدول الأخرى فقـــد رفضت ان تدفع شيئاً . وفي شهر يونيو ١٩٣٣ استحق القسط الثاني ولكن فرنسا رفضت ان تدفعه مرة اخرى . امـــا امريكا فقد تسامحت مع انجلترا وقبلت منها مبلغاً اسمياً وتركت المسألة لتحل فيما بعد [١].

ومن الطريف ان نتذكر الآن انه في الوقت الذي تحاول فيه دول رأسمالية كبيرة وغنية التملص من ديونها برغم ما رافق هذه الديون من تعهدات وما لها من قداسة واحترام، كيف ان الاتحاد السوفييتي قوبل بعاصفة من الاحتجاجات عندما اراد الغاء ديونه . وترتفع الاصوات في الهند في الاوساط الحكومية اذا ما اقترح حزب المؤتمر ان ينظر حَكَمٌ محايد في مسألة ديون انجلترا على الهند. وقد كانت مسألة مشابهة لهذه الديون السبب في حرب تجارة بين ايرلندا وانجلترا.

اعدت الحديث عن زعامة انجلترا المالية ومحاولة امريكا الاستيلاء عليها ، وعن ازمات البنوك وافلاس بعض الدول، فماذا يعني كل هذا ؟ من الأفضل أن تسأليني هذا السؤال لأنني أشك في فهمك له . قد يكون الموضوع غير مُلذ لك، ولكنني اشعر ، بعد ان قلت كل ما قلت ، بأنني يجب ان افسّره لك واوضحه اكثر قليلا . وسواء كان الموضوع شيّقاً او مملا فإنه بالتـــأكيد يؤثر علينا كمجتمع وكأفراد ويكيّف حاضرنا ومستقبلنا . ينظر كثير من الناس الى النظام المالي في العالم الرأسمالي نظرة تقديس واحترام بالنظر لما ينطوي عليه من تعقيدات ومشاكل بحيث لا يحاولون فهمه وانما يتركونه للخبراء ورجال المال ومن شابههم . وهذا النظام معقد بلا شك ، وليس هذا التعقيد حسنة في حد ذاتها ، ولكن يجب علينا مع ذلك ان نكوّن فكرة عنه اذا اردنا ان نفهم العالم الذي نعيش فيه . ولن

---

١ – خلال السنوات الخمس التالية من ١٩٣٣ – ١٩٣٨ لم تدفع انجلترا او فرنسا اية دفعة للولايات المتحدة ، حتى ولا اية دفعة اسمية . ويظهر انه اصبح في حكم الواقع ان هذا الدين يمكن تجاهله وانه لن يدفع لاصحابه .

احاول تفسير كل النظام في هذه الرسالة ، فان ذلك فوق طاقتي ، ولست خبيراً به ، وانما انا تلميذ في هذا الموضوع . سأروي لك فقط بعض الحقائق وآمل ان تستطيعي على ضوئها ان تتبعي الحوادث والاخبار التي تقرئينها في الجرائد. ومن المحتمل انني سأعيد بعض ما قلته آنفاً ، ولكنني لا اظن انك تمانعين في ذلك سيما اذا كانت هذه الاعادة تساعدك على الفهم . تذكري ان هذا النظام هو النظام الرأسمالي بشركاته الخاصة واسهمه وبنوكه وبورصاته حيث تباع الاسهم وتشترى. اما في الاتحاد السوفييتي فالنظـــام المالي والصناعي مختلف تماماً ، فليس هنالك شركات خاصة او بنوك خاصة او بورصات . انما كل شيء تقريباً تملكه وتديره الدولة ؛ وتتم التجارة الخارجية عن طريق المقايضة .

انك تعرفين ان معظم الاعمال التجارية تقريبـــاً تتم في كل البلاد بواسطة الشيكات واوراق النقد ؛ ولا يستعمل الذهب والفضة الا نادراً (والحقيقة انه من الصعب الحصول على الذهب) . وتمثل اوراق النقد هذه القيمة المحفوظة لحاملها وتستعمل بدل العملة المعدنية ما دام الناس يثقون في البنوك او الحكومات التي صدّرت هذه الاوراق. غير ان هذه الاوراق لن تفيد ولن تُقبل لدفع اية مبالغ لدولة اخرى ، لأن كل دولة لها عملتها الخاصة . ولهذا اتخذ الذهب قاعدة للتعامل بين الدول ، ولكنه من غير العملي ابداً ان يستعمل الذهب في كل صفقة من الصفقات التي تتم بين هذه الدول، لان ذلك يعني شلّ التجارة ومنعها من التطور. ومسألة اخرى هي ان كمية الذهب الموجودة في العالم محدودة فاذا كان التعامل يجب ان يتم بدفع الذهب في كل صفقة ، فهذا يعني ان تحدد قيمة التجـارة بين الدول بكمية الذهب الموجودة ، وعندما ينتهي الذهب تتوقف التجارة الى ان يُرجع الى الاسواق مرة اخرى .

ولكن الامور لا تجري بهذا الشكل فالذهب الموجود في العالم قدر سنة ١٩٢٩ بأحد عشر الف مليون دولار ، وفي نفس تلك السنة بلغت قيمة البضائع التي تبودلت بين الدول اثنين وثلاثين الف مليون دولار ، يضاف الى هذا مبلغ اربعة آلاف مليون دولار هي قيمة القروض الاجنبية ، واربعة آلاف مليون

دولار اخرى عبارة عن الدفعات الخارجية مثل مصاريف السياحة واجور النقل والنقود التي يبعثها المهاجرون لأهليهم .. الخ .. وهكذا بلغت الدفعات المتبادلة بين الدول حوالي اربعين الف مليون دولار ، اي اربعة اضعاف قيمة الذهب الموجود تقريباً

اذن كيف كانت تتم هذه الدفعات الخارجية ؟ بالطبع لا يمكن ان تدفع كلها بالذهب ، وانما جرت العادة ان تدفع بواسطة شيكات او حوالات يرسلها التجار الى الخارج نظير ما يستحق عليهم من اموال . ويتم هذا التحويل بواسطة البنوك التي تكون على اتصـــال مع المشترين والبائعين في مختلف البلاد فتسوّي الحسابات والدفعات بواسطة الحوالات التي تتسلمها . واذا انتهت هذه الحوالات في اية لحظة ، فان البنوك تلجأ لدفع مـا يترتب عليها بواسطة تأمينات معروفة مثل السندات الحكومية او القروض او الاسهم في الشركات الدولية، فتستطيع بيعها او تحويلها بمجرد ان ترسل برقية بهذا المعنى ، وبذلك تتمكن من القيـام بالتزاماتها حالاً

وهكذا نرى ان الدفعات الحقيقية في التجارة الدولية تتم بواسطة البنوك المركزية عن طريق الحوالات المالية او التأمينات ، ولذلك تحرص البنوك على الاحتفاظ دائماً بكميات كافية من هذه الحوالات والتأمينات لتتمكن من القيام بأعمالها اليومية . وتنشر اسبوعياً قوائم تبين ما لديهـا من ذهب واوراق مالية اجنبية . وعادة لا ترسل الذهب الى الخارج مقابل التزاماتها ، الا اذا رأت ان ارسال الذهب ارخص من اي شيء آخر .

يمكن لاي انسان في البلاد التي تسير على قاعدة الذهب ان يطالب بكمية من الذهب تعادل ما يحمل من اوراق النقد. ولذلك فان قيمة هذه الاوراق في الواقع ثابتة ويمكن تبادلها على اساس انهـــا ذهب لانه يمكن تحويلها اليه في اية لحظة. والاختلاف الوحيد الممكن هو تكاليف ارسال الذهب من بلاد الى اخرى، لانه اذا كان في بلد ما اعلى من بلد آخر استطاع التجار ان يحصلوا عليه من البـــلد الآخر . هذا هو نظام قاعدة الذهب ، وبموجبه كانت العملات في البلاد التي تسير

عليه ثابتة ، فانتعشت التجارة في القرن التاسع عشر وبقيت كذلك حتى الحرب العالمية . ولكن هذا النظام قد اختلّ الآن ؛ ونتيجة لذلك سلكت النقود سلوكاً عجيباً واصبحت معظم العملات غير مستقرة على حال .

ان صادرات اي بلد تعادل تقريباً وارداتها ، وبعبارة اخرى فانها تدفع ثمن البضائع التي تستوردها بضائع تصدرها . ولكن ذلك لا يكون مضبوطاً تماماً، اذ يبقى في العادة رصيد بسيط لأحد الطرفين ، فمثلاً اذا كانت الواردات اكثر من الصادرات ، سمّي ما تبقى من ثمن «الرصيد المعاكس» او الرصيد الذي ليس في صالح ذلك البلد ، ويترتب عليه عندئذ ان يدفع هذا الرصيد .

ان التجارة وتبادل البضائع بين البلدان لا تسير بشكل منتظم ، إذ انها تتغير وترتفع وتهبط ، وبتغيرها يتغير العرض والطلب على الحوالات المالية ؛ فيحدث مراراً ان يكون عند بلد من البلدان نوع من الحوالات المالية بكثرة ، وهي لا تحتاج اليه وبنفس الوقت لا يوجد عندها نوع آخر من الحوالات التي هي بحاجة اليها . فمثلاً قد يكون لدى فرنسا زيادة عما تحتاج من حوالات الماركات الالمانية في المانيا ولكن ليس لديها ما يكفيها لتسوية حساباتها بالدولارات في امريكا ، ولذلك تتحين فرنسا الفرص لتبيع ما يفيض عندها من حوالات المانية لتشتري بثمنها حوالات دولارات امريكية . ولكي تستطيع عمل ذلك يجب ان يكون هنالك سوق مركزي لبيع وشراء مختلف انواع الحوالات المالية . ولا يوجد هذا السوق في اي بلد الا اذا توفرت فيه ثلاثة شروط :

١ — يجب ان يكون له تجارة خارجية واسعة تضم مختلف الاصناف حتى تتوفر له كمية كبيرة من الحوالات المالية المختلفة .

٢ — يجب ان تتوفر فيه التأمينات من كل الانواع ، وبعبارة اخرى يجب ان يكون اكبر سوق مالي .

٣ — يجب ان يكون فيه اكبر سوق للذهب ، حتى اذا ما نقصت الحوالات المالية والتأمينات كان الحصول على الذهب متيسراً .

كانت انجلترا طوال القرن التاسع عشر هي البلد الوحيد الذي توافرت فيه

كل هذه الشروط . ولما كانت دولة متقدمة صناعياً ، وتملك امبراطورية ضخمة تحتكرها لتصريف بضائعها فيها ، اصبحت تجارتها اكبر تجارة في العالم . وقد ضحت بزراعتها في سبيل صناعتها ، وحملت سفنها البضائع والحوالات المالية من كل ميناء . ونظراً لتقدمها الصناعي العظيم اصبحت اكبر سوق مالي ، وتجمع لديها مختلف انواع التأمينات . وهنالك عامل آخر ساعدها ألا وهو وجود ثلثي موارد الذهب في العالم في بلاد الامبراطورية البريطانية – مثل جنوبي افريقيا واستراليا وكندا والهند . ولاقت مناجم الذهب في هذه البلاد سوقاً رائجاً لها في لندن ، وكان بنك انجلترا يشتري كل هذا الذهب المستخرج بأسعار محدودة .

وهكذا اصبحت مدينة لندن السوق المركزي للحوالات المالية والتأمينات والذهب ، كما اصبحت العاصمة المالية للعالم ؛ واخذت الحكومات ورجال المال الذين يريدون تسوية حساباتهم في الخارج ولا يجدون الوسائل التي تمكنهم من ذلك داخل بلادهم ، يتقاطرون الى لندن حيث يجدون كل انواع العملات الورقية والحوالات المالية والذهب وبذلك اصبح الجنيه الاسترليني رمز التجارة المكين . فاذا ارادت الدانمارك او السويد شراء بضائع من امريكا الجنوبية كتبت الاتفاقية وذكرت فيها الثمن بالجنيهات الاسترلينية مع ان البضائع لم ولن تمر في لندن .

سبّبت هذه المعاملات ارباحاً هائلة لانجلترا وارتفعت قيمتها في نظر الناس، نظراً لهذه الخدمات التي تقوم بها . اما الارباح فهي عبارة عن الفوائد المباشرة التي جنتها من اجراء هذه المعاملات ، يضاف اليها ما كانت تودعه في بنوكها الشركات والحكومات الاجنبية كأمانات لتدفع ما يطلب منها في المستقبل . وكانت البنوك تستعمل هذه الامانات وتفيد منها باقراضها فترات صغيرة الى البنوك الاخرى والعملاء . وكذلك تمكنت البنوك الانجليزية من معرفة جميع اسرار الصناعيين الاجانب . فكانت تستطيع معرفة الاسعار التي يتقاضاها رجال الاعمال الالمان وغيرهم لبضائعهم من الحوالات المالية التي تمر من بين يديها ، وكذلك معرفة اسماء عملائهم في البلاد الاجنبية الاخرى. وقد افادت هذه المعلومات رجال

الصناعة الانجليزية كثيراً لأنها مكنتهم من التغلب على منافسيهم في الخارج .

ولكي تتمكن البنوك الانجليزية من زيادة هذه الاعمال وتقويتها ، فقد فتحت فروعاً ووكالات لها في جميع انحاء العالم وقد تمكنت هذه البنوك من اخضاع الدول الاجنبية لسيطرة رجال الصناعة البريطانيين، يضاف الى ذلك ما قدمته من خدمات عظيمة من وجهة النظر الانجليزية فكانت تتحرى عن رجال الاعمال والشركات في كل البلاد وتحفظ لكل منها سجلات تحوي كافة التفصيلات . ولذلك إذا ما اصدرت شركة من الشركات حوالة مالية ، فان البنك الانجليزي يستطيع حالاً ان يعرف قيمة هذه الحوالة وهل يأمن ضمانها أم لا . وهذا يسمى في المعاملات المالية « قبول » ، لأن البنك يكتب عليها « مقبولة » . ومجرد قبول البنك لها يجعلها قابلة للتحويل لأن البنك مسؤول عنها . وبدون هذا « القبول » لا يشتري احد اية حوالة تصدرها شركة اجنبية غير معروفة في سوق بعيدة عنها مثل سوق لندن او غيره . ولذلك يكون البنك الذي قبل الحوالة قد أقدم على مخاطرة ، ولكنه في العادة لا يقدم عليها قبل الاستفسار عن الشركة بواسطة فروعه الموجودة في تلك المنطقة . وبهذه الطريقة ساعد نظام « القبول » هذا على تسهيل نقل الحوالات المالية وانجاز الاعمال بصورة عامة ، وبنفس الوقت شدّد من قبضة مدينة لندن على التجارة العالمية . ولم تستطع اية دولة اخرى ان تعمل مثل ذلك لأن هذا العمل يحتاج الى فروع كثيرة في الخارج .

وهكذا بقيت لندن مئة سنة وهي تحتل مركز الرئاسة في الشؤون المالية والاقتصادية في العالم ، وكانت جميع خيوط التجارة العالمية تمر من بين يديها ولذلك كثرت الاموال فيها واصبح من السهل الحصول عليها بشروط خفيفة ، مما جذب نحوها رجال المال من كل مكان . وكان محافظ بنك انجلترا يتلقى جميع المعلومات عن التجارة والشؤون المالية من جميع انحاء العالم ، وكان يستطيع بمجرد إلقاء لمحة واحدة على سجلاته ان يعرف الحالة الاقتصادية لأية دولة من الدول . وفي الواقع كان في بعض الاحيان يعرف عنها اكثر مما تعرف حكومة تلك البلاد . وبواسطة التمنع في بيع او شراء التأمينات التي فيها مصلحة لحكومة اجنبية او

بواسطة اعطاء القروض القصيرة الأجل ، يمكن الضغط على تلك الحكومة من الناحية السياسية . وهذه الألاعيب المالية كانت وما زالت من اقوى الاسلحة التي تستعملها الدول الاستعمارية في الضغط على الدول الاخرى .

هكذا كانت الاحوال قبل الحرب العالمية ، وكانت لندن مركز الامبراطورية البريطانية ورمز قوتها ورخائها ولكن الحرب قد احدثت تغييرات كثيرة وقلبت الاوضاع . لقد انتصرت انجلترا في الحرب ولكنه نصرٌ كلفها وكلّف لندن اشياء عزيزة .

أما ما حدث بعد الحرب فسأقصه عليك في الرسالة التالية .

الدولار والجنيه والروبيه

٢٧ يوليو ١٩٣٣

●

قسمت الحرب العالمية (الاولى) العالم الى ثلاثة اقسام : اثنين منها يتحاربان والثالث على الحياد. ولم يبق اي نوع من التجارة بين الدول المتحاربة الا تجارة التجسس ، ان أجزنا لأنفسنا وصف التجسس بالتجارة . وقلبت التجارة العالميـة رأساً على عقب ، ولكن الحلفاء استطاعوا المضي في قسم من تجارتهم مع الدول المحايدة والمستعمرات لأنهم كانوا يسيطرون على الطرق البحرية ، غير ان ذلـك ايضاً كان محفوفاً بالاخطار بفعل الغواصات الالمانية .

صبت الدول المتحاربة جميع مواردها في اتون الحرب وصرفت عليها اموالا طائلة ،وبقيت انجلترا وفرنسا اكثر من سنة ونصف تموّلان حلفاءهما الافقر منهما بالاموال التي اقترضتاها من الاهـــالي ومن امريكا ، حتى اشرفت فرنسا على الافلاس ، ولم تعد تستطيع مساعدة الآخرين . فحملت انجلترا العبء عنها لمدة سنة وربع تقريباً ، ولكن هي ايضاً اشرفت بدورهـا على الافلاس في مارس ١٩١٧ عندما استحق دفع مبلغ ٥٠ مليون جنيه للولايات المتحدة . ومن حسن حظ انجلترا وفرنسا وحلفائها ان دخلت امريكا الحرب في هـذه اللحظة الحرجـة عندما لم يتبق اي مورد مالي آخر . وقد زودت الولايات المتحدة جميع الحلفاء، منذ تلك اللحظة حتى نهاية الحرب ، بالاموال اللازمة للمجهود الحربي . وقـــد حصلت الولايات المتحدة على اموال اقترضتهامن الاهالي بشكل قروض «حربية»

وقروض « نصر » وصرفت هذه الاموال ببذخ على جيوشها وعلى الحلفاء .
وكانت النتيجة ان اصبحت امريكا دائنة العالم ، تدين لها معظم البلدان بالمال .
كانت ديون امريكا على اوروبا عندما بدأت الحرب تقدر بخمسة آلاف مليون دولار ، وعندما انتهت الحرب كانت هذه الديون عشرة آلاف مليون دولار .

لم يكن هذا هو الكسب الوحيد الذي كسبته امريكا من الحرب ، فانها بالاضافة اليه نمت تجارتها الخارجية على حساب التجارة الانجليزية والالمانية ، واصبحت الآن تعادل التجارة الانجليزية . يضاف الى ذلك ان الولايات المتحدة قد جمعت ما يقرب من ثلثي الذهب الموجود في العالم واصبحت تملك كميات ضخمة من اسهم وسندات الحكومات الاجنبية .

وهكذا اصبحت الولايات المتحدة في وضع مالي ممتاز يمكنها من افلاس اي بلد آخر بمجرد طلبها لديونها . وكان من الطبيعي ان تحسد لندن على مركزها القديم كعاصمة مالية للعالم ، ورغبت في نقل هذا المركز الى نيويورك اغنى مدينة في العالم . وهكذا بدأ الصراع العنيف بين اصحاب البنوك والممولين في نيويورك ولندن . وكل جماعة منهم تسندها حكومتها وتشد ازرها في هذا الصراع .

نتج عن هذا الصراع ان ازداد ضغط امريكا فاهتز الجنيه الانجليزي ، ولم يستطع بنك انجلترا ان يغطي عملته التي يصدرها بالذهب ، فبدأ الجنيه بالتأرجح ثم الهبوط وتبعه الفرنك الفرنسي . ولم يبق في هذا العالم القلق – قوياً كالصخرة – سوى الدولار الامريكي .

يظن الواحد منا ان مثل هذه الظروف تضطر الاموال والذهب إلى ترك لندن والذهاب إلى نيويورك . ولكن ذلك لم يحدث . وبقيت الحوالات وبقي الذهب الذي يستخرج من المناجم يذهب الى لندن . ولم يكن ذلك بسبب تفضيل الناس للجنيه على الدولار ، وانما لانه لم يكن من السهل الحصول على الدولارات .

لا بد انك تذكرين ما حدثتك به عن طريقة « قبول » الحوالات التي اوجدتها البنوك البريطانية عن طريق فروعها ووكالاتها المنتشرة في جميع انحاء العالم . ولم يكن لدى البنوك الامريكية اية فروع أو وكالات ، اي انه لم يكن

عندهم الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الحوالات الاجنبية و « قبولها » ، ولذلك أخذت معظم هذه الحوالات طريقها الى لندن بواسطة البنوك الانجليزية. فلما انتبهت البنوك الامريكية لهذه المشكلة بدأت حالاً في انشاء فروع لها ووكالات في الاقطار الاجنبية وبنت لها دوراً جميلة جذابة ولكن برزت لها هنا صعاب جديدة . « فقبول » الحوالات عمل يتطلب خبرة ومراناً ورجالاً مدربين لديهم معلومات وافية عن الاحوال المحلية . وقد بنت البنوك الانجليزية هذه الخبرة وجمعت هذه المعلومات على مر مئة عام ، فلم يكن من السهل ابداً اللحاق بها في هذا الميدان .

عندئذ تحالفت البنوك الامريكية مع البنوك الفرنسية والسويسرية والهولندية في جبهة واحدة ضد لندن ومع ذلك لم تحرز اي نجاح يذكر .. ومع ان فرنسا دولة غنية جداً وتصدر قدراً كبيراً من رأس المال الى الخارج ، فإنها لم تهتم ابداً بالمتاجرة في الحوالات . ولهذا استمرت المعركة بين نيويورك ولندن على غير طائل . وسنة ١٩٢٤ ظهر عامل جديد في مصلحة نيويورك . فقد عاد المارك الالماني الى سابق عهده قبل التضخم المالي ، فرجع رأس المال الذي هُرب دائماً الى سويسرا وهولندا اثناء التضخم الى البنوك الالمانية (رأس المال يهرب دائماً في اوقات الأزمات والاخطار) وانضمت المانيا الى الجبهة المالية الامريكية ضد لندن ، فاختل التوازن واخذت كفة الجبهة بالرجحان ، لأن اعداداً كبيرة من الحوالات المالية الامريكية يمكن ان تبدل بحوالات مالية اوروبية دون الحاجة للمرور بلندن . يضاف الى ذلك ان العملة الانجليزية لم تكن مستقرة على حال . اي ان الجنيه لم يكن له قيمة ذهبية لأنه كان خارج قاعدة الذهب .

فزع رجال المال في لندن عندما رأوا ان معظم معاملات الحوالات قد انتقل الى نيويورك وحليفاتها الاوروبيات ولم يبق للندن إلا الفتات . واول ما فكروا فيه لإيقاف ذلك هو تثبيت قيمة الجنيه بالنسبة للذهب ، لأن ذلك يجذب معاملات الحوالات . وفعلاً ثبت الجنيه في سنة ١٩٢٥ حسب سعره القديم . كان هذا

نصراً عظيما لرجال البنوك الانجليز وللدائنين ، لأنه كلما ارتفع سعر الجنيه كلما زادت قيمة اموالهم . ولكن هذا الارتفاع قد اضرّ بالمصانع الانجليزية لأنه رفع اسعار البضائع في الخارج فاصبح من الصعب جداً عليها منافسة المصانع الامريكية والالمانية والبلاد الأخرى في الاسواق الخارجية . وتكون انجلترا بذلك قد ضحّت الى حد ما بصناعتها في سبيل بنوكها او بالأحرى في سبيل حفظ سيادتها المالية في البورصة العالمية . ارتفت قيمة الجنيه ، ولكن تبع هذا الارتفاع ، كما تذكرين ، اضطرابات داخلية في انجلترا بسبب هذه الضربة التي حلّت بالمصانع ، فانتشرت البطالة واضرب عمال الفحم اضراباً طويلاً وحدث الاضراب العام .

لم يكن يكفي تثبيت قيمة الجنيه ، لأن الحكومة الانجليزية كانت مدينة لامريكا بمبالغ طائلة قد تطلبها في اي وقت . فاذا طلبت الولايات المتحدة هذه الديون تكون قد اركبت بريطانيا مركباً صعباً واضطرتها الى تخفيض قيمة الجنيه مرة اخرى . ولتفادي ذلك هرع ستانلي بولدوين السياسي الانجليزي المعروف الى نيويورك ليتفق مع الولايات المتحدة على طريقة دفع ديون بلاده على اقساط . ولما كانت الدول الاوروبية مدينة لامريكا فان الطريقة المثلى لمعالجة هذا الامر كانت في ان تجتمع هذه الدول وتتشاور ثم تفاوض الولايات المتحدة لتحصل على احسن الشروط الممكنة . ولكن لهفة انجلترا على انقاذ الجنيه والمحافظة على زعامة لندن المالية لم يتركا لها الوقت للتشاور مع فرنسا وايطاليا وارادت ان تتفق مع امريكا بأسرع وقت ممكن وبأي ثمن . لقد حصلت على الاتفاق ولكن بعد ان دفعت الثمن غالياً وقبلت الشروط القاسية التي فرضتها الحكومة الامريكية . وبعدها حصلت كل من فرنسا وايطاليا على شروط افضل بكثير بخصوص ديونهما .

استطاعت هذه الجهود المضنية والتضحيات الجسيمة انقاذ الجنيه والمركز المالي لمدينة لندن و لكن الصراع مع نيويورك بقي مستمراً في جميع الاسواق العالمية . ولما كانت نيويورك تملك اموالاً ضخمة بإنها اخذت تعرض قروضاً

طويلة الأجل بفائدة بسيطة ، فاتجهت اليها كثير من الدول التي كانت في السابق تقترض من سوق لندن المالي (ومنها كندا وجنوبي افريقيا واستراليا) . فلم تستطع لندن منافسة نيويورك في ميدان القروض طويلة الأجل . ولذلك عمدت إلى اعطاء قروض قصيرة الاجل لبنوك وسط أوربا . واكبر معول في هذه القروض القصيرة الاجل هي خبرة البنك وهذا من صالح لندن نظراً لخبرتها في الشؤون المالية وهكذا انشأت بنوك لندن علاقات وثيقة مع بنوك فيينا . وعن طريقها انشأت كذلك علاقات مع بنوك وسط وجنوبي شرقي اوربا (الدانوب ومناطق البلقان) واستمرت نيويورك كذلك بالقيام ببعض الاعمال هناك .

كان يسود هذه الفترة هياج مالي ، اولاً بسبب المنافسة بين لندن ونيويورك، وثانياً لكثرة الاموال التي صبت في اوربا مما اكسب بعض الناس ثروات خيالية في وقت قصير . كان طريق الثروة بسيطاً ممهداً . فمثلاً اذا حصل شخص ما على امتياز في بلاد ما لبناء سكة حديد او إنشاء شيء آخر ، او حصل على احتكار لصناعة الكبريت وبيعه ،فانه يشكل شركة لتتولى أمرهذا الامتيازاو الاحتكار، وتصدر هذه الشركة اسهماً . وعلى اساس هذه الاسهم تعطي بنوك نيويورك او لندن الكثيرة سلفات وهكذا يقترض رجال المال ما يحتاجون اليه من دولارات من نيويورك بفائدة ٢ ٪ ثم يقرضون هذه الاموال في برلين بفائدة ٦ ٪ وتصل الى فيينا بفائدة ٨ ٪ فيحصلون بهذه الطريقة على ثروات ضخمة في الوقت الذي لم يعملوا فيه شيئاً سوى تحريك اموال أناس غيرهم . وكان من اشهر هؤلاء الرجال ايفان كروجر وهو من السويد، وكان يعرف بملك الكبريت لاحتكاره صناعته وبيعه . وكان كروجر يتمتع في يوم من الايام بسمعة رائعة ، ولكنه ثبت اخيراً انه لم يكن إلا شخصاً مزيفاً ، وانه اختلس مبالغ كبيرة من المال . ولما احس بأنه على وشك ان يكتشف امره انتحر . وقد واجه كثيرون غيره من الماليين المشهورين صعاباً جسيمة بسبب اساليبهم المعوجة .

افادت هذه المنافسة الانجلو امريكية وسط وشرقي اوربا فائدة واحدة . فقد

ساعدت هذه الاموال التي صبت فيها على انعاش اوروبا طوال السنين التي سبقت الازمة الاقتصادية سنة ١٩٢٩

في هذه الاثناء كانت فرنسا في سنة١٩٢٦و١٩٢٧ تعاني من تضخم مالي فهبطت قيمة الفرنك . ولذلك عهد الفرنسيون الذين يملكون نقوداً - وكل فرنسي بورجوازي يملك شيئاً من المال الذي وفره - الى ارسال نقودهم الى الخارج خوفاً على ضياعها بسقوط الفرنك . واشتروا بهذه النقود كميات كبيرة من الاوراق المالية والحوالات الاجنبية . وفي سنة ١٩٢٧ ثبت مركز الفرنك بالنسبة للذهب ولكن بما يوازي خُمس قيمته السابقة . وهنا اراد كل حاملي الاوراق المالية الاجنبية تبديلها بفرنكات . فربحوا كثيراً لأن كل واحد منهم حصل على خمسة اضعاف عدد الفرنكات التي كان يملكها سابقاً . وبذلك لم يؤثر التضخم المالي عليهم ابداً . وعندها قررت الحكومة الفرنسية ان تعمل صفقة تربح منها، فاشترت كل الحوالات المالية الاجنبية والاوراق المالية وأعطت حامليها بدلاً عنها فرنكات جديدة . وهكذا اصبحت الحكومة الفرنسية غنية جداً لحيازتها هذه الحوالات والاوراق المالية . والواقع انها كانت تملك اكبر عدد منها . ولم ترغب في منافسة انجلترا وامريكا على الزعامة المالية ، كما انها لم تكن قادرة عليها ، غير انها كانت في وضع يمكنها من التأثير عليها .

الشعب الفرنسي شعب حذر ؛ وكذلك حكومته انهم يفضلون ارباحاً صغيرة مع تأمين اموالهم ، على ارباح كبيرة ومخاطرة باموالهم . ولذلك عمدت الحكومة الفرنسية بكل حذر الى اقراض الاموال الزائدة عندها إلى شركات وبنوك لندنية بفائدة لا تزيد عن ٢٪. وهذه الشركات والبنوك اللندنية اقرضت هذه الاموال بدورها الى شركات المانية بفائدة ٥ أو ٦ ٪ وهذه اقرضتها الى بنوك فيينا بـ ٨ أو ٩ ٪ ، واخيراً تصل الى المجر ودول البلقان بـ ١٢ ٪ وتزيد الفائدة بزيادة الاخطار التي تتعرض لها القروض ، ولكن بنك فرنسا فضل ان لا يخاطر ابداً ، وان يتعامل مع بنوك انجليزية مأمونة . بهذه الطريقة احتفظت فرنسا بكميات كبيرة من الاموال (بما فيها الحوالات المالية الاسترلينية التي

اشترتها) في لندن مما ساعد الاخيرة كثيراً في صراعها مع نيويورك .

كانت الأزمة الاقتصادية في هذه الاثناء في تفاقم، واسعار المنتوجات الزراعية في هبوط . وبلغ مقدار هبوط اسعار القمح في خريف ١٩٣٠ ان لم تستطع بنوك شرقي اوروبا تحصيل ديونها ، ولذلك لم تستطع هي بدورها ان تدفع الديون التي اقترضتها من فيينا بالجنيهات والدولارات . وخلق هذا ازمة اخرى في فيينا حتى ان اكبر بنك هناك واسمه كريديت - انستالت قد اعلن افلاسه . وهذا بدوره ايضاً أثر على البنوك الالمانية واصبح سقوط المارك محققاً . وهذا يعني اضراراً كبيرة ستلحق برأس المال الاميركي والانجليزي ؛ ولتجنب ذلك أعلن الرئيس هوفر مهلة لا يطلب من المدينين فيها تسديد ديونهم ، وما فرض عليهم من تعويضات . إذ لو انه يصر على اخذ التعويضات لانهارت المانيا مالياً . وبالرغم من هذا الاجراء فان المانيا لم تستطع دفع ديونها للبلاد الاخرى ، واضطرت هذه لاعطائها مهلة مماثلة .

وهذا يعني ان الاموال الانجليزية الطائلة التي سبق ان اقرضت بقروض صغيرة الأجل في المانيا قد حبست هناك او «جمّدت» كما يقال في الأوساط المالية . واصبح بذلك مركز البنوك اللندنية حرجاً لأنه يترتب عليها ان تفي بالتزاماتها، وكانت تعتمد في هذا الشأن على ما كانت ستستورده من القروض الالمانية . فخفت فرنسا وامريكا لمساعدتها واقرضتاها مبلغ ١٣٠ مليون جنيه ؛ غير ان ذلك جاء متأخراً ، فقد انتشر القلق في الأوسط المالية اللندنية . وعندما يحدث القلق ، يريد كل واحد ان يسحب امواله . فطار مبلغ الـ ١٣٠ مليون جنيه بسرعة . ويجب ان تذكري ان الجنيه كان على قاعدة الذهب اي ان أي واحد يستطيع ان يطلب ذهباً بدل الجنيهات التي يحملها .

وارادت الحكومة الانجليزية ، وكانت وقتئذ حكومة عمالية ، ان تقترض اموالاً اخرى من بنوك نيويورك وباريس ، فوافقت هذه على اقراضها على اساس بعض الشروط منها ان الحكومة الانجليزية يجب ان تقتصد في الامور العمالية وفي الخدمات الاجتماعية الخ .. كما اقترحت تخفيض اجور العمال . وبالطبع كان هذا

تدخلاً من قبل بنوك اجنبية في الشؤون الداخلية لبريطانيا . فقامت حملة واسعة ضد الحكومة العمالية ، مما دعا رمزي مكدونالد رئيس الوزارة الى ترك حزبه وتشكيل وزارة جديدة اغلبها من المحافظين ، وسميت هـذه الوزارة « بالوزارة القومية» لمواجهة الازمة . وكان عمل رمزي مكدونالد بتركه لحزبه من اخطر الامور التي حدثت في تاريخ الحركة العمالية في اوربا .

جاءت الحكومة القومية لانقاذ الجنيه ، فحصلت على القروض الموعودة من فرنسا وامريكا ، ولكنها مع ذلك لم تستطع انقاذ الجنيه ، واضطرت الحكومة في ٢٣ سبتمبر ١٩٣١ الى التخلي عن قاعدة الذهب ، فاصبح الجنيه عملة غير ثابتة ، وهبطت قيمته الى ١٤ شلن ذهب أي انه اصبح يساوي ثلثي قيمته السابقة

ان هذا الحادث وهذا التاريخ هامّين ، لانهما يعنيان ان الامبراطورية البريطانية على وشك التفسخ بعد ان قربت نهاية سيطرة لندن على اسواق العالم المادية ولكن ما توقعه الناس كان سابقاً لأوانه .

أثّر سقوط الجنيه على عملات البلاد الاخرى التي كانت تحتفظ بالجنيهات الاسترلينية الورق على اعتبار انها ذهب ، اذ كان يمكنها في السابق تبديلها بالذهب في اي وقت. ولما لم يعد بالامكان تبديل الاسترليني بالذهب ، وهبطت قيمته ٣٠٪ ، هبطت قيمة العملات الاخرى ، واضطرت هي ايضاً الى التخلي عن قاعدة الذهب .

كان موقف فرنسا سليماً ، اذ افادتها سياستها الحذرة التي سارت عليها ، فبينما كانت امريكا وانجلترا تملكان اموالاً مجمدة في المانيا وتحتاج الى نقود . كانت فرنسا تملك مبالغ طائلة تتألف من حوالات اجنبية وفرنكات ذهبية . ولذلك حاولت كل من الحكومتين الأمريكية والانجليزية التودد لفرنسا حتى تقف في جانبها ضد الاخرى ، ولكن فرنسا الحذرة لم تقع في الفخ وبقيت تلعب على الحبلين .

جرت انتخابات عامة في انجلترا في اواخر سنة ١٩٣١ فازت فيها « الوزارة القومية» بأغلبية ساحقة ، وكان هذا في الحقيقة نصراً لحزب المحافظين وهزيمة منكرة لحزب العمال . ومن اسباب انتصار المحافظين ان الطبقة البورجوازية خافت من ان تتحقق بعض الاشاعات التي راجت عن مصادرة حزب العمال لأموالهم ،

وخصوصاً بعد ان تمرد البحارة الانجليز التابعين لأسطول الاطلسي لمدة قصيرة ، ولذلك ايّد جميع افرادها الحكومة القومية المحافظة .

وبالرغم من الازمات والاخطار وسقوط الجنيه ، فأن الدول الثلاث الكبرى امريكا وبريطانيا وفرنسا أو بالأحرى بنوك هذه الدول لم تستطع ان تتعاون مع بعضها البعض . فكلٌ منهم يشتغـل لتحسين مركزه على حساب الآخرين ، وكان بإمكانهم ان يتفقوا ويشكلوا بورصة دولية بدلا من القتال على الزعامة المالية . ولكن كل واحـد منهم اتبـع طريقاً خاصاً ، ومن الغريب ان بنك انجلترا استطاع ان يستعيد مركز لندن المفقود ونجح في ذلـك الى حد بعيد بالرغم من ان الجنيه لم يكن يتبع قاعدة الذهب

عندما تخلت انجلترا عن قاعدة الذهب ، باعت بنوك الدول الاخرى الرسمية (وهذه تدعى البنوك المركزية) حوالات الاسترليني المالية التي كانت تحتفظ بها لتحصل على ذهب بدلها وكانت هذه البنوك تحتفظ بهذه الحوالات طوال هـذا الوقت لأنها كانت تتمكن من تبديلها بالذهب في اي وقت ، ولذلك كانت تعتبر كأنها ذهب . وعندما بيعت حوالات مالية كثيرة فجأة هبطت قيمة الجنيه بسرعة ٣٠ ٪ فانتهز المدينون (بما فيهم الحكومات والشركات الكبـيرة) هذه الفرصة وسدّدوا ديونهم بالذهب لانهم بذلك يدفعون اقل مما كان يتوجب عليهم دفعـه بـ ٣٠ ٪ ، وهكذا انهال الذهب على انجلترا

ولكن اكثر الذهب الذي ارسل الى انجلترا كان من الهنـد ومصر ؛ هاتان الدولتان الفقيرتان اجبرتا على مساعدة انجلترا الغنية ، واستغلت مواردهما لتقوية مركز انجلترا المالي . لم يكن لهما اي نفوذ ولم يستطيعا الاعتراض وخصوصـاً ان انجلترا هي المحتاجة .

اما قصة الروبّية في الهند فهي طويلة ومحزنـة ، على الاقل من وجهة النظر الهندية . فقد اجبرت بصورة مستمرة على تغيير قيمتها وذلك لخدمة مصالح الحكومة البريطانية ورجال المال الانجليز . انني لا اريـد احدثك طويلاً عن امور العملة لأوضح لك ان الحكومة البريطانية استطاعت في سنوات ما بعـد الحرب ان

تخسّر الهند مبالغ طائلة . وفي سنة ١٩٢٧ حدثت مشادة حامية في الهند حول تثبيت قيمة الروبيّة بالنسبة للجنيه الاسترليني والذهب (وكان الجنيه في ذلك الوقت مرتبطاً بقاعدة الذهب) . وسبب هذه المشادة ان الحكومة ارادت ان تثبت قيمة الروبيّة بشلن واحد وست بنسات واراد الرأي العام الهندي تثبيتها بشلن واحد واربع بنسات . فالمشكلة بحد ذاتها قديمة ، وتنحصر في انه اذا ثبتت الروبية بسعر أعلى استفاد اصحاب البنوك والدائنون واصحاب الاموال وشُجّع الاستيراد من الخارج ؛ ولكنها اذا ثبّتت بسعر منخفض خف حمل المدينين وشجعت الصناعات المحلية والتصدير الى الخارج . وبالطبع نفذت الحكومة رأيها برغم معارضة الشعب الهندي ، وثبتت الروبيّة بشلن واحد وست بنسات. واعتبر كثير من الناس هذا الامر انكماشاً مالياً لانه في الواقع يعطي الروبية سعراً اكثر مما تستحق ولم تعمل اية دولة انكماشاً في عملتها سوى انجلترا في سنة ١٩٢٥ عندما ربطت الجنيه بقاعدة الذهب ، ولكنها كانت تريد من وراء ذلك الاحتفاظ بزعامتها المالية في العالم ، فكانت لذلك على استعداد للتضحية باشياء كثيرة . اما فرنسا والمانيا وبقية البلدان فكانت تفضل التضخم المالي على انكماشه وذلك من اجل تخفيف الضائقة الاقتصادية .

كان رفع سعر الروبيّة يعني زيادة رأس المال الانجليزي المستغل في الهند، ويعني ايضاً عبئاً جديداً على كاهل الصناعة الهندية لان اثمان منتوجاتها ارتفعت والاهم من كل هذا انه يعني اعباء جديدة على كواهل جميع الفلاحين واصحاب الاراضي المدينين ، لانه بارتفاع سعر الروبية زادت قيمة ديونهم . والفرق بين السعرين اي بين ١٨ بنساً و١٦ بنساً هو بنسان فقط ، ولكنه يمثل $١٢\frac{١}{٢}$ ٪ من قيمة الروبية . فلو فرضنا ان مبلغ الديون الزراعية في الهند يساوي ١٠٠٠٠ مليون روبية ، فإن زيادة $١٢\frac{١}{٢}$ ٪ عليها تعني زيادة ١٢٥٠ مليون روبية ، وهو مبلغ ليس بالبسيط.

ان مبالغ الديون نفسها بالطبع لم تزد ، وانما قيمتها هي التي زادت . فقيمة

النقود الحقيقية هي مقدار ما تستطيع شراوه بها من قمح وملابس أو اية بضائع اخرى . وهذه القيمة توازن نفسها اذا سمح لها بذلك . فاذا سقطت قوة النقود الشرائية سقطت العملة . واذا ثبتت قيمة النقد بأعلى مما هي فهذا يعني ان تعطيه قوة شرائية اكثر مما يستطيع . وهكذا وجد الفلاح نفسه مضطراً الى ان يدفع قسماً كبيراً من دخله في تسديد ديونه وفوائدها ، وان لا يبقى له إلا القليل . فكان تثبيت الروبيّة بهذا السعر وجعل نسبتها للجنيه كنسبة واحد الى ستة عاملاً كبيراً في ازدياد الازمة الاقتصادية سوءاً في الهند .

عندما فصل الجنيه عن قاعدة الذهب في سبتمبر ١٩٣١ ، فصلت الروبيّة عنها أيضاً غير انها بقيت مرتبطة بالجنيه ، وبقيت نسبتها الى الجنيه واحداً الى ستة كما كانت ، غير ان ذلك يعني كمية اقل من الذهب . أبقيت الروبيّة مرتبطة بالجنيه الاسترليني حتى لا تتأثر رؤوس الاموال البريطانية المستغلة في الهند ، لأنه لو تركت الروبيّة لوحدها لهبطت قيمتها ، وهذا يسبب خسارة كبيرة لرأس المال الاسترليني . فلم يخسر من وراء ذلك سوى المصالح الاجنبية الأخرى في الهند كالامريكية واليابانية لسبب انخفاض قيمتها الذهبية . وهناك كسب آخر جنته انجلترا من ابقاء الروبية مرتبطة بالجنيه وهي انها مكنت الصناعات الانجليزية من شراء المواد الخام بالعملة الانجليزية ، اذ كلما كبرت المنطقة الاسترلينية واتسعت كلما ازدادت قوة الجنيه

بسقوط قيمة الروبية تبعاً للجنيه ازداد سعر الذهب بطبيعة الحال ، لأن الواحد يستطيع شراء روبيات اكثر بنفس الكمية من الذهب . وهذا ما دعا الناس الذين يواجهون ازمة اقتصادية أن يبيعوا كل الذهب الموجود عندهم بما فيه الحلي ليحصلوا على روبيات اكثر فيسددوا ديونهم . وهكذا بدأ الذهب يتسرب من جميع انحاء البلاد الى البنوك ومنها للندن . وبهذه الطريقة تسرب قسم كبير من ذهب الهند الى انجلترا وما زال يتسرب . ان هذا الذهب ، بالاضافة الى الذهب الذي جاء من مصر ، هو الذي انقذ بنك انجلترا ومركز بريطانيا المالي ومكنها من تسديد ديونها التي استدانتها في سبتمبر ١٩٣١ من

امريكا وفرنسا

ومن العجيب حقاً انه في الوقت الحاضر الذي تحاول كل بلاد العالم غنيها وفقيرها ان تحتفظ بالذهب الموجود عندها، تعمل الهند عكس ذلك تماماً. لقد خزّنت كل من الحكومتين الامريكية والفرنسية كميات كبيرة من الذهب، بعد ان مرّ بطرق ملتوية منذ ان أخرج من المناجم حتى دفن في خزائن البنوك تحت الارض. يضاف الى ذلك ان كثيراً من البلاد ومن جملتها انجلترا منعت اي واحد من اخراج الذهب منها. فكانت انجلترا ترمي من وراء فصل الجنيه عن قاعدة الذهب الى المحافظة على الذهب الموجود عندها بينما تعمل الهند العكس من ذلك تماماً، لأن السياسه المالية التي تتبعها خاضعة لمصلحة انجلترا.

كثيراً ما يتحدث الناس عن كميات الذهب والفضة الموجودة في الهند. وهذا صحيح بالنسبة للاغنياء، ولكن اغلبية الشعب افقر من ان تخزن اية جواهر ويوجد عند بعض المزارعين الذين يعتبرون احسن حالاً من غيرهم بعض الجواهر التي تكوّن جلّ ثروتهم، اذ انه لم يتيسر لهم التعامل مع البنوك. وقد تلاشت هذه الحلي الصغيرة عندما حلت الأزمة الاقتصادية وارتفعت اسعار الذهب فلو كانت في الهند حكومة وطنية لمنعت اخراج الذهب من البلاد لأنه هو الواسطة الدولية الوحيدة المعترف بها في المعاملات المالية.

ولنرجع الآن الى قصة الصراع بين الجنيه والدولار؛ استطاع بنك انجلترا بهذه الطريقة وطرق اخرى - لاحاجة لذكرها - ان يقوّي مركزه. وقد صادفه في أوائل سنة ١٩٣٢ حظ كبير اذ حصلت ازمة في بنوك الولايات المتحدة بسبب تجميد قسم من أموالها في المانيا، فاضطر كثير من الامريكيين لبيع دولاراتهم وشراء سندات استرلينية. وهكذا حصلت الحكومة البريطانية على حوالات مالية اجنبية بالدولارات، ثم ارسلتها الى بنك الحكومة في نيويورك واستبدلتها بالذهب، لأن الدولار كان على قاعدة الذهب، ويستطيع كل واحد ان يطلب ذهباً بدلاً عنه. وبهذه الطريقة ارتفع رصيد الذهب في انجلترا دون

المساس او الاضرار بالجنيه او تنزيــل قيمته . ولمـا اصبحت لندن تملك كل هذا الذهب وهذه الحوالات المالية ، رجعت الى سابق عهدهـا كمركز مالي للسوق العالمية . اما نيويورك فقد هزمت ، موقتاً على الأقل ، بسـبب الازمة التي اصابت بنوكها والتي اضطرت آلاف البنوك الصغيرة إلى الافـــلاس ، كما حدثتك سابقاً

فشل العالم الرأسمالي في الاتحاد

٢٨ يوليو ١٩٣٣

●

ما اطول القصة التي رويتها لك عن التنافس والمناورات ؛ وكل ما اخشاه هو ان لا تشكريني عليها ! انها عبارة عن شبكة معقدة من المؤامرات الدولية بشكل يجعل الخروج منها اكثر صعوبة من الدخول فيها . ومع ذلك فقد حاولت ان اعطيك لمحة سطحية سريعة ، لأن اكثر ما يحدث في هذا الميدان يبقى خافياً لا يرى ضوء الشمس .

يلعب رجال المال والبنوك في هذا العالم دوراً هائلاً، حتى ملوك الصناعة انفسهم ولّت ايامهم ، واصبح رجال البنوك الكبار هم وحدهم الذين يسيطرون على الصناعة والزراعة وسكك الحديد ووسائل النقل والحكومات نفسها . ذلك ان الصناعة والتجارة ، مع تقدمها وازدهارها ، اصبحت تحتاج الى مزيد من المال ، والبنوك هي مصدر هذا المال . واغلب الاعمال الآن في هـذا العالم تتم بواسطة الاقتراض ، والبنوك هي التي تتوسع في الاقراض او تقلّل منه وتتحكم فيه . واضطر اصحاب المصانع والمزارع ان يذهبوا الى البنوك كي يقترضوا الاموال ويستطيعوا مواصلة عملهم . وليست عملية الاقراض هذه مربحة لاصحاب البنوك فحسب ، ولكنها تزيد من سيطرتهم على الصناعة والزراعة . فتستطيع البنوك ان تدمّر رجال الاعمال وترغمهم على قبول الشروط التي تفرضها بمجرد امتناعها عن اقراضهم او بمطالبتهم بتسديد الديون في لحظة حرجة . وهذا النوع من الضغط

نلمسه في الحياة الداخلية لكل بلد وفي الحياة الدولية ايضاً ، لان البنوك المركزية الكبرى تقرض الحكومات في مختلف البلدان وبذلك تتمكن من الضغط عليها. وهكذا نرى بنوك نيويورك تسيطر على كثير من حكومات امريكا الوسطى والجنوبية .

ومن ابرز خصائص هذه البنوك الكبيرة انها تربح في اوقات الرواج والكساد على السواء، اذ انها في اوقات الرواج تشارك في الرخاء العام وتتدفق عليها الاموال فتعود وتقرضها بفوائد مربحة . اما في اوقات الكساد والازمات فانها تقبض يدها على اموالها ولا تخاطر بها (وبذلك تضاعف حدة الأزمة ، لأن الأعمال لا يمكن ان تستمر بغير الاقتراض) . ولكنها تكسب من ناحية اخرى : إذ تهبط اسعار كل شيء ـ الأراضي والمصانع .. الخ وتفلس كثير من الصناعات . وهنا يأتي البنك ويشتري كل شيء بأبخس الاثمان ! ولهذا فإن مصلحة البنوك تقضي ان تكون هناك دورات متتابعة من الرخاء والكساد .

وفي خلال الازمة الاقتصادية العالمية الحالية ، ظلت البنوك الكبيرة ناجحة توزع ارباحاً طيبة . حقاً لقد افلست آلاف البنوك في الولايات المتحدة وبعض البنوك الكبيرة في النمسا والمانيا ، ولكن اكثر البنوك التي افلست في امريكا هي البنوك الصغيرة ، ويظهر انه لا بد وان يكون هنالك عيب في نظام البنوك في امريكا. ومع ذلك فقد استمرت البنوك الكبيرة في نيويورك بأعمالها على ما يرام؛ وكذلك الحال في انجلترا حيث لم يفلس فيها اي بنك .

واذن فرجال البنوك هم السادة في العالم الرأسمالي اليوم ، الأمر الذي حدا بكثير من الناس ان يطلقوا على هذا العصر اسم «العصر المالي» تمييزاً له عن العصر الصناعي الذي سبقه . ونلاحظ وجود المليونيريين في الدول الغربية وخصوصاً في امريكا ، ويعجب الناس بهم كثيراً . ولكن اصبح من الواضح ان هذا «الغنى الفاحش » ما هو الا سراب خادع وانه لا يفترق عن اللصوصية والتزوير إلا بأنه على نطاق واسع . فالاحتكارات الضخمة تسحق كل المنشآت الصغيرة ، والعمليات المالية الكبيرة تسلخ جلود الفقراء الذين يحاولون استغلال اموالهم فيها . وقد فضح

بعض رجال المال الكبار في اوروبا وامريكا منذ وقت قريب ، ولم تكن هذه الفضيحة مما يحب الانسان ان يراه .

لقد رأينا كيف ان الصراع على الزعامة المالية بين انجلترا وامريكا قد انتهى حتى الآن بفوز مدينة لندن . ولكن ماذا كانت ثمرة هذا الفوز ؟ ان ثمرة هذا النصر التي استغرق الصراع من اجلها اكثر من عشر سنوات ؛ اخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً . لقد كسدت التجارة الدولية ، وهبطت مع الكساد الارباح المتأتية عن طريق الزعامة المالية وقلّت الحوالات المالية وبنفس الوقت هبطت اسعار التأمينات ، وقل اصدار الاسهم والتأمينات الجديدة . ومع ذلك بقيت الفوائد المستحقة على الديون العامة والخاصة على ما هي عليه، واصبح من المتعذر على الدول المدينة ان تدفعها . ولما لم يكن بدّ من القيام بالتزامات دولية، كثر الطلب على الذهب . ولكن الذهب اخذ ينتقل من البلدان الفقيرة الى البلدان الغنية ذوات العملات المستقرة .

غير ان تجميع هذا الذهب وهذه الثروات – يضاف اليها التقدم الصناعي – لم ينفع امريكا كثيراً عندما اشتدت وطأة الازمة . وهكذا اصبحت تلك البلاد الكبيرة ذات الفرص الذهبية والتي اجتذبت الرجال والنساء من كل حدب وصوب بلاد اليأس والقنوط . لقد ثبت فساد رجال الاعمال الكبيرة الذين حكموا البلاد وتقلقلت الثقة في زعماء المال والصناعة . واصبح الرئيس هوفر ، صديق رجال الاعمال الكبيرة ، مكروهاً من الشعب ، وعندما اجريت انتخابات الرئاسة في نوفمبر ۱۹۳۲ سقط ونجح بدله فرانكلين روزفلت .

تعرضت امريكا في اوائل مارس ۱۹۳۳ لأزمة مالية جديدة ، مما اضطرها الى التخلي عن قاعدة الذهب وتخفيض قيمة الدولار بالرغم من ان امريكا كانت تملك من الذهب اكثر من اية دولة اخرى في العالم . وكان القصد من هذا التخفيض هو تخفيف العبء عن كاهل الصناعة والزراعة وتحسين حالة المدينين على حساب البنوك والدائنين . وكان هذا هو عكس ما عملته بريطانيا في الهند تماماً برغم معارضة الشعب الهندي الاجماعية .

وبذلت الدول الرأسمالية محاولة اخرى للتعاون على حل مشاكلها ، فعقدت مؤتمراً اقتصادياً دولياً في يونيو ١٩٣٣ في لندن ، وتحدث المندوبون عن « العالم الذي يغمره الفزع» وحذروا من انه « اذا فشل المؤتمر ، فان ذلك قد يؤدي الى تداعي البناء الرأسمالي كله . » وبالرغم من كل هذه الاخطار والتحذيرات فقد عجزت الدول العظمى عن التعاون ، وظلت كل واحدة منها تحاول ان تشق طريقها بنفسها . وهكذا فشل المؤتمر واخذت كل دولة تتبع سياسة اقتصادية وطنية خاصة بها

كان من المستحيل بالنسبة لانجلترا مثلاً ان تكتفي نفسها بنفسها ، ما دامت لا تنتج الطعام اللازم لها ، وما دامت الخامات اللازمة لصناعتها تأتيها من الخارج. ومن اجل ذلك عمدت انجلترا الى الاخذ بسياسة اقتصادية وطنية على اساس يشمل الامبراطورية كلها بقصد جعل الامبراطورية البريطانية وحدة اقتصادية واحدة او كتلة استرلينية واحدة . ولذلك عقدت انجلترا مؤتمراً اقتصادياً للامبراطورية في اوتاوا سنة ١٩٣٢ ، ولكن صعوبات جمة واجهت هذا المؤتمر ، اذ لم تكن كندا ولا استراليا ولا جنوب افريقيا مستعدة لتضحي بمصالحها من اجل انجلترا ، وكان على انجلترا ان ترضخ لبعض طلبات هذه الدول . اما الهند فقد جعلتها انجلترا توافق رسمياً على تفضيل البضائع الانجليزية على غيرها بغض النظر عن معارضة الشعب الهندي الواسعة لهذا الوضع . وقد اظهرت الحوادث التالية ان اتفاقية اوتاوا لم تنجح وان الاختلاف كان موجودا بين اقطار رابطة الشعوب البريطانية وانجلترا وبين الهند وانجلترا .

وفي هذه الاثناء ظهرت بوادر خطر آخر يهدد صناعة الامبراطورية البريطانية وأسواقها ؛ فقد بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تتدفق في كل مكان ، وكانت رخيصة جداً بحيث لم تستطع اية رسوم جمركية ان تمنع دخولها . وكان هذا الرخص يرجع الى هبوط قيمة الـ «ين» والى تفاهة الاجور التي تدفع للفتيات العاملات في المصانع اليابانية ، والى المساعدات المالية التي كانت الحكومة تقدمها للصناعات ، والى ان شركات النقل البحري اليابانية لا تأخذ إلا اجوراً بسيطة .

وبنفس الوقت هنالك حقيقة لا يمكن انكارها ، وهي ان الصناعة اليابانية كانت مقتدرة بعكس كثير من الصناعات الانجليزية التي أكل الدهر عليها وشرب

ولما فشلت الرسوم الجمركية في منع البضائع اليابانية؛عمدت انجلترا إلى اغلاق بعض اسواقها اغلاقاً محكماً في وجه هذه البضائع أو الى عدم السماح لها بالدخول إلا بكميات محدودة . ولكن اذا منعت البضائع اليابانية من دخول البـــلاد الاخرى، فماذا يصيب صناعات اليابان الضخمة؟ إمّا ان يتحطم كيانها الاقتصادي كله ، وامّا ان تعمد الى فتح اسواق جديدة لها ، مما يسبب تنافساً تجارياً عنيفاً قد يؤدي الى الحرب.هذه هي المراحل التي لا بدمنها فيعالم المنافسات الرأسمالية .

وعلى نفس المنوال ، اذا اغلقت الاسواق البريطانية في وجه البلاد الاوربية الأخرى ، فهذا يعني خراب هذه البلاد . ولذلك فاننا نرى ان اية خطوة تتخذها اية بلاد في سبيل صالحها الخاص يؤذي البلاد الاخرى والتجارة الدولية ، ويقود الى الاحتكاك والاضطراب .

الثورة في اسبانيا

٢٩ يوليو ١٩٣٣

●

انتقل الآن من الحديث الطويل الممل عن الازمة الاقتصادية والعالمية وكساد التجارة الى الحديث عن مسألتين هامتين حدثتا مؤخراً وهما : الثورة في اسبانيا وانتصار النازية في المانيا .

وتقع كل من اسبانيا والبرتغال في الناحية الجنوبية الغربية من اوربا ، وقد لعبتا دوراً هاماً في التاريخ الاوربي والعالمي ، وانهكتا قواهمـــا في مغامرتها لبناء الامبراطوريات وبينما كانت دول غرب اوربا تتقدم صناعياً في القرن التاسع عشر ، بقيتا على ما هما عليه من التأخر ، تسيطر عليهما الرجعية والكنيسة . انتصرت اسبانيا على نابليون ، ولكنها لم تستفد من الافكار التي اطلقتها الثورة الفرنسية من عقالها . فبينما خلصت فرنسا نفسها من الاقطاع وغيرت نظام ملكية الأرض فيها ، بقيت اسبانيا شبه اقطاعية ، يملك فيها النبـــلاء الاراضي الشاسعة ويتمتعون بجميع انواع الامتيازات الخاصـــة . وكانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مسيطرة تماماً على الدين والارض والتجارة والتعليم . كانت الكنيسة اكبر ملاك للارض وتقوم بالتجارة لحسابها على اوسع نطـاق ، كما كانت تسيطر على التعليم سيطرة تامة .

كان ضباط الجيش طبقة خاصة لها امتيازاتها . وكانت نسبة الضباط الى الجنود عالية جداً : واحداً الى سبعة ! وكان المثقفون يتألفون من عناصر تقدمية ومتحررة ،

كما ان حركة العمال النامية كانت منقسمة الى نقابيين واشتراكيين وفوضويين . ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد الكنيسة والجيش والنبلاء . وقامت حركات انفصالية قوية في كاتالونيا وباسك في شمالي البلاد .

كانت كل من الحكومتين الاسبانية والبرتغالية اوتوقراطية ملكية لها برلمان ضعيف . والبرلمان في اسبانيا يدعى « كورتس » . وتأسست في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في اسبانيا حكومة جمهورية لمدة قصيرة ، رجع على اثر انتهائها الملك بكل ما له من اوتوقراطية . وكانت نتيجة الحرب بين اسبانيا والولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٨٩٨ ان خسرت أسبانيا معظم مستعمراتها فلم يبق لها سوى قسم من مراكش .

أما البرتغال فكان لها مستعمرات في افريقيا بالاضافة الى ما لها في الهند، مثل جوا أسقط الملك عن عرشه في البرتغال سنة ١٩١٠ واعلنت الجمهورية. ومنذ ذلك الوقت حدثت عدة ثورات ، منها الملكية التي حاولت ارجاع الملك ، ومنها اليسارية التي حاولت التخلص من الدكتاتوريين والحكومات الرجعية. اما الحكم الجمهوري فقد استمر ، ولو انه كان واقعاً في معظم الاحيان تحت قيادة عسكرية. وقد انحازت البرتغال اثناء الحرب العالمية (الاولى) للحلفاء وخرجت منها بديون كبيرة جعلتها تشرف على الافلاس . اما الحكومة الحالية فهي حكومة رجعية جداً تميل نحو الفاشية ، وتطبق هذه السياسة على مستعمراتها في الخارج . ففي جوا مثلاً قضت على كل نشاط عام وحرمت الاهالي من جميع انواع الحرية.

اما اسبانيا فقد بقيت على الحياد اثناء الحرب العالمية مما افادها كثيراً ، فكانت تبيع لكلا الفريقين المتحاربين البضائع والمعدات ، فانتشرت فيها الصناعات وانتعشت . ولكن ما كادت الحرب تنتهي حتى حصلت ازمة اقتصادية وانتشرت البطالة وانتشرت القلاقل معها . وفي سنة ١٩٢١ وقعت حرب الريف في مراكش والتي انتصر فيها الامير عبد الكريم على الجيش الاسباني انتصاراً باهراً ، ولم يفلته من يده سوى الجيش الفرنسي الذي قدم بأعداد كبيرة وخلص قسماً من مراكش لأسبانيا . وظهر اثناء الحرب المراكشية بريمو دي رفيرا واصبح

دكتاتوراً في سنة ١٩٢٣ وعطّل الدستور . وقد استمر في الحكم ست سنوات، ولكنه اخذ في النهاية يفقد ثقة الجيش به فاضطر للاستقالة سنة ١٩٢٩ على اثر ازمة مالية . وكان الملك ألفونسو طوال هذه السنوات موجوداً في البلاد يسند العناصر الرجعية ويحاول تثبيت مركزه ونفوذه .

يتميز الشعب الاسباني بميله إلى الفردية ، ولذلك كثيراً ما كنا نرى ان مختلف فئاته في نزاع مستمر ومنذ عصر باكونين ، مالت الطبقة العامة الى الفلسفة الفوضوية ، ولم تعجبهم النقابات العمالية التي كانت سائدة في ذلك الوقت في كل من انجلترا وألمانيا . وقد ألّف هؤلاء الفوضويون - النقابيون منظمة قوية في كاتالونيا. وكانت هناك منظمات تقدمية مثل الديمقراطيين الاحرار والاشتراكيين والشيوعيين الذين اخذوا في الازدياد . أيدت كل هذه المنظمات فكرة الحكومة الجمهورية. وكانت التجارب القاسية التي لاقتها على ايدي الدكتاتور بريمو دي رفيرا من جملة الاسباب التي ألفت بين قلوبها وجعلتها تتعاون مع بعضها البعض في حزب جمهوري .

وكان اول نجاح ساحق احرزه الجمهوريون في الانتخابات البلدية التي اجريت في سنة ١٩٣١ . وكان هذا لوحده كافياً لإخافة الملك (الذي كان ينتسب إلى عائلتي البوربون والهابسبرج) فهرب من البلاد بسرعة. أُعلنت الجمهورية وتشكلت حكومة موقتة في ١٤ ابريل ١٩٣١ . وهكذا تمّت الثورة دون اراقة الدماء .

ان الثورة الاسبانية تشبه إلى حد كبير الثورة الروسية التي حدثت في مارس ١٩١٧ . اذ ان النظام الملكي في اسبانيا كان عفناً كما كان في روسيا القيصرية . ولذلك تداعى دون ان يبذل خصومه اي مجهود . وفي كلا الحالين كانت الثورة تمثل المحاولة للقضاء على الاقطاع ولتغيير نظام ملكية الاراضي ، وفي كلا الحالين جاء معظم الضغط من الفلاحين الفقراء . وكما كانت الكنيسة في روسيا لها سلطة واسعة وتعتبر عبئاً ثقيلاً ، فقد كانت كذلك في اسبانيا. انتجت كل من الثورتين اوضاعاً غير مستقرة ، واخذت كل طبقة من الطبقات تشدّ من ناحيتها . قامت عدة اضطرابات سبّبها اليمين تارة واليسار تارة اخرى. وقد انتج عدم الاستقرار

هذا في روسيا ثورة نوفمبر . اما في اسبانيا فما زال مستمراً كما كان .

في الدستور الاسباني اشياء طريفة : ينص الدستور على انتخاب مجلس واحد هو الكورتس ويعطي الجميع حق الانتخاب. ولا يحق للرئيس ان يعلن الحرب إلا بعد موافقة عصبة الامم . كما ان جميع الاتفاقيات الدولية التي تقيد في عصبة الامم وتوافق عليها اسبانيا تعتبر بصورة آلية قانوناً اسبانياً . واذا ما تعارضت مع القوانين التي تُسَنّ في اسبانيا فإنها تلغيها .

وقد وصفت حكومة الجمهورية الجديدة بأنها ديمقراطية يسارية معتدلة لها طابع الاشتراكية . وكان رئيس الوزراء والحاكم الفعلي مانول أزانا . وكان على الحكومة ان تواجه مشاكل صعبة : الأرض والكنيسة والجيش . وقد سَن الكورتس تشريعات لكل من هذه الامور، ولكن شيئاً منها لم ينفذ. فالتشريع الجديد مثلًا ينص على انه لا يجوز لأي انسان ان يملك اكثر من ٢٥ فداناً من الارض التي تسقى بالماء ، ولا يجوز الاحتفاظ بهذه المساحة إلاّ اذا بقي صاحبها يزرعها . ومع ذلك بالرغم من هذا التشريع فقد بقيت الاقطاعيات على ما كانت عليه فيما عدا ممتلكات الملك وبعض النبلاء التي صودرت منهم .

أمّم الكورتس ممتلكات الكنيسة ، ومع هذا فلم ينفذ هذا القانون . واذا استثنينا بعض القيود التي وضعت على الكنيسة فيما يختص بالتعليم ، فإن حريتها لم تصب بسوء . اما امتيازات ضباط الجيش فقد الغيت واحيل عدد كبير منهم على التقاعد بمعاشات ضخمة .

حدثت اضطرابات في سنة ١٩٣٢ قام بها الفوضويون النقابيون في كاتالونيا وقد اخضعتها الحكومة كما قام اليمينيون باضطرابات اخرى في آخر السنة ولكنهم لم ينجحوا .

قامت الحكومة في اولى سنيها بأعمال لا بأس بها وخصوصاً في ميدان التعليم، كما انها بدأت تحاول حل مشكلة الاراضي وتحسين حالة العمال . غير ان التقدم في اصلاح نظام الاراضي كان بطيئاً ولم يعجب الفلاحين . وكانت العناصر الرجعية

وذوو المصالح خلال هذه الاثناء متربصين يتحينون الفرص للايقاع بالحكومة التي لم تعاملهم الا باللطف واللين .

ملاحظة (نوفمبر ١٩٣٨) :

شهدت سنة ١٩٣٣ تكتل العناصر الرجعية في اسبانيا وبذلك حصلت الاحزاب اليمينية على اكثرية المقاعد في الانتخابات التي اجريت تلك السنة . فشكلت حكومة رجعية أوقفت الاصلاح الزراعي وزادت من قوة الكنيسة وعدلت عن اشياء كثيرة قامت بها الحكومة السابقة ، مما دعا احزاب اليسار ان تتكتل وتتحد لتقاوم هذه الرجعية . فحدثت اضطرابات في جميع انحاء اسبانيا في اكتوبر ١٩٣٤ ولكن الحكومة تمكنت من اخمادها . غير ان القوى اليسارية استمرت في تكتلها فشكلت جبهة شعبية مؤلفة من المعتدلين والاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين ، واستطاعت هذه الجبهة في فبراير ١٩٣٠ الفوز في انتخابات مجلس الكورتس وشكلت حكومة جديدة وشعر الجميع ان هذه الحكومة ستتخذ اجراءات جريئة لحل مشكلة الارض والحد من سلطات الكنيسة وانها لن تتهاون مع ذوي المصالح كما تهاونت معهم الحكومة المعتدلة السابقة . ولذلك نشأ النزاع ، وقررت قوى الرجعية ان تضرب ضربتها ، فاستعانت بموسوليني والمانية النازية وحصلت على مساعدات منها .

بدأت الثورة في يوليو ١٩٣٦ بقيادة الجنرال فرانكو في مراكش الاسبانية بمساعدة الجيش المغربي الذي اعطي وعداً باستقلال مراكش الاسبانية نظير هذه المساعدة . وكان ضباط الجيش ومعظم افراده من صف فرانكو ، فبقيت الحكومة دون احد يدافع عنها . عندئذ استنجدت الحكومة بالشعب وطلبت منه ان يحارب بأي شيء حتى بأيديه ان لم يجد ما يحارب به . وقد لبّى الشعب نداء الحكومة بشكل رائع وخصوصاً في مدريد وبرشلونة . وبذلك انقذت الحكومة وانقذت الجمهورية ، غير ان فرانكو استطاع الاستيلاء على مساحات واسعة من اسبانيا .

ومنذ ذلك الوقت استمرت الحرب بينهما ،ففرانكو يتلقى المساعدات الهائلة من ايطاليا والمانيا اللتين زودتاه بالجيوش الكبيرة والطائرات والطيارين والذخائر. والحكومة انضم الى صفوفها متطوعون من الخارج ، وبنفس الوقت استطاعت الحكومة ان تنشىء جيشاً ممتازاً .اما الحكومتان الانجليزية والفرنسية فقد اتبعتا سياسة عدم التدخل ، وهذا يعني بالحقيقة ان سياستهما هي مساعدة فرانكو .

كانت الحرب الاسبانية مليئة بالمآسي ، فقتل فيها اناس كثيرون نتيجة قصف الطائرات الايطالية والالمانية التي كانت في خدمة فرانكو مماسيسطره لها التاريخ بعداد من الفخر . يسيطر فرانكو في الوقت الحاضر على ثلاثـــة ارباع اسبانيا ، ولكنه اوقف عند حده بفضل بسالة حكومة الجمهورية وقوتها . أمـا اكثر شيء تعاني منه الحكومة فهو قلة الطعام .

تعتبر الحرب الاسبانية اكثر من نزاع محلي .انها تمثل الكفاح بين الديمقراطية والفاشية ، ولذلك اجتذبت اليها انظار الناس وعطفهم في كل مكان .

انتصار النازية فى المانيا

٣١ يوليو ١٩٣٣

●

فاجأت الثورة الاسبانية بعض الناس، ولكنها بالحقيقة لم تكن مفاجأة ابداً. انها نتيجة طبيعية لمنطق الاشياء ، وسبق ان تنبأ بها المراقبون . لأن الثالوث المؤلف من الملك ، والاقطاع والكنيسة قد اكل عليها الدهر وشرب واصبح عفناً جداً ليس له من القوة والحول شيء . ولم يكن يجاري بأي حال من الاحوال الظروف الحديثة ، ولذلك فقد كان يشبه تماماً الثمرة الناضجة التي سرعان ماتسقط بمجرد لمسها . يوجد في الهند بقايا اقطاع من عصر ولىّ زمانه ، ولا بد انها زائلة بسرعة إذا لم تدعمها دولة اجنبية.

اما التغييرات التي حدثت في المانيا فإنها من نوع مختلف تماماً ، وليس من شك في انها هزت اوروبا هزاً عنيفاً اذهل الناس ، لم يستطع احد ان يصدق كيف ان شعباً مثقفاً متحفزاً كالشعب الالماني يمكن ان ينغمس في اعمال وحشية بربرية.

انتصر هتلر وانتصرت معه النازية في المانيا . وكانوا يدعون النازيين بالفاشيّين ، وكان نصرهم بالحقيقة نصراً للرجعية ، وخذلاناً لثورة المانيا سنة ١٩١٨ وما تبعها . نعم ، ان جميع عناصر الفاشية تجدينها في الهتلرية ، تجدين فيها الرجعية العنيفة ، وعداء لجميع العناصر المعتدلة وخصوصاً العمال . ومع ذلك فهي اكثر من مجرد كونها رجعية ، فإنها تعتمد على مشاعر الجماهير اكثرمما تعتمد عليها الفاشية الايطالية . ولم يكن العمال هم اصحاب هذه المشاعر ، وانما هي الطبقة الوسطى الجائعة ، المصادرة

املاكها والتي انقلبت الى طبقة ثورية.

حدثتك عن الفاشية الايطالية في رسالة سابقة ، وبينت لك انها نشأت عندما تعرضت دولة رأسمالية تجتاحها ازمة اقتصادية الى ثورة اجتماعية فأرادت الطبقات الرأسمالية ان تحمي نفسها بأن خلقت حركة شعبية نواتها الطبقة الوسطى الفقيرة واستعملت للتضليل شعارات ضد الرأسمالية وذلك لكي تجذب انظار الفلاحين والعمال غير الواعين . وحالما يتسلم الرأسماليون زمام السلطة في الدولة فإنهم يحلّون جميع المنظمات الديمقراطية ويسحقون اعداءهم ويقضون على جميع المنظمات العمالية وهكذا يرتكز حكمهم في العنف ، ثم يعطون مؤيدي الطبقة الوسطى بعض الوظائف في الدولة الجديدة ، ويدخلون شيئاً من التوجيه على الصناعات .

اننا نجد كل هذه المسائل تحدث في المانيا كما هو متوقع. ولكن المفاجأة كانت في التأييد الكبير الذي لقيته والعدد الكبير من الناس الذين سايروا هتلر وانضموا الى صفوفه .

انتصرت الرجعية النازية في مارس ١٩٣٣ ؛ ولكني سأرجع الى الوراء واحدثك قليلاً عن تاريخ الحركة وكيف بدأت.

كانت الثورة الالمانية ١٩١٨ ابعد ما تكون عن الثورات ، فقد ذهب القيصر ، واعلنت الجمهورية ، ولكن الجهاز السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي كان موجوداً قبلاً لم يتغير. وبقي الديمقراطيون والاشتراكيون يسيطرون على الحكومة لعدة سنوات . وكان اكثر ما يخيفهم الرجعية القديمة واصحاب المصالح ، فاضطروا دائماً للاتفاق معهم على حلول وسط . وكان حزبهم قوياً جداً في ادارته وتنظيمه ويضم ملايين الاعضاء بالاضافة الى نقابات العمال وكثيرين غيرهم ولكن سياسته كانت دائماً دفاعية تجاه العناصر الرجعية وهجومية تجاه الجناح المتطرف في حزبهم وتجاه الحزب الشيوعي . وبلغت تصرفاتهم من السوء لدرجة ان كثيراً من مؤيديهم قد تخلوا عنهم ، وانسحب كثير من العمال من حزبهم وانضموا الى الحزب الشيوعي الذي اصبح قوياً جداً يضم عدة ملايين من الاعضاء . اما مؤيدوهم من الطبقات الوسطى فقد انضموا الى الاحزاب الرجعية .

واستمر الصراع بين الحزب الشيوعي والحـــزب الديمقراطي الاشتراكي حتى ضعف كلاهما .

حين تضخم النقد في المانيا في سنوات ما بعد الحرب ، لم يكن ذلـك الا في صالح ملاكي الاراضي واصحاب المصانع . فملاكو الاراضي الذين كانوا غرقى في الديون والذين كانت املاكهم مرهونة ، استطاعوا تسديد ما عليهم بعمـــلة متضخمة لا تساوي في الواقع شيئاً واستردوا املاكهم . اما اصحاب المصانـع فقد حسنوا مصانعهم وألفوا «التروستات» . واصبحت البضائع الالمانية رخيصة جداً مما اوجد لها اسواقاً في كل مكان ، فاختفت البطالة . وكانت الطبقة العاملة منظمة في نقابات العمال وقد نجحت في حفظ مستوى الاجور عالياً بالرغم من هبوط سعر المارك . اما اكثر طبقة تضررت بفعل التضخم المالي فهي الطبقة المتوسطة التي اصبحت فقيرة جداً ، وهذه الطبقة هي التي أيدت هتلر سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤. وعندما اخذت الازمة الاقتصادية تزداد عنفاً نتيجة افلاس البنوك وانتشار البطالة، انضم كثير من الناس لهتلر ، واصبح بذلك ملجأ للحاقدين والغاضبين ، كما انضم اليه ايضاً ضباط الجيش القدامى؛ اذ ان الجيش سُرِّح بعد معاهدة فرسايل واضحى آلاف الضباط بلا عمل ، فانخرطوا في سلك الجيوش الخاصة التي كانت تنمـو في ذلك الوقت مثل «فرق الصاعقة» النازية كما كانت تسمى ، و«الخـوذ الفولاذية» الوطنية ، وهم من جماعة المحافظين الذين يحبذون رجوع القيصر الى العرش .

من هو ادولف هتلر ؟ بالرغم من ان ما سأقوله يبدو غريباً لأول وهلة، الا انه الحقيقة فهتلر لم يكن مواطناً المانياً إلا قبل تسلمه الحكم بسنة او سنتين . كان المانياً ـ نمساوياً وخدم في الجيش برتبة صغيرة . وقد اشترك في ثورة فاشلة ضد الجمهورية الالمانية وحكم عليه بالسجن ، ولكن الحكم قد خفف عنه . ثم ألف حزبه المسمى «الحزب الوطني الاشتراكي» لمعارضة الديمقراطيين الاشتراكيين ؛ والكلمة «نازي» تأتي من الحروف الاولى للكلمتين الالمانيتين اللتين تعنيان «الوطني الاشتراكي». ومع ان الحزب كان يسمى بالاشتراكي إلا انه كان ابعد ما يكون عن الاشتراكية فهتلر كان وما زال معروفاً بانه عدو الاشتراكية اللدود. وقد

اتخذ الحزب الصليب المعقوف شعاراً له ، وكان هذا الشعار معروفاً في جميع انحاء العالم منذ الازمنة القديمة ، ويمثل في الهند السادة . وقد نظم النازيون قوة محاربة وهي «فرق الصاعقة» وكان افرادها يرتدون القمصان البنّية ، ولذلك كثيراً ما اطلق على النازيين «القمصان البنّية» كما كان يطلق على الفاشيين الايطاليين «القمصان السوداء» .

لم يكن برنامج النازيين واضحاً او ايجابياً . كان يهدف الى التعصب الوطني وتمجيد المانيا والشعب الالماني . وما بقي منه مجموعة من الكراهيات المتعددة . كان ضد معاهدة فرساي التي كانت تعتبر اهانة لالمانيا ، مما اجتذب الى صفوف النازيين اناساً كثيرين وكان ضد الماركسيين ـ الشيوعيين ـ الاشتراكيين ويعارض نقابات العمال وما اشبهها . وكان ضد اليهود لأنه اعتبر اليهود جنساً غريبا يفسد الجنس الالماني «الآري» ويحط من مستواه كان بصورة مبهمة ضد الرأسمالية ، ولكن معارضته لها انحصرت في شتم المستغلين والاغنياء . اما الناحية الوحيدة التي تمت للاشتراكية بصلة ، والتي كانت ضمن برنامج النازيين ولو بصورة مهملة ، فهي إشراف الدولة على اقتصاد البلاد .

وتكمن وراء كل هذا فلسفة العنف والقوة . ولم يكتف النازيون بمدح العنف والحث عليه ، بل اعتبروه اقدس واجبات الانسان . وكان الفيلسوف الالماني الشهير اوسولد شبنجلر هو الذي شرح هذه الفلسفة فوصف الانسان بأنه «وحش لاصطياد الفرائس ، وشجاع وقاس» ومما قاله ايضا «المثل العليا انما هي اهداف الجبناء» .. و «الوحوش التي تصطاد فرائسها هي أعلى مرتبة من أي شيء آخر في هذه الحياة» . ووصف العواطف الانسانية وحب الهدوء بأنها «شعور بلا اسنان» ووصف الكراهية بأنها «اصدق العواطف عند الوحوش التي تصطاد فرائسها» . كانوا يقولون ان الانسان يجب ان يكون كالأسد لا يتحمّل وجود أي وحش آخر في كهفه ، ويجب ان لا يكون كالبقرة الضعيفة التي تعيش في وسط قطيع كبير تذهب وتجيء مع القطيع حسب رغبة الراعي ولذلك فان احسن صنعة للانسان واكثرها ادخالاً للسرور على قلبه هي بالطبع الحرب !

يعتبر اوسولد شبنجلر من اشهر علماء هـذا العصر ، وكتبه طافحة بالاشياء التي يمكن للانسان تعلمها والاستفادة منها ، ومع ذلك وبالرغم من سعة علمـه فقد قاده ذلك ليستنتج هذه النتائج المذهلة الكريهة . أستشهدُ ببعض اقواله لأنها تساعدنا على فهم العقلية الهتلرية وتوضح لنا القسوة والوحشية اللتـين تكمنان في النظام النازي . وبالطبع يجب ان لانتخيل ان كل نازي يفكر بمثل هذاالتفكير، ولكن الزعماء والعناصر المتطرفة تفكر بالتأكيد بمثل ذلك ، فيضربون المثـل لغيرهم للاقتداء بهم . ولعلنا نكون اقرب الى الصواب اذا قلنا ان النازي العادي لم يكن يفكر بالمرة . وانما كان يغضب وتثور اعصابه نتيجة لشقائـه الشخصي وللاهانة التي لحقت ببلاده عندما احتلت فرنسا منطقة الرّور . وكان هتلر خطيباً قديراً استطاع ان يلعب بعواطف الجماهير ، وان يلقي كل اللوم على الماركسيين اليهود . فاذا عاملت فرنسا والدول الاخرى المانيـا معاملة سيئة ، فان هذا يشجع الكثير من الناس على الانضمام الى الحزب النـازي لأن هذا الحـزب هو الذي سيحمي شرف المانيا . واذا ساءت الحالة الاقتصادية ، فان ذلك ايضاًيشجع كثيرين للانخراط في صفوف الحزب على اعتبار انه هو الذي سيفرج الازمة .

وسرعان مـا خسر الحزب الديمقراطي الاشتراكي سيطرته على الحكومة ، ونشأ حزب آخر سمي حزب الكاثوليك المعتدل ، فتسلم الحكم لأن الاحزاب الاخرى كانت مشغولة بالتنافس فيما بينها . لم يكن في الريخشتاغ (البرلمـان) حزب تطغى قوته على قوة الاحزاب الاخرى ، ولذلك كثيراً مـا اجريت الانتخابات وازدادت الدسائس والمؤامرات ومناورات الاحزاب . وقـد خاف الحزب الديمقراطي الاشتراكي كثيراً من تزايد قوة الحزب النـازي، مما اضطره الى تأييد «حزب الوسط» الرأسمالي والى انتخاب الجنرال هندنـبورغ للرئاسة . ولكن على الرغم من تزايد قوة الحزب النازي ، فقد كان حزبا العمال، وهما الحزب الديموقراطي الاشتراكي والحزب الشيوعي ، قويين جـداً ، ويضم كل منهما ملايين الاعضاء ، ولكنهما لم يستطيعا توحيد جهودهما في وجه الخطـر النازي المشترك . فالشيوعيون يذكرون بمرارة الأذى والاضطهاد اللذين ألحقهما

الحزب الديمقراطي الاشتراكي بهم منذ سنة ١٩١٨ وما بعدها عندما كان زمام الحكم في يديه ، وكيف انه كان يؤيد العناصر الرجعية في البلاد في اوقات الازمات . ومن ناحية اخرى كان الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي يشبه حزب العمال البريطاني يتمتع بنفوذ ضخم وادارة محكمة فلم يُرد ان يعرض مركزه للخطر ، كما لم يجرأ ابداً على القيام بأي عمل يخالف القانون ، وانما صرف معظم نشاطه في مكافحة الشيوعيين ، مع ان الحزبين يعتبران ماركسيين .

وهكذا انقلبت المانيا الى معسكر مسلح تتعادل فيه القوى المتحاربة ، وكثيراً ما حدثت اضطرابات وكثيراً ما اقترف النازيون جرائم القتل ضد العمال الشيوعيين . وكان العمال في بعض الاحيان يثأرون لانفسهم . وقد نجح هتلر نجاحاً باهراً في الاحتفاظ بين يديه بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات . واستطاع ان يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة تتحالف مع اصحاب المصانع ومالكي الاراضي الكبار . ومن ذلك ان اصحاب المصانع ايدوا هتلر وزودوه بالمال لأنه كان يشتم الاشتراكية ويشكل اكبر عائق في طريق الماركسية والشيوعية اما الطبقات الوسطى الفقيرة واصحاب الاملاك فقد ايدوه لان شعاراته التي كان روجها ضد الرأسمالية قد لاقت هوى في نفوسهم

وفي ٣٠ يناير ١٩٣٣ عيّن الرئيس هندنبرج (وكان في السادسة والثمانين من العمر) هتلر مستشاراً ، وهذا المنصب هو اعلى منصب تنفيذي في المانيا ويماثل منصب رئيس الوزراء . وتحالف النازيون والوطنيون بعض الوقت ، ولكن ظهر فيما بعد ان النازيين كانوا لوحدهم المسيطرين على الحكومة . ثم اجريت انتخابات عامة للريخشتاغ لم يفز النازيون والوطنيون فيها الا بأغلبية بسيطة . وحتى لو لم يفز هذان الحزبان بأغلبية بسيطة فان ذلك ما كان ليؤثر على مجريات الامور ؛ وخصوصاً بعد ان ألقى النازيون القبض على معارضيهم في البرلمان وزجوا بهم في السجن ، وكان من جملة هؤلاء جميع الاعضاء الشيوعيين وكثير من اعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي . وفي تلك الاثناء شب حريق كبير في بناية الريخشتاغ فدمرها ، فاتهم النازيون الشيوعيين بتدبير هذا الحريق لعرقلة اعمال الدولة. ولكن

الشيوعيين انكروا هذه التهمة بشدة واتهموا بدورهم زعماء النازيين بتدبير الحريق حتى يجدوا لهم مبرراً لمهاجمتهم .

وعندئذ بدأ عصر الارهاب النازي الذي سمي «بالرعب البنّي» في جميع انحاء المانيا . وكان اول ما عمله النازيون هو ان حلوا البرلمان (مع انهم كانوا يتمتعون بالاغلبية) واستولى هتلر ووزراؤه على كل السلطات في المانيا. فكانوا يستطيعون ان يسنّوا اي قانون ويعملوا أي عمل يريدون . فعطلوا الدستور وقضوا على جميع اشكال الديمقراطية. وكانت المانيا عبارة عن جمهوريات يضمها اتحاد فدرالي، فانهوا هذا الاتحاد وركزوا كل السلطات في برلين . وعينوا دكتاتوريين في كل مكان ، وكل واحد من هؤلاء مسؤول امام الدكتاتور الذي فوقه وهكذا . وكان هتلر بالطبع هو الدكتاتور الأعلى

وفي تلك الاثناء قامت فرق الصاعقة النازية باكبر حملة عنف وارهاب في جميع انحاء المانيا كانت هذه الحملة فريدة في نوعها. لقد سبقها حملات كثيرة من الارهاب سميت بالرعب الأحمر والرعب الابيض. ولكن هذه الحملات كانت تقوم في المناطق او البلاد التي تحارب دفاعاً عن نفسها او التي تكون في خضم حرب اهلية . أما النازيون فلم تكن تواجههم اية اخطار، اذ انهم كانوا يسيطرون على الحكومة ، ولم يكن أمامهم اية مقاومة مسلحة . ولهذا فلم تكن حملة الرعب التي قاموا بها ناتجة عن هياج او خوف ، وانما كانت نتيجة تدبير محكم بأعصاب باردة قصد منها القضاء الوحشي بشكل لا يمكن للعقل تصوره على جميع العناصر التي لا تؤيد الحزب النازي .

ولا أرى من المفيد ان اعدّد في هذه الرسائل الفظائع التي ارتكبها النازيون في المانيا منذ تسلمهم الحكم والتي ما زالوا يرتكبونها. كان الضرب المبرح والتعذيب والقتل على نطاق واسع ، ولم يكونوا يفرقون في ضحاياهم بين الرجال والنساء . ألقوا بكثير من الناس في السجون والمعتقلات وعاملوهم معاملة سيئة جداً . أما اشد حملة واعنفها فقد كانت ضد الشيوعيين ، وكان أخف منها قليلاً تلك الموجة ضد الديمقراطيين الاشتراكيين . وكذلك ركزوا

هجومهم على اليهود. ولم ينج منهم المسالمون والمعتدلون والنقابيّون والدوليّون
لقد اعلنها النازيون حرباً شعواء لاستئصال شأفة الماركسية والماركسيين وجميع عناصر جبهة «اليسار». كما اعلنوا انه يجب استئصال اليهود جميعهم من الوظائف والأعمال. ولذلك عمدوا إلى طرد الآلاف من العلماء والاساتذة الموسيقيين والمحامين والقضاة والاطباء والممرضات اليهود كما قاطعوا اصحاب الدكاكين اليهود، وطردوا العمال اليهود من المصانع. ثم اخذوا يحرقون الكتب التي لا يوافقون عليها بشكل علني، ولم يسمحوا لأية جريدة بالصدور اذا كانت تبدي اقل معارضة او انتقاد. كما لم يسمحوا بنشر انباء حملة الرعب. واذا جرؤ احدهم ونشر عنها شيئاً عاقبوه بشدة

قضي على جميع المنظمات والاحزاب، ما عدا الحزب النازي بالطبع. وأول من قضي عليه كان الحزب الشيوعي ثم تبعه الحزب الديمقراطي الاشتراكي ثم حزب الكاثوليك الوسط واخيراً الحزب الوطني الذي كان حليفاً للحزب النازي. ثم قضي على نقابات العمال الضخمة التي تمثل عمل وتضحيات وتوفيرات اجيال كثيرة، فحلت النقابات وصودرت اموالها وممتلكاتها. ولم يرد النازيون الابقاء إلا على حزب واحد، هو الحزب النازي.

أُجبر الناس على قبول الفلسفة النازية العجيبة، ولم يجرؤ احدهم ان يرفع رأسه محتجاً. وطبع كل شيء بالطابع النازي – التعليم والمسرح والفنون والعلوم. قال هرمان جورنج، احد الزعماء الالمان: «ان الالماني الحقيقي يفكر بدمه». وقال زعيم الماني آخر: «إن عصر المنطق السليم والعلم المجرد قد ولّى» كان الاطفال يُعلمون ان هتلر هو «يسوع» ثانٍ، ولكنه اعظم من الاول. لم تكن الحكومة النازية تحبذ انتشار التعليم بين الناس وخصوصاً بين النساء. كانت نظرتها للنساء تقوم على اساس ان مكان المرأة هو البيت والمطبخ وان وظيفتها هي انجاب الاولاد للقتال والموت في سبيل الدولة. قال الدكتور جوزيف جوبلز، احد زعماء النازيين ووزير الدعاية والارشاد القومي: «ان مكان المرأة في البيت، ووظيفتها الحقيقية هي تزويد بلادها وشعبها بالاطفال.. ان تحرير المرأة خطر على الدولة. عليها

ان تترك للرجل الأعمال التي يقوم بها الرجال » . هذا الدكتور جوبلز نفسه هو الذي وصف لنا اسلوبه في الارشاد القومي بقوله : « انني اريد ان اوجه الصحافة بنفس السهولة التي العب فيها على البيانو » .

وكان يكمن وراء هذه البربرية والوحشية والرعب ، الفقر والعوز بشكل مخيف وخصوصاً في الطبقات الوسطى . انها كانت في الواقع حرباً من اجل الحصول على العمل والخبز . لقد طرد الاطباء والمحامون والاساتذة والممرضات اليهود لأن الالمان « الآريين » في الحقيقة لم يستطيعوا منافستهم وارادوا ان يحلوا محلهم في اعمالهم تلك . لقد اقفلت المحلات التجارية اليهودية لانها كانت ناجحة يصعب منافستها . كما اقفلت محلات تجارية اخرى غير يهودية وألقي القبض على اصحابها بحجة انهم يتقاضون اسعاراً عالية غير معقولة . اما الفلاحون الذين كانوا يؤيدون النازيين ، فانما كانوا يعملون ذلك طمعا في الاقطاعيات الكبيرة في شرق بروسيا التي ارادوا اقتسامها فيما بينهم .

ومن جملة ما نص عليه البرنامج النازي الاصلي تحديد جميع المعاشات بحيث لا تزيد عن ١٢٠٠٠ مارك الماني بالسنة (وهي تعادل حوالي ٨٠٠ جنيه) . ولا اعرف هل طبق هذا ام لا ، وانما اعرف ان راتب المستشار الحالي يساوي ٢٦٠٠٠ مارك بالسنة وقد اقترح ان لا تقل رواتب مديري الشركات التي تساعدها الحكومة عن ١٨٠٠٠ مارك بالسنة ، وكثيراً ما زادت الرواتب عن هذه المبالغ بكثير. قارني هذه الارقام بالرواتب التي تدفعها الهند الفقيرة لموظفيها . وقد اقترح حزب المؤتمر بهذا الخصوص في اجتماعه الذي عقده في كراتشي تحديد المعاشات بـ ٥٠٠ روبية في الشهر (حوالي ٥٠ جنيه) .

ويجب ان لا تظني ان الحركة النازية تستند على الوحشية والرعب فقط ، مع ما في هذين من سند قوي ، وانما كان هنالك حماس حقيقي بين الالمان لهتلر فيما عدا اعداد كبيرة من العمال واذا اردنا الاسترشاد بنتائج الانتخابات الاخيرة لوجدنا ان ٥٢٪ من السكان يؤيدونه ، وهذا يعني ان الـ ٥٢٪ يخيفون ويرعبون البقية اي الـ ٤٨ ٪. ويتمتع هتلر بشعبية كبيرة بين مؤيديه ، وكل من يذهب

الى المانيا يتحدث عن الجو النفساني الذي يحيط بالالمان ويشبهونه بالحماس الديني . اصبح الالمان يشعرون ان الاهانة التي لحقتهم في فرساي قد غسلت ، وانهم يستطيعون التنفس بحرية مرة اخرى .

ولكن نصف الالمان الآخر كان يشعر شعوراً مغايراً فكان يسيطر على الطبقة العاملة شعور الكراهية والغضب ، ولا يخفي هذا الشعور سوى خوفها من انتقام النازيين الفظيع . لقد خضع العمال جميعهم للقوة والارهاب وسيطر عليهم الحزن واليأس وهم يشاهدون تخريب ما بنوه بعملهم وتضحياتهم . وكان من اعجب الاشياء التي حدثت في المانيا خلال الاشهر القليلة الماضية هو انهيار الحزب الديمقراطي الاشتراكي انهياراً تاماً دون ان يبدي اية مقاومة ، مع انه كان من اقدم واكبر وانظم حزب للطبقة العاملة في اوروبا ،وكان عصب المؤتمر الدولي للاحزاب العمالية انهار وخضع ولم يُبد أي احتجاج ، ولو انه لم يكن أية فائدة في الاحتجاج. وبالتدريج خضع الزعماء الديمقراطيون الاشتراكيون بذل ومهانة للنازيين آملين بخضوعهم هذا ان يحصلوا على بعض الثمرات . ولكن خضوعهم هذا اصبح سلاحاً في يد النازيين فاستغلوه وبدأوا يصفون للعمال كيف ان زعماءهم قد غدروا بهم عندما واجهوا الاخطار . يحتوي التاريخ الطويل لكفاح الطبقة العاملة الاوروبية عدة انتصارات وهزائم ، ولكن لم يسبق ان خدع العمال وتخلي عنهم دون ادنى مقاومة كما حدث في المانيا . اما الحزب الشيوعي فقد حاول المقاومة ودعا الى اضراب عام ، غير ان الديمقراطيين الاشتراكيين لم يسندوه فلم ينجح الاضراب وبالرغم من القضاء على حركة العمال إلا انها – كما يظهر – تعمل في الخفاء في منظمات سرية ، فتنشر الجرائد السرية وتوزع مئات الالوف منها رغم شبكة الجاسوسية النازية . كما ان بعض زعماء الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذين استطاعوا الفرار الى خارج المانيا بدأوا يقومون بحملة دعاية بأساليب سرية .

كانت الطبقة العاملة هي اكثر الطبقات التي عانت من حملة الارهاب النازية . وقد اثار سوء معاملة اليهود الرأي العام العالمي . وقد اعتادت اوروبا على رؤية

اضطهاد طبقة لطبقة ، فعواطف الناس تتجه للطبقة التي هم منها، اما اضطهاداليهود فقد كان على اساس عنصري شبيه بما كان يحدث في القرون الوسطى او في البلاد المتأخرة مثل روسيا القيصرية . لقد ولّد هذا الاضطهاد هزّة عنيفة في اوروبا وامريكا . ومما زاد في عنف هذه الهزّة ان كان من جملة اليهود المضطهدين رجال اشتهروا في جميع انحاء العالم كعلماء وأطباء ومحامين وموسيقيين و كتّاب، وعلى رأس هؤلاء جميعاً ألبرت أنشتاين كانوا يعتبرون المانيا وطنهم ، وكذلك كان يعتبرهم غيرهم . وقد تسابق العالم الى الترحيب بهم إلا ان النازيين – في نزوة جنون – اخذوا يتصيدونهم مما أثار الرأي العام والأغرب من ذلك ان النازيين أعلنوا مقاطعة المحلات التجارية اليهودية ، وبنفس الوقت لم يسمحوا لهم بمغادرة المانيا وكانت النتيجة الوحيدة هي اجاعة اليهود . وقد أثر الرأي العام العالمي على النازيين وجعلهم يخففون من حدّتهم ، إلا ان سياستهم الاضطهادية بقيت كما كانت

ولما رأت اليهودية العالمية التي تنتشر في جميع انحاء العالم ذلك لم تسكت ، فأعلنت مقاطعتها للبضائع الالمانية سيّما وانها كانت تتمتع بنفوذ قوي في الدوائر المالية والاقتصادية . وقد قررت اليهودية العالمية في اجتماع عقدته في نيويورك في مايو ۱۹۳۳ « مقاطعة جميع البضائع والمواد والمنتجات التي تصنع او تنتج أو تُحسّن في المانيا ، وكذلك مقاطعة جميع وسائل المواصلات الالمانية ، ومصايف ومشاتي ومستشفيات ألمانيا، وبالاختصار الامتناع عن اي عمل من شأنه ان يساعد العهد الحاضر في المانيا » .

كان هذا القرار هو رد فعل للاعمال الهتلرية . ولم يقتصر الامر عليه ، وانما نتج رد فعل آخر لقد هاجم النازيون معاهدة فرسايل وطلبوا تعديلها وعلى الأخص فيما يتعلق بالحدود الشرقية حيث نصّت الاتفاقية على انشاء ممر دانزج لبولندا في الاراضي الالمانية كما كانوا يطالبون بالمساواة التامة في التسلّح . (لا بد أنك تذكرين أنهم مُنعوا من التسلح بموجب معاهدة الصلح) . وقد ساعدت خطابات هتلر النارية وتهديده باعادة تسليح المانيا على اخافة اوروبا وخصوصاً

فرنسا التي كانت اكثر ما تخشاه هو زيادة قوة المانيا . فأدى هـــذا الخوف الى تكتل دول أوروبا ، فبدأت فرنسا تتودد الى الاتحاد السوفييتي . كما أخذت البلاد التي استفادت من معاهدة فرسايل كبولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيـــا ورومانيا تتقرب من بعضها البعض وتتودد جميعها الى روسيا . ونشأت حالة غريبة في النمسا ، إذ ظهر فيها مستشار فاشستي اسمه دولفوس ، سيطر على الحكومة . ولكن فاشيته كانت تختلف عن فاشية هتلر ، فبدأ يقاوم العنـــاصر النازية في النمســا رغم قوتها . أما ايطاليا فقد رحبت بانتصار هتلر ولكنها لم تستسغ اطماعه. وفي انجلترا ، حيث كان الشعب يعطف على الالمان ، اصبح يتجـه ضدهم وبدأ يتحدث عنهم ويقارنهم « بالهون » . ولذلك انعزلت المانيـــا عن بقية دول اوروبا وكان من الواضح ان فرنسا المسلّحة تستطيـع القضاء على المانيا العزلاء من السلاح بسهولة . ولذلك غيّر هتلر اسلوبه وأخذ يتحدث عن السلام ، وخف موسوليني لانقاذه بأن اقترح انشاء حلف رباعي يضمّ كلًّا من فرنسا وانجلترا والمانيا وايطاليا .

وقد وقع هذا الحلف في يونيو ١٩٣٣ بعد تردد فرنسا قليلًا . ولم يكن في نص الحلف ما يؤذي ! وفي الواقع كان كل ما قاله هو انـــه يتحتم على الدول الاربع ان تتشاور في بعض المسائل الدولية وخصوصاً فيما يتعلق بتعديل معاهدة فرسايل . ويعتقد الكثيرون أن المقصود من عقد هذا الحلف هو انشاء جبهـــة موحدة ضد السوفييت . ويظهر ايضاً ان فرنسا وقعته بعـد تردد . وكان ردّ السوفييت عليه ان عقدوا حلف عدم اعتداء بينهم وبين جيرانهم في لندن في ١ يوليو ١٩٣٣ ومن الطريف ذكره ان فرنسا قد أبدت موافقتها وعطفها على الحلف السوفييتي .

كان برنامج هتلر الاساسي – وهو برنامج الرأسمالية الالمانية – ان يكون القوة الضخمة في اوروبا في وجه الاتحاد السوفييتي . فاذا أرادت المانيا ان تتوسع ، فانها تتوسع في شرقي أوروبا وعلى حساب الاتحاد السوفييتي . وحتى تستطيـع ذلك يجب ان تعيد تسليح نفسها ، ولذلك يتوجب تعديل معاهدة فرسايل على الاقل

بهذا الخصوص، حتى تتأكد من ان احداً لن يتدخل في شؤونها كان هتلر يعتمد على مناصرة ايطاليا ، فاعتقد انه اذا اقنع انجلترا بذلك فإنه يكون من السهل عزل فرنسا والحصول على موافقتها في أية مباحثات رباعية

وحتى يحصل هتلر على تأييد انجلترا ، صرّح علناً بأن من اكبر الكوارث ان تتخلى انجلترا عن استعمارها للهند وكان عـداؤه للسوفيت وحده يكفي لجذب الحكومة الانجليزية نحوه ، لان الاستعمار الانجليزي ـ كما قلت لك في السابق ـ لم يكن يكره احداً مثل كراهيته للاتحاد السوفييتي . ولكن الشعب الانجليزي قد افزعته حملات الارهاب النازية ، وكان في حاجة إلى بعض الوقت لهضم اي اقتراح يتضمن الموافقة على الهتلرية .

وهكذا اصبحت المانيا مركزاً للعاصفة في اوروبا ولتزيد من مصائب هـذا العالم . ما الذي سيحدث في المانيا نفسها ؟ وهل يعمّر النظام النازي فيها ؟ ان النازيين في المانيا مكروهون جداً ، ولكنهم مع ذلـك استطاعوا سحق كل مقاومة منظمة لهم ، فلم يبقوا على اي حزب او منظمة سوى حزبهم . ويظهر ان الحزب النازي نفسه كان ينقسم إلى جناحين : الجناح الأيمن ويتألف من العناصر الرأسمالية وارباب الاعمال الكبيرة ، والجناح الأيسر ويتألف من معظم اعضاء الحزب وقسم كبير من العمال الذين انضموا اليه . اما العناصر التي اضفت على الحزب صبغة ثورية انقلابية فهي تتألف من خصوم الرأسمالية ، وخصوصاً من الاشتراكيين والماركسيين الذين قبلوا في الحزب . ولم يكن يربط بين الجناح الأيمن والجناح الأيسر أي رباط، ويُعزى نجاح هتلر في استطاعته الابقاء على هذين الجناحين ، الى ضرب احدهما بالآخر . وكان هذا ممكناً ما دام الخطر المشترك ماثلاً ؛ فلما سحق العدو ولم تعد له اية مقاومة؛ كان لا بد من نشوء الصراع بينهما.

وقد بدأنا نسمع الهمسات منـذ الآن ، فالجناح الايسر يقول انه ما دامت الثورة الاولى قد نجحت واكتملت فيجب البدء « بالثورة الثانية » وهي القضاء على الرأسمالية والاقطاعية . ولكن هتلر هدّد بالقضاء على هذه « الثورة الثانية » دون شفقة او رحمة ؛ وهكذا انحاز الى صفوف الجناح الأيمن الرأسمالي . ولما

كان معظم مساعديه يشغلون مراكز هامة ، فإن احدا منهم لم يحبذ اجراء اي تغيير .

ان حديثي عن الهتلرية حديث طويل ، ولكنك لا بد توافقيني على ان انتصار النازية وما ترتب عليه من نتائج قد اثر في اوروبا والعالم تأثيراً بالغاً وسيكون له نتائج بعيدة المدى . ومما لا شك فيه ان النازية نوع من الفاشية وان هتلر كان يمثل الفاشية اصدق تمثيل. ولكن الحركة النازية كانت اوسع من الفاشية الايطالية بمعنى انها كانت تضم بعض العناصر المعتدلة اكثر من الفاشية الايطالية. ولا ندري فيما اذا كانت هذه العناصر المعتدلة سوف تستطيع التأثير على الحزب ام انها ستسحق مثل غيرها .

لقد أساءت الحركة النازية للنظرية الماركسية ، اذ ان الماركسيين يعتقدون ان الطبقة الثورية الحقيقية هي الطبقة العاملة ، وانه كلما ازدادت الاحوال الاقتصادية سوءاً ، كلما جمعت هذه الطبقة من حولها العناصر الموتورة والفقيرة من الطبقة الوسطى حتى تتضخم هذه القوة وتقوم الثورة . ولكن ما حدث في المانيا كان يختلف عن ذلك كثيراً . فالعمال كانوا ابعد ما يكون عن ان يكونوا ثوريّين عندما حلّت الازمة ، وتألفت طبقة ثورية جديدة من العناصر الغاضبة الموتورة والفقيرة من الطبقة الوسطى وهذا لا يتفق ابداً مع النظرية الماركسية. ولكن ماركسيين آخرين يقولون انه يجب ان لا ننظر الى الماركسية على انها نظرية جامدة أو دين أو عقيدة توضح بصورة نهائية الحقيقة الازلية كما تفعل الأديان . انها فلسفة للتاريخ ، وانها اسلوب لتفسير التاريخ وجعله شيئاً منطقياً متسلسلاً ؛ كما انها طريق للوصول إلى الاشتراكية او العدالة الاجتماعية . فمبادئها الاساسية يجب ان تطبق باشكال مختلفة اتماشي الاحوال المتغيرة للبلاد المختلفة في اوقات متغايرة .

ملاحظة (نوفمبر ١٩٣٨) :

منذ ان كتبت لك الرسالة الآنفة قبل خمس سنوات وربع ، لم يحدث في

العالم احداث توازي نمو قوة المانيا النازية وزيادة تأثيرها في ظل هتلر. فهتلر اليوم يسيطر على اوروبا ؛ والدول الكبرى او التي كانت كبرى تنحني له اليوم وترتعد فرائصها لتهديداته . كانت المانيا قبل عشرين سنة مهزومة ذليلة ، اما اليوم فقد خلق منها هتلر – دون ان يكلفها ذلك اي انتصار عسكري او اية حرب – دولة منتصرة قوية ، وماتت معاهدة فرسايل ودفنت .

كان اهم ما يشغل بال هتلر عندما تسلم الحكم ان يسحق خصومه في المانيا وان يقوي الحزب النازي . فبعد ان اضفى على المانيا الصبغة النازية قرر القضاء على النزعات اليسارية داخل صفوف الحزب النازي التي كانت تأمل في اقامة « ثورة ثانية » للقضاء على الرأسمالية . فحلّ منظمة القمصان البنيّة وقتل زعماءها في ٣٠ يونيو ١٩٣٤ ، كما قتل كثيرين آخرين ومن جملتهم الجنرال شليشر الذي كان في يوم من الايام مستشاراً .

مات الرئيس هندنبرج في اغسطس ١٩٣٤ وتسلم هتلر مركزه جامعاً بذلك بين الرئاسة والمستشارية . واصبحت الآن جميع القوة مركزة بين يديه، واصبح يدعى بالفوهرر او قائد الشعب الالماني . انتشر الشقاء بين السكان واصبحت الصدقات تجمع بالقوة وعلى نطاق واسع في محاولة لتخفيف هذا الشقاء. كما انشئت معسكرات للعمل الاجباري وارسل اليها العمال العاطلون . وحلّ الالمان محل كثيرين من اليهود الذين اجبروا على اعمالهم . غير ان الحالة الاقتصادية في المانيا لم تتحسن ، بل بالعكس زادت سوءاً ؛ ولكن البطالة اختفت ، وفي هذه الاثناء بدأت المانيا تتسلح سرياً مما أثار مخاوف الدول الاخرى .

وفي سنة ١٩٣٥ جرى استفتاء في حوض السّار، فاختار الاهالي بالاجماع الانضمام إلى المانيا، وفي مايو من تلك السنة اعلن هتلر بصورة علنية الغاء الفقرات الخاصة بعدم التسلح في معاهدة فرسايل كما أعلن الخدمة العسكرية الاجبارية. ثم اخذ ينفذ اكبر مشروع للتسلح . لم تفعل عصبة الامم اي شيء تجاه هذه الاعمال، فقد كان الخوف يسيطر على اعضائها وخصوصاً فرنسا. ولذلك فقد تفاوضت مع الاتحاد السوفييتي لعقد تحالف بينهما . اما الحكومة البريطانية ففضلت ان تنحاز

الى المانيا النازية فوقعت معها معاهدة بحرية في يونيو ١٩٣٥ .

وقد كان لهذا نتائج غريبة : اذ لما شعرت فرنسا بأن انجلترا بدأت تتخلى عنها اخذت تتقرب من ايطاليا ، فظن موسوليني ان الفرصة قد واتته فبدأ هجومه على الحبشة .

وفي مارس ١٩٣٨ زحف هتلر على النمسا واعلن اتحادها مع المانيا . وفي هذه المرة ايضاً لم تنبس عصبة الامم ببنت شفة . وبدأ النازيون في النمسا في شن حملة ارهابية عنيفة .

عندئذ اصبحت تشيكوسلوفاكيا الهدف الثاني للاعتداء النازي المرتقب ، واستمرت مشكلة الالمان السوديت تشغل بال اوروبا عدة اشهر . وقد ساعدت السياسة الانجليزية النازيين كثيراً ، ولم تجرؤ فرنسا ان تعارض هذه السياسة . وفي النهاية عندما شعرت فرنسا بخطر الحرب قادماً من المانيا اذا هي استمرت في محالفتها مع تشيكوسلوفاكيا ، تخلت عنها كما تخلت عنها ايضاً انجلترا . وعلى هذا تقرر مصير تشيكوسلوفاكيا في ميونيخ في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ بين كل من المانيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا . فانضمت منطقة السوديت الى المانيا ، كما انتهزت كل من بولندا والمجر هذه الفرصة واقتطعت كل واحدة منهما قسماً من تشيكوسلوفاكيا .

وهكذا بدأ تقسيم اوروبا من جديد ، واصبحت كل من انجلترا وفرنسا اللتين كانتا من الدول الكبرى من الدرجة الثانية ، وقفزت المانيا النازية في ظل هتلر الى المقدمة .

محاولة الرئيس روزفلت انقاذ الموقف

٤ اغسطس ١٩٣٣

●

اريدك ان نلقي نظرة اخرى على الولايات المتحدة الامريكية قبل ان انهي هذه القصة (وانهاؤها لا يمكن ان يتأخر كثيراً) . ففي تلك البلاد تجري الآن تجربة مدهشة يرقبها العالم باهتمام ، لأن مصير الرأسمالية نفسه يتوقف على نتائجها . وامريكا هي اكثر الدول تقدماً وغنىً وأسبقها في المعارف الصناعية انها غير مدينة لأحد سوى مواطنيها ، كما ان صادراتها في نمو مطرد . ومع ذلك فهي قليلة نسبياً اذ تبلغ فقط ١٥٪ من تجارتها الداخلية . وتبلغ مساحتها مساحة اوربا تقريباً ، ولكن فرقاً كبيراً يميزها عن اوربا ؛ فأوربا مقسمة الى بلاد مختلفة كل منها لها حدودها وجماركها ، بينما الولايات المتحدة دولة واحدة ليس فيهـا من الحواجز التجارية اي شيء . ولذلك كان من السهل جداً ان تتطور التجـارة الداخلية فيهـا وتنمو اكثر من تطورها ونموها في اوربا . وهكذا نرى الميزات التي تتمتع بها امريكا والتي لا توجد في اوربا المثقلة بالديون ؛ يضاف الى ذلك مـا لديها من كميات هائلة من الذهب والنقود والبضائع

ومع كل هذا ، فقد اجتاحتها ازمة الرأسمالية وامسكت بخناقها واصبح الناس الذين كانوا يمتلئون نشاطاً وحيوية يؤمنون بالقضاء والقدر . ويجب ان لا يتبادر الى الذهن ان البـلاد اصبحت فقيرة . لا ؛ انها بقيت غنية ، غير ان الثروة تجمعت في اماكن قليـلة مئات الملايين ما زالت بادية للعيان في

نيويورك ، وما زال المالي الكبير ج . بيربونت مورجان يواصل نزهاته في يخته الفخم الذي قيل انه كلف ستة ملايين جنيه ومع ذلك فقد وُصفت نيويورك منذ مدة قريبة بأنها « مدينة الجوع » . اما بلديات المدن الاخرى مثل شيكاغو فقد افلست تقريباً ولم تستطع ان تدفع رواتب الالوف من موظفيها ومع ذلك فنفس شيكاغو هذه اقامت هذه السنة معرضاً دولياً فخماً سمته بـ « قرن التقدم » .

وليست هذه المفارقات مقتصرة على امريكا وحدها ففي لندن مثلاً تفيض الثروات وينتشر البذخ بين الطبقات البريطانية الغنية في كل مكان إلا في اكواخ الفقراء . فاذا قدر لك ان تزوري لانكشير أو شمالي أو أواسط انجلترا او اجزاء من ويلز أو اسكتلندا ، فانك ستشاهدين صفوفاً طويلة من العاطلين عن العمل ووجوهاً اضنكها الشقاء ، واحوالاً معيشية تعيسة .

ومن نتائج الأزمة الحاضرة في امريكا ، انتشار الجرائم وخصوصاً بواسطة «العصابات» أي التي يعمل فيها المجرمون متساندين ويقتلون كل من يقف في طريقهم ، وقيل ان الجرائم قد زادت منذ ان سنّ قانون منع بيع الخمور . وقانون «المنع» هذا سن بعد الحرب العالمية لعدة اسباب من جملتها رغبة اصحاب المصانع الكبيرة في ابعاد عمالهم عن الخمور حتى يعملوا بكفاءة اكثر . ولكن الاغنياء انفسهم تجاهلوا القانون واستمروا في الحصول على الخمور من الخارج بطرق غير مشروعة ، وبالتدريج نمت هذه التجارة ، وهي عبارة عن تهريب الخمور والمشروبات الروحية من الخارج وصنعها سراً في الداخل . وما يصنع سراً يكون في العادة ارداً بكثير من المستورد ويضر بالصحة اكثر وكانت الأمكنة التي تباع فيها الخمور تسمّى « تكلم بهدوء » وانتشرت آلاف منهـــا في كل المدن الكبيرة حيث يستطيع الواحد ان يشتري ما يريد بأسعار مرتفعة وبالطبع كان هذا يجري بصورة غير مشروعة ولكي يتمكن اصحاب هذه المحلات من الاستمرار في اعمالهم ، كانوا يرشون رجال البوليس والسياسيين ، وان لم تنفع الرشوات لتنفيذ مآربهم لجأوا الى التهديد . فولدت هذه الاستهانة بالقوانين « العصابات » وهكذا نرى ان « المنع » قد أفاد العمال والفلاحين من ناحية ، واحدث اضراراً كبيرة مثل

انتشار التجارة المحرمة من ناحية اخرى . وانقسمت البلاد الى حزبين : الحزب الأول الذي ينادي بمنع الخمور وسمّوا «بالناشفين» ، والحزب الثاني الذي ينادي بالسماح بها وسمّوا «بالمبلولين».

ومن افظع الأعمال التي كانت ترتكبها هذه العصابات هي خطف اطفال العائلات الغنية والاحتفاظ بهم كرهائن . ومنذ مدة قصيرة خطف ابن لندبرج، ووجد مقتولاً بشكل فظيع أثار مشاعر العالم كله .

وفوق كل هذه الاشياء تأتي الأزمة الاقتصادية ، وما عرف عن الموظفين الكبار ورجال الأعمال من فساد وتقصير مما اقضّ مضاجع الشعب الامريكي . ولذلك صوّت الكثير منهم لروزفلت في انتخابات نوفمبر ١٩٣٢ على امل ان يستطيع تخفيف آلامهم . وكان روزفلت من «المبلولين» ومن اقطاب الحزب الديمقراطي الذي لم يفز برئاسة الجمهورية إلا مرات قليلة جداً .

وقد يكون من الطريف ان نقارن بين بلدين مختلفين ، حاسبين حساب المميزات الخاصة التي يتمتع بها كل منهما. ولذلك تجدينني اميل الى مقارنة الاحداث الجديدة في الولايات المتحدة مع تلك التي حدثت في المانيا وانجلترا . وقد تكون المقارنة مع المانيا اقرب ، لأن كلا البلدين يحويان نسبة كبيرة من الفلاحين برغم تقدمها الصناعي . فالفلاحون في المانيا يؤلفون ٢٥ ./. من مجموع السكان ، وفي الولايات المتحدة ٤٠ ٪ . وللفلاحين اهميتهم في رسم سياسة الدولة ، ولكن ذلك لا ينطبق على انجلترا حيث نسبة الفلاحين قليلة ، والفلاحون انفسهم مهملون مع العلم ان بعض الجهود تبذل الآن لتحسين احوالهم .

من الأسباب التي قامت عليها الحركة النازية في المانيا ، هو ازدياد عدد افراد الطبقة المتوسطة الفقيرة ، واطّراد الازدياد بسرعة بعد التضخم المالي فيها. وكانت هذه الطبقة هي التي تحولت الى ثورة في المانيا . وهذه هي الطبقة نفسها الآخذة في النمو في امريكا ؛ وتدعى «البروليتاريا ذات الياقات البيضاء» لتميزها عن البروليتاريا العمال الذين قلما يلبسون الياقات البيضاء .

وهنالك أوجه اخرى للمقارنة مثل ازمات العملات وانفصال المارك والجنيه

والدولار عن قاعدة الذهب والتضخم المالي وافلاس البنوك . لم تفلس البنوك في انجلترا لأنه لا يوجد فيها بنوك صغيرة ، وانما تسيطر بعض البنوك الكبيرة على اعمال البنوك كلها اما فيما عدا ذلك فإن الاحداث في كل من البلاد الثلاثة تتشابه ، اذ اجتاحت الأزمة المانيا اولاً ثم انجلترا ثم الولايات المتحدة . وكانت نفس الطبقة تقريباً في كل هذه البلدان هي التي تسند الحكومة النازية في المانيا والحكومة القومية في انتخابات ١٩٣١ فيبريطانيا والرئيس روزفلت فيانتخابات نوفمبر ١٩٣٢ في امريكا . هذه الطبقة هي المتوسطة الفقيرة التي كان كثير من افرادها اعضاء في احزاب مختلفة ويجب ان لا نتمادى كثيراً في هذه المقارنة،لا بسبب الاختلافات القومية ، ولكن لأن الاوضاع لم تتطور في انجلترا وامريكا كما تطورت في المانيا . غير ان المهم هو ان مؤثرات اقتصادية متشابهة كانت تعمل في هذه البلاد المتقدمة صناعياً ، ولذلك لا بد من ان تكون النتائج متشابهة . وهذا لا ينطبق على فرنسا او غيرها من البلدان الى نفس الحدود ، لان فرنسا ما زالت زراعية ، وصناعتها أقل تقدماً

حالما تسلم روزفلت مهام منصبه في اوائل ١٩٣٣ ، واجهته ازمة مالية كبيرة بالاضافة الى الكساد العظيم السائد في ذلك الوقت . وقد وصف حالة البلاد بعد تسلمه منصبه ببضعة اسابيع بقوله : ان البلاد تموت بالتدريج .

وبدأ روزفلت باتخاذ اجراءات سريعة وحاسمة ، فطلب من الكونغرس صلاحيات واسعة ليستعملها مع البنوك واصحاب المصانع والمزارع ، وقد وافق الكونغرس على اعطائه هذه الصلاحيات بعد ان اقضّت مضجعه هذه الأزمة ، ورأى مقدار التأييد الذي لقيه روزفلت في الاوساط الشعبية . وبذلك اصبح روزفلت مثل دكتاتور ، واشرأبت اعناق الناس نحوه تريد منه عملاً سريعاً ينقذهم من كارثة محققة ، وفعلاً اثبت حسن ظنهم به فعمل بسرعة خارقة واستطاع ان يهزّ الولايات المتحدة كلها خلال اسابيع قليلة عن طريق مختلف انواع النشاط التي قام بها . ومن جملة القرارات التي اتخذها روزفلت ما يلي :

١ – التخلي عن قاعدة الذهب ، فهبطت قيمة الدولار ، وبذلك خفّت اعباء

المدينين ، ويسمّى هذا تضخماً ماليا .

٢ ـ اعطاء الفلاحين مساعدات مالية ، وعقد قرض قيمته الف مليون دولار لهذا القرض .

٣ ـ خلق اعمال جديدة من زراعة اشجار الغابات الى مكافحة الفيضانات ، فاشتغل ٢٥٠،٠٠٠ عامل مما خفف حدة البطالة .

٤ ـ طلب الرئيس روزفلت ٨٠٠ مليون دولار من الكونغرس لمساعدة العمال العاطلين ، ووافق الكونغرس على طلبه .

٥ ـ تخصيص مبلغ ثلاثة آلاف مليون دولار للاشغال العامة لتشغيل العمال .

٦ ـ المسارعة بالغاء « المنع » منع استيراد او صناعة الخمور .

كانت كل هذه المبالغ الضخمة ستقترض من الاغنياء الكبار ، اذ ان سياسة روزفلت كانت تقوم على زيادة قوة الشعب الشرائية ، لأنه اذا توفر المال لدى الشعب استطاع ان يشتري البضائع وبذلك يقل الكساد التجاري . ولهذا السبب قام بالمشاريع الانشائية الكبيرة حتى يشغّل العمال فيكسبون المال . ولهذا السبب ايضاً حاول رفع اجور العمال وتخفيض ساعات العمل ، لأن هذا التخفيض يعني ايجاد اشغال لعمال جدد .

كانت هذه السياسة تتعارض تماماً مع سياسة اصحاب الاعمال في اوقات الازمات والكساد ؛ لأن هؤلاء يحاولون تخفيض اجور العمال وزيادة ساعات العمل ليقللوا تكاليف البضائع . ولكن روزفلت كان مع الرأي الذي يقول اذا اردنا استئناف انتاج البضائع بالجملة فيجب ان تعطى الجماهير القدرة على شراء هذه البضائع وذلك بأن نوزع عليهم اجوراً عالية .

ثم اعطت حكومة روزفلت قرضاً للاتحاد السوفييتي ليشتري به قطناً امريكياً ، وتبحث الحكومتان الآن امكانيات التوسع في التبادل التجاري بينهما .

كانت امريكا حتى هذا الوقت دولة رأسمالية ذات نظام تنافسي غير محدود ، فجاءت سياسة روزفلت تتعارض مع هذا النظام لأنها تتدخل في مختلف الأعمال بشتى الطرق . وهذا يعني انه يحاول ان تشرف الدولة الى حدٍ كبير على الصناعة

ولو انه لا يصرح بذلك علناً وهـــذه السياسة بالحقيقة نوع من اشتراكية الدولة التي بموجبها تحدد ساعات وشروط العمل ، وتراقب الصناعة وتمنع المنافسة الحادة الشديدة. وقد وصف هذه السياسة بأنها « شراكة في التخطيط، والتأكد من تنفيذ هذا التخطيط » .

يسير العمل بهذه السياسة الآن بما عرف عن الامريكيين من حيوية ونشاط. وقد ألغي تشغيل الاطفال (وهذا القانون لا يسمح لأي طفل دون السادسة عشرة بالعمل) والشعار اليوم هو : أجور اعلى وساعات عمل اقل . واطلق على هـذه الحملة شعار « في سبيل الرخاء »، ويقال ان البلاد بأمرها قد تحولت الى اعلان ضخم لانجاح هذه الحملة. فالطائرات ترمي النشرات تحث اصحاب الاعمال على رفع اجور العمال ووضع انظمة خاصة لذلك يتعهدون ان يرتبطوا بها . واذا لم تنفع هـذه الأساليب في اقناع اصحاب الاعمال ، هددت الحكومة تهديداً لطيفاً انها هي التي ستقوم بذلك. وطلب من اصحاب الاعمال ان يوقعوا على تعهدات بموجبهـــا يتعهدون برفع الاجور وتخفيض ساعات العمل لموظفيهم ، واخذت الحكومـة تكافىء اصحاب الاعمال الذين يسبقون غيرهم في هذا المضمار باعطائهم شارات شرف ونشر اسمائهم في مكاتب البريد في كل بلد. اما المتخلفون فليس لهم إلا الفضيحة

انتج كل هذا بعض التحسن في الاسعار والتجارة ، ولكن التحسن الحقيقي كان في نفسية العمال واصحاب العمل ، فقد زال عنهم شعور الهزيمـة ، وزادت ثقتهم ، وعلى الاخص الطبقة الوسطى ، بالرئيس روزفلت. واصبح الناس يقرنون اسمه بالرئيس لنكولن بطل امريكا العظيم ، الذي تسلم مهام منصبه ايضاً إبان أزمة كبيرة الا وهي الحرب الاهلية .

واخذ الناس في اوربا ايضاً ينظرون اليه ويتوقعون منه ان يتولى زعامة العالم لمحاربة الكساد التجاري . وعُقد مؤتمر اقتصادي دولي لبحث هذه المسائل ، غير انه نبه ممثلي امريكا ان يرفضوا اعادة الدولار إلى قاعدة الذهب وان يرفضوا اي اجراء قد يتعارض مع مشاريعه في الولايات المتحدة . وقد اكسبه هـــذا الموقف غضب مندوبي بقية الدول .

وسياسة روزفلت هي بالتأكيد سياسة اقتصادية وطنية ، وهي عبارة عـــن تحسين الاحوال في امريكا. ولم ترضَ عن هذه السياسة بعض الحكومات الاوربية واصحاب البنوك فيها ، وكانت انجلترا بصورة خاصة لا توافـق ابداً على سياسة روزفلت التقدمية ، لأنها كانت تفضل انعاش اصحاب الاعمال الكبيرة على اي شيء آخر

ومع ذلك فان روزفلت يساهم الآن مساهمة فعالة في الشؤون الدولية اكثر من سلفه. وقد وقف موقفاً تقدمياً اكثر من انجلترا في مسألة نزع التسلح وبعض المسائل الدولية الاخرى . وكان لتحذيره المؤدب لهتلر اثر كبير في تخفيف لهجة الأخير ؛ كما انه ايضاً بدأ بإنشاء علاقات ودية مع الاتحاد السوفييتي .

اما السؤال الهام اليوم في امريكا حتى في كل مكان فهو : هل ينجح روزفلت؟ انه يعمل بشجاعة وجرأة للابقاء على النظام الرأسمالي ، ولكن نجـــاحه يعني في الواقع اسقاط اصحاب الاعمال الكبيرة عن عروشهم . فهـــل يسمح له هؤلاء بالنجاح ؟ انهم يملكون اقوى المصالح في العـــالم المتحضر ، ولن يسلموا قوتهم وامتيازاتهم بمجرد ان يأمرهم الرئيس روزفلت بذلك . وهم يبدون اليوم هادئين، لأن الرأي العام وشعبية الرئيس قد اغرقا كل شيء . ولكنهم يتربصون للفرصة المناسبة ، فاذا لم تتحسن الاحوال كثيراً خلال اشهر قليلة ، فانه من المتوقع ان يتحول الرأي العام ضد روزفلت، وعندها تطل رؤوس اصحاب الاعمال الكبيرة لترفع عقيرتها بالشغب

ويعتقد كثير من المراقبين ان الرئيس روزفلت يواجـه اعمالاً صعبة للغاية ، وانه من المستحيل ان ينجح. واذا فشل فان اصحاب الاعمال الكبيرة سيستعيدون قوتهم بل سيكونون اقوى مما كانوا ، لأنهم سيستعملون جهاز الدولة الاشتراكي الذي انشأه روزفلت في سبيل كسب ارباح خاصـة لهم ، ثم يقضون على الحركة العمالية في امريكا ، سيما وانها ليست قوية .

ملاحظة:

ان الجهود العظيمة التي بذلها الرئيس روزفلت للتغلب على الازمة وتكييف

الرأسمالية لتناسب الاحوال الجديدة قد لاقت نجاحاً جزئياً ، ولو انها لم تحدث تغييرات اساسية . ومع ذلك فقد تحسن الوضع بعض الشيء وكانت هـــذه الجهود تعتمد على مشاريع ضخمة للمساعـــدة بنقل قسم من الارباح التي يجنيها اصحاب المصانع الى العمال باقناعهم اعطـاء العمال اجوراً اعلى وتشغيلهم ساعات أقل . وقد قاوم اصحاب المصانع ، وخصوصا فورد ، هذه السياسة واعتبروها تدخلاً في شؤونهم وانتقاصاًمن حريتهم . وكذلك لم تنجح الانظمة الجديدة التي شرعت لإنعاش الصناعة والزراعـة ، فحدثت اضرابات كثيرة . ولكن الحركة العمالية الامريكية قدمت وزادت قوتها ووعت اوضاعها واجتاحتها روح جديدة ، وارتفع عدد اعضاء نقاباتها

وبينما كان الانتعاش الاقتصادي في نمو مستمر ، كان اصحاب الاعمال الكبيرة يزيدون في شراستهم ومقاومتهم لروزفلت. وقد قررت المحكمة العليا بأن معظم نصوص القانونين اللذين سنهما روزفلت واحدهما «قانون الانتعاش الوطني» وثانيهما «قانون التعديل الزراعي» تعارض الدستور وغير قانونية . وهكذا نرى ان سياسة روزفلت الجديدة قد قوّضت من اساسها .

وقد اعيد انتخاب روزفلت رئيساً مرة ثانية في سنة ١٩٣٦ بأغلبية كبيرة وما زال عراكه مع اصحاب الاعمـــال الكبيرة مستمراً ، ولم يعد يسيطر على الكونغرس . والواقع انه لقي معارضة منه في كثير من القضايا.

نظرة اخيرة حول العالم

٧ اغسطس ١٩٣٣

●

اذا اردت الاستمرار في كتابة هذه الرسائل عن احوال العالم ، فلن انتهي منها ما دام عندي قرطاس وقلم ، لأن حوادث العالم لاتنتهي ، والعالم نفسه يسير الى الأمام ، وفيه الرجال والنساء والاطفال يضحكون ويبكون ، ويحبون ويكرهون ويتقاتلون بصورة دائمة . انها قصة لا نهاية لها . وتبدو الحياة في ايامنا هذه كأنها تسير بأسرع مما كانت في الماضي ، وتتوالى التغييرات يأخذ بعضها برقاب بعض . ولذلك ، فان ما اكتبه اليوم قد يصبح قديما وبعيداً ولا محل له في الغد. ان نهر الحياة لا يهدأ ، انه يجري باستمرار ، وفي بعض الاحيان يتدفق بسرعة لا ترحم وبقوة هائلة ، متجاهلاً رغباتنا ، ومقهقهاً في وجهنا ، رامياً ايانا كقشات صغيرة في مياهه الزاخرة المضطربة ، السائرة الى الامام ، ولكن الى اين – الى هاوية سحيقة تنثر مياهه في كل اتجاه ، او الى بحر واسع غامض ، يتغير ويتبدل بصورة مستمرة . اما هو فباق في مكانه لا يحول .

لقد كتبت لك عن اشياء اكثر مما كنت أنوي ان اكتب اذ انّ قلمي لم يطاوعني واستمر في طريقه على الورق . انتهينا من جولاتنا حول العالم ووصلنا اليوم الى عتبة الغد ، ونحن الآن نتساءل كيف يكون هذا الغد عندما يصبح بدوره اليوم . دعينا نتوقف قليلاً وننظر حول العالم ، انرى ما وضعه الآن في اليوم السابع من شهر اغسطس من سنة الف وتسعماية وثلاث وثلاثين.

في الهند القي القبض مرة ثانية على غاندي وزجّ في به سجن يرقادا . واستؤنف العصيان المدني ولو على نطاق ضيّق، وسيق زملاؤنا الى السجون. ولي زميل عزيز شجاع اسمه جاتندرا موهان سنْ جوبتا ، اول ما التقيت به في كمبردج منذ ربع قرن ، وقد تركنا بعد ان توفي في سجون الحكومة البريطانية. ان الحياة تتساوى مع الموت ، ولكن الأعمال العظيمة التي يقوم بها شعب الهند لجعل حياته ذات قيمة كبيرة ، مستمرة في طريقها. يرقد الآن في السجون والمعتقلات آلاف عديدة من ابناء وبنات الهند ، المتوقدين حماساً ووطنية، مضحين بشبابهم وحيويتهم في صراعهم ضد النظام الحاضر الذي يستعبد الهند . وكان يمكن ان يقضي هذا الشباب وتُصرف هـــذه الحيوية في الأعمال البنائية ، فهنالك اشياء كثيرة يجب عملها في هذا العالم . ولكن قبل ان يبدأ البناء يجب ان يسبقه هدم حتى يسوّي الأرض ليقف عليها البناء الجديد . فاننا لن نستطيع ان نبني بناية جميلة فوق جدران كوخ طينية . ويمكننا ان نتصور ما هي حالة الهند هذه الأيام اذا عرفنا انه في بعض اقسامها مثل البنغال ، تخضع طريقة لباس الناس لأنظمة الحكومة ، وكل من يخالفها يزج به في السجن. وفي شتاجونج يجب على الاولاد (وحتى البنات ايضاً) البالغ عمرهم اثنتي عشرة سنة او اكثر ان يحملوا بطاقات هوية اينما ذهبوا . ولا أدري ان كان هذا النظام العجيب قد طبق في اي مكان آخر ، في المانيا النازية، او في مناطق الحرب حيث يحتل البلاد جنود الاعداء انـنـا اليوم أمة خاضعة للحكم البريطاني ، وعبر حدودنا الشمالية الغربيـة يقع جيراننا تحت وطأة الغارات الجوية التي تقوم بها الطائرات البريطانية .

اما الهنود في البلاد الاخرى فقلما يحترمون او يرحب بهم. وليس هذا غريباً اذ كيف يحترمون في الخارج ، في الوقت الذي لا يحترمون به في بلادهم؟ انهم يطردون الآن من جنوبي افريقيا حيث ولدوا وعاشوا ، وحيث عمروا وبنوا بعرق جباههم بعض اجزاء البلاد مثل ناتال . ان التفريق بينهم وبين الآخرين بسبب اللون ، يضاف اليه الكراهية العنصرية والصراع الاقتصادي قد اجتمعت جميعها لتجعل من هؤلاء الهنود في جنوبي افريقيا منبوذين لا بيت لهم ولا مأوى.

وتصر حكومة اتحاد جنوبي افريقيا على ان هؤلاء يجب ان يرحلوا إلى اي مكان آخر ، مثل غينيا البريطانية أو الهند ، وهذا يعني موتهم جوعاً بالتأكيد ؛ ولا يهم هذه الحكومة إلا ان يرحلوا لا أكثر ولا اقل .

وفي شرقي افريقيا لعب الهنود دوراً عظيماً في بناء كينيا وما يحيط بها من اقطار ، ولكنهم لم يعودوا مرغوباً فيهم هناك ، لا لأن الافريقيين يعارضون في بقائهم ، بل لأن حفنة من الاوربيين لا يريدونهم . وقد استولى هؤلاء على احسن المناطق ومنعوا الافريقيين والهنود من امتلاك اية اراض فيها أما حالة الافريقيين فتعيسة للغاية ، فهم الذين كانوا في الاصل يملكون هذه الاراضي ومنها يستمدون دخلهم . وقد صادرت الحكومة مساحات شاسعة واقطعتها مجاناً للمستعمرين الاوربيين ، فاصبح هؤلاء اقطاعيين كباراً ، لا يطلب منهم دفع ضريبة دخل او اية ضرائب اخرى . ولكن عبء هذه الضرائب يقع بكل ثقله على الافريقيين المساكين . ولم يكن من السهل ابداً فرض ضرائب على الافريقي لأنه لم يكن يملك اي شيء ، ولذلك فرضت الحكومة ضرائب غير مباشرة على الحاجيات الضرورية التي لا يستغني عنها مثل الطحين والملابس ، فاذا اشترى هذه الاشياء دفع الضريبة كقسم من ثمنها ولكن اغرب ضريبة فرضت عليه هي ضريبة الرؤوس على كل ذكر تجاوز عمره ست عشرة سنة وعلى جميع افراد عائلته بما فيهم النساء . وانت تعرفين ان المبدأ الاساسي في فرض الضرائب على الناس يستند إلى ما يكسبون او ما يملكون ، ولما لم يكن الافريقي يكسب او يملك اي شيء ، فقد فرضت الضريبة على جسده ! ولكن كيف يتمكن من دفع هذه الضريبة وقدرها اثنا عشر شلناً عن كل شخص في كل سنة في الوقت الذي لا يملك فيه اي مال ؟ هنا تكمن قذارة القانون وتحايله ، فهو يجبر الافريقي ان يكسب بعض المال بأن يعمل في مزارع الاوربيين ، وهي طريقة لا لكسب النقود فقط ، وانما لاستخدام العمال بأجور منخفضة . وهكذا كان يضطر هؤلاء الافريقيون التعساء ان يسيروا مسافات طويلة قد تبلغ ٧٠٠ أو ٨٠٠ ميل من داخل مناطقهم إلى الساحل حيث توجد هذه المزارع (لا توجد سكك حديدية

في الداخل البتة ، ولكنها توجد لمسافات قصيرة قرب الساحل) ، وليكسبوا مالاً يدفعونه ضرائب عن اشخاصهم وعائلاتهم .

هنالك اشياء اخرى كثيرة يمكن التحدث بها عن هؤلاء الافريقيين المستَغلّين الفقراء الذين لا يعرفون حتى كيف يُسمعون اصواتهم للعالم الخارجي . ان قصة شقائهم لطويلة ، وهم يقضون كل حياتهم بتعاسة وصمت . انهم طردوا من احسن اراضيهم ، ويعودون الآن ليعملوا فيها كأجراء عند الاوروبيين الذين اخذوا الارض منهم بالمجان . ويؤلف هؤلاء الاوروبيون طبقة شبه اقطاعية ،فيخمدون كل حركة لا يريدونها . ولا يحق للافريقيين ان يؤلفوا اية جمعية حتى ولو كانت اغراضها اصلاحية ، كما لا يحق لهم ان يجمعوا فيما بينهم اية نقود وبلغ السخف بالاوربيين أنهم سنوا قانوناً منعوا فيه الافريقيين من الرقص لان هؤلاء يقلدونهم بهزء وسخرية في بعض الاحيان ! والفلاحون فقراء جداً ولا يحق لهم زراعة البن او الشاي لأنهم بذلك ينافسون المزارعين الاوروبيين

اعلنت الحكومة البريطانية بشكل رسمي قبل ثلاث سنوات ان الانجليز اوصياء على الافريقيين وانهم لن يسلبوهم اراضيهم في المستقبل . ولكن لسوء حظ الافريقيين اكتشف الذهب في كينيا في السنة الماضية ، فنسي الانجليز وعدهم ، واسرعوا بالاستيلاء على الاراضي التي اكتشف فيها الذهب وطردوا اصحابها الافريقيين منها ، وبدأوا ينقبون عن الذهب وهكذا ترين ما هي الوعود الانجليزية ! انهم يقولون لنا ان كل ما عملوه هو لمصلحة الافريقيين، وان هؤلاء سعداء جداً بضياع اراضيهم !!

ان هذا الاسلوب الرأسمالي في استغلال منطقة غنية بالذهب لأسلوب عجيب . فبموجبه يهرع الناس من كل مكان نحو تلك المنطقة ويبدأ كل منهم في التنقيب ، فإذا عثر على شيء كان من نصيبه . هذا الاسلوب هو نموذج للرأسمالية ، لان الطريقة المعقولة لاستغلال حقل الذهب هو ان تكون بواسطة الحكومة التي يجب ان تسيطر عليه وتستغله لمنفعة الشعب بأسره . وهذا نفسه هو ما يعمله الاتحاد السوفييتي الآن في حقول الذهب في تاجكستان وغيرها من الاماكن .

لقد تحدثت الآن عن كينيا في ختام هذه الرسائل، لأننا اهملنا افريقيا كثيراً . .
تذكري انها قارة واسعة ملأى بالاجناس الافريقية التي كان الاجانب منذ مئات السنين وما زالوا يستغلونها بأقسى وافظع ما يكون عليه الاستغلال . ان الافريقيين شعوب متأخرة جداً ، ولكنها بقيت تحت السيطرة مدة طويلة ولم تتح لها الفرصة للتقدم . وعندما تتاح لهم هذه الفرصة ، كما حدث منذ مدة قريبة عندما انشئت جامعة على الساحل الغربي ، فانهم يظهرون تقدماً ملحوظاً .

حدثتك ما فيه الكفاية عن اقطار غربي آسيا ، ففي مصر يستمر نضالها من اجل الحرية في مختلف الاشكال والمراحل . وكذلك الامر في جنوب شرقي اسيا ، في الهند واندونيسيا وسيام والهند الصينية وجاوه وسومطره وجزر الهند الشرقية والفيليبين . وفيما عدا سيام المستقلة ، يسير الكفاح في طريقين : الاول كفاح الوطن كله ضد السيطرة الاجنبية . والثاني كفاح الطبقات الفقيرة في سبيل المساواة الاجتماعية او على الاقل تحسين احوالها الاقتصادية .

وترقد الصين في شرقي اسيا الاقصى لا حول لها ولا قوة امام المعتدين ، وتتنازعها في الداخل مختلف انواع الاتجاهات ، فاتجاه يسير نحو الشيوعية والآخر ضدها ، وفي هذه الاثناء تواصل اليابان زحفها الى الامام ، دون اية مقاومة تقريباً ، وتسيطر على مساحات واسعة من الاراضي الصينية . ولكن الصين سبق لها ان تغلبت على غزوات واخطار كثيرة طوال تاريخها ، ولا شك ابداً في انها ستتغلب هذه المرة ايضاً على الغزو الياباني .

اما اليابان المستعمِرة ، شبه الاقطاعية التي يحكمها العسكريون ، والمتقدمة صناعياً ، فهي مزيج عجيب من الماضي والحاضر ، وتحلم دائماً بانشاء امبراطورية عالمية . ولكن هذه الاحلام تخفي وراءها خطر انهيار اقتصادي وشقاء مريع لسكانها المتزايدين باستمرار والذين لا يستطيعون الهجرة لامريكا او للمساحات الشاسعة غير المأهولة في اوستراليا . وكذلك فان عداء الولايات المتحدة لها وهي اقوى دولة ، يشكل اكبر عقبة في سبيل تحقيق احلامها ؛ يضاف الى ذلك ان الاتحاد السوفييتي يقف حجر عثرة في سبيل توسعها في اسيا وقد بدأ المراقبون في

منشوريا والمحيط الهادي يرون شبح حرب كبيرة يقترب .

ان جميع شمالي آسيا يؤلف قسماً من الاتحاد السوفييتي الذي هو مشغول الآن في بناء عالم ونظام اجتماعي جديدين ، وانه لمن العجيب ان هذه الاقطار المتأخرة عن ركب الحضارة والتي كان يسود فيها الاقطاع ، قد قفزت الى الامام واصبحت على قدم المساواة مع اقطار الغرب المتقدمة . فالاتحاد السوفييتي في كل من اوربا وآسيا يقف اليوم متحدياً الرأسمالية المتداعية في العالم الغربي وبينما نرى كساد التجارة والازمات الاقتصادية والبطالة تكاد تشل الرأسمالية التي تحاول ان تتنفس بكل وسيلة قبل ان تختنق ، نرى الاتحاد السوفييتي موطناً مليئاً بالآمال والنشاط والحماس ، يحاول بناء النظام الاشتراكي ، وقد لفت انظار العالم كله ما لاقاه السوفييت من نجاح وما احرزه من تقدم وما هم عليه من نشاط وحيوية .

اما الولايات المتحدة الامريكية ، وهي البلاد الواسعة الكبيرة ، فانها احسن نموذج لفشل الرأسمالية . وهي الآن تحاول بالرغم من كل الصعوبات والازمات واضرابات العمال وبطالتهم التي لم يسبق لها مثيل ان تنقذ النظام الرأسمالي وتحافظ عليه ولا ندري ماذا تكون نتيجة هذه التجربة . وايّاً كانت فان احـــداً لن يستطيع ان يسلب منها مزاياها العظيمة التي تملكها في بلادها الواسعة الغنية في كل شيء تقريباً يحتاجه الانسان ، ومواردها الغنية التي تتفوق على سواها ، وخبرة اهلها . ولا بد للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ان يلعبا دوراً هاماً في شؤون العالم المقبلة .

اما القارة الامريكية الجنوبية فتختلف كثيراً عن الشمالية ، وتسكنها الشعوب اللاتينية . ولا يوجد فيها كما في الشمالية تفريق عنصري ، لأنها خليط من الاجناس ففيها اوروبيون وفيها اسبانيون وبرتغاليون وايطاليون وزنوج وما يسمون بالهنود الحمر ، وهم السكان الاصليون في القارتين الامريكيتين . وكاد هؤلاء يختفون تماماً في كندا والولايات المتحدة ، ولكنهم ما زالوا هنا في الجنوب بأعداد كبيرة وخصوصاً في فنزويلا . وهم على وجه العموم يعيشون بعيداً عن المدن الكبيرة . وقد تستغربين ان قلت لك ان بعض مدن امريكا الجنوبيـــة مثل بونس ايرس

وريودي جانيرو جميلة جــداً بالاضافة الى اتساعها، وفيها الشوارع العريضــة الطويلة . وتضم بونس ايرس عاصمة الارجنتين ما يقرب من مليونين ونصف من السكان، وكذلك ريو دي جانيرو عاصمةالبرازيل يبلغ عدد سكانها مليونين تقريباً.

بالرغم من تخالط الاجناس في امريكا الجنوبية إلا ان الطبقات الحاكمة تنحصر في الارستقراطيين البيض . فالجماعات التي تسيطر على الجيش تسيطر على الحكم؛ وكما اخبرتك سابقاً ، حدثت ثورات متكررة تستهدف قلب الحكومة. وتحوي جميع دول امريكا الجنوبية كميات وافرة من المعادن ، كذلك فامكانيات غناهـا متوفرة ومع ذلك فانها جميعاً غارقة في الدين ،ولم تكد الولايات المتحدة تتوقف عن اقراضها المال منذ اربع سنوات ، حتى بدأت تتخبط في مشاكل لا حصر لها وقامت الانقلابات في كل مكان. وكذلك فان الدول الرئيسية الثلاث التي تسمى أ ب ت وهي أرجنتين وبرازيل وتشيلي انتشرت فيها الانقلابات بسبب صعوباتها الماليــة .

حدثت في امريكا الجنوبية منـذ صيف ١٩٣٢ حربان صغيرتان ، ولكنهما لم يطلق عليهما رسمياً اسم حرب كما حدث في حرب اليابان في منشوريا. فعلى اساس هذا التعريف لم تقع اية حرب منــذ ان وافقت الدول على ميثاق عصبة الامم وميثاق سلم كلوج. فاذا ما هاجمت دولة دولة اخرى دون ان تعلن الحرب عليها رسمياً ، وقتلت سكانها ، سمي هذا العمل « خلافاً » ، ولما لم يكن «الخلاف» ممنوعاً فالكل راضٍ . وليست لهاتين الحربين الصغيرتين اهميــة دولية تعادل الحرب المنشورية ، إلا انهما توضحان مقــدار ضعف عصبة الامم وفشلها في المحافظة على السلام . فنرى عضواً من اعضاء العصبة يهاجم عضواً آخر ويرسل جيوشه لغزو بلاده ، ومع ذلك تجلس هـذه العصبة لا حول لهـا ولا طول ، او انها تقوم بمحاولات ضعيفة غير مجدية لحل الخلاف .

وكانت احدى هاتين الحربين او « الخلافين » في امريكا الجنوبية بين بوليفيـا وبرغواي على قطعة من اراضي الاحراش تسمى « شاكو ». وقد علق على الحرب احد الفرنسيين بقوله: « انالصراع القائم بينبوليفيا وبورغواي على شاكو يذكرني

بوجلين اصلعين يتقاتلان على مشط». ومع ذلك فان سبب صراعهما ليس تافهاً لهذه الدرجة ، فهناك مصالح بترولية في منطقة الاحراش هذه ، وكذلك يجري نهر بوغواي فيها ويربط بوليفيا بالمحيط الاطلسي . وقد رفضت هاتان الدولتان اي حل وسط ، وفضلتا ان تضحيا بآلاف من ابنائها .

اما « الخلاف » الثاني فهو بين كولومبيا وبيرو على قرية صغيرة اسمها «لا تشيا» التي استولت عليها بيرو دون وجه حق. وأعتقد ان عصبة الامم قد انتقدت بيرو بشدة على هذا العمل .

ديانة امريكا اللاتينية (بما فيها المكسيك) هي الكاثوليكية . وقد حدثت اختلافات عنيفة في المكسيك بين الدولة ورجال الدين الكاثوليك ، وكما حدث في اسبانيا كانت الحكومة المكسيكية تهدف الى الحد من صلاحيات الكنيسة الرومانية في شؤون التعليم والامور الاخرى .

ولغة امريكا الجنوبية هي الاسبانية فيما عدا البرازيل حيث اللغة البرتغالية هي اللغة الرسمية . ونظراً لاتساع رقعة امريكا الجنوبية ، فاننا نرى ان اللغة الاسبانية هي اليوم من اعظم لغات العالم . انها لغة جميلة رنانة ذات ادب حديث رائع ، وغدت الآن – بسبب امريكا الجنوبية – لغة تجارية هامة .

شبح الحرب

٨ اغسطس ١٩٣٣

●

استعرضت في آخر رسالة لي قارات آسيا وافريقيا والامريكتين ، وبقيت اوربا الفاضلة المزعجة !

فانجلترا ، الدولة العظمى ، خسرت سيطرتها السابقة وتحاول الآن جاهدة الاحتفاظ بما تبقّى لها . أما اسطولها البحري الذي أمّنها في الماضي ونشر سيطرتها على الآخرين ومكّنها من بناء امبراطوريتها ، فلم يعد ذلك الاسطول العتيد . مضى وقت كان اسطولها فيه اقوى من اسطول اية دولتين مجتمعتين ؛ وهو الآن يعادل اسطول الولايات المتحدة ، غير ان هذه تستطيع بامكانياتها الضخمة ان تسبقه في هذا المضمار وتتفوق عليه . والاسطول الجوي هذه الايام يفوق الاسطول البحري اهمية ؛ وفي هذه الناحية تتخلف انجلترا عن غيرها كثيراً . اذ تملك بعض الدول طائرات مقاتلة اكثر مما تملك انجلترا . وكذلك ولّت سيادتها التجارية بلا أمل في استعادة مركزها ، واخذت صادراتها في التدهور بالتدريج . وهي الآن تحاول حفظ اسواق الامبراطورية لبضائعها هي لوحدها عن طريق رفع الرسوم الجمركية وهذا الاجراء بعينه يعني تخليها عن اطماعها بالسيطرة الدولية خارج حدود امبراطوريتها . وحتى لو نجحت في هدفها هذا ، فانها لن تتمكن من استعادة سيادتها السابقة . لقد ذهبت هــــذه الى غير رجعة ، واصبح نجاحها حتى داخل امبراطوريتها امراً مشكوكاً فيه .

تمكنت انجلترا ، بعد صراعها العنيف مع امريكا من الاحتفاظ بمركز التجارة العالمية ، وبقيت لندن اهم مركز للاوراق المالية . ولكن هذا النصر اخذ يفقد مزاياه بسبب تدهور التجارة . وانجلترا نفسها والبلاد الاخرى تساعد على تدهور التجارة بواسطة السياسة الاقتصادية الوطنية التي تتبعها والرسوم الجمركية العالية التي تفرضها . وحتى لو بقي قسم كبير من التجارة الدوليـــة واستطاع النظام الرأسمالي ان يعيش ، فليس من شك ان الزعامـــة المالية ستنتقل من لندن الى نيويورك . غير انه من المحتمل ان تحدث تغييرات واسعة في النظام الرأسمالي قبل ان يتم ذلك .

المعروف عن انجلترا انها قادرة على تكييف نفسها حسب الظروف ، وهذا صحيح ما دام اساسها الاجتماعي غير متأثر ، وطبقاتها الغنية محتفظة بمركزها وامتيازاتها . ولا ندري ان كانت قدرتها على التكيف سوف تحملها على تغيير اساسها الاجتماعي واشك ان يتم هذا بهدوء وسلام ، لأن الذين في ايديهم السلطة والامتيازات لا يتخلون عنها عن طيب خاطر

وفي هذه الاثناء، وفي الوقت الذي تتقلص فيه السيطرة الانجليزية من حول العالم لتنحصر ضمن حدود امبراطوريتها، فانها قبلت احداث تغييرات هامة فيها. فأقطار رابطة الشعوب البريطانية تتمتع الآن باستقلالها ، ولو انها مرتبطة بالنظام المالي البريطاني . وقد ضحّت بريطانيا بالكثير لارضاء هذه الاقطار ، ومع ذلك تحدث خلافات كثيرة بينها . اما استراليا فهي واقعة تحت سيطرة بنك انجلترا تماماً ، وبسبب خوفها من اليابان فانها تحاول ان تبقى قريبة جداً من انجلترا اما كندا فقد اخذت صناعتها النامية تنافس انجلترا وترفض ان تتنازل عن اي من حقوقها وكذلك فانها ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع جارتها الولايات المتحدة اما في جنوبي افريقيا ، فانهم لا يحبون الامبراطورية ولو ان حدة كراهيتهم لها قد خفت عن ذي قبل . وتقف ايرلندا لوحدها ، وما زالت الحرب بينها وبين انجلترا قائمة . وقد فرض الانجليز رسوماً جمركية عالية على البضائع الايرلندية لاجبار ايرلندا على الخضوع ، ولكن ذلك سبب نتائج عكسية فتشجعت في ايرلندا الصناعة والزراعة

ونجحت ايرلندا في ان تكفي نفسها بنفسها،فبنت مصانع جديدة ، وحوّلت المراعي الى حقول لزراعة القمح . واخذت تستهلك الطعام الذي كانت تصدره لانجلترا داخل بلادها فارتفع مستوى معيشة الشعب وهكذا انتصر دي‌فاليرا في سياسته الاستقلالية ، واضحت ايرلنـــدا شوكة في جنب السياسة البريطانيـة الاستعمارية ، كما اضحت جريئـــة ، متحدية ، لا يتناسب وضعها ابـــداً مع اتفاقيات اوتاوا

وعلى هذا الاساس لن تربح انجلترا كثيراً من اقطار رابطة الشعوب البريطانية ولكنها تستطيع ان تربح كثيراً جداً من الهند، فهذه ما زالت سوقاً واسعة لمنتوجاتها. غير ان الاحوال السياسية في الهند - يضاف اليها الازمة الاقتصادية الخانقة - لا تساعد على رواج التجارة البريطانية فلن يستطيع الواحد ان يزج بالناس في السجون ويجبرهم على شراء بضائعه . وقد قال ستانلي بولدوين منذ امد قريب في مانشستر : « لقد مضى اليوم الذي كنا فيه نأمر الهند بشراء بضائعنا . ان ضمان التجارة هو توفر حسن النيّة . ولذلــك لن نتمكن من بيع بضائعنا للهنـــود بتهديدنا لهم بالحراب » ويترتب على انجلترا ، بالاضافة الى مواجهة الاحوال الداخلية في الهند ، ان تواجه منافسة يابانية عنيفة سواء في الهند أو في الاماكن الاخرى في الشرق وفي بعض اقطار رابطة الشعوب البريطانية .

وهكذا نرى ان انجلترا تحاول ان تحتفظ بما في يديها عن طريق عمل وحـدة اقتصادية من امبراطوريتها ، تضيف اليهـا تلك الدول التي تتفق معها مثـــل الدنيمارك والاقطار الاسكندنافية . وهذه هي السياسة الوحيدة التي تستطيع اتباعها ، ولا سياسة غيرها . ولكي تحمي نفسها في اوقات الحروب ، عليها ان تكفي نفسها بنفسها ، وهي بذلك اخذت تشجع تطوير زراعتها . ولا يتمكن احد من معرفة ما اذا كانت هذه السياسة الاقتصادية الوطنية تنجح ام لا : وقد سبق ان ذكرت بعض الصعاب التي تعترض طريقها . فاذا فشلت ، فان كيان الامبراطورية كله سينهار ، وسيضطر الشعب البريطاني لتخفيض مستوى معيشته إلا اذا غيّر نظامه الاقتصادي وجعله على اسس اشتراكية. ولو فرضنا انها نجحت

فان نجاحها سيكون محفوفاً بالاخطار لأنه سيؤدي الى خراب كثير من الدول الاوروبية التي لن تجد لتجارتها منفذاً، وبذلك يفلس المدينون لانجلترا، وافلاسهم هذا يجر اوخم العواقب عليها .

ومن المنتظر ايضاً قيام صراع اقتصادي بين انجلترا وبين اليابان واميركا، التي تنافسها منذ الآن في ميادين عديدة ، واذا بقيت الامور سائرة على هذا المنوال، فإن الولايات المتحدة لا بد وان تتقدم الى الامام بينما ترجع انجلترا الى الوراء. ولن تقود هذه المنافسة إلا الى شيئين : إما ان تقبل انجلترا هذا الوضع بهدوء وصمت وتعترف بهزيمتها في هذا الصراع ؛ وإما ان تشن حرباً عالمية تحاول بها انقاذ ما يمكن انقاذه قبل ان تفلت الفرصة من بين يديها وتصبح أعجز من ان تتحدى منافسيها .

وهنالك منافس عظيم آخر لانجلترا هو الاتحاد السوفييتي. وكلا البلدين يطبقان سياسة تعارض سياسة الآخر تماماً، ويرقبان بعضهما البعض بحذر شديد، ويتآمران ضد بعضهما البعض في كل اقطار اوربا وآسيا. وقد يستطيعان ان يعيشا بسلام لمدة قصيرة ، ولكنهما لا بد ان يصطدما لأن كل واحد منهما يعارض سياسة الآخر ويهدف الى اهداف مختلفة تماماً .

تستطيع انجلترا اليوم ان تكفي نفسها بنفسها لأن لديها ما تريد ؛ غير ان خوفها ينحصر في انها ستفقد ذلك ؛ وخوفها في محله . انها تحاول كل جهدها ان تُبقي الوضع الراهن كما هو ، وتستخدم عصبة الامم من اجل تحقيق اغراضها هذه . ولكن الحوادث اقوى منها ومن اية دولة اخرى . انها بلا شك قوية جداً الآن ، ولكنها بلا شك ايضاً آخذة في الضعف والتدهور والاضمحلال كدولة استعمارية : واننا الآن نشاهد غروب الشمس عن امبراطوريتها العظيمة .

اذا تركنا انجلترا وعبرنا البحر الى القارة الأوروبية ، نجد فرنسا وهي ايضاً دولة استعمارية تسيطر على امبراطورية كبيرة في افريقيا وآسيا . وتعتبر فرنسا من الناحية العسكرية اقوى دولة في اوروبا [1] انها تملك جيشاً كبيراً ،

---

١ — لم يعد هذا صحيحاً منذ اعادت المانيا تسليح نفسها. وقد اصبحت فرنسا منذ معاهدة ميونخ في سبتمبر ١٩٣٨ دولة من الدرجة الثانية. كما ان حلفاءها من دول وسط اوروبا قد تخلوا عنها.

وتتزعم حلفاً يضم بعض الدول الاخرى مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلجيكا ورومانيا ويوجوسلافيا . ومع كل هذا فإنها تخشى الروح العسكرية الالمانيـة وخصوصاً في ظل النازية . لقد كان هتلر سبباً في تغيير العلاقات والمشاعر بين فرنسا الرأسمالية والاتحاد السوفييتي . فوجود هذا العدو المشترك قد قربهما كثيراً من بعضهما.

اما في المانيا ، فما زال الارهاب النازي مستمراً ، وتردنا التقارير يومياً عن الفظائع والجرائم التي ترتكب هناك. ولا نستطيع ان نتكهن الى متى تستمر هذه الوحشية ، فقد بدأت منذ عدة شهور ، ولم تخف حدتها حتى الآن. ولا يمكن ان يكون هذا الارهاب والضغط دليلاً على استقرار الحكومة وثبات مركزها. ومن المحتمل جداً انه لو كانت المانيا اقوى مما عليه الآن لشنت حرباً منذ امد طويل . ومع ذلك فالحرب آتية لا بد منها . ويردد هتلر دائماً انه هو الملاذ الاخير من الشيوعية ؛ وقد يكون هذا صحيحاً ، لانه اذا فشلت النازية في المانيا فلن يحل محلها سوى الشيوعية .

اما ايطاليا تحت حكم موسوليني فسياستها الدولية واضحة صريحة لا تحاول سترها وراء كلمات منمقة عن السلام وحسن النية كما تفعل الدول الاخرى . انها تستعد للحرب لانها تعتقد انها قادمة لا محالة بعد وقت قصير ، ولذلك تحاول الآن أن تثبت مركزها. فهي – بصفتها فاشية –ترحب بالفاشية في ألمانيا، وتحاول تنمية علاقاتها الحسنة مع هتلر ، ومع ذلك فانها تعارض سياسة المانيا التوسعية – أي ضم النمسا اليها ، لأن هذا الضم يعني اقتراب المانيا من الحدود الايطالية، ولا يستطيع موسوليني ان يتصور اخوانه الفاشيين على حدوده [1]

يتألف وسط اوربا من دول صغيرة تخنقها ازمة اقتصادية ، وويلات جرتها عليها الحرب العالمية . وهي ترتعد الآن خوفاً من هتلر والنازيين وتنمو الاحزاب النازية وتقوى في كل هذه الدول وعلى الاخص حيث يوجد المان . وبنفس الوقت ينمو الشعور بعداء النازية ، ولذلك لا بد من وقوع اصطدام

---

[1] – غزت المانيا النمسا وضمتها اليها في مارس ١٩٣٨ ، وقد اضطرت الظروف الدولية موسوليني ان يقبل بذلك ، ولكنه بنفس الوقت كان ساخطاً غاضباً .

بينها ، وتؤلف النمسا الآن المسرح الحالي لهذا الاصطدام .

كانت الدول الثلاث المحالفة لفرنسا والواقعة في وسط اوربا وحوض الدانوب وهي تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا قد الفت بينها تحالفاً او اتحاداً حوالي سنة ١٩٣٢ على ما اظن . وقد انتفعت هذه الدول الثلاث من التسوية التي تمت بعد الحرب العالمية ، وارادت كل منها ان تحافظ على ما انتفعت به . ولذلك ومن اجل هذا الغرض ، اجتمعت مع بعضها وألفت تحالفاً حربياً وسمي هذا التحالف «بالتحالف الصغير» . وهو يشكل قوة جديدة في اوروبا تميل لفرنسا وتعادي المانيا وتعارض السياسة الايطالية

كان انتصار النازيين في المانيا بمثابة دق ناقوس الخطر على هذا التحالف الصغير ولبولندا ايضاً ، لان اطماع النازيين لم تقتصر على تعديل معاهدة فرساي (كان الالمان كلهم يريدون هذا) ولكنهم كانوا يتحدثون بلهجة يشتم منها ان الحرب قريبة لا محالة . وقد بلغت لهجتهم من العنف والقوة ان ارتعدت لها فرائص النمسا والمجر مع انهما كانتا راغبتين في تعديل المعاهدة . ونتيجة لهذه المخاوف التي اثارتها الهتلرية ، التقت اهداف جميع دول وسط اوربا وشرقها ، وهي «التحالف الصغير» وبولندا والنمسا والمجر ودول البلقان بالرغم من كراهيتها لبعضها البعض ، واقتربت وجهات نظرها . واخذت هذه الدول وبالأخص بولندا وتشيكوسلوفاكيا تتقرب الى الاتحاد السوفيتي منذ ان ظهر الخطر النازي . ونتج عن هذا التقرب توقيع ميثاق عدم اعتداء بينها وبين روسيا منذ عدة اسابيع .

اما اسبانيا ، فقد قصصت عليك قصة ثورتها ، وهي لا يمكن ان تستقر ، ويظهر انها تقف الآن مرة اخرى على فوهة بركان .

وهكذا ترين هذه الدول الاوروبية العجيبة ، بمنازعاتها وكراهيتها ومنافساتها تتحدث بصورة دائمة عن تخفيض التسلح ، ومع ذلك فهي تتسلح ليل نهار وتخترع اسلحة تدميرية فظيعة لاستخدامها في الحرب المقبلة . وكذلك يتحدثون عن التعاون فيما بين الدول ، ويعقدون المؤتمرات العديدة لهذا الغرض دون جدوى . وفشلت عصبة الامم نفسها بشكل يرثى له ، وباءت بالفشل كذلك محاولات انقاذ المؤتمر

الاقتصادي العالمي وهناك اقتراح بأن تؤلف اقطار اوروبا ، فيما عدا روسيا ، اتحاداً يسمى «دول اوروبا المتحدة» ويقصد من هذه الحركة في الواقع خلق جبهة ضد الاتحاد السوفياتي ومحاولة التغلب على الصعاب والمشاكل التي تعترض سبيل هذه الدول . ولكن كراهيتها لبعضها البعض لا تمكنها ابداً من تنفيذ هذا الاقتراح .

والواقع ان كل دولة تبتعد الآن عن الاخرى . ويساعد الكساد التجاري والازمة الاقتصادية على هذا الابتعاد ، فتضطر كل دولة ان تعتني باقتصادها الوطني . ولذلك نرى ان كل واحدة منها تقف الآن وراء اسوار عالية من الحماية الجمركية وتحاول بقدر امكانها منع البضائع الاجنبية من الدخول . وبالطبع لن تستطيع ان تمنع كل البضائع لأنه لاتوجد اي دولة تكفي نفسها بنفسها ، ومع ذلك فاتجاه هذه الدول هو ان تزرع وتصنع كل ما تحتاجه . ولكنها قد لاتتمكن من زراعة بعض الاصناف الرئيسية لأن مناخها لا يساعدها . فمثلاً لا تستطيع انجلترا ان تزرع القطن او القنب او الشاي او القهوة وكثيراً غيرها مما يتطلب جواً حاراً . وهذا يعني ان التجارة في المستقبل ستنحصر فيما بين الدول ذوات المناخات المختلفة ، والتي تزرع وتصنع اشياء مختلفة كذلك . اما البلاد التي تنتج نفس الاصناف التي تنتجها بلاد اخرى فلا أمل لها بتصدير بضائعها لها . ولذلك ستسير التجارة بين الشمال والجنوب ، لا بين الشرق والغرب ، لان المناخات تختلف بين الشمال والجنوب . فمثلاً تتاجر البلاد الاستوائية مع البلاد ذات الطقس المعتدل او البارد ، ولكن لن تتمكن بلاد استوائية من المتاجرة مع بلاد استوائية اخرى ، ولا بلاد معتدلة المناخ مع بلاد لها نفس المناخ . وبالطبع هناك اعتبارات استوائية يجب اخذها بعين الاعتبار كوجود المعادن مثلاً . ولكن التجارة اجمالاً ستكون في اتجاه شمالي جنوبي .

يظهر ان هذا هو الاتجاه الذي تسير فيه الدول هذه الايام ، ويدعى هذا بالاتجاه الأخير في الثورة الصناعية عندما تستطيع كل دولة ان تكفي نفسها صناعياً . صحيح ان آسيا وافريقيا بعيدتان جداً عن التصنيع ، فأفريقيا متأخرة

جدا وفقيرة جداً بحيث لا تستطيع استيعاب البضائع المصنوعة في اية كمية كانت. أما المناطق الثلاث التي تستمر في امكانية استيعاب البضائع الاجنبية فهي الهند والصين وسيبريا. ولذلك تشرئب اعناق الدول الصناعية الاجنبية لهذه الاسواق الكبيرة. فبعد ان اغلقت بقية الاسواق في وجهها، اخذت تفكر في «غزو آسيا» حتى تتخلص من فائض بضائعها، وتنقذ بذلك رأسماليتها المتداعية. ولكنه ليس من السهل استغلال آسيا الآن لسببين، الأول هو تطور الصناعات الآسيوية والثاني المنافسة الدولية فانجلترا تريد الاحتفاظ بالهند كسوق لبضائعها هي لوحدها، بينما تريد كل من اليابان والولايات المتحدة والمانيا حصة من هذه السوق، وكذلك الحال في الصين؛ ويضاف الى هذه المنافسة حالتها الداخلية وقلة طرق المواصلات مما يعرقل التجارة. اما الاتحاد السوفييتي فمستعد ان يشتري كميات كبيرة من البضائع المصنوعة في الخارج بشرط ان تصبر عليه الدول المصدّرة في دفع الثمن ولا تطالب به مباشرة، غير انه سيتمكن في وقت قريب من صناعة كل شيء يحتاجه تقريباً.

كان اتجاه الدول في الماضي وما زال يسير نحو اعتماد بعضها على البعض الآخر. ومع ان الدول بقيت كل واحدة منها مستقلة، الا انه نمت بينها علاقات متشابكة وتجارة واسعة. وقد وصلت هذه العلاقات حداً اخذ يتعارض مع الدول المستقلة واستقلالها نفسه. اما الخطوة المنطقية التالية فهي بناء مجتمع دولي اشتراكي. فقد لعبت الرأسمالية دورها، وآن لها ان تتنحى لتفسح المجال للاشتراكية ولكنها مع الأسف لن تتنحى عن طيب خاطر. وقد رأينا كيف ان الازمات الاقتصادية هددتها واصبحت نتيجة لذلك على وشك الانهيار، فعمدت الى الانكماش في موقفها. ثم حاولت ان تعكس الاتجاه الماضي وتسير في طريق اعتماد الدول بعضها على بعض. وهكذا نشأت سياسة الاقتصاد الوطني. أما السؤال فهو، هل تنجح هذه؟ وان نجحت فإلى متى تدوم؟

ان العالم خليط عجيب، يتشابك فيه الصراع والحسد. وتزيد الاتجاهات الجديدة هذا الصراع وذلك الحسد حدة وشدة. اننا نرى في كل قارة من القارات

وفي كل بلد من البلدان ان الضعفاء والمظلومين يحاولون ان يشركوا انفسهم في الاشياء الطيبة في هذه الحياة التي انتجوها هم انفسهم انهم يطالبون بدين قديم استحق اداؤه منذ امد بعيد . وتتخذ هذه المحاولات وهذه المطالب شكلاً عنيفاً قاسياً في بعض الاماكن ؛ وشكلاً هادئاً ناعماً في اماكن اخرى. فهل نلومهم اذا سلكوا هذا السلوك بعد ان غضبوا وحقدوا على الذين عاملوهم اسوأ معاملة واستغلوهم ابشع استغلال لمدة طويلة من الزمن ؟ لقد مضت عليهم مدة طويلة وهم مهملون ، يُنظر اليهم باحتقار ، ولم يكلف احد نفسه العناء ليعلمهم آداب السلوك في معاشرة الملوك !

ان ثورة الضعفاء والمظلومين تقض مضجع الطبقات الغنية في كل مكان، ولذلك نراها تتجمع مع بعضها البعض للقضاء عليها . وهنا تختفي العبارات البراقة التي تقال عن الديمقراطية ومصلحة الشعب، وتسفر الطبقات الغنية عن وجهها ويظهر انها انتصرت في كثير من الاماكن . وتظهر في الافق الآن ايام قاسية ، ايام يملأها الحديد والنار، لأن القتال سيكون في كل مكان مسألة حياة او موت بين النظام القديم والنظام الجديد. ونرى في كل مكان سواء في اوروبا او امريكا او الهند ان المصير محتوم ، وان كيان النظام القديم على وشك الزوال حتى ولو انه يبدو متمركزاً قوياً . اما الاصلاحات الجزئية فلن تحل المشاكل، لأن النظام الرأسمالي الاستعماري كله قد اهتز من اساسه ، ولم يعد قادراً على الايفاء بالتزاماته .

تلقي كل هذه المنازعات ، سواء كانت سياسية او اقتصادية او عنصرية ، ظلاً قاتماً على العالم يظهر من خلاله شبح الحرب . ويقال ان اكبر هذه المنازعات واهمها هو الناشب بين الاستعمار والفاشية من جهة والشيوعية من جهة اخرى . فهاتان الجبهتان تقابلان بعضها في كل مكان في العالم ، ولا مجال لحل وسط بينهما.

في العالم الآن إقطاع ورأسمالية واشتراكية ونقابية وفوضوية وشيوعية ... مبادىء كثيرة ، يضاف اليها كلها الانتهازية ! ولكن هنالك المثالية ايضاً لمن يريدها ! وهي ليست مثالية الخيالات الفارغة وانما مثالية العمل . من اجل هدف انساني نبيل نسعى كلنا لتحقيقه . لقد قال جورج برنارد شو في مكان ما :

والفرح الحقيقي في الحياة، هو ان تكون في خدمة هدف تعتقد انه عظيم؛ هو ان لا ترمي جانباً إلاّ بعد ان تكون قد عملت جاهداً وافنيت عمرك؛ هو ان تكون قوةِ من قوى الطبيعة بدلاً من ان تكون كتلة من الامراض والهموم، تشكو دائماً من هذه الدنيا التي لم تُخصص كل امكانياتها لاسعادك ! »

لقد اورانا التاريخ كيف ان العالم قد اقتربت اجزاؤه من بعضها البعض، واصبح كل جزء منه يعتمد على الآخر بعد التنافر والاختلاف. لقد اصبح العالم فعلاً وحدة كاملة لا تنفصل؛ كل جزء منه يؤثر على الآخر ويتأثر به. واصبح من المتعذر الآن ان يكون لكل امة تاريخ خاص بها. لقد عبرنا تلك المرحلة، وصار التاريخ لا يكتب إلاّ ليصف حوادث العالم كله ويجمع خيوطه وليحاول اكتشاف القوى الحقيقية التي تحركه، هـــذا إذا اردنا من التاريخ ان يفي بالمقصود منه.

لقد رأينا كيف ان القوى الدولية وتشابك المصالح تؤثر على مختلف الدول، وحتى في العصور القديمة عندما كانت الحواجز الطبيعية تفصل بينها. وكذلك فان الرجال العظام في التاريخ اثروا عليه، لأن العامل الانساني هام جداً في تكييف مصير الشعوب، ولكن القوى العظيمة التي تعمل وهي مغمضة العينين بقسوة وعنف، تقذفنا تارة الى اليمين وتارة الى الشمال، هي اهم من كل ما تقدم.

وهذا ما نراه اليوم، هذه القوى الهائلة التي تحرك مئات الملايين من البشر تمضي في طريقها وكأنها زلزال عظيم يغير شكل الأرض، اننا لن نستطيع ايقافها مهما حاولنا، ومع ذلك فاننا في هذه الزاوية الصغيرة من العالم قد نؤثر تأثيراً بسيطاً على سرعتها واتجاهها. واننا نلاقيها، كل حسب طبيعته، فمنا من يقابلها بفزع وخوف، ومنا من يقابلها بترحاب وبشاشة، ومنا من يصارعها، ومنا من يخضع لها ويستسلم لما يجلبه القضاء والقدر، ومنا ايضاً من يحاول ان يركب العاصفة ويسيطر عليها ويوجهها الوجهة التي يريدها، مخاطراً بذلك بنفسه، مستمداً فرحه وحبوره من اعتقاده بأنه يشترك في هذا العمل العظيم.

لن نرى السلام في هذا القرن العشرين المضطرب الامواج، والذي انقضى منه

ثلثه بعد ان اخذ حصته كاملة غير منقوصة من الحروب والثورات . لقـــد قال موسوليني : « ان العالم كله في ثورة . والحوادث نفسها تدفعنا الى اي اتجاه تريد دون ان تلتفت الى رغباتنا » . وكذلك قال الزعيم الشيوعي العظيم تروتسكي الذي حذرنا من اننا لن نرى السلام والطمأنينة في هذا القرن : « انه من الواضح ان القرن العشرين هو اكثر القرون التي مرت على الانسان اضطراباً . ان اي شخص يعيش في هذا القرن ويريد السلام والطمأنينة قبل اي شيء آخر « قـــد اختار أسوأ وقت ليولد فيه !! »

ان العالم كله يتمخض، وشبح الحرب والثورات يظلله ،فاذا كنالا نستطيع الهرب من مصيرنا ، فماذا نعمل ؟ أنخفي رؤوسنا منه كما يفعل النعام ؟ أم نلعب دورنا بشجاعة في التأثير على الحوادث ، مواجهين الاخطـار اذا اقتضى الامر ، ومستمدين فرحنا من اشتراكنا في هذا العمل النبيل العظيم ومن شعورنا بأن « اعمالنا تسير جنباً إلى جنب مع التاريخ » ؟

كل شخص منا ، او على الأقـل كل شخص مفكر ، ينظر إلى « المستقبل » ليرى ما يخبئه لنا وليصبح بدوره « الحاضر » . منا من ينتظر النتيجـــة مؤملاً خيراً ، ومنا من ينتظرها خائفاً مرتاعاً . فهل يكون العالم في المستقبل عالماً سعيداً جيلاً يشترك في خيراته ومسراته كل الناس بدل اقتصارها على قـلة منهم ؟ او يكون عالماً اشقى وأتعس مما نرى اليوم ، بعد ان تكون الحروب قـــد افنته ودمرت المدنية الحاضرة ؟ كلا الاحتمالين بعيد ، والارجح ان يكون المستقبل وسطاً بينهما .

وفي الوقت الذي ننتظر فيه المستقبل ونرقبه ، يجب ان نعمل لبناء العالم الذي نريد . فالانسان لم يتقدم من عصره الهمجي إلى المدنيـــة الحـاضرة باستسلامه وخضوعه للطبيعة ، ولكن بتحديه لها ورغبته الأكيدة في السيطرة عليهـــا واستغلالها لخيره ومنفعته .

هذا هو « الحاضر » . أما « المستقبل » فسيكون من صنع جيلك انت، من صنع الملايين من البنات والاولاد في جميع انحاء العالم ، الذين يكبرون الآن ويستعدون للاشتراك في صنع هذا « المستقبل » .

الرسالة الاخيرة

٩ اغسطس ١٩٣٣

●

ها نحن يا عزيزتي قد وصلنا الى نهاية القصة ، وليس لدي الآن ما اقوله ، ولكن رغبتي في ان أنهي رسائلي اليك بدافع التفاؤل هي التي تدفعني الى كتابة هذه الرسالة ــ الرسالة الاخيرة .

لقد انتهيت من كتابة هذه الرسائل في الوقت المناسب ، ذلك ان مــدة السجن المحكوم علي بها – وهي سنتان – قد شارفت على الانتهاء . فبعد ثلاثة وثلاثين يوماً سوف يفرج عني ، هذا اذا لم يفرج عني قبل ذلك كما يهددني السجّان احياناً ! والسنتان اللتان حكم بها عليّ لم ينته اجلها بعد ، فقد خصموا من مدة سجني ثلاثة اشهر ونصف كما يصنعون مع المسجونين الذين يسلكون في السجن سلوكاً حسناً ، وهم يعتبرونني من المسجونين المؤدبين بالرغم من انني لم اصنع شيئاً لأستحق هذا اللقب هكذا ينتهي السجن السادس لي ، وبعده أخرج الى العالم الفسيح ؛ ولكن لأية غاية ؟ ان معظمَ اصدقائي ورفاقي موزعون بين السجون ، وبلادي كلها تبدو كأنها سجن كبير .

ما اكثر عدد الرسائل التي كتبتها ، وما اكثر ما استهلكت من الحبر والورق المصنوع صناعة وطنية ترى ، هل يستحق هذا كله شيئاً ؟ وهل وجدت في كل ما حمله اليك كل هذا الحبر والورق شيئاً يهمك ؟ ستقولين نعم بغير شك ، لأنك تعرفين ان اية اجابة اخرى قد تؤلمني ، وأنت تحابينني بحيث لا يمكن ان

تقدمي على هذه الخاطرة . ولكن سواء اعجبك ما كتبته لـــك أم لم يعجبك ، فإنك لا يمكن ان تحسديني على السعادة التي كنت اشعر بها وانا اكتب هذه الرسائل يوماً بعد يوم خلال عامين طويلين .

لقد جئت الى هنا في الشتاء ، ثم لم يلبث الشتاء ان اخلى مكانه لربيعنا القصير الذي سرعان ما اختنق في حرارة الصيف . ولمـــا جفّت الارض وتشققت ، واصبح الناس والحيوان على السواء يلهثون بحثاً عن نسمة هواء يستنشقونهـا ، جاء موسم المطر بمياهه الباردة المنعشة . وبعد ذلك جاء الخريف واصبحت السماء زرقاء صافية ، والليالي جميلة رائعة . وهكذا انتهت دورة العام لكي تبدأ من جديد : الشتاء ثم الربيع ثم الصيف ثم فصل الامطار . كل هذا وانا جالس هنا ، اكتب اليك ، وافكر فيك ، وارقب الفصول تمر ، واستمع الى حبات المطـر وهي تطرق سطح السكنة التي اقيم فيها .

ما اجمل صوت المطر
على الارض وفوق السقوف
ما اجمل غناء المطر
للقلب الحزين الأسيف !

لقد كتب بنيامين دزرائيلي ، السياسي الانجليزي المشهور في القرن التـاسع عشر «ان الرجل العادي ، اذا حكم عليه بالنفي او السجن ، ضاع لبه ! امـا رجل الأدب فانه يعتبر ايام السجن أسعد ايام حياته» . قال دزرائيلي هذا الكلام وهو يكتب عن «هوجو جروشيوس» القاضي والفيلسوف الهولندي الذي عـاش في القرن السابع عشر ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولكنه فر من سجنه بعد سنتين . وقد قضى هاتين السنتين في كتابة كتب ادبية وفلسفية خلدت ذكراه . والتاريخ يذكر لنا كثيراً من البلابل التي غردت وراء قضبان السجون ، مثـل سرفانتس الاسباني مؤلف «دون كيشوت» وجون بنيان الانجليزي مـــؤلف «تقدّم الحاج» .

ولكنني لست من رجال الأدب ، ولا انا ازعم ان السنوات الكثيرة التي

قضيتها في السجن كانت اسعد أيام حياتي ، ولكن الذي يجب ان اعترف به هو ان القراءة والكتابة قد ساعدتني مساعدة رائعة على اجتياز هذه السنين . نعم ، انني لست اديباً ولا مؤرخاً ، إذن فمن أكون ؟ ما اصعب الاجابة على هذا السؤال . لقد جربت اشياء كثيرة ، بدأت بدراسة العلوم في الكلية ، ثم اتجهت الى القانون ، وبعد ان مررت باختبارات كثيرة في الحياة ، اتجهت الى المهنة الشعبية الواسعة الانتشار في الهند ، وهي التردد على السجن .

إياك ان تأخذي شيئاً مما حدثتك به في هذه الرسائل على انه قضية مسلّم بها، او على انه كلام خبير. ان رجل السياسة في العادة يحب الادلاء برأيه في كل موضوع، وهو عادة يتظاهر بمعرفة اكثر مما يعرف فعلاً . ولذلك يجب مراقبته بدقة. وهذه الرسائل التي بعثتها اليك ليست سوى خطوط عريضة يربط بينها خط رفيع . اذ انني كنت في استعراضي لتاريخ العالم ، اقفز احياناً عبر قرون واحداث بالغة الأهمية ، فاذا وصلت الى حادث يهمني نصبت خيمتي واقمت عنده زمناً طويلاً . وسوف تلاحظين ان هذه الرسائل تدل بوضوح على ما اكره وما احب ، كما تدل احياناً على حالتي النفسية في السجن . ولست احب ان تأخذي ما حدثتك به هنا قضية مسلماً بها ، فقد تكون ثمة اخطاء كثيرة في بعض ما قلته. ويرجع هذا الى السجن الذي لا يوجد فيه مكتبات او مراجع في متناول اليد. فهو ليس بالمكان الملائم للكتابة في الموضوعات التاريخية ، فكان عليّ ان اعتمد الى حد كبير على الملاحظات التي تعودت ان ادونها منذ اثنتي عشرة سنة مضت ، اي منذ ان بدأت أتردد على السجون . وقد استطعت هنا ان اقرأ كتباً كثيرة . ولكن هذه الكتب كانت تجيء وتذهب ، اذ كان من المستحيل عليّ ان اقتني مكتبة في هذا المكان ، وقد اخذت من هذه الكتب ، وبلا تحرج ، الكثير من المعلومات والافكار ، فليس فيما كتبت شيء من ابتكاري . وقد تجدين صعوبة في بعض الاحيان في متابعة رسائلي فاتركيها جانباً ولا تهتمي بها ، اذ انني كنت انسى في بعض الاحيان الفارق بين عمرينا ، فكنت اكتب وكأني اخاطب شخصاً يماثلني في العمر .

انني لم اقدم لك في هـذه الرسائل تاريخاً ، بل مجرد خطوط عريضة ولمحات خاطفة من ماضينا الطويل ؛ فاذا اعجبتك دراسة التاريخ ، ووجدت في قراءتـه بعض المتعـة ، فسوف تجدين بغيتك في كتب التاريخ الكثيرة التي تساعدك على فهم العصور الغابرة . ولكن قراءة الكتب وحدهـا لا تكفي . فلـكي تعرفي الماضي يجب ان تنظري اليه في عطف وفهم، ولكي تفهمي انساناً عاش منذ زمن يجب ان تفهمي البيئة التي احاطت به ، والظروف التي عاش فيها ، والافكار التي ملأت رأسه، اذ انه من السخف ان نحكم على الذين عاشوا قبلنا كما لو كانوا يعيشون في عالمنا ويفكرون نفس الافكار التي نفكر بها . ففي عصرنا هـذا مثلًا لا نجد مخلوقاً واحداً يدافع عن الرق ، ومع ذلك فان مفكراً عظيماً مثل افلاطون كان يعتبر وجود الرق مسألة بديهية. وحتى في السنوات الماضية القريبة قتل آلاف الاشخاص في الولايات المتحدة الامريكية وذلك في سبيل المحافظة على نظام الرق. وقد يتفق الجميع على انه من المستحيل ان نحكم على الماضي بمقاييس الحاضر، ولكننا نجد من لا يعترف بسخف الجانب المقابل وهو الحكم على الحاضر بالمقاييس الماضية. وقد ساعدت مختلف الديانات على تمكين المعتقدات والعادات القديمة، هذه المعتقدات والعادات التي كانت نافعة فعلًا في زمانها ومكانها ، ولكنها اصبحت لا تناسب تطور العصر في هذه الايام .

فاذا نظرت الى التاريخ القديم بعين العطف ، فسوف تجدين ان العظام الجافة في كيانه قد اصبحت جسداً حياً نابضاً من اللحم والدم . وسوف ترين موكباً باهراً من الأحياء رجالاً ونساءً واطفالاً ، من جميع الاعمار والأجواء يختلفون عنا ، ولكنهم يشبهوننا تماماً في كل ما يتميز به الانسان من فضيلة ورذيـلة ، وقوة وضعف . ليس التاريخ عرضاً سحرياً ، ولكن فيه سحراً كثيراً لمن يستطيع ان يراه .

ان رؤوسنا تزدحم بالصور المعلقة في ابهاء التاريخ : مصر ، بابل ، نينوى ، الحضارات الهندية القديمة ، قدوم الآريين الى الهند وانتشارهم في اوربا وآسيا ، الثقافة الصينية الرائعة، كنسوس والاغريق، الامبراطورية الرومانية والبيزنطية،

الغزو العربي المظفر عبر قارتين ، نهضة الثقافة الهندية واضمحلالها ، حضارتا مايا وازتك المجهولتان في امريكا ، فتوحات المغول الواسعة ، العصور الوسطى في اوربا وكتدرائياتها القوطية الباهرة ، قدوم الاسلام الى الهند ، الامبراطورية المغولية ، النهضة العلمية والفنية في غربي اوربا ، اكتشاف امريكا والطرق البحرية الى الشرق ، الغزو الغربي للبلاد الشرقية ،ظهور الآلات الكبيرة ونمو الرأسمالية، انتشار الصناعة والسيطرة الاوربية والاستعمار - وكل عجائب العلم في العصر الحديث .

قامت امبراطوريات كثيرة وسقطت ، ونسيها الانسان آلافاً من السنين ، وتبقى منسية هكذا حتى يعثر عليها عالم آثار صبور مرة اخرى مطمورة تحت الرمال . وعاشت مبادىء واحلام كثيرة ، واثبتت انها اقوى واثبت من اية امبراطورية .

لقد انشدت ماري كولرج :

سقطت حضارة مصر
وسقطت اليونان وطروادة
وفقدت روما تاجها
وفقدت البندقية كبرياءها
ولكن الاحلام التي طافت في خيالات اطفالها
بالرغم من انها عابرة وغير ملموسة
إلا انها هي التي بقيت .

حقاً ان الماضي ليمنحنا الكثير . فكل ما لدينا الآن من ثقافة وحضارة وعلم هبات من ماضٍ بعيد أو قريب فمن الحق ان نعترف بدَينِنا لهذا الماضي .

ولكن الماضي يجب ان لا يستغرق كل عرفاننا،اذ ان في اعناقنا نحو المستقبل واجباً لا يقل،بل لعله يزيد ، عما ندين به لهذا الماضي.فما فات مات،ومن المستحيل ان نغيره ، اما المستقبل فلم يأت بعد ، ولعلنا نستطيع ان نشارك في تكوينه . فاذا كان الماضي قد اعطانا جانباً من الحقيقة ، فان المستقبل يخفي جوانب اخرى

منها ويدعونا الى البحث عنها . ولكن الماضي يغار دائماً من المستقبل ، وهو يمسك بنا دائماً بقبضته القوية ، وعلينا نحن ان نصارعه حتى نتحرر ونواجـــه المستقبل ونتقدم اليه .

ومن الاقوال المأثورة ان التاريخ يعلمنا دروســـاً كثيرة . ومن الاقوال المأثورة ايضاً ان التاريخ لا يعيد نفسه ابداً وكلا القولـين صحيح . ذلك اننا لن نتعلم منه شيئاً بمجرد ان نحاول تقليده ، أو بتوقعنا منه ان يعيد نفسه او يبقى كما هو ، ولكننا نستطيـع ان نتعلم منه بالاسترشاد به وبمحاولة اكتشاف القـوى التي تحركه . وحتى في هذا الصدد ، لا نظفر عـادة باجابات مباشرة . وقد قال كارل ماركس : « ليس التاريخ وسيلة للاجابة على الاسئلة القديمة إلا بطرحـــه اسئلة جديدة . »

كانت الايام الخالية ايام ثقة عمياء وايمان اعمى ، لا تساؤل فيه ولا تشكك . هذه المعابد والمساجد والكاتدرائيات القديمة الباهرة ، كان من المستحيل ان تبنى بغير الايمان الفياض في نفوس المهندسين والبنائين والناس اجمعين . والاحجار التي كانوا يضعونها حجراً فوق حجر ، او يحفرون عليها الرسومات الجميلة التي تنبئنا بهذا الايمان ، وحتى الآن نجد ابراج المعابد ومآذن المساجد والكاتدرائيات بارتفاعها الشاهق الى السماء ، وكأنها تتضرع في اخلاص في صلاة صامتة ، ما زالت تؤثر فينا حتى الآن ، ولو كان ينقصنا ذلك الايمان الذي اقامها . ولكن ايام هذا الايمان قد ولت وولى معها سحر تلك الاحجار . آلاف من المعابد والمساجد والكاتدرائيات ما زالت تبنى الى اليوم ، ولكنها تفتقر الى تلك الروح التي كفلت الآثار القديمـة ان تبقى وتعيش منذ القرون الوسطى ان المعابد هذه الايام لا تختلف كثيراً عن ابنية المؤسسات التجارية التي تمثل عصرنا الراهن خير تمثيل .

ان عصرنا الراهن عصر اوهام .. عصر شـك وتردد واستفسار . ونحن ابناء هذا العصر لم نعد نقبل الكثير من المعتقدات والعادات القديمة ولم نعد نؤمن بها ، سواء كان ذلك في آسيا او اوروبا او امريكا . ولهـــذا فنحن نبحث عن طرق جديدة ، وعن جوانب اخرى للحقيقة تكون اكثر ملاءمة لما يحيط بنا من ظروف .

اننا اليوم لا نكف عن توجيه الاسئلة او المناقشة والصراع والخوض في عديد من الآراء والمبادىء والفلسفات . اننا الآن نعيش في عصر يشبه عصر سقراط. عصر تساؤل مستمر ، ولكن تساؤلنا ليس محصوراً في مدينة واحدة مثل اثينا ، انما يشمل العالم كله .

وانه ليحدث كثيراً ان يضايقنا ما نراه في العالم من ظلم وشقاء ووحشية ، فتسود الدنيا في عيوننا ولا نرى طريقاً للخلاص ، ونشعر انه لا امل في هذا العالم على الاطلاق .

« وهذا العالم يظهر لنا كأرض ملأى بالاحلام
احلام مختلفة وجميلة وجديدة
في ارض ليس فيها فرح او حب او نور
ولا عدل او سلام او طمأنينة
ونحن هنا في سهل مظلم
يجتاحه النضال والكفاح
وتصطدم به ليلاً جيوش هائلة جاهلة »

ومع ذلك فان الاستسلام لهذه النظرة القاتمة يعني اننا لم نفهم الدرس الذي علمنا اياه التاريخ والحياة فهماً صحيحاً . ان التاريخ يعلمنا التقدم والنمو وامكان تطور الانسان في مضمار التقدم والرقي ، والحياة عنيفة حافلة ، فيها كثير من الاوحال والمياه الآسنة والمستنقعات، ولكن فيها ايضاً البحار العظيمة ، والجبال والثلج وضوء النجوم الباهر في حلكة الليل (وخصوصاً في داخل السجن) ، وهناك الحب . حب الاهل والاصدقاء ، وزمالة العاطلين من اجل غاية واحدة، وهناك الموسيقى والكتب وعالم الافكار بأمره، مما يجعل كلاً منا يغني مع الشاعر :

« ايها الإله ! انني خلقت على هذه الارض واعيش عليها .
وكذلك انا موجود في السماء حيث تتألق النجوم. »

وانه لمن السهل دائماً ان يحب الانسان ما في هذا الكون من جمال ، وان يعيش هائماً في عالم الفكر والخيال، ولكن محاولة الفرار من شقاء الآخرين بهذه

الطريقة، وعدم الاهتمام بما يعيبهم، ليس من الشجاعة في شيء، فالفكر يجب عليه، لكي يحقق نفسه ان يقود صاحبه الى العمل . وقد قال رومان رولاند : « ان العمل هو نتيجة الفكر .. وكل فكر لا يؤدي إلى العمل يعد غدراً وخيانة . ولذلك اذا كنا خداماً للفكر فيجب ان نكون خداماً للعمل . »

والناس يتجنبون العمل عادة، خوفاً من العواقب، لأن العمل معناه المخاطرة.. والخطر يبدو من بعيد شيئاً رهيباً حقاً ، ولكنك لو نظرت اليه عن قرب ، فلن تجديه مفزعاً إلى هذا الحد ، بل انه كثيراً ما يكون رفيقاً رائعاً ، يضاعف من متعة الحياة .

ان الحياة الرتيبة العادية كثيراً ما تبدو مملّة ، نأخذ فيها الاشياء على انها امور طبيعية لا تستوجب الفرح ، ولكن ما اعظم ما نقدر هذه الاشياء ونحبها عندما نحيا بدونها قليلاً من الوقت . ان كثيراً من الناس يتسلقون الجبال ويخاطرون بحياتهم بحثاً عن المتعة التي يجدونها في هذا التسلّق ، والنشوة التي يمنحها اياهم اقتحام الخطر والتغلب على الصعاب . وبالنظر للخطر الرابض امامهم ومن حولهم، فان حواسهم ترهف، وتقديرهم للحياة التي يرتبطون بها بخيط رفيع يزداد.

وكل واحد منا يستطيع أن يختار بين السكنى في الوديان المنخفضة بما فيها من ضباب غير صحّي ، لا لشيء إلا لأنها تمنحه نوعاً من السلامة ، وبين سكنى الجبال العالية بما فيها من مخاطر من اجل استنشاق الهواء الطلق ، وتأمل المناظر البعيدة واستقبال الشمس المشرقة

لقد استشهدت في هذه الرسالة بكثير من مقتطفات الشعر ، ولكنني احب ان اختمها بهذه الابيات من قصيدة تشبه الصلاة التي كتبها رابندرانات طاغور في الجيتنجالي :

« حيث العقل لا يخاف ، والرأس مرفوع عالٍ
وحيث المعرفة حرة
وحيث العالم لم يُمزق جدرانه التعصب
وحيث تخرج الكلمات من اعماق الحقيقة

وحيث الكفاح المستمر يمد ذراعيه نحو الكمال
وحيث لا يفقد جدول العقل مجراه في صحراء التقاليد الميتة
وحيث يقود العقل نحو ساعات افسح من الفكر والعمل
تحت سماء الحرية تلك ، يا إلهي ، أيقظ وطني . »

لقد انتهينا يا عزيزتي ، بانتهاء رسالتي الاخيرة هذه .

أهي حقاً الرسالة الأخيرة !

بالتأكيد لا ، فانني سوف اكتب لك المزيد ، غير ان هذه السلسلة وحدها هي التي انتهت . فإلى اللقاء .

ملحـــق

البحر العربي في ١٤ نوفمبر ١٩٣٨

●

منذ خمس سنوات وربع كتبت الرسالة الأخيرة من هـــذه السلسلة وانا في زنزانتي في سجن دهرادون المركزي . كانت مـدة السنتين ـ وهي مدة عقوبتي في السجن ـ على وشك الانتهاء ، فوضعت جانباً كومة الرسائل التي كتبتها لك خلال ايام وحدتي (ولكنك كنت دائماً رفيقتي في خيالي) واعددت نفسي للخروج الى العالم الخارجي ، عالم الحركة والعمل . أفرج عني في ذلك الوقت ، ولكن لم يمض عليّ خمسة اشهر حتى أرجعت مرة اخرى الى مكاني الأول في السجن . بعد ان حُكم علي بالسجن سنتين ايضاً . في هـــذه المرة تناولت القلم وكتبت قصة حياتي .

ثم أفرج عني مرة اخرى ، وخرجت ؛ وشاركتك الاحزان التي أظلت حياتي منذ ذلك الوقت ، ولكن سوء الحظ الذي يصيب الانسان في هذه الحياة الملأى بالحزن والتعب ، يجب ان لا يعتد به ، لأن الحياة تتطلب منا كل قوتنا لنتغلب عليها . وهكذا افترقنا : انت ذهبت الى الصفوف الدراسية الآمنة ، وانا ذهبت الى معترك الكفاح والنضال .

ومضت خمس سنوات ملأى بالمتاعب والآلام ، وكلما تقدمنـا بالعمر كلما رأينا الفارق كبيراً بين العالم الذي نعيش فيه وبين عالم أحلامنا . ان الأمل نفسه يكاد يختنق في قبضة الشر . ومع ذلك فإني ارى في هذه اللحظة التي اكتب

لك فيها البحر العربي يمتد امامي جباراً قوياً،صامتاً كأنه حلم من الاحلام ويتلألأ في ضوء القمر الفضي .

مطلوب مني ان اكتب اليك في هذا الملحق قصة هذه الخمس سنوات ،لأن هذه الرسائل سوف تظهر في كتاب ، ويصر الناشر ان اكمل القصة حتى يومنا هذا . عمل شاق ، لأن احداثاً كثيرة وقعت في هذه الآونة ، بحيث لو اردت الاسترسال في الكتابة واتسع لي الوقت الكافي لكتبت كتاباً آخراً . حتى مجرد سرد الحوادث نفسها عمل طويل مُضنٍ . ولذلك سأقتصر على ذكر ملخص لما حدث . لقد اضفت بعض الملاحظات لبعض رسائلي التي كتبتها ، والآن سأذكر بصورة مختصرة اهم ما حدث في هذه السنوات .

حدثتك في رسائلي السابقة عن المفاوضات والمنافسات في هذا العصر الحديث وعن نمو الفاشية والنازية وعن خطر الحرب . لقد ازدادت هذه المنازعات والمنافسات خلال الخمس سنوات الماضية ، ومع انه لم تحدث حتى الآن حرب عالمية إلا ان حروباً اخرى قد حدثت في افريقيا واوروبا والشرق الاقصى من آسيا. فكل سنة تمر ، لا بل كل شهر يمر ، يجر في اذياله اعتداءً جديداً وفزعاً عمّت الفوضى العلاقات الدولية ومنيت عصبة الامم وجميع المحاولات الرامية للتعاون الدولي بالفشل . واصبح موضوع نزع السلاح ميتاً ، وكل دولة تسلح نفسها ليل نهار بقدر امكانياتها . الخوف يسيطر على العالم ، وتسير اوروبا بسرعة في طريق البربرية بعد انتصار النازية والفاشية .

استعرضت في رسائلي السابقة الاسباب التي كمنت وراء نشوب الحرب العالمية الاولى بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ . ونشبت الحرب وانتهت ونتج عنها معاهدة فرسايل وميثاق عصبة الامم . ولكن المشاكل القديمة لم تحلّ بل زادت عليها مشاكل جديدة مثل التعويضات وديون الحرب ونزع السلاح والأمن الجماعي والأزمة الاقتصادية والبطالة المنتشرة على نطاق واسع . وبالاضافة الى مشاكل السلام توجد المشاكل الاجتماعية الهامة التي اخلّت بتوازن العالم . ففي الاتحاد السوفيتي تعمل القوى الاجتماعية الجديدة المنتصرة على بناء عالم جديد برغم

الصعوبات الضخمة والمعارضة العالمية التي تقابلها . اما في الاماكن الأخرى فقد حدثت تغييرات اجتماعية عميقة. ولما لم تجد لها مخرجاً بقيت ثابتة في مركزها بفضل الكيان الاقتصادي والسياسي القائمين . كثر الانتاج في العالم وتوسع ، وتحققت احلام الاجيال السابقة ، غير ان الانسان الذي تعود على عبوديته ما زال يخاف من الحرية ، حتى انه اصبح غير قادر على ان يفكر في غير الفقر والعوز لكثرة ما يشغلان باله . وهكذا كانت الثروات الجديدة تبسط وتمسك عن قصد وتدبير . وبذلك انتشرت البطالة وانتشر معها الشقاء .

عقدت المؤتمرات واجتمعت دول العالم في محاولات لحل هـــذه المتناقضات العجيبة ، والتوصل الى سلم دائم . فعقدت المواثيق والمعاهدات والمحالفات مثل معاهدة واشنطن ولوكارنو وميثاق كلوج ، ومواثيق عدم الاعتداء . ولكن المشاكل الاساسية لم يقترب منها ، فبمجرد ان اصطدموا بالواقع المر تبخرت هذه المعاهدات والمواثيق تاركة وراءها سيفاً مصلتاً على رقبة اوربا . ماتت معاهــدة فرساي واعيد رسم خارطة اوربا مرة اخرى ؛ وانقسم العالم الى تقسيمات جديدة وتلاشت مسألة ديون الحرب وغابت عن الاذهان ، حتى أن اغنى الدول قررت ان لا تدفعها .

وهكذا رجعنا الى عصر ما قبل الحرب اي سنة ١٩١٤ وما قبلها ، بكل ما فيها من مشاكل ومنازعات ، غير انها الآن اصبحت اعقد واعنف مئة مرة عما كانت بسبب ما حدث مؤخراً . فالنظام الرأسمالي – في تداعيه – يشجع تقوية الاقتصاد الوطني ، وانماء الاحتكارات الضخمة ، كما اصبح يلجأ الى العنف والشدة ولم يعــــد يتحمل اي شيء حتى الديمقراطية البرلمانية . وظهرت الفاشية والنازية بكل قسوتها ووحشيتها واتخذتا الحرب هدفاً لها ، وبنفس الوقت نهضت في الاتحاد السوفييتي دولة عظيمة جديدة وهي تمثل تحدياً مستمراً للانظمـــة القديمة ورادعاً منيعاً للاستعمار والفاشية على السواء .

اننا نعيش في عصر الثورات ، هذه الثورات التي بدأت عندما نشبت الحرب العالمية في سنة ١٩١٤، وتستمر من سنة الى سنة رامية العالم في احضان المنازعات .

لقد تسببت الثورة الفرنسية التي حدثت منذ ١٥٠ سنة في ايجاد مساواة سياسية، ولكن الاوقات قد تغيرت، ولم تعد هذه المساواة تكفي في هذه الأيام فحدود الديمقراطية يجب ان تتسع لتشمل المساواة الاقتصادية ايضاً. هذه هي الثورة العظيمة التي نمر بها الآن، انها الثورة التي تحقق المساواة الاقتصادية والتي تعطي الديمقراطية معناها الصحيح وتقربنا من تقدم العلوم وتطبيقها.

هذه المساواة لا تتلاءم ابداً مع الاستعمار والرأسمالية اللتين تعتمدان بالدرجة الأولى على عدم المساواة واستغلال الشعوب والطبقات. ولذلك فانها تجد مقاومة عنيفة من اولئك الذين يستفيدون من هذا الاستغلال، وكلما زادت المقاومة ونما الصراع كلما ابعدت فكرة المساواة السياسية والديمقراطية البرلمانية. هذه هي الفاشية التي توجهنا في كثير من النواحي الى القرون الوسطى، انها تمجد الجنس وتستبدل حكم الملك الاوتقراطي الالهي بحكم زعيم يجمع بين يديه كل السلطات. كان نمو الفاشية خلال الخمس سنوات الماضية ومهاجمتها لكل مبدأ من المبادىء الديمقراطية وطريقة فهمها للحرية والمدنية قد جعلت من الدفاع عن الديمقراطية مشكلة اليوم. فليس الصراع العالمي الحاضر محصوراً بين الشيوعية والاشتراكية من جهة وبين الفاشية من جهة اخرى، وانما هو بين الديمقراطية والفاشية؛ وتقف في وجه الفاشية جميع القوى الديمقراطية الحقيقية. واسبانيـــا اليوم هي احسن مثل على ذلك

ولكن فكرة الديمقراطية لا بد ان تتوسع وتمتد، ولهـــذا تخافها العناصر الرجعية في كل مكان، ومع ان هذه العناصر تتظاهر بحبها للديمقراطية إلا انها في الواقع تعطف كل العطف على الفاشية. فسياسة الدول الفاشية واضحة غير مبهمة ولا يوجد اي شك في اهدافها. ولكن الذي يحير هو السياسة التي تتبعها بعض الدول الديمقراطية وعلى الاخص انجلترا. فالحكومة الانجليزية قد لعبت دوراً رجعياً في كل من آسيا وافريقيا واوروبا، وشجعت كلاً من النازية والفاشية. ومن الغريب حقاً انها كانت تقوم بهذا الدور وتعرف ان ذلك سيكلفها قسماً من امبراطوريتها كل ذلك، لانها تخاف من نمو الديمقراطية الحقيقية ولانها

كانت تعطف على قادة الفاشية . فاذا نمت الفاشية وبدأت تغزو العالم فالفضل في ذلك يرجع للحكومة الانكليزية ! اما الولايات المتحـــدة الامريكية التي تقدر الديمقراطية اكثر من انجلترا ؛ فقد حاولت مراراً ان تتعاون مع الدول الاخرى لكبح جماح الاعتداءات الفاشيــة ، ولكن انجلترا كانت ترفض باستمرار اما فرنسا ، فانها اصبحت تعتمد اعتماداً كلياً على لندن والسياسة الانجليزية الخارجية لدرجة انها لم تعد تجرؤ على اتخاذ سياسة مستقلة بها .

وكذلك في شؤون العمل والعمال ، اتبعت انجلترا سياسة رجعيـة بصورة مستمرة في مؤتمرات العمل الدولية . ففي يونيو ١٩٣٧ قرر مؤتمر العمل الدولي تحديد ساعات العمل الاسبوعي لعمال النسيج بأربعين ساعة رغم معارضة انجلترا المستمرة . حتى أقطار رابطة الشعوب البريطانية تخلت عن انجلترا وصوتت مع الاقتراح . أما مندوب الهند الذي عينته الحكومة الانجليزية فقد صوت بالطبع ضد الاقتراح وقد صرح اعضاء وفد الولايات المتحدة الذي كان يشمل اصحاب العمل وممثلي الحكومة بقولهم : « لم نكن نعرف قبل مجيئنا لجنيف ان الحكومة الانجليزية رجعية بهذا الشكل . » واضاف احدهم قائلاً : « ان انجلترا اصبحت امامة الرجعية في العالم . »

أما عصبة الامم ، فبالرغم من كل نواحي ضعفها إلاّ انها كانت تمثل الفكرة الدولية ، وكان ميثاقها ينص فيما ينص على فرض عقوبات على المعتدين . ولكنها فشلت في اتخاذ اي اجراء ضد اليابان عندما غزت منشوريا (فيما عـدا تعيين لجنة للتحقيق وادانة المعتدين) وقد شجعت انجلترا اليابان في هذه المغامرة ، ومنذ ذلك الوقت اتبعت انجلترا سياسة اضعاف العصبـة إلاّ في حالات نادرة . وكان نموّ الفاشية وما انطوت عليه من سياسة اعتدائية تحدّياً صريحا للعصبة، ولكن انجلترا وفرنسا خضعتا إلى حدّ ما لهذا التحدّي وبذلـــك اضعفتا نفوذ العصبة . وانسحبت الدول الفاشية منها : انسحبت المانيا في اكتوبر ١٩٣٣ وتبعتها اليابان وايطاليا . وفي سبتمبر ١٩٣٤ دخل الاتحاد السوفييتي عضواً فيها وبذلك لقّحها بدم جديد وانعشها . وقد اضطرت فرنسا الى محالفة السوفييت بسبب خوفها من

المانيا النازية ، ولكن انجلترا فضلت ان تتحالف مع المانيا على ان تتحالف مع الاتحاد السوفييتي حتى لو كان هذا التحالف على اساس ميثاق عصبة الامم . وكلما قامت الدول الفاشية باعتداء جديد ناجح، كلما زادت اعتقاداً انها تستطيع تحدي عصبة الامم دون ان يمسّها اي ضرر ، وخصوصا بعد ان تأكدت ان الحكومة الانجليزية لن تقف في وجهها .

ان هذه المساعدات التي قدمتها الحكومة الانجليزية للدول الفاشية هي التي تلقي ضوءاً على ما حدث في الصين والحبشة واسبانيا ووسط اوربا . انها تفسر لنا كيف ان صرح عصبة الامم الذي كان يمثل آمال الانسانية في السلام والتقدم قد اصبح خراباً مهدماً

لقد رأينا كيف ان اليابان تحدت العصبة والعالم اجمع في منشوريا ، وعينت منشوكو رئيساً لحكومتها الصورية . ومع ان اليابان قد غزت منشوريا عسكرياً إلا انها لم تعلن الحرب عليها ابداً بصورة رسمية . ولكنها اثارت الفتن في داخل البلاد لتتذرع بها كسبب للتدخل . وقد اتبعت هذا الاسلوب كل من ايطاليا والمانيا النازية وأضافتااليه قدراً كبيراً من الدعاية. لم تعد الدول الآن تعلن الحرب كما يحدث في السابق. قال هتلر في خطاب له في نورمبرج سنة ١٩٣٧ : «واذا اردت مهاجمة خصمي ، فإنني لن ألجأ للمفاوضة واضاعة الوقت وقضاء عدة اشهر فيها ، ولكنني أعمل ما عملته دائماً أخرج في جنح الظلام وانقض عليه كالبرق الخاطف » .

احتلت المانيا حوض السار في يناير ١٩٣٥ على أثر الاستفتاء الذي اجري هناك. وفي مايو من تلك السنة نقض هتلر شروط عدم التسلح في معاهدة فرساي، واعلن الخدمة العسكرية الاجبارية . فخافت فرنسا وفزعت، اما انجلترا فقد قبلت هذه الاعمال ولم تكتف بذلك بل زادت عليها بأن وقعت معاهدة سرية بحرية مع المانيا. وتعتبر هذه المعاهدة بحد ذاتها نقضاً لمعاهدة فرساي؛ وهكذا نرى ان انجلترا تجاهلت معاهدة الصلح . والعجيب في الامر انها عملت كل ذلك دون ان تستشير حليفتها فرنسا في الوقت الذي كانت فيه المانيا تتسلح بشكل افزع كل اوربا . فلما

رأت فرنسا ما فعلته انجلترا بها ، امرعت لمحالفة موسوليني محاولة بذلك تقليل الخطر الايطالي على حدودها

الحبشة :

هيّأت هذه المحالفة لموسوليني فرصته الذهبية التي كان ينتظرها فقد كان يعد العدّة لغزو الحبشة منذ عدة سنوات ، ولكنه كان يتردد في ذلك لأنه لم يكن متأكداً من موقف انجلترا وفرنسا . فعلاقاته مع فرنسا كانت متوترة بعد ان اغتال رجل ايطالي في اكتوبر ١٩٣٤ كلًا من الملك الكسندر ملك يوجوسلافيا ووزير الخارجية الفرنسية لويس بارتو . اما الآن فقد شعر موسوليني بانه لن يجد اية معارضة من إنجلترا وفرنسا إذا غزا الحبشة ، ولهذا سيّر جيوشه في اكتوبر ١٩٣٥ وغزاها في نفس الوقت الذي كانت فيه عصبة الامم مجتمعة .وكانت الحبشة عضواً في عصبة الامم ، فجاء هذا الغزو صدمة عنيفة للعالم بأمره . ثم قررت العصبة ان ايطاليا تعتبر معتدية ؛ ثم قررت بعد وقت طويل فرض العقوبات الاقتصادية عليها ، اي انه يترتب على الاعضاء عدم التعامل معها في انواع معينة من البضائع ولكن البضائع المهمة اللازمة للحرب مثل البترول والحديد والفولاذ والفحم لم تدخل في قائمة المحظورات ! وقد استغلت شركة البترول الانجلو ايرانية هذه الفرصة وزادت من انتاجها وزودت ايطاليا بالبترول اللازم لها . ولذلك لم تتأثر ايطاليا كثيراً بهذه العقوبات ولو انها خلقت بعض الصعاب في طريقها وقد اقترحت الولايات المتحدة وقف بيع البترول لايطاليا ، غير ان انجلترا لم توافق على هذا الاقتراح .

وبعدها اتفق وزير الخارجية البريطانية السير صموئيل هور ووزير الخارجية الفرنسية المسيو لافال على اعطاء قسم كبير من الحبشة لايطاليا ، ولكن ثورة الرأي العام في انجلترا اضطرت السير صموئيل هور إلى الاستقالة. وفي هذه الاثناء كان الحبشيون يقاتلون ببسالة ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة التي يستطيعون بها مقاومة عدو ضخم يملك الطائرات والقنابل ولم يتورع الايطاليون عن القاء

القنابل المحرقة والغازية على السكان الآمنين والنساء والاطفال وعربات الاسعاف والمستشفيات ، وزادوا على ذلك بان قاموا بأشنع المذابح التي عرفها التاريخ .
دخل الجيش الايطالي اديس أبابا العاصمة في مايو ١٩٣٦ وبعدها احتل اقساماً كبيرة من البلاد . وقد مضى على الايطاليين في الحبشة سنتان ونصف ،ومازالت المقاومة الحبشية مستمرة في المناطق البعيدة . وهكذا نرى ان الايطاليين لم يستطيعوا احتلال كل الحبشة بالرغم من ان انجلترا وفرنسا قد اعترفتاباحتلالها.
إن هذه المأساة حدثت في الحبشة والطريقة التي تخلت فيها دول العصبة عنها اثبتتا ان العصبة اصبحت ضعيفة لاحول لها ولا طول . ولذلك شعرهتلربأنهقادر على تحديها دون خوف ، فقاد جنوده فيمارس ١٩٣٦ واحتل منطقةالراين المجردة من السلاح . وكان هذا العمل نقضاً ثانيا لمعاهدة فرسايل .

اسبانيا :

شهدت سنة ١٩٣٦ محاولة فاشية جديدة للاستيلاء على اوربا ، ولذلكامتازت هذه السنة بكونها مسرحاً للكفاحفي سبيل الديمقراطية والحرية. لقد رأينا كيف ان القوى المتنافسة تتنازع على الاستيلاء على اسبانيا وكيف ان الجمهورية الفتية تقاوم الرجعية الدينية والاقطاع . واخيراً تكتلت الاحزاب التقدمية وكونت في فبراير ١٩٣٦ جبهة شعبية.وقبلها تكونت في فرنسا جبهة شعبية لمقاومة الفاشية النامية التي اخذت تهدد كيان الجمهورية الفرنسية ، حتى انها حاولت محاولة فاشلة القيام بانقلاب . وقد قابل الشعب الفرنسي هذه الجبهة الشعبية بحماس بالغفنجحت في الانتخابات وشكلت الحكومة وأقرّت عدة قوانين في صالح العمال .
وكذلك نجحت الجبهة الشعبية في اسبانيا في انتخابات مجلس الكورتس وشكلت الحكومة لقد تعهدت اثناء حملتها الانتخابية ان تصلح نظام الاراضي وتحد من سلطات الكنيسة . فلما شعرت العناصر الرجعية بقرب هذه الاصلاحات خافت كثيراً ، فتكتلت مع بعضها وقررت ان تضرب ضربتها . وطلبت مساعدة من ايطاليا والمانيا فانجدتاها ، وبدأ الجنرال فرانكو في ١٨ يوليو

١٩٣٦ثورته بمساعدة الجيش المغربي الذي قبل ان ينضم إلى الثورة نظير وعود كثيرة قطعت له باستقلال مراكش . وقد توقع فرانكو ان ينتصر بسهولة وسرعة ، وخصوصاً ان الجيش كان معه بالاضافة إلى المساعدات التي ترد اليه من دولتين قويتين . وبدا للناس ان الجمهورية منهزمة لا محالة ، غير انها اثارت نخوة الجماهير ووزعت عليهم السلاح ، عندما رأت الخطر يحدق بها ، وطلبت منهم القتال في سبيل حريتهم . فاستجابت الجماهير لنداءات الحكومة وقاتلت ببسالة وضراوة بقليل من السلاح ضد المدافع والطائرات واستطاعت ان توقف فرانكو عند حده ، وتدفق المتطوعون على اسبانيا من الخارج ليقاتلوا في سبيل الديمقراطية ، وألفوا فيلقاً دولياً قدم اكبر المساعدات لاسبانيا في وقت كانت في امس الحاجة اليها ولكن ، بينما كان ينضم إلى صفوف الحكومة متطوعون من مختلف الدول ، زحف الجيش الايطالي النظامي لمساعدة فرانكو ، كما ارسلت كل من المانيا وايطاليا الطائرات والطيّارين والفنيّين . كان فرانكو يعتمد على ضباط عسكريين مدربين قدموا من دولتين كبيرتين ، وكانت الجمهورية تعتمد على الحماس والشجاعة والتضحية . فتقدم الثوار حتى وصلوا ابواب مدريد في نوفمبر ١٩٣٦ ؛ غير ان عزماً جديداً على مقاومتهم قد اوقفهم عند ذلك الحد . لقد كان الأهالي ينادون « لن يمرّوا » ، واتخذوا من هاتين الكلمتين شعاراً لهم ، وبقيت مدريد عرضة للغارات الجوية اليومية والقنابل المدافع المحرقة ، فتهدمت دورها وانتشرت فيها الحرائق وقتل آلاف من شبابها في سبيل الدفاع عنها . وبقيت مدريد صابرة منتصرة . لقد مضت على الثوار سنتان وهم خارج مدريد ، والشعار « لن يمرّوا » باقٍ كما هو في المدينة التي ينتشر فيها البؤس والشقاء ، والتي مع ذلك ترفع رأسها بفخر واعتزاز ، حتى انها اصبحت رمزاً لروح الشعب الاسباني العالية .

يجب ان نعي هذا الكفاح الاسباني ، لانه بالتأكيد اكثر من كفاح محلّي . انه بدأ بثورة ضد برلمان انتخب بصورة ديمقراطية . لقد علا صوت الرجعيين بأن الشيوعية تنتشر في البلاد وبأن الخطر يحدق بالدين ، ولكن الواقع كان يكذبهم ، فلم يكن هنالك إلا عدد قليل جداً من النواب الشيوعيين في الجبهة الشعبية ،

وكانت اكثريتها تتألف من الاشتراكيين والجمهوريين . اما بخصوص الدين ، فقد كان اشجع المقاتلين في صفوف الجمهورية يتألفون من الكاثوليك ان الجمهورية قد ضمنت حرية الدين ، على عكس هتلر في المانيا ، غير انها كانت تريد ان تحدّ من قوة اصحاب المصالح والأراضي والمشرفين على التعليم في الكنيسة . لقد كانت الثورة موجهة ضد الديمقراطية عندما خشي الرجعيون ان تهاجم الديمقراطية اقطاعهم ورجعيتهم وتضع حداً لها. وعندما يحدث ذلك فان الرجعيون لايكلفون أنفسهم عناء تطبيق المبادىء الديمقراطية او اقناع الناخبين بآرائهم ، بل انهم يحملون السلاح ويحاولون فرض ارادتهم على جماهير الشعب بالعنف والارهاب .

وجد الثوار الاسبانيون المؤلفون من العسكريين ورجال الكنيسة اكبر سند لهم في الدولتين الفاشيتين المانيا وايطاليا اللتين ارادتا السيطرة على اسبانيا حتى تستطيعا ان تسيطرا على البحر الابيض المتوسط وان تنشئا قواعد بحرية لهما فيه . وهكذا ترين ان الحرب الاسبانية لم تكن حرباً اهلية بالمعنى الصحيح ، وانما كانت حرباً سياسية اوربية لشلّ فرنسا واضعاف انجلترا وتثبيت سيادة الفاشية في اوربا . ومع ان مصالح المانيا كانت تناقض مصالح ايطاليا إلا انهما اتفقتا موقتاً ريثما تنتهي الدولتان من عدوهما المشترك .

واذا اصبحت اسبانيا فاشية فانها ستقضي على فرنسا وتهدد طرق بريطانيا البحرية إلى الشرق وعن طريق رأس الرجاء الصالح ، وعندها يصبح كل من جبل طارق وقنال السويس عديم الفائدة . وهكذا نرى انه لو ارادت انجلترا وفرنسا ان تراعيا مصالحها فقط، بغض النظر عن حبها او كراهيتها للديمقراطية، فانها يجب ان يقدما كل مساعدة ممكنة للحكومة الاسبانية لإخضاع الثورة . ولكننا نرى هنا ان مصالح طبقة معينة تتحكم في الحكومات حتى ولو كان ذلك على حساب مصلحة البلاد . واخترعت الحكومة البريطانية خطة بعدم التدخل تعتبر اكبر بدعة شهدها العصر الحديث . وكانت كل من المانيا وايطاليا عضواً في لجنة عدم التدخل هذه غير انهما كانتا تساعدان الثوار علناً وتعترفان بأنهم هم الحكومة الشرعية . فجيوشهما تحارب في صفوف فرانكو وطياروهما يضربون

المدن الاسبانية بالقنابل . فكانت خطة عدم التدخل تعني بالحقيقة تقديم المساعدة لجبهة واحدة هي جبهة الثوار . وقامت الحكومــة الفرنسية بالاضافة الى ذلك ، وبتحريض من الانجليز باغلاق حدودها عند جبال البرانيس حتى توقف كل مساعدة يمكن ان تصل لحكومة الجمهورية .

وقد اغرقت طائرات فرانكو السفن الانجلــيزية التي كانت تحمل المؤن لحكومة الجمهورية ، ومع ذلك فقد وقف رئيس الوزراء البريطاني المستر تشمبرلن يدافع عن اعمال فرانكو هذه. فتصوري لأية درجة وصلت الحكومة البريطانية في خوفها من انتشار الديمقراطية . وقبل ايام قليلة عقدت اتفاقية مع ايطاليــا، وبذلك خطت خطوة اخرى نحو الاعتراف بفرانكو وباطلاق يـد ايطاليا في التدخل حسب مشيئتها في اسبانيا . والحقيقة انـه لو اعتمدت الجمهورية الاسبانية على بريطانيا وفرنسا وسمعت نصائحها لماتت منذ امد بعيد . غير ان الشعب الاسباني رفض ان يخضع للفاشية رغم سياسة بريطانيا وفرنسا ، واصبح كفاحـه من اجل الاستقلال ضد الغزاة الاجانب ضرباً من اساطير البطولة اذهل العالم كله بما ابداه من شجاعة وصبر . وكانت الغارات الجوية التي شنتها الطائرات الايطالية والالمانية على المدن والقرى وسكانها الآمنين من افظع الاعمال البربرية .

استطاعت الجمهورية خـلال السنتين الماضيتين ان تدرب جيشاً لا بأس به وتستغني عن خدمات جميع المتطوعين الاجانب . وفي الوقت الذي يحتل فيـه فرانكو ما يقرب من ثلاثة ارباع اسبانيا بعد ان قطع كلا من مدريد وفلنسيا عن كاتالونيا ، فان الجيش الجمهوري استطاع ان يوقفه عند حده واثبت مقدرته في المعركة العظيمة لإبرو التي استمرت عدة اشهر بصورة متواصلة . ومن الواضح ان فرانكو لن يستطيـع قهر هذا الجيش إلا اذا ساعدته قوى اجنبية كبيرة .

أما اعظم المشاكل التي تواجهها الجمهورية الآن فهي قلة الطعــام وخصوصاً خلال اشهر الشتاء. فعلى كاهل الجمهورية يقع عبء تموين الجيش والسكان الموجودين في منطقتها ، يضاف اليهم ملايين اللاجئين الذين فروا من وجه فرانكو .

الصّين

لننتقل الآن من مأساة اسبانيا الى مأساة الصّين .

كانت اليابان تعتدي على منشوريا بصورة مستمرة ، وكانت بريطانيا تبارك هذه الاعتداءات ، حتى انها رفضت العرض الذي تقدمت به امريكا لتتعاون الدولتان لصد الاعتداء الياباني . فلماذا كانت بريطانيا تشجع اليابان بهذه الصورة وتزيد من قوة منافس خطير لهـا ؟ منذ اوائل القرن العشرين واليابان تتحول الى دولة استعمارية بتشجيع من الانجليز . كان الانجليز يقصدون من ذلك أول الأمر استخدامها ضد روسيا القيصرية ؛ وبعد الحرب العالمية (الاولى) كانت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي هما البلدان الوحيدان اللذان ينافسان انجلترا ، ولهذا عادت سياستها القديمة في تقوية اليابان الى سابق عهدها، مع ان اليابان نفسها تهدد المصالح البريطانية المهمة . وكان من جملة الاسباب التي دفعت امريكا للاعتراف بالاتحاد السوفييتي سنة ١٩٣٣ هو المنافسة بين امريكا واليابان .

ومنذ سنة ١٩٣٣ تشكلت في الصين حكومات عديدة ، فكانت الحكومة الوطنية التي يرئسها شان كاي شيك والتي كانت تعترف بها الدول الاجنبية، وكانت حكومة كانتون في الجنوب وتدعي انها تابعة للكومنتانج، وكانت منطقة سوفييتية كبيرة في الداخل ، يضاف اليها عدد من الزعماء شبه المستقلين ، وكانت اليابان تهاجم الصّين الى الشمال من بكين بصورة مستمرة، فبدلا من ان يصد شان كاي شيك الاعتداءات اليابانية ، وجه كل قوته في ارسال حملات عسكرية للقضاء على المناطق السوفييتية . وقد فشلت معظم هذه الحملات ، حتى انها عندما استطاعت احتلال المناطق نفسها ، تمكنت الجيوش الصينية السوفييتية من الفرار وتثبيت نفسها في الداخل . واصبحت قصة مسير الجيش الثامن بقيادة شوبه مسافة ٨٠٠٠ ميل عبر الصين اسطورة من اساطير الفنون الحربية .

وهكذا استمر الصراع سنة بعد سنة بالرغم من العروض الكثيرة التي تقدمت بها الصين السوفييتية لشان كاي شك للتعاون فيما بينهما ومواجهـة الاعتداءات

اليابانية. وفي سنة ١٩٣٧ قامت اليابان بهجوم عنيف جداً مما اضطر الفريقين المتنازعين الى الاتحاد ومقاومتها، كما ان الصين اخذت تتقرب من الاتحاد السوفييتي فوقعت معه معاهدة عدم اعتداء في نوفمبر ١٩٣٧

لاقى اليابانيون في هجومهم مقاومة عنيفة ضارية ، فلجأوا لاقتراف مذابح كبيرة واستعمال اشنع الاساليب البربرية التي لا يمكن تصديقها لكسر شوكة الصينيين . وفي هذه الاثناء كانت الصين الجديدة تتمطى من نومها تريد الاستيقاظ، وتحولت مدن صينية عظيمة الى خرائب بفعل الغارات اليابانية وذُبحت اعداد كبيرة من الناس . وبدأ التوتر المالي والاقتصادي ينتاب اليابان . وبالطبع كان الشعب الهندي يعطف على الشعب الصيني كما كان يعطف على كفاح الجمهورية الاسبانية ، فقامت حركات شعبية كبيرة في الهند وامريكا وغيرهما من البلدان لمقاطعة البضائع اليابانية .

وبالرغم من ذلك ما زالت عجلة الحرب اليابانية مستمرة في تقدمها في اراضي الصين، ولجأ الشعب الصيني لحرب العصابات واوقع بالمعتدين خسائر جسيمة. واحتل اليابانيون شنغهاي ونانكين، وعندما اقتربوا من كانتون وهانكو اشعل الصينيون فيها النار ، وجاء الجيش الياباني واحتل ما تبقى من رماد ، كما احتل نابليون من قبلهم موسكو ان مقاومة الصينيين ما زالت مستمرة وهي تزداد عنفاً كلما زادت مصائبهم شدة .

النمسا :

لنرجع الآن الى اوربا ونتابع قصة النمسا الى نهايتها المؤلمة . كانت هذه الجمهورية الصغيرة مفلسة ومنقسمة على نفسها ، تضغط عليها المانيا النازية من جانب وايطاليا الفاشية من الجانب الآخر. ومع ان بلدية فيننا كانت اشتراكية تقدمية ، الا ان البلاد بأمرها كانت ترزح تحت حكم ديني فاشستي برئاسة المستشار دولفوس الذي اتكل على موسوليني ليحميه من اعتداء النازيين . فارسلت له ايطاليا اسلحة كثيرة ، مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرسايل ونصحه موسوليني بأن

يقضي على الاشتراكيين . وعملاً بهذه النصيحة قرر دولفوس نزع الاسلحة من عمال فينا الاشتراكيين، مما ادّى الى نشوب ثورة معاكسة في فبراير ١٩٣٤. واستمر القتال في فينا اربعة اعوام متوالية نسفت فيها بيوت العمال المعروفين. وانتصر دولفوس ولكنه دفع ثمن هذا النصر غالياً الا وهو القضاء على المنظمة الوحيدة القوية القادرة على مقاومة الاعتداءات الخارجية .

وفي هذه الاثناء كانت المؤامرات والدسائس النازية على قدم وساق، فاغتيل دولفوس في يونيو ١٩٣٤ من قبل النازيين في فينا . وكانوا يرمون من وراء هذا الاغتيال الى تمهيد الطريق لدخول الجيش النازي ، وكان هتلر على وشك ارسال جنوده عبر الحدود عندما تلقى تحذيراً من موسوليني بأنه سيرسل جيشه هو الآخر للدفاع عن النمسا في وجه الالمان . فلم يكن موسوليني يحب ان تبتلع المانيا النمسا ، وبذلك تتوسع الحدود الالمانية لتصل الى ايطاليا . وعندها صرح هتلر بصورة رسمية في سنة ١٩٣٥ انه لا ينوي ضم النمسا اليه او اعلان اتحادها مع المانيا.

ولكن الحرب التي شنتها ايطاليا على الحبشة قد اضعفتها ، ولما زاد الاحتكاك بينها وبين كل من بريطانيا وفرنسا اضطر موسوليني الى الاتفاق مع هتلر . فاصبح هتلر بذلك حراً يفعل ما يشاء في النمسا ، فزاد نشاط النازيين فيها وفي اوائل سنة ١٩٣٨ صرح تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية بان انجلترا لن تتدخل لانقاذ النمسا . تتابعت الحوادث بسرعة : فلما قرر المستشار النمساوي شوشنج اجراء استفتاء في البلاد ، اعترض عليه هتلر واتبع الاعتراض بغزو النمسا في مارس ١٩٣٨ ، فلم يجد اية مقاومة واعلن ضمها الى المانيا . وهكذا زالت هذه البلاد من الخارطة بعد ان كانت مهداً لامبراطورية عظيمة . اما مستشارها الاخير شوشنج فقد اعتبر اسير حرب وهُدد بأنه سيحاكم اذا لم يستجب لرغبات الالمان ، وهو مازال اسيراً عندهم .

كان مجيء الالمان النازيين إلى النمسا بمثابة اطلاق اشارة القيام بحملة ارهابية ضخمة ضد الشعب لم يسبق لها مثيل حتى في اوائل الحكم النازي في المانيا نفسها كان اليهود هم اكثر من عانى من هذا الارهاب وما زالوا يعانون منه . وتجدين

الآن مدينة فينا التي كانت في يوم من الايام من اجمل البلدان تحت سيطرة البربرية والرعب والفزع .

تشيكوسلوفاكيا :

ذهلت اوربا عندما رأت انتصار النازيين في النمسا، ولكن تشيكوسلوفاكيا كانت اكثر بلاد اوروبا ذهولاً ، إذ انها اصبحت الآن محاطة من ثلاث جهات بألمانيا النازية ؛ فاعتقد كثير من الناس ان دور غزو هذه البلاد قد آن اوانه ، وخصوصاً عندما بدأ النازيون في حبك المؤامرات واثارة الاضطرابات في مناطق الحدود حسب الخطة الفاشية التقليدية .

كان السكان في مقاطعة السّوديت ، وهي التي كانت تدعى في السابق بوهيميا يتكلمون الالمانية ، اللغة التي كانت سائدة في الامبراطورية النمساوية – المجرية. فلم يكونوا يحبون الدولة التشيكية ، وانما ارادوا ان ينفصلوا عنها ويشكلوا قسماً خاصاً بهم ؛ ولكنهم بنفس الوقت لم يرغبوا في الانضمام إلى المانيا ، إذ ان فيهم المانا كثيرين كانوا يعارضون النظام النازي معارضة شديدة. ولم تكن بوهيميا في يوم من الايام قسماً من المانيا . فلما اختفت النمسا من الخارطة ، توقع الناس ان يغزو هتلر تشيكوسلوفاكيا ، ولذلك اخذ كثيرون منهم بالانضمام الى الحزب النازي خوفاً من نتيجة بقائهم خارج صفوفه وتأميناً لحياتهم

كان مركز تشيكوسلوفاكيا من الناحية الدولية قوياً جداً ، فقد كانت دولة صناعية متقدمة وتملك جيشاً قوياً مدرباً ، وترتبط بمحالفات مع فرنسا والاتحاد السوفييتي ، كما كان المفروض في انجلترا ان تقف إلى جانبها في حالة دخولها في نزاع مسلح .. ولما كانت هي الدولة الوحيدة الباقية في وسط اوربا ، فانها كانت موضع عطف الديمقراطيين في جميع انحاء العالم بما فيهم امريكا . ولم يكن هنالك من شك في انه اذا وقعت الحرب وتكتلت القوى الديمقراطية ستصاب الدولة الفاشية بهزيمة منكرة .

اما المشكلة التي اتخذت ذريعة للتدخل فهي مسألة الاقليات في السّوديت ، وكان من الضروري عمل شيء لمعالجة شكواهم هناك . ومع ان الاقليات في

تشيكوسلوفاكيا كانت تعامل احسن من اية اقليات اخرى في وسط اوربا إلا ان المسألة بالحقيقة لم تكن مسألة أقليات ، انما كانت المســألة هي رغبة هتلر في الاستيلاء على جنوبي شرق اوربا وفرض ارادته عليها بالعنف والتهديد .

وقد بذلت الحكومة التشيكية كل مجهود في سبيل حل مشكلة الاقليات ، وقبلت كل الطلبات التي قدمت لها ، ولكنها كانت لا تكاد تلبي طلباً ما حتى يتقدم لها طلب جديد فيه افتئات على الحكومة ، حتى اصبح كيان الدولة نفسها في خطر . وكان واضحاً ايضاً ان هدف هتلرهوالقضاء على هذه الدولة الديمقراطية التي كانت بمثابة شوكة في ظهره . أما السياسة الانجليزية فقد شجعت هتلر في عدوانه على تشيكوسلوفاكيا متظاهرة انها انما تسعى الى ايجاد حل سلمي . ولذلك ارسلت الحكومة البريطانية اللورد رنسمان إلى براغ « كوسيط » ولكنه في الواقع كان يضغط بصورة مستمرة على الحكومة التشيكية لقبول طلبات النــازيين . واخيراً قبل التشيكيون اقتراحات اللورد رنسمان برغم ضررها الكبير لهم ؛ ولكنهم ما كادوا يقبلونها حتى طلب منهم النازيون طلبات جديدة ، ولم يكتفوا بذلك بل اعلنوا التعبئة العامة . وعندئذ ذهب المستر تشمبرلين بنفسه وقابل هتلر في برختسجادن وهناك قبل انذاره الذي طلب به تسليم مساحـــات واسعة من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا . وعندها انذرت انجلترا وفرنسا صديقتها وحليفتها تشيكوسلوفاكيا بأن تقبل انـــذار وشروط هتلر وإلا تخليا عنها كلياً . ولما سمع الشعب التشيكي بهذه الخيانة اصيب بصدمة عنيفة اذهلتــه ، واضطرت الحكومــة ان تقبل الانذار ، والحزن والأسى يملآن كل نفس وعندها ذهب تشمبرلين مرة اخرى وقابل هتلر في جودسبرج على نهر الراين ، فوجد ان الدكتاتور يريد الآن اكثر مما اخذ . فلم يستطع تشمبرلين الموافقة على ذلك . وهكذا اقترب شبح الحرب وظلل سماء اوربا في اواخر سبتمبر ١٩٣٨ ، واخذ الناس يتسابقون لاقتناء الكمامات الواقية من الغازات السامة ، وحفر الخنادق في المتنزهات والجنائن خوفاً من الغـــارات الجوية . ثم ذهب المستر تشمبرلين مرة اخرى الى ميونخ وقابل هتلر وحضر الاجتماع ايضاً المسيو دلاديـه والسنيور

موسوليني . ولم تُدعَ روسيا لهذا الاجتماع مع انها كانت حليفة فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ؛ كما ان تشيكوسلوفاكيا نفسها وهي التي سيتقرر مصيرها في هذا الاجتماع لم تُدعَ ، حتى لم تُستشر . قُبلت جميع طلبات هتلر في هذا الاجتماع بعد ان هدّد المجتمعين بأن عدم قبولها يعني الحرب ، ووقعت الدول الاربع اتفاق ميونخ في ٢٩ سبتمبر .

استطاعت الدول بهذا الاتفاق ان تتجنب الحرب موقتاً وانتشرت بين السكان في جميع الاقطار شعور الطمأنينة والارتياح ولكن الثمن الذي دفع من اجل تجنب الحرب كان باهظاً ؛ العار والشنار اللذين لحقا بانجلترا وفرنسا ، وضربة قاصمة للديمقراطية في اوربا وتمزيق تشيكوسلوفاكيا ، وانهاء عصبة الامم كأداة لحفظ السلم ؛ وانتصار النازيين المدوّي في وسط وجنوبي شرق اوربا . ولم يكن الذي اشتريَ بهذا الثمن سلماً حقيقياً ، انما كان هدنة استغلتها جميع الدول واخذت تعد نفسها لحرب طاحنة .

كان اتفاق ميونخ نقطة تحول في تاريخ اوربا والعالم اجمع . اذ اعيد رسم خارطة اوربا من جديد وتبين للعيان ان الحكومتين الانجليزية والفرنسية قد انضمتا الى جبهة النازية والفاشية . فأسرعت بريطانيا بالتصديق على المعاهدة الانجليزية الايطالية التي بموجبها اعترفت بغزو ايطاليا للحبشة وباطلاق يدها في اسبانيا. وبدأ ميثاق رباعي بين انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا في الظهور الى حيز الوجود لتشكل هذه الدول جبهة واحدة ضد روسيا وضد القوى الديمقراطية في اسبانيا وغيرها من البلدان .

روسيا

مما يلفت النظر انه خلال كل هذه السنوات الممتلئة بالمؤامرات ونقض الدول الكبرى للعهود والمواثيق ، بقي الاتحاد السوفيتي يحترم التزاماته الدولية وينفذها ويقف مدافعاً عن السلم ومحارباً العدوان ، ولم يتخلَّ عن حليفته تشيكوسلوفاكيا حتى النهاية ولكن انجلترا وفرنسا تجاهلتاه وتصادقتا مع المعتدين ؛ حتى تشيكوسلوفاكيا نفسها وقعت في منطقة النفوذ النازي وانهت تحالفها مع الاتحاد

السوفيتي بعد ان خانتها انجلترا وفرنسا . وقد استغلت الدول الاخرى فرصة تقسيم تشيكوسلوفاكيا فانقضت المجر وبولندا كالكلاب الجائعة واقتطعت كل منها قطعة لها يضاف الى ذلك ان حدثت تغييرات كثيرة اخرى ، فاخذت تشيكوسلوفاكيا تطالب بانفصالها عن البلاد ، واصبحت بقايا تسيكوسلوفاكيا الآن بمثابة مستعمرة المانية .

وهكذا اصيبت سياسة الاتحاد السوفيتي بصدمة عنيفة ، ومع ذلك ما زال الدولة الوحيدة القوية في اوربا وآسيا في هذه الايام التي تستطيع ان تمنع بالقوة انتشار الفاشية والمبادىء التي تتنافى مع الديمقراطية . فروسيا اليوم هي دولة بالرغم من تجاهل انجلترا وفرنسا لها خلال الاشهر القريبة الماضية . وقد لاقى مشروع الخمس سنوات نجاحاً اجمالياً بالرغم من فشله في بعض الفروع وخصوصاً فيما يتعلق بنوع البضائع المنتجة . لم يكن عند السوفييت ميكانيكيون مدربون ، ولهذا فشل مشروعهم المتعلق بالنقليات . وقد ادى تركيز اهتمامهم على الصناعة الثقيلة الى نقص في البضائع الاستهلاكية وتخفيض في مستوى المعيشة . ولكن مشروع الخمس سنوات قد ارسى اساس التقدم في المستقبل بتصنيع روسيا تصنيعاً سريعاً وتسيير زراعتها اجماعياً . وكان مشروع الخمس سنوات الثاني (١٩٣٣ — ١٩٣٧) يهدف الى نقل اهتمامهم من الصناعة الثقيلة الى الخفيفة والى التخلص من الاخطاء التي ارتكبت في المشروع الاول والى انتاج بضائع استهلاكية . فاحرزوا في هذا المضمار تقدماً باهراً ، وارتفع مستوى المعيشة وما زال في ارتفاع مستمر . اما من الناحيتين الثقافية والتعليمية فقد كان تقدمها في الاتحاد السوفيتي رائعاً حقاً ، ولما كان الاتحاد السوفيتي راغباً في التقدم وتثبيت دعائم الاقتصاد الاشتراكي فقد اتبع بصورة مستمرة سياسة سلمية في جميع الشؤون الدولية ، ووقف في عصبة الامم يطالب بتخفيض التسلح واقامة الأمن الجماعي والعمل المشترك ضد اي اعتداء . ثم حاول ان يعايش الدول الرأسمالية الكبرى ، فبدأت الاحزاب الشيوعية في الانضمام الى الاحزاب التقدمية الاخرى وتكوين جبهات شعبية معها.

وبالرغم من هذا التقدم في جميع الميادين الذي احرزه الاتحاد السوفيتي ، فانه

مرّ بأزمة داخلية عنيفة خلال هذه الفترة . لقد حدثتك في السابق عن النزاع القائم بين ستالين وتروتسكي . ونتج عن هذا النزاع ان بعض العناصر لم تعجبها الحكومة الحالية ، فأخذت تتقرب لبعضها حتى قيل انها تآمرت مع الدول الفاشية . وقد قيل ايضاً ان باجودا وهو رئيس قلم الاستخبارات السوفييتي اشترك مع هذه العناصر في مؤامراتها . وفي ديسمبر ١٩٣٤ اغتيل كيروف وهو احد اعضاء الحكومة السوفييتية البارزين . فاتخذت الحكومة اجراءات شديدة ضد خصومها ، وقامت في سنة ١٩٣٧ بسلسلة محاكمات كانت موضع الجدل والمناقشة في جميع انحاء العالم ، لأنها كانت تضم شخصيات هامة ومشهورة ؛ ومن جملة هؤلاء الذين حوكموا وحكم عليهم الاشخاص الموالون لتروتسكي والزعماء اليمينيون (ريكوف وتومسكي وبخارين) وبعض كبار ضباط الجيش وعلى رأسهم المارشال توشاشفسكي.

انه من الصعب تكوين رأي واضح عن هذه المحاكمات وتلك الاحداث التي أدت اليها ، لأن الوقائع معقدة وغامضة . ولكن مما لا شك فيه انها اقضت مضاجع كثير من الناس بما فيهم اصدقاء روسيا ، وزادت من تحاملهم عليها . غير ان المراقبين يعتقدون ان مؤامرة كبيرة ضد حكومة ستالين كانت موجودة فعلاً . وان هذه المحاكمات لها ما يبررها كما يظهر ايضاً انه لم يسند المتآمرين عدد كبير من الناس بل بالعكس كان شعور الشعب ضد خصوم ستالين . ومع كل ذلك فان الكبت الذي لابد وان اصاب بعض الابرياء علامة من علامات المرض. ومما لا شك فيه انه اضرّ بمركز السوفييت الدولي .

الانتعاش الاقتصادي :

اخذت الازمة الاقتصادية التي بدأت في سنة ١٩٣٠ وشلت العالم الرأسمالي عدة سنوات تظهر علامات التحسن . فانتعشت معظم البلدان قليلاً ، وعلى الأخص انجلترا ، لأن تخفيض سعر الجنيه واقامة الحواجز الجمركية واستغلال اسواق الامبراطورية ومواردها قد ساعدت كثيراً . وقد انتعش السوق المحلي فيها بعد ان زيدت الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة وقدمت الحكومة مساعداتها

الصناعات وأدخلت اصلاحات زراعية وتشكلت منظمات لتقليل المنافسة فيما بينها، ثم حاول الانجليز تخطيط الانتاج وتوزيعه على نطاق واسع ، كما انهم ضغطوا على الدانيمارك والبلاد الاسكندنافية لشراء البضائع البريطانية .

كان هذا الانتعاش على حساب الاضرار بالتجارة الدولية . ولذلك فإنه يعتبر انتعاشاً جزئياً ، لأن الانتعاش الحقيقي يعتمد على التجارة الدولية ويجب ايضاً ان تذكري بهذه المناسبة ان بريطانيا لم تسدد ديونها لأمريكا ولا تنوي تسديدها في المستقبل . ويعود بعض الفضل في الانتعاش الاقتصادي الى برنامج التسليح الضخم الذي اخذت الدول المختلفة في تطبيقه. ولذلك فاننا نرى ان هذا الانتعاش متقلقل غير مأمون ، وخصوصاً ان البطالة ما زالت منتشرة على نطاق واسع .

الامبراطورية البريطانية

في الوقت الذي تبدي فيه انجلترا بعض الانتعاش من الازمة الاقتصادية نحس بأن الامبراطورية البريطانية تعاني امراضاً شديدة ، وان القوى السياسية والاقتصادية التي تحاول القضاء عليها في نمو مستمر . حتى ان حكامها انفسهم قد فقدوا كل ثقة وامل في بقاء الامبراطورية . انهم لا يستطيعون حل مشاكلهم الداخلية ؛ فالهند المصممة على نيل استقلالها تزيد قوة يوماً بعد يوم ، وفلسطين الصغيرة تهزّهم هزاً عنيفاً ، وامريكا اكبر منافس لانجلترا في العالم الرأسمالي ، اصبحت تتحدى السيادة البريطانية وتنساق في التيار الذي يبعدها عن انجلترا، وخصوصاً عندما بدأت الحكومة البريطانية تميل نحو الدولة الفاشية . والاتحاد السوفييتي يبني بنجاح الاشتراكية التي تعارض كل استعمار . والمانيا وايطاليا تنظران شذراً الى الامبراطورية البريطانية تريدان اقتطاع ما تستطيعان ، وقد شجعهما خضوع انجلترا لهما في ميونخ على اعتبارها دولة ثانوية وعلى مخاطبتها بلهجة مذلة مهينة . كانت انجلترا قادرة على تثبيت مركزها لو أيدت الديمقراطية ووافقت على الأمن الجماعي ، ولكنها تركت هذه الطريق وانضمت الى صف هتلر . والآن يجد الاستعمار الانجليزي نفسه في دوامة لا امل له في الخلاص منها ، والتي نشأت من المتناقضات العديدة التي جرتها عليها سياسة ميونخ .

المستعمرات :

تطالب المانية الآن ببعض المستعمرات ويقال لنا انها من الدول « الفقيرة » « غير القانعة » وما هو يا ترى موقف الدول الصغيرة التي ليست لها مستعمرات ؟ وما هو موقف الشعوب « الفقيرة » الحقيقية ، سكان هذه المستعمرات ؟ ان المسألة كلها ترتكز على استمرار النظام الاستعماري وعدمه . فقناعة دولة ما تعتمد في الحقيقة على السياسة الاقتصادية التي تتبعها تلك الدولة . ولن تكون هنالك اية قناعة في ظل النظام الاستعماري لانعدام المساواة . فروسيا القيصرية قبل الثورة كانت دولة « غير قانعة » تريد التوسع دائماً على حساب غيرها . أمـــا الآن فهي اصغر حجماً مما كانت ولكنها دولة « قانعة » لم تعد لها مطامع استعمارية ، وانما تتبع سياسة اقتصادية مختلفة .

فألمانيا تريد المستعمرات لا لأنها لا تجد المواد الخام أو ما اشبه ذلك ، فالسوق مفتوح امامها لتشتري ما تشاء ، ولكنها تريد المستعمرات لتشغيل شعوبها لمنفعتها هي . انها تريد ان تدفع لهم عملتها المخفّضة اي الماركات « المجمّدة » ، ثم تجبرهم على شراء بضائع المانية بها .

لقد كتبت لك عن بعض الحوادث الرئيسية التي جرت خلال الخمس سنوات الماضية والنتائج التي تمخضت عنهــا . ولا ادري في الواقع اين اقف الآن ، لانني انظر حولي فأرى الفوضى والاضطراب في كل مكان ، واصبح لا مناص للعــالم من حل مشاكله الا على صعيد دولي بدلاً من الصعيد الاقليمي الضيق . ان حلّ هذه المشكلة اصبح ضرورة ملحّــة . وبنفس الوقت تزداد هذه المشاكل سوءاً يوماً بعد يوم ، واصبح شبح الحرب يسيطر على العالم . فأوروبا التي تفتخر بزعامتها للعالم المتحضّر تعود بالتدرج الى عصر البربرية ، والطبقات الحاكمة فيها اعجز من ان تجد حلولاً للصعاب التي تحيط بها

قلب اتفاق ميونيخ توازن القوى في العالم ، وبــدأت مناطق جنوبي شرقي اوروبا تخضع للنازيين وازداد نشاط هؤلاء وكثرت مؤامراتهم في كل الاقطار . ولما رأت الدول الاوروبية الصغيرة المـــدعوة بمجموعة اوسلو وهي (الدنيمارك

والنرويج والسويد وفنلندا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج) ان صداقة بريطانيا لا تعني شيئاً، اعلنت حيادها ورفضت ان تتحمل اية مسؤولية مشتركة . وزادت اليابان اعتداءاتها في الشرق فاحتلت كانتون وبدأت تصارع المصالح البريطانية في هونج كونج . وساءت الحالة كثيراً في فلسطين ، وفترت العلاقات كثيراً بين انجلترا وامريكا . وفي الوقت الذي كان فيه تشمبرلن يؤيد الدول الفاشية ، كان الرئيس روزفلت يهاجم المبادىء النازية وأساليبها . وأثار الصراع الاوروبي وموقف بريطانيا وفرنسا من الاعتداءات الفاشية الاشمئزاز في امريكا فلم تعد تتدخل في الشؤون الاوربية ، وبدأت تستعد لتسليح نفسها على نطاق واسع وفعل الاتحاد السوفييتي نفس الشيء عندما شعر ان سياسة المحالفات والمواثيق مع الدول الغربية لم تنجح ، فخاف ان يُجبر على الانعزال . ومع ذلك فإن كلاً من امريكا وروسيا تعرفان انه لا يوجد انعزال او حياد في هذا العالم المتلاطم الامواج ، وانه اذا حدثت الحرب فانها ستدخلانها . ولهذا بدآ في الاستعداد .

امريكا :

لاقت سياسة الرئيس روزفلت الداخلية في الولايات المتحدة بعض العقبات التي وضعتها في الطريق المحكمة العليا والعناصر الرجعية وقد دلت الانتخابات الاخيرة على ازدياد قوة خصومه الجمهوريين في الكونغرس . ومع ذلك فما زالت شعبية روزفلت قوية وتأثيره على الشعب كبيراً . ثم اتبع روزفلت سياسة انماء العلاقات الودية مع حكومات امريكا الجنوبية . وحدث نزاع في المكسيك بين الحكومة واصحاب المصالح البترولية الامريكيين والانجليز . وحدث انقلاب كبير فيها ثبّت فيه الشعب حقوقه بامتلاك اراضيه . وقد خسرت الكنيسة واصحاب المصالح البترولية كثيراً من امتيازاتهم وحقوقهم . ولذلك فقد وقفوا موقف المعارض من كل اصلاح

تركيا :

تظهر تركيا في هذا العالم المتصارع بأنها الدولة الوحيدة التي ليس لها اعداء . فقد سوّت نزاعها القديم مع اليونان ودول البلقان ،وحسّنت علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي وانجلترا . غير انها كانت تنازع فرنسا على لواء الاسكندرونة الذي حدثتك عنه في السابق وهو احدى الدويلات الخمس التي قسمتها فرنسا في سوريا. ويسكن لواء الاسكندرونة اكثرية عربية ، فقبل الفرنسيون وجهـة النظر التركية ، وخلقوا هناك دويلة منفصلة .

وهكذا نرى ان تركيا استطاعت بقيادة كمال اتاتورك الحكيمة ان تخلص نفسها من المشاكل الخارجية وتكرّس كل جهودها للاصلاحات الداخلية . لقـد خدم اتاتورك بلاده باخلاص وتوفي في ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ بعد ان تأكد انجهوداته قد اثمرت ونجحت . وخلفه في الرئاسة زميله القديم الجنرال عصمت اينونو .

الاسلام :

وجه كمال اتاتورك الطاقة الكامنة في الاسلام وجهة جديدة . فألبس الشعب الألبسة الحديثة ونفض عنه غبار القرون الوسطى واظهر البلاد بالمظهر العصري. وقد اثر اتاتورك كثيراً على اقطار الشرق الاوسط الاسلاميـــة ، فنشأت دول حديثة ترتكز على القومية بعد ان كانت ترتكز في السابق على الدين . ولم يظهر هذا الامر بوضوح في البلاد الأخرى كالهند مثلاً ، لأن سكانها المسلمين مع غيرهم واقعون تحت نير الاستعمار .

الصراع في هذا العالم :

تشكل كل من اوربا والمحيط المادي مسرحاً للصراع في هذا العالم ، وفي كلا هذين المسرحين تقوم فاشية معتدية تريد القضاء على الديمقراطية والحرية كما تريـد السيطرة على العالم. ونما ، تبعاً لذلك ، نوع من الفاشية الدولية التي لا تثير الحروب علناً فحسب بل تتآمر بصورة مستمرة في البـلاد الأخرى وتخلق الاضطرابات

وتتعين الفرص للتدخل . ويصاحب ذلك تمجيد على الحرب والعنف ودعاية كاذبة على نطاق لم يسبق له مثيل . وتحاول الفاشية - تحت ستار معاداتها للشيوعية - استعمار ما تقدر عليه من بلدان، مع العلم ان الشيوعية الدولية لم يظهر عليها ابداً انها تريد الاعتداء ، بل على العكس كانت دائماً الى جانب السلام العالمي والديمقراطية لعدة سنوات . وقد اكتشفت مؤامرة نازية في الولايات المتحدة الامريكية وجرت محاكمات لها . وفي فرنسا اكتشفت مؤامرة سنة ١٩٣٧ ضد الجمهورية نظمها الكاجولاردس بمساعدة اسلحة تسلمها من المانيا وايطاليا . فقام المتآمرون بالقاء القنابل والاغتيالات . وفي انجلترا شكلت منظمة فاشية تتمتع بنفوذ كبير في توجيه السياسة الانجليزية الخارجية .

ان الفاشية الدولية ليست استعماراً في أشنع صوره فحسب ، وانما تزيد عنه في انها تشجع المنازعات الدينية والطائفية كما كان يحدث في العصور الوسطى . ففي المانيا اخذت الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية . واصبحت فكرة الجنس في ايطاليا والمانيا تمجّد ، وكانت نتيجة هذا التمجيد القضاء على اليهود بوحشية تقشعر لها الابدان . وفي اوائل نوفمبر ١٩٣٨ فقد يهودي بولندي اعصابه عندما رأى اضطهاد بني ملته بهذا الشكل ، فاغتال دبلوماسياً المانياً في باريس . كان هذا العمل عملاً فردياً ، ولكن الحكومة الالمانية قامت بعده مباشرة بحملة ارهابية رسمية منظمة في المانيا ضد كل السكان اليهود . فحرقوا كل معبد من معابدهم وحطموا محلاتهم التجارية ونهبوها. وهاجموا النساء والرجال في الشوارع وداخل بيوتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا غرامة قدرها ٨٠ مليون جنيه على جميع اليهود في المانيا

كثرت حوادث الانتحار وبدأ الناس في الهرب جماعات ووحداناً يملأ صدورهم الحقد والحزن ويسيرون في مواكب لا نهاية لها - ولكن الى اين ؟ العالم يمتلىء باللاجئين هذه الايام - يهود ديمقراطيون اشتراكيون المان من السوديت ، ومزارعون اسبانيون من المناطق التي يحتلها فرانكو وصينيون وحبشيون . ان هؤلاء اللاجئين هم الثمرات المرة للنازية والفاشية . فالعالم اليوم يمتلىء بالرعب

والفزع ، وقد شكلت منظمات كثيرة للعناية باللاجئين . ومع كل ذلك فان السياسة التي تتبعها كل دولة من انجلترا وفرنسا مماثلة لألمانيا النازية وايطاليا الفاشية ، وهكذا فانها تشجعان الارهاب الفاشي وهدم المدنية وطرد مئات الألوف من بيوتهم ليصبحوا لاجئين لا مأوى لهم . فاذا كانت هذه هي مبادىء الدول الفاشية « فلن يكون هنالك اي تحالف مع المانيا ..» كما قال غاندي « وإلا كيف يتم التحالف بين دولة اخذت على نفسها مناصرة العدل والديمقراطية وبين دولة اعلنت عداءها لها ؟ أو ان انجلترا تنحرف الآن نحو الدكتاتورية العسكرية وكل ما تعني هذه الدكتاتورية من شرور ؟ »

فاذا كانت انجلترا وفرنسا نفسها تنتحلان الأعذار للدول الفاشية وتدافعان عنها ، فلا عجب ان تتقلّص الدول الصغيرة في وسط وجنوبي شرق اوروبا وتقع في احضان النازيين . وتتحول هذه الدول الآن بسرعة إلى دول فاشية تابعة لألمانيا . أما ايطاليا فقد اصبحت شريكاً صغيراً بعد ان بزّتها المانيا في مناوراتها السياسية . وتطالب كل من المانيا وايطاليا بتوسع استعماري ، وحلم المانيا الحقيقي هو التوسع نحو الشرق .. نحو أوكرانيا والاتحاد السوفييتي . ولا بد ان انجلترا وفرنسا تشجعانها على تحقيق هذا الحلم على أمل صرف نظرها عن مستعمراتهما .

تقف الآن في العالم دولتان كبيرتان – هما الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية وهما اقوى دول العالم الحديث ، فكل منهما وصلت الى حد الاكتفاء الذاتي داخل حدودها ؛ وكل منهما قوية لا يمكن قهرها . وهما تعارضان الفاشية والنازية ولكن الاسباب مختلفة . فالاتحاد السوفييتي يقف في اوروبا الحاجز المنيع الأوحد في وجه الفاشية ، فاذا هُزم فإن ذلك يعني نهاية الديمقراطية في اوروبا بما في ذلك فرنسا وانجلترا . اما الولايات المتحدة فهي بعيدة جداً عن اوروبا ولا تستطيع ان تتدخل في شؤونها كما لا ترغب في ذلك ولكن اذا حصل هذا التدخل سواء في اوروبا او في المحيط الهادي فان امريكا تستطيع ان تكشف عن قوتها الضخمة .

تقف الى جانب الحرية الدول الديمقراطية النامية مثل الهند والشرق . وتتفوق بعض اقطار رابطة الشعوب البريطانية على الحكومة البريطانية في هذا المضمار . ان

الديموقراطية والحرية تواجهان اخطاراً كبيرة هذه الايام ، وتزداد هذه الاخطار لأن اولئك الذين يدعون الاخلاص لها يطعنونها من الخلف . وقد ضربت كل من اسبانيا والصين المثل الأعلى في حب الديمقراطية . ونشأت من خلال اهوال الحرب في كل منها امة جديدة أخذت على عاتقها النهوض بالبلاد في مختلف الميادين.

لقد غُزيت الحبشة في سنة ١٩٢٥ وهوجمت اسبانيا في سنة ١٩٣٦ وهوجمت الصين من جديد في سنة ١٩٣٧ ، وغُزيت النمسا ومسحت من خارطة اوربا في سنة ١٩٣٨ ، وانقسمت تشيكوسلوفاكيا وتناهبها الشرهون .. وكل سنة تجلب معها شقاء جديداً . فما الذي سيحدث في سنة ١٩٢٩ التي نقف على اعتابها اليوم؟ ما الذي ستجلبه لنا وللعالم ؟

فهرس



الثَّمَن: ٢٥ ل.ل.